النجاة في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

للشيخ

ماضى ابى العزائم

رضي الله عنه

الجزء التاسع

المكتبة الصوفية الشاملة

النجاة ٩

في

سيرة رسول الله

صلى الله عليه وسلم

للإمام المجدد

السيد محمد ماضى أبى العزائم

وقيل: نجا معه اثنان أو أكثر فعاونوه فى الذهاب إلى المدينة ﷺ.

الشهادة عز والأسر ذل

أعمال أصحاب رسول الله ﷺ هى الحجة التى تجب على كل مسلم أن يقتدى بها، ولا يشك عاقل فى أن قبيلة من أكبر قبائل العرب لا يقل عدد مقاتلتها عن ألف، وهم فى بلدهم ومحل قوتهم ومنعتهم، والصحابة ﷺ خمسون قدموا من سفر فادح وليس لهم قوة إلا الله، ولاركن يركنون إليه إلا الله، مع ما لهم فيه من تعب السفر والقلة والغربة، ولكن اليقين الحق جعلهم ينفذون أمر رسول الله ﷺ كائنا ما كان فثبتوا ﷺ، ورضوا بما عند الله، وتعجلوا الإقبال عليه سبحانه ومجاورته تعالى فى فردوسه الأعلى.

بذلوا تلك النفوس الغالية معتقدين أنها لا بد أن تفاض على ظبى السيوف، ولم يمنعهم هذا الاعتقاد فى بذلها فى سبيل الله للفوز بما عنده. ثبت خمسون أمام قبيلة من أشهر قبائل العرب فروسية وشجاعة، قد أعدت لهم العدة من أيام، فنأخذ من فعلهم أن المؤمن الكامل لا يفر من عدوه الكافر، ولو أن المؤمن أمامه مائة من الكافرين. وكان يمكنهم ﷺ عندما رأوا تلك العدة التى لا قبل لهم بها أن يفروا، ولكن المؤمن ليس بفرار من سبيل الله. وأن يستسلموا فيؤسروا ثم يفديهم رسول الله ﷺ، ولكن المؤمن لا يرضى بالذل لغير الله، ولئن تفاض نفسه على حد السيف فى سبيل الله الحق أشهى إليه من أن يكون أسيرا فى يد كافر.

وقد تقرر أن الفرار يوم الزحف من الكبائر، لأن الفار من الزحف جاهل

بما أعده الله له، فإن المؤمن الذى آمن بالغيب تشرف نفسه الطاهرة الزكية على ملكوت الله الأعلى لكمال توحيده وتصديقه فيرى ما أعد الله للمجاهدين، فيكون القتل فى سبيل الله بغيته، وأعظم الوسائل التى ينال بها مقصده الأسمى. وهكذا المؤمن يجب أن يتشبه بأصحاب رسول الله ﷺ وليس بمؤمن من يحوله عن دينه رغبة فى مال، أو طمع فى منصب، وخوف من فقر، بل المؤمن لا يحوله عن الرغائب فضلا عن الفرائض ولا سفك دمه.

والله أسأل سبحانه أن يمنحنا اليقين الحق الذى يحفظنا به من أن نخاف غيره أو نرغب فى غيره سبحانه وتعالى .. إنه مجيب الدعاء.

سرية غالب بن عبد الله الليثى ﷺ إلى بنى الملوح بالكديد

والكديد بفتح الكاف وكسر الدال المهملة ماء بين عسفان وقديد، وكانت فى صفر سنة ثمانية.. روى ابن إسحق وغيره عن جندب بن مكيش الجهمى ﷺ قال: بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثى على سرية كنت فيها وأمره بشن الغارة على بنى الملوح بالكديد، فخرجنا حتى إذا كنا بقديد لقينا الحارث ابن مالك الليثى المعروف بابن البرصاء فأخذناه، فقال: إنى جئت أريد الإسلام وما خرجت إلا لرسول الله ﷺ، فقلنا له: إن تكن مسلما فلن يضرك رباط يوم وليلة، وأن تك غير ذلك كنا قد استوثقنا منك، فشددناه وثاقا، ثم خلفنا عليه رجلا من أصحابنا أسود، وقلنا له: إن غارك فاحتز رأسه، ثم سرنا حتى أتينا تلا مشرفا على الحاضر فاستندت فيه فعلوت على رأسه فنظرت إلى الحاضر، فو الله إنى لمنبطح على التل إذ خرج رجل من خبائه فقال لامرأته:

إنى لأرى على التل سواداً ما رأيته فى أول يومى، فانظرى إلى أوعيتـــك هـــل تفقدين شيئاً لا تكون الكلاب جرت بعضها؟ فنظرت وقالت: لا والله ما فقدت من أوعيتى شىء، قال: فناوليني قوس وسهمين فناولته، فأرسل سهماً فما أخطـأ بين عينى فنـــزعته وثبت مكانى، فأرسل الآخر فوضعه فى منكـــبى فنـــزعته ووضعته وثبت مكانى، فقال لامرأته: لو كان رئية لقوم لقد خالطه ســهماى لا أبالك إذا أصبحت فابتغيهما فخذيهما لا تمضغهما الماشية، ثم دخل، وأمــهلناهم حتى إذا اطمأنوا وناموا ــ وكانوا فى وجه السحر ــ فشنينا عليهم الغارة، فقتلنـا منهم واستقنا النعم، وخرج صريخ القوم فجاءنا قوم لا قبل لنا بهـــم، فمضينـــا بالنعم ومررنا بابن البرصاء وصاحبه واحتملنا هما معنا، وأدركنا القوم حتى قربوا منا فما بيننا وبينهم إلا وادى قديد، فأرسل الله الوادى بالسيل من حيث شـــاء تبارك وتعالى من غير سحابة نراها ولا مطر، فجاء بشىء ليس لأحد به قـــوة، ولا يقدر أحد أن يجاوزه، فوقفوا ينظرون إلينا وإنا لنسوق نعمهم لا يســـتطيع رجل منهم أن يمر إلينا، ونحن نحدوها سراعا حتى فتناهم فلم يقدروا على طلبنـا، فقدمنا على رسول الله ﷺ.

والحارث بن مالك هو ابن البرصاء وهى أمه، وقيل: أم أبيه، وهو صحـــابى ﷺ سكن مكة ثم المدينة وتوفى آخر خلافه معاوية رضى الله عنهما، له حديـث واحد وهو قوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الفتح: لا تغزى مكـــة بعـــد اليـــوم إلى يوم القيامة.

وقد وقع نظير ذلك، أى: سيل الوادى، لقطنة بن عامر حين توجه إلى بـــنى خثعم بناحية تبال.

العذاب أهون من المعصية

من هذه السرية نأخذ علم ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ من احتياط لدينهم ولأنفسهم، ومن التحفظ خشية من أن يخدعهم الناس، فإنهم ﷺ لما قدم عليهم الحارث بن البرصاء يظهر الإسلام وهم فى سير لعدوهم خشوا أن يكون تكلف الإسلام ليعلم ما هم عليه، ويفر إلى عدوهم ـ والحرب خدعة ـ فقبلوا منه ظاهره ووكلوا أمره إلى الله، ولكنهم احتاطوا لدينهم ولأنفسهم فتحفظوا عليه، فالحيطة من السنة التى يجب على كل مسلم أن يراعيها فى جميع شئونه، وقد يكون للرجل رأى ومذهب، أو أمل فى عمل للدين، فيأتى عدو له ويظهر له أنه من رأيه ومذهبه، فيستسلم له، ويخبره بما هو عليه من الرأى والمذهب، ويأمن له فيعلمه بالأمال التى يحب هو نيلها، ويسعى فى تنجيزها، فيكيد له ذلك العدو كيدا من حيث لا يحسب هو.

وعمل أصحاب رسول الله ﷺ يجب أن يكون نورا يهتدى به المؤمن فى سيره، هذا والمؤمن إذا كان على ثغر من ثغور الإسلام وتحقق أن تساهله يؤدى إلى ضياع من وراءه من المسلمين يجب عليه أن يثبت ولوقطعت أطرافه إرضاء لله ولرسوله، ومحافظة على من وراءه من إخوته المؤمنين، فإن الصحابى الذى وقف على التل ينظر ما عليه أعداؤهم ضرب النبل بين عينيه فخرق جبهته فلم يتحرك حركة، ولو تحرك حركة لصاح الرجل بالقوم واستأصل الصحابة ﷺ، ولعلك تعرف قدر الآلام التى تحصل للإنسان إذا شجت رأسه بنبل، ولكن لذته بحفظ من وراءه، وسروره بإعلاء كلمة الله أنسته الآلام الشديدة التى تصرع

أقوى الحيوانات، فضلا عن الإنسان، ثم رمى بسهم فى منكبه فلم يتحرك حتى كأنه جبل شامخ لا حياة له، ولعلك تعلم قدر الألم خصوصاً ألم من يعلم أنه هدف للسهام، لأنه ﷺ سمع كلام الرجل ورآه وهو يفوّق السهم إليه وتلقاه بعزم وصبر، حتى أن الرامى لم يحس منه بحركة فتحقق أنه جماد، ونام مطمئناً، والصحابى مع هذا ثابت فى مكانه كأنه فى روضة من رياض الجنة، آنس فرح بما قام به من الأعمال التى ترضى الله تعالى وترضى رسول الله ﷺ وتحفظ أخوته المؤمنين، وتبلغهم رغائبهم من عدوهم.. وهذه صفة كل مؤمن.

أنظر كيف نظر الله إليهم نظرة رحمة ورأفة وعناية، فعمهم الله جميعا برأفته وعنايته، ومكنهم من عدوهم، ومنحهم السلامة والغنيمة، فلما أن أدركهم العدو، عمهم بخفى لطفه، وشامل إكرامه، بجيش من السيل حتى أنجاهم من كيد عدوهم الذى لا قبل لهم به، وأقبلوا على الله وعلى رسول الله ﷺ غانمين فرحين مستبشرين بمغفرة من الله ورضوان.. انظر إلى الحكمة والتبصرة والعزيمة الماضية والصبر، وإلى مواهب الله وفضله العظيم، وإكرامه لهم، وتشبه بهم تكن منهم.. والله ذو الفضل العظيم.

إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة

قال عمرو بن العاص: كنت للإسلام مجانبا أو معاندا، حضرت بدرا مع المشركين فنجوت، ثم حضرت أحدا فنجوت، ثم حضرت الخندق فنجوت،

فقلت فى نفسى كم أوضع، والله ليظهرن محمداً على قريش، فلحقت بمالى بالرهط وأقللت من الناس، أى: من لقائهم، فلما حضر الحديبية وانصرف رسول الله ﷺ فى الصلح، ورجعت قريش إلى مكة، جعلت أقول يدخل محمد قابلاً مكة بأصحابه، ما مكة بمنزل ولا الطائف، ولا شيء خير من الخروج، وأنا بعد نائى عن الإسلام، وأرى لو أسلمت قريش كلها لم أسلم، فقدمت مكة وجمعت رجالاً من قومى وكانوا يرون رأيي، ويسمعون منى، ويقدموننى فيما نابهم، فقلت لهم: كيف أنا فيكم؟ قالوا: ذو رأينا وسيدنا وزعيمنا فى يمن نفسه وبركة أمر، قلت: تعلمون أنى والله لأرى أمر محمد أمرا يعلو الأمور علوا منكرا، وإنى قد رأيت رأيا، قالوا: وما هو؟ قلت: نلحق بالنجاشى فنكون معه، فإن يظهر محمد كنا عند النجاشى، نكون تحت يد النجاشى أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد، وإن تظهر قريش فنحن من قد عرفوا، قالوا هذا الرأى.

قلت: فاجمعوا ما نهديه له ــ وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم ــ فحملنا أدما كثيرا ثم خرجنا حتى قدمنا على النجاشى، فو الله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضمرى ــ وكان رسول الله ﷺ قد بعثه بكتاب كتبه يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان، وفى رواية: كان فيه دعوته إلى الإسلام ــ فدخل عليه ثم خرج من عنده، فقلت لأصحابى: هذا عمرو بن أمية ولو دخلت على النجاشى فسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذ فعلت ذلك سرت قريش وكنت قد أجزأت عنها حتى قتلت رسول محمد، فدخلت على النجاشى فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحبا بصديقى، أهديت لى من بلادك شيئا؟ قلت: نعم أيها الملك أهديت لك أدما كثيرا، ثم قدمته فأعجبه وفرق منه

شيئا بين بطارقته، وأمر بسائره فأدخل فى موضع، وأمر أن يكتب ويحتفظ بـــه، فلما رأيت طيب نفسه قلت: أيها الملك إنى قد رأيت رجلا خرج من عنـــدك وهو رسول عدو لنـــا قد وترنا، أى: أصابنا بظلم ومكروه، وقتـــل أشـــرافنا وخيارنا فأعطنيه فأقتله، فغضب من ذلك ورفع يده فضرب بها أنفـــى ضربـــة ظننت أنه كسره، فابتدر منخراى فجعلت أتلقى الدم بثيابى، فأصابنى من الـــذل ما لو انشقت بى الأرض دخلت فيها فرقا منه، ثم قلت: أيها الملك لو ظننـــت أنك تكره ما قلت ما سألتك . قال: فاستحيا وقال: يا عمرو تسألنى أن أعطيك رسول من يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى والذى كان يأتى عيسـى لتقتله؟

قال عمرو: فغير الله قلبى عما كنت عليه، وقلت فى نفسى: عرف هذا الحـق والعرب والعجم وتخالف أنت، ثم قلت: أتشهد أيها الملك بهذا؟ قـــال: نعـم، أشهد به عند الله يا عمرو فأطعنى واتبعه، فو الله إنه لعلى الحق، وليظهرن علـــى من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قلت: أتبـــايعنى لـــه علـــى الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده فبايعنى على الإسلام، ثم دعا بطســـت فغســـل عنـــى الدم وكسانى ثيابا، وكانت ثيابى قد امتلأت بالدم فألقيتها، ثم خرجـــت على أصحابى فلما رأوا كسوة النجاشى ســـروا بذلك وقالوا: هل أدركت مـــن صاحبك ما أردت؟ فقلت لهم: كرهت أن أكلمه فى أول مرة وقلت أعود إليـــه، فقالوا: الرأى ما رأيت .

قال: ففارقتهم وكأنى أعمد إلى حاجة فعمدت إلى موضع الســـفن فـــأجد سفينة قد شحنت تدفع، فركبت معهم ودفعوها حتى انتهوا إلى الشعبة وخرجت

من السفينة ومعى نفقة، فابتعت بعيرا، وخرجت أريد المدينة حتى مررت على مر الظهران، ثم مضيت حتى إذا كنت بالهدة فإذا رجلان قد سبقانى بغير كثير يريدان منزلا وأحدهما داخل فى الخيمة والآخر يمسك الراحلتين، فنظرت فإذا خالد بن الوليد، قلت: أين تريد؟ قال: محمدا، دخل الناس فى الإسلام فلم يبق أحد به طعم، والله لو أقمت لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع فى مغارتها، قلت: وأنا والله قد أردت محمدا وأردت الإسلام، فخرج عثمان بن طلحة فرحب بى فنزلنا جميعا فى المترل، ثم اتفقنا حتى أتينا المدينة، فما أنس قول رجل لقيناه ببئر أبى عتبة يصيح: يا رباح يا رباح يا رباح، فتفاءلنا بقوله وسرنا، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: قد أعطت مكة المقادة بعد هذين، وظننت أنه يعنينى ويعنى خالد بن الوليد، وولى مدبرا إلى المسجد سريعا، فظننت أنه بشر رسول الله ﷺ بقدومنا، فكان كما ظننت، وأنخنا بالحرة فلبسنا من صالح ثيابنا، ثم نودى بالعصر فانطلقنا على أظلعنا عليه، وإن لوجهه تهللا والمسلمون حوله قد سروا بإسلامنا. فتقدم خالد بن الوليد فبايع، ثم تقدم عثمان بن طلحة فبايع، ثم تقدمت، فو الله ما هو إلا أن جلست بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفى حياء منه.

قال: فبايعته على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى و لم يحضرنى ما تأخر، فقال: إن الإسلام يجب ما كان قبله، والهجرة تجب ما كان قبلها، قال: فو الله ما عدل بى رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحدا من أصحابه فى أمر حزبه منذ أسلمنا، ولقد كنا عند أبى بكر بتلك المترلة، ولقد كنت عند عمر بتلك الحالة وكان عمر على خالد كالعاتب.

إسلام خالد بن الوليد

قال الواقدى: حدثنى يحيى بن المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: سمعت أبى يحدث عن خالد بن الوليد قال: لما أراد الله بى ما أراد من الخير قذف فى قلبى الإسلام وحضرنى رشدى، فقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ﷺ، فليس فى موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء، وأن محمدا سيظهر، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية خرجت فى خيل من المشركين فلقيت رسول الله ﷺ فى أصحابه بعسفان، فقمت بإزائه وتعرضت له، فصلى بأصحابه الظهر أمامنا، فهممنا أن نغير عليهم ثم لم يعزم لنا ــ وكانت فيه خيرة ــ فاطلع على ما فى أنفسنا من الهم به فصلى بأصحابه صلاة الخوف، فوقع ذلك منا موقعا، وقلت: الرجل ممنوع فاعتزلنا، وعدل عن سير خيلنا وأخذ ذات اليمين، فلما صالح قريشا بالحديبية ودافعته قريش بالرواح قلت فى نفسى: أى شىء بقى؟

أين أذهب؟ إلى النجاشى! فقد اتبع محمد وأصحابه عنده آمنون، فأخرج إلى هرقل فأخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية، فأقيم فى عجم، فأقيم فى دارى بمن بقى فأنا فى ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ مكة فى عمرة القضية فتغيبت ولم أشهد دخوله، وكان أخى الوليد بن الوليد قد دخل مع النبى ﷺ فى عمرة القضية، فطلبنى فلم يجدنى فكتب إلى كتابا فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد؛ فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقلك عقلك! ومثل الإسلام لا يجهله أحد؟ وقد سألنى رسول الله ﷺ عنك وقال: أين خالد؟ فقلت:

يأتى الله به، فقال: (مثله جهل الإسلام؟ ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين كان خيرا له، ولقدمناه على غيره) فاستدرك يا أخى ما قد فاتك من مواطن صالحة.

فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج، وزادنى رغبة فى الإسلام، وسرنى سؤال رسول الله ﷺ عنى، ورأيت فى النوم كأنى فى بلاد ضيقة مجدبة، فخرجت فى بلاد خضراء واسعة فقلت: إن هذه لرؤيا، فلما أن قدمت المدينة قلت: لأذكرنها لأبى بكر، فقال: مخرجك الذى هداك الله للإسلام، والضيق الذى كنت فيه من الشرك. قال: فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله ﷺ قلت: من أصاحب إلى رسول الله ﷺ؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت: يا أبا وهب أما ترى ما نحن فيه إنما نحن كأضراس وقد ظهر محمد على العرب والعجم، فلو قدمنا على محمد واتبعناه فإن شرف محمد لنا شرف؟ فأبى أشد الإباء فقال: لو لم يبق غيرى ما اتبعته أبدا. فافترقنا وقلت: هذا رجل قتل أخوه وأبوه ببدر، فلقيت عكرمة بن أبى جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان بن أمية، فقال لى مثل ما قال صفوان بن أمية. قلت: فاكتم على، قال: لا أذكره.

فخرجت إلى منزلى فأمرت براحلتى فخرجت بها إلى أن لقيت عثمان بن طلحة فقلت: إن هذا لى صديق فلو ذكرت له ما أرجو، ثم ذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره، ثم قلت: وما على وأنا راحل من ساعتى فذكرت له ما صار الأمر إليه، فقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر لوصب فيه ذنوب من ماء لخرج، وقلت له نحوا مما قلت لصاحبى، فأسرع الإجابة، وقلت له: إنى غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو وهذه راحلتى بفج مناخة، قال: فاتعدت أنا وهو

يـــأجج إن سبقنى أقام وإن سبقته أقمت عليه، قال: فادلجنا سحرا فلم يطلـــع الفجر حتى التقينا بيأجج، فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة وجدنا عمرو بن العـــاص بها، قال: مرحبا بالقوم، فقلنا: وبك، فقال: إلى أين مســـيركم؟ فقلنـــا: ومـــا أخرجك؟ فقال: وما أخرجكم؟ قلنا الدخول فى الإسلام واتباع محمد ﷺ، قـــال: وذاك الذى أقدمنى، فاصطحبنا جميعا حتى دخلنا المدينة فأنخنـــا بظـــهر الحـــرة ركابنا، فأخبر بنا رسول الله ﷺ، فسر بنا، فلبست من صالح ثيابى ثم عمـــدت إلى رسول الله ﷺ فلقينى أخى، فقال: أسرع فإن رسول الله ﷺ قد أخـــبر بـــك فسر بقدومك وهو ينتظركم، فأسرعنا المشى فاطلعت عليه فما زال يتبســـم إلى حتى وصلت إليه، فسلمت عليه بالنبوة، فرد على السلام بوجه طلق، فقلت: إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال: تعال، ثم قال رســـول الله ﷺ: الحمد لله الذى هداك قد كنت أرى لك عقلا رجوت أن لا يســـلمك إلا إلى خير، قلت: يا رسول الله إنى قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليـــك معاندا للحق فـــادعو الله أن يغفرها لى، فقال رسول الله ﷺ الإسلام يجب مـــا كان قبله، قلت: يا رسول الله على ذلك، قال: اللهم أغفر لخالد بن الوليد كـــل ما أوضع فيه من صد عن سبيل الله، قال خالد: وتقدم عثمان وعمـــرو فبايعـــا رسول الله ﷺ.

قال: وكان قدومنا فى صفر سنة ثمان، ووالله ما كان رســـول الله ﷺ يعـــدل بى أحدا من أصحابه فيما حزبه.

السابقة حاكمة

هؤلاء الثلاثة أشد الناس على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين، وكم وقفوا مواقف لأذية رسول الله ﷺ وأذية أصحابه تقشعر لها جلود المؤمنين، ولكن سابقة الحسنى وسر القدر الإلهى غيب عن قوى العقول البشرية، من كان يشهد هؤلاء فى مواطنهم الأولى ومسارعتهم إلى محو الحق يعتقد أنهم من أهل جهنم، والغيب خفى عن البصائر، ومواهب الله وعطاياه الإلهية لا تمنعها قضاؤه وقدره، كما أن المواهب والعطايا لا تمنع القضاء والقدر، فكم من محارب لله ورسوله وهو من أكبر أولياء الله تعالى بحسب السابقة، وكم من موال لله ورسوله ظاهرا وحاله مجهول، فلا المسيء المخطيء ييأس من رحمته وروحه، ولا المطيع المقبل يأمن جانب الله ومكره، ولذلك فكمل العارفين يتوبون إلى الله عقب كل عمل بار، وبعد الفراغ من كل قربة يتقربون بها إلى الله عن مشاهدة وأمر، أما عن المشاهدة فلعجزهم بحسب فطرهم عن القيام بحقوق عبوديتهم للمعبود الصمد، وقصورهم الذاتى عن القيام بشكر نعماه التى لا تحصى، وأما بالأمر فلقوله سبحانه وتعالى: ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ (البقرة: ١٩٩) وقوله تعالى: ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ (المزمل: ٢٠).

فأمرهم بالاستغفار بعد الإفاضة، والإفاضة أكمل أعمال القربات، وأمرهم بالاستغفار بعد تقدم خير، وأمر حبيبه ومصطفاه ﷺ بعد أن جاهد فى الله حق جهاده، وفتح الله له مكة وسارع الناس إلى الدخول فى دين الله بالاستغفار فى

قوله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾ (النصر: ١)٠

أنظر إلى سادة قريش الثلاثة كيف عاندوا حتى انبلجت لهم أنوار الحق، فأقبلوا على الحق خاضعين راغبين فى الإسلام، وانظر إلى كلام النجاشى لعمرو بن العاص وهو عالم من علماء النصرانية كيف دعاه إلى الإسلام، وناب عن رسول الله ﷺ فى بيعة عمرو ليظهر لك العجب العجاب، ولكن فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم٠ ﴿من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ (الكهف: ١٧)٠

سرية غالب بن عبد الله الليثى ﷺ إلى بنى مرة

لما رجع ﷺ من سرية الكديد مؤيداً منصوراً بعثه ﷺ إلى موضع مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك فى صفر سنة ثمان٠ روى ابن سعد أنه ﷺ هيأ الزبير بن العوام ﷺ وقال له: سر حتى تنتهى إلى مصاب أصحاب بشير فإن أظفرك الله بهم فلا تبق فيهم، وهيأ معه مائتى رجل، وعقد له لواء، فقدم غالب ابن عبد الله من سرية الكديد وقد أظفره الله عليهم، فقال ﷺ للزبير: اجلس وبعث غالباً ومعه مائتا رجل فأغاروا عليهم مع الصبح، وذلك أنه لما دنا منهم بعث الطلائع ومعهم علبة بن الحارث إلى محالهم فأشرف على جماعة منهم ثم رجع وأخبره الخبر٠

وروى ابن سعد عن حويصة ﷺ قال: بعثنى ﷺ فى سرية مع غالب إلى بنى مرة فأغرنا عليهم مع الصبح، وقد أخذ علينا أميرنا أن لا نفترق، وآخى بيننا وقال: لا تعصونى فإنه ﷺ قال: (من أطاع أميرى فقد أطاعنى ومن عصاه فقد

عصانى) وإنكم متى تعصونى فإنكم تعصون نبيكم، فآخى بينى وبين أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه، فأصبنا القوم.

وروى أنه لما دنا من القوم حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد فإنى أوصيكم بتقوى الله وحده لا شريك له، وأن تطيعونى وألا تخالفوا لى أمرا فإنه لا رأى لمن لا يطاع، ثم ألف بين كل اثنين وقال لهم: لا يفارق أحد منكم زميله، فإياكم أن يرجع الرجل منكم فأقول له أين صاحبك؟ فيقول: لا أدرى. وإذا كبرت فكبروا، فلما أحاط بالقوم كبر غالب، فكبروا معه وجردوا السيوف، فخرج الرجال فقاتل ساعة، ووضع المسلمون فيهم السيف، وكان شعارهم أمت أمت، وقتلوا منهم قتلى وأصابوا منهم نعما وشاء وذرية فساقوها، وكانت سهامهم عشرة أبعرة لكل رجل، أو عدلها من الغنم لكل بعير عشرة.

طاعة أمير رسول الله ﷺ واجبة

فى هذه السرية يظهر لنا أن طاعة أمير رسول الله ﷺ فيما لا معصية فيه واجبة، وأن الروية فى كل الأمور حسنة وفى الجهاد واجبة، وأن اتحاد القلوب وارتباطها موجب لعواطف الحق سبحانه وتعالى، مؤد فى نظر الله تعالى إلى الجماعة، وأن الجماعة إذا خالفهم واحد منهم وجب على الجميع إزالة ما فى نفسه أو رده عنهم، وأن سيدنا غالب رضي الله عنه قام بأعمال من الحكمة والروية ترضى رسول الله ﷺ عنه، وتجعل له المنزلة السامية فى قلبه ﷺ.

فعلى كل مسلم أن يقتدى به لتكون له تلك المنزلة فى قلب رسول الله ﷺ ولو

كان فى آخر الزمان، فإنما هى أخلاق وأعمال تصدر عن إخلاص لـذات الله لا ينقصها طول الزمان ولا بعد المكان، وكل مسلم منحـه الله تلـك الحكمـة والبصيرة والهمة الصادقة وقام لله عاملاً فى سنة، كان محبوباً لرسـول الله ﷺ فى أى زمان كان، وفى أى مكان كان، وكان أهلاً ومحلاً للبشائر التى بشر الله بهـا عبـاده الصالحين، وبالوعد الذى وعد الله به أولياءه المتقين.. أسأل الله تعـالى أن يهب لنا الحكمة والعناية والفضل العظيم إنه مجيب الدعاء.. آمين.. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سرية شجاع بن وهب الأسدى ﷺ إلى جمع من هوازن

بعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب ﷺ فى أربعة وعشـرين رجلا إلى جمـع من هوازن، أى: يقال لهم بنو عامر بالسيىء، وهو ماء من ذات عرق على ثلاث مراحل من مكة.

وكانت تلك السرية فى شهر ربيع الأول سنة ثمان. وأمره ﷺ أن يغير عليـهم فكان ﷺ يسير الليل ويكمن النهار حتى صبحهم وهم غافلون، أى: وقد نهـى أصحابه أن يمنعوا فى الطلب فأصابوا نعما كثيرا وشاء، واستاقوا ذلك إلى المدينة، فكان سهم كل رجل خمسة عشر بعيرا، وعدل البعير بعشرة من الغنم، وكـانت غيبتهم خمس عشرة ليلة.

سرية كعب بن عمير الغفارى رضي الله عنه

بعث رسول الله ﷺ كعب بن عمير الغفارى إلى ذات أطلاح من أرض الشام وراء وادى القرى فى خمسة عشر رجلا، وكانت فى ربيع الأول سنة ثمان، فسار حتى انتهوا إلى ذات أطلاح، وكان يسير بالليل ويكمن بالنهار، حتى دنى من القوم فرآه عين لهم، فأخبر بقلة الصحابة فجاءوا على الخيل، فدعاهم المسلمون إلى الإسلام فلم يستجيبوا ورشقوهم بالنبل، فقاتلهم المسلمون أشد القتال حتى قتلوا عن آخرهم، إلا كعب بن عمير فإنه ظن قتله، فلما أمسى تحامل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فشق عليه ذلك ﷺ فهم بالبعث إليهم، فبلغه أنهم ساروا إلى محل آخر فتركهم.

سرية مؤتة أو غزوة مؤتة

مؤتة موضع معروف عند الكرك، وهى مدينة من عمل البلقاء معروفة بالشام على مرحلتين من بيت المقدس. وكانت فى جماد الأولى سنة ثمان. وسماها البخارى وابن إسحق غزوة لكثرة جيش المسلمين فيها، وإن لم يخرج فيها النبى ﷺ.

وكان سببها أن النبى ﷺ أرسل الحارث بن عمير الأزدى بكتاب إلى أمير بصرى من جهة هرقل وهو الحارث بن أبى شمر الغسانى، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فقال له: أين تريد؟ فقال: الشام، فقال: فلعلك من رسل محمد ﷺ؟ قال: نعم، فأمر به فأوثق رباطا ثم قدمه فضرب عنقه ـ ولم يقتل لرسول الله ﷺ غيره ـ فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك اشتد الأمر عليه، وجهز جمعا من أصحابه وعدهم ثلاثة آلاف، وبعثهم إلى مقاتلة ملك الروم، وأمر عليهم ﷺ مولاه زيد بن حارثة﵁ وقال: إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، فإن قتل فليرتضى المسلون رجلا من بينهم يجعلونه عليهم أميرا.

وكان ممن حضر ذلك المجلس يهودى اسمه النعمان فقال: يا محمد إن كنت سميت من سميت أصيبوا جميعا، لأن أنبياء بنى إسرائيل كانوا إذا استعملوا الرجل على القوم، ثم قالوا: إن أصيب فلان فلو سموا مائة أصيبوا جميعا، ثم جعل يقول لزيد: أوصى فإنك لا ترجع إلى محمد ﷺ إن كان نبيا، قال: زيد أشهد أنه رسول الله صادق بار.

وعقد ﷺ لواء أبيض ودفعه إلى زيد، وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير وأن يدعو من هناك إلى الإسلام فإن أجابوا، وإلا فاستعينوا عليهم بالله وقاتلوهم، فأسرع الناس بالخروج وعسكروا بالجرف ـ وهو موضع على ثلاثة أميال من المدينة لجهة الشام ـ وخرج ﷺ مشيعا لهم حتى بلغ سنية الوداع فوقف وودعهم وقال: (أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا، اغزوا باسم الله فى سبيل الله من كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدا، ولا امرأة، ولا كبيرا فانيا، ولا منعزلا بصومعة، ولا تقربوا نخلا، ولا تقطعوا شجرا، ولا تهدموا بناء) وودعهم الناس وقالوا لهم: صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

ولما ودع ابن رواحة ﷺ بكى، فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: أما والله ما بى حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية: ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا﴾ (مريم: ٧١) فلست أدرى كيف لى بالصدر بعد الورود؟ فلما ساروا نادى المسلمون: دفع الله عنكم وردكم صالحين غانمين، فقال عبد الله بن رواحة ﷺ:

لكنى أسأل الله مغفرة ... وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدى حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثى ... أرشده الله من غاز وقد رشدا

وفى رواية: أن عبد الله بن رواحة لما أراد وداع النبى ﷺ وفراقه، قال النبى ﷺ:

قـــل شعرا تقتضبه اقتضابا، أى: من غير روية، فقال ﷺ:

إنى تفرست فيك الخير نافلـــة — فراســـة خالفت فيك الذى نظـــروا

أنت الرسول فمن يحرم نوافله — والوجه منه فقد أزرى بـــه القـــدر

فثبت الله ما آتاك من حســـن — تثبيت موسى ونصرا كالذى نصروا

فقال ﷺ: وأنت فثبتك الله يا ابن رواحة ·

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن ابن رواحة تخلف حتى صلى الجمعة مع النبى ﷺ فلما صلى رآه قال: ما منعك أن تغدو مع أصحابك؟ قال: أردت أن أصلـى معك الجمعة ثم ألحقهم، فقال ﷺ: لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما أدركـــت غدوقم ·

ثلاثة آلاف يقاتلون مائتين وخمسين ألفا

فلما فصلوا من المدينة سمع العدو بمسيرهم، وقام شرحبيل بن عمـــرو الغســـانى فجمع أكثر من مائة ألف، وقدم الطلائع أمامه، فلما نزل المسلمون وادى القرى بعث أخاه سدوس بن عمرو فى خمسين من الكفار فاقتتلوا مع المسلمين، وقتـــل سدوس وانكشف أصحابه، ونزل المسلمون معان وبلغهم كثرة العدو فأقـــاموا على معان ليلتين ـــ ومعان بفتح الميم موضع أو جبل من أرض الشام ـــ وبلـــغ المسلمين أن هرقل نزل بأرض البلقاء فى مائة ألف من مشركى الروم مـــع مـــا انضم إليه مـــن لخم وجذام وقيس وبهرام من قبائل العرب يبلغون مائـــة ألـــف وهم الذين جمعهم شرحبيل ·

وجاء فى رواية: أن القوم كانوا مائتى ألف من الروم وخمسين من العرب ومعهم خيول كثيرة، فقال المسلمون: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره الخبر فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمر فنمضى له، فشجعهم عبد الله بن رواحة ﷺ على المضى بعد إقامة الليلتين وقال لهم: يا قوم والله إن الذى تكرهون للذى خرجتم له، خرجتم تطلبون الشهادة، ونحن ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة، فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة ﷺ، فمضوا إلى مؤتة، ووافاهم المشركون فجاء منهم من لا قبل لأحد به من العدد الكثير الزائد على مائتى ألف والسلاح والكراع، أى: الخيول والديباج والحرير والذهب، إظهارا للقوة والشدة بكثرة أموالهم وآلات حروبهم.

وفى هذا دليل على فرط شجاعة الصحابة ﷺ، وقوة قلوبهم، وتوكلهم على الله، وعدم مبالاتهم بأنفسهم لأنهم باعوها لله تعالى، إذ أقدم ثلاثة آلاف على أكثر من مائتى ألف أصحاب حروب وشدة، وهذا إنما هو لما وقر فى قلوبهم، واطمأنت عليه نفوسهم من الثقة بقول الله تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا﴾ (غافر: ٥١) وقوله تعالى: ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ (الصافات: ١٧٣) وقوله تعالى: ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾ (الروم: ٤٧) والتقى المسلمون والمشركون فقاتل الأمراء الثلاثة يومئذ على أرجلهم ﷺ.

استشهاد زيد وجعفر رضى الله عنهما

فقاتل زيد بن حارثة ﷺ ومعه راية رسول الله ﷺ، أى: لواءه، وقاتل المسلمون معه على صفوفهم حتى قتل طعنا بالرماح ﷺ، فأخذ اللواء جعفر بن أبى طالب ﷺ فقاتل به وهو على فرسه فألجمه القتال وأحاط به، فنزل عن فرس له شقراء فعقرها وقاتل حتى قتل، وهو أول رجل عقر من المسلمين، وفرسه أول فرس عقر فى سبيل الله، وكان ﷺ حين اشتد القتال وأحاط به العدو يقاتل ويقول: يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وباردا شرابها ... والروم روم قد دنا عذابها ... كافرة بعيدة أنسابها ... على إن لاقيتها ضرابه .

وإنما عقر فرسه ﷺ خوفا أن يأخذه الكفار فيقاتلوا عليه المسلمين، ولأن يقاتل ولا يفر ففيه دليل على فرط شجاعته ﷺ، فإنه لما أخذ اللواء ﷺ قاتل قتالا شديدا فقطعت يمينه فأخذه بيساره، فقطعت يساره فاحتضنه، وقاتل حتى قتل ﷺ، ووجد فيه بضع وسبعون ـــ وفى رواية وتسعون ـــ جرحا ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح ليس فيها شىء فى دبره ولا ظهره، أى: ليس منها شىء فى حال الأدبار بل كلها فى حال الأقبال، لمزيد شجاعته ﷺ، ولم ينكر عليه ﷺ أحد من الصحابة رضوان الله عليهم عقر فرسه، وبه استدل من جوز قتل الحيوان خشية أن ينتفع به الكفار وتقاتل عليه المسلمين .

دروس الحادثة

١- من هذه الغزوة يظهر لنا قدر التقى عند الله وعند رسوله ﷺ، وإن كان أصحاب رسول الله ﷺ أتقياء ﷺ ولكن مقاماهم فى التقوى تتفاوت، ولى

رسول الله ﷺ سيدنا زيد بن حارثة رضى الله عنهما أمارة الجيش وفيهم سيدنا جعفر بن أبي طالب من سادات بنى هاشم، وممن هاجر الهجرتين، وممن قال له ﷺ: أشبهت خلقي وخلقي، وفيه سادات المهاجرين والأنصار، وسيدنا زيد ﷺ تعلم أنه مولى رسول الله ﷺ، فقدمه ﷺ وجعله أميرا عليهم — ونعم الأمير هو — فإن الله سبحانه وتعالى وضع الأنساب إلا نسبه الشريف فإنه رفعه قال تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (الحجرات: ١٣) فليس فى الإسلام نسب يفتخر به، ولا حسب تتفاوت به مقاديرهم، والنسب الحقيقى والحسب الحقيقى هو التقوى، ونعم.. لأن أول من أقبل على الحق وأوذى فيه أعبد رفعهم الله بالتقوى وشرفهم بالإسلام، حتى صار الرجل منهم وهو لا نسب له بينهم متصلا بنسب رسول الله ﷺ. قال ﷺ: (سلمان منا أهل البيت) وقال ﷺ: (أدخل الإسلام بلالا فى نسبى).

٢- ومنها إظهار معجزات الرسول ﷺ لأنه ﷺ قال: إن أصيب زيد فجعفر، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة، وإن أصيب عبد الله بن رواحة فليختر القوم أميرهم، فبين ﷺ ما سيكون لهم ﷺ، فأصيب من أخبر عنهم، ثم قام ﷺ فأخبر الصحابة يوم قتلهم بما حصل لهم، وهم فى بلاد الشام وهو ﷺ بالمدينة.

٣- ومنها ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ من اليقين الحق الذى رخصت معه النفوس الغالية فى سبيل الله، حتى بلغوا درجة الفناء عما سوى الله حتى عن أنفسهم، وكان القتل فى سبيل الله أحب إليهم مما سواه فى كل خير يشتهى، فكان الصحابى يسارع إلى الشهادة كما يسارع غيره إلى الجلوس على عرش الملك المطلق أو أكثر. ولم أف الحقيقة نصيبها لأن ثلاثة آلاف من

الصحابة ينظرون إلى مائتين وخمسين ألفاً من الروم والعرب من رجال الحرب والطعان والقوة والسلاح والميرة والحصون، وهم ﷺ فى قلة وغربة وحاجة إلى الضرورى لهم ومع ذلك فإنهم قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما ازدادوا إلا تثبيتاً ويقيناً، ومسارعة إلى فردوس الله الأعلى، وإقبالاً على الله سبحانه بالكلية.

هجم سيدنا زيد بن حارثة رضى الله عنهما على هذا البحر المتلاطم بأمواجه، وهذا الأفق المتساقطة صواعقه، كأن بينه وبين الجنة قيد شبر، وكأن حورها وولدانها ينادونه أن هلم إلينا، فألقى بنفسه عن يقين حق، وشهود صادق، وإخلاص فى ذات الله، و لم يلتفت ﷺ حتى أخذته السيوف والرماح.

وسيدنا الإمام جعفر بن أبى طالب ينظر بعين رأسه، فما مالت راية رسول الله ﷺ إلا وقد مدت إليها تلك اليد كأنها توضع فى يد الله للبيعة له سبحانه، فاستلم الراية مشاهدا أنه خليفة ربه، العامل بأمره لإعلاء كلمته، وقهر عدوه سبحانه وتعالى، و لم يسعه أن يقف فى مركزه وأن ينظم جيشه، ولكنه رأى تلك الأنفاس أغلى وأعز من أن يلتفت لإخوته أو يتكلم معهم كلمة، وقدم فخاض لجة هذا الجيش، وهو كأنه ﷺ قضاء الله المبرم عليهم، وأعداء الله محيطون به حتى قطعت يداه ﷺ، فقبض على السيف بحضنه، وما أنس به أنساه آلام جراحه التى تبلغ المائة من طعن وضرب ورمى، وهذا أمر يعجز العقل أن يتصوره، وتقف قوة الخيال أن تتخيله، إنه عمل فوق قوة الإنسان، وحال فوق أحوال الملائكة المقربين، لم يكن ذلك إلا من مشهد قدسى ويقين حق، وإنى لأتخيل أن الرب جل جلاله تنزل وأدناه منه وآنسه وناداه مرحبا به ومستهلا

له، فأفنته لذة شهوده عن وجوده، وغيبه من أدناه بمعناه عن مبناه.

رأى ﷺ أن جواده لا يؤاتيه همة وعزيمة فعقر الجواد، وكأنه يقول لنفسه: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم خاض تلك الغمرات كأنه يخطر فى روضات الجنات، حتى أشرفت أنوار روحه الطاهرة القدسية على عوالم عالين، وفقدت أنفاسه الطاهرة وأعماله المباركة الأمة الإسلامية، فما مالت الراية فى يده عليه السلام إلا ويد الله مدت إليها فتناولها الإمام الثالث بعزم نبوى، وحال محمدى، وشهود عن حق يقين، وائتسى بأمره الذى قبله فلم يلتفت، وهو سيدنا عبد الله بن رواحة.

هذه العزائم التى سجد العقل بفنائها لم تكن واجبة عليهم ﷺ، ولو أنهم رجعوا جميعا إلى المدينة لكانوا متحيزين إلى فئة، ولو أنهم فروا من أمامهم لكانوا متحرفين للقتال، ولكن أبت تلك النفوس المطهرة القدسية والهمم القلبية إلا أن تظهر ما خفى فى قلوبهم من اليقين الحق، وما تجملت به سرائرهم من الوفاء لرسوله بالعهد، حتى أبت تلك النفوس أن تقف عند الواجب، وسارعت إلى الكمال الأكمل فى القيام بحقوق الله وحقوق رسوله ﷺ، لأنها تبتغى الغاية التى لا غاية بعدها، والبغية التى إليها أرواح الأنبياء تسارع.. ألقى سيدنا جعفر ابن أبى طالب عليه السلام لجماعة المسلمين درسا عمليا بين لهم فيه كيف ترخص النفوس الغالية، وتتلذذ بالقتل عند المقتضيات فإن رجلا واحد يهجم على مائتين وخمسين ألفا هذا الهجوم — وهو الخبير بفنون الحرب العالم بالذين هم أمامه شجاعة وكثرة — لا يشك شاك أنه ما أقدم هذا الإقدام إلا فرحا بلقاء الله، مسارعة إلى نيل رضوانه الأكبر. ومن كوشف بالجمال الإلهى وعلم السبيل

إلى رضوانه الأكبر، وسمع الحق جل جلاله يناديه بعد أن تجلى له، هل تكـــون نفسه غالية عليه؟ لا والله . . أو يحول بينه وبين رضوان الله حـــائل ويتمـــهل عليـــه؟ لا والله .

بهذا رفع الله عباده الصالحين، ومكن لهـــم فى الأرض، وأذل لهـــم أعداءهـــم، وكـــل مؤمن صدق الله ورسوله بيقين حق، وعزيمة ماضية، واجهه الله بتلـــك الأنوار، وجمله بتلك الأحوال . . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . ومن لم يصـــبر على طاعة الله، ولم يتحمل الشدة فى نيل مرضات الله، فـــهو يدعـــى الإيمـــان ويكذب على نفسه، وإن العبد المؤمن ليبتلى فى دينه حتى تظهر حجة صدقه مـــع الله، ورغبته فيما عند الله، وفنائه عما سوى الله سبحانه وتعالى، وبذلك يكـــون من أهل رضوان الله، يمكن الله له فى الأرض، ويجعل له الخير فى الدنيا والآخـــرة قال ﷺ: (إذا أحب الله العبد ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رضى اصطفاه) .

البلايا عطايا

فأصحاب رسول الله ﷺ ـــ وأخص من اصطفاهم رسول الله ـــ لم يروا الصـــبر عند البلايا يناسب مقامهم، حتى كانت البلايا عند نزولها بهم كأنها عين العطايا، يفرحون بها رضاء بقدر الله، كما يفرح غيرهم بالجلوس على ســـرير الملـــك، فاصطفاهم الله لشهود جماله العلى، واختارهم لأن يكونوا عنده فى مقعد صدق، ورفع الحجاب بينه وبينهم . وهذا هو الفناء الحقيقى الذى يفرح بـــه أهـــل الله الصالحون فى مواجيدهم، ويشرحونه فى كتبهم، ويرشدون إليـــه تلاميذهـــم، ويحملون به مريديهم، وهو مشهد فوق العقل قدرا، وأيـــن اللائمـــون علـــى

الرجال، المنتقدون عليهم إذا سمعوا أحوال هـــؤلاء الأئمــة ﷺ، وتدبـــروا فى أعمالهم، لعل العاقل منهم ينكر عليهم ويقول: خالفوا وتغالوا و لم يتوســـطوا. وما عملوه رضى الله تبارك وتعالى عنهم هو الواجب عليهم لمبدعهم الكـــريم، الذى تفضل عليهم بالهداية والعناية، وجذبهم إليه فبذلوا النفس والنفائس حبـــا فى لقاه، وهو سبحانه وتعالى الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذى لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد. فبذل النفس والنفائس قليل فى جانب ما نـــالوه مـــن مولاهم، وحقير بالنسبة لما أولاهم قال الله تعالى: ﴿لمثل هذا فليعمل العـــاملون﴾ (الصافات: ٦١) وقال الله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعـــين جزاء بما كانوا يعملون﴾ (السجدة: ١٧) وهذا هو العمل حقا الذى شـــكر الله العاملين عليه، وأثنى عليهم به، وهو الذى وفقهم له، وأعانهم عليـــه، ســـبحانه وتعالى بيده الخير وإليه المصير، وهو ذو الفضل العظيم.

استشهاد عبد الله بن رواحة ﷺ

أخذ اللواء عبد الله بن رواحة ﷺ ثم تقدم به ـــ وهو على فرســـه ـــ فجعـــل يستنـــزل نفسه، ويتردد بعض التردد ثم قال:

أقسمت يا نفس لتنـــزلنـــه   لتنـــزلـــن أو لتكـــرهنـــه

إن أجلب الناس وشدوا الرنه   مالى أراك تكرهين الجنـــه

قد طال ما قد كنت مطمئنه   هل أنت إلا نطفة فى شـــنه

وقال أيضا:

يا نفس إن تقتلى تموتى هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت أن تقفلى فعلهما هديت

يريد ﷺ صاحبيه زيدا وجعفرا رضى الله عنهما، ثم نزل عن فرسه فأتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال: شد بهذا صلبك فإنك قد لقيت أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده ثم انتهس منه نهسة، ثم سمع الحطمة فى الناس فقال: وأنت فى الدنيا، ثم ألقاه من يده وأخذ سيفه فقاتل حتى قتل ﷺ وأرضاه.

روى سعيد بن منصور أنهم دفنوا يومئذ فى قبر واحد زيدا وجعفرا وعبد الله بن رواحة ﷺ.

ثلاثة ضاقت الجنة عن أرواحهم

نزل سيدنا عبد الله بن رواحة عن فرسه اقتداء بأميره السابق، ومنافسة فى حظائر القدس، ومسارعة إلى لقاء الله العلى سبحانه، تجلت له روحه القدسية ﷺ متجردة عن نفسه، فخاطب نفسه بها بما خاطبه بها من الشعر فانقادت نفسه وجسمه لروحه القدسية فأقدم ﷺ على الموت إقداما على القرب من الله، والحظوة بجنابه العلى، فلحق بربه راضيا عنه مرضيا منه، ونجز الله تعالى إشارة رسوله ﷺ. ضم تلك الهياكل النورانية الثلاثة قبرا واحدا، وعجبا تضيق الجنة ــ والله ــ بهم لأنه لم يخطر على سرهم خاطر لغير الله، و لم تلتفت أرواحهم الطاهرة نفسا عن مواجهة الله سبحانه، فكيف يسع قبر أجساما ضاقت الجنة عن أرواحها؟ وحسبك أيها القلم فإنما هو روضة من رياض الجنة، أو حظيرة من حظائر الوادى المقدس. وكيف لا؟ والله تعالى معهم وعندهم، وفيه قتلوا..

أسأل الله تعالى أن يهب لنا من مواهبهم اللدنية ما به نكـــون مقبلـــين عليـــه، مخلصين لذاته العلية .. إنه مجيب الدعاء.

خالد بن الوليد ﷺ والنصر المبين

ثم أخذ اللواء ثابت بن أرقم العجلانى ﷺ البلوى حليف الأنصار، وكان ممـــن شهد بدرا، وقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنـــت، قال: ما أنا بفاعل، فاصطلحوا على خالد بن الوليد ﷺ. وفى رواية: أن ثابتـــا مشـــى باللواء إلى خالد وقال: أنت أعلم بالقتال منى، فلم يقبل خالد اللـــواء وقال: أنت أحق به منى لأنك ممن شهد بدرا، فنادى ثابت: يا معشر المســـلمين فاجتمع الناس على خالد بن الوليد ﷺ وسلموه اللواء فأخذه.

وفى الصحيح حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله ففتح الله عليهم، وانكشـــف الناس فكانت الهزيمة. وفى رواية: قاتلوا المشركين حتى هزموهـم. فعند ابن سعد أن خالد ﷺ لما أخذ أمر اللواء حمل على القوم فهزمهم الله أسوأ هزيمـــة حـــتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا وأظهر الله المسلمين. فقيل: سبب ذلـــك أن خالدا ﷺ لما أصبح جعل مقدمة الجيش ساقه، وســـاقته مقدمـــة، وميمنتـــه ميسرة، وميسرته ميمنة، فظن المشركون مجىء عدد للمسلمين فرعبوا وانهزمـــوا، فقتلوا قتلة لم يقتلها قوم.

وكان جملة من قتل من المسلمين اثنى عشر رجلا، وهذا من عنايـــة الله تعـــالى بالإسلام وأهله ومزيد إعزازه ونصره لهم، إذ جيش عدته ثلاثـــة آلاف يلقـــون أكثر من مائتى ألف فلا يقتل منهم إلا اثنى عشر رجلا، مع أنهم اقتتلـــوا مـــع

المشركين سبعة أيام .

وأما قتلى المشركين فلا يحصون، فكانت هذه السرية من أعظم معجزاته ﷺ الباهرة التي أكرم الله بها أصحابه ﷺ، ورفعت الأرض يومئذ لرسول الله ﷺ حتى نظر إلى معترك القوم، فأخبر أصحابه . وذلك أنه لما اطلع على ذلك نادى في الصلاة: الصلاة جامعة، ثم صعد المنبر وعيناه تزرفان وقال: أيها الناس باب خير، باب خير، ثلاثا، أخبركم عن جيشكم هذا الغازى، إنهم انطلقوا فلقوا العدو فقتل زيد شهيدا فاستغفروا له، ثم أخذ الراية جعفر فشد على القوم حتى قتل شهيدا فاستغفروا له، ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة وأثبت قدميه حتى قتل شهيدا فاستغفروا له، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء وهو أمير نفسه ولكنه سيف من سيوف الله فآب بنصره . وفي رواية: ثم أخذ الراية خالد بن الوليد نعم عبد الله، وأخوا العشيرة، وسيف من سيوف الله سله الله على الكفار والمنافقين من غير إمرة حتى فتح الله عليهم . وفي رواية: اللهم إنه سيف من سيوفك فانصره؛ فمن يومئذ سمى خالد ﷺ سيف الله .

وعن عبد الله بن أبي أوفى رضى الله عنهما قال: اشتكى عبد الرحمن بن عوف ﷺ خالد بن الوليد ﷺ إلى النبي ﷺ فقال: يا خالد لم تؤذ رجلا من أهل بدر لو أنفقت مثل أحد ذهبا لم تدرك عمله، فقال: يا رسول الله إنهم يقعون في فأرد عليهم، فقال: لا تؤذوا خالدا فإنه سيف من سيوف الله صبه الله على الكفار .

قال بعضهم: كون ما وقع يوم مؤتة فتحا ونصرا واضح لإحاطة العـــدو بهـــم وتكاثرهم عليهم، لأنهم كانوا أكثر من مائتى ألف والصحابة ﷺ ثلاثـــة آلاف وكان مقتضى العادة أنهم يقتلون بالكلية.

وجاء فى رواية: أصاب خالد منهم مقتلة عظيمة، وأصاب غنيمـــة، وهـــذا لا يخالف ما جاء أن طائفة من الصحابة ﷺ فروا إلى المدينة لما عاينوا كثرة جمـــوع الروم، فصار أهل المدينة يقولون لهم: أنتم الفرارون، ورسول الله ﷺ يقول: بـــل هم الكرارون. وجاء فى رواية: أنا فئتكم يشير إلى قوله: ﴿إلا متحرفا لقتـــال أو متحيزا إلى فئة﴾ (الأنفال: ١٦) يعنى أن فرارهم كان من الانحياز إلى فئة، وأيضا زاد العدو على ضعفهم بل زاد على عشرة أضعافهم.

والحاصل أن المسلمين لما قتل عبد الله بن رواحة ﷺ انهزموا وتفرقـــوا وذهـــب جماعة منهم إلى المدينة، ثم اجتمع الناس لما انحاز خالد بن الوليـــد ﷺ ورتـــب النـــاس ــــ وقد مدح رســـول الله ﷺ خالدا على ذلك وأثنى عليه ــــ ففتح الله على يديه ﷺ.

وعن بعض الصحابة ﷺ لما قتل ابن رواحة ﷺ انهزم المسلمون ﷺ أسوأ هزيمة ثم تراجعوا، ولقد لقوا من أهل المدينة لما رجعوا شرا حتى أن الرجـــل يجـــىء إلى أهـــل بيته يدق عليهم بابه فيأبون يفتحون له ويقولون له: هلا تقدمـــت مـــع أصحابك فقتلت، حتى أن كبراء الصحابة ﷺ جلسوا فى بيوتهم استحياء، كلمـــا خرج واحد منهم صاحوا به، وصار رسول الله ﷺ يرسل إليهم رجلا رجـــلا ثم يقول: أنتم الكرارون فى سبيل الله.

ويعنون بالفرار انحيازهم مع خالد ﷺ حين انحاز العدو عنهم، وإنما انحاز خالد ﷺ لترتيبه العسكر، وقد مدحه ﷺ على ذلك وأثنى عليه ﷺ.

وصف المعركة من أعلام نبوته ﷺ

ولما قدم يعلى بن أمية ﷺ على النبي ﷺ بخبر الجيش، قال له النبي ﷺ: إن شئت فأخبرني وإن شئت أخبرتك، قال: فأخبرني يا رسول الله لأزداد يقينا، فأخبره رسول الله ﷺ الخبر كله ووصف له ما كان، فقال: والذي بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفا واحدا، وإن أمرهم لكما ذكرت، فقال رسول الله ﷺ: إن الله رفع لي الأرض حتى رأيت معتركهم. وحين رأى ذلك قال: حمي الوطيس، أي: حميت الحرب واشتدت، وقيل: إن الذي جاء بخبرهم أبو عامر الأشعري ﷺ..ولا مانع من أن كلا منها جاء بالخبر.

على مثل جعفر فلتبكي البواكي

وعن أسماء بنت عميس رضي الله عنها زوج جعفر بن أبي طالب ﷺ قالت: دخل علي رسول الله ﷺ يوم أصيب جعفر وأصحابه فقال: ائتني ببني جعفر فأتيته بهم فشمهم وزرفت عيناه. وفي رواية: وبكى حتى نقطت لحيته الشريفة ﷺ، فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما يبكيك، أبلغك عن جعفر وأصحابه شيئا؟ قال: نعم أصيبوا هذا اليوم، قالت: فقمت أصيح، واجتمع علي النساء، وجعل رسول الله ﷺ يقول: يا أسماء لا تقولي هجرا ولا تضربي خدا، وقال: اللهم قدمه ــ يعني جعفرا ــ إلى أحسن الثواب، واخلفه في ذريته

بأحسن ما خلفت أحدا من عبادك فى ذريته.

وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله فقال: لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاما فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم. وفى لفظ أنه ﷺ دخل على فاطمة عليها السلام وهى تقول: يا عماه، فقال: على مثل جعفر فلتبك البواكى، ثم قال ﷺ: اصنعوا لآل جعفر طعاما فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم.

وفى رواية: قد شغلهم ما هم فيه.

وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما أن سلمى مولاة النبى ﷺ عمدت إلى شعير فطحنته ونسفته ثم عجنته وأدمته بزيت وجعلت عليه فلفلا، قال: عبد الله فأكلت من ذلك الطعام، وحبسنى رسول الله ﷺ مع إخوتى ثلاثة أيام ندور معه ﷺ كل ما صار فى بيت إحدى نسائه، ثم رجعنا إلى بيتنا.

وهذا الطعام الذى جعل لآل جعفر رضي الله عنه هو أصل طعام التعزية.

ثم أمهل ﷺ آل جعفر ثلاثا فقال لهم: لا تبكوا على أخى بعد اليوم، ثم قال: أئتونى ببنى أخى، فجىء بنا كأننا أفرخ فدعا الحلاق فحلق رءوسنا، ثم قال: أما محمد فشبيه عمنا أبى طالب، وأما عبد الله فشبيه خلقى وخلقى ثم دعا لهم. قال: عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما دعا لى فقال: اللهم بارك له فى صفقة يمينه، فما بعت شيئا ولا اشتريته إلا بورك لى فيه.

وجاء أنه ﷺ قال: مثل لى زيد بن حارثة وجعفر وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه فى خيمة من در كل واحد منهم على سرير، فرأيت زيدا وابن رواحة فى أعناقهما صدودا، أى: إعراضا ورأيت جعفر ليس فى عنقه صدود، فسألت

فقيل: إنهما حين غشيهما الموت أعرضا بوجوههما، وأما جعفر فإنه لم يفعل .

الاجتهاد فى تعيين الإمام

انتقل الأمير ابن رواحة إلى مقعد صدق شهيداً بين معترك الوغى وكان قلب المسلمين، فلما أن مالت الراية من يده اشتد حزن المسلمين على أمرائهم، ولم يعين لهم رسول الله ﷺ أميراً بعد ابن رواحة فكان ذلك موجباً لضعف القلوب، واختلاف الآراء وعدم الإجماع، فاختلف الناس فمنهم من رآى الرجوع إلى المدينة، ومنهم من رآى أن لا يفارق العدو حتى يفعل الله ما يشاء .

من هذا نعلم أن المسلمين إذا اختلفوا فى تعيين الإمام واجتهد كل واحد منهم، كان لكل واحد أجر ما دامت وجهتهم الإخلاص لله، لأن رسول الله ﷺ أقر من رجعوا إلى المدينة وأثنى عليهم، مع أن أهل المدينة شنعوا عليهم فى الفرار من الزحف .

استلم الراية سيدنا خالد بن الوليد بعد تمنع، لأنه يعلم أن من شهد بدرا أولى بها لسابقيته فى الإسلام، ولم يقتد بأمرائه السابقين، ولكنه تلقى منهم درسا أفاده الله تعالى به فاجتهد ﷺ، واجتهاد المؤمن نور يجعله الله فى قلبه إن أخلص وجهه لله، وأداه اجتهاده إلى أن ينحاز عن العدو حتى يرتب جيشه، ثم غير مواطن القتال حتى واجه كل جماعة من المسلمين غير من كانوا يواجهونهم من الكفار، وهجم ﷺ هجمة خبير بالحروب عالم بخدعها، فهزم الله الكافرين أجمعين . فكان عمل الأمراء ﷺ من أكبر آيات الله تعالى التى قذف الله بها الرعب فى قلوب الكافرين، وعمل سيدنا خالد من خفى ألطاف الله تعالى بعباده

المخلصين، فإن مائتين وخمسين ألفاً من الروم والعرب يهزمها ألفان من الصحابة، ولم يقتل منهم إلا اثنى عشر رجلاً ذلك هى أكبر معجزة لرسول الله ﷺ .

ومن هنا يستنبط أن المخلص المجتهد يمده الله تعالى بعنايته، وأن الاجتهاد واجب فى موطنه، ونعلم العلم اليقينى أن الوقوف عند الواجب ممدوح ينال به العبد مغفرة الله، وأن المنافسة فى الكمالات وبذل النفس والنفيس فى مواطن ذلك محمود عند الله تعالى ينال به العبد المخلص رضوان الله الأكبر، والفوز بنعيم الله فى مقعد صدق قال الله تعالى: ﴿هم درجات عند الله ﴾ (آل عمران: ١٦٣) وشتان بين من علم علم يقين ومن شهد عين يقين، فأهل علم اليقين وقفوا عند الواجب، وأهل عين اليقين تجاوزوه إلى مشاهدهم قال الله تعالى: ﴿وكلا وعد الله الحسنى﴾ (النساء: ٩٥) وخير المسلمين من سارع إلى مغفرة من ربه وجنات عرضها السموات والأرض باذلا نفسه ونفائسه .

عودة وفرحة

ولما دنى الجيش من المدينة تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون ولقيهم الصبيان، فقال النبى ﷺ: خذوا الصبيان فاحملوهم واعطونى ابنى عبد الله بن جعفر، فأتى به فأخذه فحمله بين يديه .

وكان عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما ولد بالحبشة وأمه أسماء بنت عميس رضى الله عنها، وتزوجها أبو بكر ﷺ بعد جعفر ﷺ فولدت له محمد بن أبى بكر رضى الله عنهما .

وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: هنيئا لك أبوك يطير مع الملائكة فى السماء.

وقد قال حسان بن ثابت ﷺ قصيدة يرثى بها جعفر بن أبي طالب ومن معه ﷺ:

تأوبنى ليـل بيثـرب أعسـر   وهم إذا مـا نوم الناس مسهر
لذكرى حبيب هيجت لى عبرة   سفوحا وأسباب البكاء التذكر
بلى أن فقـدان الحبيب بليـة   وكم مـن كريم يبتلى ثم يصبر
رأيت خيـار المسلمين تواردوا   شعوبا وخلفا بعدهـم يتأخر
فلا يبعدن اللـه قتلى تتـابعوا   بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيد وعبد الله حين تتـابعوا   جميعا وأسبـاب المنية تخطـر
غداة مضوا بالمؤمنين يقودهـم   إلى الموت ميمون النقيبة أزهر
أغر كضوء البدر من آل هاشم   أبى إذا سـيم الظلامـة مجسر
فطـاعن حتى مال غير مؤسـد   بمعـترك فيـه القـا متكسر
فصـار مع المستشهدين ثـوابه   جنـان وملتف الحدائق أخضر
وكنـا نرى فى جعفر من محمـد   وفـاء وأمرا حـازما حين يأمر
وما زال فى الإسلام من آل هاشم   دعائـم عز لا يزلـن ومفخـر
هموا جبل الإسلام والناس حولهم   رضام إلى طـود يروق ويبهـر
بهـا ليـل جعفر وابـن أمـه   على ومنهـم أحمـد المتخيـر

وحمزة والعباس منـــهم ومنهموا عقيل وماء العود من حيث يعصر

بهم تفرج اللأواء فى كل مـــارق عماس إذا ما ضاق بالناس مصدر

هم أولياء الله أنـــزل حكمـــه عليهم، وفيهم ذا الكتاب المطهر

من عمل رسول الله ﷺ نعلم أنه يسن للقادم على بلد خصوصا إذا كـــان ممـــن يستعمل يستقبله الناس أن يركب معه على الدابة صبى من صبيانهم . وفى ذلـــك دليل على الرحمة بالصبيان، والعناية بهم، وإدخال السرور على آبائـــهم وأهـــل بلدهم، فإن من أحب قوما أحب أطفالهم .

تبديل الهيكل الإنسانى بهيكل لطيف نورانى

ولما كان سيدنا جعفر ﷺ قطعت يده فاستلم السيف باليد اليسرى فقطعـــت، فاستلمه بحضنه، ومن فقد شيئا لله أبدله الله خيرا منه، ثم بذل جسمه ونفســه لله سبحانه فأبدل الله جسمه بجسم نورانى ملكى، ونفسه بنفس قدسية، وأطرافـــه بأجنحة ملكية، حتى صار وهو الإنسان البشرى ـــ قد أبدله الله بكل ما بذلـــه خيرا منه ـــ ملكا من الملائكة العالين، وصار هيكله الإنسانى هيكـــلا نورانيـــا لطيفا، رفعه الله كما رفع رسله الكرام بجسمه ونفسه إلى على سمواته يطير مـــع ملائكته المقربين . فقول رسول الله ﷺ: هنيئا لك أبوك يطير مع الملائكة، قـــول عن وحى يوحى، أو عن شهود عيان، لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى، ولا يقول إلا حقا . وإنى آمنت وصدقت بقوله ﷺ، وبأن الله تعالى أبدل هذا السيد الهـــاشمى بكل عضو فقده خيرا منه، وأبدله بجسمه خيرا منه، وبنفسه روحـــا قدســـية، ومـــن أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه بكله، ومن كان مرة ومرة كان الله لـه

كذلك. وسر قوله: يطير مع الملائكة، أنه ﷺ عقر جواده فكأنه قد أقبل على الله بنفسه وماله فأقبل الله عليه بكله، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، تفضل على هذا السيد ﷺ فى حياته الدنيا بالحب الخالص لذات الله، والفناء الخالص عما سوى الله، ووفقه سبحانه وتعالى بمعونته وهدايته فبذل نفسه ونفائسه فى ذات الله، ثم إن له سبحانه وتعالى فضلا منه وكرما ما هو خير له.. قال الله تعالى: ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له﴾ (البقرة: ٢٤٥) وخير قرض يقرضه المؤمن ربه ــ وهو الغنى عمن سواه المفتقر إليه كل من عداه ــ بذل نفسه فى سبيل الله، ومن بذل نفسه لله يضاعف الله له فيمنحه نفسا قدسية، ويجمل نفسه الملكية بالرقى إلى الدرجات العلا فوق مقامها الأول، وهذا منهاج أهل الله الصالحين الذين بلغ بهم الحب فى الله مبلغا جعلهم يبذلون نفسهم ونفائسهم إرضاء لحبيبهم سبحانه وتعالى، ومسارعة إلى لقاه جل جلاله.

وأهل الله الصالحون فى جهاد أبدا، وإن لم يقفوا فى الصف لجهاد أعداء الله، وإن كان الوقوف فى الصف لإعلاء كلمة الله وإزهاق الباطل هو البرهان الحق على حب الله وحب رسوله ﷺ، لأنه يتحقق من المؤمن ببذل كل شيء. ومن قدم نفسه للسيف والمقذوفات النارية راضيا بذلك هل يصعب عليه أن يبذل ماله؟ ولكن هناك جهاد وإن لم يكن برهانا ظاهرا فهو برهان عند الله على كمال محبة العبد لربه وهو جهاد النفس فى ذات الله.

هذه هى العلوم التى يتلقاها العارفون من أحوال أفراد أصحاب رسول الله ﷺ، والأسرار التى يشيرون إليها فى مواجيدهم العالية من ميراث أئمة أصحاب

رسول الله ﷺ.

من السنة استقبال القادم من أهل الصلاح

ونعلم أن من السنة استقبال القادم والاحتفال به خصوصا إن كان من عمال الله النافعين عباد الله، فإن رسول الله ﷺ خرج مع أصحابه ﷺ لاستقبال المجاهدين. يقول ﷺ: من كثر سواد قوم فهو منهم. وإنما تعلم منازل الناس عند الله بمن يحتفلون به ويعظمونه، ومن احتفل بالظلمة وعظمهم فهو منهم، ومن احتفل بالأتقياء العاملين البررة فهو منهم، ومن احتفل بالمجاهدين فى سبيل الله فهو منهم.

ومن السنة أيضا أن الإنسان يعظم اليتيم ويرحمه ويعتنى به ويقدمه على غيره من نظرائه، فإن رسول الله ﷺ قدم سيدنا عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما.

سرية عمرو بن العاص ﷺ إلى بلاد بلى وعذرة

وهو وراء وادى ذات القرى، بينها وبين المدينة عشرة أيام، وبلى قبيلة كبيرة ينسبون إلى بلى بن عمرو الحاف بن قضاعة، وكذا عذرة ينسبون إلى عذرة بن سعد بن قضاعة.

وتسمى سرية ذات السلاسل سميت بذلك لأن المشركين ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفروا، والمراد أنهم تجمعوا وانضم بعضهم إلى بعض فى أول الأمر، فلا ينافى أنهم لما قرب المسلمون منهم ألقى الله فى قلوبهم الرعب وفروا.

وقيل: سميت بذلك لأن بها ماء يقال له السلسل، وكانت فى جمادى الآخرة سنة ثمان.

وسببها أن جمعا من قضاعة تجمعوا للإغارة وأرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة، فبعث ﷺ عمرو بن العاص ﷺ فى ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرسا.

وعن عمرو بن العاص ﷺ قال: بعث إلى النبى ﷺ يأمرنى أن آخذ ثيابى وسلاحى فقال: يا عمرو إنى أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله ويسلمك، قلت: إنى لم أسلم رغبة فى المال، قال: نعم المال الصالح للمرء الصالح، فعقد له ﷺ لواء أبيض، وجعل معه راية سوداء، فسار هو ومن معه ـ وكان يكمن النهار ويسير الليل ـ فلما قرب منهم بلغه أن لهم جمعا كثيرا، فبعث رافع بن مكيث الجهنى إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح وعقد له لواء، وبعث معه مائتين من سراة المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، وأمره أن يلحق بعمرو وأن يكونا جميعا ولا يختلفا، فأراد أبو عبيدة ﷺ أن يؤم الناس، فقال عمرو: إنما قدمت على مددا، أى: معينا ومقويا، وأنا الأمير، أى: لا إمارة لك حتى تؤم الناس، فقال أبو عبيدة: لا ولكن أنا على ما أنا عليه، وأنت على ما أنت عليه، وكان أبو عبيدة رجلا سهلا هينا عليه أمر الدنيا، فقال: يا عمرو إن رسول الله ﷺ قال لى: لا تختلفا وإنك إن عصيتنى أطعتك، فأطاع له أبو عبيدة، فكان عمرو يصلى بالناس، وسار حتى وصل إلى العدو من بنى بلى وعذرة، فحمل عليهم المسلمون فهربوا فى البلاد وتفرقوا بعد أن اقتتلوا ساعة، فهزمهم المسلمون فأقام هناك

ثلاثة أيام، وكان يبعث الخيل فيأتون بالشاء والنعم فينحرون ويأكلون، ولم يكن فى ذلك غنائم تقسم.

وقال البلاذرى: فلقى العدو من قضاعة وغيرهم وكانوا مجتمعين ففرقهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وغنم، وهذا يعضده قوله ﷺ: فيغنمك الله ويسلمك.. كما مر. وروى ابن راهوية والحاكم عن بريدة أن عمرو بن العاص رضي الله عنه أمرهم فى تلك الغزوة أن لا يوقدوا نارا فأنكر ذلك عمر رضي الله عنه، فقال له أبو بكر رضي الله عنه دعه فإن رسول الله ﷺ لم يبعثه علينا إلا لعلمه بالحرب فسكت عنه.

وروى ابن حبان عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنهم سألوه أن يوقدوا نارا فمنعهم، فكلموا أبو بكر رضي الله عنه فكلمه فى ذلك فقال: لا يوقد أحد نارا إلا قذفته فيها، قال: فلقوا العدو فهزموهم فأرادوا أن يتبعوهم فمنعهم، فلما انصرفوا ذكروا ذلك للنبى ﷺ فسأله فقال: كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا نارا فيرى عدوهم قلتهم، وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد، فحمد أمره.

وروى الشيخان عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قدمت عن جيش ذات السلاسل فحدثت نفسى أنه لم يبعثنى على قوم فيهم أبو بكر وعمر إلا لمنزلة لى عنده، فأتيته حتى قعدت بين يديه فقلت: يا رسول الله أى الناس أحب إليك؟ قال: عائشة، قلت: إنى لست أعنى النساء إنما أعنى الرجال قال: أبوها، قلت: ثم من؟ قال:عمر بن الخطاب، فعد رجالا فسكت مخافة أن يجعلنى فى آخرهم وقلت فى نفسى: لا أعود أسأله عن هذا.

وفى الحديث، جواز تأمير المفضول على الفاضل إذا امتاز المفضول بصفة تتعلق

بتلك الوجهة، وفضل أبي بكر على الرجال، وبنته على النساء، ومنقبة لعمـــرو بـــن العاص ﷺ لتأميره على جيش فيهم أبو بكر وعمر رضى الله عنــهما، وإن لم يقتضى ذلك أفضليته عليهم، لكن يقتضى أن له فضلا فى الجملة.

وقد قال رافع الطائى: وهذه الغزوة التى يفتخر بها أهل الشام ويحتجون بها على فضل عمرو بن العاص ﷺ.

الخصوصية لا تقتضى الأفضلية

من هذه السرية يظهر لنا من أسرار الأحوال المحمدية ما كان خفيـــا، أمـــر ﷺ سيدنا عمرو بن العاص ﷺ على تلك السرية، ومهاجرة أصحابه ﷺ فى السابقين الأولين ممن أثنى الله عليهم، وخصهم بفضله العظيم وعمرو بن العاص حديـــث عهد بالإسلام بعد عداوة لله ورسوله وكيد للإسلام وأهله، فكان لتأميره مـــن الحكم ما يجعل السالكين يتعرضون لعظيم فضل الله، وإن لم تكن لهم ســـابقة، ويجعل من عادى رسول الله ﷺ وأشرقت على قلبه أنوار الإسلام يســـارع إلى الإسلام مطمئنا، ويجعل سيدنا عمرو وأمثاله تطمئن قلوبهم بالإسلام، وتنشـــرح صدورهم بثقة رسول الله ﷺ، ويجعل الإمام يولى الأمور أهل الخبرة بها، العـــالمين بأسرارها، بقطع النظر عمن معه من أهل الفضل والتقوى، لأن الخصوصيـــات تتفاوت فى الرجال، فقد يكون الرجل أقرب الناس إلى الله، وغيره أعلم بنـــوع من الفنون التى بها يظهر الدين، والعلوم التى ترتب الأحكام وتدار بهـــا شـــئون المجتمع الإسلامى.

نستنبط من تلك السرية أن المسلم لا حظر عليه أن يجتهد مـــا دام يســـتند إلى

سند شرعى، وله أن يحفظ مترلته بالقيام بواجبه، ولو كان معه من هو أولى منه بعمله، فإن سيدنا عمرو ﷺ نافس سيدنا أبا عبيدة فى الإمامة للصلاة، وسيدنا أبو عبيدة أمير رسول ومن المهاجرين الأولين وأمين الأمة، وفى الجيش الصديق الأكبر، والفاروق الأكبر، كل ذلك لم يمنع سيدنا عمرو بن العاص من أن يحفظ مترلته التى تفضل بها عليه رسول الله ﷺ.

نأخذ من هذه السرية أن الأمير يطاع ما لم يأمر بمعصية، لأن سيدنا عمرو ﷺ نهاهم عن إيقاد النار، ونهاهم عن اتباع العدو، فوجدوا عليه، ورفعوا الأمر لرسول الله ﷺ كما تقدم، فأقره.

ومنها معجزة لرسول الله ﷺ لأنه قال لعمرو بن العاص ترجع سالما غانما فكان كما قال ﷺ.

ومنها أن صاحب الخصوصية قد يرى أن الخصوصية تقتضى الأفضلية، فظن عمرو بن العاص أنه أفضل الصحابة، لأن رسول الله ﷺ جعله أميرا على أبى بكر وعمر وأبى عبيدة وأكابر المهاجرين والأنصار، فكشف له رسول الله ﷺ عن الحقيقة، وأن الخصوصية لا تقتضى الأفضلية، فمن اختصه الله بمزية يجب عليه أن لا يعقد أفضليته على غيره، فإن ذلك ربما أدى إلى الغرور بالنفس ومدحها فأوجب مقت الله.. نعوذ بالله من مقت الله.

وهنا سر من أسرار الطريق، وهو أن السالك حقا الذى منحه الله خصوصية، نظر إلى نفسه نظرة عالم بها متحقق بحقيقتها، فوزن بين ما من الله وما منه، ثم شهد حقيقة منة الله عليه فيما من الله إليه، وحقيقة جنايته وظلمه لنفسه فيما

منه لله، فكان نظره إلى نفسه موجب لتوبته، لشهوده أن كل قربات تقرب بها إلى الله بتوفيقه ومعونته، وأنه مع القيام بها لا يخلو من الرياء أو الشرك .

أما من الشرك فلأنه لا يمكن أن يخلص الإخلاص الحق اللائق لجنابه العلى، ولا بد أن يكون له فى عمله بغية ولو الفردوس الأعلى . أو رياء لو أنه يرى نفسه محسنة، وذلك موجب لنقص فى العمل، وتقبيح للنفس .

ولا يكون الكامل كاملا إلا إذا تاب من عمل أقرب القربات، وذلك لشهوده نفسه، ومكاشفته بحقيقتها، ونظر منة الله عليه فيما أورده، وفيما وهبه، وفيما اختصه به . وفى إجابة رسول الله ﷺ لعمرو ﷺ بقوله: عائشة، تأنيسا لقلبه لأنه ﷺ تتره سره المحمدى أن يحب أحدا من الخلق لغير الله، وإنما قال له عائشة ليعلم عمرو أنه ﷺ ما أحبها إلا لحب أبيها، و لم يحب أبيها إلا لله سبحانه وتعالى، فيفهم مراده من إجابته ﷺ، ولكن الإشارات المحمدية العلية لا يدركها إلا أهل السابقية فى الإسلام، المرتاضون بمجالسة رسول الله ﷺ .

بين لنا رسول الله ﷺ ما يجب على أهل الخصوصية من النظر إلى أنفسهم بالازدراء، والنظر إلى غيرهم بالتعظيم حتى تدوم لهم الخصوصية، ومن اختص بمزية واغترت نفسه بها فكأنه عظم ما منه لا ما هو من الله له .

فالواجب على أهل الخصوصية أن يعظموا المنعم الوهاب الحنان المنان، وأن تصغر أنفسهم فى أعينهم لمشاهدتهم منة الله عليهم فى الخصوصية، ومن شهد منة الله تعالى كيف يشهد لنفسه مترلة، وإنما يشهد لنفسه مترلة من غفل عن شهود منة الله المعطى الوهاب .

سرية الخبط

وهى سرية أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال القرشى الفهرى أحد العشرة المبشرين بالجنة ﷺ، وسماها البخارى غزوة سيف البحر بكسر السين، أى: ساحل البحر، واشتهرت بسرية الخبط.

بعث ﷺ أبا عبيدة ومعه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا وكان فيهم عمر بن الخطاب ﷺ إلى أرض جهينة، ليلقى عيرا، لقريش ولمحاربة حى من جهينة. وكانت فى رجب سنة ثمان بعد نكث قريش العهد وقبل فتح مكة، وزودهم رسول الله ﷺ جرابا من التمر لم يجدوا غيره، وقيل: كان معهم غيره، فلما فنى ما معهم أكلوا الخبط وهو ــ بفتح الخاء المعجمة والياء الموحدة ــ ورق السلم.

قال جابر ﷺ: كنا نضرب بعصينا الخبط (ورق الشجر) ونبله بالماء فنأكله. وفى رواية: كان الرجل منا يأكل تمرة تمرة، فقالوا لجابر: كيف كنتم تصنعون؟ قال: نمصها كما يمص الصبى الثدى ثم نشرب عليها الماء فيكفينا يومنا إلى الليل، ثم أكلوا الخبط بعد فناء التمر.

وابتاع لهم قيس بن سعد بن عبادة رضى الله عنهما جزرا ونحرها لهم. وفى رواية: أنهم أصابهم جوع شديد فقال قيس: من يشترى منى تمرا بالمدينة بجزر تجزر هنا؟ فقال له رجل من جهينة: من أنت؟ فانتسب، فعرفه الجهنى فقال: عرفت نفسك فابتاع منه خمس جزر بخمسة أوسق وأشهد له نفرا من الصحابة، وامتنع عمر ﷺ لكون قيس لا مال له، فقال الأعرابى: ما كان سعد ليقصر بابنه وأرى وجها حسنا وفعلا شريفا، فأخذ قيس الجزر فنحر لهم ثلاثة كل يوم

جزور، فلما كان اليوم الرابع نهاه أميره فقال: عزمت عليك أن لا تنحـــر أتريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك؟ فقال قيس: يا أبا عبيدة أترى أبا ثـــابت يقضـــى ديون الناس، ويحمل الكل، ويطعم فى المجاعة، ولا يقضى عنى تمرا لقوم مجـاهدين فى سبيل الله، فكاد أبو عبيدة يلين وجعل عمر يقول: اعزم فعزم عليه، فبقيـــت جزورات فقدم بهما قيس المدينة ظهرا يتعاقبون عليها، وبلغ سعدا مجاعة القـــوم فقال إن يكن قيس كما أعرف فسينحر لهم، فلما لقيه قال: مـــا صنعـــت فى مجاعة؟ قال: نحرت، قال: أصبت، ثم ماذا؟قال: نحرت، قال: أصبت، ثم مـــاذا؟ قال: نحرت، قال: أصبت، ثم ماذا؟ قال: نهيت: قال: ومن نهاك؟ قال: أبو عبيدة أميرى، قال: و لم قال؟ زعم أنه لا مال لى وإنما المال لأبيك، فقال: لـــك أربـــع حوائط أدناها تجد منه خمسين وسقا.

وقدم الجهنى مع قيس فأوفاه أوسقه وحمله وكساه، فبلغ النبى ﷺ فعـــل قيـــس فقـــال: إن الجود من سمة أهل ذلك البيت. وقيل: إن قيسا نحر قبل الثلاث ستا مما كان معه من الظهر ثم ثلاثا من التى اشتراها من الجهنى، وكان قيس من دهاة العرب أهل الرأى والمكيدة فى الحرب، مع النجدة والبسالة لشجاعته.

ومن وقف على ما وقع بينه وبين معاوية رضى الله عنهما حـــين ولاه ســـيدنا علـــى ﷺ مصر بعد قتل سيدنا عثمان ﷺ لرأى العجب العجاب مـــن وفـــور عقله. كان فى الكرم ما لا مزيد عليه، وقفت له عجوز مرة وقـــالت: أشـــكوا إليك قلة الجرذان ببيتى ــــ والجرذان نوع من الفئران ــــ فقال: ما أحسن هــــذا السؤال، وقال لها: لأكثرن جرذان بيتك فملأ بيتها طعاما. وقيل: قـــالت لـــه: مشت جرذان بيتى على العصا فقال لها: لأدعهن يثبن وثوب الأسود، ثم ملأ لهـــا

بيتها طعاما، ولا مانع من تعدد الواقعة،

وكان قيس لا شعر بوجهه ــ وكان مع ذلك جميلا ــ وكانت الأنصار تقول: وددنا أن نشترى لقيس بن سعد لحية بأموالنا كلها،

أيها المنكر على رجال الطريق الألم لذة والفناء راحة

لأهل الطريق من هذه السرية مآخذ عجيبة تدق خفاء عن العقول، فإنهم ﷺ قد يخرجون من أموالهم لله، وقد يسيحون فى الأرض بلا زاد إلا ما يكفى اليوم، ولهم من الثقة بالله، وحسن الظن به ما يجعلهم أوثق بما عند الله مما فى أيديهم، وكيف لا؟ ورسول الله ﷺ جهز تلك السرية التى عدد رجالها كعدد أهل بدر وأعطاهم جرابا من التمر زادا لهم، لقلة الزاد يومئذ، فخرجوا وقلوبهم مطمئنة بالله، حتى صار الرجل منهم يقتات فى اليوم بالتمرة الواحدة وهو مسافر فى سبيل الله فى تعب ليله ونهاره، وفى أشد ما يكون إلى الحاجة من الطعام الذى يقوم به صلبه، ولم يخطر على قلب أحدهم خاطر لما هم فيه من اللذة بشهود الفناء عما سوى الله، والفناء عن مرادهم بمراد رسول الله ﷺ، وكيف لا؟ وقد تحملوا من فادح الشقة ومرارة الجوع ما لا يصبر عليه ذو كبد رطبة، مع البهجة والأنس والفرح بتنفيذ أمر رسول الله ﷺ،

فيا أيها العاقل المنتقد على رجال الطريق كسر موازين عقلك، فإن لله مواجهات يواجه بها من اختارهم بجمال ربانى يغنيهم بشهوده عن كل جمال كونى، وبنور إلهى يكشف به كل نور عقلى حتى يكون الألم لذة، والفناء راحة، والجوع شبعا، والظمأ ريا، ولا تعجب فلو نظرت نظر بصير وتفكرت بعقلك

لعلمت أن الأمر معقول، فإن المبتهج بليلة عرسه، والمسرور بنيل منصب، والمهتم بإكرام من يحب، ينسى نفسه نسيانا حتى لا يشعر بجوع ولا عطش بل ولا ألم عناء، وهذا أمر عقلى محسوس، فكيف بمن واجهه ربه جل جلاله، وكاشفه بما أعده له من الرضوان الأكبر والفضل العظيم، لعله ينسى كل شىء حتى نفسه، ومن جهل أحوال أصحاب رسول الله ﷺ وعليهم ينكر كثيرا من الحق، ويقع فى كثير من الباطل لوقوفه عند عقله المكسوف، وحظه المألوف .

سريه عددهم كعدد أهل بدر يتزودون جرابا من تمر أقل من النصف وسق، ويخرجون إلى بلاد الشام ليقابلوا عيرا لصناديد قريش فى بوادى بين أعدائهم وجوع وظمأ، أى عقل يسلم هذا؟، وأين من ينكر هذا العمل والآمر به رسول الله ﷺ والمنفذ له خيرة أصحابه كأبى عبيدة وعمر وقيس بن سعد وأمثالهم رضي الله عنهم؟ لا تنكر أيها المعقول على أهل الطريق أعمالهم، فمآخذهم من القرآن المجيد، ومن عمل رسول الله ﷺ، وعمل أصحابه رضي الله عنهم . ولكنك أيها المنكر جهلت كثيرا من أعمال دينك ووقفت عند عقلك، انظر إلى سيدنا قيس بن سعد رضي الله عنه كيف استدان الجزر ولا مال له ثقة بالله تعالى، لعزيمته على الوفاء وهو الكرم الفطرى . وانظر إلى سيدنا عمر بن الخطاب وسيدنا أبى عبيدة كيف منعاه عن الشراء ورضوا أن يموتوا جوعا ولا يعملون عملا يظنونه شبهة .

هذه هى الأحوال التى فوق أحوال الملائكة قدرا فى وقت يباح فيه كل شىء للضروة، ومع ذلك فأبت تلك النفوس الطاهرة إلا أن تموت، أو تستعين بما أحل الله، هذه مآخذ الرجال وعليها أسسوا طريقهم، وبها عاملوا ربهم سبحانه وتعالى، ومنها دخلوا على حضرة نبيهم ﷺ فكانوا وهم فى الزمان الأخير كأنهم

معه ﷺ حسا ومعنى، وإنما هى شمائل وأخلاق ومنافسة فى القربات وتشبه بالمفلحين، واقتداء بالأئمة المهتدين. والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

ولنرجع إلى تمام قصة سرية الخبط

قال أهل السير: ثم أخرج الله لهم دابة من البحر تسمى العنبر، وهى سمكة كبيرة يتخذ من جلدها الترسة، وقيل: إن العنبر المشموم رجيعها، قال الأزهرى: العنبر سمكة بالبحر الأعظم يبلغ طولها خمسين ذراعا، وفى رواية لجابر رضي الله عنه: فألقى لنا البحر حوتا ميتا لم نر مثله فأكلنا منه نصف شهر. وفى رواية: ثمانية عشر يوما، حتى صحت أجسامنا وادهنا من ودكه، فأخذ أبو عبيدة ضلعا من أضلاعه فنصبه ونظر إلى أطول بعير فجاز تحته براكبه. وفى رواية: ثم أمر بأجسم بعير معنا فحمل عليه أجسم رجل فخرج من تحتها وما مست رأسه. وفى رواية: فدخل، أى: الراكب، تحتها ما يطأطىء رأسه. وفى رواية مسلم عن جابر رضي الله عنه: فلقد رأيتنا نفترق من وقب عينيه، أى: حدقتيه، الدهن بالقلال ونقتطع منه القدر، أى: القطع من اللحم، كالثور. وفى رواية عن جابر أيضا: فدخلت أنا وفلان فعد خمسة فى حجاج عينها ما يرانا أحد حتى خرجنا، فسبحان القوى القادر.

فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا له ذلك فقال: هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم شيء من لحمه فتطعمونا؟ فكان معنا منه شيء، فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ فأكل.

ولم يذكر أحد من أهل السير أنهم قاتلوا أحدا فى هذه السرية، بل أقاموا نصف

شهر أو أكثر فى مكان واحد ثم رجعوا و لم يلقوا كيدا.

لا ينكر كرامات الأولياء إلا محروم

لا ينكر إكرام الله أولياءه إلا محروم الكرامة، فإن أصحاب رسول الله ﷺ أكرمهم الله تعالى بما أخرج لهم من البحر عند الحاجة إليه، وأكل الصحابة ﷺ من لحمه هذه المدة يبين لنا أنه كان مملحا، وإقرار رسول الله ﷺ لأعمالهم وأكله مما بقى معهم من لحمها دليل على أن اللحوم المملحة مباحة، وعليه فيباح السمك المملح المشهور ببلاد مصر بالملوحة أو الفسيخ، وإن كنا جماعة المالكية نرى حل الطبقة العليا منه فمأخذنا فيها من عمل الصحابة ﷺ، لأن السمكة التى أكل منها الصحابة كانت واحدة. ولكن لو فرضنا أن البحر قذف عدة سمك بعضه فوق بعض فى أرض من الملح ووجده الصحابة ﷺ هل كانوا يمتنعون من الطبقة السفلى؟ لا أظن ذلك.

وعندى أن أكل السمك المملح ما لم يتغير مباح، وقد يحفظ اللحم قديدا مملحا فيكون مباحا ما لم يتغير، فكذلك الحكم فى السمك فإنه لحم وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿لتأكلوا منه لحما طريا﴾ (النحل: ١٤) والطرى غير النضيج، ولا يؤكل من البحر لحما طريا غير السمك المملح. وصرف الآية عن ظاهرها اللغوى تعسفا، والله سبحانه وتعالى إنما تعبدنا بظاهر القرآن، وقد يسر لنا الأمر فى مثل هذه الأمور وإنما المحظور علينا فيه ما حرم، وقد أكرمنا الله تعالى بما أجراه لنا على يد أصحاب رسول الله ﷺ من الحوادث التى بينت لنا ما لم يكن ليستبين لنا إلا بعلمهم ﷺ. والله سبحانه وتعالى أسأل أن يوفقنا للعمل بما

يحبه ويرضاه حتى نكون على ما كان عليه أصحاب نبيه ﷺ، إنه مجيب الدعاء آمين

سرية أبى قتادة ﷺ إلى نجد

واسم أبي قتادة الحارث وقيل: عمرو أو النعمان بن ربعى الأنصارى السلمى، بعثه ﷺ إلى خضرة أرض محارب بنجد فى شعبان سنة ثمان، وبعث معه خمسة عشر رجلا، وأمره أن يشن الغارة على غطفان بأرض فسار الليل وكمن النهار، ثم هجم على جمع منهم فقاتله منهم رجال وقتل من أشرافهم وسبى سيدنا أبو قتادة ومن معه ﷺ سبيا كثيرا، واستاق النعم فكانت الإبل مائتى بعير والغنم ألفى شاة. وفى رواية عن ابن عمر رضى الله عنهما: بعث ﷺ سرية قبل نجد فكنت فيها فغنموا إبلا كثيرة وغنما، فكانت سهامنا اثنى عشر بعيرا، ونفلنا بعيرا بعيرا فرجعنا بثلاثة عشر بعيرا.

وكانت غيبته خمس عشرة ليلة، وكان السبى أربع نسوة وأطفال وجوار، وكان فيهم جارية وضيئة كأنها ظبى وقعت فى سهم أبى قتادة فجاء محمية بن جزء الزبيدى فقال: يا رسول الله إن أبا قتادة قد أصاب فى وجهه هذا جارية وضيئة وقد كنت وعدتنى جارية، فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبى قتادة فقال: هب لى الجارية فوهبها له، فدفعها إلى محمية بن جزء الزبيدى.. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الدروس المستفادة من هذه السرية

من هذه السرية نتعلم أن المؤمن إذا نال ما هو فى غنى عنه وطلبه أخوه المؤمن لا يذم الطالب إذا كان فى حاجة، ولا يعد ذلك طمع لأن رسول الله ﷺ أقر الزبيدى على طلبه، واستوهب ﷺ الجارية من سيدنا أبى قتادة ووفى وعده للزبيدى بهبتها له، وعمل رسول الله ﷺ حجة، ومن عمله ﷺ نتعلم كيف نجتهد فى استنجاح مقاصد الغير، فإنه ﷺ طلبها لنفسه من أبى قتادة لينال الزبيدى مقصده، ومن عمل هذا العمل كان ممن يتجمل بجمال الأخلاق المحمدية. وعلى المؤمن إذا قصده أخوه أن يبذل ما فى وسعه لنيله طلبته، وبعض من لا علم لهم لو وقع مثل هذا الأمر أمامهم ينكرونه على من قام به جهلا منهم، وأعمال رسول الله ﷺ أصول تستنبط منها فروع. أسأل الله أن يجعلنا ممن يفقهون سيرة رسول الله ﷺ وسيرة أصحابه ﷺ، ويعيننا أن نتشبه بهم، نفعنا الله بهم أجمعين.

سرية أبى قتادة ﷺ إلى إضم

وهو ــ بكسر الهمزة وفتح الضاد المعجمة وبالميم ــ واد على ثلاثة برد فى المدينة. وكانت هذه السرية فى أول شهر رمضان سنة ثمان، وذلك أنه ﷺ لما هم أن يغزو أهل مكة بعد أن نقضوا العهد ــ كما سيأتى ــ بعث أبا قتادة ﷺ فى ثمانية أنفار سرية إلى بطن إضم ليظن ظان أنه ﷺ توجه إلى تلك الناحية، ولتذهب بذلك الأخبار فلا تستعد قريش لحربه ويدخل عليهم على حين غفلة، وكان يقول: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها..

واستجيب له فعميت الأخبار عنهم فلم يأتهم خبر عنه ولا علموا بذلك إلا ليلة دخوله ﷺ - كما سيأتى- فخرج أبو قتادة ومن معه ﷺ فلقوا عامر بن الأضبط الأشجعى فسلم عليهم بتحية الإسلام، أى: قال السلام عليكم، وقيل: عظمهم بالانقياد ومنه كلمة الشهادة التى هى أمارة على إسلامه، فقتله محكم بن جثامة فأنزل الله ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾ (النساء: ٩٤) روى الإمام أحمد والطبرانى عن عبد الله بن أبى حدود ﷺ قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم فى نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة ومحكم بن جثامة بن قيس فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعى على قعود له ومعه متبع له ووطب من لبن، فسلم علينا بتحية الإسلام فأمسكنا عنه، وحمل عليه محكم فقتله لشىء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومتبعه، فلما قدمنا على رسول الله ﷺ وأخبرناه الخبر نزل فينا ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا . . إلى آخر الآية﴾ .

ثم إن أبا قتادة ومن معه لم يلقوا جمعا، وبلغهم أنه ﷺ خرج من المدينة وتوجه إلى مكة فلحقوه بالسقيا، فأخبروه الخبر فقال لمحكم: أقتلته بعد ما قال آمنت بالله . وفى رواية: بعد ما قال إنى مسلم، فجلس محكم بين يدى رسول الله ﷺ ليستغفر له وقال: إنما قالها متعوذا، قال: أفلا شققت عن قلبه لتعلم أصادق هو أم كاذب، قال:وهل قلبه إلا مضغة من لحم، قال ﷺ: إنما كان ينبىء عنه لسانه . وفى رواية: لا ما فى قلبه تعلمه ولا لسانه صدقت، فقال: استغفر لى يا رسول الله فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: اللهم لا تغفر لمحكم، قالها ثلاثا

بصوت عال، أى: زجرا وتهويلا لهذا الأمر كيلا يتهاون الناس بقتل النفس المؤمنة، فقام محكم وهو يتلقى دموعه ببرديه فما مضت له سابعة من الليالى حتى مات، فجهزوه ودفنوه فلفظته الأرض، ثم عادوا ودفنوه فلفظته الأرض، ثم دفنوه فلفظته الأرض، فضموا عليه الحجارة حتى واروه، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: إن الأرض تقبل من هو شر من صاحبكم، ولكن الله أراد أن يعظكم فى حرمة ما بينكم بما أراد منه.

وفى رواية: إن الله أحب أن يريكم تعظيم حرمة لا إله إلا الله، أى: حرمة من يأتى بها. ولفظ الأرض له يرد ما قيل أن رسول الله ﷺ استغفر له بعد دعائه عليه، إلا أن يكون المراد استغفر له بعد موته. ويوافقه ما فى بعض الروايات: أراد الله أن يجعله موعظة لكم لكيلا يقدم رجل منكم على قتل من يشهد أن لا إله إلا الله أو يقول إنى مسلم، اذهبوا به إلى شعب بنى فلان فادفنوه، فإن الأرض ستقبله فدفنوه فى ذلك الشعب.

فيجوز أنه يكون استغفر له حينئذ، وجاء فى بعض طرق هذه القصة أن النبى ﷺ صلى بحنين ثم عمد إلى ظل شجرة فجلس تحتها فقام إليه الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن يختصمان فى عامر بن الأضبط، عيينة بن حصن يطلب دمه ـ وعيينة يومئذ رئيس غطفان ـ أى: ويقول ومن يا رسول الله إنى لا أدعه حتى أذيق نساءه من الحر مثل ما أذاق نسائى، والأقرع يدافع عن محكم لمكانه من خندق، وارتفعت الأصوات وكثرت الخصومة ورسول الله ﷺ يقول لعيينة ومن معه: بل تأخذون الدية خمسين فى سفرنا هذا وخمسين إذا رجعنا وهو يأبى عليه فلم يزل به حتى اتفقا على الدية. ثم سأل محكم النبى ﷺ أن يستغفر له

إلى آخـــر القصة. وقيل: إن الذى لفظته الأرض غير محكم، لأن محكما مـــات بحمص أيام ابـــن الزبير ﷺ والذى لفظته الأرض اسمه فليت.

الدروس المستفادة من هذه السرية

لا تخلو أعمال أصحاب رسول الله ﷺ من حكم علية، وأحكـــام شـــرعية، وأحوال روحانية، فحكمة تلك السرية ما ظهر من التدابير النبوية فى الجـــهاد، فإن الله سبحانه وتعالى إذا قدر أمرا من الأمور هيأ أسبابه المرتبطة به ومهما كان توقع القوة التـــى فوق الأسباب متحقق فإن رسول الله ﷺ لا يبدل ســـنن الله التى وضعها، وحكمه التى أقامها، والأواسط أى: الأسباب، التى ربط بعضـــها ببعض ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ (الأحزاب: ٦٢) وإنما القـــوة الـــتى فـــوق الأسباب تكون متحققة عند كمال الاضطرار بفقد الأواسط كما حصل لرسول الله ﷺ فى ليلة الغار حينما نسج العنكبوت وبـــاض اليمام حتى أخفى الله معالمـــه عن قريش وهو محل نظرهم من الأرض فلم يروه. وكمـــا أكـــرم الله خليلـــه فجعـــل له النار بردا وسلاما، فالمؤمن الكامل خليفة ربه فى أرضه يقف عنـــد الأواسط أدبا مع سنة الله فى خلقه، حتى إذا عجز انتظـــر القـــوة الـــتى فـــوق الأسباب، وإنما الأسباب ميسره بمسبب الأسباب وهى الدلائل الناطقة بعجـــائب قدرته وغرائب حكمته.

أرسل رسول الله ﷺ أبا قتادة إلى إضم لينشر بين العرب خبر توجهه إليـــهم فيبلغ قريشا فيكون ﷺ قد تحرف للجهاد، وتكشف للمؤمن الستار عن أســـرار التدبير والروية والحكمة فى الأعمال صغيرها وكبيرهـــا ودفع ما يتوقـــع مـــن

الشبهة ليكون المؤمن على نهج سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ، مؤتسيا به ﷺ، فكان كما أراد ﷺ، فإن قريشا أعمى الله الأخبار عنهم حتى باغتهم فى أبواب مكة ﷺ هذه من حكمة تلك السرية.

وأما ما يؤخذ منها من الأحكام فما علمته من تغليظ الأمر فى قتل من يقول لا إله إلا الله، فإنه لا يحل دم إنسان إلا بواحدة من ثلاث: ردة بعد إسلام، أو زنا بعد إحصان، أو قتل نفس مؤمنة بغير نفس. أشتد غضب رسول الله ﷺ على من قتل رجلا قال: السلام عليكم، وشنع الله على من يفعل ذلك بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾ (النساء: ٩٤) فكان غضب رسول الله وتشنيع الله دليل على أن المؤمن يجب أن يأخذ بالظاهر، ويكل أمر القلوب إلى الله، وأنه لو خالف الظاهر بحسب علمه أو ظنه أو وهمه كان حكمه كحكم المعتدى على المؤمن الكامل، ولكن رسول الله ﷺ مع هذا الغضب الشديد والدعاء على فاعل هذا الفعل بأن الله لا يغفر له، درأ الحد بالشبهة فأخذ بظاهره ولم يبحث عن قلبه بقوله: إنه قالها متوقيا من القتل، وأخذ بظاهره كما هو نص الشرع قال الله تعالى: ﴿ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا﴾ (الإسراء: ٢٥) فنحن مكلفون أن نحكم بالظاهر والسرائر يتولاها رب العزة جل جلاله، خصوصا فيما يقضى حدا من حدود الله تعالى.

ولكنى لا آمرك أيها الأخ أن تستسلم فى كل شىء فتأخذ بالظاهر، إنما ذلك فى أمور مخصوصة، وعليك أن تحتاط لنفسك مع تسليم باطنه إلى الله من غير

ظن سوء ولا قصده، فإن المؤمن لا يخدعه المنافق ولا يخدع مؤمنا .

من هذه السرية ظهر لنا قدر قول لا إله إلا الله محمد رسول الله، بل قدر قول السلام عليكم، وأن قائلها يحفظ دمه وماله وعرضه، وأن المعتدى على قائلها مستوجب لغضب الله وغضب رسوله ﷺ، وقد أصبحنا فى زمان يستنكف المسلم أن يقول السلام عليكم، وإذا سمعها من أخيه حقره فى نفسه، ويحب أن يحيى أخاه برطانة الفرنج، ويعتنى بمن يحببه بتلك الألفاظ اللهم رحماك بنا .

الفصل السابع

غزوة الفتح الأعظم وهو فتح مكة شرفها الله تعالى

وهو الفتح الذى استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس بسببه فى دين الله أفواجا، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجا .

خرج ﷺ بكتائب الإسلام وجنود الرحمن لنقض قريش العهد الذى وقع بالحديبية، فإنه كان قد وقع الشرط أن من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله ﷺ وعهده فعل، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم فعل، فدخلت بنو بكر فى عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة فى عقد رسول الله ﷺ وعهده .

حلف خزاعة وعبد المطلب

وكانت خزاعة حلفاء جده عبد المطلب حين تنازع مع عمه نوفل فى ساحات وأفنية من السقاية كانت فى يد عبد المطلب فأخذها منه نوفل، فاستنهض عبد المطلب قومه فلم ينهض معه منهم أحد وقالوا: لا ندخل بينك وبين عمك، ثم كتب إلى أخواله بنى النجار فجاء منهم سبعون وقال: ورب هذه البنية لتردن على ابن أختنا ما أخذت منه وإلا ملأنا منك السيف فرده . ثم حالف نوفل بنى أخيه عبد شمس، فحالف عبد المطلب خزاعة، وكان ﷺ بذلك عارفا، ولقد جاءته خزاعة يوم الحديبية بكتاب جده عبد

المطلب فقرأه عليه أبى بن كعب ﷺ، وهو باسمك اللهم هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة إذ قدم عليه سراهم وأهل الرأى منهم، غائبهم يقر بما قاضى عليه شاهدهم، أن بيننا وبينكم عهود الله وعقوده وما لا ينسى أبدا، اليد واحدة، والنصر واحد، ما أشرق ثبير وثبت حراء، وما بل بحر صوفة، ولا يزداد فيما بيننا وبينكم إلا تجددا أبد الدهر سرمدا. وفى رواية: حلفا جامعا غير مفرق، الأشياخ على الأشياخ، والأصاغر على الأصاغر، والشاهد على الغائب، وتعاهدوا وتعاقدوا أوكد عهد، وأوثق عقد، لا ينقض ولا ينكث، ما أشرقت شمس على ثبير، وحن بفلاة بعير، وما أقام الأخشبان، واعتمر بمكة إنسان، حلف أبد لطول أمد، يزيده طلوع الشمس شدا، وظلام الليل مدا، وأن عبد المطلب وولده ومن معهم ورجال خزاعة متكافئون متضافرون متعاونون، على عبد المطلب النصرة لهم عن تابعه على كل طالب، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده ومن معهم على جميع العرب فى شرق أو غرب، أو حزن أو سهل، وجعلوا الله على ذلك كفيلا، وكفى به جميلا.

ولما ذكرت خزاعة ذلك الحلف للنبى ﷺ يوم الحديبية قال ﷺ: ما أعرفنى بحلفكم، وأنتم على ما أسلمتم عليه من الحلف، وكل حلف كان فى الجاهلية فلا يزيده الإسلام إلا شدة، ولا حلف فى الإسلام. وهذا الذى نفاه فى الإسلام هو ما كان على الفتن والقتال والغارات، والذى قواه الإسلام ما كان على نصر المظلوم وصلة الأرحام والخير ونصرة الحق، فلا تنافى حينئذ.

القتال بين بنى بكر وخزاعة ونقض العهد

ثم أنه قد كان بين بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة وبين خزاعة حروب وقتلى فى الجاهلية، وتشاغلوا عن ذلك لما ظهر الإسلام، فلما كانت الهدنة خرج نوفل بن معاوية الديلى من بنى بكر ومعه جماعة من قبيلة بنى الديل حتى بيت خزاعة ــ وهم على ماء لهم يسمى الوتير بأسفل مكة ــ فأصاب منهم رجلا يقال له منبه، واستيقظت لهم خزاعة فاقتتلوا إلى أن دخلوا الحرم و لم يتركوا القتال، فلما انتهوا إلى الحرم قالت بنو بكر: يا نوفل إنا قد دخلنا الحرم إلهك إلهك، فقال كلمة عظيمة وهى قوله: لا إله له، يا بنى بكر أصيبوا ثأركم فلعمرى أنكم لتسرفون فلا تصيبون ثأركم فيه.

وقيل: إن سبب القتال بين بنى بكر وخزاعة أن شخصا من بنى بكر هجا رسول الله ﷺ وصار يتغنى به، فسمعه غلام من خزاعة فضربه فشجه، فثار الشر بين الحيين مع ما كان بينهم من العداوة، وطلب بنو بكر من قريش أن يعينوهم بالرجال والسلاح على خزاعة فأمدوهم بذلك فبيتوا خزاعة، ووقع القتال بينهم وكان جملة من قتل من خزاعة عشرين أو ثلاثة وعشرين.

وقاتل مع بنى بكر جمع من قريش خفية منهم صفوان بن أمية، وحويطب بن عبد العزى، وعكرمة بن أبي جهل، وشيبة بن عثمان، وسهيل بن عمرو وكل هؤلاء أسلموا بعد ذلك ﷺ ــ و لم يشاوروا فى ذلك أبا سفيان، وقيل: شاوروه فأبى عليهم وظنوا أنهم لم يعرفوا، وأن هذا لا يبلغ رسول الله ﷺ، ولا زالوا يقاتلون خزاعة حتى أدخلوهم دار بديل بن ورقاء الخزاعى

بمكة، فلما ناصرت قريش بنى بكر على خزاعة ــ ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد والميثاق ندموا. وفى رواية: ولما لجأت خزاعة إلى دار بديل بن ورقاء ودار مولى لهم يقال له رافع وانتهوا بهم فى عماية الصبح، ودخلت رؤساء قريش منازلهم وهم يظنون أنهم لا يعرفون، وأصبحت خزاعة مقتولين على باب بديل ورافع، فقال سهيل بن عمرو لنوفل بن معاوية البكرى: قد حصرتهم تريد قتل من بقى وهذا مما لا نطاوعك عليه فاتركهم، فتركهم فخرجوا. وندمت قريش على ما صنعوا وجاء الحارث بن هشام، وعبد الله بن أبى ربيعة إلى صفوان ومن كان معه فلاماهم على ما صنعوا وقالا: إن بينكم وبين محمد مدة وهذا نقض لها، وقالت قريش: إن محمدا غازينا، فقال بن أبى سرح: لا يغزوكم حتى يخيركم فى خصال كلها أهون من غزوة، يرسل إليكم أن دوا قتلى خزاعة وهم ثلاثة وعشرون قتيلا، أو تبرأوا من حلف بنى بكر، أو ننبذ إليكم على سواء، فقال سهيل بن عمرو: نبرأ من حلفهم أسهل، وقال شيبة بن عثمان: ندى القتلى أهون، وقال قرطة بن عمرو: لا ندى ولا نبرأ لكنا ننبذ إليه على سواء، وقال أبو سفيان: ليس هذا بشىء وما الرأى الصواب إلاجحد هذا الأمر، أى: كون قريش دخلت فى نقض عهد أو قطع مدة، وأنه قطع قوم بغير رضا منا ولا مشورة فما علينا، قالوا: هذا الرأى ولا رأى غيره. وكان هذا النقض من قريش فى شعبان سنة ثمان.

الإخبار بنقض العهد من أعلام نبوته ﷺ

وأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك يوم وقوعه حتى قال لعائشة رضي الله عنها صبيحة وقعة خزاعة: لقد حدث يا عائشة فى خزاعة أمر، فقالت: أترى قريشا تجترىء على نقض العهد الذى بينك وبينهم وقد أفناهم السيف؟ فقال: ينقضون العهد لأمر يريده الله تعالى، قالت: يا رسول الله خير، قال: خير.

وروى الطبرانى فى حديث ميمونة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: بات عندى رسول الله ﷺ ليلة فقام ليتوضأ للصلاة فسمعته يقول فى متوضئه بالليل: لبيك لبيك لبيك ثلاثا، نصرت نصرت نصرت ثلاثا فلما خرج قلت: يا رسول الله سمعتك تقول فى متوضئك: لبيك لبيك لبيك ثلاثا، نصرت نصرت نصرت ثلاثا كأنك تكلم إنسانا، فهل كان معك أحد؟ فقال: هذا راجز بنى كعب ــ وهم بطن من خزاعة ــ يستصرخنى، ويزعم أن قريشا أعانت عليهم بنى بكر.

وهذا علم من أعلام النبوة باهر، فإما أنه أعلم بذلك بالوحى وعلم ما تصوره الراجز فى نفسه، أو أن الراجز كان يرتجز وأسمع الله نبيه ﷺ كلامه.

الاستعداد للفتح الأعظم

قال أهل السير: ولما انقضى قتال بنى بكر وخزاعة خرج عمر بن سالم الخزاعى أحد بنى كعب ــ وهم بطن من خزاعة ــ ومعه أربعون راكبا من خزاعة، فقدموا على رسول الله ﷺ يخبرونه بالذى أصابهم ويستنصرونه.

وقبل قدومهم بثلاث أمر النبى ﷺ عائشة رضى الله عنها أن تجهزه، أى: تهيىء له أهبة السفر وما يحتاج إليه فى قطع المسافة، اعتمادا على ما أطلعه الله عليه مما وقع من نقض العهد، وأمرها أن لا تعلم أحدا، فدخل عليها أبو بكر رضي الله عنه قبل أن يخبره النبى ﷺ ويستشيره فى ذلك فقال: يا بنية ما هذا الجهاز؟ فقالت: ما أدرى، فقال: والله ما هذا زمان غزو بنى الأصفر فأين يريد رسول الله ﷺ؟ فقالت: لا علم لى. وفى رواية لأبن أبى شيبة: أنها أعلمته. وجمع بينهما بأنه دخل عليها مرتين الأولى قالت له: لا علم لى، ثم أخبرته ﷺ فأذن لها فى إخبار أبيها لكونه عيبة سره، فدخل عليها ثانيا فأخبرته، فقال: والله ما انتقضت الهدنة بيننا، وخرج رضي الله عنه فذكر ما قالت له للنبى ﷺ، فذكر له ﷺ أنهم أول من غدر.

قالت ميمونة رضى الله عنها: فأقمنا ثلاثا، أى: بعد قوله لها هذا راجز بنى كعب، ثم صلى بالناس.

صلى اليوم الثالث فسمعت الراجز ينشده، وذلك أن عمرو بن سالم أقبل هو ومن معه حتى دخل على النبى ﷺ وهو جالس بالمسجد فقال منشئا:

يارب أنى ناشد محمدا ... حلف أبيه وأبينا الأتلدا

إن قريشا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا

وزعموا أن لست تدعو أحدا ... وجعلوا لى فى كداء رصدا

فانصر رسول الله نصرا أبدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا

فيهم رسول الله قد تجردا | أن سيم خسفا وجهه تربدا
هم بيتونا بالوتير هجدا | وقتلونا ركعا وسجدا

وفى رواية:

هم قتلونا بصعيد هجدا | نتلو القرآن ركعا وسجدا
وزعموا أن لست أدعوا أحدا | فهم أذل وأقل عددا

فقال له رسول الله ﷺ: نصرت يا عمرو بن سالم. وفى رواية: فقام ﷺ وهو يجر رداءه وهو يقول: لا نصرت إن لم أنصركم بما أنصر به نفسى. وفى رواية قال: والذى نفسى بيده لأمنعنهم مما أمنع منه نفسى وأهل بيتى. وفى رواية: قالت عائشة رضى الله عنها: لقد رأيت رسول الله ﷺ غضب مما كان من شأن بنى كعب غضبا لم أره غضبه منذ زمان. وفى رواية: أنه دمعت عيناه حين سمع شعر عمرو بن سالم وقال: خزاعة منى وأنا منهم.

وسأل ﷺ عمرو بن سالم فيمن همتكم؟ قال فى بنى بكر، قال: كلها، قال: لا ولكن فى بنى نفاثة ــ وهم بطن من بنى بكرــ قال ﷺ لعمرو بن سالم وأصحابه: ارجعوا أو تفرقوا فى الأودية، فرجعوا وتفرقوا وذهبت فرقة إلى الساحل، وفرقة لزمت الطريق، وقصد بذلك ﷺ إخفاء ﷺ مجيئهم للنبى ﷺ.

ثم قدم بديل بن ورقاء الخزاعى على النبى ﷺ بعد ذهاب عمرو بن سالم ومعه نفر من قومه فأخبروه ﷺ الخبر، ورجعوا ولزم بديل الطريق فى نفر من قومه، وقيل: إن بديلا لم يفارق مكة حتى لقيه فى الفتح بمر الظهران. وفى رواية: أنه

ﷺ قال لركب خزاعة: أنا باعث إلى أهل مكة فسائلهم عن هذا الأمر ومخيرهم فى خصال ثلاث، فبعث إليهم ضمرة يخيرهم بين أن يدوا قتلى خزاعة، أو يبرأوا من حلف بنى نفاثة، أو ينبذ إليهم على سواء، فأتاهم ضمرة فأخبرهم، فقال قرطة بن عمرو: لاندى ولا نبرأ ولكن ننبذ إليه على سواء.

الرعب يملأ قلب أبو سفيان

ثم ندمت قريش على ماردوا به فبعثوا أبا سفيان يجدد الصلح ويزيدهم فى المدة، وقيل: إن أبا سفيان توجه مبادرا قبل أن يبلغ المسلمين الخبر، ولم يعلم بمسير خزاعة قبله، وقيل: إن الحارث ابن هشام وعبد الله بن أبى ربيعة مشيا إلى أبى سفيان فقالا: لئن لم يصلح هذا الأمر لا يروعكم إلا محمد فى أصحابه، فقال أبو سفيان: قد رأت هند بنت عتبة رؤيا كرهتها وخفت من شرها، قالوا: وما هى؟ قالت: رأت دما أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخندمة مليا، ثم كان ذلك الدم كأن لم يكن، فكرهوا الرؤيا.

وقال أبو سفيان: هذا أمر لم أشهده ولم أغب عنه ولا يحمل إلا على، والله ما شوورت فيه ولا هويته حتى بلغنى ليغزونا محمد إن صدقنى ظنى وهو صادقى، وما بد من أن آتى محمدا فأكلمه، فقالت قريش: أصبت.

فخرج ومعه مولى له على راحلتين، وعند رجوع ركب خزاعة من المدينة لقوا أبا سفيان بعسفان، فسألهم هل ذهبتم إلى المدينة؟ قالوا: لا، وتركوه وذهبوا، فجاء إلى مبركهم بعد أن فارقوه فأخذ بعرا وفتته فوجد فيه النوى، فعلم أنهم ذهبوا إلى المدينة.

وفى رواية: أن أبا سفيان لقى بديل بن ورقاء بعسفان فأشفق أبو سفيان أن يكون بديل قد جاء رسول الله ﷺ فقال للقوم: أخبرونا عن يثرب متى عهدكم بها؟ قالوا: لا علم لنا بها إنما كنا بالساحل نصلح بين الناس فى قتيل. وفى لفظ قال: من أين أقبلت يا بديل قال: سرت إلى خزاعة فى هذا الساحل، قال: أوما أتيت محمدا؟ قال: لا، فلما راح بديل إلى مكة، أى: توجه إليها، قال أبو سفيان: لئن كان جاء إلى المدينة لقد علف بها النوى، فجاء إلى منزلهم ففتت أبعار أباعرهم فوجد فيها النوى، فقال أبو سفيان: أحلف بالله لقد جاء القوم محمدا. وقبل قدوم أبى سفيان المدينة قال ﷺ لأصحابه ﷺ: كأنكم بأبى سفيان قد جاء يقول: جدد العهد وزد فى المدة وهو راجع بسخطة، فلما انتهى أبو سفيان إلى المدينة دخل على بنته أم حبيبة أم المؤمنين زوج النبى ﷺ ورضى الله عنها، فأراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ فطوته عنه، فقال: يا بنية ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر، فقالت: بل هدانى الله للإسلام فأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها، كيف يسقط عنك الدخول فى الإسلام وأنت تعبد حجرا لا يسمع ولا يبصر، فقام من عندها فأتى رسول الله ﷺ يسأله أن يجدد العهد ويزيد فى المدة، فأبى عليه.

قال ابن إسحق: إنه كلم النبى ﷺ فلم يرد عليه شيئا. وفى رواية قال: يا محمد إنى كنت غائبا فى صلح الحديبية فاشدد العهد وزدنا فى المدة، فقال ﷺ: فلذلك جئت، قال: نعم، فقال: هل كان من حدث؟ فقال: معاذ الله نحن على عهدنا وصلحنا لا نغير ولا نبدل، فقال ﷺ: فنحن على ذلك، فأعاد أبو =

سفيان القول فلم يرد عليه شيئا ٠

فذهب إلى أبي بكر ﷺ فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل٠ وفى رواية: قال لأبي بكر: تكلم محمدا أو تجير بين الناس، فقال: جوارى فى جوار رسول الله ﷺ٠

فأتى عمر ﷺ فقال: أنا أشفع لكم، والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به٠ وفى رواية قال له عمر ﷺ: ما كان من حلفنا جديدا فأخلفه الله، وما كان متينا فقطعه الله، وما كان منه مقطوعا فلا وصله الله، فقال أبو سفيان: جوزيت من ذى رحم شرا٠

ثم دخل على على ﷺ وعنده فاطمة رضى الله عنها، وحسن ﷺ غلام يدب بين يديها، فقال: يا على إنك أمس القوم بى رحما، وإنى جئت فى حاجة فلا أرجع كما جئت خائبا، فاشفع لى، فقال على ﷺ: ويحك يا أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه، فالتفت إلى فاطمة وقال: يا بنت محمد هل لك تأمرى ابنك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر، فقالت: والله ما بلغ بنى هذا أن يجير بين الناس، وما كان أحد يجير على رسول الله ﷺ٠

وفى رواية: أنه جاء عثمان ﷺ قبل على ﷺ فقال: جوارى فى جوار رسول الله ﷺ٠ ثم أتى سعد بن عبادة ﷺ فقال: يا أبا ثائب إنك سيد هذه البحيرة فأجر بين الناس وزد فى المدة، فقال سعد: جوارى فى جوار رسول الله ﷺ ما يجير أحد عليه٠

فأتى أشراف قريش والأنصار فكلمهم وكلهم يقول: جواري في جوار رسول الله ﷺ ما يجير أحد عليه. فلما أيس منهم دخل على فاطمة رضي الله عنها فقال: هل لك أن تجيري بين الناس؟ فقالت: إنما أنا امرأة وأبت عليه، فقال: مري ابنك، فقالت: ما بلغ أن يجير، فقال لعلي ﷺ: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت على فانصحني، قال: والله ما أعلم شيئا يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك، قال: أو ترى ذلك مغنيا عني شيئا؟ قال: لا والله ما أظنه، ولكن لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد فقال: أيها الناس إني قد أجرت بين الناس، ولا والله ما أظن أن يخفرني أحد.. ثم دخل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إني قد أجرت بين الناس، فقال ﷺ: أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة، ثم ركب بعيره وانصرف إلى مكة.

أبو سفيان يعود إلى مكة متهما

وكان غيبته قد طالت واتهمته قريش أشد التهمة وقالوا: قد صبأ واتبع محمدا سرا وكتم إسلامه، فلما دخل على هند امرأته ليلا قالت: لقد غبت حتى اتهمك قومك، فإن كنت مع طول الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل، ثم جلس منها مجلس الرجل من امرأته فقالت: ما صنعت؟ فأخبرها الخبر وقال: لم أجد إلا ما قال لي علي، فضربت برجلها في صدره وقالت: قبحت من رسول قوم فما جئت بخير، فلما أصبح حلق رأسه عند أساف ونائلة وذبح لهما ومسح بالدم رؤوسهما وقال: لا أفارق عبادتكما حتى أموت، وأراد بذلك أن تبرئه قريش

مما اتهمته به من قولهم: إنه صبأ، فلما صنع ذلك قالوا له: ما وراءك هل جئت بكتاب من محمد أو زيادة فى مدة فإنا لا نأمن أن يغزونا؟ فقال: والله لقد أبى على. وفى رواية: كلمته فوالله ما رد على شيئا، ثم جئت أبا بكر فلم أجد فيه خيرا، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أدنى العدو. وفى رواية: أعدى العدو. وكلمت عليه أصحابه فما قدرت على شىء إلا أنهم يرمونني بكلمة واحدة، وما رأيت قوما يوما أطوع لملك عليهم منهم له، إلا أن عليا لما ضاقت بى الأمور قال: أنت سيد بنى كنانة فأجر بين الناس فناديت بالجوار، قالوا: هل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا وإنما قال: أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة، قالوا: رضيت بغير رضا، وجئتنا بما لا يغنى عنا ولا عنك شيئا، ولعمر الله ما جوارك بجائز، وإن إخفارك عليهم لهين، والله ما زاد على على أن لعب بك تلعبا، فقال: والله ما وجدت غير ذلك، فقالوا: ما جئتنا بحرب فنحذر، ولا صلح فنأمن.

وتجهز رسول الله ﷺ وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها.

الرسول ﷺ يستشير أصحابه ﷺ

وروى ابن أبى شيبة عن أبى مالك الأشجعى قال: خرج رسول الله ﷺ من بعض حجره فجلس عند بابها ـ وكان إذا جلس وحده لم يأته أحد حتى يدعوه ـ فقال: ادع لى أبا بكر فجاء فجلس بين يديه فناجاه طويلا، ثم أمره فجلس عن يمينه، ثم قال: ادع لى عمر فجاء فجلس فناجاه طويلا فرفع عمر صوته فقال: يا رسول الله هم رأس الكفر الذين زعموا أنك ساحر وأنك كاهن

وأنك كذاب وأنك مفتر ولم يدع شيئا مما يقولون ألا ذكره، ثم قـال: وأيم الله لا تذل العرب حتى تذل أهل مكة، فأمره فجلس عن شماله، ثم دعا الناس فقـال: ألا أحدثكم بمثل صاحبيكم هذين، قالوا: نعم يا رسول الله، فأقبل بوجهه الكريم على أبي بكر ﷺ فقال: إن ابراهيم عليه السلام كان ألين فى الله تعـالى مـن الدهـن بـالليل، ثم أقبل على عمر ﷺ فقال: إن نوحا كان أشـد فى الله تعـالى مـن الحجر، وإن الأمـر أمر عمر فتجهزوا وتعاونوا، فتبعوا أبا بكر فقـالوا: إنـا كرهنا أن نسأل عمر عما ناجاك به رسول الله ﷺ قال: قال لى: كيف تشـير على فى غزو مكة؟ قلت: يا رسول الله هم قومك، حتى رأيت أنه سيطيعنى، ثم دعا عمر فقال: هم رأس الكفر حتى ذكر له كل سوء كانوا يقولونـه، وقـد أمركم بالجهاد لتغزوا مكة،

وجاء فى بعض الروايات: أنه ﷺ تجهز وما أعلم أحد، والمراد أنه ما أعلـم عامة الناس، فلا ينافى أنه أعلم كبار أصحابه ﷺ، فتجهز الناس،

وقال حسـان ﷺ يحرض الناس ويذكر مصاب رجال خزاعة:

عنانى ولم أشهد ببطحاء مكـة   رجال بنى كعب تحز رقابهـا
بأيدى رجال لم يسلوا سيوفهم   وقتلى كثير لم تجـن ثيابهـا
ألا ليت شعرى هل تنالن نصرتى   سهيل بن عمرو حرها وعقابها
وصفوان عودا حز من شفر أسته   فهذا أوان الحرب شد عصابها
فلا تأمننـا يـا ابن أم مجالـد   إذا احتلبت صرفا وأعصل نابها

ولا تجزعوا منها فإن سيوفنا   لها وقعة بالموت بفتح بابها

قال ابن إسحق: قوله بأيدى رجال يعنى قريشا، وابن أم مجالد عكرمة بن أبى جهل، وكان ﷺ يقول: اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة، ولا يسمعون بنا إلا فلتة.

وأمر جماعة أن تقيم بالأنقاب، وكان عمر رضي الله عنه يطوف على الأنقاب فيقول: لا تدعوا أحدا يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه. وفى رواية: ثم أمر بالطرق فحبست، فعمى على أهل مكة لا يأتيهم خبر.

قصة حاطب ابن أبى بلتعة

كتب حاطب بن أبي بلتعة البدرى حليف بنى أسد رضي الله عنه كتابا وأرسله إلى مكة يخبرهم بمسير النبى ﷺ، وأرسله مع امرأة استأجرها بعشرة دنانير، وقال لها: أخفيه ما استطعت ولا تمرى على الطريق فإن عليه حرسا، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فقال ﷺ: لعلى بن أبي طالب، والزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود رضي الله عنه، انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ــ وهو موضع على بريد من المدينة ــ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين فخذوه منها. قالوا: فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا لها: أخرجى الكتاب، قالت: ما معى كتاب، فالتمسناه فلم نر كتابا فقلنا: ما كذب رسول الله ﷺ لتخرجن الكتاب أو لنلقين عنك الثياب.

وفى رواية: أو لنكشفنك، أو لنضربن عنقك، فلما رأت الجد حلت قرونها فأخرجته من عقاصها (ضفائر الشعر). وفى رواية: فلما رأت الجد أهوت إلى

حجزتها فأخرجته، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى سهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية . . أما بعد: يا معشر قريش فإن رسول الله ﷺ جاءكم بجيش عظيم يسير كا لسيل، فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجزله وعده، فانظروا لأنفسكم والسلام. وفى رواية: أن لفظ الكتاب أن رسول الله ﷺ أذن فى الناس بالغزو ولا أراه يريد غيركم، وقد أحببت أن تكون لى عندكم يد.

فدعا النبى ﷺ حاطبا فقال: أتعرف هذا الكتاب؟ قال: نعم، قال: ما حملك على هذا؟ قال حاطب: يا رسول الله لا تعجل على أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت، وفى لفظ: ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششت منذ نصحت، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكنى كنت امرأ ملصقا فى قريش — يعنى حليفا لهم — ولم أكن من أنفسها. وفى رواية: ولكنى كنت امرأ ليس لى فى القوم أصل ولا عشيرة، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليه، وكان من معك من المهاجرين ممن له أهل أو مال بمكة لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت — إذ فاتنى النسب فيهم — أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتى. وفى رواية فقال خاطب: والله ما ارتبت فى الله منذ أسلمت ولكننى كنت امرأ غريبا، ولى فى مكة بنون وأخوة فكتبت كتابا لا يضر الله ورسوله، ولم أفعله ارتدادا عن دينى، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: أما إنه قد صدقكم فيما أخبركم به، فقال له عمر ﷺ: قاتلك الله، ترى رسول الله ﷺ يأخذ بالأنقاب وتكتب إلى قريش. وفى رواية أنه قال: إنه يعلم يا رسول الله أنك أخذت على الطريق، وأمرت أن لا نرى أحدا يمر ممن ننكره إلا

رددناه، يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: إنه قد شهد بدرا، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. وفي رواية: فقد وجبت لكم الجنة. وفي أخرى لا يدخل النار أحد شهد بدرا، فدمعت عينا عمر ﷺ وقال: الله ورسوله أعلم.. وأنزل الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ (الممتحنة: ١) فالذي نزل في ذلك إلى هنا، وقيل: إلى قوله ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم﴾ (الممتحنة: ٤).

الدروس المستفادة من قصة حاطب ابن أبي بلتعة

وإنما قال عمر ﷺ: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق مع تصديق رسول الله ﷺ لحاطب فيما اعتذر به، لما كان عند عمر ﷺ من القوة في الدين وبغض المنافقين، فظن أنه يستحق القتل لكونه خالف ما أمر به النبي ﷺ من إخفاء مسيره عن قريش، وحرصه على عدم وصول خبره إليهم، وبعثه جماعة على الطريق حتى لا يبلغهم الخبر، فلذا ظن أنه استحق القتل لكنه لم يجزم بذلك، فلذلك استأذن في قتله، وأطلق عليه منافقا لكونه أظهر خلاف ما أبطن. وحاطب كان معذورا متأولا بما ذكره من عذره، وكفاه منقبة شهادة الله له بالإيمان حيث قال:﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا.. إلخ﴾ .

وقوله ﷺ: لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، ليس فيه إباحة المعاصى لهم، وإنما هو خطاب إكرام وتشريف تضمن أنهم ﷺ حصلت لهم حالة غفرت بها ذنوبهم السالفة، وتأهلوا لأن يغفر لهم ما سيحصل من الذنوب لو فرض وقوعه منهم، وما أحسن قول بعضهم:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

وقد أظهر الله صدق رسول الله ﷺ فى كل من أخبر عنه بشىء من ذلك، فإنهم لم يزالوا على أعمال أهل الجنة إلى أن فارقوا الدنيا، ولو قدر صدور شىء من أحدهم لبادر إلى التوبة ولازم الطريقة المثلى.. يعلم ذلك من أحوالهم بالقطع من اطلع على سيرهم ﷺ.

الخروج إلى مكة

ولما أراد ﷺ الخروج من المدينة وعزم على غزو أهل مكة، بعث إلى من حوله من العرب وطلب حضورهم (أسلم وغفار وأشجع وسليم وغيرهم) فأرسل إليهم يقول لهم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة، وبعث رسلا فى كل ناحية، فمنهم من وافاه بالمدينة، ومنهم من لحقه بالطريق، فكان المسلمون فى غزوة الفتح عشرة آلاف. وقيل: اثنى عشر ألفا من المهاجرين والأنصار وأسلم وغفار ومزينة وجهينة وأشجع وسليم. وقيل: إن العشرة آلاف خرج بهم من نفس المدينة ثم تلاحق به ألفان.

قال الحلبى فى السيرة: وكان المهاجرون سبعمائة ومعهم فرس، وكانت الأنصار أربعة آلاف ومعهم خمسمائة فرس، وكانت مزينة ألفا ومعهم مائة

فرس، وكانت أسلم أربعمائة ومعها ثلاثون فرسا، وكانت جهينة ثمانمائة ومعها خمسون فرسا، وكان معه ﷺ من زوجاته أم سلمة وميمونة رضى الله عنها، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم. وقيل: أبا رهم كلثوم بن الحصين الغفارى، وجمع بينهما بأن أبا رهم جعله للقضايا والأحكام، وابن أم مكتوم للصلاة.

وخرج ﷺ من المدينة لعشر ليال خلون فى رمضان بعد العصر سنة ثمان من الهجرة، وقيل: لليلتين خلتا من رمضان، وقيل: لست عشرة، وقيل: ثمان عشرة. قال النووى: لا أعلم خلافا فى أن ذلك فى شهر رمضان، أى: وإنما الخلاف فيما مضى منه حين الخروج، ولما بلغ ﷺ الكديد ـ بفتح الكاف وهو موضع بين قديد وعسفان ـ أفطر لأنه بلغه أن الناس شق عليهم الصيام، وقيل له: إنما ينظرون فيما فعلت، فلما استوى على راحلته بعد العصر دعا بإناء من ماء، وقيل: من لبن، فوضعه على راحلته ليراه الناس فشرب فأفطر، فناوله رجلا إلى جنبه فشرب فلم يزل مفطرا رفقا بالمسلمين حتى انسلخ الشهر، لأنه وإن قدم مكة قبل تمام الشهر لكنه كان فى أهبة القتال وبعث السرايا و لم ينو الإقامة، ولذا كان يقصر الصلاة.

العباس أسلم قديما وهاجر أخيرا

وكان العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبى ﷺ قد خرج بأهله وعياله مهاجرا فلقى رسول الله ﷺ بالجحفة، وكان إسلامه قديما، وكان يكتمه بأمر النبى ﷺ، وكان ﷺ أمره بالإقامة بمكة ليكتب له أخبار قريش، وكان العباس رضي الله عنه يسره

مـــا يفتح الله على المسلمين، وما أظهر إسلامه لأهل مكة إلا يوم الفتح، وكـان مقيما بمكة علـــى سقايته، وكان ينفع المستضعفين بمكة وبه يتقون، ورسول الله ﷺ عنه راض. وقيل: إنه لقى النبى ﷺ بذى الحليفة فبعث ثقله إلى المدينة، وسار مع النبى ﷺ إلى مكة للفتح.

وروى الطبرانى عن سهل بن سعد الساعدى ؓ قال: استأذن العباس النـــبى ﷺ فى الهجرة، فكتب إليه يا عم أقم مكانك الذى أنت فيه فإن الله يختم بـــك الهجرة كما ختم بى النبوة. ولما لقيه قال: هجرتك يا عم آخر هجرة كمـــا أن نبوتى آخر نبوة.

ابن العم والعمة أشد الناس أذية لرسول الله ﷺ

وكان ممن لقيه ﷺ فى الطريق أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن عمه ﷺ وأخوه فى الرضاع من حليمة السعدية، وكان مع أبى سفيان ولده جعفـــر، وعبد الله بن أبى أمية المخزومى ابن عمته ﷺ عاتكة بنت عبد المطلب وهو أخــو أم سلمة زوج النبى ﷺ لأبيها، لأن أمها عاتكة بنت عامر بن قيس.

وكان لقـــاء أبى سفيان ومن معه للنبى ﷺ بنقب العقاب بين مكة والمدينـــة، وقيل: بالأبواء، وهم مسلمون مهاجرون، واسم أبى سفيان كنيته، وقيل: اسمـــه المغيرة، وكان يألف النبى ﷺ ولا يفارقه قبل النبوة، فلما بعثه الله عاداه وهجـــاه، وأجابه عنه حسان ؓ كثيرا. وكان عبد الله بن أبى أمية قبل إسلامه شـــديدا على النبى ﷺ وعلى المسلمين. وفى لفظ: وكان كل منهما، أى: من أبى سـفيان وعبد الله، من أشد الناس أذية لرسول الله ﷺ، فأعرض عنهما ﷺ لما لقياه ــ لمـــا

كان منهما من شدة الأذى والهجو ــ فالتمسا الدخول عليه ﷺ، فكلمته أم سلمة رضى الله عنها فيهما فقالت: يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك، فقال: لا حاجة لى بهما، أما ابن عمى فهتك عرضى، وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال لى بمكة ما قال ــ يعنى قوله له: والله لا آمنت بك حتى تتخذ سلما إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر، ثم تأتى بصك وأربعة من الملائكة يشهدون أن الله أرسلك ــ فقالت له أم سلمة رضى الله عنها: لا يكون ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك.

فلما خرج الخبر إليهما بذلك قال أبو سفيان: ليأذنن لى أو لآخذن بيد ابنى هذا - يعنى ولده جعفرا ــ ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشا وجوعا، فلما بلغ ذلك النبى ﷺ رق لهما، ثم أذن لهما فدخلا عليه وأسلما، وأنشده أبو سفيان معتذرا مما مضى فقال:

لعمرك أنى يوم أحمل راية	لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكا لمدلج الحيران أظلم ليلة	فهذا أوانى حين أهدى وأهتدى
هذا بى هاد غير نفسى ونالنى	مع الله من طردت كل مطرد
أصد وأنأى جاهدا عن محمد	وأدعى وإن لم أنتسب من محمد

قال ابن إسحق: لما قال: ونالنى مع الله من طردت كل مطرد، ضرب ﷺ صدره وقال: أنت طردتنى كل مطرد.

وقال على ﷺ لأبى سفيان بن الحارث عند أذنه ﷺ له فى الدخول عليه: ائت

من قبل وجهه فقل له ما قال أخوة يوسف: ﴿تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنـــا لخاطئين﴾ (يوسف: ٩١) فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولا، ففعـــل ذلك أبو سفيان، فقال له ﷺ: ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحـــم الراحمين﴾ (يوسف: ٩٢) ويقال: إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أســـلم حياء منه. وكان ﷺ يحبه ويشهد له بالجنة، ولزم ركاب النبى ﷺ يوم حنيــــن ولم يفارقه. وكان ﷺ يقول فيه: أرجو أن يكون خلفا من حمزة. وقال لـــه ﷺ: كـــل الصيد فى جـــوف الفرا. وقيل: قال ذلك لأبى سفيان بن حـــرب (ولا مانع من التعدد).

وتوفى أبو سفيان بن الحارث ﷺ سنة خمس عشرة أو عشــــرين بالمدينـــة، وصلى عليه عمر بن الخطاب ﷺ، وقبره بالمدينة معروف يزار، عليه قبة منـيرة. يروى أنه قال عند موتـــه: ولا تبكن على فإنى لم أنطق بخطيئة منذ أســـلمت. وأما عبد الله بن أمية المخزومى فكذلك كان بعد إسلامه شديد الحياء من النـــبى ﷺ، لا يستطيع أن يرفع طرفه إليه حياء منه، واستشهد فى غزوة الطائف ﷺ.

عقد الألوية

وعقد ﷺ الألوية بقديد ودفعها للقبـــائل فأعطى لبنى سليم لـــــواء ورايـــة، ولبنـــى غفار راية، ولأسلم لواءين، ولبنى كعب راية، ولمزينة ثلاثـــة ألويـــة، ولجهينة أربعة ألوية، وكان جماعة من بنى بكر أسلموا فكانوا معه ﷺ فأعطـــاهم لواء، ولأشجع لواءين. ورآى أبو بكر الصديق مناما قبل عقد الألوية، وقيـــل: عند نزولهم بمر الظهران، فقال: يا رسول الله رأيت أنا دنونا من مكة فخرجـــت

إلينا كلبة تهر، أى: تصوت، فلما دنونا منها استلقت على ظهرها فإذا هى تشخب لبنا، فقال ﷺ: ذهب كلبهم وأقبل درهم، وهم يساوون بأرحامهم، وإنكم لاقون بعضهم، فإن لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه.

وقوله: ذهب كلبهم، أى: شدهم، وقوله: وأقبل درهم، المراد خيرهم وهو انقيادهم للإسلام.

ثم لما نزل ﷺ مر الظهران أمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار لتراها قريش أوتسمع بها فترعب من كثرتها، واستجاب الله لرسوله ﷺ فأخذ العيون والأخبار عن أهل مكة، و لم يبلغهم مسيره وهم مغتمون محزونون متحيرون خائفون.

العباس يشفق وأبو سفيان يتجسس

وتقدم أن العباس ﷺ استقبل النبى ﷺ وهو مهاجر فبعث أهله إلى المدينة ورجع مع النبى ﷺ. قال العباس: حين نزل النبى ﷺ مر الظهران رقت نفسى لأهل مكة وقلت: وا صباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء فخرجت عليها، حتى جئت الأراك لعلى أجد بعض الحطابة، أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتى مكة يخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة، وكان من قضاء الله وقدره أن خرج أبو سفيان ابن حرب، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء الخزاعى يتجسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبرا أو يسمعون به. وقيل: إنه بلغهم مسيره ﷺ و لم يعلموا إلى أى جهة. وقيل: إن قريشا بعثوا أبا سفيان يتجسس وقالوا: إن

لقيت محمدا فخذ لنا منه أمانا.

فأقبل أبو سفيان وحكيم وبديل يسيرون فلما سمعوا صهيل الخيل راعهم ذلك، ورأوا كثرة النيران فقال أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا، هذه كنيران عرفة، فقال بديل: هذه نيران بنى عمرو ـــ يعنى خزاعة ـــ فقال أبو سفيان: هم أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها، فلما دخل أبو سفيان ومن معه عسكر المسلمين أخذهم حرس رسول الله ﷺ. وفى رواية: أخذتهم الخيل تحت الليل، وكان الحرس عند نفر من الأنصار، وكان عمر بن الخطاب ﷺ عليهم تلك الليلة فجاءوا بهم، فلما أخذوا بخطم أبعرتهم قال أبو سفيان: من أنتم؟ قالوا: هذا رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال: هل سمعتم بمثل هذا الجيش نزلوا على أكباد قوم لم يعلموا بهم؟

وروى الطبرانى عن أبى ليلى قال: كنا مع رسول الله بمر الظهران فقال: إن أبا سفيان بالأراك فخذوه، فأخذناه. وفى رواية: إن العباس ﷺ كان صديقا لأبى سفيان فلما ركب العباس البغلة ليتوجه إلى الأراك رجاء أن يجد من يبعثه لقريش ليأخذوا أمانا، إذ سمع صوت أبى سفيان فأخذه وجاء به، فأمسكه الحرس، فأجاره من الحرس أن يقتلوه، وقال عمر ﷺ لأبى سفيان حين مر العباس به عليه: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذى أمكن منك من غير عقد ولا عهد.

قال العباس وقلت له: يا أبا حنظلة، فعرف صوتى فقال: أبو الفضل قلت: نعم، قال: مالك فداك أبى وأمى؟ قلت: والله هذا رسول الله ﷺ فى الناس قد جاءكم بما لا قبل لكم به. وفى رواية: قد جاءكم فى عشرة آلاف، فقال: وا

صباح قريش والله فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك، فترك صاحبيه وركب خلف العباس ﷺ، فكان كلما مر بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ والعباس ﷺ عليها، قال: عم رسول الله ﷺ على بغلته.

قال العباس: ثم خرج عمر ﷺ يشتد نحو رسول الله ﷺ فركضت البغلة وسبقته، فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ، ودخل عليه عمر فى أثرى فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان عدو الله قد أمكن الله منه من غير عقد ولا عهد فدعنى أضرب عنقه، قال العباس ﷺ قلت: يا رسول الله إنى قد أجرته ــ ولعل العباس وعمر لم يبلغهما قوله ﷺ: لاقون بعضهم فإن لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه ــ قال العباس ﷺ: ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فقلت: لا يناجيه الليلة وزنى رجل، فلما أكثر عمر فى شأن أبى سفيان، قلت: مهلا يا عمرو فوالله لو كان من رجال بنى عدى ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف، فقال: مهلا يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بى إلا أنى عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال رسول الله ﷺ: اذهب يا عباس به إلى رحلك فإذا أصبحت فأتنى به (كذا فى رواية إبن إسحق).

وذكر موسى بن عقبة وغيره أن العباس قال: يا رسول الله أبو سفيان وحكيم وبديل فقد أجرتهم وهم يدخلون عليك، قال: أدخلهم، فدخلوا عليه

فمكثوا عنده عامة الليل يستخبرهم، فدعاهم إلى الإسلام وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله فشهد بديل وحكيم، وقال أبو سفيان: ما أعلم ذلك، والله إن فى النفس من هذا شيئا بعد فأرجئها، أى: أخرها، فقال ﷺ: اذهب به يا عباس، فذهب به فلما أصبح أتى به أول النهار على رسول الله ﷺ.

إسلام أبو سفيان

وروى أن أبا سفيان لما أصبح ورأى الناس بادروا إلى الوضوء قال: ما للناس أمروا فى بشيء، قالوا: لا، ولكنهم قاموا إلى الصلاة، فأمره العباس فتوضأ وانطلق به، فلما كبر ﷺ كبر الناس، ثم ركع فركعوا، ثم رفع فرفعوا، ثم سجد فسجدوا، فقال: ما رأيت كاليوم طاعة قوم جمعهم من ههنا وههنا، ولا فارس الأكارم، ولا الروم ذات القرون بأطوع منهم له، يا أبا الفضل أصبح ابن أخيك والله عظيم الملك، فقال العباس: إنه ليس بملك ولكنها النبوة، فقال: أوذاك؟. فلما رآه ﷺ بعد فراغه من الصلاة قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله، فلما رأى أبو سفيان مخاطبة النبى ﷺ له بهذا الخطاب اللين العذب، وأنه ﷺ أغضى وضرب صفحا عما جرى منه فى عداوته ومحاربته، قال: بأبى أنت وأمى ما أحكمك وأكرمك وأوصلك، لقد ظننت أنه لو كان مع الله إله غيره لأغنى عنى شيئا، لقد استنصرت إلهى واستنصرت إلهك، فوالله ما لقيتك من مرة إلا نصرت على، فلو كان إلهى محقا وإلهك مبطلا لكنت غلبتك.

ثم قال ﷺ: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله، فقال:

بأبي أنت وأمي ما أحكمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه ففى النفس منها شيء، فخاف عليه العباس أن يبادر أحد بقتله ــ لأنه ليس وقت مجادلة لا سيما مع شدة حنق المسلمين عليه ــ فقال له: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك، فأسلم وشهد شهادة الحق ﷺ.

وروى الحافظ الذهبى عن سعيد بن المسيب قال: لما دخل ﷺ مكة ليلة الفتح لم يزالوا فى تكبير وتهليل وطواف بالبيت حتى أصبحوا، فقال أبو سفيان لهند أترين هذا من الله؟ ثم أصبح فقال له النبى ﷺ: قلت لهند أترين هذا من الله، فقال أبو سفيان: أشهد أنك عبد الله ورسوله، والذى يحلف به، ما سمع قولى هذا إلا الله وهند.

وروى ابن عساكر عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم قال: خرج ﷺ وأبو سفيان جالس فى المسجد فقال فى نفسه: ما أدرى بم يغلبنا محمد؟ فأتاه ﷺ فضرب صدره وقال: بالله نغلبك، فقال: أشهد أنك رسول الله.

وروى الحاكم والبيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: رآى أبو سفيان رسول الله ﷺ يمشى والناس يطئون عقبه فقال فى نفسه: لو عاودت هذا الرجل القتال وجمعت له جمعا، فجاء ﷺ حتى ضرب فى صدره فقال: إذن يخزيك الله، فقال: أتوب إلى الله وأستغفر الله ما أيقنت أنك نبى إلا الساعة، إن كنت لأحدث بذلك نفسى.

والحاصل: أن أبا سفيان كان فى أول الأمر مستكرها، فلم يزل ﷺ يترفق به ويتألفه حتى تمكن الإسلام من قلبه، ولقد حضر مع النبى ﷺ غزوة الطائف

ففقئت عينه فجاء بها فى يده إلى النبى ﷺ، فقال له: إن شئت أرجعها الله إليك خيرا مما كانت، وإن شئت خيرا منها فى الجنة، فرمى بها وقال: خيرا منها فى الجنة. وفقئت عينه الأخرى يوم اليرموك فى خلافة عمر ﷺ، وكان يحث الناس ويحرضهم على القتال ويقول: هذا يوم من أيام الله انصروا دين الله ينصركم الله.

قال أنس بن مالك ﷺ: لقد رأيته أعمى يقوده غلامه يدخل به على عثمان ﷺ فى زمن خلافته. وتوفى فى خلافة عثمان ﷺ، وصلى عليه عثمان ودفن بالبقيع سنة أربع وثلاثين. وقيل: سنة إحدى وثلاثين، وعمره ثمان وثمانون سنة.

إياك أن تصغى لما ينقله بعض المؤرخين

قال السيوطى فى تحفة الأدب: روى القزوينى فى تاريخه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لطم أبو جهل فاطمة رضى الله عنها فى أول بعثة النبى ﷺ فشكت إلى رسول الله ﷺ فقال لها: ائت أبا سفيان، فأتته فأخبرته فأخذ بيدها حتى وقف على أبى جهل فقال لها: الطميه كما لطمك، ففعلت، فجاءت إلى النبى ﷺ فأخبرته فرفع يديه وقال: اللهم لا تنسها لأبى سفيان. قال ابن عباس رضى الله عنهما: ما شككت أن إسلامه كان لدعوة النبى ﷺ.

وقد أوصى ﷺ بأصحابه وأنصاره وأصهاره وهو من أصهاره، لأن ابنته أم حبيبة رضى الله عنها كانت زوج النبى ﷺ. وقال ﷺ: إنى سألت الله أن لا يدخل النار أحد ممن صاهرنى أوصاهرته.. فإياك أن تصغى لما ينقله بعض

المؤرخين، ويتشدق به بعض أهل الزيغ والضلال فى الطعن فيه وفى ابنه، أو فى أحد من أصحاب النبى ﷺ فتكون من الهالكين، وما جرى بين الصحابة من الاختلاف فهو محمول على الاجتهاد وكلهم مأجورون إن شاء الله تعالى . . فنسأل الله أن يحيينا ويميتنا على محبة أهل البيت وأصحاب النبى ﷺ، وأن لا يجعل لأحد منهم فى عنقنا ظلامة .

قال موسى بن عقبة: قال أبو سفيان وحكيم بن حزام: يا رسول الله جئت بأوباش الناس ممن يعرف وممن لا يعرف إلى أهلك وعشيرتك، فقال ﷺ: أنتم أظلم وأفجر فقد غدرتم بعد الحديبية، وظاهرتم على بنى كعب ــ يعنى خزاعة ــ بالإثم والعدوان فى حرم الله وأمنه، فقالا: صدقت يا رسول الله، وقال بديل: والله يا رسول الله لقد غدروا، ولو أن قريشا خلوا بيننا وبين عدونا ــ يعنى بنى بكر ــ ما نالوا منا، ثم قال: لو كنت جعلت جدك ومكيدتك لهوازن فهم أبعد رحما وأشد عداوة لك، فقال ﷺ: إنى لأرجو من ربى أن يجمع لى ذلك كله، فتح مكة وإعزاز الإسلام بها، وهزيمة هوازن وغنيمة أموالهم وذراريهم، فإنى أرغب إلى الله تعالى فى ذلك .

أبو سفيان رجل يحب الفخر

ثم قال أبو سفيان: يا رسول الله ادع الناس بالأمان، أرأيت إن اعتزلت قريش فكفت أيديها أهم آمنون؟ قال رسول الله ﷺ: نعم، من كف يده وأغلق داره فهو آمن . ثم أراد العباس ﷺ تثبيت إسلام أبى سفيان ــ لئلا يدخل عليه الشيطان من حيث إنه كان متبوعا فأصبح تابعا ليس له من الأمر شىء ــ

فقال: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا، قال: نعم، ثم أعانه أبو بكر ﷺ، فقد روى ابن أبي شيبة أن أبا بكر ﷺ قال: يا رسول الله أن أبا سفيان رجل يحب السماع، أي: الشرفة ـ يعني فاجعل له شيئا ـ فقال ﷺ: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قال: وما تسع داري. زاد ابن عقبة: ومن دخل دار حكيم فهو آمن ـ وهي من أسفل مكة ودار أبي سفيان أعلاها ـ ومن دخل المسجد فهو آمن. قال: وما يسع المسجد، قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، قال أبو سفيان: هذه واسعة.

وأمر ﷺ مناديه أن ينادي بذلك كله، إلا من استثناهم النبي ﷺ وأمر بقتلهم كما سيأتي. ثم قال له العباس: النجاء إلى قومك، أي: بعد أن حبسه حتى مرت عليه جنود الله كما سيأتي، وفي رواية: أنه ﷺ بعث أبا سفيان وحكيم بن حزام إلى أهل مكة ينادون فيهم بذلك، حتى جاء أبو سفيان قومه صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، أسلموا تسلموا، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك، قال: ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فقامت فيه هند زوجته فأخذت بشاربه وقالت: اقتلوا الحميت، أي: الضخم الدسم الأحمس، قبحت من طليعة قوم.

وفي رواية: أنها أخذت بلحيته ونادت يا آل غالب اقتلوا الشيخ الأحمق، هلا قاتلتم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم، فقال لها: ويحك اسكتي وادخلي بيتك، والله لتسلمن أو لأضربن عنقك. وقال لهم: ويلكم لا تغرنكم هذه من

أنفسكم، فقد جاءكم بما لا قبل لكم به، فتفرقوا إلى دوركم وإلى المسجد.

أربعة رغب النبى ﷺ فى إسلامهم

وروى أنه ﷺ قال قبل مجىء أبى سفيان ومن معه إليه: إن بمكة أربعة نفر أربأ بهم عن الشرك، وأرغب بهم فى الإسلام: عتاب بن أسيد، وجبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وسهيل بن عمرو.. وهذا يدل على أن جبير أسلم يوم الفتح كمن ذكر معه، وقيل: إن إسلامه كان قبل ذلك.

وحكيم بن حزام رضي الله عنه أبوه حزام بن خويلد أخ لخديجة زوج للنبى ﷺ ورضى الله عنها، فهى عمة حكيم، وكان عمره حين أسلم ستين سنة، وعاش فى الإسلام ستين، وتوفى وعمره مائة وعشرون سنة. وكان من أشراف قريش فى الجاهلية والإسلام، أعتق فى الجاهلية مائة رقبة، وفى الإسلام مثل ذلك، فإنه حج فى الإسلام ووقف بعرفه وأعتق بها مائة وصيف فى أعناقهم أطواق الفضة منقوش عليها عتقاء الله عن حزام، وأهدى مائة بدنة قد جللها بالحبرة، وأهدى ألف شاة رضي الله عنه.

أول عرض عسكرى إسلامى يوم المرحمة

ولما أراد ﷺ السير من مر الظهران قال للعباس رضي الله عنه: لا آمن أن يرجع أبو سفيان فيكفر، فاحبسه عند خطم الجبل حتى يرى جنود الله. وجاء أن أبا بكر رضي الله عنه هو الذى قال: يا رسول الله لو أمرت بأبى سفيان فحبس على الطريق، فحبسه العباس بالمضيق دون الأراك. وفى رواية ومعه حكم بن حزام،

فقال أبو سفيان: أغدرا، قال: لا، ولكن لى إليك حاجة حتى تنظر جنود الله وما أعد الله للمشركين. وفى رواية قال له: إن أهل النبوة لا يغدرون.

وأمر ﷺ كل قبيلة أن تكون عند راية صاحبها وتظهر ما معها من القوة والعدة، فأصبح الناس على ظهر، وقدم بين يديه الكتائب، ومرت القبائل على قاداتها، والكتائب على راياتها، فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة. والكتيبة بالتاء المثناه القطعة من الجيش، وأبو سفيان ينظر إليهم ويسأل عنهم.

وأول من قدم خالد بن الوليد ﷺ فى بنى سليم وهم ألف، وقيل: تسعمائة، معه لواءان يحملهم العباس بن مرداس، وخفاق بن بدنة، فحين مروا بأبى سفيان كبروا ثلاثا، فقال أبو سفيان للعباس: من هؤلاء؟ فقال: خالد بن الوليد، فقال: خالد الغلام؟ قال: نعم، قال ومن معه؟ قال: بنو سليم قال: مالى ولبنى سليم.

ثم مر على أثره الزبير بن العوام ﷺ فى خمسمائة من المهاجرين وأفتاء العرب فكبروا ثلاثا، فقال أبو سفيان للعباس: من هؤلاء؟ قال: الزبير بن العوام، قال: ابن أختك، قال: نعم.

ثم مرت كتيبة بنى غفار فى ثلاثمائة يحمل رايتهم أبو ذر ﷺ فلما حاذوه كبروا ثلاثا، فقال: يا عباس من هؤلاء؟ قال: غفار، قال: مالى ولغفار.

ثم مرت أسلم فى أربعمائة فيها لواءان يحملهما بريدة بن الخصيب، وناجيه ابن الأعجم، فلما حاذوه كبروا ثلاثا، فقال: من هؤلاء؟ قال: أسلم، قال: مالى ولأسلم.

ثم مرت بنو كعب بن عمرو وهم خزاعة فى خمسمائة يحمل رايتهم بشر ابن سفيان، فلما حاذوه كبروا ثلاثا، فقال: من هؤلاء؟ قال: بنو كعب أخوه أسلم، قال: هؤلاء حلفاء محمد، قال: نعم.

ثم مرت مزينة فيها مائة فرس وثلاثة ألوية يحملها النعمان، وعبد بن عمرو بن عوف، وبلال بن الحارث، فلما حاذوه كبروا ثلاثا، قال: من هؤلاء؟ قال: مزينة، قال: مالى ولمزينة قد جاءتنى تقعقع من شواهقها.

ثم مرت جهينة فى ثمانمائة فيها أربعة ألوية يحملها معبد بن خالد، وسويد بن صخر، ورافع بن مكيث، وعبد الله بن بدر، فلما حاذوه كبروا ثلاثا، قال: من هؤلاء؟ قال: جهينة، قال: مالى ولجهينة والله ما كان بينى وبينهم حرب قط.
ثم مرت كنانة بنو ليث وضمرة وسعد بن بكر فى مائتين يحمل لواءهم أبو واقد الليثى، فلما حاذوه كبروا ثلاثا، قال: من هؤلاء؟ قال: بنو بكر، قال: نعم أهل شؤم، والله هؤلاء الذين غزانا محمد بسببهم.

ثم مرت أشجع وهم ثلاثمائة معهم لواءان يحملهما معقل بن سنان، ونعيم بن مسعود الأشجعى، فكبروا ثلاثا، قال: من هؤلاء؟ قال: أشجع، قال: هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد ﷺ، فقال له العباس: أدخل الله الإسلام فى قلوبهم فهذا فضل الله.

ومرت بنو تميم وبنو فزارة وسعد بن هذيم وهم من قضاعة، فصنعوا مثل ذلك. وقيل: إن مرور هؤلاء كان قبل أشجع، وأن أشجع كانت آخرهم.

ثم قال أبو سفيان: أبعد ما مضى محمد ﷺ؟ فقال له العباس: لو أتت الكتيبة

التى محمد ﷺ فيها لرأيت الخيل والحديد والرجال وما ليس لأحد بـــه طاقـــة، قـــال: ومن له بهؤلاء طاقة؟

وجعل الناس يمرون وهو يقول عند مرور كل قبيلة ما مر محمد ﷺ؟ فيقـــول العباس: لا، حتى أقبلت كتيبة لم ير مثلها، فى كل بطن منها لواء ـــ وهـــم فى الحديد لا يرى منهم إلا الحدق ـــ فيهم ألفا دارع وفيهم رسول الله ﷺ، فقـــال أبو سفيان: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الأنصار عليهم سعد بن عبـــادة ﷺ ومعـــه رايـــة الأنصار ـــ وتقدم أن راية المهاجرين كانت مع الزبير ﷺـــ وكان جملـــة من كبـــار المهاجرين مع النبى ﷺ والأنصار، وعمر بن الخطـــاب ﷺ يقـــول: رويدا يلحق أولكم آخركم. وفى رواية: ثم جاءت كتيبة خضراء فيها ألفا دارع وفيهم رسول الله ﷺ وأصحابه المهاجرون والأنصار، وفيها الرايات والألوية، مع كل بطن من بطون الأنصار لواء وراية، وهم فى الحديـــد لا يـــرى منـــهم إلا الحدق، ولعمر بن الخطاب ﷺ فيها زجل بصوت عال وهو يقول: رويدا يلحـــق أولكم آخركم. وفى رواية: قال أبو سفيان: سبحان الله يا عباس من هـــؤلاء؟ قال: هذا رسول الله ﷺ فى الأنصار، فقال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقـــة، والله يـــا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما، فقال: يا أبا سفيان إنهـــا النبوة، فقال: نعم إذا.

فلما حاذى سعد بن عبادة أبا سفيان قال: يا أبا سفيان اليوم يـــوم الملحمة، أى: يوم الحرب الذى لا يوجد منه مخلص، اليوم تستحل الكعبـــة، أى: يقتـــل مـــن أهدر دمه ولو تعلق بأستار الكعبة، فقال أبو سفيان: يا عباس حبذا يـــوم الدمـــار، أى: حبذا يوم الهلاك، تمنى أبو سفيان أن يكون له يد وقوة فيحمـــى

قومه ويدفع عنهم، وقيل معناه: هذا يوم الغضب للحريم والأهل والانتصار لهم لمن قدر عليه ــ قال ذلك غلبة وعجزا ــ. وقيل: المعنى هذا يوم يلزمك فيه حفظى وحمايتى لقربك من النبى ﷺ.

وسمع مقالة سعد بن عبادة رجل من المهاجرين قيل: هو عمر بن الخطاب ﷺ. وقيل: سمعها رجلان وهما عثمان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما فقالا: يا رسول الله ما نأمن أن تكون لسعد صوله فى قريش، فقال لعلى ﷺ: أدركه فخذ الراية منه، ثم أمره أن يسلمها لابنه قيس بن سعد بن عبادة، ورأى ﷺ أن الراية لم تخرج عنه حيث صارت لابنه. وقيل: إنما أمر بأخذ الراية منه حين حاذى النبى ﷺ أبا سفيان، فإنه قال للنبى ﷺ لما حاذاه وهو مار فى جنود الله: أمرت بقتل قومك، قال: لا، فذكر له أبو سفيان ما قاله سعد بن عبادة، ثم ناشده الله والرحم، أى: قال له أنشدك الله فى قومك فإنك أبر الناس وأرحمهم وأوصلهم، فقال: يا أبا سفيان اليوم يوم المرحمة اليوم يعز الله قريشا، أى: بالإسلام والدين وبإنقاذهم من الضلال المبين. وفى رواية: ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة (أشار بهذا إلى أنه ﷺ هو الذى يكسوها ذلك العام وقد وقع ذلك فالمراد من اليوم الزمان) ثم أرسل إلى سعد فأخذ الراية منه فدفعها لابنه قيس ﷺ.

وروى ابن عساكر عن جابر ﷺ قال: لما قال سعد بن عبادة ذلك القول تعرضت امرأة لرسول الله ﷺ فقالت:

يا نبى الهدى إليك لجا   حى قريش ولات حين لجاء

حين ضـــاقت عليهم سعة الأر | ض وعاداهم إله الســـــماء
والتقت حلقتا البطان على القو | م ونودوا بالصيلم الصلعـــاء
إن سعدايريد قاصمة الظهـــــ | ـــر بأهل الحجون والبطحاء
خزرجى لو يستطيع من الغيــ | ـظ رمانا بالنســـر والعـــواء
فانهيــــه فإنــــه الأســـد الأســـ | ـود والليث والغ فى الدمـــاء
فلئن أقحـــم اللـــواء ونـــادى | يا حماة اللواء أهل اللـــــواء
لتكونن بالبطـــــاح قريـــش | بقعة القاع فى أكف الإمـــاء
إنه مصلت يريد لهـــا الـــــرأ | ى صموت كالحية الصمـــاء

فلما سمع ﷺ هذا الشعر دخلته رأفة ورحمة، فأمر بالراية فأخذت من ســـعد ودفعت لابنه قيس.

وجاء أنه لما جاءه الرسول من النبى ﷺ بتسليمها لابنه أبى أن يســـلمها إلا بأمارة من النبى ﷺ، فأرسل إليه بعمامته فسلمها لابنه. وجاء فى بعض الروايات أنه ﷺ سلمها لعلى . وفى بعضها أنه سلمها للزبير بن العـــوام فدخـــل مكـــة برايتين. قال الحافظ بن حجر: والذى يظهر فى الجمع بين الروايـــات أنـــه ﷺ أرســـل عليـــا رضي الله عنه ليترعها ويدخل بها، ثم خشى تغير خاطر سعد فأمر بدفعـــها لابنه قيس، ثم أن سعدا خشى أن يقع فى ابنه شىء ينكره النبى ﷺ، فسأل النـــبى ﷺ أن يأخذها منه، فحينئذ أخذها الزبير.

ثم بعد مرور جنود الله كلها بأبى سفيان قال له العباس: النجاء إلى قومـــك،

فجاء إليهم يصيح بالأمان، فأمسكته زوجته وقالت: اقتلوه إلى أخر ما تقدم .

صفة دخول مكة

وأمر رسول الله ﷺ أن تركز رايته بالحجون، قال عروة بن الزبير: أخبرني نافع عن جبير بن مطعم ﷺ قال: سمعت العباس يقول للزبير رضى الله عنهما فى حجة اجتمعوا فيها بمكة فى خلافة عمر ﷺ ها هنا أمرك رسول الله ﷺ أن تركز الراية قال: نعم .

قال: الحلبى فى السيرة: وفى ذلك المحل بنى مسجد يقال له مسجد الراية .

ودخل ﷺ من الثنية العليا، وأمر خالد بن الوليد ومن معه أن يدخلوا من الثنية السفلى . روى البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة علي راحلته القصواء مردفا أسامة بن زيد رضى الله عنهما خلفه، وهذا من مزيد تواضعه وكريم أخلاقه، حيث أردف فى هذا الموكب العظيم خادمه وابن خادمه رضى الله عنهما، والمتكبر يعد أرداف ابنه إذا ركب فى السوق عارا عليه، ماذاك ألا تكبر برأ الله منه نبيه ﷺ .

وفى رواية: دخل ﷺ مكة يوم الجمعة معتجرا بشقة برد حبرة حمراء . وفى رواية: وعليه عمامة سوداء حرقانية، واضعا رأسه الشريف على رحله تواضعا لله تعالى حين رآى ما رآى من فتح الله وكثرة المسلمين، وهو يقول: اللهم إن العيش عيش الآخرة . وفى رواية: دخل وعلى رأسه المغفر . . ويمكن الجمع بين ذلك كله .

وروى البيهقى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: لما دخل ﷺ عام الفتح، أى: لما أراد الدخول، رآى النساء يلطمن وجوه الخيل بالخمر، فتبسم والتفت إلى أبى بكر رضي الله عنه وقال: يا أبا بكر كيف قال حسان، فأنشده قوله:

عدمت بنيتى إن لم تروها تثير النقع من كنفى كداء

ينازعن الأعنة مسرجات يلطمهن بالخمر النساء

فقال ﷺ: ادخلوها من حيث قال حسان.

وروى الطبرانى عن العباس رضي الله عنه قال: لما بعث ﷺ قلت لأبى سفيان بن حرب: أسلم بنا قال: لا والله حتى أرى الخيل تطلع من كداء، قلت: ما هذا قال شيء طلع بقلبى لأن الله لا يطلع هناك خيلا أبدا. قال العباس رضي الله عنه: فلما طلع ﷺ من هناك ذكرت أبا سفيان به فذكره.

وتقدم هذا الحديث بأطول من هذا، وأنهما توجها إلى اليمن فى تجارة، واجتمعا بحبر من أحبار اليهود وسألاه عن النبى ﷺ، فسألهما عن صفاته، فوصفاه له، فقال: هو هو ذبحت يهود، وقام وترك رداءه، فتعجب أبو سفيان من تصديق اليهود به وخوفهم منه، فقاله له العباس: ألا تسلم بنا، فقال: لا والله حتى أرى الخيل تطلع من كداء. إلى آخر الحديث.

كيف دخل خالد والزبير مكة؟

قال الحافظ ابن حجر: وقد ساق موسى بن عقبه دخول خالد والزبير سياقا واضحا موافقا للأحاديث الصحيحة فقال: وبعث رسول الله ﷺ الزبير بن

العوام على المهاجرين وخيلهم، وأمره أن يدخل من كداء بالفتح والمد، وأمره أن يركز رايته بالحجون، وأن يمكث عند الراية ولا يبرح حتى يأتيه.

وبعث خالد بن الوليد فى قبائل منها قضاعة وسليم وأسلم وغفار ومزينة وجهينة وغيرهم، وأمره أن يدخل من أسفل مكة وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت، أى: أقربها إلى الثنية التى دخل منها، وهو أول بيوت مكة من الجهة التى دخل منها. وكان لواؤه ﷺ يوم دخل مكة أبيض، ورايته سوداء تسمى العقاب، وكان من برد لعائشة رضى الله عنها. وجعل أبا عبيدة على الرجالة، أى: المشاة، وبعث سعد بن عبادة فى كتيبة الأنصار وكانت معه الراية حتى نزعت منه، واستمر بلا راية فى مقدمة كتيبة رسول الله ﷺ، وأمرهم ﷺ أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم، فاندفع خالد بن الوليد ﷺ حتى دخل من أسفل مكة وقد تجمع بها ناس من بنى بكر، وبنى الحارث بن عبد مناف، وناس من هذيل الذين استنصرت بهم قريش، فقاتلوا خالدا، ومنعوه الدخول، وشهروا السلاح، ورموه بالنبل، وقالوا: لا تدخلها عنوة، فصاح خالد فى أصحابه فقاتلوهم فانهزموا أقبح الانهزام، وقتل من بنى بكر نحو أربعة وعشرين رجلا، ومن هذيل أربعة، حتى انتهى بهم القتال إلى الحزورة ــ وكانت سوقا بمكة ــ ثم دخلوا الدور، وارتفعت طائفة منهم على الجبال هربا، وتبعهم المسلمون، فصاح حكيم بن حزام وأبو سفيان: يا معشر قريش علام تقتلون أنفسكم، من دخل داره فهو آمن، ومن وضع السلاح فهو آمن، فجعلوا يقتحمون الدور ويغلقون أبوابها، ويطرحون السلاح فى الطرق فيأخذه المسلمون.

وروى ابن إسحاق: أن أصحاب خالد لقوا ناسا من قريش منهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وتجمعوا بالخندق ليقاتلوا المسلمين فناوشوهم شيئا فى القتال، فقتل من أصحاب خالد مسلمة بن الميلاء الجهنى، وقتل من المشركين اثنى عشر أو ثلاثة عشر، ثم انهزموا، وفى ذلك يقول جحاش بن قيس يخاطب امرأته حين لامته على الفرار، وقد كان سابقا يصلح سلاحه ويعدها: إن يأتيها أسرى المسلمين يكون خادما لها، وكانت أسلمت سرا. وفى رواية: إنها رأته وهو يبرى نبلا له، فقالت له: لم تبر هذا النبل؟ قال: بلغنى أن محمدا يريد أن يفتح مكة ويغزوها، فلئن كان لأخدمنك خادما من بعض من نستأسره، فقالت: والله لكأنى بك قد رجعت تطلب مخبأ أخبؤك فيه، لو رأيت خيل محمد ﷺ، فلما دخل رسول الله ﷺ يوم الفتح، أقبل إليها وقال: ويحك هل من مخبأ؟ فقالت له: وأين الخادم فقال لها: دعينى عنك وأنشد يقول:

إنك لو شهدت يوم الخندمه ... إذ فر صفوان وفر عكرمه

وأبو يزيد قائم كالمؤتمه ... واستقبلتهم بالسيوف المسلمه

يقطعن كل ساعد وجمجمه ... ضربا فلا تسمع إلا غمغمه

لهم نهيت خلفنا وهمهمه ... لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمه

وكان شعار المهاجرين يوم الفتح وحنين والطائف يا بنى عبد الرحمن، وشعار الخزرج يا بنى عبد الله، وشعار الأوس يا بنى عبيد الله.

وقتل من أصحاب خالد أيضا رجلان حبيش بن الأشعر الخزاعى ـــ أخو

أم معبد التى مر بها النبى ﷺ مهاجرا - وكرز بن جابر الفهرى وهذا أسلم بعد غزوة بدر، وكان قبل ذلك من رؤساء المشركين، وهو الذى أغار على مسرح النبى ﷺ فى غزوة بدر الأولى، ثم لما أسلم استعمله النبى ﷺ وبعثه فى طلب العرنيين كما تقدم.

ولما وقع القتال بأسفل مكة نظر ﷺ إلى بارقة السيوف فقال: ما هذا وقد نهيت عن القتال؟ فقالوا نظن أن خالدا قوتل وبدىء بالقتال فلم يكن له بد أن يقاتلهم. وجاء فى رواية أنه قيل له: يا رسول الله هذا خالد بن الوليد يقتل، فقال: قم يا فلان فقل له فليرجع يديه من القتل، فأتاه الرجل فقال له: إن نبى الله يقول لك اقتل من قدرت عليه ـ وأجرى الله ذلك على لسانه ـ فقتل سبعين، فأتى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك، فأرسل إليه ألا أمرك أن تنذر خالدا قال: أردت أمرا فأراد الله أمرا، فكان أمر الله فوق أمرك، وما استطعت إلا الذى كان، فسكت ﷺ وما رد عليه.

وقوله: قتل سبعين لا ينافى رواية أربعة وعشرين، لأن زيادة الثقة مقبولة، والأقل داخل فى الأكثر.

وقال موسى بن عقبة قال رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن لخالد ﷺ: قاتلت وقد نهيتك عن القتال، فقال: هم بدأونا بالقتال وقد كففت يدى ما استطعت، فقال ﷺ: قضاء الله خير. وجاء فى رواية: أنه ﷺ قال: كفوا القتال إلا خزاعة عن بنى بكر إلى صلاة العصر - وهى الساعة التى أحلت لرسول الله ﷺ- وكان دخوله ﷺ لعشر بقين من رمضان، ومعه ﷺ زوجتاه أم سلمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أخى المسلم ..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لما كانت أفضل القربات، وأكمل الصالحات هى معرفة حياة رسول الله ﷺ، ودراسة سيرته العطرة، والتفقه بها، والاتعاظ بأحداثها، وإدراك عبرها، لتكون الصورة الواضحة، والمثل الحى فى حياة كل مسلم ومسلم.

لأن حياته ﷺ صفحة عريضة من صفحات الجهاد لإنقاذ البشرية، ومثلاً صادقاً من مثل البر والمرحمة، وسيرة عالية سامية فى معاملة الخالق، ومعاملة المخلوق.

لذلك فقد قمنا بإصدار هذه الطبعة من كتاب..

النجـاة

فى سيرة رسول الله (للإمام المجدد أبى العزائم)

الذى هو بحق من أعظم المصنفات فى السيرة شأناً، وأعلاها منزلة، حيث جمع فيه رضى الله عنه النبؤات المبشرة به ﷺ فى كتب السابقين، وتناول حياته من يوم مولده إلى أن أكمل الله به دينه، وأتم برسالته للبشر نعمته، وقد عرض الإمام مغازى رسول الله ﷺ بصورة مفصلة مع ما ارتبط بها من أحداث ومواقف ربط بينها وبين أحداث عصرنا.. حتى نستلهم العبرة، ونستقى الدروس.. مع الرد على الشبهات التى تثار حول السنة بما يتوافق مع العقل ويحفظ عظمة وجلال مقام النبوة.

العدد (١٠) سيصدر بمشيئة الله

تعالى يوم ١٩٩٩/٥/١٤م

الثمن : ٢٠٠ قرش

وميمونة رضى الله عنهما.

خمسة عشر ليس لهم أمان

وتقدم أنه ﷺ استثنى أناساً من الدخول فى الأمان وأمر بقتلهم، وهم خمسة عشر ما بين رجل وامرأة: عبد الله بن أبى سرح، وعبد الله بن خطل، وقينتان كانتا عنده تغنيان بهجاء النبى ﷺ والمسلمين، وعكرمة بن أبى جهل، والحويرث ابن نقيذ، ومقيس بن صبابة، وهبار بن الأسود، وكعب بن زهير، والحارث بن هشام وهو أخو أبى جهل لأبويه، وزهير بن أبى أمية، وسارة وهى مولاة لبنى المطلب، وصفوان بن أمية، وهند بنت عتبة زوج أبى سفيان أم معاوية، ووحشى قاتل حمزة، (وأكثر هؤلاء أسلموا كما سيأتى بيانه).

أهدر دمه فى الفتح فكان على يديه الفتوحات

أما عبد الله بن أبى سرح بن الحارث العامرى فإنه كان أسلم ثم ارتد ولحق بمكة، وصار يتكلم بكلام قبيح فى حق النبى ﷺ فأهدر دمه ﷺ يوم الفتح، فلما علم بإهدار دمه لجأ إلى عثمان بن عفان ﷺ- وكان أخاً له من الرضاع- فقال: يا أخى استأمن لى رسول الله ﷺ قبل أن يضرب عنقى، فغيبه عثمان ﷺ حتى هدأ الناس واطمأنوا، ثم أتى به إليه ﷺ وصار يقول عثمان: يا رسول الله أمنته فبايعه، والنبى ﷺ يعرض عنه مراراً، ثم قال: نعم، فبسط يده فبايعه، فلما خرج عثمان وعبد الله قال ﷺ لمن حوله: أعرضت عنه مراراً ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه. وكان عباد بن بشر ﷺ نذر إن رأى عبد الله بن أبى سرح

قتلـه، وكان قائماً على رأس النبى ﷺ وهو متقلد سيفه ينتظر النبى ﷺ يشير إليـه أن يقتله، فقـال لـه النبـى ﷺ: انتظرتـك أن تفـى بنـذرك، فقـال: يـا رسـول الله خفتك، أفلا أومضت إلى، فقـال: لا ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين، وهو الإيمـاء بالطرف.

قال الزرقانى: ثم أدركته العناية الأزلية، وأتته السعادة الأبديـة فأسـلم وحسـن إسلامه، وعرف فضله وجهاده، وكان على ميمنة عمرو بن العاص ﷺ فى فتـح مصر، وكان له المواقف المحمودة فى الفتوح، وهو الذى افتتح أفريقيـا فى خلافة عثمان بن عفان ﷺ سنة ثمان أوسبع وعشـرين، وكـان ذلـك الفتـح مـن أعظـم الفتوح، بلغ سهم الفارس ثلاثـة آلاف دينار، وغـزى الأسـاود فـى النوبـة سـنة إحدى وثلاثين، وهادن باقى النوبة الهدنة الباقيـة بعـده، وغـزى ذات الصوارى سنة أربع وثلاثين، وولاه عمر ﷺ صعيد مصر، ثم ضـم إليـه عثمـان ﷺ مصـر كلها، وكان محموداً فى ولايته، واعتزل الفتنـة حتـى مـات سـنة سبع أو تسـع وخمسين.

وروى البغوى بإسناد صحيح عن يزيد بن أبى حبيب قال: لما كان عند الصبح قال ابن أبى سرح: اللهم اجعل آخر عملى الصبح فتوضأ ثـم صلـى فسـلم عـن يمينه، ثم ذهب يسلم عن يساره فقبض الله روحه ﷺ.

هجا النبى ﷺ بشعره فقتل والمغنية

أما عبد الله بن خطل فإنه إنما أمر بقتله لأنه كان ممن قدم المدينة قبل فتح مكة وأسلم، وكان اسمه عبد العزى فسماه النبـى ﷺ عبـد الله وبعثـه لأخـذ الصدقـة،

وأرسل معه رجلا من الأنصار يخدمه. وفى رواية: كان معه مولى يخدمه وكان مسلماً فنزل منزلاً وأمر أن يذبح له تيساً ويصنع له طعاماً، ونام ثم استيقظ فلم يجده صنع له شيئاً وهو نائم، فعدى عليه فقتله، ثم ارتد مشركاً، وكان شاعراً فجعل يهجو النبى ﷺ فى شعره، وكان قينتان تغنيانه بهجاء رسول الله ﷺ الذى يصنعه.

وقد جاء أنه يوم فتح مكة ركب فرسه ولبس درعه وأخذ بيده قناة وصار يقسم لا يدخلها محمد عنوة، فلما رآى خيل الله دخله الرعب، فانطلق إلى الكعبة فنزل عن فرسه وألقى سلاحه ودخل تحت أستارها، فأخذ رجل سلاحه وركب فرسه ولحق برسول الله ﷺ بالحجون فأخبره، فأمر بقتله.

وقيل: لما طاف رسول الله ﷺ بالكعبة، قيل: هذا ابن خطل متعلقاً بأستار الكعبة، قال: اقتلوه فإن الكعبة لا تعيذ عاصياً، ولا تمنع من إقامة حد واجب، فقتله سعيد بن حريث وأبو برزة الأسلمى، وقيل: الزبير، وقيل: سعيد بن ذئيب، وقيل: سعيد بن زيد.. والظاهر أنهم اشتركوا فى قتله، جمعاً بين الأقوال.

وأمر ﷺ بقتل قينتيه فقتلت أحداهما، واستؤمن رسول الله ﷺ للأخرى فأمنها فأسلمت.

أشد الناس عداوة تنجيه زوجته

وينال الشهادة فى اليرموك

وأما عكرمة بن أبى جهل فإنما أمر ﷺ بقتله لأنه كان من أشد الناس أذية للنبى ﷺ، وكان أشد الناس على المسلمين، ولما بلغه أن النبى ﷺ أهدر دمه هرب ليلقى نفسه فى البحر أو يموت تائهاً فى البلاد، وكانت امرأته أم حكيم رضى الله عنها بنت عمه الحارث بن هشام رضي الله عنه أسلمت قبله، فاستأمنت له رسول الله ﷺ.

وروى أبو داود والنسائى أن عكرمة ركب البحر، أى: حين هرب، فأصابتهم ريح عاصف فنادى عكرمة اللات والعزى، فقال أهل السفينة: أخلصوا إن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئاً ها هنا، فقال عكرمة: والله لئن لم ينج من البحر إلا الإخلاص لا ينجى فى البر غيره، اللهم لك عهد إن أنت عافيتنى مما أنا فيه أن آت محمداً ﷺ حتى أضع يدى فى يده فلأجدنه عفواً غفوراً كريماً، فجاء وأسلم، أى: بعد أن ذهبت إليه زوجته وجاءت به.

وقد ذكر كثير من المفسرين أنه نزل فيه ﴿وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد﴾ (لقمان: ٣٢).

وروى البيهقى أن امرأته قالت: يا رسول الله قد ذهب عكرمة عنك إلى اليمن وخاف أن تقتله فأمنه، فقال: هو آمن، فخرجت فى طلبه فأدركته وقد ركب سفينة، ونوتى يقول له: أخلص أخلص، قال: ما أقول؟ قال: قل لا إله إلا الله،

قال: ما هربت إلا من هذا، وإن هذا أمر تعرفه العرب والعجم حتى النواتى، ما الدين إلا ما جاء به محمد ﷺ. قال: وغير الله قلبى، وجاءت أم حكيم تقول: يا ابن عم جئتك من عند أبر الناس وخير الناس، لا تهلك نفسك، إنى قد استأمنت لك رسول الله ﷺ، فرجع معها، وجعل يطلب جماعها فتأبى وتقول: أنت كافر وأنا مسلمة، فقال: إن أمرا منعك منى لأمر كبير، فلما وافى مكة أو المدينة قال ﷺ: يأتيكم عكرمة فلا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذى الحى.

قال الزهرى وأبى عقبة: فلما رآه ﷺ وثب قائما فرحا به، ورمى عليه رداءه وقال: مرحبا بمن جاء مؤمنا مهاجرا، فوقف بين يديه ﷺ ومعه زوجته أم حكيم بنت الحارث بن هشام رضى الله عنهما ـ وهى منتقبة ـ فقال: إن هذه أخبرتنى أنك أمنتنى، فقال ﷺ: صدقت فأنت آمن، فقال: إلام تدعو؟ قال: أدعو إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وكذا، وكذا، حتى عد خصال الإسلام. قال: ما دعوت إلا إلى خير، وأمر حسن جميل، قد كنت فينا يا رسول الله قبل أن تدعونا وأنت أصدقنا حديثا وأبرنا، ثم قال: فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، قال: ثم ماذا؟ قال: تقول أشهد الله وأشهد من حضرنى أنى مسلم مجاهد مهاجر، فقال عكرمة ذلك (رواه البيهقى).

وفى رواية قال عكرمة: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله، وطأطأ رأسه من الحياء، فقال له: يا عكرمة ما تسألنى شيئا أقدر عليه إلا أعطيتكه، قال: استغفر لى كل عداوة عاديتكها، فقال: اللهم اغفر لعكرمة كل عداوة عادانيها، أو منطق تكلم به، ورد ﷺ زوجته له، أى: أبقاها على

نكاحها الأول، حيث اجتمعا فى الإسلام قبل تمام عدتها، وكان يعد ذلك من فضلاء الصحابة ﷺ.

وروى ابن عبد البر أنه ﷺ رآى فى منامه أنه دخل الجنة ورآى فيها عذقاً فأعجبه فقال لمن هذا؟ فقيل: لأبى جهل، فشق عليه وقال: لا يدخلها إلا نفس مؤمنة، فلما جاءه عكرمة بن أبى جهل مسلماً، فرح به، وأوّل ذلك العذق بعكرمة.. واستدل بذلك على تأخر الرؤيا، وأنها قد تكون لغير من ترى له.

ولم يزل عكرمة ﷺ مستقيماً حاله حتى استشهد فى الشام فى خلافة أبى بكر الصديق ﷺ، وقيل: إنما استشهد فى خلافة عمر ﷺ.

وتفصيل ذلك أن أبا بكر الصديق ﷺ لما فرغ من قتال أهل الردة قوم مسيلمة الكذاب، جهز الجيوش لغزو الروم وأمر عليهم أبا عبيدة ﷺ، ثم عزله وولى خالد بن الوليد ﷺ، وكان ممن خرج مع الناس عكرمة بن أبى جهل، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو ﷺ، ووقفوا أنفسهم للجهاد وأنهم لا يرجعون، فحضروا فتوح الشام بعد حروب كثيرة.

ثم توفى أبو بكر ﷺ واستخلف عمر بن الخطاب ﷺ، فولى أبا عبيدة ﷺ على الجنود، وأبقى خالد بن الوليد ﷺ أميراً فى الأمراء تحت أمر أبى عبيدة، فخرجوا من الشام لفتح بقية المدائن التى حوله، ففتحوا بعلبك ومدائن كثيرة.

ثم توجهوا لفتح حمص ولاقتهم الروم بجموع كثيرة، فاقتتلوا مع المسلمين قتالاً شديداً، ولم يكن أحد فى يوم حمص أشد قتالاً وأكثر بأساً من عكرمة بن أبى جهل، حتى كان يقصد الأسنة بنفسه، فقيل له: اتق الله وارفق بنفسك، فقال:

يا قوم أنا كنت أقاتل عن الأصنام، فكيف اليوم وأنا أقاتل فى طاعة الملك العلام؟ وإنى أرى الحور العين يتشوقن إلىَّ، ولو بدت واحدة منهن لأهل الدنيا لأغنتهم عن الشمس والقمر، ولقد صدقنا رسول الله ﷺ فيما وعدنا، ثم سل سيفه وغاص فى الروم و لم يزدد إلا أقداماً، وقد عجبت الروم من حسن صبره وقتاله، فبينما هو كذلك إذ حمل عليه البطريق الكبير من بطارقتهم ويسمى هربيس وبيده حربة عظيمة تضىء وتلهب، فهزها فى كفه وضربه بها فوقعت فى قلبه ومرقت من ظهره، فاستشهد وعجل الله بروحه إلى الجنة رضي الله عنه.

فوقف عليه ابن عمه خالد بن الوليد رضي الله عنه وبكى بكاء شديداً، ثم كرّ سعيد بن زيد ـ أحد العشرة المبشرين ـ على البطريق الذى قتل عكرمة فقتله، وعجل الله بروحه إلى النار.

ثم فتح الله عليهم حمص، وكان جملة من قتل من الكفار فى ذلك اليوم خمسة آلاف، وجملة من استشهد من المسلمين مائتان وخمسة وثلاثون رجلاً رضي الله عنهم.

وفى الإحياء للإمام الغزالى فى كتاب (تلاوة القرآن) كان عكرمة بن أبى جهل رضي الله عنه إذا نشر المصحف غشى عليه ويقول: هو كلام ربى، هو كلام ربى رضي الله عنه.

ولما انقضت عدة زوجته أم حكيم رضى الله عنها ـ وكانت خرجت مع زوجها إلى الشام ـ تزوجها خالد بن سعيد رضي الله عنه وأراد أن يدخل بها، فجعلت تقول: لو أخرت الدخول حتى يقضى الله هذه الجموع ـ تعنى الروم ـ فقال خالد: إن نفسى تحدثنى أنى أصاب فى جموعهم، قالت: فدونك، فدخل بها فى خيمته، فما أصبح الصبح إلا والروم قد اصطفت، فخرج خالد رضي الله عنه فقاتل حتى قتل،

فشدت أم حكيم رضى الله عنها عليها ثيابها، وأخذت عمود الخيمة التى دخل بها فيها خالد، فقتلت بذلك العمود سبعة من الروم.

وجاء أن عكرمة ﷺ شكى إلى النبى ﷺ قولهم له: عكرمة بن أبى جهل، فنهاهم رسول الله ﷺ وقال: لا تؤذوا الأحياء بسب الأموات. وفى رواية: لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء. وفى أخرى: اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم.

وقد كان قبل إسلامه ﷺ بارز رجلاً من المسلمين فضحك رسول الله ﷺ، فقال له بعض الأنصار: ما أضحكك يا رسول الله وقد فجعنا بصاحبنا؟ قال: أضحكنى أنهما فى درجة واحدة فى الجنة.

ومن ثم قتل عكرمة ﷺ شهيداً فى قتل الروم فى وقعة اليرموك كما تقدم.

أهدر دمه لأنه تطاول على أهل البيت

وأما الحويرث بن نقيذ - بنون وقاف مصفراً - بن وهب بن عبد بن قصى فإنما أهدر دمه ﷺ لأنه كان يعظم القول فيه ﷺ، وينشد الهجاء فيه، ويكثر أذاه وهو بمكة. وكان العباس ﷺ حمل فاطمة وأم كلثوم رضى الله عنها بنتى رسول الله ﷺ من مكة يريد بهما المدينة فنخس الحويرث بهما الجمل فرمى بهما الأرض، وشارك هبار بن الأسود فى نخس جمل زينب رضى الله عنها لما هاجرت، فأهدر ﷺ دمه، فقتله على ﷺ.

وذلك أنه سأل عنه وهو فى بيته قد أغلق عليه بابه فقيل: هو فى البادية فتنحى

على ﷺ عن بابه، فخرج يريد أن يهرب من بيت إلى آخر فتلقاه على ﷺ فضرب عنقه.

أهدر دمه لأنه غدر وارتد

وأما مقيس بن صبابة فإنه كان أسلم ثم أتى على أنصارى فقتله، وكان الأنصارى قتل أخاه هشام بن صبابة خطأ فى غزوة ذى قرد - ظنه من العدو- فجاء مقيس فأخذ الدية ثم قتل الأنصارى، ثم ارتد ورجع إلى قريش، فأهدر ﷺ دمه فقتله غيلة بن عبد الله الليثى.

أساء إلى أهل البيت وتاب فعفا عنه ﷺ

وأما هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصى القرشى الأسدى فإنه كان شديد الأذى للمسلمين، وكان عرض لزينب رضى الله عنها بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت، فنخس بها الجمل حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها، ولم تزل مريضة حتى ماتت رضى الله عنها، فأهدر ﷺ دمه يوم الفتح، فهرب واختفى ثم جاء إلى النبى ﷺ وهو بالجعرانة.

قال جبير بن مطعم ﷺ: كنت جالسا مع رسول الله ﷺ عند منصرفه من الجعرانة فطلع هبار بن الأسود فقالوا: يا رسول الله هبار بن الأسود، قال: قد رأيته، فأراد رجل القيام إليه، فأشار إليه أن اجلس فوقف هبار فقال: السلام عليك يا نبى الله أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، وقد هربت منك فى البلاد، وأردت اللحاق بالأعاجم، ثم ذكرت عائدتك وصلتك

وصفحك عمن جهل عليك، وكنا يا رسول الله أهل شرك فهدانا الله بك، وأنقذنا من الهلكة، فاصفح عن جهلى، وعما كان يبلغك عنى فإنى مقر بسوء فعلى، معترف بذنبى، فقال ﷺ: قد عفوت عنك، وقد أحسن الله إليك حيث هداك للإسلام، والإسلام يجب ما قبله.

قال الزهرى: إن هبار ﷺ لما قدم المدينة جعلوا يسبونه، فشكى ذلك له ﷺ فقال: سب من سبك، فكفوا عنه.

أساء إلى النبى ﷺ ثم مدحه فخلع عليه بردته

وأما كعب بن زهير بن أبى سلمى المزنى فإنما أهدر دمه ﷺ لأنه كان من الشعراء الذين تكلموا بهجاء النبى ﷺ، وصار يعير أخاه بجيرا حين أسلم.

وكان من خبر كعب وأخيه بجير، أن بجيراً قال لكعب: اثبت فى غنمنا حتى آتى هذا الرجل - يعنى النبى ﷺ - فأسمع كلامه وأعرف ما عنده، فأقام كعب بأبرق العزاف - وهو ماء لبنى أسد بين المدينة والربذة - ومضى بجير فأتى رسول الله ﷺ فسمع كلامه وآمن به.

وسبب قول بجير لأخيه: اثبت فى غنمنا حتى آتى هذا الرجل إلخ، أن أباهما زهيراً كان يجالس أهل الكتاب فسمع منهم أنه قد قرب مبعثه ﷺ، ورآى زهير فى منامه أنه قد مد سبب، أى: حبل من السماء، وأنه مد يده ليتناوله ففاته، فأول ذلك بالنبى الذى يبعث فى آخر الزمان وأنه لا يدركه، وأخبر بنيه بذلك المنام، وبما سمعه من أهل الكتاب وأمرهم وأوصاهم إن أدركوه أن يسلموا، فكتب بجير إلى أخيه كعب يخبره بأنه قد ظهر أمره وتحققت نبوته، وأنه آمن به

واتبعه، وحثه على القدوم إليه ليؤمن كإيمانه فكتب إليه كعب:

ألا بلغا عنى بجيراً رسالة ... فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا

فبين لنا إن كنت لست بفاعل ... على أى شىء غير ذلك دلكا

على خلق لم تلف أما ولا أبا ... عليه ولا تلقى عليه أخا لكا

فإن كنت لم تفعل فلست بآسف ... ولا قائل أما عثرت لعا لكا

سقاك بها المأمون كأساً دوية ... فأنهلك المأمون منها وعلكا

وكان ﷺ يسمى فى الجاهلية الأمين المأمون، ثم أرسل كعب بالأبيات إلى أخيه بجير، فلما أتت بجيراً كره أن يكتمها رسول الله ﷺ فأنشده إياها، فلما سمع ﷺ سقاك بها المأمون، قال: صدق وإنه لكذوب وأنا المأمون، ولما سمع قوله: على خلق لم تلف أما ولا أبا عليه، قال: أجل لم يلف عليه أباه ولا أمه، ثم قال ﷺ: من لقى منكم كعب بن زهير فليقتله، فكتب إليه أخوه بجير إن رسول الله ﷺ قد قتل رجالاً ممن كان يهجونه ويؤذونه، فإن كانت لك فى نفسك حاجة فطر، أى: أقبل مسرعاً، إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحداً جاء تائباً، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض، أى: محل ينجيك، وكتب له هذه الأبيات:

فمن مبلغ كعبا فهل لك فى التى ... تلوم عليها باطلاً وهى أحزم

إلى الله لا العزى ولا اللات وحده ... فتنجو إذا كان النجاء وتسلم

لدى يوم لا ينجو أو ليس بمفلت ... من للناس إلا طاهر القلب مسلم

فدين زهير وهو لا شىء دينه ... ودين أبا سلمى على محرم

فلما بلغت الأبيات كعباً، وبلغه أنه ﷺ أمر بقتله وأراق دمه، ضاقت عليه الأرض، وخاف على نفسه وأرجف به، أى: خوفه من كان حاضراً عنده من مجيئه لرسول الله ﷺ، وقالوا له: إنك لمقتول، فلما لم يجد بدا ومخلصاً يلتجىء إليه إلا الإسلام، خرج حتى قدم المدينة بعد رجوع النبى ﷺ من فتح مكة، فنزل على رجل من جهينة كانت بينه وبينه معرفة، فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح، ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ وقال: هذا رسول الله فقم إليه واستأمنه فجاء حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فوضع يده فى يده، وتظاهر رسول الله ﷺ بأنه لا يعرفه، فقال: يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاءك يستأمنك تائباً مسلماً فهل أنت قابل منه إن جئتك به، فقال رسول الله ﷺ: نعم، فقال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير، ثم تشهد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ثم أنشده قصيدته المعروفة التى أولها:

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ... متيم عندها لم يفد مكبول

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول

إلى أن قال فيها:

تمشى الوشاة بجنبيها وقولهم ... إنك يا بن أبى سلمى لمقتول

وقال كل صديق كنت آمله ... لا ألهينك إنى عنك مشغول

فقلت خلوا سبيلى لا أبالكم ... فكل ما قدر الرحمن مفعول

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوماً على آلة حدباء محمول

نبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول

مهلاً هداك الذى أعطاك نافلة القرآن فيه مواعيظ وتفصيل

لا تأخذنى بأقوال الوشاة و لم أذنب ولو كثرت فىَّ الأقاويل

إلى أن قال فيها:

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

فى عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا

إلى آخر القصيدة.

قال ابن الأنبارى: إنه لما وصل إلى قوله: إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول، رمى عليه الصلاة والسلام إليه بردة كانت عليه، وأن معاوية ﷺ فى زمن خلافته بذل له فيها عشرة آلاف درهم فقال: ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ الذى أعطانيه أحدا، فلما مات بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفاً، فأخذها منهم.

وروى ابن إسحاق: أنه لما جاء إلى النبى ﷺ وثب عليه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله دعنى وعدو الله أضرب عنقه، فقال ﷺ: دعه عنك فإنه جاء تائباً نازعاً، أى: مائلاً مشتاقاً إلى الإسلام، كافاً عن الشرك تاركاً له، فغضب كعب على هذا الحى من الأنصار لما صنع به صاحبهم، وخص المهاجرين بمدحته فى قصيدته لأنهم لم يتكلموا فيه إلا بخير، وعرض بذم الأنصار، فقال ﷺ: لولا ذكرت الأنصار بخير فهم أهل لذلك، فقال بعد ذلك يمدح الأنصار:

من سـره كرم الحيـاة فلا يزل　　في مقنب من صالحى الأنصار
ورثوا المكـارم كابرا عن كابر　　إن الخيـار همـوا بنـوا الأخيـار
النـــاظرين بأعيـن محمـرة　　كالجمـر غير كليلـة الأبصـار
والبـــائعين نفوسـهم لنبيهـم　　للمـوت يوم تعانـق وكـرار
يتطهـرون يرونه نسكـاً لهـم　　بدمـاء من علقـوا من الكفـار

وقد كان كعب بن زهير من فحول الشعراء، وكـذا أبـوه زهـير، وأخـوه بجير، وابنه عقبة بن كعب، وابن ابنه العوام بن عقبة رضي الله عنه.

وجاء عن سعيد بن المسيب: أن كعباً لما قدم المدينة سأل عن أرق الصحابـة رضي الله عنهم، فدل على أبى بكـر رضي الله عنه فأخبره، فمشى أبو بكر وكعب على أثـره حتـى صـار بين يدى رسول الله ﷺ فقال:رجل يبايعك يا رسول الله فمد يده فبايعه.

قال العلامة الزرقانى: والجمع ممكن بأنه لما قدم المدينة نزل على الجهنى فأخـبره بأن أبا بكر أرق الصحابة، وأتـى به إليه فسارا به معا، ثم تقدم الصديق وكعب على أثره، فلما آمن عرفه بنفسه.. والله أعلم.

أم هانىء بنت أبى طالب تجير رجلين

وأما الحارث بن هشام المخزومى- وهو أخو أبى جهل شقيقه- فإنه كان شديدا على النبى ﷺ والمسلمين، وكذا زهير بن أبى أمية المخزومى أخو أم سلمة رضى

الله عنها فإنه كان شديداً فى كفره، فأهدر دمهما ﷺ يوم الفتح، فهربا واختبيا فى بيت أم هانىء بنت أبى طالب رضى الله عنها فأجارتهما، فأجاز ﷺ جوارها، ثم جاءت بهما فأسلما وحسن إسلامهما رضى الله عنهما.

وكون الذى أجارته مع الحارث بن هشام هو زهير بن أبى أمية هو الصحيح. وقيل: الذى أجارته معه هو عبد الله بن أبى ربيعة. وقيل: هو هبيرة بن أبى وهب.

قال الحافظ ابن حجر: وهذا ليس بشىء لأن هبيرة هرب عند الفتح إلى نجران فلم يزل بها مشركاً حتى مات، وكانت أم هانىء رضى الله عنها تحت هبيرة بن أبى وهب المخزومى.

روى الإمام أحمد وغيره عن أم هانىء رضى الله عنها قالت: لما كان يوم الفتح فر إلىّ رجلان من أحماء من بنى مخزوم، فدخل علىّ ﷺ فقال: والله لأقتلنهما، فأغلقت عليهما بيتى، ثم جئت رسول الله ﷺ فلما رآنى قال: مرحباً وأهلاً بأم هانىء ما جاء بك؟ فأخبرته خبر الرجلين وخبر علىّ ﷺ، فقال النبى ﷺ: قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء.

والمشهور أن إسلام أم هانىء رضى الله عنها كان عام الفتح، وقيل: أسلمت قديماً وكانت تكتم إسلامها.

وعن الحارث بن هشام ﷺ قال: أجارتنى أم هانىء رضى الله عنها وأجاز النبى ﷺ جوارها، صار لا يتعرضنى أحد بعد ذلك، وكنت أخشى عمر بن الخطاب ﷺ فمر علىّ وأنا جالس ولم يتعرض لى، وكنت أستحى أن يرانى رسول الله

ﷺ لما أذكر برؤيته أياى ما كنت أفعله فى كل موطن مع المشركين، فلقيته وهو داخل المسجد، فلقينى بالبشر، ووقف حتى جئته، فسلمت عليه وشهدت الشهادة الحق، فقال: الحمد لله الذى هداك، ما كان مثلك يجهل الإسلام. ثم صار بعد ذلك من فضلاء الصحابة وابنه عبد الرحمن بن الحارث بن هشام كان من فضلاء التابعين وعلمائهم وعبادهم رضي الله عنهم. وكذا ابن ابنه أبو بكر بن عبد الرحمن وابنه عبد الملك بن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام رضي الله عنهم.

مغنية تهجو والنبى يعفو

وأما سارة فهى مولاة لبنى المطلب بن عبد مناف وإنما أهدر ﷺ دمها لأنها كانت مغنية بمكة تغنى بهجاء النبى ﷺ، وهى التى كانت معها كتاب حاطب بن أبى بلتعة، وكانت قدمت المدينة تشكو الحاجة وتطلب الصلة فقال لها ﷺ: ما كان فى غنائك ما يغنيك، فقالت: إن قريشاً منذ قتل من قتل منهم ببدر تركوا الغناء فوصلها، وأوقر لها بعيراً طعاماً، فرجعت إلى مكة، وكان ابن خطل يلقى إليها هجاء رسول الله ﷺ فتغنى به، فاختفت عند فتح مكة، ثم استؤمن لها رسول الله ﷺ، فجاءته وأسلمت وحسن إسلامها رضى الله عنها.

النبى ﷺ يعالج نفس صفوان بالمال

وأما صفوان بن أمية بن خلف الجمحى فكان أيضاً من أشد الناس عداوة وأذية لرسول الله ﷺ وللمسلمين، فأهدر دمه ﷺ، فاختفى وأراد أن يذهب ويلقى نفسه بالبحر، فجاء ابن عمه عمير بن وهب الجمحى رضي الله عنه وقال: يا نبى الله إن

صفوان سيد قومه قد هرب ليقذف نفسه فى البحر، فأمنه فإنك أمنت الأحمر والأسود، فقال: أدرك ابن عمك فهو آمن، فقال: اعطنى آية يعرف بها أمانك فإنى قد طلبت منه العود، فقال: لا أعود معك إلا أن تأتينى بعلامة أعرفها، فأعطاه ﷺ عمامته التى دخل بها مكة، فلحقه بها وهو يريد أن يركب البحر، فقال له صفوان: اغرب عنى لا تكلمنى، فقال: أى صفوان فداك أبى وأمى جئتك من عند أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، وهو ابن عمك، عزه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك، قال: إنى أخافه على نفسى، قال: هو أحلم من ذلك وأكرم، وأراه العمامة التى جاء بها، فرجع معه حتى وقف على رسول الله ﷺ فقال: إن هذا يزعم أنك أمنتنى، قال: صدق، فقال: أمهلنى بالخيار شهرين، فقال ﷺ: أنت بالخيار أربعة أشهر.

ولما أراد ﷺ الخروج إلى حرب هوازن استقرض منه أربعين ألف درهم وطلب منه دروعاً كانت عنده، فقال: أغصباً يا محمد، قال: لا، ولكن عارية مرجوعة أو مضمونة، ثم خرج مع النبى ﷺ حين خرج لحرب هوازن وهو على شركه، فلما قسم ﷺ غنائم هوازن بحنين أعطاه مائة من الإبل، ثم مائة، ثم مائة، ثم رآه ﷺ يرمق شعباً مملوءاً نعما وشاء فقال ﷺ: يعجبك هذا؟ قال: نعم، قال: هو لك وما فيه.

وفى رواية: أن صفوان ﷺ طاف مع النبى ﷺ ليتصفح الغنائم إذ مر بشعب مملوء إبلاً وغنماً فأعجبه وجعل ينظر إليه، فقال له النبى ﷺ: أعجبك هذا الشعب يا أبا وهب، قال: نعم، قال: هو لك بما فيه. فقبض صفوان ما فى الشعب وقال: إن الملوك لا تطيب نفوسها بمثل هذا، ما طابت نفس أحد قط

بمثل هذا إلا نبى، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فأسلم وحسن إسلامه ﷺ، وترك المدة التى كان طلبها.

وكان يقول: كان النبى ﷺ أبغض الخلق إلىّ فما زال يعطينى حتى صار أحب الخلق إلىّ.

النبى ﷺ يعفو عن هند بنت عتبة

وأما هند بن عتبة بن ربيعة زوج أبى سفيان وأم ابنه معاوية ﷺ فإنما أهدر دمها ﷺ لأنها مثلت بعمه حمزة ﷺ يوم أحد، ولاكت قلبه و لم تقدر على ابتلاعه فلفظته، فلما كان يوم الفتح ورأت جند الله، اختفت فى بيت أبى سفيان زوجها، ثم أسلمت وأتته ﷺ بالأبطح وقالت: الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه، لتمسنى رحمتك يا محمد، إنى امرأة مؤمنة بالله مصدقة به، ثم قالت: أنا هند بنت عتبة، فقال ﷺ: مرحباً بك، ثم أرسلت إليه بهدية جديين مشويين وقديد مع جارية لها فقالت: إنها تعتذر إليك وتقول لك: إن غنمنا اليوم قليلة الوالدة، فقال ﷺ: بارك الله لكم فى غنمكم وأكثر والدتها. قالت هند: فلقد رأينا من كثرتها ما لم نره من قبل، وذلك بدعائه ﷺ.

وقالت: كنت أرى فى النوم أنى فى الشمس أبداً قائمة والظل قريب منى لا أقدر عليه، فلما دنى ﷺ رأيت كأننى دخلت الظل، فكان ذلك فى الدخول فى الإسلام. وجاء أنها لما أسلمت عمدت إلى صنم كان فى بيتها فجعلت تضربه بالقدوم وتقول: كنا منك فى غرور.

وروى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها، قالت هند بنت عتبة: يا

رسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلىَّ أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلىَّ أنه يعزوا من أهل خبائك، قال النبى ﷺ: وأيضاً والذى نفسى بيده، أى: ستزيدين من ذلك ويتمكن الإيمان فى قلبك، فيزيد حبك لرسول الله ﷺ ويقوى رجوعك عن بغضه.

ثم قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل مسيك فهل علىَّ حرج أن أطعم من الذى له عيالنا؟ قال: لا أراه بالمعروف.

وكان إسلامها بعد إسلام زوجها، فأقرهما ﷺ على النكاح الأول، لأن الإسلام جمعهما فى العدة، بل قيل: إن بين إسلامها وإسلام زوجها ليلة واحدة.

حوار هند فى بيعة النساء

وكانت هند امرأة ذات أنفة ورأى وعقل. وجاء فى رواية أنه ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء وفيهم هند بنت عتبة منتقبة خوفاً من رسول الله ﷺ، فلما دنين من رسول الله ﷺ قال لهن: بايعننى على أن لا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن، ولا تزنين، ولا تقتلن أولادكن، ولاتأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن، ولا تعصيننى فى معروف.

فلما قال: ولا تسرقن، قالت هند: والله إنى كنت أصيب من مال أبى سفيان الهنة الهنة وما كنت أدرى أكان ذلك حلالاً أم لا، فقال أبو سفيان - وكان حاضراً - أما ما أصبت فيما مضى فأنت فى حل عفى الله عنك، فضحك النبى

ﷺ وعرفها فقال: وإنك لهند بنت عتبة، قالت: نعم، فاعفو عما سلف عفى الله عنك يا نبى الله.

ولما قال: ولا تزنين، قالت: أو تزنى يا رسول الله الحرة؟.

ولما قال: ولا تقتلن أولادكن، قالت: ربيناهم صغاراً فقتلتهم كباراً.

وفى لفظ: وهل تركت لنا ولداً إلا قتلته يوم بدر، فضحك عمر ﷺ حتى استلقى على قفاه، وتبسم ﷺ.

ولما قال: ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن، قالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق.

ولما قال: ولا تعصيننى فى معروف، قالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى معروف.

وحضرت هند قتال الروم يوم اليرموك مع أبى سفيان، وكانت تشجع المسلمين وتحرضهم على القتال مع بقية النسوة اللاتى كن معها.

وتوفيت فى خلافة عمر ﷺ فى اليوم الذى توفى فيه أبو قحافة والد أبو بكر الصديق ﷺ.

قتل الحمزة فأهدر دمه، وتاب فقتل مسيلمة

أما وحشى فهو الذى قتل سيدنا الحمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ، فأهدر النبى ﷺ دمه، فهرب إلى الطائف، وكان النبى ﷺ لا يحب أن يراه. وجاء فى بعض الروايات: وأراد الله الإسلام لوحشى، فأرسل إلى النبى ﷺ

يقول: هل لى من توبة؟ فنزل قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (النساء: ٤٨) فأرسل إلى النبى ﷺ يقول: لعلى لست من أهل مشيئته فلا يغفر لى، فنزل قوله تعالى: ﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾ (الفرقان: ٧٠) فقال وحشى: لعلى لم أعمل عملاً صالحاً، وأرسل إلى النبى ﷺ بذلك، فنزل قوله تعالى: ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ (الزمر: ٥٣) وأرسل النبى ﷺ له بذلك، فقدم من الطائف على النبى ﷺ وبايع وأسلم، وقال له النبى ﷺ: حدثنى كيف قتلت حمزة، فحدثه، فلم يزد بعد أن سمع الحديث أن قال: ويحك غيب عنى وجهك. وستأتى رواية أخرى عن إسلامه ﷺ.

وقد أراد الله لوحشى فى خلافة سيدنا أبى بكر الصديق أن يخرج لقتال مسيلمة الكذاب، فكان وحشى هو الذى شد عليه فقتله، وكان كثيراً ما يعاتب نفسه على قتله لحمزة، فلما قتل مسيلمة قال: لقد قتلت مسيلمة بنفس الحربة التى قتلت بها حمزة، قتلت خير الناس بعد رسول الله ﷺ، وقتلت شر الناس.. لعل الله يغفر لى هذه بتلك.

أماكن الهجر توجب الشكر

وفى رواية البخارى قال ﷺ: منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله مكة الخيف. وفى رواية: بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر - يعنى به المحصب - وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت على بنى هاشم وبنى المطلب أن لا يناكحوهم ولا

يبايعوهم حتى يسلموا إليهم النبى ﷺ كما تقدم.

وإنما اختار ﷺ النزول فى ذلك الموضع ليتذكر ما كانوا فيه، فيشكر الله على ما أنعم به عليه من الفتح العظيم، وتمكنه من دخول مكة ظاهراً غالباً على رغم من سعى فى إخراجه منها، ومبالغة فى الصفح عن الذين أساءوا، ومقابلتهم بالمن والإحسان ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وعن جابر رضي الله عنه قال: لما رأى رسول الله ﷺ بيوت مكة وقف فحمد الله وأثنى عليه ونظر إلى موضع قبته، أى: التى ضربت له بعد، وقال: هذا منزلنا يا جابر حيث تقاسمت قريش علينا، قال جابر رضي الله عنه: فذكرت حديثاً كنت سمعته منه قبل ذلك بالمدينة، منزلنا إذا فتح الله علينا مكة فى خيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر.

وقال ذلك أيضاً ﷺ فى حجة الوداع، فعن أبى هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال يوم النحر وهو بمنى: منزلنا بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر.

إسلام أبو قحافة والد الصديق

ولما خرج رسول الله ﷺ من الكعبة وجلس فى المسجد والناس حوله، ذهب أبو بكر رضي الله عنه وجاء بأبيه عثمان ويكنى بأبى قحافة يقوده وقد كف بصره، فلما رآه ﷺ قال: هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه. وفى لفظ: لو أقررت الشيخ فى بيته لأتيناه - تكرمة لأبى بكر رضي الله عنه - فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى أنت إليه، فأجلسه بين يدى رسول الله ﷺ، فمسح رسول الله ﷺ صدره وقال: أسلم تسلم، فأسلم.

ولم يعش لأبى قحافة ابن ذكر إلا أبا بكر ﷺ، وهنأ رسول الله ﷺ أبا بكر بإسلام أبيه، فعند ذلك قال أبو بكر ﷺ للنبى ﷺ: والذى بعثك بالحق لإسلام أبى طالب كان أقر لعينى من إسلامه - يعنى أبا قحافة - وذلك أن إسلام أبى طالب كان أقر لعينك.

ذرية بعضها من بعض

وكان رأس أبى قحافة ﷺ ولحيته مبيضتين بالشيب، فقال ﷺ: غيروهما وجنبوه السواد. وكانت أم أبى بكر بنت عم أبيه، أسلمت قديماً حين أسلم أبو بكر ﷺ، وأخته أم فروة رضى الله عنها أسلمت أيضاً، وأبناؤه وبناته.

قال بعضهم: لم يكن أحد من الصحابة أسلم هو ووالداه وأخته وجميع أولاده وبناته غير أبى بكر ﷺ. وبنوه ثلاثة: عبد الله وهو أكبرهم مات أول خلافة أبيه، وعبد الرحمن، ومحمد، وكانت ولادة محمد ﷺ عام حجة الوداع. وبناته ثلاث: أسماء وهى أكبرهن وهى شقيقة عبد الله، وعائشة وهى شقيقة عبد الرحمن، وأم كلثوم مات أبو بكر ﷺ وهى فى بطن أمها، وأخبر بأنها أنثى قبل وفاته، عندما قال لعائشة رضى الله عنها: إنما هما أخواك وأختاك، ولم تكن تعلم أن لها أختاً غير أسماء رضى الله عنها فسألته عن ذلك، فأشار إلى الحمل المذكور وقال: أراها أنثى، فكان ذلك من كراماته ﷺ.

وقد ذكر جملة من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق ﷺ: ﴿رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين۞ أولئك الذين

نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون﴾ (الأحقاف: ١٥،١٦) قال بعضهم: لا يعرف فى الصحابة أربعة متناسلون أسلموا وكل واحد أبوا الذى بعده إلا فى بيت أبى بكر ﷺ، أبو قحافة وابنه أبو بكر وابنه عبد الرحمن وابن عبد الرحمن محمد. ومن أثبت غير ذلك كزيد بن حارثة وأبيه حارثة، أى: فإنه أسلم وابنه أسامة بن زيد وابن أسامة، فقد نوزع فى ثبوت أن ابن أسامة رآه النبى ﷺ، فأما أبو بكر ﷺ وأهل بيته فمتفق على ثبوت ذلك فيهم.

المحيا محياكم والممات مماتكم

وبعد أن فتح الله مكة جاء ﷺ إلى الصَّفا حيث ينظر إلى البيت ورفع يديه وقام يدعو ويذكر الله بما شاء، وقد أحدقت به الأنصار فقال بعضهم لبعض:أما الرجل فقد أدركته رغبة فى قريته ورأفة بعشيرته، فنزل عليه الوحى بما ذكر القوم، فرفع رسول الله ﷺ رأسه وقال: يا معشر الأنصار قلتم أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته ورأفة بعشيرته، قالوا: قلنا ذلك يا رسول الله، قال: فما اسمى إذن إن فعلت ذلك؟ كيف أسمى وأوصف بأنى عبد الله ورسوله؟ كلا لا أفعل ذلك، إنى عبد الله ورسوله، أى: من كان هذا وصفه ذلك، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم، فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذى قلنا إلا الضن، أى: البخل بالله ورسوله، أى: لا نسمح أن يكون رسول الله ﷺ فى غير بلدتنا يعنون المدينة، فقال رسول الله ﷺ: فإن الله ورسوله يعذرانكم، أى: يقبلان عذركم ويصدقانكم.

وفى رواية أن الأنصار قالوا فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها، فلما فرغ من دعائه قال: ماذا قلتم؟ قالوا: لا شىء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال النبى ﷺ: معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم.

وتقدم له ﷺ فى بيعة العقبة نظير ذلك، وهو أن الأنصار قالوا: يا رسول الله هل عسيت إن نصرناك وأظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا، فتبسم ﷺ ثم قال: بل الدم الدم والهدم الهدم.

ثلاثة استقرض النبى ﷺ منهم

واستقرض ﷺ من ثلاثة نفر من قريش أخذ من صفوان بن أمية قبل أن يسلم خمسين ألف درهم، ومن عبد الله بن أبى ربيعة ألف درهم، ومن حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم، فرقها فى أصحابه من أهل الضعف، ثم وفّاها مما غنمه فى هوازن، وأقام ﷺ بمكة بعد فتحها تسعة عشر. وقيل: ثمانية عشر يوماً واعتمده البخارى، يقصر الصلاة فى مدة إقامته بها، لأنه كان يترقب المسير إلى حرب هوازن لسماعه بتجهزهم لمحاربته.

عتاب بن أسيد والى مكة

وولى مكة عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف وكان عمره إحدى وعشرين سنة. وفى رواية أن عمره كان ثمانى عشرة سنة وجعل معه معاذ بن جبل رضي الله عنه يعلّم الناس الفرائض والسنن، وجعل رزق عتاب

كل يوم درهماً، فكان ﷺ يقول: لا أشبع الله بطنا جاع على درهم كل يوم. وفى رواية أنه خطب الناس فقال: أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم، فقد رزقنى رسول الله ﷺ كل يوم درهماً فلا حاجة لى إلى أحد، وبقى على عمله إلى آخر خلافة الصديق ﷺ، وتوفى فى اليوم الذى توفى فيه الصديق ﷺ. وقيل: بل استعمله عمر ﷺ وعاش إلى سنة إحدى وعشرين، وكانت وفاته فى خلافة عمر ﷺ.

وإنما استعمله النبى ﷺ لأنه ﷺكان رأى فى المنام أن أسيدا والده ولى على مكة مسلماً فمات كافراً، فكان تأويل تلك الرؤيا ولاية ولده عتاب ﷺ حين أسلم، وكان ﷺ من فضلاء الصحابة وعبّادهم.

وجاء أنه ﷺ لما ولاّه قال له: انطلق فقد وليتك على أهل الله، قال ذلك ثلاثاً. وفى رواية قال له: يا عتاب أتدرى أنى وليتك على أهل الله فاستوصى بهم خيراً، يقول ذلك ثلاث مرات. فكان عتاب ﷺ شديداً على المريب، ليِّناً على المؤمن، وقال: والله لا أعلم متخلفاً يتخلف عن الصلاة فى جماعة إلا ضربت عنقه، فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق، فقال أهل مكة: يا رسول الله لقد استعملت عليّ أهل مكة عتاب بن أسيد أعرابياً جافياً، فقال ﷺ: إنى رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة فأخذ بحلق الباب فقلقلها قلقالاً شديداً حتى فتح له، فدخلها فأعز الله به الإسلام لنصرته للمسلمين على من يريد ظلمهم.

قال ابن الجوزى: إنما استعمل ﷺ عتاباً حين أراد الخروج إلى حرب هوازن،

وفى كلام غيره أن ذلك كان بعد غزوة الطائف وعمرة الجعرانة، حين أراد ﷺ الذهاب إلى المدينة، ولا تخالف لاحتمال أن يراد أنه أبقاه على ذلك حين أراد الرجوع إلى المدينة. وكان لعتاب ﷺ ولد اسمه عبد الرحمن يقال له يعسوب قريش حضر وقعة الجمل مع عليّ ﷺ فقتل، واحتمل نسر يده وألقاها بمكة فعرفوها بخاتمه فجهزوها وصلوا عليها ودفنوها.

والكلام على هذه الغزوة الشريفة يطول وفيما ذكر كفاية، والله سبحانه وتعالى أعلم.

أقوال المادحين فى الفتح

وقد أشار الإمام البوصيرى لبعض ما وقع فيها فقال:

صرعت قومه حبائل بغى — أحدَّها المكر منهم والدهاء

فأتتهم خيل إلى الحرب تختا — ل وللخيل فى الوغى خيلاء

قصدت منهم القنا فقوافى الـ — طعن منها ما شأنه الإيطاء

وأثارت بأرض مكة نقعاً — ظن أن الغدو منها عشاء

أحجمت عنده الحجون وأكدى — دون إعطائه القليل كداء

ودهت أوجها بها وبيوتاً — ملّ منها الأكفاء والأقواء

فدعو أحلم البرية والعفـ — وجواب الحليم والإغضاء

ناشدوه القربى التى من قريش — قطعتها البغضاء والشحناء

فعفــا عفــو قــادر لم ينغصــه عليهــم بما مضــى إغــــراء

وســـواء عليـه فيمـــا أتـــاه من ســواه الملام والإطـراء

ولو أن انتقامـه لهـوى النفـ ـس لدامت قطيعـة وجفـاء

قام للــه فى الأمـور فـارضـى الله منـه تبـايــن ووفـــاء

فعله كلـه جميـل وهل ينـ ـضح إلا بمـا حـواه الإنـاء

وقد أجاد العلامة أبو محمد عبد الله بن أبى زكريـا يحيـى بـن علـى الشقراطسـى حيث يقول فى قصيدته المشهورة بعد ما ساق قصة بدراً تبعها بثمانية وعشـرين بيتاً فى قصة الفتح لأنهما كانتا عظيمتين، فبدر أول مشهد نصـر الله رسـوله ﷺ فيـه، وهذا يوم استيلائه على مكة التى هى من أشرف البقـاع، ويـوم عـزّه فـى بلاده التى أوذى فيها، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً فقال:

ويوم مكة إذ أشــرفت فى أمـم تضيق عنها فجاج الوعث والسـهل

خوافق ضاق زرع الخافقين بهـا فى قاتم من عجـاج الخيـل والإبـل

وجحفل قذف الأرجاء ذى لجب عـرمـرم كزهـراء السيل منسـحل

وأنت صلى عليك الله تقدمـهـم فى بهو إشـراق نور منك مكتمـل

ينيـر فوق أغـر الوجـه منتجب متــوج بعــزيـز النصــر مقتبـــل

يسمـــو أمام جنود اللـه مرتـدياً ثـوب الوقـار لأمـر اللـه ممتثـــل

خشعت تحت بهاء العز حتى سمت بك المهـابة فعل الخاضـع الوجـل

وقد تباشر أملاك السماء بما ملكت إذ نلت منه غاية الأمل
والأرض ترجف من زهو ومن فرق والجو يزهو إشراقاً من الجذل
والخيل تختال زهواً فى أعنتها والعيس تنثال رهواً فى ثنى الجدل
لولا الذى خطت الأقلام من قدر وسابق فى قضاء غير ذى حول
أهل تهلان بالتهليل من طرب وذاب يذبل تهليلاً من الذبل
الملك لله هذا عز من عقدت له النبوة فوق العرش فى الأزل
شعبت صدع قريش بعد ما قذفت بهم شعوب شعاب السهل والقلل
قالوا محمد قد زادت كتائبه كالأسد تزأر فى أنيابها العصل
فويل مكة من آثار وطأته وويل أم قريش فى جوى الهبل
فجدت عفواً بفضل العفو منك و لم تلمم ولا بأليم اللوم والعذل
أضربت بالصفح صفحاً عن طوائلهم طولاً أطال مقيل النوم فى المقل
رحمت أشج أرحام أتيح لها تحت الوشيج وشيج الروع والوجل
عاذوا بظل كريم والعفو ذى لطف مبارك الوجه بالتوفيق مشتمل
زان الخشوع وقار منه فى خفر أرق من خفر العذر أفى الكلل
والكفر فى ظلمات الرجس مرتكس ثاو بمنزلة البهموت فى زحل
حجزت بالأمن أقطار الحجاز معاً وملت بالخوف عن حيف وعن طلل

وحل أمن ويمن منك فى يمن ... لما أجابت إلى الإيمان عن عجل
وأصبح الدين قد حفت جوانبه ... بعزة النصر واستولى على الملل
قد طاع منحرف منهم لمعترف ... وانقاد منعدل منهم لمعتدل
أحبب بخلة أهل الحق فى الخلل ... وعز دولته الغراء فى الدول

إسلام معاوية وفضائله

وكان جملة من أسلم وبايعه ﷺ على الإسلام معاوية وأخوه يزيد ابنا أبى سفيان. وقيل: إن إسلام معاوية كان عام الحديبية.

وعن معاوية ؓ قال: لما كان عام الحديبية وقع الإسلام فى قلبى فذكرت ذلك لأمى، فقالت: إياك أن تخالف أباك فيقطع عنك القوت، فأسلمت وأخفيت إسلامى، فقال لى يوماً أبو سفيان وكأن شعر بإسلامى، أخوك خير منك هو على دينى.

فلما كان عام الفتح أظهرت إسلامى، ولقيته ﷺ فرحب بى، وكتبت له بعد أن استشار فىَّ ذلك جبريل عليه السلام فقال: استكتبه فإنه أمين.

وفى البخارى أن كريبا قال لابن عباس رضى الله عنهما: إن معاوية يوتر بركعة، فقال: دعه فإنه فقيه، قد صحب رسول الله ﷺ. وجاء أنه ﷺ أردفه يوماً خلفه فقال: ما يلينى منك؟ قلت: بطنى، قال: اللهم املأه حلماً وعلماً.
وعن العرباض بن سارية ؓ قال: قال النبى ﷺ لمعاوية ؓ: اللهم علّمه الكتاب والحساب، وقهِ العذاب، ومكن له فى البلاد.

وعن بعض الصحابة ﷺ أنه سمع النبى ﷺ يدعو لمعاوية ﷺ يقول: اللهم اجعله هادياً مهدياً، واهده واهد به ولا تعذبه. وقال له النبى ﷺ: إذا ملكت فأحسن. وفى رواية: إذا ملكت من أمر أمتى شيئاً فاتق الله وأعدل. وفى رواية: يا معاوية إنك ستلى أمر أمتى فارفق بها. ويذكر أنه كان عنده قميص رسول الله ﷺ وإزاره ورداءه وشىء من شعره، فقال عند موته: كفنونى فى القميص، وأدرجونى فى الرداء، وأزرونى بالإزار، واحشوا منخرى وشدقى من الشعر، وخلّوا بينى وبين أرحم الراحمين.

ولما حضرته الوفاة قال: اللهم ارحم الشيخ العاصى، ذا القلب القاسى، اللهم أقل عثرتى، واغفر ذلتى، وعد بحلمك على من لا يرجو غيرك، ولم يثق بأحد سواك، ثم بكى حتى علا نحيبه. وكانت وفاته بدمشق سنة ستين من الهجرة وهو ابن اثنتين وثمانين سنة. وقيل: ثمان وسبعين سنة، وكان أبيض جميلاً وهو من الموصوفين بالحلم.

ولى الشام لعمر وعثمان رضى الله عنهما عشرين سنة، وولى الخلافة سنة أربعين، ومكث خليفة عشرين سنة إلا ستة أشهر.

وأما ما وقع بينه وبين على ﷺ فمذهب أهل السنة أن ذلك كان باجتهاد منهما فلا يعترض على أحد منهما. وقد قال ﷺ: (الله الله فى أصحابى وأصهارى وأنصارى فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين).

ذكر من اختفى يوم فتح مكة

١- منهم وحشى بن حرب الذى أهدر ﷺ دمه لكونه قتل عمه حمزة ﷺ فلما فتحت مكة هرب إلى الطائف. قال: فكنت بالطائف فلما خرج وفد الطائف ليسلموا ضاقت علىّ المذاهب، فقلت: ألحق بالشام أو باليمن أو ببعض البلاد، فوالله إنى لفى ذلك من همى إذ قال لى رجل: ويحك والله إنه ما يقتل أحداً يدخل فى دينه، فخرجت حتى قدمت عليه، فلم يرعه إلا وأنا قائم على رأسه أشهد شهادة الحق، فلما رآنى قال: وحشى، قلت: نعم يا رسول الله، قال: اقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة؟ فحدثته فلما فرغت عنه، قال: ويحك غيب وجهك عنى، فكنت أتنكب رسول الله ﷺ حيث كان، لئلا يرانى حتى قبضه الله.

ثم خرج وحشى مع من خرج لقتال أهل الردة فى خلافة أبى بكر ﷺ فقتل مسيلمة الكذاب بحربته التى قتل بها حمزة ﷺ، فكان يقول: أرجو أن تكون هذه بتلك، أى: أن هذه تكفر تلك.

٢- وممن اختفى يوم الفتح عتبة ومعتب ابنى أبى لهب، فقال النبى ﷺ لعمه العباس: أين ابنا أخيك لأراهما - يعنى عتبة ومعتب بن أبى لهب - فقال العباس ﷺ: فيمن تنحى من مشركى قريش، قال: ائتنى بهما، فركبت إليهما فأتيته بهما، فدعاهما للإسلام فأسلما، فَسُرَّ بإسلامهما ودعا لهما، ثم قام ﷺ وأخذ بأيديهما وانطلق بهما حتى أتى الملتزم فدعا ساعة ثم انصرف، والسرور يُرى فى وجهه، فقال له العباس ﷺ: أسرَّك الله يا رسول الله، إنى أرى السرور فى

وجهك، قال: إنى استوهبت ابنى عمى هذين من ربى فوهبهما لى، وشهدا معه حنيناً والطائف، ولزماه يوم حنين، وقلعت عين معتب يوم حنين.

٣- وممن اختفى أيضاً سهيل بن عمرو، وكان ابنه عبد الله مسلماً فجاء إلى النبى ﷺ ليأخذ له أماناً فقال ﷺ: هو آمن بأمان الله فليظهر، ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله: من لقى سهيلاً بن عمرو فلا يحد النظر إليه، فلعمرى إن سهيلاً له عقل وشرف، وما مثل سهيل يجهل الإسلام. فخرج ابنه عبد الله إليه فأخبره بمقالة رسول الله ﷺ فقال سهيل: كان والله براً صغيراً، براً كبيراً، ثم إنه خرج إلى حنين وهو على شركه ثم أسلم بالجعرانة، وصار من فضلاء الصحابة ﷺ. حتى أن الله ثبت به أهل مكة يوم جاءهم خبر وفاته ﷺ فكادوا أن يرتدوا، فخطبهم خطبة مثل الصديق ﷺ بالمدينة وقال فيها: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لا يموت ﴿وما محمداً إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ (آل عمران: ١٤٤) فثبتهم الله به ﷺ، واستشهد ﷺ فى اليرموك.

وقيل: توفى بالشام فى طاعون عمواس.

الفتح والرحمة والحكمة

ودخل ﷺ مكة يوم الاثنين بين أبى بكر وأسيد بن حضير رضى الله عنهما وهو متواضع، مطأطىء رأسه على ناقته القصواء، مردفاً أسامة بن زيد رضى الله عنهما خلفه، وهو ﷺ يقرأ سورة الفتح.

وعن أنس ﷺ قال: لما دخل ﷺ مكة يوم الفتح استشرفه الناس فوضع رأسه على

رحله متخشعاً. وفى رواية: حتى أن رأسه لتكاد تمس رحلـه، أى: تواضعـاً لله لما رأى ما أكرمه به فى الفتح، و لم يزل يقرأ سورة الفتح فى حال دخوله حتى جاء البيت فطاف به.

وفى شرح المواهب للعلاّمة الزرقانى: أن طوافه ﷺ إنما كان بعد أن استقر فى خيمته ساعة واغتسل، وعاد للبس السلاح والمغفر، ودعا بالقصواء فأدنيت إلى باب الخيمة، وقد حف به الناس فركبها، وسار وأبو بكر ﷺ يحادثه، فمرّ ببنات أبى أحيحة بالبطحاء وقد نشرن شعورهن يلطمن وجوه الخيل بالخمر، فتبسم إلى أبى بكر ﷺ واستنشده قول حسان الماضى (يلطمهن بالخمر النساء) إلى أن انتهى إلى الكعبة ومعه المسلمون، فاستلم الركن بمحجنه، وكبّر فكبّر المسلمون لتكبيره، ورجعوا التكبير حتى ارتجت مكة تكبيراً، حتى جعل ﷺ يشير إليهم أن اسكتوا، والمشركون فوق الجبال ينظرون، فطاف بالبيت ومحمد بن مسلمة آخذ بزمام الناقة سبعاً، واستلم الحجر الأسود كل طوفة بمحجنه، وكان ذلك الاثنين لعشر بقين من رمضان وهو حلال غير محرم.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وعلى الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، لكل حى من أحياء العرب صنم قد شدّوا أقدامها بالرصاص، فجاء ﷺ ومعه قضيب فجعل يهوى به إلى كل صنم منها فيخر لوجهه. وفى رواية: لقفاه. وفى رواية: ما أشار إلى صنم منها فى وجهه إلا وقع لقفاه، ولا أشار لقفاه إلا وقع لوجهه، من غير أن يمسَّه بما فى يده، ويقول: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.

وفى رواية: فأتى فى طوافه على صنم إلى جنب البيت من جهة بابه يعبدونه وهو"هبل" وكان فى يده ﷺ قوس فجعل يطعن بها فى عينيه ويقول: جاء الحق .. الآية. ثم أمر به فكسر، فقال الزبير ﷺ لأبى سفيان ﷺ: قد كسر هبل، أما إنك قد كنت يوم أحد فى غرور حتى تزعم أنه قد أنعم، فقال أبوسفيان: دع هذا عنك يا ابن العوام، لقد أرى لو كان مع إله محمد غيزه لكان غير ما كان.

وعن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ يوم الفتح: هذا ما وعدنى ربى ثم قرأ إذا جاء نصر الله والفتح.

وقد أشار صاحب الهمزية إلى ذلك فقال:

واستجابت له بنصر وفتح ... بعد ذاك الخضراء والغبراء
وتوالت للمصطفى الآية الكبرى ... عليهم والغارة الشعواء
فإذا ما تلا كتابا فى ... الله تلته كتيبة خضراء

ولما فرغ ﷺ من طوافه نزل عن راحلته. روى ابن أبى شيبة عن عمر ﷺ قال: ما وجدنا مناخاً فى المسجد لراحلته ﷺ حتى أنزل على أيدى الرجال فأخرجت الراحلة فأنيخت بالوادى، ثم انتهى ﷺ إلى المقام فصلى ركعتين، ثم انصرف إلى زمزم وقال: لولا أن تغلب بنو عبد المطلب لنزعت منها دلواً، فنزع له العباس دلواً فشرب منه وتوضأ، والمسلمون يبتدرون وضوءه يصبونه على وجوههم، والمشركون ينظرون ويعجبون ويقولون: ما رأينا قط أبلغ من هذا، ولا سمعنا به، ثم جلس ﷺ فى ناحية المسجد وأبو بكر ﷺ قائم على رأسه

بالسيف، ثم دعا عثمان بن طلحة ﷺ ففتح له الكعبة ودخلها ﷺ هو وبلال، وأسامة بن زيد، وعثمان بن طلحة الحجبى ﷺ، وصلى ركعتين بين العمودين اليمانيين.

وفى رواية: جعل عمودين عن يمينه، وعموداً عن يساره، وثلاثة أعمدة وراءه، وكان البيت على ستة أعمدة. وفى رواية: أن بين موقفه ﷺ وبين الجدار الذى استقبله قريباً من ثلاثة أذرع. وفى رواية: أن دخوله ذلك كان ثانى يوم الفتح.

أحكام يوم الفتح

ثم وقف على باب الكعبة فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم خطب خطبة طويلة وذكر فيها جملة من الأحكام منها: لا يقتل مسلم بكافر، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين، ولا تنكح المرأة على عمتها، ولا على خالتها، والبينة على المدَّعى، واليمين على من أنكر، ولا تسافر المرأة مسيرة ثلاثة أيام إلا مع ذى محرم، ولا صلاة بعد العصر وبعد الصبح، ولا يصام يوم الأضحى ويوم الفطر، ثم قال: يا معشر قريش إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالأباء، والناس من أدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ (الحجرات: ١٣) ثم قال: يا معشر قريش ماذا تقولون وماذا تظنون أنى فاعلٌ فيكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت، وأول من قال

ذلك سهيل بن عمرو، فقال ﷺ: أقول كما قال أخى يوسف: ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾، (يوسف: ٩٢). اذهبوا فأنتم الطلقاء، أى: الذين أطلقوا، فلم يسترقوا، و لم يؤسروا، فخرجوا كأنما نُشروا من القبور، فدخلوا فى الإسلام.

ومما ذكره فى تلك الخطبة قوله: أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهى حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ويعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص فيها لقتال رسول الله ﷺ فقولوا له: إن الله قد أذن لرسوله ﷺ و لم يأذن لكم، وإنما أحلت لى ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها الآن كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب، ثم قال: يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل فيكم.. إلى آخر ما تقدم.

كيف فتحت الكعبة؟

وقد اختلفت الروايات فى كيفية إحضار مفتاح الكعبة له حين أراد الدخول، والصحيح أنه دعا عثمان بن طلحة وقال: ائتنى بالمفتاح - وتقدم أنه أسلم فى مدة صلح الحديبية وهاجر هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ﷺ - فذهب عثمان إلى أمه سلامة بنت سعيد الأنصارية الأوسية - وقد أسلمت بعد ذلك رضى الله عنها - فلما جاءها ليأخذ منها المفتاح أبت أن تعطيه، فقال: يا أمة ادفعى لى المفتاح فإنه رسول الله ﷺ ، فأبت أن تعطيه وقالت: لا واللات والعزَّى، فقال لها: لا لات ولا عزَّى قد جاء أمر غير ما كنا فيه، والله لتعطنه

وإنك إن لم تفعلى قتلت أنا وأخى وأنت، قتلتينا ووالله لتدفعنه، أو ليأتين غيرى فيأخذه منك، فأدخلته فى حجزتها وقالت: من يدخل يده هنا.

قال الزهرى: وأبطأ عثمان على رسول الله ﷺ وهو ينتظر حتى أنه لينحدر منه مثل الجمان من العرق ويقول: ما يحبسه.

وفى رواية فجعلت تقول: إن أخذه منكم لا يعطيكموه، فبينما هو يكلمها إذ سمع صوت أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فى الدار، وعمر رافع صوته وهو يقول: يا عثمان اخرج، فقالت: يا بنى خذ المفتاح فإن تأخذه أحب إلى من أن يأخذه تيم وعدى، أى: أبو بكر وعمر، فأخذه عثمان فخرج يمشى إذا كان قريبا من وجه رسول الله ﷺ عثر عثمان فسقط منه المفتاح فحنى عليه وتناوله. وفى رواية: فاستقبله ﷺ ببشر ففتح له عثمان الباب. وفى رواية: فأخذه ﷺ منه وفتح الكعبة. فيحتمل أنهما تشاركا فى الفتح، فقد روى الفاكهى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: كانت بنو أبى طلحة يزعمون أنه لا يستطيع أحد فتح الكعبة غيرهم، فأخذ رسول الله ﷺ المفتاح ففتح بيده.

قال العلامة الزرقانى: ويحتمل الجمع بأنه ﷺ لما فتح الضبة بالمفتاح عاونه فدفع الباب ففتحه له، أى: فصح إسناد الفتح لكل منهما.

وجاء خالد بن الوليد، وكان حين دخل النبى ﷺ الكعبة على باب الكعبة يذب الناس.

ولما خرج ﷺ من الكعبة جلس فى المسجد ومفتاح الكعبة فى يده فقام إليه على رضي الله عنه فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك

وسلم، فقال ﷺ ما معناه: إنما أعطيكم ما تبذلون فيه أموالكم للناس، أى: وهو السقاية، لا ما تأخذون فيه من الناس أموالهم وهى الحجابة، لشرفكم وعلو مقامكم.

وفى رواية أن العباس ﷺ تطاول يومئذ لأخذ المفتاح فى رجال من بنى هاشم، فقال رسول الله ﷺ: أين عثمان بن طلحة فدعا به فقال: هك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم بر ووفا، وأنزل الله هذه الآية فى شأن عثمان بن طلحة:

﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾ (النساء: ٥٨).

وروى الأزرقى وغيره عن مجاهد قال: نزلت هذه الآية فى عثمان بن طلحة، أخذ ﷺ منه مفتاح الكعبة ودخلها يوم الفتح، فخرج وهو يتلوها فدعا عثمان فدفع المفتاح إليه، وقال: خذوها، أى: الحجابة، يا بنى أبى طلحة لا ينزعها منكم إلا ظالم. قال: وقال عمر ﷺ: خرج ﷺ من الكعبة وهو يتلو هذه الآية ما سمعته يتلوها قبل ذلك. قال السيوطى: ظاهر هذا أنها أنزلت فى جوف الكعبة. وروى الأزرقى عن ابن المسيب خذوها خالدة تالدة لا يظلمكوها إلا كافر. وفى رواية عن ابن أبى شيبة عن عبد الرحمن بن سابط أنه ﷺ دفع المفتاح إلى عثمان فقال: خذوها خالدة مخلدة إنى لم أدفعها إليكم ولكن الله دفعها إليكم، ولا ينزعها منكم إلا ظالم.

وروى ابن سعد وغيره عن عثمان بن طلحة ﷺ قال: لقينى ﷺ بمكة قبل الهجرة فدعانى إلى الإسلام فقلت: يا محمد أتعجب لك حيث تطمع أن أتبعك وقد خالفت دين قومك وجئت بدين محدث، قال: وكنا نفتح الكعبة فى الجاهلية

يوم الاثنين ويوم الخميس، فأقبل النبى ﷺ يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس ـ وذلك بعد بعثته ـ فأغلظت له ونلت منه فحلم عنى، ثم قال: يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدى أضعه حيث شئت، فقلت: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت ـ يعنى ما دامت قريش أنت لا تقدر على ذلك ـ فقال: بل عمرت وعزت يومئذ، ودخل الكعبة فوقعت كلمته منى موقعاً ظننت أن الأمر سيصير إلى ما قال، أى: لأنه كان معروفاً بينهم بالصدق والأمانة، قال عثمان: فأردت الإسلام فإذا قومى يزبروننى زبراً شديداً، فلما كان يوم الفتح قال: يا عثمان ائتنى بالمفتاح فأتيته به ثم دفعه إلىَّ وقال: خذوها، يعنى سدانة البيت خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان إن الله استأمنك على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف، قال عثمان: فلما وليت نادانى فرجعت إليه فقال: ألم يكن الذى قلت لك، فذكرت قوله لى بمكة قبل الهجرة: لعلك سترى هذا المفتاح بيدى أضعه حيث شئت، قلت: بلى أشهد أنك رسول الله.

والروايات السابقة هى التى صحت بها الأحاديث، وعثمان المذكور هذا هو ابن طلحة بن أبى طلحة واسم أبى طلحة عبد الله بن عبد العزّى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى بن كلاب العبدرى، وطلحة أبو عثمان قتل كافراً يوم أحد. ويقال لعثمان: الحجبى، ولآل بيته الحجبة، ويعرفون الآن بالشيبيين نسبة إلى شيبة بن عثمان بن أبى طلحة وهو ابن عم عثمان بن طلحة بن أبى طلحة.

قال الحافظ بن حجر: إن أبا طلحة له ولدان عثمان وطلحة، أتى عثمان بشيبة، وأتى طلحة بعثمان، فلما مات عثمان بن طلحة بن أبى طلحة أخذ المفتاح ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبى طلحة، لأن عثمان بن طلحة كان لا ولد له، وبقى

فى أولاد شيبة وهم الشيبيون.

قال العلاّمة الزرقانى: وفى هذه الأخبار كلها دليل على بقاء عقبهم إلى الآن.
قال العلاّمة الشمس الحطاب المالكى المكى: ولا التفات إلى قول بعض المؤرخين أن عقبهم انقطع فى خلافة هشام بن عبد الملك فإنه غلط لقول مالك ﷺ: لايشرك مع الحجبة فى الخزانة أحد لأنها ولاية منه ﷺ، ومالك ولد بعد هشام بن عبد الملك بنحو عشرين سنة، وذكر ابن حزم وابن عبد البر جماعة منهم فى زمانهما وعاشا إلى ما بعد نصف المائة الخامسة. وكذا ذكر العلاّمة القلقشندى وعاش إلى إحدى وعشرين وثمانمائة. ولا دلالة لزاعم انقراضهم فى إخدام معاوية ﷺ الكعبة عبيداً، لأن إخدامها غير ولاية فتحها كما هو معلوم، وكثيراً ما يقع فى كلام المؤرخين كالأزرقى والفاكهى ذكر الحجبة ثم الخدمة بما يدل على التغاير.

إسلام شيبة بعد آيات بينات

وقد تقدم الكلام على إسلام عثمان بن طلحة بن أبى طلحة فى قصة إسلام خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص ﷺ. وأما شيبة بن عثمان بن أبى طلحة فأسلم عام الفتح وقال ﷺ يحدث عن سبب إسلامه:

ما رأيت أعجب مما كنا فيه من لزوم بعض ما عليه أباؤنا من الضلالات، ولما كان عام الفتح ودخل رسول الله ﷺ مكة صار إلى حرب هوازن، قلت: أسير مع قريش إلى هوازن بحنين فعسى أن أصيب من محمد غرة فأقتله فأكون أنا الذى قمت بثأر قريش كلها. وفى لفظ: اليوم أدرك ثأرى من محمد، أى: لأن

أباه وعمه وجملة من بنى عمه قتلوا يوم أُحد قتلهم حمزة وعلىّ وغيرهم ﷺ، قال وقلت: لو لم يبق من العرب والعجم أحداً إلا اتبع محمداً ما تبعته، لايزداد ذلك الأمر عندى إلا شدَّة، فلما اختلط الناس يوم حنين ونزل ﷺ عن بغلته، أصلتُ السيف ودنوتُ منه أريد الذى أريد منه، ودفعت السيف حتى كدت أوقع به الفعل، رفع إلىَّ شواظ من نار كالبرق كاد يهلكنى، فوضعت يدى على بصرى خوفاً عليه. وفى رواية: فلما هممت به حال بينى وبينه خندق من نار وسور من حديد. ولا مانع من وقوع كل ذلك.

قال: فالتفت إلىَّ رسول الله ﷺ وتبسم وعرف الذى أريد، فنادانى يا شيبة ادن منى، فدنوت منه، فمسح صدرى ثم قال: اللهم أعذه من الشيطان. قال شيبة: فوالله لهو فى الساعة صار أحب إلىّ من سمعى وبصرى، وأذهب الله ما كان فىَّ، ثم قال: ادن فقاتل فتقدمت أمامه أضرب بسيفى، والله أعلم أنى أحب أن أقيه بنفسى وكل شىء، ولو كان أبى حياً ولقيته تلك الساعة لأوقعت السيف به، فجعلت ألزمه فيمن لزمه، أى: ثبت معه يوم حنين، حتى تراجع المسلمون وكروا كرة رجل واحد، وقربت إليه بغلته فاستوى عليها قائماً.

وجاء فى رواية عن شيبة بن عثمان الحجبى ﷺ قال: خرجت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فو الله إنى لواقف مع رسول الله ﷺ إذ قلت: يا رسول الله إنى لا أرى خيلاً بلقاً، قال: يا شيبة إنه لا يراها إلا كافر فضرب بيده على صدرى، ثم قال: اللهم اهد شيبة فعل ذلك ثلاثاً، فما رفع ﷺ يده عن صدرى الثالثة حتى ما أجد من خلق الله أحب إلىّ منه.

ولما انقضى القتال ورجع ﷺ إلى معسكره فدخل خباءه دخلت عليه ما دخل عليه غيرى، حباً لرؤية وجهه ﷺ وسروراً به، فقال: يا شيبة الذى أراد الله خير مما أردت بنفسك، ثم حدثنى بكل ما أضمرته فى نفسى مما لم أذكره لأحد قط، فقلت: إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، ثم قلت له: استغفر لى، فقال: غفر الله لك.

بلال يؤذن على ظهر الكعبة ليغيظ المشركين

وجاء أن بلالاً ﷺ أمره النبى ﷺ أن يؤذن ظهر يوم الفتح على ظهر الكعبة ليغيظ بذلك المشركين، وكان أبو سفيان وعتاب بن أسيد، وفى رواية: وخالد ابن أسيد أخو عتاب: والحارث بن هشام وغيرهم، جلوساً بفناء الكعبة، فقال عتاب بن أسيد أو خالد بن أسيد: لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون يسمع هذا فيسمع منه ما يغيظه، وقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه حق لاتبعته إن يكن الله يكره هذا فسيغيره. وفى رواية أنه قال: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً. وقال بعض بنى سعيد بن العاص: لقد أكرم الله سعيداً قبل أن يرى هذا الأسود على ظهر الكعبة. وقال الحكم بن أبى العاص: والله إن هذا الحدث عظيم، عبد بنى جمح يصيح على بنية أبى طلحة. وقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصباء، فخرج عليهم النبى ﷺ فقال لهم: قد علمت الذى قلتم، ثم ذكر لهم ذلك، فقال، أما أنت يا فلان فقلت كذا، وأما أنت يا فلان فقلت كذا، وأما أنت يا فلان فقلت كذا،

فقال أبو سفيان: أما أنا يا رسول الله فما قلت شيئاً، فضحك رسول الله ﷺ.

فقال الحارث بن هشام وعتاب بن أبى أسيد وخالد بن أبى أسيد: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك.

يستهزىء بصوت بلال فيصير مؤذنا للكعبة

وصار بعض من قريش يستهزئون ويحكون صوت بلال غيظاً، وكان من جملتهم أبو محذورة وكان من أحسنهم صوتاً، فلما رفع صوته بالأذان مستهزئاً سمعه رسول الله ﷺ فأمر به النبى ﷺ فمثل بين يديه - وهو يظن أنه مقتول - فمسح رسول الله ﷺ ناصيته وصدره بيده الشريفة، قال: فامتلأ قلبى والله إيماناً ويقيناً وعلمت أنه رسول الله ﷺ، فألقى عليه رسول الله ﷺ الأذان وعلمه إياه وأمره أن يؤذن لأهل مكة، وكان سنه ست عشرة سنة، وأولاده بعده كانوا يتوارثون الآذان بمكة.

ويروى أن جويرة بنت أبى جهل قالت عند أذان بلال على ظهر الكعبة: والله لا نحب من قتل الأحبة أبداً، ولقد جاء لأبى الذى جاء لمحمد من النبوة فردّها، ولم يرد خلاف قومه، ثم أسلمت وحسن إسلامها رضى الله عنها.

شريك النبى فى الجاهلية وحبيبه فى الإسلام

وممن جاءه ﷺ يوم الفتح السائب بن عبد الله المخزومى، وقيل: عبد الله بن السائب، وقيل: السائب بن عويم، وقيل: قيس بن السائب بن عويم، وكان شريكاً للنبى ﷺ قبل بعثته ﷺ، قال: لما أسلمت أخذ عثمان وغيره يثنون علىّ

فقال ﷺ: لا تعلمونى به كان صاحبى، وفى لفظ: لما أقبلت عليه قال: مرحباً بأخى وشريكى كان لا يدارى ولا يمارى، قد كنت تعمل أعمالاً فى الجاهلية. لا تتقبل منك، أى: لتوقفها على الإسلام، وهى اليوم تتقبل منك، أى: لوجود الإسلام.

جاء شقيا وذهب وليا

وجاء أن فضالة بن عمير بن الملوّح حدث نفسه بقتل النبى ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح فلما دنا منه رسول الله ﷺ قال: أفضالة؟ قال: نعم فضالة يا رسول الله، قال: ما الذى كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شىء كنت أذكر الله، فضحك النبى ﷺ ثم قال: استغفر الله، ثم وضع يده الشريفة على صدره فسكن قلبه، فكان فضالة ؓ يقول: والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلىَّ منه.

وفى سيرة ابن هشام قال فضالة: فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها فقالت: هلمّ إلى الحديث فقلت: لا، وانبعث فضالة ؓ يقول:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لها ... يأبى علىَّ الله والإسلام
لو ما رأيت محمداً وقبيله ... بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بينا ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

تحطيم الأصنام من الكعبة

وبقى من الأصنام التى كانت على الكعبة صنم لخزاعة كان فوق الكعبة وكان من صخر، وفى رواية: من نحاس موتداً بأوتاد من حديد إلى الأرض، فأمر النبى ﷺ علياً ؓ أن يرميه، فرمى به وكسره، وجعل أهل مكة يتعجبون.

وروى الحاكم عن علىٍّ ؓ انطلق بى ﷺ حتى أتى بى الكعبة فقال: اجلس فجلست إلى جنب الكعبة فصعد على منكبى ثم قال: انهض فنهضت، فلما رآى ضعفى تحته قال: اجلس فجلست، ثم قال: يا علىّ اصعد على منكبى ففعلت فلما نهض بى خيّل لى أنى لوشئت نلت أفق السما، فصعدت فوق الكعبة، وتنحى ﷺ فقال: الق صنمهم الأكبر وعالجه، قال: فلم أزل أعالجه حتى استمكنت منه فألقيته.

وقد أجاد القائل:

يارب بالقدم التى أوطأتها ... فى قاب قوسين المحل الأعظما

وبحرمة القدم التى جعلت لها ... كتف المؤيد بالرسالة سلما

ثبت على متن الصراط تكرما ... قدمى وكن لى منقذاً ومسلما

واجعلها ذكرى فمن كانا له ... ذخراً فليس يخاف قط جهنما

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما قدم رسول الله ﷺ مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، أى: بحسب زعمهم، وكانت تماثيل على صور شتى فأمر بها فأخرجت.

وفى رواية أمر عمر بن الخطاب ﷺ وهو بالبطحاء أن يأتى الكعبة فيمحو كل صورة فيها فلم يدخلها حتى محيت الصور. فكان عمر رضى الله عنه هو الذى أخرجها، وأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فى أيديهما الأزلام التى كانوا يستقسمون بها، فقال رسول الله ﷺ: قاتلهم الله أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط.

وفى رواية عن جابر ﷺ وكان عمر ﷺ قد ترك صورة إبراهيم عليه السلام فلما دخل ﷺ رآها فقال: يا عمر ألم آمرك أن لا تدع فيها صورة، قاتلهم الله جعلوه شيخاً يستقسم بالأزلام، ثم رأى صورة مريم فقال: امسحوا ما فيها من الصورة، قاتل الله قوماً يصورون ما لا يخلقون.

وفى رواية أسامة بن زيد رضى الله عنهما: أنه ﷺ دخل الكعبة فرآى صوراً فدعا بماء فجعل يمحوها.. وهو محمول أنه بقيت بقية خفيت على من محاها أولاً. وذكر بعضهم أن صورة عيسى وأمه بقيتا أو بقى بعض أثرهما حتى رآهما بعض من أسلم من نصارى غسَّان، فقال: إنكما لببلاد عربية، فلما هدم ابن الزبير رضى الله عنهما البيت ذهبا فلم يبق لهما أثر.

ثم نادى منادى رسول الله ﷺ بمكة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنماً إلا كسره، فكسَّروا الأصنام التى كانت فى بيوتهم، وعمدت هند بنت عتبة رضى الله عنها إلى صنم كان فى بيتها وجعلت تضربه وتقول: كنا منك فى غرور.

ثم بعث رسول الله ﷺ السرايا إلى كسر الأصنام التى حول مكة لأنهم كانوا

اتخذوا لهم أصناماً جعلوا لها بيوتاً يعظمونها، ويهدون لهـا، ويطوفـون بـها كمـا يطوفون بالكعبة، فكان فى كل حى صنم، فمنها العزَّى ومناة وسواع، وسيأتى ذكر السرايا إليها.

قتيل صبيحة الفتح

ولما كان الغد من يوم الفتح عدت خزاعة على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك، فقام رسول الله ﷺ خطيباً بعد الظهر مسنداً ظهره إلى الكعبة، وقيل: كان على راحلته فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، ويوم خلق الشمس والقمر، ووضع هذين الجبلين، فهى حرام إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر يسفك بها دماً، ولا يعضد فيها شجرة، و لم تحل لأحد كان قبلى، و لم تحل لأحد يكون بعدى، و لم تحل لى إلا هذه الساعة - يعنى من صبيحة يوم الفتح إلى العصر - غضبا على أهلها، ألا قد رجعت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم: إن رسول الله ﷺ قد قاتل فيها فقولوا له: إن الله تعالى قد أحلها لرسوله ﷺ و لم يحلها لكم.

وقد جاء فى صحيح مسلم: لا يحل أن يحمل السلاح بمكة، يا معشر خزاعة ارفعو أيديكم عن القتل، فقد كثر القتل، فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين، إن شاءوا فدم قاتله، وإن شاءوا نعقله، ثم ودى رسول الله ﷺ ذلك الرجل الذى قتلته خزاعة وهو ابن الأقرع الذهلى - وكان مع بنى بكر - فلما دخل مكة وهو على شركه عرفته خزاعة، فأحاطوا به فطعنه منهم خراشى

الخزاعى بشقص فى بطنه حتى قتله، فلامه ﷺ، وقال: لو كنت قاتلاً مسلماً بكافر لقتلت خراش - والشقص ما طال فى النصل وعرض- وقال ﷺ يوم الفتح: لا تغزى مكة بعد اليوم إلى يوم القيامة، أى: لا تغزى على الكفر، أى: لا يقاتلوا على أن يسلموا.

هل فتحت مكة صلحا أم عنوة؟

واختلف العلماء - رحمهم الله - هل فتحت مكة صلحاً أو عنوة؟ فقال الأكثرون: إنها فتحت عنوة، وقال الشافعى وأحمد فى رواية عنه: إنها فتحت صلحا، وجمع بعضهم بين الروايات بأن أعلاها فتح صلحاً، أى: الذى سلكه النبى ﷺ، وأسفلها فتح عنوة، أى: الذى سلكه خالد بن الوليد ﷺ، ولما قرب ﷺ فى دخول مكة، أى: قبل أن يدخلها بيوم، قال له أسامة بن زيد رضى الله عنهما: يا رسول الله أين تنزل غداً؟ زاد وفى رواية: أتنزل فى دارك يا رسول الله؟ فقال ﷺ: وهل ترك لنا عقيل من منزل. وفى رواية: وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور، وكان عقيل ورث أبا طالب هو وأخوه طالب، ولم يرث جعفر ولا عليٌّ معهما شيئاً لأنهما كان مسلمين، وترك لهما النبى ﷺ ما يخصه تفضلاً واستمالة وتأليفاً لهما، وقيل: تصحيحاً لتصرفات الجاهلية، كما تصحح أنكحتهم. ثم إن عقيلاً أسلم، وأما طالب ففقد ببدر وكان من المشركين.

كشف الأسرار والحكم
التى تضمنها فتح مكة المكرمة

تجلت الأخلاق الربانية التى تجمل بها رسول الله ﷺ بأجلى مظاهرها فى فتح مكة، فإن أهل مكة بعد أن حاربوا الله ورسوله، وآذوا رسول الله ﷺ، وحاربوه المرة بعد المرة، وبذلوا كل ما فى وسعهم لمحو الحق متظاهرين بأشد العداوة وألد العداء، كان لا يشك اثنان أن رسول الله ﷺ إذا أظهره الله عليهم لا يبقى منهم نافخ نار، وكان القوم يعتقدون ذلك تمام الاعتقاد، حتى إذا أظهره الله عليهم ومكنه منهم، عمتهم رحمته التى فطره الله عليها، قال الله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (الأنبياء: ١٠٧) وقال تعالى:﴿حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ (التوبة: ١٢٨) وشملتهم رأفته ﷺ.

شرف ﷺ مكة كإنما هو والد رءوف رحيم قدم من سفر على أبناء بررة، نسى ﷺ شرورهم وأذيتهم، وعطف عليهم عاطفة من يحب لهم الخير ويرجو لهم النجاة من هول يوم القيامة، فأمنهم إلا نفراً منهم استوجبت أعمالهم الانتقام منهم لله تعالى، ولكن سعة الرحمة الإلهية التى جمل الله بها حبيبه ومصطفاه بقوله سبحانه: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ (النساء: ٦٤) وسعتهم حتى صاروا من كبار الصحابة.

حفظ الله رسوله ﷺ وعصمه سبحانه وتعالى من أن ينقض عهداً عاهده، أو يخلف وعداً وعده، حتى نقضت قريش العهد وأخلفوا الوعد، لحكم هى طهارة

بيت الله من الأصنام وعبادة غير الله، فكان نقض قريش العهد سبباً لفتح مكة.

نظر رسول الله ﷺ إلى الأمر نظرة حريص على أمته، رءوف رحيم بالمؤمنين، فأحب ﷺ أن لا يسفك دم فى مكة، وأن يفتحها الله تعالى بآية تكون معجزة له ﷺ حتى يحفظ الله تعالى أهل حرمه من أن يقتل رجل منهم بسيف الله فيخلد فى نار جهنم، رحمة منه ﷺ بقوم لم يتركوا نوعاً من أنواع الأذية إلا أوقعوه به ﷺ، ولا باباً من أبواب الشر إلا فتحوه، فكان جزاؤهم فى الحقيقة أن يقطعوا بسيوف المؤمنين إربا، وأن يعجل الله بهم إلى جهنم، ولكن رحمة الله التى فطر عليها حبيبه ومصطفاه وسعت قوماً لم يتركوا شيئاً من أنواع الشرور إلا فعلوها برسول الله ﷺ، فأخفى رسول الله ﷺ أمره، وسأل الله أن يمنع عنهم الأخبار، لم تكن حكمة ذلك خديعة حربية يريد بها مباغتتهم واستئصالهم لا والله، ولكن ﷺ أحب أن لا يعلموا بمسيره إليهم حتى يصبحهم فيكون ذلك داعياً لاستسلامهم وطلبهم الأمن منه ﷺ، وهى رحمته الواسعة ﷺ، ورأفته العامة، وقد أكرمه الله تعالى بما أحب، فأمسك الأخبار عن قريش حتى صبحهم ﷺ، فلما رأوه ﷺ امتلأت قلوبهم رهبة، فكانت السعادة لهم ولأولادهم من بعدهم، حكمة قد تخفى على كثير ممن لم تتزك نفسه، ولم يكاشف بجزء من الرحمة المحمدية.

انظر إلى تلك الرحمة المحمدية وسعتها، كيف مكنه الله من أشد أعدائه وألد بغضائه، فكان ﷺ وهو يريد جهادهم يجتهد أن يرحمهم، وهو يقصد حربهم يحب أن يدفع عنهم الشرور والبلايا. وقد أوذى فى الله منهم أذية لم يؤذها نبى من قومه، وكل رسول قبله ﷺ وعليهم كانوا إذا مكنهم الله من قومهم سألوه

أن يخسف بهم الأرض، أو يغرقهم فى اليم، أو يـأخذهم بالسنين، أو يمسخهم قردة وخنازير. وهذا السيد ﷺ مكنه الله من أشد أعدائه وألد بغضائه فكان ﷺ أحرص الناس على هدايتهم، وأرأف الناس بهم، وأحن الناس عليهم، حتى شملهم منه برحمة وعاطفة قد لا تكون من والد رءوف رحيم بولد بار وحيد.

الله أكبر هذا هو السيد الذى يقول الله تعالى مثنياً عليه: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ (القلم: ٤) ويقول سبحانه وتعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ (آل عمران: ١٥٩) ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (الأنبياء: ١٠٧) هو ولا شك سيد رسل الله، وأكمل من تخلق بأخلاق الله ﷺ وعلى آله وأصحابه وورثته.

لقد أعلم الله رسوله ﷺ بغدر بنى بكر وقريش، وأسمعه استغاثة عمرو بن سالم الخزاعى فى مكة وهو ﷺ بالمدينة فلباه ﷺ، ثم وفد عليه خزاعة مستغيثاً به ﷺ فأجابهم بما أجابهم به، وأخفى الأمر حتى قام متوجهاً إلى مكة ﷺ وأمر بحفظ الطرق.

وكتب حاطب بن أبى بلتعة لقريش بالخبر، ولو وصلت كتابته لقريش لسالت الأودية دماء، حتى تصبح الأرض وليس عليها قرشى، ولكن الرءوف الرحيم الذى أرسله الله رحمة للعالمين أعلمه الله بعمل حاطب رحمة بقريش، وإكراماً له ﷺ، حتى يكون كما أخبر الله رحمة للعالمين لا نقمة للعالمين، فلما أن كشف الله هذا السر عفا عن حاطب، وهذا الأمر من أكبر النفاق، لأنه خيانة لرسول الله ﷺ، لكن رسول الله ﷺ وفىٌّ يحفظ السابقية لأصحابه، وينظر إلى حسناتهم فى

سابقتهم، ويحمل معاصيهم وسيئاتهم على جانب رحمته الواسعة، ورأفته العميمة، فيعفو ويغفر ﷺ، جعل حكمة عفوه عنه أنه شهد بدراً.

وهنا حكمة خفية على من لا بصر له، وهى أن الذين كانوا يحاربون الله ورسوله فى بدر هم قريش، ومن حارب قومه فى بدر وأصاب منهم فى بداية الإسلام وزمن الخوف، كيف يميل إليهم فى وقت القوة والمنعة. والحقيقة أن مسلماً يؤمن بالله ورسوله لا يميل إلى الكفار ولو كانوا آباءه أو أبناءه بقلبه، وإن مال بلسانه فلغرض لا يخلو من حكمة، فكيف بصحابىّ من أصحاب رسول الله ﷺ.

بين لنا ﷺ أن السابقية يجب أن تراعى فى أضيق المضايق، وأن يعامل الصاحب بها مهما سقط أو ذل خصوصاً إذا جاء معترفاً. والأولى بكل مسلم أن يتشبه بأخلاق رسول الله ﷺ.

دخل رسول الله ﷺ مكة ومعه جيش الله، فكانت راية الأنصار فى يد سعد بن عبادة، وكان كل مسلم يعتقد أن أنهار الدماء تجرى بين أودية مكة، لما يعلم كل مسلم من سوء فعل أهلها وقبح صنيعهم، ولا يشك مسلم فى ذلك حتى قال سيدنا سعد رضي الله عنه كلمته التى تقدمت لك لاعتقاده ذلك، فبلغت رسول الله ﷺ فكره ﷺ هذا الكلام من سعد لما هو عليه من الرحمة والرأفة والحرص ﷺ، وأمره أن يعطى الراية لسيدنا قيس بن سعد لما يعلمه من الرحمة فيه رضي الله عنه، وهو ﷺ الوفى العطوف الرؤف الرحيم الحريص على جميع الخلق ﷺ.

يظن الناس أن رسول الله ﷺ قدم مكة ليهينها، لا والله، ما أقدمه الله عليها إلا

ليعزها، ويظهر مجدها، وينشر فضلها بين العالم أجمع.

دخل ﷺ هو وأصحابه ﷺ بسلاح المجاهدين فما لبث ﷺ إلا وصارت تلك الهيأة التى ظاهرها قهر قد تبدلت وصارت مظهراً من مظاهر الحفاوة والإجلال والتجلة والإعظام لبيت الله وحرمه ومسجد خليل الله.

ظن كفار قريش أن رسول الله ﷺ جاء ليذل الكعبة وأهلها، وإذا به ﷺ يطوف مهللاً مكبراً حامداً مسبحاً، فأذل الله به الأصنام، وطهر به بيته الحرام من الرجس والأوثان، وحفظ الله بفتح مكة جزيرة العرب من أن يُعبد فيها غير الله عز وجل.

أقرَّ ﷺ السقاية والسدانة والحجابة لأهلها تعظيماً لحرم الله، وإكراماً لجيران بيت الله، وبراً بوالديه وصلة لأرحامه ﷺ.

صلى ﷺ نافلة فى جوف الكعبة ليظهر لنا أن كل جزء من أجزاء الكعبة وجهة للأشباح، ويبين لنا أن تحية ظاهرها للقادم غير تحية باطنها للداخل فيها، حتى يكون كما قال الله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ (المائدة: ٣).

افتتح عمله ﷺبالمهمة التى هى سرّ الحكمة فى بعثته ﷺ وهى كسر الأصنام ومحوها عن وجه الأرض، حتى يكون الدين كله لله، وهذا وعد من الله تعالى، فلم يترك على الكعبة صنماً إلا أزاله إعلاء لكلمة الله ، وتجريداً لتوحيد الله. أمر علياً بن أبى طالب ﷺ أن يضع قدميه على كتفيه ﷺ ليكسر صنمهم الأكبر، ففعل علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه، وفى هذا سرٌ غامض، وإشارة من

أعظم إشارات التوحيد، وهى أنه ﷺ يحمل على كتفيه ليمحق الأصنام الظاهرة، وليرى أمته ﷺ أنه عبدٌ مهمته تجريد القلوب من الشرك الخفـى، وتطهيرها مما يشوبها من العقائد الباطلة، حتى تنعقد القلوب على أنه عبد الله ورسوله ﷺ، فلما رآى الناس علياً بن أبى طالب كرم الله وجهه على كتفيه الشريفة ليكسر الأصنام، سكرت أرواحهم بخمر التوحيد الخالص، وعلموا قدر رأفته ورحمته بالمؤمنين ﷺ.

سمِّى فتح مكة فتحاً لم يكن لفتح مكة فقط، بل هو فتح أكيد للأرض جميعها وخصوصاً لجزيرة العرب.

تلك الأخلاق المحمدية نوَّعت تلك النفوس الإبليسية حتى جعلتها نفوس ملكية، وألانت تلك القلوب الحجرية حتى جعلتها قلوباً خائفة لله رب العالمين، وصدق الله العظيم بقوله سبحانه: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (الأنبياء: ١٠٧) ويقول سبحانه وتعالى:﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾ (آل عمران: ١٠٣).

ونعم إنا والله ليجب علينا أن نذكر نعمة الله علينا، وأعظم نعمة الله علينا هو رسول الله ﷺ، وكنا أعداء فألف الله به بين قلوبنا، وكنا على شفا حفرة من النار فأنقذنا الله به ﷺ منها إلى الإيمان به سبحانه، وإلى فردوسه الأعلى.

هدم العزى

بعث ﷺ خالد بن الوليد ﷺ إلى العزّى عقب فتح مكة بخمس ليال، ومعه ثلاثون فارساً ليهدمها، وكان هذا البيت ببطن نخلة تعظمه قريش وكنانة ومضر كلها، وكان سدنتها بنو شيبان بن سليم حلفاء بنى هاشم، وكانت أعظم أصنامهم، وذلك أن عمرو بن لحى - لعنه الله - قال لهم: إن الرب يشتى عند اللات، ويصيف عند العزّى، فعظموها وبنوا لها بيتاً، وكانوا يهدون لها كما يهدون للكعبة، ويطوفون وينحرون عندها، ومع ذلك يعرفون فضل الكعبة عليها لأنها بيت الخليل ومسجده عليه السلام.

فلما سمع سادن العزّى بمسير خالد بن الوليد إليها علق سيفه عليها واشتد فى الجبل الذى هى فيه وهو يقول:

أيا عزّى شدى شدة لا شوى لها   عَلى خالد ألق القناع وشمرى

أيا عزّى إن لم تقتلى المرء خالداً   فبوئى بإثم عاجل أو تنصرى

فلما انتهوا إليها هدموا البيت التى هى فيه، وكسروا الصنم، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ بمكة فأخبره، فقال: رأيت شيئاً خرج منها حين هدمتها؟ قال: لا، قال فإنك لم تهدمها، أى: الهدم الأبدى المزيل لها حقيقة، فإن الذى فعلته هو إزالة الصورة الظاهرة، وبقى أمر خفى لا تزول إلا بزواله، فارجع إليها فاهدمها، فرجع خالد ﷺ وهو متغيظ فجرد سيفه فخرجت إليه امرأة عجوزة عريانة سوداء، ثائرة الرأس، تحثو التراب على رأسها ووجهها، فجعل السادن يصيح بها وهو يقول: أعزّى بعض غضباتك، فضربها خالد ﷺ وهويقول: يا عز كفرانك

لا سبحانك، إنى رأيت الله قد أهانك. ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: تلك العزّى لا تعبد أبدا.

مداخل الشيطان لبنى آدم

لعن الله الشيطان لم يترك باباً من أبواب الشر للإنسان إلا فتحها وكيف لا، وقد بذل جهده حتى دخل الجنة وأخرج آدم عليه السلام، فمن أمكنه أن يخرج آدم من الجنة بإيقاعه فى المعصية، كيف يرضى أن يدخل أبناءه الجنة، أو يجعلهم يوحدون الله ويعبدونه لينالوا رضاه.

علم كيف يتمكن من قلوب بنى آدم، وكيف يجذبها إليه، فأتى لكل قلب من الجهة التى ينجذب إليها، تمنى آدم عليه السلام وحواء الخلود فى الجنة فكان طمعهما مدخل إبليس عليهما، فدلاهما على الشجرة بغرور، وأقسم بالله لهما أن من أكل منها يخلد فى الجنة، وكانت طلبتهما فصدقاه، لأنهما كانا لا يعلمان أن أحداً يقسم بالله كذباً.

ثم جاء لأبناء آدم فدخل على كل قلب من الباب الذى يطمع فيه، فزين معاصى الله، حتى أظهر للإنسان من الحيل والدهى ما جعله يتخذ الحجر إلهاً يعبد من دون الله، وذلك لأن الإنسان بصفته من الطين يميل إلى الثقة بالمحسوس والسكون إليه، فحسن لهم الأصنام، وجاء لبعض الأشرار من بنى الإنسان فنفث فى قلوبهم شرور الخبث حتى جعلهم يحتالون على الناس بأخفى الحيل ليوهموهم أن هذا الصنم فى جوفه الرب.

فمنهم من كان يضع فى جوف الصنم مرجلاً مملوءاً بالماء له فوهة مسدودة

بصمام، ثم يوقد النار تحتها حتى يمتلىء بخاراً، ويحضر العامة أمام هذا الصنم ويقول: إن الإله غضبان، ويقف أمام الصنم خاشعاً ويسجد ويركع كأنه يستعطفه، وعندها يكون البخار ارتفع، حتى يمزق الصمام، فيخرج صوت البخار من المرجل، كأنه الرعد القاصف فيغشى على الناس، ويبكون ويبتهلون إلى الصنم، وعندها يقول الخادم: الرب لا يرضيه إلا بذل الأموال أو ذبحكم أمامه، فيبذلون أموالهم، وعندها يخرجون النار من تحت المرجل فيزول الصوت المزعج، وكان يصنع ذلك بعض خبثاء الآشوريين.

ومنهم من يضع فى جوف الصنم بنتاً سوداء صغيرة، ويتولى تربيتها أهل الخبث والدهاء، حتى إذا كبرت كانت أشر من الشيطان. كما كان فى العزّى، فإن تلك المرأة الخبيثة لاحتجابها عن الناس وطول خلوتها تجردت نفسها، حتى صار لها اتصال بالمفارق من الشياطين، كما يحصل لأهل الإيمان من العباد الذين بذلوا أنفسهم حتى صار لهم اتصال بالمفارق من الملائكة.

وكم أفسد الشيطان من الإنس والجن عقائدا كاملة، وأخلاقاً فاضلة، وإخلاص لله فى أعمال صالحة.. نعوذ بالله من الشيطان وشره.

ولو أن الإنسان تأمل بعقله لعلم أن الجسم كائنا ما كان مخلوق مقهور، وجد بعد أن لم يكن، ويفنى بعد أن كان، وأن الله العلى الكبير لا يحل الأجسام ولا تحله الأجسام - تنزه وتعالى - الخلق كلهم عبيد مقهورون، وعباد مربوبون، وإنما هى وسوسة الشيطان الذى كره أن ينجوا آدمى من نار جهنم، لأنه بسبب كبره على آدم عليه السلام طُرد ولُعن، فهو ينتقم لنفسه من آدم وذريته.. أعاذنا الله من

كيده، وحفظنا من دسائسه، وحصّننا بحصونه المنيعة من الشيطان وشره.

هدم سواع

وهى سرية عمرو بن العاص ﷺ إلى هدم سواع، وهو صنم لهذيل على ثلاثة أميال من مكة وكان بعثه ﷺ فى رمضان أيضاً بعد الفتح.

قال ابن جريج: سواع بن شيث بن آدم لما مات صورت صورته، وعظمت لموضعه من الدين، ولما عهدوا فى دعائه من الإجابة، وأولاده يغوث ويعوق ونسرا، فلما ماتوا صورت صورهم، فلما خلفت الخلوف قالوا: ما عظم هؤلاء أباؤنا إلا لأنها ترزق وتشفع وتضر فاتخذوها آلهة.

قال السهيلى: وكان بدء عبادتها فى عهد مهلاييل ابن قينان قبل نوح ﷺ. وفى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما: صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب، وهى أسماء قوم صالحين، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا فى مجالسهم التى كانوا يجلسونها أنصاباً وسموها بأسمائهم فلم تعبد، فلما هلك أولئك ونسخ العلم عبدت.

قال عمرو بن العاص ﷺ: فانتهيت إلى سواع وعنده السادن قال: ما تريد؟ فقلت: أمرنى رسول الله ﷺ أن أهدمه. قال: لا تقدر على ذلك، فقلت: لم؟ قال: يمنعك. قلت: حتى الآن أنت على الباطل، ويحك وهل يسمع أو يبصر حتى يمنعنى، قال: فدنوت منه فكسرته، وأمرت أصحابى فهدموا بيت خزانته فلم نجد فيه شيئاً، ثم قلت للسادن كيف رأيت؟ فقال: أسلمت لله رب العالمين، ولم يذكر أحد عدد الذين كانوا مع عمرو ﷺ.

هدم مناة

وهى سرية سعد بن زيد الأشهلى ﷺ إلى مناة.

وهى صنم للأوس والخزرج ومن دان دينهم، وقيل: إنها أيضاً لهذيل وبنى كعب وخزاعة وغسان وكانت بالمشلل - جبل على ساحل البحر يهبط منه إلى قديد - وكان بعثه فى رمضان أيضاً بعد الفتح.

فخرج سعد بن زيد ﷺ فى عشرين فارساً حتى انتهى إليها وعليها سادن. قال السادن: ما تريد؟ قال: أريد هدم مناة. قال: أنت وذاك ـ تهكما لظنه أنه لا يقدر عليه ـ فأقبل سعد يمشى إليها، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس، أى: منتشرة الشعر، تدعو بالويل وتضرب صدرها، فقال السادن: مناة دونك بعض عصاتك، فضربها سعد فقتلها.

وأقبل إلى الصنم ومعه أصحابه فهدموه، ولم يجدوا فى خزانته شيئاً، وانصرف راجعاً إلى النبى ﷺ. ثم ما ذكر من أن الذى ذهب لهدمها سعد بن زيد الأشهلى وما مشى عليه فى المواهب تبعاً لطبقات ابن سعد.

وقال ابن إسحاق: إن الذى بعثه النبى ﷺ لهدمها أبو سفيان بن حرب ﷺ. وفى سيرة ابن هشام أنه على بن أبى طالب ﷺ، ويمكن أن الجميع ذهبوا لذلك.

غزوة حنين

وهو اسم موضع فى طريق الطائف إلى جنب ذى المجاز، وهو سوق كان فى الجاهلية. وقيل: حنين اسم لما بين مكة والطائف، وتسمى غزوة أوطاس وهو اسم لموضع كانت به الواقعة، وتسمى أيضا غزوة هوازن.

وهوازن قبيلة كبيرة من العرب فيها عدة بطون ينسبون إلى هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن إلياس بن مضر وكانت فى شوال.

وسببها: أنه لما سمعت هوازن بما فتح الله على رسوله ﷺ من مكة، جمعها مالك بن عوف النصرى من بنى نصر بن معاوية بن بكر، وكانوا مشفقين من أن يغذوهم رسول الله ﷺ بعد فتح مكة، وقالوا: لا مانع له من غزونا، والرأى أن نغزوه قبل أن يغزونا.

واجتمع إليه القبائل جموعا كثيرة منهم بنو سعد بن بكر وهم الذين كان رسول الله ﷺ مسترضعا فيهم، ومعهم دريد بن الصمة، وكان شجاعا مجربا مسنا، وقد عمى وصار لا ينتفع إلا برأيه ومعرفته بالحرب، لأنه كان صاحب رأى وتدبير ومعرفة بالحروب.

ومنهم سقيف ويقودها قارب بن الأسود بن مسعود سيد الأحلاف، وذو الخمار سبيع بن الحارث وأخوه الأحمر بن الحارث، وكان جملة من اجتمع مس بنى سعد وسقيف أربعة آلاف، وانضم إليهم من أعداد سائر العرب جموع كثيرة، وكان مجموعهم كلهم ثلاثين ألفا، وجعلوا أمر الجميع إلى مالك بن عوف النصرى وكان عمره ثلاثين سنة، واشترطوا عليه أن يأخذ برأى دريد بن الصمة.

دريد بن الصمة ينصح هوازن

فلما أجمع مالك بن عوف المسير إلى رسول الله ﷺ أمرهم أن يسوقوا معهم مواشيهم وأموالهم ونساءهم وأبناءهم كي يثبتوا عند الحرب ولا يفروا، فلما نزلوا أوطاس، جمع الناس وفيهم دريد بن الصمة، فقال دريد: بأى واد أنتم؟ فقالوا: بأوطاس قال: نعم، مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس، مالى أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبعار الشاء، وبكاء الصغير؟ قالوا: ساق مالك مع الناس ذلك، فقال: يا مالك إن هذا يوم له ما بعده، ما حملك على ما صنعت؟ قال: سقتهم مع الناس ليقاتل كل إنسان عن حريمه وماله، قال دريد: رويعى ضأن، والله ما له وللحرب، أى: من كانت هذه صفته ما له وللحرب، والله هل يرد المنهزم شيء؟ إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك، وقال: ما فعلت كعب وكلاب؟ قالوا: لم يشهدها أحد منهم، قال: غاب الجد والحد، لو كان يوم علاء ورفعة، لم تغب عنه كعب ولا كلاب، وددت أنكم فعلتم ما فعلا، ثم قال: إن يومك هذا الذى تلق فيه محمدا ما بعده يوم، فقال له مالك: إنى لأطمع أن ترى ما يسرك، فقال دريد: يا مالك ارفع من معك إلى عليا بلادهم، ثم الق القوم على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك كنت قد أحرزت أهلك ومالك، قال مالك: والله لا أفعل ذلك، إنك قد كبرت وكبر علمك، فقال لهوازن: قد شرط مالك أن لا يخالفنى وقد خالفنى، فأنا أرجع إلى أهلى فمنعوه، وقال مالك: والله لتطيعننى يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر، فقال دريد:

هذا يوم لم أشهده و لم يفتنى، وقالت هوازن لمالك: أطعناك، فقال لهم دريد: إن هذا فاضحكم فى عورتكم يعنى النساء والذرية، وممكن منكم عدوكم، ولاحق بحصن ثقيف وتارككم فانصرفوا واتركوه، فأبوا، فلما رأى دريد أنهم خالفوه، قال:

يا ليتنى فيها جزع   أخب فيها وأضع

أقود وطفاء الزمع   كأنها شاة صدع

ثم أمر مالك بالخيل فجعلت صفوفاً، وجعل المشاة خلفهم، ثم جعل النساء فوق الإبل وراء المقاتلة صفوفاً، ثم جعل الإبل والبقر والغنم وراء ذلك كى لا يفروا ويقاتلوا عن كل ذلك، ثم قال مالك: أيها الناس إذا رأيتم القوم فاكسروا جفون سيوفكم، وشدوا عليهم شدة رجل واحد. وبعث عيوناً ليأتوه بالخبر فرجعوا إليه وقد تفرقت أوصالهم، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق، فو الله ما تماسكنا أن حل بنا ما ترى فلم ينهه ذلك.

النبى ﷺ يخرج للقاء هوازن

ولما بلغ رسول الله ﷺ خبر هوازن واجتماعهم وتحزبهم، أجمع المسير إليهم، وبلغه ﷺ أن عند صفوان بن أمية أدراعاً وسلاحاً، فأرسل إليه رسول الله ﷺ - وهو يومئذ مشرك على دين قومه، وأخذ أماناً من النبى ﷺ، وسأله أن يعطيه مهلة شهرين، ثم إن شاء تبعه ودخل فى الإسلام، وإن شاء ذهب حيث شاء، فأعطاه رسول الله ﷺ أربعة أشهر، ثم أسلم بعد ذلك رضي الله عنه - وقال له: أرنا سلاحك نلق فيه عدونا، فقال له صفوان: أغصبا يا محمد؟ فقال: بل عارية

مضمونة نؤديها إليك، قال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يصلحها من السلاح، ثم سار النبى ﷺ ومعه ألفان من مسلمة الفتح، مع عشرة آلاف من أصحابه، فكانوا اثنى عشر ألفا وكان خروجهم من مكة يوم السبت لست خلون من شوال، وكان ﷺ قبل خروجه استقرض من ثلاثة نفر من قريش: أخذ من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم، ومن عبد الله بن ربيعة أربعين ألف درهم، ومن حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم، فرقها فى أصحابه أهل الضعف ليستعينوا بها، وكان ذلك عند عزمه على الخروج لحرب هوازن، ثم وفاها ﷺ من غنمه من هوازن وقال: إنما جزاء السلف الحمد والأداء. واستعار ﷺ من نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وهو ابن عمه ﷺ ثلاثة آلاف رمح، وقال: كأنى أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين، ولما خرج ﷺ خرج الناس معه، وأهل مكة ركبانا ومشاة، حتى النساء خرجن يمشين بنشاط رجاء الغنائم. واستعمل ﷺ على مكة عتاب بن أسيد رضي الله عنه، وترك معه معاذ بن جبل رضي الله عنه يعلم الناس الأحكام والشرائع، وخرج معه ﷺ من المشركين الذين أمنهم و لم يسلموا حين خروجه ثمانون رجلا، منهم صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو وغيرهما، وأسلما بعد ذلك رضى الله عنهما، وتقدمت قصة إسلامهما رضى الله عنهما.

النبى ﷺ فى أرض المعركة

فلما قرب ﷺ من محل العدو رتب أصحابه ووضع الألوية والرايات مع المهاجرين والأنصار، فلواء المهاجرين أعطاه عليا رضي الله عنه، وقسم الرايات على كل

بطن، فأعطى سعد بن أبى وقاص ﷺ راية، وأعطى عمر بن الخطاب ﷺ راية، وهكذا، وأعطى لواء الخزرج للحباب بن المنذر ﷺ، ولواء الأوس لأسيد بن حضير ﷺ، وجعل لكل بطن راية يحملها واحد منهم، ثم رتب قبائل العرب التى كانت معه وفرق عليهم الألوية والرايات، ولبس ﷺ درعين والبيضة والمغفر وركب بغلته البيضاء واسمها دلدل، وأرسل إليهم رسول الله ﷺ رجلا من أصحابه وهو عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى ﷺ، وأمره أن يدخل فيهم ويسمع منهم ما أجمعوا عليه، فدخل فيهم ومكث يوما أو يومين وسمع ما يقولون، ثم أتى النبى ﷺ وأخبره أنه انتهى إلى خباء مالك بن عوف وعنده رءوساء هوازن، فسمعه يقول لأصحابه: إن محمدا لم يقاتل قوما قط قبل هذه المرة، وإنما كان يلقى قوما أغمارا لا علم لهم بالحرب فيظهر عليهم، فإذا كان السحر فصفوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم، ثم تكون الحملة منكم، واكسروا أغماد سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف، واحملوا حملة رجل واحد، واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولا.

وفى رواية أن ابن حدرد قال للنبى ﷺ: إنى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: تلك غنيمة المسلمين إن شاء الله.

ما كان أول الأمر من الفرار ثم العاقبة للمتقين

فقال رجل من المسلمين لن نغلب اليوم عن قلة، فشق ذلك على رسول الله ﷺ فكانت الهزيمة كما قال الله تعالى: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن

عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ۞ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ۞ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم﴾ (التوبة: ٢٥-٢٧) ولما كان ﷺ بحنين وانحدر فى الوادى وذلك عند غبش الصبح، خرج عليهم القوم، وكانوا قد كمنوا لهم فى شعاب الوادى ومضايقه، وذلك بإشارة دريد بن الصمة فإنه قال لمالك: اجعل كمينا يكون لك عونا إن حمل القوم عليك جاءهم الكمين من خلفهم، وكررت عليهم أنت بمن معك، وإن كانت الحملة لك لم يفلت من القوم أحد، فحملوا عليهم حملة رجل واحد. وكانت هوازن رماة فاستقبلوهم بالنبل كأنه جراد منتشر لا يكاد يسقط لهم سهم. قال جابر: فلما استقبلنا وادى حنين انحدرنا فى واد أجوف حطوط، إنما ننحدر فيه انحدارا فى عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى، فكمنوا لنا فى شعابه ومضايقه قد تهيأوا وأعدوا، فو الله ما راعنا ونحن منخطفون إلا الكتائب قد شدت علينا شدة رجل واحد، فانهزم الناس أجمعون، لا يلوى أحد على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ثم قال: أيها الناس هلموا إلى أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله قالها ثلاثا، ثم احتملت الإبل بعضها بعضا، إلا أنه قد بقى مع النبى ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، منهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، والعباس، وابنه الفضل، وأبو سفيان بن الحارث، وربيعة بن الحارث، وعتبة ومعتب ابنا لهب، وأيمن بن أم أيمن واستشهد يومئذ، وأسامة بن زيد.

قال: وكان رجل من هوازن على جمل أحمر بيده راية سوداء أمام الناس، فإذا

أدرك رجلا طعنه ثم رفع رايته لمن وراءه فاتبعوه، فحمل عليه على كرم الله وجهه فقتله.

وفى رواية: فاستقبلهم من هوازن ما لم ير مثله قط من السواد والكثرة، وخرجت الكتائب من مضيق الوادى، فحملوا حملة واحدة فانكشفت خيل بنى سليم مولية، وكانت مع النبى ﷺ وأصحابه، فتبعهم أهل مكة والناس فانهزموا. وقيل: إن الطلقاء وهم أهل مكة قال بعضهم لبعض، أى: قال من كان منهم إسلامه مدخولاً: أخذلوهم فهذا وقته، فانهزموا أول من انهزم، وتبعهم الناس، ولما انهزم الناس تكلم رجال من أهل مكة بما فى أنفسهم من الضغن، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر والأزلام معه، وقالوا: غلبت والله هوازن. ولم يرض صفوان بن أمية بتلك المقالة - وكان ذلك قبل إسلامه - فقال لقائل ذلك: يكفيك الكثكث، أى: الحجارة والتراب. وقال هشام بن كلدة: وهو أخو صفوان بن أمية لأمه - وكان صفوان يومئذ مشركاً - الآن بطل سحر محمد، فقال له صفوان: اسكت فض الله فاك، فو الله لأن يربنى رجل من قريش أحب إلىّ من أن يربنى رجل من هوازن. ومر رجل على صفوان هذا فقال له: أبشر بهزيمة محمد وأصحابه فو الله لا يجبرونها أبداً، فغضب صفوان وقال: أتبشرنى بظهور الأعراب، فو الله لرب من قريش، أى: مالك يدير أمرى، أحب إلىّ من رجل من الأعراب. وقال عكرمة بن أبى جهل لمن قال لا يجبرونها أبداً: ليس هذا لك ولا بيدك، الأمر بيد الله ليس إلى محمد منه شىء، إن ديل عليه اليوم فإن له العاقبة غداً. وقال شيبة بن عثمان: اليوم أدرك ثأرى من محمد - وكان أبوه قتل بأحد - قال: فأردت به لأقتله فأقبل

تغشى فؤادى فلم أطق ذلك، ووصلت الهزيمة إلى مكة، وسر بذلك قوم لم يتمكن الإسلام من قلوبهم وأظهروا الشماتة. وقال قائل منهم: ترجع العرب إلى دين آبائها. وثبت الله عتاب بن أسيد وجماعة معه فلم يتغيروا عما هم عليه، حتى جاءتهم البشرى بنصرة النبى ﷺ وأصحابه، وانهزام هوازن ومن معهم.

الذين ثبتوا يوم حنين

واختلف فى عدد الذين ثبتوا معه ﷺ يومئذ فقيل: مائة. وقيل: ثمانون. وقيل: اثنى عشر. وقيل: ثلاثمائة، ولا مخالفة لإمكان الجمع باختلاف اللحظات، فكانوا تارة قليلا، وتارة كثيرا، وتارة يجتمعون معه، وتارة يتفرقون عن يمينه وشماله يقاتلون. وعن ابن مسعود ﷺ قال: كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى الناس وبقيت معه فى ثمانين رجلا من المهاجرين والأنصار، فقمنا على أقدامنا ولم نولهم الدبر، وهم الذين انزل الله عليهم السكينة، ورسول الله ﷺ على بغلته لم يمض قدما.

وكان العباس بن عبد المطلب ﷺ عمه ﷺ آخذ بلجام بغلته يكفها أن تتقدم فى نحر العدو. وجاء فى رواية أن عمر بن الخطاب ﷺ كان آخذا باللجام. فلعله كان يمسكه تارة والعباس أخرى، وكان أبو سفيان بن الحارث وهو ابن عم النبى ﷺ و ﷺ، آخذ بركابه ﷺ، قال ﷺ: لما لقينا العدو بحنين اقتحمت عن فرسى وبيدى السيف مصلتا والله يعلم أنى أريد الموت دونه ﷺ، وهو ينظر إلى فقال له العباس ﷺ: يا رسول الله أخوك وابن عمك أبو سفيان فارض عنه، فقال ﷺ: غفر الله له كل عداوة عادانيها، ثم التفت إلى وقال: يا أخى، فقبلت

رجله فى الركاب. وقال ﷺ: أبو سفيان بن الحارث من شباب أهل الجنة. وفى رواية: سيد فتيان أهل الجنة.

﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾

وكان النبى ﷺ يركض ناحية هوازن ويقول: أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب، وأخذ كفا من تراب فرماه فى وجوههم وقال: شاهت الوجوه، فما خلق الله منهم إنسا إلا ملأ الله عينيه من تلك القبضة.

وجاء فى بعض الروايات: أنه حين أراد تناول التراب حادت به بغلته ومال به السرج، وكان ابن مسعود قريبا منه، قال: فقلت ارتفع رفعك الله، فقال: ناولنى كفا من التراب، فناولته فضرب به وجوههم فامتلأت ترابا. وقيل: نزل وأخذ التراب بيده. وقيل: قال للعباس: ناولنى من الحصاء، فألهم الله البغلة فانخفضت به حتى كاد بطنها ليمس الأرض، فتناول من البطحاء فحثا فى وجوههم وقال: شاهت الوجوه حم لا ينصرون.

وعن مالك بن أوس قال: حدثنى عدة من قومى شهدوا ذلك اليوم يقولون لقد رمى رسول الله ﷺ تلك الرمية من الحصى، فما منا أحد إلا شكا القذى فى عينيه، ولقد كنا نجد فى صدورنا خفقا كوقع الحصى فى الطاس، ما يهدأ ذلك الخفاق. وهذا الرمى وقع فى هذه الغزوة وفى غزوة بدر، وفى ذلك قال الله تعالى: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ (الأنفال: ١٧). وإلى ذلك أشار صاحب الهمزية بقوله:

ورمى بالحصى فأقصد جيشا ما الحصا عنده وما الإلقاء

وعن عبد الرحمن بن مولى عن رجل كان فى المشركين يوم حنين قال: لما التقينا يوم حنين نحن وأصحاب رسول الله ﷺ لم يقوموا لنا حلب شاة، فلما لقيناهم جعلنا نسوقهم ونحن فى آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء، فإذا هو رسول الله ﷺ فتلقانا عنده رجال بيض الوجوه حسان فقالوا لنا: شاهت الوجوه ارجعوا، قال: فانهزمنا وركبوا أكتافنا.

إذا اجتمع الأحباب على النبى ﷺ

كان النصر والفتح المبين

ولما رأى رسول الله ﷺ ما رأى من الهزيمة صار يقول: إلى أيها الناس إلى. قال الراوى للحديث: فلم أر الناس يلوون على شيء، فقال ﷺ لعمه العباس- وكان آخذا بلجام بغلته دلدل وهو عليها، وكان العباس جسيما شديد الصوت، وكان يسمع صوته من مسافة ثمانية أميال -: اصرخ فى الناس يا معشر الأنصار، يا أصحاب السمرة، يعنى الشجرة التى كانت تحتها بيعة الرضوان، ففعل فأجابوه لبيك لبيك، فكان الرجل يريد أن يثنى بعيره فلا يقدر، فيأخذ سلاحه ثم ينزل عنه ويؤم الصوت.

وفى رواية: أنه ﷺ نادى بنفسه أيضا بعد نداء العباس فالتفت عن يمينه فقال: يا معشر الأنصار، فقالوا: لبيك لبيك أبشر يا رسول الله نحن معك، قال بعض الرواة: ما شبهت عطفة الأنصار على رسول الله ﷺ إلا عطفة الإبل على أولادها. وفى رواية: اقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت على أولادها، فأمرهم النبى

ﷺ أن يصدقوا الحملة، فاقتتلوا مع الكفار قتالا شديدا، فنظر إلى قتالهم فقال: الآن حمى الوطيس(وهو التنور يخبز فيه) يضرب مثلا لشدة الحرب التى يشبه حرها حر التنور، وهذا من فصيح الكلام، ولم يسمع من أحد قبل النبى ﷺ، فولى المشركون الأدبار، والمسلمون يقتلون ويأسرون فيهم.

وكان فى ركوبه ﷺ البغلة فى هذا الموطن الذى هو موطن الحرب والطعن والضرب تحقيق لنبوته، كما خصه الله به من مزيد الشجاعة وتمام القوة، وإلا فالبغال عادة من مراكب الطمأنينة والأمن، ولا يصلح لمواطن الحرب فى العادة إلا الخيل، لأن الخيل مخلوقة للكر والفر بخلاف البغال والإبل.. فبين ﷺ أن الحرب عنده كالسلم قوة قلب، وشجاعة نفس، وثقة بالله، وتوكلا عليه. وقد أجمعت الصحابة ﭫ أنه ﷺ ما انهزم مع من انهزم، بل صار يقدم فى وجه العدو، بل ما انهزم فى موطن قط، وقد انعقد الإجماع على ذلك. قال القاضى عياض: من قال إنه انهزم يستتاب، فإن تاب وإلا قتل.

ولما انهزم المشركون تبع أثرهم المسلمون قتلا وأسرا حتى حدث بعض من هوازن بعد إسلامه قال: ما خيل لنا إلا أن كل حجر وشجر فارس يطلبنا، وأنزل الله من الملائكة خمسة آلاف. وقيل: ستة عشر ألفا. فقيل: إنهم قاتلوا. وقيل: لم يقاتلوا، وإنما نزلوا لإلقاء السكينة فى قلوب المؤمنين، بإلقاء الخواطر الحسنة.

وجاء أن النبى ﷺ رفع يديه ودعا وقال: اللهم أنشدك ما وعدتنى، اللهم لا ينبغى أن يظهروا علينا، اللهم كنت وتكون وأنت حى لا تموت، تنام العيون

وتنكدر النجوم وأنت حى قيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، يا حى يا قيوم، اللهم إن تشأ أن لا تعبد بعد اليوم، اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان. فقال له جبريل عليه السلام لقد لقنت الكلمات التى لقن الله موسى يوم فلق له البحر، كان البحر أمامه وفرعون خلفه واجتلد الناس.

فو الله ما رجعت راجعة المسلمين من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتوفين عند رسول الله ﷺ، ولما انعطف المسلمون راجعين بعد أن انتهوا فى قتالهم هوازن إلى قتل الذرية، نهاهم رسول الله ﷺ عن قتل الذرية وقال ﷺ: من قتل قتيلا فليسلبه.

روى أن أبا طلحة الأنصارى رضي الله عنه قتل وحده عشرين قتيلا وأخذ أسلابهم، وأدرك ربيعة بن رفيع السلمى دريد بن الصمة فأخذ بخطام جمله وهو يظن أنه امرأة، فإذا هو شيخ كبير أعمى ولا يعرفه الغلام، فقال له دريد: ماذا تريد؟ فقال: أقتلك، قال: ومن أنت؟ قال: ربيعة بن رفيع السلمى، ثم ضربه بسيفه فلم يغن شيئا فقال له دريد: يسخر به بئس ما سلحتك أمك، خذ سيفى هذا من مؤخر الرحل ثم أضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ، فأنى كذلك كنت أضرب الرجال، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة، فرب يوم قد منعت نساءك، فقتله. فلما أخبر ربيعة أمه بقتله قالت له: أما والله لقد أعتق اثنين بل ثلاثا، هلا تكرمت عن قتله كما أخبرك بمنه علينا، فقال: ما كنت لأتكرم عن رضاء الله ورسوله. وقيل: القاتل لدريد الزبير بن العوام رضي الله عنه. وكانت أم سليم رضى الله عنها مع زوجها أبى طلحة زيد بن سهل الأنصارى رضي الله عنه وكانت رضى الله عنها حازمة وسطها ببرد لها وفى

حزامها، وكانت حاملا بابنها عبد الله بن أبى طلحة فقال لها زوجها: ما هذا الخنجر الذى معك يا أم سليم؟ قالت: إن دنا منى أحد من المشركين بعجته به، فقال أبو طلحة: ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم، فأعاد عليه القول، فجعل رسول الله ﷺ يضحك، وقالت أم سليم رضى الله عنها للنبى ﷺ: بأبى أنت وأمى يا رسول الله أقتل هؤلاء الذين انهزموا عنك فإنهم لذلك أهل، فقال رسول الله ﷺ: إن الله قد كفى وأحسن، أى: قد غفر لهم، كما قال تعالى: ﴿وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ۞ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم﴾ (التوبة: ٢٦،٢٧).

وجرح خالد بن الوليد جراحات أثقلت به. وعن بعض الصحابة ﷺ قال: رأيت النبى ﷺ- بعد ما هزم الله الكفار ورجع المسلمون إلى رحالهم- يمشى فى المسلمين ويقول: من يدلنى على رحل خالد بن الوليد حتى دل عليه، فوجده قد أسند إلى مؤخرة الرحل، لأنه أثقل بالجراحة فتفل ﷺ فى جراحاته فبرأ لوقته.

نزول الملائكة يوم حنين

وعن جبير بن مطعم ﷺ قال: لقد رأيت قبل هزيمة هوازن والناس يقتتلون، شيئا أسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم، فإذا نمل مبثوث قد ملأ الوادى، فلم أشك أنه الملائكة، و لم تكن إلا هزيمة القوم.

وعن جمع من هوازن قالوا: لقد رأينا يوم حنين رجالا بيضا على خيل بلق، عليهم عمائم صفر قد أرخوها بين أكتافهم، بين السماء والأرض، كتائب لا

نستطيع أن نقاتلهم من الرعب منهم.

عدد القتلى والغنائم

وكان جملة من قتل من المسلمين فى هذه الوقعة أربعة فقط، وقتل من المشركين وقت الحرب أكثر من سبعين. قيل: وفى الانهزام أكثر من ثلاثمائة، وأسر منهم خلق كثير، ومن النساء ستة آلاف نفس، وغنم المسلمون من الإبل أربعة وعشرين ألف بعير، ومن الغنم أكثر من أربعين ألف شاة، ومن الفضة أربعة آلاف أوقية، ولم يذكروا عدد البقر لأنها كانت قليلة بالنسبة لما ذكر.

ولما وقعت هزيمة هوازن أسلم كثير من كفار مكة وغيرهم، لما رأوا من نصر رسول الله ﷺ.

وعن عائذ بن عمرو ﷺ قال: أصابتنى رمية يوم حنين فى جبهتى، وسال الدم على وجهى وصدرى، فسلت النبى ﷺ بيده عن وجهى وصدرى إلى ترقوتى، ثم دعا لى فصار أثر يده غرة سائلة كغرة الفرس.

ولما انهزم القوم عسكر بعضهم بأوطاس فأرسل إليهم رسول الله ﷺ أبا عامر الأشعرى ﷺ كما سيأتى على الأثر.

الحقائق والأسرار العلية لهذه الغزوة

كشف الله لنا بتلك الغزوة حقائق لم نكن لنعلمها، وأسرارا لم نكن لندركها، بين لنا سبحانه وتعالى أن أحوال سيدنا ومولانا محمد ﷺ كلها خارقة للعادة، وأنها من الله مباشرة سبحانه، وأنها فوق الأسباب وفوق العقل، وأن الإسلام دينه الحق، تولاه بنفسه، ونصره بلا سبب، ونشره فى المنافقين نشرا أعجز العقول، وأدهش الأفكار.

أنظر إلى غزوة حنين بعد أن فتح الله لرسوله مكة، ودانت قريش للإسلام، ومحى الله الأصنام والضلال، وخرج ﷺ لهوازن وجموعهم ومعه المهاجرون والأنصار ﷺ ومسلمة الفتح، نظر بعض الصحابة إلى الجيش وكثرته، وإلى ما كانوا فيه من القلة قبل فقالوا: متى لقاء العدو؟ وقال آخرون: لم نغلب من قلة، فكأنهم نسوا أن الدين دين الله، وأن سيدنا ومولانا محمدا رسول الله ﷺ، وأن الله نصره، وأيده بروحه سبحانه وتعالى، وأمده بملائكته فى مواطن كثيرة، فكان نسيانهم من فرحهم بفتح الله لهم مكة، وكانت تلك الكلمات الصادرة عن قلوب الصحابة دالة على أن السرور بالفتح حجب الأنفس عن مشاهده كمال التوحيد، الذى ينبغى أن يكون عليه أصحاب رسول الله ﷺ، غضب رسول الله ﷺ وقال لمن قال متى لقاء العدو: لا تتمنوا لقاء العدو ولكن سلوا الله العافية.
ومعلوم أن الله جل جلاله إذا أحب قوما أمدهم بروح منه، فحفظهم من النسيان والغفلة، وجذبهم إليه بالآيات الدالات على تنزيهه سبحانه عن أن يحتاج فى إعلاء كلمته إلى كثرة الخلق أو قلتهم، أو أن يحتاج فى إعزاز رسله

إلى الجيوش والجموع، وأقام الحجة عليهم، فلما أن التقى الجيشان انهزم أصحاب رسول الله ﷺ ولم يبق معه ﷺ إلا أفراد بنى هاشم.

وأحدق هذا الجيش المستقبل به ﷺ وهو على بغلته، لعلك علمت أنهم جاءوا بنسائهم وذراريهم وأموالهم حتى يدافعوا مدافعة من لا ينهزم، فقبض ﷺ قبضة من التراب ورماهم بها، فما بقى رجل منهم إلا وملأ الله عينيه ترابا، وهى رمية الله حقا، وقضاء الله المبرم على أعدائه، ثم تراجع الصحابة ﷺ فوجدوا القوم فى هزيمة، فعلموا حق العلم أن دين الله يعليه بنفسه، وأن أعداء الله ينتقم الله منهم بنفسه، وأن الكثرة لا تغنى من الله شيئا.

تجلت أنوار التوحيد لأصحاب رسول الله ﷺ بتلك الحادثة، حتى علموا حق العلم أن الفاعل المختار يفعل ما يشاء، لا يمنع قضاؤه كثرة العدد والعدد، ولا ينصر دينه الحق إلا على أيدى من كمل توحيدهم، ولو أن رجلا واحدا مؤمنا كامل الإيمان مخلصا تحقق بكمال التوحيد، وقام مخلصا لله، لأمده الله تعالى بما به يهلك أعداءه، ويجدد سنن نبيه ﷺ.

نصر الله رسوله بآية كبرى هى قبضة من الحصباء ملأت العيون والقلوب رعبا، والعقول حيرة، حتى فر الجيش لا يلوى على أحد، تركوا أموالهم وأعراضهم وأبناءهم، حتى كأن أبواب جهنم فتحت، فتبرأ الوالد من ولده، والوالدة من ولدها، وأكرم الله رسوله ﷺ بنصرته، وحيزت الأموال كلها للمجاهدين فى سبيل الله.

أنظر بعين بصيرتك إلى كلمة قالها صحابى لم يلق لها بالا كيف أثرت وأدت

إلى غيرة الواحد الأحد، الذى يجب أن يكون أصحاب نبيه ﷺ والتابعين لهم فى فناء عن مدادهم، وعن سوى الحق، لا يشهدون لأنفسهم حولا ولا قوة لإشراق أنوار التوحيد على قلوبهم، ولتحققهم أن الفاعل المختار هو الله الواحد الأحد، هذا وهم صفوة الله من خلقه، وحزب الله من عباده، والمهاجرون إلى الله ورسوله، وأنصار الله ورسوله، آخذهم الله بكلمة فأقام عليهم الحجة البالغة، حتى طهرت نفوسهم، وعمرت بكمال التوحيد قلوبهم، وشاهدت أنوار الوحدانية أسرارهم، ومن منحهم الله المحبة أدبهم على صغير الأمر وكبيره، أعوذ بوجهه العظيم من الاستدراج، ومن أحوال من كرههم الله تعالى الذين قال فيهم: ﴿وأملى لهم إن كيدى متين﴾ (الأعراف: ١٨٣).

بعد أن نصر الله نبيه ﷺ، وصارت الغنيمة له ﷺ، تجلت كمالاته المحمدية، وبسط بساط رحمته ورأفته لكل وارد، فهطل سيب فضله على مسلمة مكة تمكينا للإسلام فى قلوبهم، ومحوا للأحقاد منها، ولتطمئن القلوب من جهته ﷺ، ولتزول الأضغان منها، وتبدل بمحبة الله ورسوله ﷺ، وهذه هى حقيقة الرحمة والرأفة المتصف بها ﷺ، والحجة البالغة على أنه ﷺ رسول الله حقا، لا قيمة للدنيا وما فيها عنده ﷺ، بل الدنيا وما فيها لا يساوى جناح بعوضة عند رسول الله ﷺ، ويجب أن يكون كل مؤمن أكرمه الله بصحبة رسول الله ﷺ متشبها به ﷺ، بل وكل تابع لأصحابه ﷺ.

سعى إبليس لعنة الله عليه أن يدس دسيسة على الصحابة بسبب منح رسول الله ﷺ الأموال لقريش، وأدخل فى قلوبهم أن رسول الله ﷺ يقيم مع قريش. فقال بعضهم: إن رسول الله ﷺ حن لقومه ووطنه بمكة، وكان هذا الكلام فاتحة

لكلام آخر، نعوذ بـالله مـن وسوسـة الشيطان وخبثـه، فشـرح رسـول الله ﷺ صدور الأنصار وأذهب الله كيد إبليس، فقـام الشيطان لعنـة الله عليـه وهـم أن يدخل فى قلوب بعض الأحداث ما يحزنها لمنح الأموال لمسلمة الفتح، حتى كثر الكلام فى هذا الموضوع، وبلغ رسول الله ﷺ وهو ﷺ الرؤف الرحيم بـالمؤمنين، فاستأصل ﷺ شأفة المرض بالحكمة المحمدية التى هى عن رأفـة ورحمـة وحـرص، حتى ملأ الله قلوبهم يقينا ورضى بما فعل رسـول الله ﷺ، وفرحـا بمـا أبدلهـم الله من الغنيمة، لأن الله سبحانه وتعالى أرجع العرب بالشاء والإبل، وأرجع الأنصار برسول الله ﷺ وشتان بين العطيتين، وأخـزى الله الشـيطان وجنـوده، وأنـزل الله تعالى الآيات المبينات قال سبحانه وتعالى: ﴿واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتـم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فـأنقذكم منـها كذلـك يبـين الله لكـم آياتـه لعلكـم تـهتدون﴾ (آل عمـــران: ١٠٣). فبين رسول الله ﷺ أنه إنما يجاهد فى سبيل الله لا للغنيمـة، بـل لإعـلاء كلمة الله، ونجاة العالم من هول يوم القيامة.

أظهر ﷺ فى قسمة الغنيمة بعمله ﷺ مـا كشـف للمؤمـن الحجـاب عـن حقيقـة الدنيا وحقارتها عند رسول الله ﷺ، وأنه ﷺ يبذلها للأعداء ليتألفهم وينجيهم بها من عذاب يوم القيامة، ليعلم المؤمنين بعمله ﷺ ما لا بد أن يعملوا به. ويبين لهم حكمة الجهاد فى سبيل الله أن المراد به إعلاء كلمة الله تعالى لا الأثـرة بـالأموال والعلو على العباد، وقهرهم بالجبروت والقوة، فـ ﷺ أغدق الأموال إغداقـا علـى أشهر الناس عداوة له، ونفورا منه، وكفرا به، مـع تمكـين الله إياه منـهم، حتـى أبـدل الله تلـك القلـوب القاسـية، والطبـاع الجافيـة، والنفـوس اللقسـة، بقلـوب

عقدت على محبته ﷺ، ونفوس فطرت على الإخلاص له ﷺ، وأخلاق هينة لينة في طاعته ﷺ، حتى كأنهم ولدوا ولادة روحانية، بعد أن تجلت لهم أخلاقه الطاهرة، ومقاصده المحمدية، وتحققوا حق يقين أنه رسول الله حقاً لا غاية له في الدنيا وما فيها، وأن الدنيا وما فيها لا تساوى جناح بعوضة في نظره ﷺ، وبلغت رحمته الواسعة بهم مبلغاً حتى صاروا رحماء في نفس المجلس، ومن سعة تلك الرحمة زهدوا في الدنيا زهداً دام لهم حتى فارقوها، برهان ذلك ما سيأتى لك عن سيدنا حكيم بن حزام، وعن سيدنا صفوان، وعن أبى سفيان وغيرهم، فإن الله تعالى أبدلهم حتى صاروا كأنهم روحانيون ملائكة مقربون.

تجلت تلك الحقائق فازداد الذين آمنوا إيماناً مع الإيمان من مسلمة الفتح، واطمأنت القلوب بفعله ﷺ، وأحق الله الحق بكلماته، وأبطل الباطل، ونادى لسان الحال فى عالم الملك: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾ (الإسراء: ٨١). أسأل الله تعالى أن يهبنا عقلاً نفقه به سيرة رسول الله ﷺ، وتنكشف لنا به حكمة أعماله ﷺ، مع التشبه به ﷺ، وحسن الاقتداء بهديه ﷺ.

غزوة الطائف

وذلك أنه ﷺ حين خرج من حنين وحبس الغنائم بالجعرانة، سار إلى الطائف، وجعل خالد بن الوليد على مقدمته فى ألف من أصحابه.

وكانت ثقيف لما انهزموا دخلوا حصنهم بالطائف وأغلقوه عليهم، بعد أن أدخلوا فيه ما يصلحهم من القوت لسنة، وتهيأوا للقتال وكان معهم مالك بن عوف وجمع من أشراف قومه.

ومر ﷺ فى طريقه بحصن لمالك بن عوف فأمر به فهدم، ومر بحائط، أى: بستان، لرجل من ثقيف قد تمنع فيه، فأرسل إليه النبى ﷺ إما أن تخرج، وإما أن نحرق عليك حائطك، فأبى أن يخرج منه، فأمر رسول الله ﷺ بإحراقه.

ولما كان ﷺ ببحرة الرغاء قبل وصوله إلى الطائف، قتل بها رجلاً من بنى ليث قصاصاً، كان قد قتل رجلاً من هذيل، فأمر بقتله، وهو أول دم أقيد به فى الإسلام.

ولما وصل خالد ﷺ الطائف نزل بمن معه من المسلمين قريباً من الحصن، وعسكر هناك فرموا المسلمين رمياً شديداً، حتى أصيب كثير من المسلمين بجراحات، وقتل من المسلمين اثنا عشر رجلاً، منهم عبد الله بن أمية المخزومى ﷺ ـ وهو أخو أم سلمة رضى الله عنها ـ وأصيب عين أبى سفيان ﷺ، فأتى النبى ﷺ وعينه فى يده فقال: يا رسول الله هذا عينى أصيب فى سبيل الله، فقال له النبى ﷺ: إن شئت دعوت فردت عليك، وإن شئت فعين من الجنة، قال: فى الجنة ورمى بها من يده ﷺ.

النبى ﷺ يحاصر الطائف

ولما وصل ﷺ الطائف نزل قريباً من الحصن، ثم لما قتل من قتل من المسلمين ارتفع إلى موضع مسجد الطائف اليوم وحاصرهم. قال ابن سعد: وكانت مدة حصارهم ثمانية عشر يوماً. وقيل: خمسة عشر يوماً. وقال ابن هشام: سبعة عشر يوماً. وقيل: أربعين يوماً. وقيل: غير ذلك. ونصب ﷺ منجنيقا أشار به سلمان الفارسى رضي الله عنه، بل قيل: إنه صنعه بيده وقاتلهم قتالاً شديداً.

وأقبل خالد بن الوليد رضي الله عنه ينادى أهل الحصن ويقول: من يبارز؟ فلم يطلع عليه أحد، وناداه عبد يا ليل: لا ينزل إليك منا أحد، ولكن نقيم فى حصننا فإن به من الطعام ما يكفينا سنين، فإن أقمت حتى يذهب ذلك الطعام، خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا، وما زالوا يقاتلوا حتى كان يوم الشدخة عند جدار **الطائف**، دخل نفر من المسلمين تحت دبابة عملوها، ثم زحفوا بها إلى الطائف، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد المحماة لأنهم فطنوا لهم، فخرجوا من تحتها فرماهم من بالطائف بالنبل فقتلوا منهم رجالاً. والدبابة آلة من آلات الحرب تجعل من الجلود، يدخل فيها الرجال فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها.

فلما رماهم من بالطائف بالنبل أمر رسول الله ﷺ بقطع أعنابهم وتحريقها، فقطع المسلمون قطعا زريعاً. فسألوه ﷺ أن يدعها لله وللرحم، فأجابهم لذلك ودعها، ونادى منادى رسول الله ﷺ: أيما عبد نزل من الحصن وخرج لنا فهو حر، فخرج منهم بضعة عشر رجلاً، وقيل: ثلاثة وعشرون، ونزل منهم شخص

فى بكرة، فقيل له: أبو بكرة نقيع بن الحارث عبداً لحرث بن كلدة.

فلما أسلم أهل الطائف تكلمت سادات أولئك العبيد فى أن يردهم رسول الله ﷺ إلى الرق، فقال: لا أفعل، أولئك عتقاء الله، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة.

وأستأذن عيينة بن حصن رسول الله ﷺ فى أن يأتى ثقيفاً فى حصنهم ليدعوهم إلى الإسلام، فأذن له فى ذلك، فأتاهم فدخل حصنهم فقال لهم: تمسكوا فى حصنكم فو الله لنحن أذل من العبيد، ولا تعطوا بأيديكم، ولا يشق عليكم قطع هذا الشجر، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فقال له: ما قلت لهم يا عيينة؟ قال: أمرتهم بالإسلام ودعوتهم إليه، وحذرتهم النار، ودللتهم على الجنة. فقال له رسول الله ﷺ: كذبت، إنما قلت لهم كذا وقص عليه القصة. فقال: صدقت يا رسول الله أتوب إلى الله وإليك من ذلك.

النبى ﷺ يأذن بالرحيل

و لم يؤذن لرسول الله ﷺ فى فتح الطائف، ثم أن خويلة بنت حكيم السلمية وهى امرأة عثمان بن مظعون قالت: يا رسول الله اعطنى إن فتح الله عليك الطائف حليّ بادية بنت غيلان، أو حليّ الفارعة بنت عقيل ـ وكانتا من أكثر النساء حلياً ـ فقال لها رسول الله ﷺ: أرأيت إن كان لم يؤذن لى فى ثقيف، يا خويلة وما أظن أن نفتحها الآن.

فخرجت فذكرت ذلك لعمر بن الخطاب ﷺ فدخل على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ما حديث حدثتنيه خويلة أنك قد قلته لها، قال: قد قلت، قال: أو

ما أذن الله فيهم يا رسول الله؟ قال: لا، قال: أفلا أوذن بالرحيل يا رسول الله ؟ قال: بلى، فأذن بالرحيل.

وقيل: إن رسول الله ﷺ استشار نوفل بن معاوية الديلى فى الذهاب أو المقام عليهم فقال: يا رسول الله ثعلب فى جحر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك، فأذن بالرحيل ﷺ.

قال ابن إسحق: وبلغنى أنه ﷺ قال لأبى بكر الصديق ﷺ: ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد، فقال ﷺ: وأنا لا أرى ذلك.

الحكمة فى عدم فتح الطائف

وكأن الحكمة فى أنه لم يؤذن له ﷺ فى فتح الطائف ذلك العام أن لا يستأصل أهل ذلك الحصن قتلا، فأخر الله سبحانه وتعالى أمرهم حتى جاءوا طائعين مسلمين (كما سنذكر ذلك فى الوفود).

ولما أذن رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب أن يؤذن فى الناس بالرحيل، ضج الناس من ذلك، وقالوا: نرحل ولم يفتح علينا، فقال رسول الله ﷺ: فاغدوا على القتال، فغدوا فأصابت المسلمين جراحات، فقال ﷺ: إنا قافلون إن شاء الله فسروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك تعجبا من سرعة تغير رأيهم، لأنهم ﷺ رأوا أن رأيه ﷺ أبرك وأنفع من رأيهم فرجعوا إليه، وقال لهم رسول الله ﷺ: قولوا لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. فلما ارتحلوا قال: قولوا آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون.

فلما رجع الناس قال رجل: يا رسول الله ادع على ثقيف أهل الطائف، فقال: اللهم أهد ثقيفا وائت بهم مسلمين.

ورحم الله البوصيرى حيث يقول:

جهلت قومه عليه فأغضى ... وأخوا الحلم دأبه الإغضاء

وسع العالمين علما وحلما ... فهو بحر لم تعيه الأعباء

ولما رأت ثقيف الناس قد رحلوا عنهم نادى سعيد بن عبيد الثقفى ألا إن الحى مقيم، فقال عيينة بن حصن: أجل والله مجدة كراما، فقال رجل من المسلمين: قاتلك الله يا عيينة أتمدحهم بالامتناع من رسول الله ﷺ، قال: إنى والله ما جئت لأقاتل معكم ثقيفا، ولكنى أردت أن أصيب من ثقيف جارية لعلها تلد لى رجلا، فإن ثقيفا قوما مناكير.

إسلام سراقة بن مالك

وعند انحداره ﷺ إلى الجعرانة لقيه سراقة بن مالك، وهو واضع للكتاب الذى كتبه له ﷺ عند الهجرة بين أصبعيه، وينادى أنا سراقة وهذا كتابى، فقال ﷺ: هذا يوم وفاء ومودة، أدنوه فأدنوه منه فأسلم ﵁، وسأل النبى ﷺ عن الضالة من الإبل ترد حوضه الذى ملأه لإبله هل له فى ذلك أجر؟ فقال له رسول الله ﷺ: نعم فى كل ذات كبد حراء أجر.

إحصاء الغنائم وإسلام هوازن

ولما وصل ﷺ الجعرانة أمر بإحصاء السبى فكان كما تقدم ستة آلاف من النساء والذرية والأسرى، ومن الإبل أربعة وعشرون ألفا، ومن الغنم أكثر من أربعين ألفا، ومن الفضة أربعة آلاف أوقية، غير ما يتبع ذلك من الأمتعة.. وكان ﷺ قد انتظر قدوم هوازن وتربص بهم اثنى عشر ليلة، ثم بدأ بقسمة الغنائم فقسمها، ثم قدم عليه هوازن مسلمين ورد عليهم السبى كما سيأتى، وسألهم عن رئيسهم مالك بن عوف النصرى، فقالوا: هو مع ثقيف بالطائف، فقال: أخبروه أنه إن أتانى مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل، فلما أخبروا مالكا بذلك ركب مستخفيا فأدرك النبى ﷺ بالجعرانة، وقيل: بمكة، فرد عليه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل كما وعد ﷺ، فأسلم وحسن إسلامه.

وقال حين أسلم يمدح النبى ﷺ:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... فى الناس كلهم بمثل محمد

أوفى وأعطى للجزيل إذا احتدى ... ومتى تشا يخبرك عما فى غد

فكأنه ليث على أشباله ... وسط الهباة جآذر فى مرصد

واستعمله ﷺ على من أسلم من قومه ﷺ، فكان يقاتل بهم ثقيفا، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه، وضيق عليهم حتى أسلموا، وشهد فتح القادسية ودمشق فى خلافة سيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ.

ولما جاء وفد هوازن إلى النبى ﷺ بعد أن قسم الغنائم سألوه أن يرد عليهم سبيهم وأموالهم، فقال ﷺ: مع من ترون - يعنى من المسلمين - وقد استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون، وقد قسمت، فاختاروا إما السبى وإما المال، فاختاروا السبى فكلم رسول الله ﷺ المسلمين فى رد سبيهم عليهم فردوه كلهم، إلا عيينة بن حصن فإنه أبى أن يرد عجوزا كبيرا وقال: هذه أم الحى لعلهم أن يغلوا فداءها ثم ردها بست فرائض كما سيأتى.

أخته وأمه ﷺ من الرضاع فى السبى

وكانت فى السبى أخته ﷺ من الرضاع وهى الشيماء. وقيل: أمه حليمة، ولا مانع من أن يكونا جميعا، فقالت أخته ﷺ: أنا أختك، فقال لها: وما علامة ذلك؟ فذكرت له علامة فعرفها وتذكرها، وقام فبسط لها رداءه وصنع مثل ذلك بأمه حليمة حين جاءته ﷺ. وقيل: إن قومها قالوا لها: إن هذا الرجل أخوك فلو أتيته فسألتيه فى قومك لرجونا أن يحابينا، فأتته فقالت: أتعرفنى؟ قال: من أنت؟ قالت: أنا أختك بنت أبى ذؤيب وآية ذلك كذا، فرحب بها فاستوهبته السبى وهو ستة آلاف فوهبهم لها، فما عرفت مكرمة مثلها، ولا امرأة أيمن على قومها منها. وخيرها ﷺ فقال: أن أحببت فعندى محببة مكرمة، وأن أحببت أن أمتعك وترجعى إلى قومك، قالت: بلى تمتعنى وأرجع إلى قومى، فأعطاها نعما وشاء وغلاما يقال له مكحول وجارية. وقيل: أعطاها ثلاثة أعبد وجارية ونعما وشاء.

عمه ﷺ من الرضاع فى السبى

وجاءه ﷺ أبو صرد ويكنى بأبى برقان وكان عما له ﷺ من الرضاع فقال: يا رسول الله أنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، وأن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات والعمات والخالات ونرغب إلى الله وإليك يا رسول الله. وقال زهير بن صرد: يا رسول الله إن ما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك، أى: لأن مرضعته حليمة كانت من هوازن، لو أرضعنا للحرث بن أبى شمر ملك الشام، أو للنعمان بن المنذر ملك العراق، ثم نزل بنا مثل ما نزلت بنا، لرجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين، ثم أنشد أبياتا يستعطفه بها منها قوله:

أمنن علينا رسول الله فى كرم ... فإنك المرء نرجوه وننتظر
أمنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك يملؤه من مخضها الدرر
إنا نؤمن عفوا منك تلبسه ... هذى البرية أن تعفو وتنتصر
فالبس العفو من قد كنت ترضعه ... من أمهاتك إن العفو مشتهر

النبى ﷺ يرد سبى هوازن

فقال ﷺ: إن أحسن الحديث أصدقه، أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟ فاختاروا إحدى الطائفتين، إما السبى وإما المال، وقد كنت استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون. وفى رواية قال لهم: قد وقعت المقاسم مواقعها فأى الأمرين أحب إليكم السبى أم الأموال؟ وفى رواية قال لهم: أما

مالى ولبنى عبد المطلب فهو لكم.

ثم قال لهم: أنا إن صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا إنا نشفع برسـول الله ﷺ إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسـول الله ﷺ فـى أبنائنـا ونسـائنا وأظـهروا إسلامكم، وقولوا: نحن إخوانكم فى الدين، فسأسأل لكم الناس.

فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به، فقال رسول الله ﷺ بعد أن أثنى على الله بما هـو أهلـه: أما بعـد فـإن إخوانكـم هـؤلاء جاءونـا تائبين، وإنى قد رأيت أن أرد إليهم، فمن أحب منكم أن يطيب بذلك فليفعـل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفىء الله علينا فليفعل، وقال: أمـا ما كان لى ولبنى عبد المطلب فـهو لكـم، وقـال المـهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وقال الأقرع بن حابس: مـا كـان لى ولبنى تميم فلا، وقال عيينة بن حصن: ما كان لى ولفزارة فلا، وقال عبـاس بـن مرداس: ما كان لى ولسليم فلا، فقال بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال: وهنتمونى، فقال رسول الله ﷺ: مـن تمسـك بحقـه مـن السبى فلـه بكـل إنسان ست فرائض، مـن أول شىء نصيبه فردوا على الناس أبناءهم ونسـاءهم، ورد ﷺ جميع السبى، ولم يتخلف منه أحد إلا عجوز من عجائزهم كانت عنـد عيينة بـن حصن كما تقدم، فأبى أن يردهـا، وقـال حـين أخذهـا: أرى عجـوزاً إنى لأحسب أن لها فى الحى نسباً، وعسى أن يعظم فداؤهـا، فمرّ عليـه ولدهـا وهو زهير بن صرد فسامها منه وأعطاه مائة من الإبل فيها، فـأبى عيينـة وطمـع فى الزيادة، فتركه وذهب وغاب عنه ثم مرّ عليه معرضاً، فقال له عيينة: خذهـا بالمائة، فقال: لا أدفع إلا خمسين فأبى عيينة، فغاب عنـه ثـم مـرّ معرضـاً فقـال:

خذها بالخمسين فقال: لا أدفع إلا خمسة وعشرين فأبى عيينة، فغاب عنه ثم مر عليه معرضاً فقال: خذها بالخمسة والعشرين، فقال: لا أخذها إلا بعشرة فأبى عيينة، فغاب عنه ثم مرّ معرضاً فقال: خذها بالعشرة، فقال: لا أخذها إلا بستة، والله ما ثديها بناهد، ولا بطنها بوالد، ولا فوهاً ببارد، ولا صاحبها بواجد عند فوتها، أى: حزين، ولا ردها بناكد، أى: غزير، فقال له عيينة: خذها لا بارك الله لك فيها. وذلك بسبب دعائه ﷺ فإنه دعا على من أبى أن يرد من السبى شيئاً أن يبخس، أى: يكسد ثمنه، ولما أخذها ولدها قال لعيينة: إن رسول الله ﷺ كسا السبى قبطية، فقال: لا والله ما ذاك لها عندى فى فارقة حتى آخذ لها منه ثوباً (والقبطية بضم القاف ثوب أبيض من ثياب مصر منسوبة للقبط).

وروى أن رسول الله ﷺ أمر رجلاً أن يقدم مكة فيشترى للسبى ثياباً فلا يخرج الحر منهم إلا كاسياً، وأمر رسول الله ﷺ بحبس أهل مالك بن عوف النصرى عند عمته عاتكة أم عبد الله بن أبى أمية المخزومى، حتى جاء مالك فسلم إليه أهله، وكان الوفد كلموه ﷺ فى ذلك، فقال: إنما أريد بهم الخير، ولم يجز أن تجرى السهمات فى مال مالك بن عوف حتى حضر ورده عليه، وزاده مائة من الإبل.

قسمة الغنائم

أخرج البخارى عن عبد الله بن زيد بن عاصم الأنصارى قال: لما أفاء الله على رسول الله ﷺ يوم حنين قسم فى الناس فى المؤلفة قلوبهم، والمؤلفة قلوبهم هم

أناس أسلموا يوم الفتح إسلاماً ضعيفاً.

وقد سرد ابن طاهر فى المبهمات له أسماءهم وهم: أبو سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، وحكيم بن حزام، وأبو السنابل ابن بمكك، وصفوان بن أمية، وعبد الرحمن بن يربوع، وهؤلاء من قريش. وعيينة بن حصن الفزارى، والأقرع بن حابس التميمى، وعمرو بن الأهتم التميمى، والعباس بن مرداس السلمى، ومالك بن عوف النصرى، والعلاء بن حارث الثقفى قال ابن حجر:وفى ذكر الأخيرين نظر، فقيل: إنما جاءا طائعين من الطائف إلى الجعرانة.

وذكر الواقدى فى المؤلفة معاوية ويزيد ابنى أبى سفيان، وأسيد بن حارثة، ومخرمة بن نوفل، وسعيد بن يربوع، وقيل: ابن عدى، وعمرو بن وهب، وهشام بن عمرو، وزاد بن إسحاق: النضر بن الحارث، والحارث بن هشام، وجبير بن مطعم، وممن ذكره فيهم: أبو عمر سفيان بن عبد الأسد، والثائب بن أبى الثائب، ومطيع بن الأسود، وأبو جهم بن حذيفة.

وذكر ابن الجوزى فيهم: زيد الخيل، وعلقمة بن علاثة، وحكيم بن طلق بن سفيان بن أمية، وخالد بن قيس السهمى، وعمير بن مرداس. وذكر غيرهم فيهم: قيس بن مخرمة، وأحيحة بن أمية بن خلف، وابن أبى شريف، وحرملة بن هوذة، وخالد بن هوذة، وعكرمة بن عامل العبدرى، وشيبة بن عمارة، وعمرو بن ورقة، ولبيد بن ربيعة، والمغيرة بن الحارث، وهشام بن الوليد المخزومى..
فهؤلاء زيادة على الأربعين نفساً، قاله فى الفتح.

النبى ﷺ يقسم الغنائم فى المؤلفة قلوبهم

لما رجع ﷺ إلى الجعرانة قسم الغنائم وبدأ بالمؤلفة قلوبهم، وهم ناس من قريش أسلموا يوم الفتح أسلاماً ضعيفاً، وأراد ﷺ أن يتمكن الإيمان فى قلوبهم، وكان فيهم من لم يسلم بعد ثم أسلم كصفوان بن أمية.

ولما جمعت الغنائم وأحصيت، جاء أبو سفيان إلى النبى ﷺ فلما رأى كثرة المال قال: يا محمد أصبحت أكثر قريش، فتبسم ﷺ ثم أعطاه مائة من الإبل وأربعين أوقية من فضة، فقال يا رسول الله ﷺ: ابنى معاوية ويزيد فأعطاه لكل واحد منهما مائة من الإبل وأربعين أوقية من فضة، فأخذ أبو سفيان وابناه ثلاثمائة من الإبل ومائة وعشرين أوقية من الفضة، فقال أبو سفيان: بأبى أنت وأمى يا رسول الله لأنت كريم فى الحرب، وكريم فى السلم، لقد حاربتك فنعم المحارب كنت، وسالمتك فنعم المسالم كنت، هذا غاية الكرم، جزاك الله خيراً. وجاء حكيم بن حزام فسأل النبى ﷺ فأعطاه مائة من الإبل، ثم سأل النبى ﷺ فأعطاه مائة، ثم سأله فأعطاه مائة ثم قال له: يا حكيم هذا المال خضر حلو فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذى يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى، فأخذ حكيم المائة الأولى وترك ما عداها وقال: يا رسول الله والذى بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا، فكان أبو بكر ﷺ يدعو حكيماً ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئاً، ثم كان عمر ﷺ فى زمن خلافته يدعوه ليعطيه فيأبى أن يقبل، فكان عمر ﷺ يقول: يا معشر المسلمين إنى أعرض على حكيم

حقه الذى قسم الله له فى هذا الفىء فيأبى أن يقبله ﷺ.

والذين أعطاهم النبى ﷺ مائة مائة من الإبل كثير، منهم: أبو سفيان وابناه يزيد ومعاوية، وحكيم بن حزام، والأخنس بن شريق، وجبير بن مطعم، والجد بن قيس السهمى، والحارث بن الحارث بن هشام. أخو أبو جهل، وحاطب بن عبد العزى، وحرملة بن هوذة، وحويطب بن عبد العزى، وحكيم بن طليق، وخالد بن أسيد، وخلف بن هشام، وزهير بن أبى أسيد، وزيد الخيل، والسائب بن أبى السائب، وصيفى بن عائذ، وسهل وسهيل ابنا عمرو، وشيبة بن عثمان الحجبى، وعبد الرحمن بن يعقوب الثقفى، وسفيان بن عبد الأسد المخزومى، وصفوان بن أمية، وكان قد خرج معه مع من خرج وهو على شركه، فأعطاه النبى ﷺ مائة ثم مائة ثم وادياً مملوءاً إبلاً وغنماً، فلم يزل يعطيه حتى أسلم ﷺ.

وممن أعطاه النبى ﷺ مائة الأقرع بن حابس التميمى، وعيينة بن حصن الفزارى، وأعطى العباس بن مرداس السلمى دون المائة، وكان مثلهما رئيساً على قومه، كما أنهما رئيسان على قومهما فقال يخاطب النبى ﷺ:

أتجعل نهبى ونهب العبيـ   يد بين عيينة والأقرع
فما كان حصن ولا حابس   يفوقان مرداس فى المجمع
وما كنت دون امرىء منهما   ومن تخفض اليوم لا يرفع
وما كنت فى الحرب ذا تدرىء   فلم أعط شيئاً ولم أمنع

فقال النبى ﷺ اقطعوا عنى لسانه وأعطوه مثل أصحابه. وفى رواية، يا أبا بكر اقطع عنى لسانه وأعطيه مائة من الإبل، فأعطى تمام المائة. والعبيد اسم فرسه.

وأعطى ﷺ جماعة من المؤلفة قلوبهم خمسين من الإبل منهم: عثمان بن وهب المخزومى، وعمير بن ودقة، وعمير بن وهب، وعدى بن قيس، السهمى، وعمرو بن مرداس، ومخرمة بن نوفل الزهرى، وهشام بن عمرو العامرى، وسعيد بن يربوع.

وذكر بعضهم: أن ممن أعطاه مائة أبا جهم بن حذيفة العدوى، وأبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو ابن عم النبى ﷺ، وعكرمة بن عامر العبدرى، وعلقمة بن علاثة، وعمرو بن الأهتم، والعلاء بن جارية الثقفى، وكعب بن الأخنس، ولبيد بن ربيعة العامرى، ومالك بن عوف رئيس هوازن، ومطيع بن الأسود القرشى، والنضير بن الحارث بالتصغير أخو النضر المقتول ببدر، ونوفل بن معاوية الكنانى، وهشام بن الوليد المخزومى.

ثم قسم النبى ﷺ بقية الغنائم على بقية الأعراب، قال أهل المغارى: أمر ﷺ زيد بن ثابت ﷺ - وكان من أعظم كتابه ﷺ - بإحضار الناس والغنائم ثم قسمها على الناس، فكانت سهامهم لكل رجل أربعة من الإبل وأربعين شاة، فإن كان فارساً أخذ اثنا عشر من الإبل ومائة وعشرين شاة، وإن كان معه أكثر من فرس لم يسهم للزائد.

ولم يعط ﷺ الأنصار شيئاً، وحث على إكرامهم واحترامهم، لكن لا يبلغون درجة المهاجرين السابقين الذين خرجوا من ديارهم، وقطعوا عن أقاربهم وأحبابهم، وحرموا أوطانهم وأموالهم، والأنصار وإن اتصفوا ﷺ بصفة النصرة والإيثار والمحبة والإيواء لكنهم مقيمون فى مواطنهم، وحسبك شاهداً قوله ﷺ هذا، لأن فيه إشارة إلى جلالة رتبة الهجرة، فلا يتركها فهو نبى مهاجرى لا أنصارى ﷺ: (ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادى الأنصار وشعبها) والمراد بلدهم. وقوله ﷺ: (الأنصار شعار والناس دثار) أى: أنهم بطانته وخاصته، وأنهم ألصق به وأقرب إليه من غيرهم. وقوله: (إنكم ستلقون بعدى أثره فاصبروا حتى تلقونى على الحوض) يوم القيامة فيحصل لكم الانتصاف ممن ظلمكم، مع الثواب الجزيل على الصبر.

عن الزهرى قال: أخبرنى أنس بن مالك ﷺ قال: قال ناس من الأنصار حين أفاء الله على رسول الله ﷺ ما أفاء من أموال هوازن، فطفق النبى ﷺ يعطى رجالاً المائة من الإبل فقالوا: أى الأنصار، يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطى قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، قال أنس: فحدث رسول الله ﷺ بمقالتهم فأرسل إلى الأنصار فجمعهم فى قبة من أدم، ولم يدع معهم غيرهم، فلما اجتمعوا، قام النبى ﷺ فقال: ما حديث بلغنى عنكم، فقال فقهاء الأنصار: أما رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطى قريشا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال

النبى ﷺ: فإنى أعطى رجالا حديثى عهد بكفر أتألفهم، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون بالنبى ﷺ إلى رحالكم، فو الله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به.

وفى مناقب الأنصار من طريق أبى التياح عن أنس: (أولا ترضون أن يرجع الناس بالغنائم إلى بيوتهم، وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم)، قالوا: يا رسول الله قد رضينا، فقال لهم النبى ﷺ: (ستجدون أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ﷺ فإنى على الحوض). قال أنس: فلم يصبروا.

وفى قوله: ستلقون، علم من أعلام النبوة لأنه كان كما قال ﷺ، إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم ﷺ.

النبى ﷺ يعطى درسا عظيما فى التربية للأنصار

زاد مسلم فحمد الله وأثنى عليه فقال: يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى إلى الإيمان، وكنتم متفرقين- بسبب حرب بعاث وغيره الواقع بينهم مما تقدم ذكره - فألفكم الله بى، وعالة، ولأبى ذر وكنتم عالة، أى: فقراء لا مال لكم، فأغناكم الله بى، كلما قال ﷺ شيئا قالوا: الله ورسوله أمن، قال ﷺ: ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ.

قال: وفى لفظ لأبى ذر: كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمن قال: لوشئتم قلتم جئتنا كذا وكذا. وفى حديث أبى سعيد فقال: أما والله لو شئتم لقلتم فصدقتم أتيناك مكذبا بفتح الدال فصدقناك، ومخذلا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فواسيناك. زاد أحمد من حديث أنس قالوا: بل المنة لله ولرسوله.

وإنما قال رسول الله ﷺ ذلك تواضعاً منه وإلا ففى الحقيقة الحجة البالغة، والمنة له ﷺ عليهم كما قالوا ﷺ.

(ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبى ﷺ إلى رحالكم) ذكرهم ما غفلوا عنه ﷺ من عظيم ما اختصوا به منه ﷺ، بالنسبة إلى ما اختص به غيرهم من عرض الدنيا الفانية (لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار) قاله استطابة لنفوسهم، وثناء عليهم ﷺ، وليس المراد منه الانتقال عن النسب الولادى لأنه حرام، مع أن نسبه ﷺ أفضل الأنساب وأكرمها، وهو تواضع منه ﷺ.

المنافقون لا يرضون بحكم رسول الله ﷺ

ولم يعط ﷺ الأنصار ولا كبار المهاجرين شيئاً، فقال رجل من المنافقين: هذه قسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجه الله تعالى، فأخبر ﷺ بذلك فغضب وقال: إذا لم أعدل فمن يعدل، رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثرمن هذا فصبر، فقال عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد رضى الله عنهما: أئذن لنا نضرب عنقه يا رسول الله فقال: دعه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون فى الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية، لا يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى.

فعامل النبى ﷺ ذلك الرجل بظاهر حالة، تألفاً للناس ليدخلوا فى الإسلام.

(البخارى) المؤلفة قلوبهم هم قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة فيه فيستألف قلوبهم، أو أشراف يترقب بإعطائهم ومراعاتهم إسلام نظائرهم، قال مجاهد: يتألفهم

بالعطية.

عن ابن سعيد الخدرى ﷺ قال: بعث إلى النبى ﷺ بشىء فقسمه بين أربعة وقال: أتألفهم، فقال رجل: ما عدلت فقال: يخرج من ضئضئى هذا قوم يمرقون من الدين (والرجل هذا من بنى تميم يقال له ذو الخويصرة واسمه حرقوص بن زهير) والأربعة الذى أعطاهم رسول الله ﷺ ليتألفهم هم: الأقرع بن حابس الحنظلى، ثم المجاشعى، وعيينة بن بدر الفزارى، وزيد الطائى، ثم أحد بنى نبهان، وعلقمة بن علاثة العامرى، ثم أحد بنى كلاب، وقال ﷺ: أتألفهم ليثبتوا على الإسلام رغبة فيما يصل إليهم من المال.

عود إلى الأنصار

وَقال ناس من الأنصار ليسوا منافقين: يغفر الله لرسول الله ﷺ، يعطى قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، والله إن هذا لعجب، إذا كانت شدة فنحن ندعى لها وتعطى الغنائم لغيرنا، وددنا أن نعلم ممن كان هذا، فإن كان من الله تعالى صبرنا، وإن كان من النبى ﷺ استعتبناه. فبلغ الخبر النبى ﷺ فأرسل إلى الأنصار فجمعهم فى قبة من أدم، فلما اجتمعوا قام ﷺ فقال: ما حديث بلغنى عنكم، فقال فقهاء الأنصار: أما فقهاؤنا فلم يقولوا شيئاً، وأما ناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطى قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال ﷺ: إنى أعطى رجالاً حديثى عهد بكفر ومصيبة، أتألفهم، وإنى أردت أن أخبرهم أو أجبرهم، أما ترضون أن يرجع الناس بالأموال. وفى رواية: بالشاة والبعير وترجعون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم. (الحديث.. وقد

ذكرنا الروايات الواردة فيه) فبكى القوم حتى أخضلت لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

الحكمة من تقسيم الغنائم على المؤلفة قلوبهم

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن الغنائم لما حصلت قسمت على من لم يتمكن الإيمان من قلبه، لما بقى فيه من الطمع البشرى من حب المال، فكان ذلك سبباً لاجتماع قلوبهم على محبته ﷺ، لأن القلوب جبلت على حب من أحسن إليها.

وإنما لم يعط ﷺ أكابر المهاجرين والأنصار مع استحقاقهم جميعاً، لرسوخ الإيمان فى قلوبهم، فوكلهم إلى قوة إيمانهم، فكان فى قسمها على المؤلفة استجلاب قلوبهم، وقلوب أتباعهم الذين كانوا يرضون إذا رضى رئيسهم، فيكون سبباً لإسلامهم، ولتقوية قلب من دخل فى الإسلام منهم فيتبعهم من دونهم، فكان فيه مصلحة عظيمة.

ولذا لم يقسم من أموال مكة عند فتحها شيء مع احتياج الجيوش إلى المال الذى يعينهم على ما هم عليه، واستقرض ﷺ ممن استقرض منهم كما تقدم، لأجل حرب هوازن، ولما قيل له ﷺ: أعطيت عيينة والأقرع وتركت جعيل بن سراقة، قال: أما والذى نفس محمد بيده لجعيل خير من طلوع الأرض كلها مثل عيينة والأقرع، ولكنى أتألفهما ليسلما، أى: يقوى إسلامهما، ووكلت جعيل بن سراقة لإسلامه، وإنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلىّ منه مخافة أن يكبه الله فى النار على وجهه. وفى رواية: إنى لأعطى أقواماً أخاف هلعهم وجزعهم،

وأكل أقواماً إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الخير والغنى، منهم عمرو بن تغلب، قال عمرو: فو الله ما أحب أن لى بها حُمْر النَّعم.

وقد جاءت أحاديث كثيرة فى مدح الأنصار ﷺ، والدعاء لهم، ولأبنائهم، ولأبناء أبنائهم ﷺ.

وفى البخارى عن جبير بن مطعم ﷺ بينما أنا مع النبى ﷺ مقفله من حنين إذ علقت برسول الله ﷺ الأعراب يسألونه أن يعطيهم من الغنيمة يقولون: يا رسول الله أقسم علينا فيأنا حتى أخطروه، أى: ألجأوه إلى سمرة، فخطفت رداءه، فوقف ﷺ فقال: أعطونى ردائى، فلو كان عندى عدد هذه العضاه نعما. وفى رواية: لو كان عندى عدد شجر تهامة نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدونى بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً، أى: إذا جربتمونى لا تجدونى ذا بخل ولا ذا كذب ولا ذا جبن، ثم قام ﷺ إلى جنب بعير وأخذ وبرة من سنامه فرفعها، ثم قال للناس: والله مالى من فيئكم، أى: غنيمتكم، ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، أى: لأن أكثره كان ﷺ يصرفه فى مصالح المسلمين ﷺ.

النبى ﷺ يعتمر من الجعرانة

ثم بعد تمام قسمة الغنائم اعتمر ﷺ من الجعرانة، ودخل مكة وطاف وسعى وحلق ورجع إلى الجعرانة من ليلته، فكأنه كان بائتاً بها، وكانت مدة إقامته ﷺ بالجعرانة ثلاث عشرة ليلة. وجاء فى الحديث أنه اعتمر من الجعرانة سبعون نبياً. ثم توجه ﷺ إلى المدينة واستعمل على أهل مكة عتاب بن أسيد، أى:

تركه باقياً على عمله، وترك معه معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعرى رضى الله عنهما يعلمان الناس القرآن والفقه فى الدين، وكان قدومه المدينة لثلاث بقين من ذى القعدة. وقيل: لست بقين منه.

البعث إلى بنى تميم وتعرف بسرية عيينة بن حصن الفزارى إلى بنى تميم

وسببها: أنه ﷺ بعث بشر بن سفيان العدوى الكلبى إلى بنى كعب من خزاعة لأخذ صدقاتهم، وكانوا مع بنى تميم على ماء فأخذ بشر صدقات بنى كعب، فقال لهم بنو تميم وقد استكثروا ذلك: لم تعطوهم أموالكم؟ فاجتمعوا وأشهروا السلاح، ومنعوا بشراً من أخذ الصدقة، فقال لهم بنو كعب: نحن أسلمنا ولا بد فى ديننا من دفع الزكاة، فقال بنو تميم: والله لا ندع بعيراً واحداً يخرج، فلما رأى بشر ذلك قدم المدينة وأخبر النبى ﷺ بذلك، فعند ذلك بعث رسول الله ﷺ عيينة بن حصن الفزارى إلى بنى تميم فى خمسين فارساً من العرب ليس فيهم مهاجرى ولا أنصارى، فكان يسير الليل ويكمن النهار. فهجم عليهم وأخذ منهم أحد عشر رجلاً، وإحدى وعشرين امرأة، وثلاثين صبياً، فجاء بهم إلى المدينة، فأمر بهم ﷺ فحبسوا فى دار رملة بنت الحارث، فجاء فى أثرهم جماعة من رءوسائهم منهم عطارد بن حاجبة، والزبرّقان بن بدر، والأقرع بن حابس، وقيس بن الحارث، ونعيم بن سعد، وعمرو بن الأهتم، ورباح بن الحارث، فلما رأوهم بكى إليهم النساء والذرارى.

بنو تميم ينادونه من وراء الحجرات

فجاءوا إلى باب النبى ﷺ بعد أن دخلوا المسجد ووجدوا بلالاً يؤذن بالظهر والناس ينتظرون خروج رسول الله ﷺ، فاستبطئوه فجاءوا من وراء الحجرات فنادوا بصوت جاف: اخرج إلينا نفاخرك ونشاعرك، فإن مدحنا زين، وذمّنا شين، يا محمد اخرج إلينا، فخرج رسول الله ﷺ وقد تأذى من صياحهم، وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ۝ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم﴾ (الحجرات: ٤،٥). وأقام بلال الصلاة، وتعلقوا برسول الله ﷺ يكلمونه فوقف معهم، فقالوا له: نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا لنشاعرك ونفاخرك، فقال لهم النبى ﷺ: ما بالشعر بعثنا، ولا بالفخار أمرنا، ثم مضى فصلى الظهر ﷺ، ثم جلس فى صحن المسجد.

المفاخرة بالخطابة

ثم قالوا: إن مدحنا لزين وإن شتمنا لشين، نحن أكرم العرب، فقال رسول الله ﷺ: كذبتم بل مدح الله الزين وشتمه الشين، وأكرم منكم يوسف بن يعقوب، ثم قالوا: فأذن لخطيبنا وشاعرنا، قال ﷺ: أذنت فليقم.

وفى رواية: لم أبعث بالشعر ولم أومر بالفخر، ولكن هاتوا. فقدموا عطارد ابن حاجب. وفى رواية: قال الأقرع بن حابس لشاب منهم: قم يا فلان فاذكر فضلك وفضل قومك، فتكلم وخطب فقال: الحمد لله الذى له علينا الفضل وهو أهله، الذى جعلنا ملوكاً، ووهب لنا أموالاً عظاماً نفعل فيها المعروف،

وجعلنا أعز أهل المشرق عدداً فمن مثلنا فى الناس؟ ألسنا رءوس الناس وأولى فضلهم؟ فمن فاخر فليعدد مثل ما عددنا، وإنا لوشئنا أكثرنا، وإنما أقول هذا لأن يأتوا بمثل قولنا، أو أمر أفضل من أمرنا . . ثم جلس .

وفى رواية: أنه قال: الحمد لله الذى جعلنا خير خلقه، وأعطانا أموالاً نفعل فيها ما نشاء، فنحن خير أهل الأرض، وأكثرهم عدداً، وأكثرهم سلاحاً، فمن أنكر علينا قولنا فليأت بقول هو أحسن من قولنا، أو بفعال هى أفضل من فعالنا . فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس أن يجيبه، فقال له: قم فأجب الرجل فى خطبته، فقام ثابت ﷺ فقال: الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يكن شىء قط إلا من فضله، ثم إن من فضله أن جعلنا ملوكاً، واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمهم نسباً، وأصدقهم قلباً، وأفضلهم حسباً، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان، فآمن برسول الله ﷺ المهاجرون من قومه، وذوو رحمه أكرم الناس أحساباً، وأحسن الناس وجوهاً، وخير الناس مقالاً، ثم كان أول الخلق إجابة واستجابة لله حين دعاهم رسول الله ﷺ نحن، فنحن أنصار الله ورسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ورسوله، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر جاهدناه فى الله، وكان قتله علينا يسيراً . . هذا واستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم . وفى رواية: أنه قال: الحمد لله نحمده ونستعينه، ونؤمن به ونتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، دعا المهاجرين من بنى عمه، أحسن الناس وجوهاً، وأعظم الناس أحلاقاً،

فأجابوه، والحمد لله الذى جعلنا أنصاره، ووزراء رسوله، وعزاً لدينه، فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، فمن قالها منع منا نفسه وماله، ومن أباها قاتلناه، وكان رغمه فى الله علينا هيناً، أقول قولى وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات.

المفاخرة بالشعر

ثم قال الزبرقان لرجل منهم: قم يا فلان قل أبياتاً تذكر فيها فضلك وفضل قومك فقام فقال:

نحن الكرام فلا حيٌّ يعادلنا ... نحن الرءوس وفينا يقسم الربع
إذا أبينا فلا يأبى لنا أحد ... إنا كذلك عند الفخر نرتفع

فقال رسول الله ﷺ: عليَّ بحسان بن ثابت ﷺ، فحضر فقال له: قم فأجبه، فقال: يسمعنى ما قال، فأسمعه، فقال حسان ﷺ أبياتاً منها:

نصرنا رسول الله والدين عنوة ... على رغم عات من بعيد وحاضر
وأحياؤنا من خير من وطىء الحصا ... وأمواتنا من خير أهل المقابر

وقال الأقرع بن حابس: إنى والله يا محمد قلت شعراً فاسمعه، فقال: هات، فأنشده:

أتيناك كيما تعرف الناس فضلنا ... إذا حالفونا عند ذكر المكارم
وإنا رءوس الناس من كل معشر ... وأن ليس فى أرض الحجاز كدارم

فقال رسول الله ﷺ: قم يا حسان فأجبه، فقال حسان رضي الله عنه:

بنى دارم لا تفخروا إن فخركم يعود وبالا عند ذكر المكارم

هبلتم علينا تفخرون وأنتم لنا خول من بين ظئر وخادم

كلمات النبى ﷺ نور يهدى القلوب

فقال رسول الله ﷺ للأقرع: لقد كنت غنيا يا أخا بنى دارم، إن تذكر ما كنت ترى إن الناس قد نسوه، فكان هذا القول من رسول الله ﷺ عليهم أشد من قول حسان؛ وحينئذ قال الأقرع بن حابس: لخطيبه- يعنى النبى ﷺ- أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا، ثم دنا إلى النبى ﷺ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال ﷺ: ما يضرك ما كان قبل هذا، وكان الأقرع شريفا فى الجاهلية والإسلام رضي الله عنه.

ثم إنه ﷺ رد عليهم الأسارى والسبى، وأحسن جوائزهم بعد أن أسلموا كلهم، وأعطى كل واحد اثنتى عشرة أوقية من الفضة، واختلف فى عدد هذا الوفد فقيل: كانوا سبعين، وقيل: كانوا ثمانين رجلا.

قال ابن عبد البر فى الاستيعاب: إن القوم لما أسلموا بقوا فى المدينة مدة يتعلمون القرآن والدين. وفى البخارى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ (الحجرات:٤). إذ العقل يقتضى حسن الأدب.

(عن ابن جريج) عبد الملك بن عبد العزيز أنه قال: أخبرنى ابن أبى مليكة عبد الله أن عبد الله بن الزبير بن العوام أخبرهم أنه قدم ركب من بنى تميم على

النبى ﷺ فسألوه أن يؤمر عليهم أحدا، فقال أبو بكر له ﷺ: أمر عليهم القعقاع بن معبد، وقال عمر: أمر عليهم، وفى رواية: بل أمر عليهم الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر لعمر رضى الله عنهما: ما أردت بذلك إلى إلا خلافى، أى: إنما تريد مخالفتى، فقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا فتجادلا وتخاصما حتى ارتفعت أصواتهما فى ذلك فنزل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ۞ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾ (الحجرات: ١، ٢). وعن البراء قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا محمد إن حمدى زين، وإن ذمى شين، فقال: ذاك الله تبارك وتعالى. وعن قتادة: مثله، وزاد فأنزل الله تعالى: ﴿إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون﴾ وقوله تعالى: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرجَ إليهم لكان خيرا لهم﴾ أى: لكان الصبر خيرا لهم من الاستعجال، لما فيه من حفظ الأدب، وتعظيم الرسول ﷺ، الموجبين للثناء والثواب من الله تعالى.

سرية أبى عامر الأشعرى رضي الله عنه وتسمى غزوة أوطاس

بعث رسول الله ﷺ- لما فرغ من غزوة حنين- أبا عامر عبيد بن سليم بن حضار الأشعرى- وهو عم أبى موسى الأشعرى على المشهور- أميرا إلى أوطاس خلف الفارين من هوازن يوم حنين، ومعه جمع من أصحاب رسول الله ﷺ، منهم سلمة بن الأكوع رضي الله عنه، فالتقوا بأوطاس وهو واد فى ديار هوازن. وكان المنهزمون انقسموا ثلاث فرق: فرقة منهم لحقت بالطائف، وفرقة بنخلة،

وفرقة بأوطاس، فانتهى إليهم أبو عامر، فإذا هم مجتمعون فناوشوه القتال، وقتل منهم أبو عامر ﷺ تسعة أخوة مبارزة، بعد أن يدعو كل واحد منهم إلى الإسلام ويقول: اللهم اشهد عليه بأنى دعوته إلى الإسلام فلم يسلم، ثم برز له العاشر فدعاه إلى الإسلام وقال: اللهم أشهد عليه، فقال: اللهم لا تشهد على، فكف عنه أبو عامر ﷺ ظنا منه أنه أسلم، فأفلت ثم أسلم بعد وحسن إسلامه ﷺ، فكان ﷺ إذا رآه قال: هذا شريد أبى عامر.

ثم استشهد أبو عامر ﷺ، قتله أخوان وهما: العلاء وأوفى ابنا الحارث بن جشيم.

وجاء أن أبا موسى ﷺ أدرك قاتل عمه فقتله، ففى الخبر قال أبو موسى الأشعرى: وبعثنى رسول الله ﷺ مع أبى عامر عبيد، أى: عمه، إلى من التجأ إلى أوطاس، فرمى أبو عامر فى ركبته، رماه جشمى، أى: رماه رجل جشمى نسبة لبنى جشم، وهم أوفى والعلاء ابنا الحارث بسهم فأثبته فى ركبته، قال أبو موسى: فانتهيت إليه فقلت له: يا عم من رماك بهذا السهم؟ فأشار إلى أبى موسى، هو التفات، وكان الأصل أن يقول وأشار إلى فقال: ذاك قاتلى الذى رمانى، قال أبو موسى: فقصدت له فلحقته، فلما رآنى ولى، أى: أدبر، فاتبعته، أى: سرت فى أثره، وجعلت أقول له: ألا تستحى ألا تثبت فكف عن التولى فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثم قلت لأبى عامر: قتل الله صاحبك، قال: فانزع هذا السهم فنزعته فنزا، أى: انصب منه من موضع السهم الماء قال: يا ابن أخى أقرىء النبى ﷺ السلام عنى، وقل له استغفر لى. واستغفر بلفظ الطلب، والمعنى أن أبا عامر سأل أبا موسى أن يسأل له النبى ﷺ أن يستغفر له،

قال أبو موسى: واستخلفنى أبو عامر على الناس أميراً، فـأقرنى النـاس، فمكـث يسيراً ثم مات ﷺ.

فقاتل أبو موسى القوم حتى هزمهم، وفتح الله علـى يديـه، وظفـر المسـلمون بالغنائم والسبايا، قال: فرجعت فدخلت على النبى ﷺ فى بيته حال كونه علـى سرير مرمّل منسوج بحبل ونحوه، وعليه فراش. ونقل عن الشيخ أبى الحسن أنـه قال: الذى أحفظه فى هذا ما عليه فراش، قال: وأرى أن (ما) سقطت هنا، قـد أثر رمال السرير فى ظهره وجنبيه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبى عـامر وأنـه قـال لـه قل له ﷺ استغفر لى، فدعا ﷺ بماء فتوضا ثم رفع يديه فقال: اللـهم اغفـر لعبيـد أبى عامر، قال أبو موسى: ورأيت بياض إبطيه فيه رفع اليدين فى الدعاء، خلافاً لمن خصه بالاستسقاء، ثم قال ﷺ: اللهم اجعله فى المرتبة يوم القيامـة فوق كثير من خلقك من الناس، فقلت: ولى فاستغفر يا رسول الله، فقال: اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً.

بعث قيس بن سعد إلى صُدَاء

بعث ﷺ قيس بن سعد بن عبادة الخزرجى رضى الله عنهما إلى ناحيـة اليمـن بعد انصرافه ﷺ من الجعرانة، فى أربعمائة فارس، وأمره أن يقاتل قبيلـة صُـدَاء- وهم حىّ من اليمن- فقدم زياد بن الحارث الصدائى فسـأل عـن ذلـك البعـث، فأخبر به، فقال يا رسول الله: أنا وافدهم إليك فاردد الجيش، وأنا أتكفل بإسلام قومى وطاعتهم، فقال: اذهب إليهم فردّهم، فقال: إن راحلتى قد كلت، فبعث ﷺ خلفهم فردّهم، ورجع الصدائـى إلى قومـه، فقدمـوا بعـد خمسـة عشـر يومـاً

فأسلموا ﷺ.

بعث الوليد بن عقبة إلى بنى المصطلق

بعث النبى ﷺ الوليد بن عقبة بن أبى معيط لأخذ الصدقات من بنى المصطلق- وبنو المصطلق بطن من خزاعة- وكان بينهم وبين الوليد عداوة فى الجاهلية، وكانوا قد أسلموا وبنوا المساجد، فلما سمعوا بدنو الوليد خرج منهم عشرون رجلاً بالإبل والغنم يؤدونها عن زكاتهم فرحاً به، وتعظيماً لله ولرسوله ﷺ، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله لرؤية السلاح معهم، مع أنهم إنما خرجوا بالسلاح تجملاً، فرجع من الطريق قبل أن يصلوا إليه، وأخبر النبى ﷺ مستنداً لظنه أنهم لقوه بالسلاح يحولون بينه وبين الصدقة. وفى رواية: أخبره أنهم ارتدوا، فهمَّ ﷺ أن يبعث إليهم من يغزوهم، وبلغ ذلك القوم. وفى رواية: أنه ﷺ بعث إليهم خالد بن الوليد لاستكشاف الخبر خفية فى عسكر معه، وأمره أن يخفى عنهم قدومه، فلما دنا منهم بعث عيوناً ليلاً، فإذا هم ينادون بالصلاة ويصلون، فأتاهم خالد فلم ير منهم إلا طاعة وخيراً، فرجع إليه ﷺ فأخبره. وفى رواية: بعث ﷺ إليهم بعثاً فاستقبلهم الحارث بن ضرار الخزاعى وكان رئيس القوم فقال: إلى أين بعثتم؟ قالوا: إليك، قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ بعث الوليد فزعم الوليد أنك منعته الزكاة وأردت قتله، فقال: لا والذى بعث محمداً بالحق ما رأيته ولا أتانى، ثم قدم على النبى ﷺ فلما دخل عليه ﷺ قال له ﷺ: منعت الزكاة وأردت قتل رسولى. قال: لا والذى بعثك بالحق، وقدم الركب الذين لقوا الوليد، فأخبروا النبى ﷺ الخبر على وجهه، فبعث ﷺ

معهم عباد بن بشر يأخذ صدقات أموالهم، ويعلمهم شرائع الإسلام، ويقرئهم القرآن.

والوليد بن عقبة بن أبى معيط كان أخا لعثمان بن عفان ﷺ لأمه، ولاه عثمان ﷺ الكوفة ثم عزله، ولما مات عثمان ﷺ اعتزل الوليد الفتنة فلم يشهد مع على ﷺ ولا غيره، وأقام بالرقة إلى أن توفى فى خلافة معاوية ﷺ.

سرية عبد الله بن عوسجة ﷺ إلى بنى عمرو بن حارثة

وقيل: حارثة بن عمرو فى مستهل صفر. وقيل: ربيع الأول سنة تسع من الهجرة يدعوهم إلى الإسلام، فأبوا أن يجيبوا، واستخفوا بصحيفة النبى ﷺ فغسلوها ورقعوا بها أسفل دلوهم، فأخبر ﷺ بذلك، فدعا عليهم بذهاب العقل فقال: ماهم ذهب الله بعقولهم، فهم إلى اليوم أهل رعدة، أى: اضطراب فى أجسادهم، وعجلة فى كلامهم، وكلام مختلط لا يفهم. قال الواقدى: رأيت بعضهم ذا عى لا يحسن الكلام.

سرية قطبة بن عامرالخزرجى ﷺ إلى خثعم

خثعم قريبة من تربة بضم الفوقية وفتح الراء، من أعمال مكة على يومين أو أكثر، وكانت فى صفر سنة تسع، وبعث معه عشرين رجلا، وأمره أن يشن الغارة عليهم فجاءوهم واقتتلوا قتالا شديدا حتى كثرت الجرحى فى الفريقين، ثم هزموهم، وساقوا النعم والشاء والنساء إلى المدينة.

سرية الضحاك بن سفيان الكلابى رضي الله عنه إلى بنى كلاب

كانت فى ربيع الأول سنة تسع بجيش فجاءهم ودعاهم إلى الإسلام، فأبوا، فقاتلهم بمن معه فهزمهم، وغنم أموالهم.

سرية علقمة بن مجزز المدلجى إلى طائفة من الحبشة بساحل البحر قريبا من جدة

مجزز بضم الميم وفتح الجيم ومعجمتين الأولى مكسورة ثقيلة، بعثه ﷺ فى ثلاثمائة فانتهى إلى جزيرة فى البحر، فلما خاض البحر ليصل إليهم، هربوا فرجع علقمة ومن معه و لم يلقوا كيدا، ولما أراد الرجوع علقمة أراد بعض القوم التعجيل والرجوع إلى أهلهم قبل بقية الجيش، وكان فيهم عبد الله بن حذافة السهمى رضي الله عنه، فأمره علقمة عليهم وكان فيه دعابة، أى: مزاح، فنزلوا ببعض الطريق وأوقدوا نارا يصطلون عليها، فقال لهم عبد الله بن حذافة: عزمت عليكم ألا تواثبتم فى هذه النار، فلما هم بعضهم بذلك، قال: امنعوا أنفسكم فإنما كنت أمزح، فذكروا ذلك للنبى ﷺ لما قدموا، فقال: من أمركم بمعصية فلا تطيعوه.

وعبد الله بن حذافة هذا من قدماء المهاجرين رضي الله عنه، وممن شهدوا بدرا، ومن مناقبه رضي الله عنه ما أخرجه البيهقى عن ابن رافع رضي الله عنه قال: وجه عمر رضي الله عنه جيشا إلى الروم وفيهم عبد الله بن حذافة رضي الله عنه فقال له ملك الروم: تنصر وأشركك فى ملكى، فأبى، فأمر به أن يصلب إن لم يتنصر، فلما ذهبوا به بكى فقال: ردوه، فقال له: لم بكيت؟ قال: تمنيت أن لى مائة نفس تلقى هذا فى الله، فعجب منه

ثم قال له: قبل رأسي وأنا أخلى عنك، فقال: وعن جميع أسارى المسلمين، قال: نعم، فقبل رأسه، فخلى سبيلهم، فقدم بهم على عمر ﷺ، فقام عمر فقبل رأسه ﷺ.

الأسرار العلية لصحابة رسول الله ﷺ فى هذه السرية

رضى الله عن أصحاب رسول الله ﷺ، وأمدنا بأسرارهم العلية، بلغ بهم الإسلام لله سبحانه وتعالى، والطاعة لله سبحانه وتعالى ولرسوله ﷺ، والإخلاص لله تعالى والرغبة فيما عند الله تعالى مبلغا جعلهم يبذلون النفس طاعة لله ولرسوله ﷺ، بل وطاعة لأمير رسول الله ﷺ، كما قال سيدنا خبيب:

ولست أبالى حين أقتل مسلما ... على أى جنب كان لله مضجعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع

وكما فعل أصحاب رسول الله ﷺ فى هذه السرية، فإن سيدنا عبد الله بن حذافة ﷺ عندما أمرهم أن يلقوا أنفسهم فى النار تواثبوا إليها مسرعين طاعة لأمير أمره أمير رسول الله ﷺ، لم يكن ذلك جهلا منهم بحكم الله، فإنهم على يقين أنهم ما فروا إلى الإسلام إلا فرارا من النار، ولا جهلا بقدر أنفسهم لا والله، ولكن صفت تلك النفوس، وطهرت القلوب، حتى بلغ بهم اليقين الحق أن مسلما لا يأمر بمخالفة الله تعالى ورسوله ﷺ، وأن المؤمن لا يأمر إلا بما هو خير لأخيه، لأن قلوبهم انطوت على الخير إلى إخوتهم المؤمنين، وعلموا حق اليقين إن كل مؤمن أولى بكل مؤمن من نفسه، واعتقادا أن كل من قام فى هذا المقام من الإمارة عليهم يكون معصوما لأنه كخليفة رسول الله ﷺ.

كشفت لنا تلك الحادثة عن مقدار تسليم النفوس عند صفاها، وأن المؤمنين فى حالة إقبالهم على الله وإخلاصهم لجنابه العلى يجب أن يكون أميرهم أو مرشدهم أو متولى شئونهم من أهل التمكين الأكبر، والأخذ بالعزائم والرحمة الواسعة، والزهد فى الدنيا، والرغبة فى الآخرة، والخشية الكاملة من الله تعالى، حتى يحفظ الله به إخوته المؤمنين الذين معه من ضياع دينهم أو عافيتهم أو أموالهم، فإن النفوس إذا ووجهت بأنوار الجمال، وأسرار الجلال الإلهى انقادت انقيادا كالسيل لمن يقودها إلى الله بلا روية ولا فكر، لاستسلامها استسلام منجذب بالكلية للنعيم الأبدى فى فردوس الله الأعلى، أو لمقعد صدق عند مليك مقتدر، فيحتقر الواجد نفسه وماله فى سبيل نيل بغيته، فلو أمر بأن يلقى نفسه فى النار لألقاها، ولكنه ﷺ أزال الغطاء عن الحقيقة حتى تجلت لكل مسلم فقال ﷺ: لا طاعة فى معصية الله. ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق. وقال ﷺ: لو دخلوها ما خرجوا منها. وذلك لأن الإنسان لا يستسلم حقا بلا بحث ولا روية، ولا طلب حجة إلا لرسول الله ﷺ، فإذا صحب غير رسول الله ﷺ وأمره بما لم يستبين له وجه الشرع فيه خالفه شرعا، وإن سلم مداراة له إن كان أميرا خوفا منه، أو كان مرشدا حتى يقيم له الحجة شرعا، أو يفيء إلى أمر الله، والواجب شرعا ترك المأمور به إن تحقق أنه معصية الله، ما لم يكره عليه، وقد شرحت وليس بعد بيان رسول الله ﷺ بيان.

وقد بلغت الجهالة بالنفوس مبلغا حتى صار بعض من يقتدون بالشاطحين التائهين يطيعونهم فى معصية الله ورسوله ﷺ، ويتبعونهم على مخالفة كتاب الله حتى يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ويحسن لهم الشيطان

أهواءهم.. نعوذ بالله من الكفر بعد الإيمان.

أمر الصحابى وهو أمير على أصحاب رسول الله ﷺ أن يلقوا بأنفسهم فى النار فتواثبوا إليها طاعة لأمره، وتسليما له وهم أصحاب رسول الله ﷺ، اعتقادا منهم أن طاعته طاعة رسول الله، ومخالفته مخالفة لرسول الله ﷺ، ونعم، ولكن فيما ومتى تكون طاعته طاعة لله ومعصيته معصية لله؟ تكون كذلك فيما إذا أمر بما أمرهم به الله سبحانه، ونهى عما نهاهم الله عنه، وأمر بما أمر به رسول الله ﷺ، ونهى عما نهاهم عنه رسول الله ﷺ، أو أمر بفضيلة شرعية لا تخفى على ذى عقل.

وقد بلغ اليقين الحق بأصحاب رسول الله ﷺ مبلغا جعلهم كانوا إذا أمرهم رسول الله ﷺ بعمل فى الجهاد، وظهر لهم فيه ما تنزعج منه قلوبهم قالوا: يا رسول الله أمن الله هذا أم هو الرأى والمشورة؟ فيقول: هذا الرأى والمشورة، فيقولون: الأولى أن نفعل كذا يا رسول الله، فيطيعهم ﷺ. كل ذلك من اليقين الحق الذى جمل الله به قلوبهم حتى كان الحق هو المحبوب حقا، يحبون فيه، ويبغضون فيه، ولو أن عظيما غنيا كبيرا قريبا حبيبا خالف الله تعالى، أو خالف رسول الله ﷺ لكان عندهم حقيرا ذليلا بغيضا عدوا، ولو أن فقيرا ذليلا بغيضا عدوا أطاع الله لصار عندهم عظيما حبيبا عزيزا، وكانوا إنما يحبون الخلق لعملهم بالكتاب والسنة، ويبغضونهم لمخالفتهم للكتاب والسنة، فكان المحبوب حقا هو الحق، وكان المبغوض حقا هو الباطل. ومن أحب الخلق غير ملاحظ فى محبته الحق فهو عدو لله ولرسول الله ﷺ، ومن أطاعهم فى معصية الله كان مشركا بالله، لأن الله تعالى يقول: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون

الله﴾ (التوبة: ٣١)٠ وفى الحقيقة أنهم لم يتخذونهم أربابا يعبدون، ولكنهم كانوا يحكمون بأحكام تغاير أحكام التوراة فيتبعون أحكامهم ويتركون أحكام التوراة، ومن خالف حكم الله واتبع حكم مخلوق فقد اتخذه ربا من دون الله، يقول الله تعالى: ﴿ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾ (الأنعام:٦٢)٠ فالحاكم حقا هو الرب جل جلاله، ومن قبل حكم غيره وخالف حكمه سبحانه فقد اتخذه ربا من دون الله، وما من بدعة من البدع كانت فى السابقين إلا وقد أظهرها من لا خلاق لهم٠ فضلت فى هذه الحادثة ما لا علاقة له بالتاريخ لمقتضى دعا إليه الحال، ونتج عنه مضار وبلايا بين جماعة المسلمين، حتى يتنبه الناس، ويعلم كل مسلم من يطيع ومن يخالف، حتى تكون الطاعة لله ولرسوله لا لمخلوق يخطىء ويصيب٠٠ والله سبحانه وتعالى أسأل أن يحفظ جماعة المسلمين من ولاية الجهلاء، وإمارة الشبان، ومن الدعاة الذين هم على أبواب٠٠ جهنم آمين٠

سرية على بن أبى طالب كرم الله وجهه لهدم صنم طيىء

وهو بموضع يسمى الفلس، بعثه رسول الله ﷺ فى ربيع الأول سنة تسع، وبعث معه مائة وخمسين رجلا من الأنصار٠ وفى رواية: كانوا مائتى رجل، فأغار على أحياء من العرب، وشن الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر، وحرق الصنم بعد أن هدمه، ووجد فى خزانته ثلاثة أسياف، وثلاثة أدرع وغنم سبيا ونعما وشاء وفضة، وقدم بذلك المدينة، وكان فى السبى سفانة بنت حاتم

الطائى فأسلمت وحسن إسلامها رضى الله عنها، ومن عليها رسول الله ﷺ فدعت له فقالت: شكرتك يد افتقرت بعد غنى، ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة من كريم إلا وجعلك سببا لردها عليه.

وكان المن عليها سببا لإسلام أخيها عدى بن حاتم ؓ، وكان ؓ من فضلاء الصحابة، ولم يرتد مع من ارتد من العرب بعد وفاة النبى ﷺ بل ثبت على الإسلام، وكان يبعث بصدقات قومه إلى الصديق الأكبر ؓ.

وروى له ؓ أصحاب السنن الستة.

قال ابن إسحق فى قصة سبى أخت حاتم: أصابت خيله ﷺ ابنة حاتم فى سبايا، فجعلت فى حظيرة فى المسجد، فمر بها ﷺ فقامت إليه- وكانت جزلة- فقالت: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد؟ فقال: ومن وافدك؟ قالت: عدى بن حاتم، قال: العار من الله ورسوله، فمضى حتى كان الغد، قالت: مر بى فقلت له وقال مثل ذلك، حتى كان بعد الغد مر بى ويئست، فأشار إلى على بن أبى طالب كرم الله وجهه- وهو خلفه- أن قومى إليه فكلميه، فقمت فقلت: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد، فامنن على من الله عليك، قال: قد فعلت فلا تعجلى حتى تجدى ثقة يبلغك بلادك ثم آذنينى، فقدم رهط من طيىء، قالت: فأخبرته أن لى فيهم ثقة وبلاغا فكسانى وحملنى وأعطانى نفقة، فخرجت حتى قدمت الشام على أخى فقال: ما ترين فى هذا الرجل؟ قالت: أرى والله أن تلحق به سريعا، فإن يك نبيا فللسابق إليه فضيلة،

وإن يك ملكا فلن تزال فى عز اليمن وأنت أنت، فقلت: هذا هو الرأى، فقدم فأسلم والقصة طويلة.

سرية عكاشة بن محصن الأسدى ﷺ إلى الجباب

الجباب بكسر الجيم وموحدتين بينهما ألف، أرض عذرة بضم العين وسكون الذال المعجمة، وبلى بفتح الباء وكسر اللام وشد التحية، وهما قبيلتان من قضاعة، وقيل: إن الجباب أرض فزارة وكلب، ولعذرة فيها شرك، وكانت هذه السرية فى شهر ربيع الآخر سنة تسع، ولم يذكر سببها، ولا عدد من ذهب فيها، ولا ما جرى.

الفصل الثامن

غزوة تبوك

وهو مكان معروف بينه وبين المدينة من جهة الشام أربعة عشر مرحلة، وهي غزوة العسرة مأخوذة من قوله تعالى: ﴿الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾ (التوبة: ١١٧). لما وقع فيها من العسرة فى الماء والظهر والنفقة، وتعرف بالفاضحة لافتضاح المنافقين فيها قال تعالى على لسان المنافقين: ﴿لا تنفروا فى الحر﴾ (التوبة: ٨١). وقد فضحهم الله فى آيات كثيرة فى سورة التوبة كقوله تعالى: ﴿ومنهم من يقول ائذن لى﴾ (التوبة: ٤٩). وكقوله تعالى: ﴿ولئن سألتم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ (التوبة: ٦٥).

لما عاد رسول الله ﷺ أقام بالمدينة- بعد عوده من الطائف- ما بين ذى الحجة إلى رجب سنة تسع من الهجرة، ثم أمر الناس ﷺ بالتجهيز لغزو الروم، وأعلم الناس مقصدهم لبعد الطريق، وشدة الحر، وقوة العدو. وكان قبل ذلك إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها، وكانت هذه الغزوة آخر غزواته ﷺ، فقد روى البخارى ومسلم عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: لم يكن ﷺ يريد غزوة ألا ورَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها فى حر شديد، واستقبل سفراً بعيداً، وغزا عدواً كثيراً، فجلا للمسلمين أمرهم، ليتأهبوا أهبة غزوتهم بالوجه الذى يريد. والتورية: ذكر لفظ يحتمل معنيين أحدهما أقرب من الآخر، فيستوهم السامع إرادة القريب، والمتكلم يريد البعيد.

وكان سببها: ما ذكر ابن سعد فى طبقاته وغيره أن المسلمين بلغهم من

الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعاً، وأجلبت معهم لخم وجزام وغيرهم من متنصرة العرب، فندب النبى ﷺ الناس إلى الخروج، وأعلمهم بجهة غزوهم ليتأهبوا لذلك بما يحتاجونه فى السفر والحرب.

وروى الطبرانى من حديث عمران بن حصين الخزاعى رضى الله عنهما قال: كانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل أن هذا الرجل الذى يدّعى النبوة هلك، وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم، فإن كنت تريد أن تلحق دينك فالآن، فبعث رجلاً من عظمائهم يقال له قباذاً، وجهز معه أربعين ألفاً، فبلغ ذلك النبى ﷺ، ولم يكن للناس قوة فى الذهاب لتلك الأرض لفقد الظهر والنفقة، وكان عثمان رضي الله عنه قد جهز عيراً إلى الشام، فلما سمع النبى ﷺ يحث على النفقة والحملان قال: يا رسول الله هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أوقية، قال عمران رضي الله عنه: فسمعته ﷺ يقول: لا يضر عثمان ما عمل بعدها. وقد أظهر الله صدق رسوله ﷺ، فإن عثمان رضي الله عنه لم يزل على أعمال أهل الجنة حتى فارق الدنيا رضي الله عنه.

التنافس على الإنفاق من أخلاق صحابته ﷺ

ولما أراد ﷺ الخروج حث الناس على النفقة والحملان فجاءوا بصدقات كثيرة، فكان أول من جاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه فجاء بما له كله أربعة آلاف درهم، فقال ﷺ: هل أبقيت لأهلك شيئا؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، وجاء عمر رضي الله عنه بنصف ماله، فسأله هل أبقيت لهم شيئا؟ قال: نعم نصف مالى، وجاء

عبد الرحمن بن عوف ﷺ بمائتى أوقية إليه ﷺ، وتصدق عاصم بن عدى بسبعين وسقا من تمر، وجهز عثمان ﷺ ثلث الجيش حتى كان يقال: ما بقيت لهم حاجة حتى كفاهم شنق أسقيتهم. قال ابن إسحاق: أنفق عثمان ﷺ فى ذلك الجيش نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها.

وأرسل ﷺ إلى أهل مكة وقبائل العرب يستنصرهم.

ثم إن رجالا من المسلمين وهم البكاءون وكانوا سبعة نفر من الأنصار وغيرهم، وكانوا أهل حاجة فاستحملوه ﷺ، أى: طلبوا منه ما يركبون عليه، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا يبكون، وهم: سالم بن عمير الأنصارى، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب الأنصارى، والعرباض بن سارية السلمى، وهرم بن عبد الله بن رفاعة الأنصارى، وعمرو بن عثمة الأنصارى، وعبد الله بن مغفل المزنى، وآخرون غيرهم ﷺ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لا يجدوا ما ينفقون﴾ (التوبة: ٩٢). فلقيهم يامين بن عمر بن كعب النضرى فسألهم عما يبكيهم، فأعلموه، فأعطى أبا ليلى عبد الرحمن بن كعب، وعبد الله بن مغفل المزنى بعيرا، فكانا يعتقبانه مع رسول الله ﷺ.

ومن البكائين قوم أبى موسى الأشعرى ﷺ، ففى البخارى عن أبى موسى ﷺ أنه أرسله أصحابه إلى النبى ﷺ يسأله الحملان فقال: والله لا أحملكم. وفى رواية: وما عندى ما أحملكم عليه، فرجع حزينا إلى قومه، ثم جاء النبى ﷺ زود من الإبل فبعث إليه وأعطاه إياه.

وجاء المعذرون من الأعراب فاعتذروا إلى رسول الله تعالى، فلم يعذرهم الله، وكان عدة من المسلمين تخلفوا من غير شك، منهم: كعب بن مالك، ومروان بن الربيع، وهلال بن أمية.

منزلة على بمنزلة هارون عليه السلام

واستخلف ﷺ على المدينة على بن أبى طالب رضي الله عنه، وخلفه أيضا على أهله وعياله رضي الله عنه، فأرجف به المنافقون وقالوا: ما خلفه إلا استثقالا له وتخففا، فلما سمع على رضي الله عنه ذلك أخذ سلاحه ولحق بالنبى ﷺ وهو نازل بالجرف فقال: يا نبى الله زعم المنافقون أنك خلفتنى لأنك استثقلت مني، وتخففت منى فقال: كذبوا وإنما خلفتك لما تركت ورائى، فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك، أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى، فرجع إلى المدينة. وفى رواية: فقال على رضي الله عنه: رضيت، ثم رضيت، ثم رضيت، وسار ﷺ.

عقد الألوية والرايات

ولما ارتحل ﷺ من ثنية الوداع متوجهاً إلى تبوك عقد الألوية والرايات، فدفع لواءه الأعظم لأبى بكر رضي الله عنه، ورايته العظمى للزبير رضي الله عنه، ودفع راية الأوس لأسيد بن حضير، وراية الخزرج للحباب بن المنذر، ودفع لكل بطن من الأنصار وقبائل العرب لواء أو راية، أى: لبعضهم راية. وسار بالناس وهم ثلاثون ألفاً، وقيل: أربعون ألفاً، وقيل: سبعون ألفاً، وكانت الخيل عشرة آلاف، وقيل: اثنى عشر ألفاً. ووقع له ﷺ فى هذه الغزوة كثير من الأخبار بالمغيبات وغيرها من

المعجزات وخوارق العادات، وسيأتى إن شاء الله التعرض لكثير منها.

المخلفون عن رسول الله ﷺ

وتخلف جماعة من المنافقين، منهم: عبد الله بن أبى بن سلول بعد أن كان قد خرج بقومه وعسكر بهم أسفل من ثنية الوداع ثم قال: يغزوا محمد بنى الأصفر، أى: وهم الروم، مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى ما لا طاقة له به، يحسب محمد أن قتال بنى الأصفر معه اللعب، والله لكأنى أنظر إلى أصحابه مقرنين فى الحبال، يقول ذلك إرجافاً برسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ، ثم رجع بقومه وتخلفوا.

واجتمع جمع من المنافقين فى بيت سويلم اليهودى فقال بعضهم: أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً، والله لكأنى بهم، يعنى: الصحابة، غداً مقرنين فى الحبال، يقولون ذلك أرجافاً وترهيباً للمؤمنين.

والجلاد: الضرب بالسيوف.

فأوحى الله إلى النبى ﷺ اجتماع القوم وما قالوا، فقال لعمار بن ياسر رضى الله عنهما: أدرك القوم فاسألهم عمّا قالوا فإن أنكروا فقل: بل قلتم كذا وكذا، فانطلق إليهم عمّار فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه وقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب.

وقال ﷺ للجد بن قيس: يا جد هل لك فى جلاد بنى الأصفر؟ قال: يا رسول الله أو تأذن لى التخلف ولا تفتنى، فوالله لقد عرف قومى أنه ما من

رجل بأشد عجباً بالنساء منى، فإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: أذنت لك، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ (التوبة: ٤٩).والفتنة التى سقطوا فيها هى التخلف عن رسول الله ﷺ والرغبة عنه. وفى رواية: أنه لام الجدّ على مقالته ولده عبد الله وقال له: والله ما يمنعك إلا النفاق وسينزل الله فيك قرآناً، فأخذ نعله وضرب به وجهه، فلما نزلت الآية قال له: ألم أقل لك، فقال له: اسكت يا لكع، فوالله لأنت أشد علىّ من محمد. وفى رواية: أن الجد لما امتنع واعتذر بما تقدم قال للنبى ﷺ: ولكن أعينك بمالى، فأنزل الله تعالى: ﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم﴾ (التوبة: ٥٣). والمحققون على أن الجدّ بن قيس تاب من النفاق وحسنت توبته ﷺ.

وقال بعض المنافقين لبعض: لا تنفروا فى الحرّ فأنزل الله تعالى: ﴿وقالوا لا تنفروا فى الحرّ قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون﴾ (التوبة: ٨١). وجاء المعتذرون من الأعراب وهم الضعفاء والمقلون، ليؤذن لهم فى التخلف فأذن لهم، وكانوا اثنين وثمانين رجلاً، وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر، وإظهار علة جرأة على الله ورسوله، وقد عناهم الله بقوله تعالى: ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ (التوبة: ٩٠).

وتخلف جمع من المسلمين منهم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، ومن غير عذر كانوا ممن لا يتهم فى إسلامهم، وستأتى قصتهم إن شاء الله تعالى.

أبو خيثمة يتخلف ثم يلحق برسول الله ﷺ

وكان ممن تخلف أبو خيثمة الأنصارى ﷺ فلما أن صار ﷺ ومضت أيام دخل أبو خيثمة على أهله فى يوم حار، فوجد امرأتين له فى عريشين لهما فى حائط قد رشت كل منهما عريشها، وبردتا فيها ماء، وهيأتا طعاماً، وكان اليوم يومئذ شديد الحر، فلما دخل نظر إلى امرأتيه وما صنعتا، فقال: رسول الله ﷺ فى الحر وأبو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء، ما هذا بالنصف، ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيئا لى زاداً، ففعلتا، ثم قدم نا ضحه فارتحل وأخذ سيفه ورمحه، ثم خرج فى طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه نزل بتبوك، وقد كان أبو خيثمة أدرك عمير بن وهب فى الطريق يطلب رسول الله ﷺ فترافقا حتى دنوا من تبوك، فقال أبو خيثمة لعمير: إن لى ذنباً فلا عليك أن تتخلف عنى حتى أتى رسول الله ﷺ، ففعل، فلما دنى أبو خيثمة قال الناس: هذا ركب مقبل، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة، فلما دنى نظروه قالوا: يا رسول الله هو والله أبو خيثمة، فلما أناخ أقبل على رسول الله ﷺ فقال له ﷺ: أولى لك يا أبا خيثمة. وأولى لك كلمة تهديد وتوعد، ثم أخبر رسول الله ﷺ خبره، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير ﷺ.

الرسول ﷺ فى ديار ثمود

ولما مر ﷺ بالحجر ديار ثمود سجى ثوبه على رأسه واستخف راحلته، وقال: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون خوفاً أن يصيبكم ما أصابهم.

وإنما سجى ثوبه على رأسه ﷺ لأن الغطاء يتبعه الفكر والاعتبار، فكأنه أمرهم بالفكر فى أحوال توجب البكاء من تقدير الله عز وجل على أولئك بالكفر، مع تمكينه لهم فى الأرض وإمهالهم فيها مدة طويلة، ثم إيقاع نقمته بهم وشدة عذابه، وهوسبحانه مقلب القلوب فلا يأمن المؤمن أن تكون عاقبته مثل ذلك.

ونهى ﷺ الناس أن يشربوا من مائها شيئاً، وأن يتوضئوا للصلاة، وأن يعجن منه، وأن يحاس به حيس، وأن يطبخ به طعام، والعجين الذى عجن به، أو الحيس الذى فعل به يعلفونه الإبل، والطعام الذى طبخ به يلقى ولا يأكلون منه شيئاً.

ثم ارتحل ﷺ بالناس ولم يزل سائراً بهم حتى نزل على البئر التى كانت تشرب منها الناقة، وأخبرهم ﷺ أنها تهب عليهم الليلة ريح شديدة، وقال: من كان له بعير فليشد عقاله، ونهى الناس فى تلك الليلة عن أن يخرج أحد منهم وحده بل معه صاحبه، فخرج شخص وحده لحاجته فخنق، وخرج آخر فى طلب بعير له ند فاحتملته الريح حتى ألقته فى جبل طيىء، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال: ألم أنهكم أن يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه، ثم دعا للذى خنق فشفى، والذى ألقته الريح بجبل طيىء أرسلته طيىء له ﷺ حين قدم المدينة.

دعاء النبى ﷺ يغيث الصحابة ﷺ

وكان رسول الله ﷺ يستخلف على عسكره أبا بكر الصديق ﷺ يصلى بالناس، واستعمل على حرس العسكر عباد بن بشر فكان يطوف فى أصحابه

على العسكر، وأصبح الناس يوماً ولا ماء معهم وحصل لهم من العطش ما كـاد يقطع رقابهم، حتى حكمهم ذلك علـى نحر إبلـهم ليشقوا أكراشـها ويشربوا ماءها، فعن عمر ﷺ خرجنا في حر شديد فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطـش، حتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده، وفي لفظ: على صدره، فشكوا ذلك للنبي ﷺ فقال له أبو بكر: يا رسـول الله قد عـودك الله من الدعاء خيراً فادع الله لنا، فقال: أتحب ذلك؟ قال: نعـم، فرفـع يديـه ﷺ فلم يرجعهما حتى أرسـل الله سحابة فمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا ما يحتاجون إليه. وذكر بعضهم: أن تلك السحابة لم تتجاوز العسكر، وأن رجـلاً من الأنصار قال لآخر متهم بالنفاق: ويحك قد ترى، فقال: إنما مطرنا بنوء كذا وكـذا، فـأنزل الله ﴿وتجعلـون رزقكـم أنكـم تكذبـون﴾ (الواقعـــة: ٨٢). أي: وتجعلون بذل شكر رزقكم تكذيبكم حيث تنسبون المطـر للأنـواء. وقيـل: إنـه قال له: ويحك هل بعد هذا شيء؟ قال: سحابة مارة. وفي لفظ: إنهم لما شكوا إليه شدة العطش قال: لعلي لو استسقيت لكم فسقيتم قلتـم بنـوء كـذا وكـذا، فقالوا: يا نبي الله ما هذا بحين أنواء، فدعـا رسـول الله ﷺ بماء فتوضـأ، ثـم قـام فصلى فدعا الله تعالى فهاجت ريح وثارت سحابة فمطروا حتى سال كـل واد، فمرّ رسول الله ﷺ برجل يغترف بقدحه وهو يقـول: هـذا نـوء كـذا.. فـنزلت الآية.

من أعلام نبوته ﷺ تعريف مكان الناقة الضالة

وضلت ناقته ﷺ يوماً فقال رجل من المنافقين الذين خرجوا معه: إن محمداً يزعم أنه نبى وأنه يخبركم بخبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته، فقال ﷺ: إن رجلاً يقول كذا وكذا وإنى والله لا أعلم إلا ما علمنى الله وقد دلنى الله عليها، إنها فى شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتونى بها، فذهبوا فوجدوها كذلك، فجاءوا بها.

قيل: وقع نظير هذا فى غزوة بنى المصطلق وأن الواقعة تعددت، وقيل: إنه من الاشتباه على بعض الرواة.

ولما قال ﷺ: إن رجلاً يقول كذا وكذا.. إلخ، جاء بعض الصحابة إلى رحله وقال لمن فى الرحل: والله لعجب فى شىء حدثناه رسول الله ﷺ عن مقالة رجل قال كذا وكذا وأخبر الله نبيه ﷺ به، فقال له بعض من فى الرحل: هذه المقالة قالها فلان قبل أن تأتى بيسير، يعنى: شخصاً حاضراً فى رحله، فقال: يا عباد الله فى رحلى داهية وما أشعر، أخرج، أى: عدو الله، من رحلى ولا تصحبنى فيقال: إنه تاب، ويقال: إنه لم يزل على شر حتى هلك.

كن أبا ذر من أعلام نبوته ﷺ

وتباطأ جمل أبى ذر ﷺ لما به من الإعياء فتخلف عن الجيش، فأخذ متاعه وحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً، فأدركه نازلاً فى بعض المنازل، وقبل مجيئه قالوا له: تخلف أبو ذر يا رسول الله أبطأ به بعيره، فقال:

دعوه فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه. ولما أشرف على ذلك المنزل ونظره شخص فقال: يا رسول الله هذا رجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا ذر، فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: رحم الله أبا ذر يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده. وكان كما قال ﷺ فقد مات وحده بالربذة رضي الله عنه، سكنها فى خلافة عثمان رضي الله عنه بسبب اختلاف وقع بينه وبين بعض الصحابة فى بعض ألفاظ القرآن وتفسير بعض من معانيه، فخشى عثمان وأبو ذر رضى الله عنهما اتساع الأمر فاستأذن أبو ذر عثمان رضى الله عنهما أن يسكن الربذة فأذن له فبقى بها حتى توفى وحده كما أخبر ﷺ.

لا يتوفى نبى حتى يؤمه رجل صالح

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: لما كنا بين الحجر وتبوك ذهب رسول الله ﷺ لحاجته بعد الفجر، وتبعته بماء فأبطأ حتى أسفر الناس بصلاة الفجر ولم يأتهم رسول الله ﷺ، فقدموا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فصلى بهم، فانتهى رسول الله ﷺ بعد أن توضأ ومسح خفيه إلى عبد الرحمن بن عوف وقد صلى ركعة، فصلى رسول الله ﷺ مع عبد الرحمن ركعة، ثم قام وأتى بالركعة الثانية وقال لهم بعد فراغه: أحسنتم أو أصبتم، ثم قال: لم يتوف نبى حتى يؤمه رجل صالح فى أمته. وهذا لا ينافى أنه ﷺ صلى خلف أبى بكر رضي الله عنه، بل قال ابن عباس رضى الله عنهما: لم يصل النبى ﷺ خلف أحد من أمته إلا خلف أبى بكر. والمراد صلاة كاملة، فلا ينافى فى صلاته ركعة خلف عبد الرحمن بن عوف و لم

ينقل أنه ﷺ صلى خلف أحد غير أبى بكر وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما. وتقدم أنه ﷺ كان يستخلف أبا بكر ﷺ على عسكره يصلى بالناس، فلعل ذلك فى بعض الأيام، فلا ينافى صلاة عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه بهم فى هذا اليوم، أو أنه كان يصلى مع أبى بكر ﷺ بعض القوم ومع النبى ﷺ بعض لكثرة القوم، فلما تأخر ﷺ فى قضاء الحاجة صلى عبد الرحمن ﷺ بالذين كانوا مع النبى ﷺ.

قلة ماء عين تبوك

ولما نزلوا بتبوك وجدوا عينها قليلة الماء، فاغترف رسول الله ﷺ غرفة بيده من مائها فمضمض بها فاه ثم بصقه، ففارت عينها حتى امتلأت. وعن حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما قال: بلغ رسول الله ﷺأن فى الماء قلة، أى: ماء عين تبوك، وقد قال لهم: إنكم تأتون غدا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تنالوها حتى يضحى النهار فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئا حتى آتى، وأمر مناديا نادى بذلك، فجئناها فإذا العين مثل الشراك تبض من ماء، وقد سبق إليها أربعة، وقيل: رجلان من المنافقين ومسا من مائها فسبهما رسول الله ﷺ لما بلغه ذلك، ثم أنهم غرفوا من تلك العين قليلا قليلا حتى اجتمع شىء فى شن فغسل رسول الله ﷺ وجهه ويديه ومضمض ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء كثير. وفى رواية: فجعلوا فيها سهاما دفعها إليهم فجاشت بالماء.

وقال ﷺ لمعاذ ﷺ: يا معاذ يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هنا قد ملىء جنانا، أى: بساتين، فرأى ذلك وكان كما قال ﷺ.

ناموا عن صلاة الصبح

وقبل قدوم تبوك بليلة نام رسول الله ﷺ فلم يستيقظ حتى كانت الشمس قيد رمح، وقد كان قال لبلال ﷺ: اكلأ لنا الفجر، فأسند بلال ظهره إلى راحلته فغلبته عيناه، ثم قال له ﷺ: ألم أقل لك يا بلال اكلأ لنا الفجر. وفى رواية: إن بلالا قال لهم: ناموا وأنا أوقظكم فاضطجعوا و لم يستيقظوا إلا بحر الشمس، فقال له رسول الله ﷺ: أين ما قلت؟ قال: يا رسول الله ذهب بى مثل الذى ذهب بك. وفى رواية: أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك. قال ﷺ للصديق ﷺ: إن الشيطان صار يهدىء بلالا للنوم كما يهدأ الصبى للنوم حتى ينام، ثم دعا رسول الله ﷺ بلالا فسأله عن سبب نومه، فأخبره بما قاله النبى ﷺ للصديق، فقال الصديق ﷺ للنبى ﷺ: أشهد أنك رسول الله، ثم انتقل ﷺ غير بعيد ثم صلى الصبح قضاء.

حفظك الله بما حفظت به نبيه ﷺ

وفى منصرفه ﷺ من تبوك قال أبو قتادة ﷺ: بينما نحن مع رسول الله ﷺ وهو قافل من تبوك وأنا معهم إذ خفق خفقة- وهو على راحلته- فمال على شقه، فدنوت منه فدعمته فانتبه، فقال: يا أبا قتادة هل لك فى التعريس، أى: النزول للنوم، فقلت: ما شئت يا رسول الله، قال: انظر من خلفك فنظرت فإذا رجلان أو ثلاثة فقال: ادعهم، فقلت: أجيبوا رسول الله ﷺ فجاءوا فعرسنا. وفى رواية: قال أبو قتادة: فبينما رسول الله ﷺ يسير حتى أبهار الليل- وأنا إلى جنبه- فنعس فمال عن راحلته، فدعمته من غير أن أوقظه حتى اعتدل على

راحلته، ثم سار حتى إذا تهور الليل مال ميلة أخرى فدعمته حتى اعتدل على راحلته، ثم سار حتى إذا كان من آخر السحر مال ميلة- هى أشد من الميلتين الأولتين- حتى كاد يسقط فدعمته، فرفع رأسه فقال: من هذا؟ قلت: أبو قتادة، قال: متى كان هذا مسيرك معى؟ قلت: ما زال هذا مسيرى منذ الليلة، قال: حفظك الله بما حفظت به نبيه ﷺ. وذكر بعضهم ذلك عند منصرفه من خيبر، فيحتمل تعدد ذلك، أو أنه من الاشتباه على بعض الرواة.

منزل حضرنا فيه الشيطان

ثم قال أبو قتادة ﷺ: ثم قال رسول الله ﷺ: هل ترى من أحد؟ يعنى من الجيش، قلت: هذا راكب، ثم قلت: هذا راكب آخر اجتمعنا وكنا سبعة. وفى رواية: خمسة برسول الله ﷺ، فمال رسول الله ﷺ عن الطريق ثم قال: احفظوا علينا صلاتنا، فنمنا حتى خرج الوقت، وكان أول من استيقظ رسول الله ﷺ والشمس فى ظهره، فقمنا فزعين، ثم قال: اركبوا فركبنا، فسرنا حتى ارتفعت الشمس، ثم دعا بميضئة كانت معى فيها شيء من ماء فتوضأ منها وبقى فيها شيء. وفى رواية: جرعة من ماء، ثم قال: احفظ علينا ميضأتك فسيكون لها نبأ. فصلى بنا رسول الله ﷺ الفجر بعد طلوع الشمس، أى: بعد أن ارتحلوا. ففى رواية قال ﷺ: ارتحلوا فإن هذا منزل حضرنا فيه الشيطان.

إذا نام النبى ﷺ لم يوقظه أحد حتى يستيقظ

وفى البخارى عن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال: كنا فى سفر مع النبى ﷺ وإنا لنسير حتى كنا فى آخر الليل وقعنا وقعة، ولا وقعة أحلى من المسافر منها، فما أيقظنا إلا حر الشمس، وكان النبى ﷺ إذا نام لم يوقظه أحد حتى يكون هو يستيقظ، لأنا لا ندرى ما يحدث له فى نومه، أى: من الوحى، فكانوا يخافون من إيقاظه قطع الوحى. فلما استيقظ عمر ﷺ ورأى ما أصاب الناس، أى: من فوت صلاة الصبح، كبر ورفع صوته بالتكبير، فما زال يكبر ويرفع صوته بالتكبير، حتى استيقظ النبى ﷺ.

وفى رواية: أن الصديق استيقظ أولاً ثم لا يزال يسبح ويكبر حتى استيقظ عمر، ولا زال يكبر حتى استيقظ رسول الله ﷺ، فلما استيقظ شكوا إليه الذى أصابهم، أى: من فوات صلاة الصبح، فقال ﷺ: لا ضير ارحلوا، فارتحلوا، فسار غير بعيد ثم نزل فدعا بالوضوء فتوضأ، ونودى بالصلاة فصلى بالناس. وعن بعض الصحابة ﷺ قال: وبعد أن صلينا وركبنا جعل بعضنا يهمس إلى بعض، ما كفارة ما صنعنا من تفريطنا فى صلاتنا؟ فقال النبى ﷺ: ما هذا الذى تهمسون دونى؟ قلنا: يا نبى الله تفريطنا فى صلاتنا، قال: أما لكم فىَّ أسوة، ثم قال: ليس فى النوم تفريط، إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجىء وقت الأخرى.

وقد اختلفت الروايات فى حكاية هذه القصة، فرواها بعضهم فى غزوة خيبر، وبعضهم فى الحديبية، وبعضهم فى تبوك، فاختلف العلماء فى توجيه

ذلك، فذهب بعضهم إلى تعدد القصة، وبعضهم حمل ذلك على الاشتباه من الرواة، وجزم بعضهم بأنها فى غزوة تبوك.

واستشكل هذا النوم بقوله ﷺ: نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا. وأجيب بأن القلب إنما يدرى المعانى المتعلقة به لا ما يتعلق بالعين كرؤية الشمس وطلوع الفجر.

من أعلام نبوته نبع الماء من بين أصابعه

ثم إن أكثر الجيش كان قد تقدم، وما بقى معه ﷺ إلا سبعة أو خمسة كما تقدم، فقال ﷺ لمن كان معه: ما ترون الناس؟ يعنى: الجيش، فعلوا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: لو أطاعوا أبا بكر وعمر رشدوا، وذلك أن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما أرادا أن ينزلا بالجيش على الماء، فأبوا ذلك عليهما فنزلوا عند زوال الشمس على غير ماء بفلاة من الأرض لا ماء بها، وقد كانت أعناق الخيل والركاب تنقطع عطشا، فقال ﷺ: أين صاحب الميضأة؟ فقيل: هو ذا يا رسول الله، قال: جئنى بميضئتك، فجاء بها وفيها شىء من ماء. وفى رواية: دعا رسول الله ﷺ بالركوة فأفرغ ما فى الأدواء فيها، ووضع أصابعه الشريفة عليها فنبع الماء من بين أصابعه وأقبل الناس فاستقوا وفاض الماء حتى رووا وروت خيلهم وركابهم. قال بعضهم: وواضح أن هذا العطش غير المتقدم الذى دعا فيه رسول الله ﷺ فنزل المطر.

وفى كلام بعضهم أن رسول الله ﷺ لما حصل للقوم العطش أرسل نفرا من أصحابه وفيهم على والزبير رضى الله عنهما، لكن تقدم أن عليا ﷺ تخلف فى

غزوة تبوك، فإن صح إرساله مع النفر فلعله لحق النبى ﷺ، أو أن ذلك كان فى غزوة أخرى بعث ﷺ ذلك النفر لطلب الماء، وأمرهم أن يتعرضوا الطريق، وأعلمهم أن عجوزا تمر فى محل كذا على ناقة معها سقاء، فقال لهم: اشتروا منها ماءها بما عز وهان، وائتوا بها مع الماء، فلما بلغوا ذلك المكان، إذا بالمرأة ومعها السقاء فسألوها عن الماء، فقالت: أنا وأهلى أحوج إليه منكم، فسألوها أن تأتى رسول الله ﷺ مع الماء فأبت وقالت: هذا الساحر. وفى رواية: الذى يقال له الصابىء، وخير الأشياء أن لا آتيه، فشدوها وساقا وأتوا بها رسول الله ﷺ، فقال لهم: حلوا عنها، ثم قال لها: أتأذنين لى فى الماء ولتصيبن ماءك كما جئت به، قالت: شأنكم، فقال لأبى قتادة ﷺ: هات الميضأة، فقربت إليه محل السقاء، وتفل فيه وصب فى الميضأة ماء قليلا، ثم وضع يده فيه، ثم قال ادنوا منى فجعل الماء يفور ويزيد، والناس يأخذوا منه حتى ما تركوا معهم إناء إلا ملأوه وأرووا إبلهم وخيلهم، وبقى فى الميضأة ثلثاها. والميضأة هى الأداوة التى يتوضأ منها.

وهذا السياق يدل على أن هذا العطش ثالث، لأن الثانى وضع ﷺ يده فى الركوة التى صب فيها فى الميضأة، وفى هذا وضع يده فى الميضأة بعد أن لم يجدوا فى الميضأة شيئا. وفى رواية: أن تلك المرأة أخبرته ﷺ أنها مؤتمة، أى: لها التام، فقال للقوم: هاتوا ما عندكم فجمعوا لها فى كسر وتمر، ثم قال لها: اذهبى واطعمى هذا عيالك. وفى رواية: أينا ملك، وصارت تعجب مما رأت، ولما قدمت على أهلها قالوا لها: لقد احتبستى علينا، فقالت: حبسنى أنى رأيت عجبا أرأيتم مزادتى هاتين فوالله لقد شرب منهما قريب من تسعين نفرا، وملؤا

فى القرب والمزاد، وأعطاهما ما لا أحصى، ثم هما الآن أوفر منهما يومئذ، فإما أن يكون هذا الرجل أسمر أهل الأرض، وإما يكون نبى كما يقول، فكان الصحابة يغزون على من كان حولها ممن لم يسلم ويتركونها وقومها، فكان الناس يقولون: ما رأينا امرأة أدخلت على قومها من البركة مثل ما أدخلت هذه المرأة على قومها.

من أعلام نبوته ﷺ تكثير الطعام

وفى مسلم لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة بحيث صارت تمص التمرة الواحدة جماعة يتناوبونها فقالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فننحر نواضحنا فأكلنا وادَّهنا، فقال عمر ﷺ: يا رسول الله إن فعلت فنى الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، وادع الله لهم فيها بالبركة لعل الله أن يجعلها فى ذلك، فقال رسول الله ﷺ: نعم، فدعا بنطع فبسطه ثم دعاهم بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يأتى بكف ذرة، ويجىء الآخر بكف من تمر، ويجىء الآخر بكسرة، حتى اجتمع على النطع من ذلك شىء يسير، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة، ثم قال لهم، خذوا فى أوعيتكم، فأخذوا حتى ما تركوا فى العسكر وعاء إلا ملأوه، وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة فقال رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بها عبد غير شاك فيحجب عن الجنة.

وفى رواية: إلا وقاه الله من النار. وتقدم نظير ذلك فى الرجوع من غزوة الحديبية ولا مانع من التعدد.

ولعل هذا كان بعد أن أذبح لهم طلحة بن عبيد الله جزورا فأطعمهم وسقاهم، فقال له رسول الله ﷺ: أنت طلحة الفياض، وسماه يوم أحد طلحة الخير، ويوم حنين طلحة الجود، لكثرة إنفاقه على العسكر ﵁.

من أعلام نبوته ﷺ تكثير السمن والتمر

وعن بعض الصحابة ﵁ قال: كنت فى غزوة تبوك على نحى السمن، فنظرت إلى النحى وقد قل ما فيه، وهيأت للنبى ﷺ طعاما ووضعت النحى فى الشمس ونمت، فانتهيت بخرير النحى فقمت فأخذت رأسه بيدى، فقال رسول الله ﷺ وقد رأى: لو تركته لسال الوادى سمنا.

وعن العرباض بن سارية ﵁ قال: كنت مع رسول الله ﷺ بتبوك فقال ليلة لبلال: هل من عشاء؟ فقال: والذى بعثك بالحق لقد نفضنا جربنا، فقال: انظر عسى أن تجد شيئا، فأخذ الجرب ينفضها جرابا جرابا فتقع التمرة والتمرتان حتى رأيت فى يده ﷺ سبع تمرات، ثم دعا بصحفة فوضع التمر فيها، ثم وضع يده الشريفة على التمرات وقال: كلوا بسم الله، فأكلنا ثلاثة أنفس، وأحصيت أربعا وخمسين تمرة أعدها عدا عدا ونواها فى يدى الأخرى، وصاحباى يصنعان كذلك، فشبعنا ورفعنا أيدينا، فإذا بالتمرات السبع كما هى، فقال: يا بلال ارفعها فإنه لا يأكل منها أحد إلا نهل شبعا.

فلما كان من الغد عاد ﷺ بلالاً بالتمرات، فوضع ﷺ يده الشريفة عليهن ثم قال: كلوا باسم الله، فأكلنا حتى شبعنا، وإنا لعشرة، ثم رفعنا أيدينا، وإذا التمرات كما هى، فقال رسول الله ﷺ: لولا أن استحى من ربى لأكلنا من

هذه التمرات حتى نرد إلى المدينة من آخرنا، فأعطاهن غلاماً فولى وهو يلوكهن.

خالد بن الوليد يفتح دومة الجندل

ولما وصل ﷺ تبوك أرسل خالد بن الوليد ﷺ فى أربعمائة فارس إلى أكيدر ابن عبد الملك النصرانى- وكان ملكاً عظيماً من قبل هرقل بدومة الجندل، وذلك حصن وقرى بينها وبين الشام خمس ليال- وقال له: إنك ستجده ليلاً يصيد البقر، فانتهى إليه خالد وقد خرج من حصنه فى ليلة مقمرة إلى بقر يطاردها هو وأخوه حسان، فشدت عليه خيل خالد فاستأسروا أكيدر وقتلوا حساناً، وكان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب، فاستلبه خالد وبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه، فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم فيعجبون منه، فقال ﷺ: أتعجبون من هذا؟ فو الذى نفسى بيده لمناديل سعد- يعنى سعد بن معاذ- فى الجنة أحسن من هذا. وهرب من كان معهما فدخلوا الحصن وأغلقوه، ثم أجاز خالد أكيدر من القتل حتى يأتى به رسول الله ﷺ على أن يفتح لخالد دومة الجندل، وصالحه على ألفى بعير، وثمانمائة فرس، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح، ففتح الحصن، فدخله خالد وأخذ ما صالحه عليه وخمَّسه، ثم قدم بأكيدر على النبى ﷺ فحقن ﷺ دمه وصالحه على الجزية وخلى سبيله.

كتاب رسول الله ﷺ لأهل أيلة وجرباء وأذرح وميناء

وأتاه ﷺ وهو بتبوك يوحنا بن روية وهو صاحب أيلة ومعه أهل جرباء- وهى قرية بالشام- وأهل أذرح- مدينة هناك- فأهدى صاحب أيلة لرسول الله ﷺ بغلة بيضاء، فكساه ﷺ بردا، فصالح رسول الله ﷺ على إعطائه الجزية، بعد أن عرض عليه الإسلام فلم يسلم، وكتب له ﷺ ولأهل أيلة كتاباً صورته: (بسم الله الرحمن الرحيم هذا أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنا بن رؤية وأهل أيلة، سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر، لهم ذمة الله ومحمد النبى، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحوز ماله دون نفسه وإنه لطيبة لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر).

وكتب لأهل أذرح وجرباء ما صورته: (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب محمد النبى لأهل أذرح وجرباء، أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار فى كل رجب وافية طيبة، والله كفيل بالنصح والإحسان إلى المسلمين).

وصالح ﷺ أهل ميناء على ربع ثمارهم.

إغاظة الكفار وعز المسلمين وفضيحة المنافقين

وأقام ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة، وقيل: عشرين ليلة، ولم يجاوزها، ولم يلق كيداً، وفرّ الناس من أهل الكتاب وغيرهم رعباً منه ﷺ عند سماعهم بمسيره

ﷺ، فكان من حكمة الله تعالى فى هذه الغزوة ما حصل من إغاظة الكفار، وظهور عز المسلمين، وفضيحة المنافقين وإذلالهم.

النبى ﷺ يدفن ذا البجادين بيده الشريفة

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: رأيت وأنا بتبوك شعلة من نار فى ناحية العسكر، فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وإذا عبد الله ذو البجادين المزنى قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ فى حفرته، وأبو بكر وعمر يدليانه، وهو يقول: أدليا إلىَّ أخاكما، فأدلياه إليه، فلما هيأه لشقه قال: اللهم قد أمسيت راضياً عنه فارض عنه. يقول ابن مسعود: يا ليتنى كنت صاحب الحفرة، أى: والبجاد الكساء المخطط الغليظ، لأنه لم يكن لعبد الله المذكور رضي الله عنه إلا بجاداً واحداً فشقه نصفين فأتزر بواحد وارتدى بالآخر. وقدم المدينة وأسلم وقرأ قرآناً كثيراً، وكان اسمه عبد العزى فسماه رسول الله ﷺ عبد الله، ولما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك خرج معه وقال: يا رسول الله ادع الله لى بالشهادة، فقال له ﷺ: ائتنى بلحاء شجرة، أى: بقشرها، فأتاه بذلك فربطه ﷺ على عضده وقال: اللهم حرم دمه على الكفار، قال: يا رسول الله ليس هذا ما أردت، قال: إنك إذا أخذتك الحُمى فقتلتك لأنت شهيد، فأخذته الحُمى بعد الإقامة بتبوك أياماً ومات بها رضي الله عنه.

الرسول ﷺ يرجع للمدينة دون قتال

واستشار ﷺ أصحابه فى مجاوزة تبوك، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا

رسول الله إن كنت أمرت بالسير فسر، فقال ﷺ: لو أمرت بالسير لم أستشركم فيه، فقالوا: يا رسول الله إن للروم جموعا كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنونا، وقد أفزعهم دنوك، فلو رجعنا هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله أمرا.

وخطب ﷺ خطبة فيها: أما بعد، فإن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله عز وجل، والنساء حبالة الشيطان، والشباب شعبة من الجنون، والسعيد من وعظ بغيره، ومن يغفر يغفر له، ومن يعف يعف الله عنه، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله.. استغفر الله لى ولكم.

وأهدى له ﷺ بعض أهل الكتاب جبنة، فدعا بالسكين فسمى الله وقطع وأكل ﷺ، ثم انصرف ﷺ قافلا إلى المدينة، وبنى فى طريقه عشرين مسجدا.

من أعلام نبوته ﷺ وهو راجع إلى المدينة

وكان فى الطريق ماء يخرج من وشل قليل جدا، فقال رسول الله ﷺ: من سبقنا إلى ذلك الماء فلا يستقين منه شيئا حتى نأتيه، فسبق إليه نفر من المنافقين فاستقوا الماء الذى فيه، فلما أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه فلم يجد فيه شيئا، فقال: من سبقنا إلى هذا الماء؟ فقيل له: فلان وفلان، فقال: أو لم أنههم أن يستقوا منه شيئا حتى آتيه، ثم لعنهم ودعا عليهم، ثم نزل ﷺ فوضع يده تحت الوشل فصار يصب فى يده ما شاء الله أن يصب، ثم نضحه به ومسحه بيده، ودعا رسول الله ﷺ بما شاء أن يدعو به، فانخرق من الماء،

وكان له حس كحس الصواعق، فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه، فقال ﷺ: لئن بقيتم أو أبقى منكم أحد لتسمعن بهذا الوادى وقد أخضب ما بين يديه وما خلفه، أى: وهذا خلاف عين تبوك التى تقدم له ﷺ فيها ما يشبه هذا. وقوله لمعاذ: يا معاذ يوشك إن طالت بك حياة أن ترى ما هنا ملىء جناناً إلى آخره، لأن تلك العين كانت بتبوك وهذا عند منصرفه من تبوك ﷺ.

المنافقون يضمرون كيدا برسول الله ﷺ

واجتمع رأى من كانوا معه من المنافقين وهو إثنا عشر رجلاً، وقيل: أربعة عشر، وقيل: خمسة عشر رجلاً، على أن ينكثوا برسول الله ﷺ فى العقبة التى بين تبوك والمدينة، فقالوا: إذا أخذ فى العقبة دفعناه عن راحلته فى الوادى، فأخبر الله تعالى رسوله بذلك، فلما وصل الجيش العقبة نادى منادى رسول الله ﷺ: إن رسول الله ﷺ يريد أن يسلك العقبة فلا يسلكها أحد، واسلكوا بطن الوادى فإنه أسهل لكم وأوسع، فسلك الناس بطن الوادى وسلك رسول الله ﷺ العقبة، فلما سمعوا بذلك المنافقين استعدوا وتلثموا وسلكوا العقبة، وأمر ﷺ عمار بن ياسر رضى الله عنهما أن يأخذ بزمام الناقة يقودها، وأمر ﷺ حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما أن يسوق من خلفه.

وفى الدلائل عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما قال: كنت ليلة العقبة آخذ بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به وعمار بن ياسر يسوقه، أو أنا أسوقه وعمار يقوده، أى: يتناوبا ذلك، فبينا رسول الله ﷺ يسير فى العقبة إذ سمع حس القوم قد غشوه فنفرت ناقة رسول الله ﷺ حتى سقط بعض متاعه،

فغضب رسول الله ﷺ وأمر حذيفة أن يردهم، فرجع حذيفة إليهم وقد رأى غضب رسول الله ﷺ ومعه محجن، فجعل يضرب به وجوه رواحلهم وقال: إليكم إليكم يا أعداء الله، فإذا هو بقوم ملثمين. وفى رواية: إنه ﷺ صرخ بهم فولوا مدبرين، فعلموا أن رسول الله ﷺ اطلع على مكرهم به. فانحطوا من العقبة مسرعين إلى بطن الوادى واختلطوا بالناس. فرجع حذيفة يضرب الناقة، فقال له رسول الله ﷺ: هل عرفت أحداً من الركب الذين رددتهم؟ قال: لا، كان القوم ملثمين، والليلة مظلمة.

وعن ابن عمرو الأسلمى ﷺ أنه كان يقول: لما سقط متاع النبى ﷺوأردت جمعه نور لى فى أصابعى الخمس فأضاءت حتى جمعت ما سقط، حتى ما بقى من المتاع شىء.

النبى ﷺ يفضح كيد المنافقين

وفى لفظ قال حذيفة: عرفت راحلة فلان وراحلة فلان، قال: هل علمت ما كان من شأنهم وما أرادوه؟ قال: لا، قال: إنهم مكروا ليسيروا معى فى العقبة فيزحمونى فيطرحونى منها، إن الله أخبرنى بهم وبمكرهم وسأخبر كما بهم واكتماهم. فلما أصبح رسول الله ﷺ جاء إليه أسيد بن حضير فقال: يا رسول الله ما منعك البارحة من سلوك الوادى فقد كان أسهل من سلوك العقبة، فقال: أتدرى ما أراد المنافقون وذكر القصة، فقال يا رسول الله: قد نزل الناس واجتمعوا، فمر كل بطن أن يقتل الرجل الذى همَّ بهذا، فإن أحببت بيّن بأسمائهم، والذى بعثك بالحق لا أبرح حتى آتيك برءوسهم، فقال ﷺ:

إنى أكره أن يقول الناس إن محمدا قاتل بقوم حتى أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم، فقال: يا رسول الله هؤلاء ليسوا بأصحاب، فقال رسول الله ﷺ: أليس يظهرون الشهادة؟!! ثم جمعهم رسول الله ﷺ وأخبرهم بما قالوه، وما أجمعوا عليه، فحلفوا بالله ما قالوا ولا أرادوا الذى ذكر، فأنزل الله تعالى: ﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر﴾ (التوبة: ٧٤) وأنزل الله تعالى: ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ (التوبة: ٧٤). ودعا عليهم رسول الله ﷺ فقال: اللهم أرمهم بالدبيلة، وهى سراج من نار يظهر بين أكتافهم حتى ينجم من ظهورهم.

صاحب سر رسول الله ﷺ

وكان يقال لحذيفة ﷺ: صاحب سر رسول الله ﷺ، قال حذيفة: نزل رسول الله ﷺ عن راحلته فأوحى الله إليه وراحلته باركة، فقامت تجر زمامها فلقيتها فأخذت بزمامها، وجئت إلى قرب رسول الله ﷺ فأنختها، ثم جلست عندها حتى قام النبى ﷺ فأتيته بها، فقال: من هذا؟ قلت: حذيفة، فقال النبى ﷺ: إنى مسر إليك سرا فلا تذكرنه، إنى نهيت أن أصلى على فلان وفلان، وعد جماعة من المنافقين فلما توفى ﷺ كان عمر بن الخطاب ﷺ فى خلافته إذا مات الرجل ممن يظن به أنه من أولئك، أخذ بيد حذيفة ﷺ فناداه إلى الصلاة عليه، فإن مشى معه حذيفة صلى عليه سيدنا عمر ﷺ، وإن انتزع يده من يده ترك الصلاة عليه.

وقال ﷺ عند انصرافه: إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا

كانوا معكم، قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: نعم، حبسهم العذر.

قصة مسجد ضرار

ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذى أوان- محل بينه وبين المدينة ساعة من نهار- وقال البكرى: أظن أن الراء سقطت من بين الهمزة والواو أى أروان منسوب إلى البئر المشهور. وحين نزل ﷺ أتاه خبر مسجد الضرار فأنزل الله تعالى: ﴿والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله﴾ (التوبة: ١٠٧) أى: لإضرار أهل قباء، فإن بنى عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء حسدتهم أخوتهم بنو تميم بن عوف، وقالوا: نصلى فى مربط حمار لا لعمر الله، أى: لأنه كان لامرأة تربط فيها حمارها، ولكننا نبنى مسجداً، ونرسل إلى رسول الله ﷺ يصلى فيه ويصلى فيه. أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام، فيثبت لنا الفضل والزيادة على إخوتنا، وكان المسلمون فى تلك الناحية كلهم يصلى فى مسجد قباء، فلما بنى هذا المسجد صرف عن مسجد قباء جماعته وصلوا بذلك المسجد، فكان به تفريق للمؤمنين، فكانوا يجتمعون فيه ويعيبون النبى ﷺ ويستهزئون به، ويقال: إن أبا عامر الراهب الذى سماه النبى ﷺ الفاسق هو الآمر لهم ببنائه، فقال لهم: ابنوا لى مسجداً واستمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح، فإنى ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتى بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه من المدينة. وأنهم لما فرغوا من بنائهم أرسلوا إلى النبى ﷺ أن يأتيهم ويصلى فيه كما يصلى فى مسجد قباء، فهمَّ أن يأتيهم فأنزل الله تعالى الآية.

وفى رواية: أتوه ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه وتدعو لنا بالبركة، قال: إنى على جناح سفر وحال شغل، ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه، فلما قفل من المسير وسألوه إتيان المسجد، جاءه ﷺ الخبر من السماء، فأمر جماعة منهم وحشى قاتل حمزة ﷺ وقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاحرقوه واهدموه على أصحابه، ففعل به ذلك. وكان ذلك بين المغرب والعشاء ووصل الهدم إلى الأرض، وأعطاه ﷺ لثابت بن أرقم ﷺ يجعله بيتاً.

ولما أشرف ﷺ على المدينة قال: هذه طابة اسكننيها ربى تنفى خبث أهلها كما ينفى الكير خبث الحديد. فلما قرب منها خرج الناس لتلقيه ﷺ، وقد كان المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبى ﷺ أخبار السوء، يقولون: إن محمدا وأصحابه قد جهدوا فى سفرهم وهلكوا، فلما بلغتهم سلامة النبى ﷺ وأصحابه وبان لهم كذبهم ساءهم ذلك، وأنزل الله تعالى: ﴿إن تصبك حسنة تسوءهم﴾ (التوبة: ٥٠).

الفرح بقدومه ﷺ

وخرج مع الناس لتلقيه ﷺ النساء والصبيان والولائد، وصعدت المخدرات على الأسطحة يقلن:

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعى لله داع

أيها المبعوث فينا   جئت بالأمر المطاع

وقد ذكر بعضهم هذا عند مقدمه إلى المدينة، ولا مانع من تعدد ذلك.

ولما دخل المدينة ﷺ قال له العباس بن عبد المطلب ﷺ: أتأذن لى يا رسول الله أن أمتدحك قال: قل لا فض الله فاك فقال:

من قبلها طبت فى الظلال وفى   مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد لا بشر   أنت ولا مضغة ولا علق
بل نطفة تركب السفين وقد   ألجم نسرا وأهله الغرق
تنقل من صالب إلى رحم   إذا مضى عالم بدا طبق
وردت نار الخليل مكتتما   فى صلبه أنت كيف يحترق
حتى احتوى بيتك المهيمن من   خندف علياء تحتها النطق
وأنت لما ولدت أشرقت الأر   ض فضاءت بنورك الأفق
فنحن فى ذاك الضياء وفى   النور وسبل الرشاد نخترق

موقفه ﷺ من المخلفين المنافقين

ولما دنا من المدينة تلقاه أيضاً عامة الذين تخلفوا، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: لا تكلموا رجلاً منهم ولا تجالسوهم حتى آذن لكم، فأعرض عنهم رسول الله ﷺ والمسلمون حتى أن الرجل ليعرض عن أبيه وأخيه.

وعن فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ لما غزا غزوة تبوك جهد الظهر جهداً

شديدا حتى صاروا يسوقونه، فشكوا إليه ﷺ ذلك، ورآهم يسوقونه، فوقف ﷺ فى مضيق والناس يمرون فيه فنفخ فى الظهر وقال: اللهم احمل عليها فى سبيلك، فإنها تحمل على القوى والضعيف، والرطب واليابس، فى البر والبحر، فزال ما بها من الإعياء، وما دخلنا إلا وهى تنازعنا أزمتها. وهى من معجزاته ﷺ.

وقد كان تخلف من المنافقين بضعة وثمانون رجلا. وتخلف أيضا كعب بن مالك رضي الله عنه وكان من الخزرج، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية رضى الله عنهما، ولم يكن الثلاثة من أهل النفاق.

فأما المنافقون فجعلوا يحلفون ويعتذرون، فقبل رسول الله ﷺ ظاهرهم وعلانيتهم واستغفر لهم، ووكل سريرتهم إلى الله تعالى.

قصة الثلاثة الذين خلفوا

وأما الثلاثة فأرجأهم وأخر أمرهم ينتظر أمر الله تعالى فيهم، وأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم﴾ (التوبة: ١٠٦). نزلت هذه الآية فى أول أمرهم، ونزل فى آخر أمرهم عند قبول توبتهم رضي الله عنهم: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ (التوبة: ١١٨).

وكان كعب بن مالك رضي الله عنه يحدث عن تخلفه وصاحبيه فى غزوة تبوك، ففى البخارى عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك: أن عبد الله بن كعب بن مالك- وكان قائد كعب من بنيه حين عمى، وكان بنيه أربعة عبد الله، وعبد الرحمن، ومحمد، وعبيد الله- قال: سمعت أبى كعب بن مالك

يحدث عن حديثه حين تخلف عن قصة تبوك، قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها إلا فى غزوة تبوك، غير أنى كنت تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب، أى: الله، أحدا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم، أى: بين المسلمين، وبين عدوهم كفار قريش على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة مع الأنصار حين تواثقنا، أى: تعاهدنا، وتعاقدنا على الإسلام والإيواء والنصرة قبل الهجرة، وما أحب أن لى بها، أى: بدلها، مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر، أى: أعظم ذكر فى الناس منها، كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر، أى: منى- كما فى مسلم- حين تخلفت عنه ﷺ فى تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندى قبله راحلتان قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوةً إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا وعددا كثيرا، وذلك أن الروم جمعت جموعا كثيرة، وهرقل رزق أصحابه لسنة، وأجلبت معه لخم وجذام وغسان، وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء فجلى، أى: أوضح، للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم ﷺ بوجهه الذى يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد الديوان، أى: لكثرتهم، قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى، أى: لكثرة الجيش، مالم ينزل فيه وحى، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال. وفى رواية ابن موسى بن عقبة عن ابن شهاب: فى قيظ شديد فى ليالى الخريف، والناس خارفون فى نخيلهم.

وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت فأخذت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئا من جهازى، فأقول فى نفسى: أنا قادر عليه متى شئت، فلم يزل يتمادى بى الحال حتى اشتد بالناس الجد، وهو الجهد فى الشيء والمبالغة فيه، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئا، فقلت: أتجهز بعده ﷺ بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئا، ثم غدوت ثم رجعت، ولم أقض شيئا فلم يزل بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو، أى: فات وسبق، وهممت أن أرتحل فأدركهم- وليتنى فعلت ذلك- فلم يقدر لى ذلك (فيه أن المرء إذا لاحت له فرصة فى الطاعة فحقه أن يبادر إليها ولا يسوف بها لئلا يحرمها)٠

قال كعب: فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، أحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق، أى: يظن به النفاق، ويتهم به، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجل من بنى مسلمة وهو عبد الله بن أنيس السلمى الصحابى المشهور: يا رسول الله حبسه برداه (تثنية برد) ونظره فى عطفيه، أى: جانبيه، كناية عن كونه معجبا بنفسه، ذا زهو وتكبر، أو لباسه، أو كنى به عن حسنه وبهجته٠ والعرب تصف الرداء بصفة الحسن وتسميه عطفا لوقوعه على عطفى الرجل، فقال معاذ ابن جبل ﷺ له: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا، فسكت رسول الله ﷺ٠ قال كعب بن مالك: فما بلغنى أنه ﷺ توجه قافلا، أى: راجعا إلى المدينة٠

حضرنى همى فطفقت أتذكر الكذب. وعند ابن أبى شيبة: وطفقت أعد العذر لرسول الله ﷺ إذا جاء، وأهيىء الكلام وأقول بماذا أخرج من سخطه، واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما، أى: دنا قدومه، زاح، أى: زال عنى الباطل، وعرفت أنى لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب، فأجمعت صدقه، أى: جزمت به، وعقدت عليه قصدى. ولابن أبى شيبة: وعرفت أنه لا ينجينى منه إلا الصدق. وأصبح رسول لله ﷺ قادما فى رمضان كما قال ابن سعد.

وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع ركعتين فركعها، ثم جلس للناس فلما فعل ذلك، جاءه المتخلفون الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم عن غزوة تبوك فطفقوا يعتذرون، أى: يظهرون العذر إليه ﷺ، ويحلفون له- وكانوا بضعة وثمانين رجلا من منافقى الأنصار قاله الواقدى- وأن المعذرين من الأعراب كانو أيضا اثنين وثمانين رجلا من غفار وغيرهم، وأن عبد الله بن أبى ابن سلول ومن أطاعه من قومه من غير هؤلاء، وكانوا عددكثير فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، أى: ظواهرهم، وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى.

قال كعب: فجئته ﷺ فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب بفتح الضاد، ثم قال: تعال أمشى حتى جلست بين يديه، وعند ابن عائذ فى مغازيه: فأعرض عنه، فقال: يا نبى الله لم تعرض عنى فوالله ما نافقت ولا ارتبت ولا بدلت؟ فقال لى: ما خلفك عن الغزو؟ ألم تكن قد ابتعت، أى: اشتريت ظهرك، قال: فقلت: بلى، إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج

من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلا وفصاحة وقوة كلام، بحيث أخرج من عهدة ما ينسب إلى مما يقبل ولا يرد، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخط على، ولئن حدثتك اليوم حديث صدق تجد، أى: تغضب، على فيه إنى لأرجو فيه عفو الله عنى، لا والله ما كان من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضى الله فيك ما يشاء، فقمت وثار رجال من بنى سلمة فاتبعونى، فقالوا لى: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك، أى: من ذنبك، استغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا يؤنبونى، أى: يلوموننى لوما عنيفا، حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى، ثم قلت لهم: هل لقى هذا معى أحد؟ قالوا: نعم رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما: مثل ما قيل لك. فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية الواقفى بنسبة إلى بنى واقف ابن امرؤ القيس.

وعند ابن أبى حاتم من مرسل الحسن أن سبب تخلف الأول أنه كان له حائط حين زهى، فقال فى نفسه: قد غزوت قبلها، فلو أقمت عامى هذا فلما تذكر ذنبه، قال: اللهم إنى أشهدك أنى قد تصدقت به فى سبيلك. وأن الثانى كان له أهل تفرقوا ثم اجتمعوا، فقال: لو أقمت هذا العام عندهم فلما تذكر ذنبه، قال: اللهم لك على أن لا أرجع إلى أهلى ولا مالى فذكروا رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة. قال كعب: فمضيت حين ذكروهما لى،

أى: الرجلين.

درس تربوى للمريدين

ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، أى: خصوصا الثلاثة، كقوله: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت، أى: تغيرت، فى نفسى الأرض، فما هى الأرض التى أعرف لتوحشها علىّ، وهذا يجده الحزين والمهموم فى كل شىء حتى يجده فى نفسه.

قال السهيلى: وإنما اشتد الغضب على من تخلف، وإن كان الجهاد فرض كفاية، لكنه فى حق الأنصار فرض عين، لأنهم كانوا بايعوا على ذلك، ومصداق ذلك قولهم وهم يحفرون الخندق: نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا، فكان تخلفهم عن هذه الغزوة كبيرة، لأنه كالنكس لبيعتهم.

وعند الشافعية: أن الجهاد كان فرض عين فى زمنه ﷺ.

قال كعب: فلبثنا على ذلك خمسين ليلة - استنبط منه جواز الهجران أكثر من ثلاث. وأما النهى عن الهجر فوق ثلاث فمحمول على من لم يكن هجرانه شرعى - فأما صاحباى مرارة وهلال فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشد القوم، أى: أقواهم وأجلدهم، فكنت أخرج فاشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف، أى: أدور، فى الأسواق ولا يكلمنى أحد، وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة وأقول فى نفسى: هل

حرك شفتيه برد السلام على أم لا؟ إنما لم يجزم بتحريك شفتيه ﷺ لأنه لم يكن يديم النظر إليه من الخجل. ثم أصلى قريبا منه فأسارقه النظر، أى: أنظر إليه فى خفية، فإذا أقبلت على صلاتى أقبل ﷺ إلى، وإذا التفت نحوه أعرض عنى، حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس، أى: من إعراضهم، مشيت حتى تسورت، أى: علوت، جدار حائط أبى قتادة الحارث بن ربعى الأنصارى ﷺ، أى: بستانه، وهو ابن عمى لأنه من بنى سلمة- وليس هو ابن عمه أخا أبيه الأقرب- وأحب الناس إلى فسلمت عليه، فوالله ما رد على السلام لعموم النهى عن كلامه- فقلت: يا أبا قتادة أنشدك، أى: أسألك، بالله هل تعلمنى أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته، أى: فسألته، بالله كذلك، فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، وليس ذلك تكليم لكعب لأنه لم ينو به ذلك لأنه منهى عنه، بل أظهر اعتقاده، فلو حلف لا يكلم زيدا فسأله عن شىء فقال: الله أعلم ولم يرد جوابه ولا أسمعه فلا يحنث، ففاضت عيناى حتى تسورت الجدار للخروج من الحائط.

قال: فبينا أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط أهل الشام فلاحا- وكان نصرانيا ولم يسمعه- ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له إلى، يعنى ولا يتكلمون، مثلا بقولهم هذا كعب، مبالغة فى هجره والإعراض عنه، حتى إذا جاءنى دفع إلى كتابا من ملك غسان جبلة بن الأيهم، أو هو الحارث بن أبى شمر.

وعند ابن مردويه: فكتب إلى كتابا فى سرقة من حرير، فإذا فيه: أما بعد، فإن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، أى: حيث

يضيع حقك، فالحق بنا نواسك- من المواساة- فقلت لما قرأتها، أي: الصحيفة المكتوب فيها، وهذا أيضا من البلاء.

وعند ابن أبى شيبة: قد طمع فى أهل الكفر فتيممت، أى: قصدت بها التنور، أى: الذى يخبز فيه، فسجرته، أى: أوقدته، بها وهذا يدل على قوة إيمانه، وشدة محبته لرسول الله ﷺ.

وعند ابن عائذ: أنه شكا حاله إلى رسول الله ﷺ وقال: ما زال إعراضك عنى حتى رغب فى أهل الشرك.

شدة البلاء بداية الفرج

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ، قال الواقدى: هو خزيمة بن ثابت، قال: وهو الرسول إلى مرارة وهلال بذلك، ولأبى ذر إذا رسول لرسول الله ﷺ يأتينى فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك عميرة بنت جبير الأنصارية، أم أولاده الثلاثة، أو هى زوجته الأخرى خيرة، فقلت: أأطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبى مثل ذلك، فقلت: لامرأتى الحقى بأهلك فتكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر، فلحقت بهم.

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية خولة بنت عاصم رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضايع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربك- بالجزم على النهى- قالت: إنه والله ما به حركة إلى شىء، والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

قال كعب: فقال لى بعض أهلى- قال: فى الفتح لم يقف على اسمه- واستشكل هذا مع النهى عن كلام الثلاثة منه ﷺ، وأجيب بأنه عبر عن الإشارة بالقول فلم يقع الكلام اللسانى وهو المنهى عنه. قال ابن الملقن: وهذا بناء منه على الوقوف عند اللفظ وإطراح جانب المعنى وإلا فليس المقصود بعدم المكالمة عدم اللفظ باللسان فقط، بل المراد هو وما كان بمثابته من الإشارة المفهمة لما يفهمه القول باللسان. وقد يجاب بأن النهى كان خاصا بمن عدا زوجة هلال وغشيانه إياها، وقد أذن لها فى خدمته، ومعلوم أنه لا بد فى ذلك من مخالطة وكلام، فلم يكن النهى شامل لكل أحد، وإنما هو شامل لمن لا تدعو حاجة هؤلاء إلى مخالطته، وكلامه من زوجة وخادم ونحوذلك.

فلعل الذى قال لكعب من أهله: لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك لتخدمك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، كان ممن لم يشمله النهى، قال كعب: قلت والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدرينى ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب قوى على خدمة نفسى، فلبثت بعد ذلك عشرة ليال كملت ـ بفتح الميم ـ لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة.. فلما صليت صلاة الفجر صابح خمسين ليلة- وأنا على ظهر بيت من بيوتنا- فبينا أنا جالس على الحال التى قد ذكر الله، قد ضاقت على نفسى، أى: قلبى، لا يسعه أنس ولا سرور من فرط الوحشة والغم، وضاقت على الأرض بما رحبت. رحبها، أى: سعتها، وهو مثل للحيرة فى أمره، كأنه لا يجد فيها مكانا يقر فيه قلقا وجذعا، وإذا كانوا هؤلاء لم يأكلوا مالا حراما، ولا سفكوا دما حراما، ولا أفسدوا فى

الأرض، وأصابهم ما أصابهم، فكيف بمن واقع الفواحش والكبائر؟!!.

وجواب بينا قوله: سمعت صوت صارخ أوفى، أى: أشرف، على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، وكان الذى أوفى على سلع أبا بكر الصديق، فصاح: قد تاب الله على كعب، قال كعب: فخررت ساجدا شكرا لله، وعرفت أنه قد جاء فرج، وآذن، أى: أعلم، رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الناس صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا أيها الثلاثة بتوبة الله علينا، وذهب قبل صاحبى مرارة وهلال مبشرون يبشرونهما، وركض إلى رجل فرسا. وعند الواقدى: أنه الزبير ﷺ، وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل، وكان الصوت أعلى من الفرس، فلما جاءنى الذى سمعت صوته هو حمزة الأسلمى يبشرنى، نزعت له ثوبى فكسوته إياهما ببشراه لى بتوبة الله تعالى على، والله ما أملك من الثياب غيرهما يومئذ- وقد كان له مال غيرهما كما صرح به فيمًا يأتى- واستعرت ثوبين، أى: من أبى قتادة كما عند الواقدى، فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فيتلقانى الناس فوجا فوجا- جماعة جماعة- يهنونى، ولأبى ذر يهنوننى بالتوبة يقولون: لتهنك توبة الله عليك. قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحتى وهنانى، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره- وكانا أخوين آخا النبى ﷺ بينهما- وذكر أهل المغازى: أنه كان أخا الزبير، لكن كان الزبير أخا فى أخوة المهاجرين، فهو أخو أخيه. ولا أنساها لطلحة، أى: هذه الخصلة، أى: لا أزال أذكر إحسانه إلى بذلك، وكنت رهين مسرته. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ،

قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك، أى: سوى يوم إسلامه وهو مستثنى تقديرا وإن لم ينطق به، أو أن يوم توبته مكمل ليوم إسلامه، فيوم إسلامه بداية سعادته، ويوم توبته مكمل لها، فهو خير من جميع أيامه، وإن كان يوم إسلامه خيرها، فيوم توبته المضاف إلى إسلامه خير من يوم إسلامه المجرد عنها. قال كعب: قلت أمن عندك يا رسول الله أم عند الله تعالى؟ قال: لا، بل من عند الله. زاد ابن أبى شيبة: أنتم صدقتم الله فصدقكم.

وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف منه ذلك، فلما جلست بين يديه ﷺ قلت: يا رسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسول الله، أى: صدقة خالصة لله ولرسوله، قال رسول الله ﷺ له خوفاً من تضرره بالفقر وعدم صبره على الإضاقة: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك، قلت: فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر، فقلت: يا رسول الله إن الله إنما نجانى بالصدق وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحد من المسلمين أبلاه الله، أى: أنعم عليه، فصدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا كذباً، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيت.

وأنزل الله على رسوله: ﴿لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار﴾ (التوبة: ١١٧) أى: تجاوز عنه إذنه للمنافقين فى التخلف كقوله تعالى: ﴿عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم﴾ (التوبة: ٤٣) ﴿والمهاجرين والأنصار﴾ فيه حث

للمؤمنين على التوبة، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبى ﷺ والمهاجرين والأنصار، وإن تفاوتت مراتب التوبة إلى قوله تعالى: ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ (التوبة: ١١٩) فى إيمانهم دون المنافقين، أو مع الذين لم يتخلفوا، فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدقى لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته، أى: أن أكون كذبته فلا زائدة كقوله تعالى: ﴿ما منعك ألا تسجد﴾ (ص: ٧٥) فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم﴾ (التوبة: ٩٥) أى: رجعتم إليهم من الغزو إلى قوله: ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ (التوبة: ٩٦) أى: فإن رضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطا عليهم، وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها. قال كعب: وكنا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله تعالى: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ (التوبة: ١١٨) وليس الذى ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه ﷺ.

وقدم ﷺ من تبوك فى رمضان سنة تسع، وبعد قدومه ﷺ وجد عويمر العجلانى امرأته حبلى فقذفها بشريك بن سحماء، فلاعن بينهما ﷺ فى المسجد بعد العصر، بعد أن دعا عويمر وقال له: اتق الله فى زوجتك وابنة عمك فلا تقذفها بالبهتان، ودعا امرأته خويلة وقال لها: اتقى الله ولا تخبرينى

إلا بما صنعت. . وقصتهما طويلة فى الصحيحين وغيرهما.

حكمة حوادث غزوة تبوك

تقرر أن الله بعث حبيبه ومصطفاه ﷺ رحمة للعالمين، فكانت كل أعماله صلوات الله عليه وأحواله لا تخلو من حكمة، بل من حكم لا تحصى، وأسرار لا تستقصى. فإن أعماله ﷺ فى المغازى أكمل دروس عملية يتلقاها المجاهدون منه ﷺ ويلقونها على أبنائهم ومن بعدهم، وهى الأصول التى يستنبط منها الفقيه الأحكام الشرعية عزائمها ورخصها، وهى الروض الجنى الذى يقتطف منه مريد الله سبحانه وتعالى أكمل أزهار الآداب والأخلاق، وأجمل أنواع المعاملات، وهى المشهد الذى يتجلى فيه كمال الإخلاص لله، وحقيقة الصدق مع الله، وحسن الثقة به سبحانه وتعالى، ويتحلى فيه شاهده بحلة الزهد فى الدنيا، والرغبة فى الآخرة، وبذل النفس والنفيس فى محبة الله سبحانه، وإعلاء كلمته جل جلاله.

والجهاد هو الحجة الواضحة التى تقوم للإنسان أو عليه بأنه مؤمن كامل، أو منافق جاهل، هذه الحكم التى يمكن أن يشهدها عامة المسلمين بلا روية ولا بحث، وهناك مشاهد أخرى تتجلى لأهل القلوب من الصديقين والشهداء إن شاء الله تعالى ألمع عند ذكر حوادث تبوك إلى شىء من تلك المشاهد. فحكمة الجهاد إذا تجلت للعقول تتحقق أن الجهاد هو الرحمة الحقيقية لجميع بنى الإنسان، لأن بالجهاد محو لأمراض فتاكة بالنفوس تجعلها تخلد فى مهاوى غضب الله، ولولا الجهاد ما ظهر الحق وزهق الباطل، ولا أمن

الناس على أنفسهم وأموالهم، ولا عرف الناس ربهم وسارعوا إلى العمل بما يحب، ولا تحقق المؤمن أن الملك حقا الكبير المتعال الدائم ملكه الدائم سلطانه هو الله، وأن كل من عداه عبد مقهور وإنسان مربوب، وإنما تكون له السلطة إذا قام منفذا لأحكام الله، مقيما لحدود الله، فيكون السلطان لله، والحكم لله، والأمر والخلق لله، وإنما هو عبده مثلنا مقيم لحدود الله، منفذا لأحكامه سبحانه، لولا الجهاد لما انتشر العدل بين العالم، ولا ظهرت رحمة القلوب الرحيمة، وقهرت على العدل النفوس الخبيثة، فالجهاد رحمة الله العامة، ونعمته التى يتفضل بها على عباده، وما تركه قوم من المسلمين إلا ديثوا بالذل والصغار، وسيموا بالخسف.

لم تكن غزوة تبوك من المغازى التى يجب أن ننظر إليها نظر من يريد أن يعلم بعض سيرته ﷺ، ولكنها غزوة كشفت الستار عن غوامض تجلت للقلوب والأبصار، كمل الله بها دينه، وأتم بها شرعه، وميز بها بين عباده، ووضح بها سبل الوصول إلى حضرته، ومواطن محابه سبحانه ومساخطه، حتى ظهر أن المؤمن لا ينبغى له أن يخالف فى مندوب، ولو خالف فى مندوب ندب الله إليه ورسوله لكاد يخرج عن الإسلام.

فغزوة تبوك كأنها الكاشفة لحقائق لا بد منها للمؤمن وإليكها.

١-بيان مقام الصحابة رضي الله عنهم فى بذل ما لهم

تجلت مقاماتهم العلية رضي الله عنهم عندما حثهم رسول الله ﷺ على النفقة والرواحل، فسبق الصديق الأكبر وهو السباق رضي الله عنه فدخل ومعه الفاروق رضي الله عنه،

فقدم سيدنا عمر ما أحضره لله ورسوله، وقدم أبو بكر الصديق ﷺ، فسأل رسول الله ﷺ الفاروق فقال: بما جئت؟ قال: بنصف مالى وتركت النصف الآخر لأولادى، وقال الصديق الأكبر: جئت بكل مالى وتركت الله ورسوله لأولادى، هذا مقام التفاوت بالعلم بالله، ومنزلة كمال التمكين فى التجمل بمقام العبد لله سبحانه، قال الله تعالى: ﴿والذين أوتوا العلم درجات﴾ (المجادلة: ١١).

أما سيدنا على بن أبى طالب ﷺ فإنه متحقق ببيع نفسه وماله، لا يرى له نفسا ومالا يقربه، لأن النفس والمال مملوكان لله سبحانه ولرسوله ﷺ، والمملوك لا يسأل أن يقرب شيئا.

قام أمير المؤمنين سيدنا عثمان بن عفان ﷺ بتجهيز ثلث الجيش، وقدم سيدنا عبد الرحمن بن عوف مائتى أوقية، حتى ظهور نور الإيمان المشرق على القلوب جليا ظاهرا على الجوارح، وأقاموا الحجة ﷺ أن الله ورسوله أحب إليهم من أنفسهم وأموالهم وأهليهم وأوطانهم، ولكنهم درجات عند الله، وكلهم علماء حكماء، أمدنا الله بخير الدنيا والآخرة ببركتهم.

وقام كل مسلم بتقديم ما لديه حتى قام البرهان على أنهم جميعا ﷺ خزن الله المحفوظة لطلبه وأمره، وأنصار الله المستعدون للجهاد فى سبيله لإعلاء دينه وكلمته، حتى صار المؤمن يلوح فى محياه نور الرضا عن الله، والفرح بما دعاه الله إليه وأقامه فيه من العمل لإعلاء كلمته سبحانه.

ثم ظهرت ظلمات النفاق الكامنة فى القلوب على الوجوه، فصارت عليها

غبرة ترهقها قترة، وصدق الله العظيم قال سبحانه وتعالى: ﴿وجوه يومئذ مسفرة ۞ ضاحكة مستبشرة ۞ ووجوه يومئذ عليها غبرة ۞ ترهقها قترة ۞ أولئك هم الكفرة الفجرة﴾ (عبس: ٣٨-٤٢) فصار المؤمن يعرف حق المعرفة أخاه المؤمن بما جمله الله به من كمال الرضا عن الله، والبذل في الله، والمسارعة إلى الجهاد في إعلاء كلمة الله وطاعة لرسول الله ﷺ، ويعرف المنافق حقا بما على وجهه من ظلمات النفاق وخزى الضلال، وغبرة الجهالة بالله، وقترة المخالفة لرسول الله، ثم كشف الله عنهم ستره حتى ظهروا للمؤمنين حقا، وتبينوا لهم صدقا، وصدق الله العظيم قال تعالى: ﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ (آل عمران: ١٧٩)، وقال تعالى: ﴿ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا﴾ (الأنفال: ٣٧)، وقال تعالى: ﴿آلم ۞ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ (العنكبوت: ١، ٢). فكان حث رسول الله ﷺ المؤمنين على النفقة فتنة من الله تعالى، أظهر الله بها مكنون القلوب، وخفى النفوس، قال الله تعالى: ﴿ قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات والأرض والله على كل شىء قدير﴾ (آل عمران: ٢٩). فكان المنافقون كما قال الله تعالى: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ (المنافقون: ٤). فأظهر الله سبحانه بتلك الغزوة ما انطوت عليه قلوبهم، ولا يزال المؤمن يعرف المؤمن والمنافق، فإن المؤمن يسارع ببذل ماله فى مراضى الله تعالى، والمنافق

يبغض أن يبذل ماله إلا فى معاصى الله سبحانه وتعالى، ولا تزال علامات المنافقين جلية فى حركاتهم وسكناتهم وأعمالهم وهممهم، وعلامات المؤمنين جلية فى وسيم محياهم، ونور الإيمان لا يحجبه شيء، وظلمة النفاق لا يحجبها شيء.

٢-القصور لا يجعل كامل الإيمان يرضى بالقعود

معلوم أن الله سبحانه وتعالى لا يعاقب من لا طاقة له ممن قصر به الحال، وإنما العقوبة لمن أمكنه أن يعمل وقصر، ولكن المؤمن الكامل ولو أقعده الحال وعدم الوسعة بذل نفسه ولو أنه فقدها ليقوم عاملا لله سبحانه. وأحوال أهل المحبة ومواجيدهم العلية لا تخفى على أهل الذوق، فإن باعث المحبة يدعوهم إلى الخروج عن الاعتدال وهو الاعتدال، وعمل ما لا تطيقه النفوس البشرية، والشرف إلى ما هو فوق الهمم، وكم أخرجت المحبة أهلها إلى أحوال لا تتحملها الجمادات، وأعمال يراها العقل مستحيلة، ظهرت تلك الحقيقة جلية فى نفر من الصحابة ﷺ ممن أقعدهم الجهد عن مشاركة أهل اليسار فى الجهاد، فتوجه سبعة منهم إلى رسول الله ﷺ أى: يرجون منه الزاد والراحلة ليجاهدوا فى سبيل الله، فاعتذر إليهم رسول الله ﷺ، واعتذار رسول الله ﷺ إليهم كان يجب أن يسقط الواجب عليهم الذى طالبتهم أنفسهم الزكية به، ولكن مع اعتذار رسول الله ﷺ إليهم نظروا فى أنفسهم أنها تحرم هذا المشهد، وتفقد مجلس رسول الله ﷺ، وحضور الصلوات معه ﷺ، ونصرته وقهر عدوه، فحزنوا الحزن الذى كاد يذيب قلوبهم.

علام يبكون ﷺ؟! أقصروا فى حق واجب عليهم، أم تساهلوا فى مرغب فيه؟ لا والله، ولكنهم تمثلوا ما يحرمونه لقعودهم فى المدينة، واعتقدوا أن تخلفهم عن رسول الله من أعظم البلايا وأشد الرزايا، فبكوا على أنفسهم، لا لتقصير ولكن رغبة أن يساعدهم الله سبحانه فيشهدهم ما يحبه من المشاهد العلية من تلك الحادثة التى أثنى الله تعالى ورسوله ﷺ بها عليهم، يمكننا أن نسلم أحوال أهل المحبة ومواجيد أهل المعرفة التى تدعوهم أن يخرجوا عن الاعتدال فى نظر جاهل، فقد يترك الرجل النعيم والترف والقصور والرياض ويفر إلى الصحارى، وقد يترك الجاه والملك ويخرج إلى الغابات فيعيش على ورق الشجر وماء العيون متلذذا بحاله، فرحا بالنعمة، وقد يفر من أهله وجيرانه وأقاربه والناس أجمعين إلى الله تعالى، ويهجر كل مألوفاته وعوائده، وقد.. وقد. وقد تقدم ذكر أسمائهم ﷺ فى الغزوة. هذا وإن أهل المحبة ما اشتاقوا إلى شىء لله فى الله إلا يسره الله تعالى ولو كان مستحيلا عادة، فإنهم ﷺ التمسوا من رسول الله ﷺ الزاد والراحلة فاعتذر، فألحوا حتى أقسم لهم بالله أنه لا يحملهم، بعد أن قال لهم: لا أجد ما أحملكم، فحزنوا حزنين: حزن لأنهم لم يفوزوا برغائبهم، وحزن لأنهم ألحوا على رسول الله ﷺ حتى أقسم. ولأهل المحبة مخاوف لا تسطر على صفحات الأوراق، وقد ألمعنا إلى شىء منها فى باب المحبة من كتاب (أصول الوصول). ولكنهم ﷺ مع هذا لم تقف همتهم حتى يسر الله لهم ما يحبونه، وحملهم الله سبحانه وتعالى، وقال لهم رسول الله ﷺ: إنى ما حملتكم ولكن حملكم الله تحلة ليمينه.

ولأهل المحبة عيون يشرفون بها على الغيب المصون، فإن أصحاب رسول

الله ﷺ ما ألحوا فى الطلب إلا وهم يعتقدون في الله سبحانه وتعالى الذى يحبونه أنه لا يحرمهم تلك المشاهد الربانية. أنظر إلى مسألة سيدنا يعقوب عليه السلام كيف كان على يقين أن الله يجمعه على ولده يوسف عليهما السلام بعد مضى الزمن الذى يوجب اليأس منه، لأن عيون أهل المحبة ترى ما لا يراه الناظرون.

٣-من لم ينظر بعيون الإيمان لا يسارع إلى نيل الرضوان

علمت أحوال أهل المحبة المشاهدين بعيون الإيمان جمال الملكوت الأعلى، ومسارعتهم إلى خوض عباب الشدائد الفادحة وبكاءهم حزنا على أنفسهم التى تتمتع بالنعيم بين الأهل والأولاد ولم تشهد المشاهد التى يشيب لها الوليد، من طول الشقة، ولقاء أشد الأعداء وألد الألداء.. فسبحان من لذذ أحبابه بشهود جماله في المظاهر التى لا تتحملها الجبال، وإليك بيان من لم يتفضل الله عليهم بعيون الإيمان التى تبصر الملكوت الأعلى، ونظروا بعيون العقول والرؤوس إلى جمال الملك الأدنى وملاذ الأشباح، لاحتجابهم عن مشاهد الأرواح، فكانوا كالأنعام بل هم أضل، لمسارعتهم إلى لذة عاجلة ليست فى الحقيقة ونفس الأمر لذة إلا لأنواع من أسفل طبقات البهائم، فإن لذة الأرواح الطاهرة والنفوس الزكية محصورة في مراضى الله ومحابه سبحانه، ولو كان فى ذلك الانغماس فى سعير النار، وكيف لا؟ وهى سنة أهل الخلة، فإن الخليل الأكبر ﷺ ألقى فى النار راضيا مرضيا، ونزه الله سره من أن

يشهد الأواسط والأسباب لاستغراقه فـي شـهود حقيقـة التوحيـد، لغلبـة الخلـة الماحقة لغير الخليل سبحانه وتعالى من قلبه وسره، حتى لقد أتاه الروح الأمين سائلا له عن حاجته فأبى إلا أن يفوض أمره إلا إلى علام الغيـوب، الـذى بيـده ملكوت كل شيء .

نظر أهل النفاق بعيون الرءوس، وسمعوا بآذان الرءوس، فلـم تصـل أنـوار النبوة إلى القلوب حتى تشرف على الغيوب، فكان ظاهرهم ظـاهر المسلمين، وباطنهم باطن من يقول: ﴿ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يـهلكنا إلا الدهر﴾ (الجاثية: ٢٤) . فكان دخولهم فـى الإسلام لتحفـظ أموالـهم وتحقـن دماؤهم، قال الله تعالى: ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ (البقرة: ٩)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وإذ لقوا الذين آمـنوا قـالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قـالوا إنـا معكـم إنمـا نحـن مستهزءون ۞ اللـه يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون﴾ (البقرة: ١٤،١٥) .

حتى كشف الله الستر عنهم بما ميز به بين عباده، فدعـاهم رسـول اللـه ﷺ إلى جهاد الروم فى سبيل الله، فكانوا كما قال الله تعالى: ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ (آل عمران: ٥٤) . أجمعوا على أن يخرجوا فى الجيش، ثم بعد مفارقة المدينة يعتذرون خديعة منهم لرسول الله ﷺ ولأصحابـه الكـرام ﷺ .

وسياسة قبح الله السياسة وأهلها، تجعل الباطل حقـا والحق بـاطلا، وكـم من وحوش كاسرة وشياطين مردة هم شر على بنى الإنسان من إبليس الرجيم،

يدعون أنهم أهل السياسة.

لم يرد المنافقون أن يمتنعوا عن الخروج فى المدينة خشية من أن يوقع بهم أصحاب رسول الله ﷺ، ولكن خرجوا ولا والله ما خرجوا لخير، أعمى الله عيون سرهم، وطمس بصائرهم، وأبعدهم عن شهود الخير الحقيقى، وسبطهم عن المسارعة إليه، ليتبين أحوال المؤمنين الذين أشهدهم الله بعيون الإيمان حقيقة الخير فسارعوا إليه، وبذلوا النفوس والنفائس مخلصين لله رب العالمين. تمكن المنافقون- أخزاهم الله بخديعتهم- حتى ميلوا إليهم أهل القلوب المريضة، والنفوس اللقسة، ورجع نمرودهم عبد الله بن أبى بن سلول ومعه قريبا من نصف الجيش، بعد أن اعتذروا لرسول الله ﷺ، وبعد أن كان يلاطفهم ﷺ للبقاء فى الجيش من الوجهة التى يميلون إليها ويرغبونها، رحمة منه ﷺ، وبيانا لما يجب على المرشد أن يدعو به أهل النفوس اللقسة تشريعا منه ﷺ لأمته، وحرصا منه ﷺ حتى لا يقولوا: نفرنا أوشدد علينا ﴿من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا﴾ (الكهف: ١٧).

ومن هذا أخذ المرشدون أنوار الحكمة، فترى المرشد حريصا على قوم، رءوفا رحيما بقوم، شديدا على قوم، سر قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين ۝ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ (الشعراء: ٢١٤، ٢١٥). اعتذر القوم لرسول الله ﷺ عذرا انتحلوه من عند أنفسهم، واعتقدوا أنهم بذلك نجوا من سخط رسول الله ﷺ، ذلك لجهلهم بالله كما قال الله تعالى: ﴿لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾ (الحشر: ١٣). فرجعوا إلى المدينة على يقين أن أحدا ممن مع

رسول الله ﷺ لا يرجع إلى المدينة، لعلمهم بكثرة الروم وقوتهم، وجهللهم بالقوة الإلهية التى فوق الأسباب التى أشهدها الله أصحاب رسول الله ﷺ، بما وهبهم من عيون الإيمان، بل وعيون الإحسان، وعيون الإيقان.

حكمة خفيت إلا على من واجههم الله تعالى بأنوار أسمائه الحسنى، وكاشفهم بغوامض التوحيد، وأشهدهم جمال ملكوته الأعلى، فكان تخلف هؤلاء مزيد إيمان لأصحاب رسول الله ﷺ، وقوة يقين لهم، وحب لما يحبه الله، وبغض لأعمال هؤلاء، وتصديق لوعد الله تعالى ولرسوله ﷺ، وحفظا لأصحاب رسول الله ﷺ من الاشتغال بالمنافقين، ومن الافتتان بهم لأنهم كالمرض المعدى، وتبين لجميع المسلمين الأعمال والأحوال والأخلاق التى يحبها الله، والتى يبغضها الله، فإذا ظهرت المعانى التى يحبها الله فى مسلم تحققنا أنه محبوب الله، لأن الله أثنى على أهلها، ومدحهم، وأمر بالمسارعة إليها، وإذا ظهرت الصفات التى يبغضها الله تعالى تحققنا أن الذى قامت به مبغوض لله، وعدو لكل مسلم وأن من جالسه أو جانسه أو مدح عمله عدو لله ولرسوله ﷺ.

لم تظهر تلك الحكم جلية لأصحاب رسول الله لأنهم عند رجوع المنافقين حزنوا، ولكن ما لبسوا إلا وقد واجههم الله تعالى بأنواره القدسية فشكروا الله على ما أنعم به عليهم، وما حفظهم من الوقوع فيه. وصارت حكمة تلك الحادثة تتجلى لهم حتى رجعوا إلى المدينة آمنين غانمين فرحين، وظهر الخزى والذل على المنافقين، وهكذا تنتج طاعة الله النصرة والعزة والمجد فى الدنيا، والرضوان الأكبر والفوز بمقعد صدق عند مليك مقتدر،

وتنتج معصية الله الذل والخزى والبلايا فى الدنيا، والغضب والعذاب فى الآخرة.. أعوذ بالله من موجبات غضبه.

تعب أصحاب رسول الله ﷺ معه أياما ورجعوا كما قال النابغة:

بلغنا السماء مجدنا وثناؤنا وإنا لنبغى بعد ذلك مظهرا

فقال له رسول الله ﷺ: أى مظهر تريده؟ قال: الجنة بك يا رسول الله إن شاء الله، فكان كل صحابى يكاد الفرح والسرور ينطق بلسان حاله، والعزة بالله ورسوله تظهر على جوارحه، وكان المنافق يكاد الذل والهوان والخيبة تنطق بلسان حاله، وصدق الله العظيم قال الله تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ (المنافقون: ٨) أسأل الله تعالى أن يجعلنا من المسارعين لمحابه ومراضيه، وأن يعيذنا بوجهه العظيم من مخالفته ومعاصيه، ومن البدع المضلة، إنه مجيب الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

٤-قلب المحبوبين لا يطمئن إلا بالحق اليقين

سنة أهل الخلة الأواهين الذين منحهم الله تعالى الشوق الحقيقى، وأعانهم بكمال عنايته، وجعلهم لا تقف بهم همتهم إلا إلى غاية الغايات ونهاية النهايات، ولا تطمئن قلوبهم إلا بالعيان مهما بلغت درجة الكشف فى البيان، والخليل الأكبر ﷺ إمامهم كما قال تعالى: ﴿ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل﴾ (الحج: ٧٨). سأل الله سبحانه وتعالى أن يريه كيف يحيى الموتى، قال له الله جل جلاله: أو لم تؤمن؟ فلو لم يكن السؤال من ذى همة علية لا تقف دون الغاية العظمى لصعق رهبة، ولكن صاحب المقام

الأعلى لا تقف همته دون الغاية التى لا غاية فوقها، فأجاب ربه سبحانه وتعالى قائلا: بلى ولكن ليطمئن قلبى، فبين ﷺ بإجابته لربه سبحانه وتعالى أن طمأنينة قلب الخليل لا تكون إلا بالعيان لا بالبيان، وكذلك كان أصحاب رسول الله ﷺ ممن على قلب الخليل ﷺ لا تطمئن قلوبهم إلا بالعيان، وأمامنا فى هذا أمير المؤمنين سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه- وهو أول من أحيا تلك السنة- استخلفه رسول الله ﷺ على المدينة، وكان يستخلف قبل ذلك عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه، فسمع وأطاع عليه السلام وهو يجد فى نفسه ما يجده خليل لرسول الله ﷺ من آلام مفارقته، وحزن الأسف على أن لا يشهد تلك المشاهد، وبلاء من أنه يقوم مقاما كان يقوم فيه رجلا ليس بصيرا، ولهفة من أن يكون بين أهله فى أمن ورسول الله ﷺ بين الأعداء، سمع وأطاع وفى نفسه ما فيها مما لا يصفه الواصف، ولولا قهر الأمر وكمال الرهبة فى قلبه من رسول الله ﷺ لالتمس منه ﷺ أن يصحبه، مكث فى المدينة كرم الله وجهه ورضى عنه وهو على أشد من جمر الغضى، وعلم المنافقون ما يريده رسول الله ﷺ من بقاء سيدنا على كرم الله وجهه بالمدينة، ونور الخلة الذى فى قلبه رضي الله عنه أخفى عنه أسرار تلك الحكمة، لأنه يعتقد أن نظرة فى وجه رسول الله ﷺ خير من الدنيا وما فيها، ومن النفس والأهل والمال والأولاد، فقام المنافقون- أخزاهم الله- وأشاعوا فى المدينة أن رسول الله ﷺ كره صحبة على كرم الله وجهه فأبقاه فى النساء، بعد أن بلغه ما يجده فى نفسه كرم الله وجهه، فكان كلامهم مع ما يجده رضي الله عنه مؤجج نيران حزنه وآلامه حتى اعتورته الأهوال، وجذبته بواعث الخوف على نفسه، وصار قلبه الكريم لا يطمئن بالبيان حتى

يبلغ حق اليقين بالعيان، فترك المدينة فارا إلى رسول الله ﷺ مستغيثا بجنابه المحمدى، واصلا الليل بالنهار، والنهار بالليل حتى وصل إلى رسول الله ﷺ، فعلم رسول الله ﷺ منه ما فى نفسه من الشوق الباعث، والخوف المحرق، فأدناه ﷺ بحنان وعاطفة أزالت ما يجده من أرجاف المنافقين، وواجهه ﷺ بود ولطف كشف له بهما أسرار حكمة بقائه فى المدينة، وقال له ﷺ: اخلفنى فى أهلى ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى. فتجلت له أنوار الحكمة التى أرادها ﷺ، وغوامض الأسرار التى تفضل الله بها عليه حتى أقامه مقام نفسه، وزال عنه كرم الله وجهه ما يجده من لبسه، فأقبل على الله آيبا إلى المدينة، مسرورا بما أنعم الله عليه من أكمل المقامات، وما أنزله الله تعالى فيه مما لم ينزل فيه أحد من الأئمة ﷺ، فكان ﷺ بمفرده فى المدينة كأنه رسول الله ﷺ، لما ملأ الله به قلوب المنافقين من الرعب والذل والخشية، وهى الحكمة التى أرادها رسول الله ﷺ، لأن تلك الغزوة بعيدة الشقة نائية عن المدينة وكان أكثر المسلمين المخلصين مع رسول الله ﷺ، والذين تخلفوا عنه ﷺ بعد الضعفاء من الصحابة ﷺ هم المنافقون، وكان لهم كيد يريدون أن يكيدوه ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (يوسف: ٢١). أما ما كان يحسن من إقامة عبد الله بن أم مكتوم ﷺ قبل تلك الغزوة، فإن تلك المغازى الأولى كانت على مقربة من المدينة، ورسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى فى أمر أو نهى.

٥-التفضيل للمنافسة والتفضيل للعصبية

وهنا يحسن بى أن أشير إلى أمر اقتضاه المقام، اشتغل بعض الناس بتفضيل بعض الصحابة على بعض، بالوجه الذى لا ينبغى أن يخوض عبابه مسلم يتقى الله ويخشى لقاءه، وإن عارضنى معارض لأن ذلك كان فى عهد رسول الله ﷺ، وفى زمن رسول الله ﷺ، أجيبه: بأن أصحاب رسول الله ﷺ كان الرجل منهم يقول أبو بكر فعمر ومرادهم بذلك المنافسة فى أن يجاهدوا أنفسهم ليتشبهوا بهما رضى الله عنهما، لأن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يرون أن أبا بكر نال ما له مما وفقه الله وأعانه عليه من بذل النفس والنفيس، ولم يكن التفضيل فى عصر رسول الله ﷺ للتفرقة بين جماعة المسلمين، ولكن ليتنافس كل مسلم لينال قسطا من تلك المواهب العلية، إن لم ييسر له الله تعالى نيلها جميعا، ومكث الناس كذلك فى عصر الصديق وعصر الفاروق رضى الله عنهما حتى دخل فى الإسلام الأعاجم والنصارى، وفتحت لهم الدنيا، كما أخبر ﷺ بقوله: إنى لا أخشى عليكم الفقر ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها .

فانتهى زمن التفضيل للمنافسة، وظهر زمن التفضيل للعصبية والمنافسة فى الدنيا، حتى تفرقت الكلمة، وسلت السيوف من المسلمين على بعضهم، لفتنة شيطان مارد، ولمة إبليس رجيم- نعوذ بالله منه- كما قال ﷺ: إن إبليس يئس أن يعبد فى جزيرة العرب ولكن لا يزال بينهم بالتحريش.

عجبا يقوم المسلمون فى وجوه بعضهم بعض، هذا يقول أبو بكر رضي الله عنه

ويقيم الأدلة، وهذا يقول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ويقيم الأدلة، ولو أن سيدنا الصديق الأكبر ﷺ قابل من تعصبوا له لعلى رءوسهم بسيفه فقتلهم لتفرقتهم للجماعة أو لفسوقهم عملا بقوله تعالى: ﴿إنما جزاؤا الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض أولئك لهم خزى فى الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ (المائدة: ٣٣). ولو واجههم سيدنا أمير المؤمنين على ابن أبي طالب كرم الله وجهه لقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو نفاهم من الأرض عقوبة لهم على جرأتهم على الله ورسوله، وعلي أحباب الله وصفوته من عباده أجمعين.

أيها المسلم ما الذى اعترى قلبك المعمور بنور القرآن حتى حجب أنوارالقرآن عنه، وسرك المجمل بحكمة رسول الله ﷺ حتى ألفت سرك عنها، وبلغ فيك سوء الأدب حتى تحكم حكما لم يحكم الله به ولا رسول الله ﷺ، ولا الأئمة الراشدين المرشدين، ولم يكن أصلا من أصول دينك طولبت بتحقيقه وعلمه، ولا مرغبا إليه سارعت لعمله، كل مسلم يحب كل مسلم كما يحب نفسه كما هى سنة المسلمين، ويحب له من الخير ما يحبه لنفسه هذا فى أهل عصره، ممن لم ير من رأى من رأى من رأى التابعين لأصحاب رسول الله ﷺ، فكيف بمن أحبهم رسول الله ﷺ، وأثنى الله عليهم وعطفهم عليه فى أكمل مقامات العناية بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ (الأنفال: ٦٤). فقوم عطفهم الله على جنابه المقدس فى مقام الولاية والعناية، وأثنى الله عليهم بقوله: ﴿رضى الله

عنهم ورضوا عنه﴾ (التوبة: ١٠٠)٠

أليس صغير هؤلاء ممن لم ير رسول الله ﷺ إلا مرة واحدة وثبت أنه من الصحابة أحب إلينا من أنفسنا، والله لا يكون جواب المسلم إلا بلى، هل قمنا لهم بما يجب علينا من الواجب لرجال سفكوا دماءهم، وبذلوا أموالهم، وتركوا دينهم وأوطانهم لإعلاء كلمة الله، وإحياء لسنة رسول الله ﷺ، حتى وصل إلينا هذا النور ونحن على بسط الأمن وفرش الراحة، والله لو أن المسلم حج ألف سنة، وجاهد ألف سنة، وتصدق بقدر أحد، وعتق ألف رقبة، ووهب ذلك لأصغر صحابي - أستغفر الله من قولي أصغر - لأن مسلما رأى رسول الله ﷺ يفتخر على عوالم الملكوت لنظره إلى وجه رسول الله ﷺ، لو فعل المسلم كل ذلك شكرا لله على ما أكرمه الله به من الخير على يد أصحاب رسول الله ﷺ، لكان مقصرا عاجزا عن القيام بما يجب لهم عليه، فكيف يبلغ من الضلال مبلغا يفضل به فلانا على فلان، ويدعوهم العناد إلى الوقوع في غضب الله بتنقيص من أقامهم الله مقام نفسه، وأنزلهم منازل رسله ﷺ ٠

أما أقامهم مقام نفسه سبحانه وتعالى فبقوله جل جلاله لرسوله: ﴿حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ (الأنفال: ٦٤)٠ أما إقامتهم مقام رسله عليهم الصلاة والسلام فبقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس﴾ (البقرة: ١٤٣)٠ والشهداء يوم القيامة هم رسل الله٠ استغفر الله أيها الأخ المسلم من لمة هذا الشيطان المارد، واجعل خشية الله فى قلبك، وعظم من عظم الله، ودع الحكم لله، فإنه لم يكل ذلك إليك، وما الذى ينالك أيها الأخ المسلم من تفضيل فلان على فلان، أذلك من أركان الإسلام،

أو شيء أوجبه الله عليك؟!!.

لا والله، ولكن تحرش الشيطان بيننا أدى هذا الكلام الصادر عن النفوس الخبيثة، والقلوب النجسة، إلى ذم بعض أصحاب رسول الله ﷺ، ثم إلى بغضهم، ثم إلى لعنهم على المنابر.

وسلت السيوف، وسالت الدماء، أعوذ بالله من الشيطان ومن دسائسه، ولا يزال فى المسلمين من يلعن بعض الصحابة جهلا بمقامهم ﷺ، لم يتمكن إبليس الرجيم- لعنه الله- من إفساد الدين لأنه دين الحق المكين، فسعى بخيله ورجله حتى فتح باب التفضيل بين المسلمين ليفسد أحوال من اتبعه، ويشغلهم عن العمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، أعاذ الله المسلمين من شره وكيده، وحفظ قلوبنا وأعاننا أن نشكره سبحانه وتعالى، ونشكر من أجرى إلينا النعمة على يديهم من أصحاب رسول الله ﷺ.

سبب التفرقة

ما يحصل بين أهل الطرق والمذاهب من التفضيل

لم يتفرق المسلمون إلى فرق متعددة إلا وأصل ذلك التفضيل، ولو أن كل مسلم ترك الحكم على غيره واجتهد فى الحكم على نفسه ليزكيها، لدام لنا المجد، وبقيت لنا السيادة، وسعدنا فى الدنيا والآخرة، ولكن تركنا ما يجب علينا لأنفسنا ولربنا سبحانه وتعالى ولرسول الله ﷺ، واشتغلنا بما حظره علينا الشرع الشريف، وقد بينت ما يجب على كل مسلم فى كتاب (النور

المبين لعلوم اليقين) فليراجعه من أراد أن يكون مع رسول الله ﷺ ولو كان فى آخر الزمان، وقد بينت ما يحصل بين أهل الطرق من التفضيل فى كتاب (تذكرة المرشدين والمسترشدين) أورده هنا مجملا لفائدة المطالع.

إخوانى منحنا الله الحلم والتأنى. اعلموا أنه من أشر الشرور أن يكره المسلم أخاه المسلم لغير معصية الله، وينفر منه ويعاديه كما يحصل بين أهل المذاهب وأهل الطرق، فإن أهل كل طريق يبغضون من لم يسلك طريقهم، ويعتقدون أنهم على الحق وأن غيرهم على الباطل، وقد يبلغ بهم العناد إلى أن يلعن بعضهم بعضا، ويكفر بعضهم بعضا، من غير بينة ولا حجة من كتاب ولا سنة، بل للحمية الجاهلية، والعصبية الجهنمية، ولو أنهم تأملوا قليلا لتبين لهم أنهم جميعا إخوانا فى الله، الإمام لنا القرآن، والنبى سيدنا ومولانا محمد ﷺ، وربنا جميعا الله تعالى، وأنه لا خلاف بيننا فى عقيدتنا، ولا فى عبادتنا، ولا فى معاملتنا، ولكن الشيطان نعوذ بالله منه ينزغ بين الأخ وأخيه ليوقعه فى عداوة من أوجب الله محبته، ومحاربة من أوجب الله تعالى عليه مسالمته، وقطيعة من أوجب الله تعالى صلته، ويا ليت ذلك يكون لله أو فى الله، بل لحظ متبع، وهوى مطاع، وتعصب لرأى قد يكون فاسدا، حتى أصبح أهل الطريق كأنهم وحوش متنافرة، يسعى كل فريق فى ضرر الآخر، خروجا من السنة، ومخالفة للكتاب العزيز، قال الله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾ (الحجرات: ١٠). فيا إخوانى جعلنى الله وإياكم نورا للقلوب، وانشراحا للصدور، كونوا رحماء حلماء حكماء، وأحبوا كل أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله حبا للكلمة، وحبا لله ولرسوله ﷺ،

وإياكم أن تتهاونوا بسنة من السنن الخفيفة أو المؤكدة، أو بركن من أركان الدين، أو يدفعكم عدوكم الشيطان إلى عداوة أخ من إخوانكم المسلمين، فإن ذلك كله مروق من أخوة الإيمان، ومخالفة للجماعة، إنما النسبة إلى المرشد نسبة تلقى العلم والأسرار، وليست نسبة تخرجكم عن الأخوة فى الله لكل مسلم، وإنما النسبة للمرشد تؤكد لكم روابط الأخوة، وتكشف لكم واجباتها، وتوضح لكم حقيقة المحبة فى الله تعالى، كما يجب على كل مسلم لإخوانه، نعم يجب عليك، أن تقول تلقيت عن العالم فلان، واسترشدت عليه، ونفعنى الله بعلمه، وأسعدنى الله بصحبته، ورويت عنه، وتسعى فى أن تدل عليه جميع إخوانك المسلمين ليتفقهوا فى دينهم بالحكمة والموعظة الحسنة، فإذا جهلت ونسيت فمدحته وذممت غيره، وعظمته وصغرت غيره، وأحببته وكرهت غيره، فقد خالفت طريق المتقين، كما أنك إذا تلقيت علومه، واسترشدت على يده، وأسعدك الله بحاله، ثم لم تنسب إليه لتظهر نفسك وتخفى المرشد كنت مدلسا، وربما أوقع هذا التدليس صاحبه فى نفاق به يكون فى الدرك الأسفل من النار، وخير الأمور الوسط، والخير كل الخير أن ينجى الله على يدك عباده، ويجمعهم من التفرقة، ويبين لهم الطريق المستقيم ليسلكوا عليه، هذا ليس من موضوع التاريخ فى شىء، ولكن العاقل من استوفى ما تقتضيه المناسبات حتى يكون قد نبه إخوته المؤمنين لما فى طريق الله من الشعب المتفرقة التى تبعد السالك عن مقصوده الأعظم، وتلفته إلى ما يضر ولا ينفع، والغاية تبرر الوسيلة.. والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمنحنا الحب الخالص فى الله وفى رسوله ﷺ، وأن يعيذنا جميعا من المعاصى التى

توجب النقم، وتغير النعم، وتهتك الحرم، وأن يهب لنا مواهب فضله العظيم، ويوردنا موارد أهل محبته المقربين.. إنه مجيب الدعاء.

٦٠-من جهل علم الله بما هو أخفى مما فى سريرته عصى الله مختفيا فى حجرته

معلوم أن الإيمان نور يباشر سويداء القلوب مباشرة تجعل المؤمن الكامل كأنه يرى الله حيث كان، فلا يغيب عنه نفسا، ولا يتحرك لغيره سبحانه وبغيره سبحانه وتعالى حركة، وتجعل المؤمن السالك على يقين كامل أن الله عالم بسره وجهره، كما قال سبحانه: ﴿يعلم السر وأخفى﴾ (طه: ٧). ويعتقد حق اليقين أنه سبحانه معه وإن لم يكن يره بعيون سره، هذا أقل مقامات أهل اليقين وأول معارج التوابين، ودون ذلك مهاوى أهل الكبائر، وسجن أهل النفاق، لأن أهل الكبائر غفلوا عن هذا العلم الذى يجعلهم يعتقدون أن الله يراهم، فستروا عن مواجهة أنوار هذا العلم، فوقعوا فى المعاصى، ثم تذكروا فأبصروا قال الله تعالى: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ (الأعراف: ٢٠١).

والمنافق أظلم أفق قلبه ولكن سلطان الحق قهره، فخاف من الخلق الذين أيدهم الحق بسلطانه، فأظهر ما لا يبطن تقية من سفك دمه وسلب ماله، كما قال الله تعالى: ﴿ومن الناس من يقولوا آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ۞ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ۞ فى

قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ (البقرة: ٨-١٠)٠ وهؤلاء نعوذ بالله منهم ومن حالهم، يظهرون أنهم مؤمنين خوفا من أهل الإيمان، وقلوبهم مظلمة بكثائف الكفر والشرك كما قال تعالى: ﴿يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ۞ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا﴾ (النساء: ١٤٢،١٤٣)٠صغر الحق فى قلوبهم وعظم سلطانه فى أعينهم كما قال الله تعالى: ﴿يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾ (النساء: ٧٧)٠ وقال تعالى: ﴿يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك﴾ (آل عمران: ١٥٤)٠ زين لهم الشيطان أنهم ستكون لهم دولة، والحق يعلوا والباطل يسفل كما قال الله تعالى: ﴿الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا﴾ (الفتح: ٦)٠ ولا يخلوا زمان ولا مكان من أهل النفاق، وإنما يظهرون للمؤمنين عند ظهور أنوار الحق وبيان كلامه الذى تحن إليه أرواح المؤمنين، فيظهر نفاقهم عند ذلك لبغضهم للحق وأهل الحق، ومحاربتهم لهم٠

زين للمنافقين الشيطان أن يكيدوا لرسول الله ﷺ وأصحابه كيدا، واجتمعوا فى دار سويلم اليهودى، ولو كانوا مؤمنين حقا لآمنوا بقوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ (الحديد: ٤)٠ ولآمنوا بقوله: ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا﴾ (المجادلة: ٧)٠ ووالله ما أظهروا الإيمان بألسنتهم إلا تقية السيف، اللهم أنى أسألك أن تجعل سيفك ماضيا مسلولا، وسلطانك ظاهرا منصورا، وأن تعز حزبك، وأنْ تذل أعداءك حتى يظهر الحق وينمحق

الباطل، إنك مجيب الدعاء.

سفهوا فى خلوتهم رأى رسول الله ﷺ لضلالهم، فلما أنبأه الله تعالى بما كانوا عليه وما قالوه، هموا أن يبرئوا أنفسهم، ولكن صولة الحق قهرتهم، فقالوا كما أخبر الله عنهم: ﴿إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون﴾ (التوبة: ٦٥). ولعنة الله على المنافقين أين كانوا وكيف كانوا، فإنهم كرهوا العمل بكتاب الله، والاهتداء بسنة رسول الله ﷺ، وسعوا فى إزاغة قلوب المؤمنين، وتفرقة جماعتهم، فهم المرض العضال فى الجسد الإسلامى، ولله فى بقائهم حكمة تنكشف لأهل المواجهة، يذوق رحيقها من كان فى مشاهدة تنزل حكيم قادر فى مقام تفصيل قال تعالى: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾ (الصف: ٨).

٧-المؤمن قد يتساهل إذا وجد ولكنه يأخذ بالحزم إذا فقد

بعض أهل الإيمان إذا تيسر له ما به رفعة شأنه عند الله تعالى، ونيل ما به القرب من جنابه العلى، ظن أن هذا ممكن لا يفوته، وسهل لا يتعسر عليه، فيتهاون فى الأخذ به ويرجئه معتقدا أنه يدركه متى أراد، حتى إذا فقد نيله وحرم إدراكه حصل له الحزن على فواته، وعدم الصبر الذى يجعله يتسلى به عنه، وطالبته نفسه الطاهرة بالمسارعة إلى مواطن أنسها، وانخلع قلبه جزعا على ما فاته، وأقبل بكليته باذلا ما فى وسعه لنيل هذا المقصد بكل وسيلة توصله إليه، وصارت اللذة عنده ألما، والأنس وحشة، والأمن خوفا، والراحة تعبا، حتى بلغ مقصده الذى تساهل فيه فى وقته.

وكذلك كان سيدنا أبو خيثمة الأنصارى ﷺ، فإنه كلما هم أن يتجهز للسفر مع رسول الله ﷺ ظن أن الأمر سهل، وأن التهيىء للسفر سهل عليه، حتى أذنهم ﷺ بالرحيل، فقام أهل الحزم مسارعين إلى العمل بأمر رسول الله ﷺ، ولم يتسن لأبى خيثمة حتى خرج الجيش وأقام هو بالمدينة، فلما توجه إلى بيته وشهد الظل الظليل والماء البارد وأهله معه، واجهه الحق بما أعده للسابقين المسارعين إلى طاعة الله ورسوله ﷺ، فضاقت عليه الأرض بما رحبت، وقال: رسول الله ﷺ فى الصحارى والقفار وأبو خيثمة فى ظل ظليل وماء بارد وأهله. واستغفر الله وتاب إليه، وتجهز وخرج حتى لحق برسول الله ﷺ، وهذه من أدل دليل على كمال الإيمان، والنظر بعيونه، وهو مقام من مقامات اليقين وأهله نفوسهم لوامة، وليسوا من أهل النفوس اللقسة الذين إذا تساهلوا فى نيل الخير أبطئوا فتسلوا فنسوا، ولكن أهل هؤلاء النفوس وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ (البقرة: ٢٥٧). وبقوله تعالى: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ (الأعراف: ٢٠١). وأعمال أصحاب رسول الله ﷺ هى الإمام للمتقين، والحجة للسالكين، والنور المشرق للواصلين.. أسأل الله تعالى أن يذيقنا ما أذاقهم من حلاوة الإيمان، ولذة التقوى، وما صافاهم به من الرحيق المختوم، ومن الطهور الذى لا مزج فيه ولا شوب.. إنه مجيب الدعاء آمين.

٨- التماس الخير من الله فى أماكن الطاعة وخوف الوقوع فى الشر بالجلوس فى أماكن المعصية

الصدفة معدومة عند العارفين، وكثيرة عند الجاهلين، فإن العارف على يقين أنه ما من حركة ولا سكنة إلا وهى بتقدير الله تعالى عن علم وتدبير، والجاهل بالله إذا وقع فى أمر من الشر أو نال خيرا، قال: بالصدفة حصل لى كذا، ونلت كذا، فالله جل جلاله يقدر معاصيه فى أماكن يبغضها، ويظهرها سبحانه على أيدى من يكرههم، لأن المعاصى مكروهة لله، وإن قدرها سبحانه وتعالى وأعان على حصولها ويسرها لأهلها لحكمة اقتضتها، ليس هذا المختصر محل بيانها، سنشرحها بمشيئة الله تعالى فى كتاب (الصوفية) فالمكان الذى يعصى الإنسان فيه الله تعالى يبغضه سبحانه وتعالى، ويكره الذى تظهر المعصية على يده، والمعصية نفسها مبغوضة لله تعالى، وخصوصا إذا كانت المعصية فى ذات رسله صلوات الله عليهم، حتى أوجبت معاجلة العصاة بالنقمة فى الدنيا، من خسف أو مسخ أو إغراق أو إحراق، قيدت الأمر بهذه الأشياء، لأن رسل الله صلوات الله عليهم أوذوا فى أماكن ولكن الله بارك فيها وشرفها، كما حصل لحبيبه ومصطفاه ﷺ بمكة، لأنه سبحانه نصر حبيبه ومصطفاه ﷺ وأظهره فيها، وأعلى الحق، فلم تكن محل معصية الله ونقمته، بل كانت محل إعلاء كلمة الله وإظهار دينه، وذلك لأن حبيبه ومصطفاه بعثه الله رحمة للعالمين، حريصا على الخلق أجمعين، فكان ﷺ كلما أوذى سأل الله الهداية لمن آذاه قائلا ﷺ: رب أهد قومى فإنهم لا يعلمون، وقد أخبر الله تعالى أنه

أمن من نزول العذاب فى الدنيا، قال تعالى: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ (الأنفال: ٣٣)٠ وصدق الله العظيم، وصدق رسوله الكريم٠

أما المدن الأخرى التى قدر الله تعالى أن لا يظهر الحق فيها ولا بأهلها، وبلغ عنادهم حتى قتلوا أنبياءهم، فعجل الله لهم العقوبة فهى المعنية بما أشير إليه، وهذا العمل سنة رسول الله ﷺ وبيانه الذى بينه لنا، فإنه ﷺ عندما مر فى غزوة تبوك بديار ثمود التى تجلى فيها القهار المنتقم شديد البطش تغشى بثوبه ﷺ، واستعاذ بالله تعالى من موجبات نقمته رحمة منه على بنى الإنسان، ومشاهدة لإطلاق مقام ذى الجلال والعزة والقهر والجبروت، فعلى المؤمن الكامل إذا شهد آثار النقمة عن المعصية والمخالفة أن يسرع من ملابسة أهلها، ومن الوجود فى محلها، وأن يتغشى بثوبه، وأن يستعيذ بالله تعالى مما يوجب النقمة، ويسأله سبحانه العفو والعافية، لأن تلك الأماكن وهذه الأعمال تشهد المؤمن الكامل جلال الربوبية فيكاد قلبه يذوب خوفا وخشية من مقام ربه، ويخشى من مجالستهم مجانستهم، ومن مجانستهم أن يكون منهم٠

التبرك بأضرحة الأولياء من السنة

إذا تقرر أن الأماكن يبارك فيها الله تعالى بإقامة أهل الطاعة فيها، وعمل الطاعات فيها، فمن السنة التبرك بها والدعاء فيها، ودوام المكث فيها، ومجالسة أهلها، ولذلك فإنك ترى المؤمنين أهل التسليم يزورون الأماكن التى عبد الله تعالى فيها، ويتبركون بأضرحة الأولياء، لأنها ضمت أجساما يحبها الله سبحانه كانت عاملة لمحابه جل جلاله، وقد ينكر على أهل الإيمان من لا

ذوق لهم ولا معرفة بحكمة زيارة أضرحة الأولياء، ودعاء الله تعالى فى تلك الأماكن مع أن ذلك ثابت فى السنة ومقرر فى الأحاديث الصحيحة، ولو أنهم قرأوا حديث البخارى فى قصة الإسراء لعلموا أن جبريل عليه السلام أنزل رسول الله ﷺ ببيتلحم محل ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام، وبمحل قبر سيدنا موسى عليه السلام، وأمره بالدعاء، فأهل الإيمان ـ الذين هم على عقائد العجائز ـ لهم نور من فضل الله يواجههم الله به يجذبهم إلى العمل بالسنة من حيث لا يعلمون، وأهل العناد والذين تعبوا فى تحصيل ما لا ينفع مما يظنونه علما وهو جهل لأنه سلب الخشية من قلوبهم، وإنما العلماء هم أهل الخشية من الله كما قال الله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (فاطر: ٢٨). فيظنون لجهلهم أن أهل الإيمان المسلمين يعتقدون أن أضرحة الأولياء تزار لأنهم ينفعون أو يضرون، وحاشا مؤمن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله يعتقد أن مسلما من أمته ﷺ يرى مسلما مثله تقيا ميتا فى قبره ينفع أو يضر، ولكنها أماكن ضمت أجساما أحبها الله تعالى، وأحبها رسوله ﷺ، فيتجلى فيها سبحانه برحمته ووده على من أحبهم أو زارهم فيها، كما أن الأماكن التى يعصى الله فيها يتجلى فيها سبحانه بالقهر والانتقام على من عصاه فيها، وإنما هو وجد عن يقين، وكشف عن تمكين، لا رأى وحظ وعناد.. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجملنا بما جمل به أصحاب رسول الله ﷺ، وأن يشهدنا ما به يدوم أنسنا لجنابه العلى، وقربنا من حضرته العلية.. إنه مجيب الدعاء آمين.

أمر ﷺ أصحابه أن لا يردوا ماء ثمود للحكمة التى تقدم بيانها، مع أن الماء

والمكان لله، ولكن عيون الإيمان تشهد الملكوت فتتجلى لها حقائق معانى ظهور الحق بمقتضيات أسمائه وصفاته، وقد ظهر الحق جل جلاله لأهل هذا الماء بحكم عدل منتقم قهار لظلمهم لنفسهم، ومحاربتهم رسل الله صلى الله تعالى عليهم، فالمؤمن الكامل العالم بتاريخ رسل الله صلوات الله عليهم يكره أن يرد مثل هذا الماء، لما تشهده عيون بصيرته، ويخشى أن تعمه النقمة، وكذلك الحال فيمن ركن إلى الظالمين، أو انتفع بما لهم أو جاههم تعمه النقمة، وما من عمل من أعمال رسول الله ﷺ وهو كلية تؤخذ منها الجزئيات، وأصل تستنبط منه الفروع، قال الله تعالى: ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾ (هود: ١١٣)٠ فعلى العبد المؤمن أن يعادى أهل المعاصى، وأن يتباعد عن مجاورتهم أو مجالستهم أو الانتفاع بهم إلا لضرورة داعية مع مفارقة قلبة وبغضه لما هم عليه، فإن المؤمن قد تدعوه الضرورة إلى أن يتداوى بالنجس من الطاهر ليدفع نجاسة بنجاسة، كما تدعو الصياد الضرورة أن يستعين بالكلب، والركون الذى حرمه الله تعالى ونهى عنه هو ميل القلب والاعتماد والمودة، أما تبادل المنافع الذى لا بد منه فليس من المنهى عنه، إلا إذا أدى إلى ميول النفس وركون القلب ٠

دخول أهل التقوى والصلاح فى الأماكن يزيل منها النقم والبلايا

أمر رسول الله ﷺ أن يردوا بئر ناقة سيدنا صالح عليه السلام، لأن الله سبحانه وتعالى جعله شربا لنبيه ولآيته التى أظهرها وهى الناقة، ومن هذا نستنبط أن

مجالسة أهل التقوى وطعامهم وشرابهم نعمة من نعم الله على العباد، لأن أماكنهم مباركة والجلوس فيها يجمل الجالسين بعواطف الرحمة والحنان والفضل الإلهى، كما أن زيارة أهل المعاصى والجلوس فى أماكنهم يوجب النقمة نعوذ بالله.. وهذا أمر يكاد أن يكون بديهيا فى الدين، وله شاهد فى الحس والعيان، فإنك تعلم أن الأمراض الخبيثة تتعدى إلى الأصحاء إذا قدر الله تعالى ذلك، وكم من مرض تفشى وعم خطبه بسبب ملامسة المريض، وكم من نعمة أجراها الله تعالى على يد أهل العلم والجاه والمال بمجالستهم، وهذا أمر معقول، فكذلك الشأن فى أهل المعاصى الذين مقتهم الله، وفى أهل الطاعات الذين اجتباهم الله، وما من سر من أسرار الشريعة إلا ولو تبصر فيه العاقل لرآى له نظائر محسوسة فى الوجود الخارجى، ولكن من أعمى الله بصائرهم صاروا كما قال الله تعالى: ﴿أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا﴾ (الفرقان: ٤٤).

ومن ذلك فدخول أهل التقوى والصلاح فى الأماكن يزيل منها النقم والبلايا، ويجدد لها البركات والخيرات فضلا من الله وإحسانا، لأن أهل التقوى منظورون بأعين الرحمة والرأفة واللطف والإحسان من الله تعالى، فإذا دخلوا بيتا تجلى ربنا لأهله بالجمال، وذلك لأن أهل التقوى لا يدخلون إلا بيوت من جملهم الله بالأخلاق الحسنة الجميلة، وجعل فى قلوبهم عواطف ورحمة للمتقين، وكم أزال الله بلاء عن أهل بلد وأهل بيت بزيارة تقى عابد، وكل ذلك من السنة ـ وإن جهلها من يدعون العلم والحكمة فى سنة عيادة المريض، وتعزية المصاب ـ تتجلى لمن تزكت نفسه، وليس هذا موضع بيان

تلك الحكم.. والله تعالى أسأل أن يفقهنا فى ديننا، وأن يمنحنا العلم بسنن حبيبه ومصطفاه، والتشبه بأصحابه الكرام عليهم الصلاة والسلام .

٩-من زكى نفسه من المسلمين كان له ما يشاء عند ربه معجزة لخير رسله صلى الله عليه وعليهم

قال الله تعالى: ﴿والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ۞ لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ۞ ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (الزمر: ٣٣-٣٥) المعجزات حجج على غير المؤمن، وسراج منير يقتبس منه المؤمن نور الأحوال المحمدية التى يجمل الله بها ورثته عليه وعليهم الصلاة والسلام، إن الله سبحانه وتعالى جعل رتبة النفوس فوق مراتب الوجود كلها، فإذا زكى المسلم نفسه حتى بلغت مراتب كمالاتها النفسانية، وتجملت بجمال نشأتها الأولى، لأن النفوس من عالم الأمر، وإنما قهرها الله سبحانه وتعالى على ملابسة الأجسام وهى مفارقة لها، قال تعالى: ﴿وهو القاهر فوق عباده﴾ (الأنعام: ١٨). للحكمة العلية التى منها نيل كمالاتها بالأجسام، ونيل الأجسام كمالاتها بالنفوس، ولله جل جلاله حكم اختص سبحانه بعلمها، إذا شاء أن يحيط عبدا من عباده بشىء منها تفضل عليه، قال الله تعالى: ﴿ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض﴾ (البقرة: ٢٥٥).

نهى رسول الله ﷺ الصحابة فى ليلة من ليالى غزوة تبوك عن أن يخرج أحد منفردا، وكان ﷺ إذا نهى عن أمر تركه الصحابة رضوان الله عنهم بعزيمة، لكمال يقينهم أنه ﷺ لا ينطق عن الهوى، ولا ينطق إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر، فدعت الضرورة رجلا لأن يخرج لقضاء حاجة الإنسان، وآخر لرد بعير له ند منه، فهبت ريح عاصفة، فاختنق الأول، واحتملت الثانى كما تقدم.

من هذه الحادثة ينكشف لنا حقيقة لا بد من النظر فيها بعين العبرة، وهى أن الإنسان قد يؤمر بالأمر فيقبله موقنا وتعروه دواع تجعله يترك العمل به، وقد ينهى عن عمل فيتركه موقنا وتعروه دواع تجعله يعمله بلا روية، فيحصل من ذلك ما لا يحمد فى الدنيا والآخرة، فعلى المؤمن الكامل أن يتروى فى كل حادثة نزلت به، حتى لا يترك عملا أمر به، ولا يعمل ما نهى عنه مهما قضيت عليه الضرورة، وذلك شأن المستبصرين المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ (الأعراف: ٢٠١). ولما كان عمل الصحابيين بما نهى عنه رسول الله ﷺ، لم يكن لمخالفة ولكن لضرورة أنجاهما الله تعالى، فشفى الله الأول بنظر رسول الله ﷺ، وسقط الآخر على جبال طيء سالما فرده بنو طيء على المدينة لرسول الله ﷺ، وهكذا كل مؤمن دعته الضرورة للوقوع فى محظور ناسيا أو مضطرا، فإن الله تعالى يمنحه الذكرى فيتوب إلى الله، فيغفر الله له، وإنما العقوبة لمن فعل المنهى، أو ترك المأمور به انتهاكا لحرمة الله، غير مبال بعقوبته سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: ﴿ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما﴾ (النساء: ١١٠).

١٠-استسقاؤه ﷺ بغزوة تبوك وما يستنبطه المؤمن من ذلك

عمال الله المخلصين لجنابه العلي مع الله تعالى والله تعالى معهم، لأنه سبحانه وتعالى وفقهم فاستجابوا له واستجاب لهم جل جلاله، وأعانهم فأطاعوه وأطاعهم سبحانه وتعالى، وكل أعمال المؤمن خالصة لله تعالى كائنة ما كانت تلك الأعمال، إلا أنها تتفاضل، فالمجاهد لإعلاء كلمة الله أفضل من المجاهد لمعاش من أوجب الله عليه القيام بهم، وكذلك المجاهد فى الحج، والمجاهد فى طلب العلم، والمجاهد فى العبادة، كلهم فى عمل لله يستجيب الله لهم إذا سألوه سبحانه، لأنه جل جلاله وفقهم فاستجابوا له سبحانه وتعالى.

اشتد العطش بأصحاب رسول الله ﷺ وهم فى غزوة تبوك، حتى كاد يذهب بأرواحهم ﷺ، فشكى الصديق الأكبر الأمر لرسول الله ﷺ كما تقدم، والتمس منه ﷺ أن يدعو الله تعالى لهم، فقال ﷺ: أتحبون ذلك؟ فقالوا: نحب، فرفع يديه الكريمتين فأنزل الله الأمطار حتى سالت الأودية.

حكمة سؤاله ﷺ لهم

أولا: لأنه ﷺ يعلم أنهم فى أرقى مقامات الرضا عن الله سبحانه، وأنه لا يدعوهم إلى الدعاء إلا الاضطرار الذى لا قبل لهم به، وهو اسم الله الأعظم الذى إذا حصل للعبد وسأل ربه، كشف السوء عنه قال تعالى: ﴿أمن يجيب

المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾ (النمل: ٦٢)٠

ثانيا: أن إجماع قلوب المجتمع وحبه لشيء ليس معصية لله، فتح لأبواب فضل الله، وهذا سر الختم فى طريقنا، لأن الختم إذا شكل أعضاء الجسد، وأعرض عليهم الأمر فأحبوه، سأل الله فاستجاب الله لهم قبل أن يتموا دعاءهم٠

ثالثا: أنه ﷺ يحب أن يجعل الله تعالى لهم همة علية تطمئن بها قلوبهم، إذا شهدوا أنهم أحبوا أمرا فأحبه رسول الله ﷺ، وسأل الله فاستجاب سبحانه ٠

رابعا: أن مقام رسول الله ﷺ فوق مقام الخلة، ومنزلته ﷺ من ربه فوق كشف أولى العزم من الرسل، وكمل الصديقين من أمته، وهو المقام المحمود الذى يحمده فيه الله وملائكته ورسله والمؤمنون على ما تفضل به على جنابه المحمدى من الكمالات، وهو المقام الذى يكون فيه كمال التفويض لله رب العالمين، فسألهم ﷺ أتحبون ذلك، ليكون الدعاء لهم ضرورة منهم٠ وأنت تعلم أن سيدنا الخليل عليه السلام عندما ألقى فى النار سأله جبريل عليه السلام فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا٠ ورفع الأمر الفادح لرسول الله ﷺ من أصحابه عليه وعليهم الصلاة والسلام كرفعه لله بالنسبة للصحابة رضي الله عنهم لأن الله تعالى أقام حبيبه ومصطفاه مقامه فيما أنزله عليه ﷺ٠

المعجزة يزيد الله بها المؤمن إيمانا

أمطرت السماء بدعائه ﷺ فزاد الله المؤمنين إيمانا، وقال منافق شهد الحادثة بنفسه وشق بطن بعيره فشرب ماء فرثه: هذا نوء كذا من الكواكب،

فغضب عليه صحابى وقال: ليس هذا وقت الأنواء، فقال المنافق: سحابة مرت، فأنزل الله تعالى: ﴿وتجعلون رزقكم إنكم تكذبون﴾ (الواقعة: ٨٢)٠ أسأل الله تعالى أن يحفظنا من الشك والريب، وأن يعيذنا من الضلال والعناء، وأن يمنحنا المزيد من الإيمان، وأن يكرمنا بالاستجابة لنا فضلا منه وكرما٠

١١-المؤمن فى مزيد من الإيمان، والمنافق فى مزيد من النفاق

فقدت ناقة رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، فتساءل الصحابة عنها معتقدين أنها أهملت فطلبت المرعى، ولم يفكروا فى شيء إلا أنها ناقة فك عقّالها فسارت على وجهها، ونظر المنافقون إلى الأمر نظرة ضلال، فقال أحدهم: إن محمدا يزعم أنه نبى يعلم خبر السماء وهو لا يعلم أين ناقته، فأعلم الله نبيه بقول المنافق، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: إن رجلا يقول كذا وكذا، وإنى والله لا أعلم إلا ما علمنى ربى، وإن ناقتى بشعب كذا كما تقدم٠

فانطلقوا إليها فأحضروها، فلم يزدد المنافق بعد ذلك إلا نفاقا، وعلى ما أظن أنه قال فى نفسه: هذا سحر، ونعوذ بالله من النفاق، قال الله تعالى: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾ (الأنعام: ٧١)٠ والمعجزة متعينة على رسل الله صلوات الله عليهم حفظا لقلوب المؤمنين، ولولا ذلك ما أخبر رسول الله ﷺ أصحابه ﷺ٠

من هذا الخبر نعلم حق العلم أن أحدا غير الله لا يعلم الغيب، وإنما يعلم

الله من عباده من شاء بما شاء، وما من شدة تحصل للمؤمن إلا ويجعل الله له منها فرجا ومخرجا، ويجدد له بها خيرا وعزا، لأن من أخلاق المؤمن الصبر، والله تعالى يقول: ﴿إن الله مع الصابرين﴾ (البقرة: ١٥٣)٠ ومن كان الله معه دام له الفضل والسعة٠

١٢-حادثة سيدنا أبى ذر ﷺ بغزوة تبوك وحكمتها

أبطأ به جمله كما تقرر قبل، فأخبر رسول الله ﷺ فقال: دعوه فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه، ورسول الله ﷺ الرءوف الرحيم بالمؤمنين، فما السر فى هذا؟!!٠

حكمته والله أعلم:

أولا: أن سيدنا أبا ذر ﷺ كان من أكمل أهل مقام التوكل على الله، الذين بلغ بهم الحب فى الله مبلغا جعله يتلذذ بالآلام فى الله تعالى، ويأنس بما يستوحش منه غيره، ولأهل هذا المقام مزيد من الله تعالى بما ينالهم من الوصب والعناء، وكذلك كان الأمر فإن سيدنا أبا ذر ترك بعيره، وحمل متاعه على كتفه، واقتفى أثر رسول الله ﷺ، مسارعا إلى الله، ومشتاقا إلى نيل فضله العظيم، ورضوانه الأكبر٠ ورسوله ﷺ يحب أن يبلغ أفراد أمته الغاية التى لا غاية بعدها، فرارا إلى الله تعالى، وإقبالا عليه جل جلاله، وفناء عما سواه، وهى حقيقة رحمته ورأفته ﷺ لأهل العزائم من أفراد أمته عليه وعليهم الصلاة والسلام٠

ثانيا: أن رسول الله ﷺ وأصحابه ﷺ كانوا على سفر فى صحارى قاحلة،

وبوادى ماحلة، والجيش كثير، والزاد قليل، فوكل أمر أبى ذر ﷺ لله الرءوف الرحيم، الحفيظ السلام المعين، وهى الرحمة المحمدية بجماعة المسلمين، والإمام فى الصلاة لا ينتظر القادم عليه.

ثالثا: أن يكون الإمام أبو ذر ﷺ قدوة لأصحاب رسول الله ﷺ فى عمله، حتى لو قدر الله تأخير أحدهم يعلم حكم الله فى ذلك، فيتوكل على الله، ويثق به سبحانه، ورحمة رسول الله ﷺ تتجلى لأهل الإيمان بقدر مقاماتهم من اليقين، وأنواعها لا تحصى ولا تحصر، وكم لله من نعمة أخفاها فى بلية، وكم له من فضل عظيم ستره برزية، وكم عطية أسبغها بعد منع، قال الله تعالى: ﴿فإن مع العسر يسرا ۝ إن مع العسر يسرا﴾ (الشرح: ٥،٦). فالمؤمن من يكاشف برحمة ورأفة رسول الله ﷺ فى أعماله التى ينكرها أهل الجهالة، فحدود الشريعة هى شدة فى الظاهر، ولكنها عين الرأفة والرحمة والمنة من الله تعالى.

نظر الصحابة رضى الله عنهم من بعد إلى رجل يمشى منفردا على الطريق، فأخبروا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا ذر، فتأمله الصحابة بعد ذلك فقالوا: هو والله أبو ذر، فقال ﷺ كما سبق: رحم الله أبو ذر، يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده ﷺ.

كلمة كن وهبها الله لحبيبه ومصطفاه ﷺ

قوله ﷺ: كن، يشير إلى أن الكلمة وهبها الله لحبيبه ومصطفاه، ومعلوم فيما تقدم أن الصحابة سبقوا أبا ذر وهم فى أمن ركبانا، وهو حامل متاعه وماشى

على قدميه لامعين له إلا الله تعالى، فالتحاقه بهم ﷺ جميعاً من خوارق العادات، ولا يتصور العقل أن رجلاً يتأخر عن الجيش أياماً، ويحمل متاعه، ويمشى فى قفار مجهولة، ويلحق الجيش إلا بسر فوق الأسباب، يمنحه مسبب الأسباب، قال الله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً *ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ (الطلاق: ٢،٣)٠ وهذه قوة الله التى فوق الأسباب٠

فقول رسول الله ﷺ: كن، هى كلمة يراد بها إنشاء ما لم يكن يتصور عقلاً ولا عادة، ولقدرة الله عجائب أدهشت العقول، فكان كما أمر رسول الله ﷺ٠ وقد تقدم لى أن المؤمن إذا زكى نفسه كان له ما يشاء عند ربه، فكيف بمصدر هذا الفضل العظيم للخلق أجمعين؟!!٠

فى قوله ﷺ: كن، إشارة لا ينبغى بيانها إلا لكمل أهل الإيمان ممن ينظرون بعيون اليقين، وسأشير إلى بعض أسرارها فى كتاب (الصوفية) إن شاء الله٠ أخبر رسول الله ﷺ عن الغيب فكان كما أخبر، فمات أبو ذر وحيداً بالربذة، ولم تجد زوجته رضى الله عنها من يكفنه، فخرجت على الطريق فى حيرة شديدة، فرزقها الله تعالى برجال من الصحابة والتابعين خرجوا فى تجارة لهم، سألوها عن أمرها فأخبرتهم، فأسرعوا فرحين بما أكرمهم الله به، باكين لفقد هذا النور من الوجود، وقد تقدم لك الخبر برمته فى الغزوة٠

١٣- الرسول لم يوجد الشىء من لا شىء أدباً مع الله

قدم ﷺ عين تبوك وليس بها ماء، فأخرجوا ما فيها فى شن، فغسل ﷺ وجهه ويديه ومضمض، ثم ألقى الماء فى العين فجرت بالماء، من هذا نعلم أن الذى

يوجد الشيء من لا شيء هو الله وحده، وأن رسول الله ﷺ أعلمنا ذلك بعمله، وكان إذا شاء ﷺ أن يوجد معجزة له رحمة بأمته ﷺ بارك الله فى القليل فجعله كثيرا، وهو أدب الله الذى أدبه لحبيبه ومصطفاه ﷺ.

سرية أبى سفيان والمغيرة بن شعبة رضى الله عنهما

وكانت هذه السرية بعد أن رجع ﷺ من تبوك، وذلك أنه وفد عليه ﷺ ثقيف مسلمين بعد رجوعه من تبوك، وستأتى قصة وفدهم.

فأرسل ﷺ أبا سفيان والمغيرة بن شعبة رضى الله عنهما لهدم اللات بالطائف، فذهبا فى بضعة عشر رجلا فهدموها حتى سووها بالأرض.

وفى رواية: أن المغيرة أراد أن يقدم أبا سفيان فى هدمها، فأبى ذلك أبو سفيان عليه وقال: ادخل أنت على قومك فلما دخل المغيرة علاها ليضربها بالمعول، أى: الفأس العظيم التى يقطع بها الصخر، وقام قومه دونه يحمونه خشية أن يرميه أحد بسهم، وخرج نساء ثقيف من الحجال حسرا، أى: مكشوفات، يبكين على الطاغية، وكانوا يظنون أنه لا يمكن هدمها لأنها تمنع من ذلك. وفى رواية: وأراد المغيرة أن يسخر بثقيف، فقال لأصحابه: لأضحكنكم من ثقيف فلما علا على الطاغية ليهدمها ألقى نفسه. وفى لفظ: أخذ يرتكض، فصاحوا صيحة واحدة فقالوا: أبعد الله المغيرة قتلته الربة، وقالوا: والله لا يستطيع هدمها، فوثب وقال لهم: قبحكم الله إنما هى لكاع حجارة ومدر، فاقبلوا عافية الله واعبدوه، ثم أخذ فى هدمها فهدمها إلى أن كسر بابها، وهدم أساسها، وأخرج ترابه لما سمع سادنها يقول: ليغضبن الأساس فليخسفن بهم، ثم أخذوا حليتها وكسوتها

وما فيها من طيب وذهب وفضة وأقبلوا حتى دخلوا عليه ﷺ، فحمد الله على نصره وإعزاز دينه.

سرية جرير بن عبد الله البجلى ﷺ إلى ذى الخلصة

ذو الخلصة اسم بيت كان فيه صنم لقوم جرير بن عبد الله، وكانت هذه السرية قبل وفاته ﷺ بنحو شهرين. قال جرير ﷺ: قال لى النبى ﷺ: ألا تريحنى من ذى الخلصة، فقلت: بلى، فانطلقت فى مائة وخمسين فارس من أحمس، وكانوا أصحاب خيل، وكنت لا أثبت على الخيل، فذكرت ذلك للنبى ﷺ فضرب فى صدرى وقال: اللهم ثبته، واجعله هاديا مهديا، فما وقعت عن فرس بعد.

وكان ذو الخلصة بيتا فى اليمن لخثعم وبجيلة يقال له الكعبة، فانطلق إليها فكسرها وحرقها، ثم بعث إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول جرير: والذى بعثك بالحق ما جئت حتى تركتها كأنها جمل أجرب، فبارك فى خيل أحمس ورجالها خمس مرات. وروى الطبرانى عن جرير قال: بعثنى النبى ﷺ إلى اليمن أقاتلهم وأدعوهم أن يقولوا لا إله إلا الله. قال الحافظ بن حجر: والذى يظهر أنه غير بعثه إلى الصنم، ويحتمل أنه بعثه إلى الجبهتين على الترتيب، ويؤيده ما وقع عند ابن حبان فى حديث جرير أنه ﷺ قال له: يا جرير إنه لما يبق من طواغيت الجاهلية إلا بيت ذى الخلصة، فإنه يشعر بتأخير هذه القصة جدا، وقد شهد جرير حجة الوداع فكان إرساله بعدها فهدمها، ثم توجه إلى اليمن، ولما رجع بلغته وفاة النبى ﷺ.

وحكى بعضهم أن موضع ذى الخلصة صار مسجداً جامعاً لبلدة يقال لها العبلات من أرض خثعم.

سرية أسامة بن زيد بن حارثة رضى الله عنهما إلى أبنى

أُبْنَى بضم الهمزة وسكون الباء الموحدة وفتح النون فألف مقصورة، اسم موضع بين عسقلان والرملة بالبلقاء من أرض الشام، وهى آخر السرايا، كما أن غزوة تبوك آخر الغزوات.

لما كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة، أمر ﷺ بالتهيء لغزو الروم، فلما كان من الغد دعا ﷺ أسامة بن زيد فقال: سر إلى موضع قتل أبيك – يوم مؤتة – فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش، فاغز صباحاً على أهل أُبْنَى وأحرق عليهم، وأسرع السير لتسبق الأخبار، فإن أظفرك الله عليهم فأقل اللبث فيهم، وخذ معك الأدلاء، وقدم العيون والطلائع. فلما كان يوم الأربعاء بدأ به ﷺ وجعه فحمّ وصدع، فلما أصبح يوم الخميس عقد ﷺ لأسامة لواءً بيده ثم قال: اغز بسم الله وفى سبيل الله، فقاتل من كفر بالله. فخرج ﷺ بلوائه معقوداً، فدفعه إلى بريده وعسكر بالجرف، فلم يبق أحد من المهاجرين الأولين والأنصار إلا اشتد لذلك وتهيأ للخروج، منهم أبو بكر، وعمر، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبى وقاص ﷺ، فتكلم قوم وقالوا: يستعمل رسول الله ﷺ على المهاجرين الأولين والأنصار هذا الغلام، وكان سن أسامة سبع عشرة سنة. وقيل: تسع عشرة سنة. وقيل: عشرين سنة.

وجاء أن الخليفة المهدى لما دخل البصرة رأى أياس بن معاوية - الذى يضرب به المثل فى الذكاء وهو صبى - وخلفه أربعمائة من العلماء وأصحاب الطيالسة، فقال المهدى: أفٍ لهذه الغفانين أما كان فيهم شيخ يتقدمهم غير هذا الحديث، ثم التفت إليه المهدى وقال: كم سنك يا فتى؟ فقال: سنى - أطال الله بقاء أمير المؤمنين - سن أسامة بن زيد بن حارثة ﷺ لما ولاه رسول الله ﷺ جيشاً فيه أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، فقال: تقدم بارك الله فيك، وكان سنه سبع عشرة سنة.

فضائل أسامة بن زيد

ولما بلغ رسول الله ﷺ مقالتهم وطعنهم فى ولايته مع حداثة سنه، غضب ﷺ غضباً شديداً وخرج - وقد عصب على رأسه عصابة وعليه قطيفة - وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، أيها الناس فما مقالة بلغتنى عن بعضكم فى تأميرى أسامة، ولئن طعنتم فى إمارته فلقد طعنتم فى إمارة أبيه من قبله، وأيم الله أنه كان لخليقاً بالإمارة، وأن ابنه من بعده لخليق بالإمارة، وأن كان من أحب الناس إلىَّ، وأنه لمظنّة لكل خير، فاستوصوا به خيراً، فإنه من خياركم. وتقدم أنه ﷺ كان يقال له: الحِب بن الحِب. وكان رسول الله ﷺ يمسح خشمه وهو صغير بثوبه، ثم نزل ﷺ فدخل بيته، وذلك فى يوم السبت لعشر خلون من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة.

وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أسامة يودعون رسول الله ﷺ، ويخرجون إلى المعسكر بالجرف، وجعل رسول الله ﷺ يقول: أنفذوا بعث أسامة، واستثنى ﷺ

أبا بكر وأمره بالصلاة بالناس.

فلا منافاة بين من روى أن أبا بكر ﷺ كان من ذلك الجيش، ومن روى أنه تخلف، لأنه كان من جملة الجيش أولا ثم تخلف لما استثناه ﷺ وأمره بالصلاة بالناس، وبهذا يرد بعض قول الرافضة طعنا فى أبى بكر ﷺ أنه تخلف عن جيش أسامة، وأنه ﷺ لعن المتخلف عن جيش أسامة، لما علمت أن تخلفه كان بأمر منه ﷺ، وفيه إشارة إلى أنه الخليفة بعده ﷺ، وأما اللعن الذى ذكروه فلم يرد فى حديث أصلا.

فلما كان يوم الأحد ورسول الله ﷺ فى فراشه، دخل أسامة من عسكره والنبى ﷺ مغمور، فطأطأ رأسه فقبله وهو ﷺ لا يتكلم، ثم جعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما علىأسامة، قال أسامة ﷺ: فعرفت أنه ﷺ يدعو لى ثم رجع أسامة إلى معسكره.

ثم دخل عليه ﷺ يوم الاثنين فقال له: اغد على بركة الله، فودعه أسامة وخرج إلى معسكره وأمر الناس بالرحيل، فبينما هو يريد الركوب إذا برسول أمه أم أيمن رضى الله عنها قد جاءه يقول: إن رسول الله ﷺ يتوفى.

وفى لفظ: فسار حتى بلغ الجرف فأرسلت إليه امرأته فاطمة بنت قيس تقول له: لا تعجل إن رسول الله ﷺ ثقيل، فأقبل وأقبل معه عمر وأبو عبيدة بن الجراح ﷺ، فانتهوا إلى رسول الله ﷺ، وقد انتقل إلى الرفيق الأعلى حين زاغت الشمس، فدخل المسلمون الذين عسكروا بالجرف إلى المدينة، ودخل بريده بلواء أسامة معقودا حتى أتى إلى رسول الله ﷺ فغرزه عنده.

جهز الرسول ﷺ ونفذ الصديق ﷺ

فلما بويع لأبي بكر ﷺ أمر بريده أن يذهب باللواء إلى بيت أسامة، وأن يمضى أسامة لما أمر.

ولما اشتهر أمر انتقال رسول الله ﷺ ظهر النفاق وقويت شوكة أهله، وقويت نفوس أهل النصرانية واليهودية، ومن كان يرغب فيهم، وارتدت طوائف من العرب وقالوا: نصلى ولا ندفع الزكاة.

كل ذلك ظهر قبل أن يتوجه جيش أسامة، فعند ذلك كلم الناس أبا بكر ﷺ أن يمنع أسامة من السفر، وقالوا: كيف يتوجه هذا الجيش إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة؟ فأبى أبو بكر ﷺ أن يمنع أسامة من الخروج، وقال: والله الذى لا إله إلا هو لو جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله ﷺ ما أرد جيشاً وجهه رسول الله ﷺ ولا حللت عقده.

ثم كلم أبو بكر ﷺ أسامة فى عمر ﷺ أن يأذن له فى التخلف ليستعين به الصديق ﷺ فى مشورته وأمر الخلافة، ففعل.

فلما كان هلال شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشر خرج أسامة ﷺ فى ثلاثة آلاف، معهم ألف فرس، وودعه أبو بكر ﷺ بعد أن سار إلى جانبه ساعة ماشياً، وأسامة ﷺ راكب، وعبد الرحمن بن عوف ﷺ يقود براحلة الصديق ﷺ، فقال أسامة: يا خليفة رسول الله ﷺ إما أن تركب وإما أن أنزل، فقال: والله لست بنازل ولست براكب، ثم قال له الصديق: أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك، وقد وقع نظير ذلك لرسول الله ﷺ لما بعث معاذاً

ﷺ إلى اليمن، شيعه ﷺ وهو يمشى تحت راحلة معاذ وهو يوصيه.

نصر ساحق وتأييد كبير

ثم إن أسامة ﷺ سار إلى أهل أُبنى فشن عليهم الغارة، أى: فرق الناس عليهم، وكان شعارهم يا منصور أمت، فقتل من قتل، وأسر من أسر، وحرق منازلهم، وحرث أرضها فأزال نخلها، وأجال الخيل فى عرصاقم، ولم يقتل من المسلمين أحد.

وكان أسامة ﷺ على فرس أبيه وقتل قاتل أبيه، وأسهم للفارس سهمين وللراجل سهماً، وأخذ لنفسه مثل ذلك، فلما أمسى أمر الناس بالرحيل وأسرع السير، وبعث مبشراً إلى المدينة بسلامتهم، وخرج أبو بكر ﷺ فى المهاجرين والأنصار ممن لم يكنّ من تلك السرية، يتلقون أسامة ومن معه ﷺ، وسروا بسلامتهم، ودخل أسامة واللواء بين يديه حتى انتهى إلى باب المسجد فدخل فصلى ركعتين ثم انصرف إلى بيته.

وكان فى خروج هذا الجيش نعمة عظيمة، فإنه كان سبباً لعدم ارتداد كثير من طوائف العرب أرادوا ذلك، وقالوا: لولا قوة أصحاب محمد ﷺ ما خرج مثل هؤلاء من عندهم، فثبتوا على الإسلام.

أسامة الأمير

وكان عمر بن الخطاب ﷺ- حتى بعد أن ولى الخلافة- إذا رأى أسامة ﷺ قال: السلام عليك أيها الأمير، فيقول أسامة ﷺ: غفر الله لك يا أمير المؤمنين تقول

لى هذا، فيقول: لا أزال أدعوك ما عشت الأمير، انتقل رسـول الله ﷺ وأنـت علىَّ أمير.

وفى الصحيحين: أنه ﷺ كان يأخذ أسامة والحسن رضى الله عنـهما فيقـول: اللهم أحبهما فإنى أحبهما.. ومناقبه ﷺ كثيرة.. توفى بالمدينة.

ومما ينبغى أن يلحق بالغزوات والسرايا بعوثه ﷺ.

كتاب البعوث

البعوث وعالمية الإسلام

مكث النبى ﷺ فى مكة ثلاثة عشر عاما يدعو إلى الله على بصيرة، ودخل عشرات من الناس فى الدين الجديد أغلبهم من المستضعفين، ومع اتساع دائرة الدعوة اتسعت دائرة المعاناة، ومن ثم كان لابد من الخروج إلى دائرة أو دوائر أوسع، وتمثل ذلك فى عملين:

الأول: هجرتان قام بهما بعض المسلمين إلى الحبشة بدأت أولاهما فى العام الخامس من البعثة.

الثانى: هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة بعد التمهيد لها ببيعتى العقبة الأولى والثانية.

وفى المدينة أنشأ النبى ﷺ دولة كاملة الأركان لا بالمعايير القديمة، ولكن بما يشترطه القانون الدولى، والفقه الدستورى الحديث فى وقتنا الحاضر من وجود شعب دائم، وإقليم محدد، وحكومة، وأهلية الدخول فى علاقات مع الدول الأخرى.

ودفاعا عن العقيدة والدولة الناشئة، حارب النبى ﷺ أعداء الإسلام فى معارك مشهورة، منها بدر، وأحد، والخندق، ومؤتة، والمريسيع.. إلخ.

وفى العام السادس للهجرة كان "صلح الحديبية" بين النبى ﷺ وقريش، وشعر كثير من المسلمين بقساوة شروط هذا الصلح، وأثبتت الأيام بعد نظر النبى ﷺ:

فقد اعترفت قريش رسميا – بتوقيعها هذا الصلح – بسيدنا محمد ﷺ وبالمسلمين

كجماعة لها قوة وثقل وكيان وأهمية.

جنى المسلمون كسبا سياسيا كبيرا بفتح الباب على مصراعيه لمن أراد من العرب الدخول فى حلف سيدنا محمد ﷺ، وفيه دخلت قبيلة خزاعة وقالوا: (نحن فى عقد محمد وحلفه).

لم تفد قريش من الهدنة شيئا، بينما أفاد النبى ﷺ الكثير: إذ عاد رسول الله ﷺ والمسلمون إلى مكة معتمرين فى العام القابل، وقد دامت الهدنة عامين فحسب، ولكنهما كانا كافيين للنبى ﷺ لتثبيت مركزه، ولمد المسلمين بالقوة اللازمة لكسر شوكة المشركين، وتقويض سلطانهم.

وفى هذه الأثناء دك المسلمون معاقل اليهود فى خيبر وفدك فى العام السابع للهجرة، وبعث ﷺ بحملة إلى مؤتة فى العام الثامن من الهجرة، وانضم إلى صفوف المسلمين جماعات وجماعات، وأسلم أشخاص من ذوى الحيثية والقدرة والحنكة.

وبهذا الصلح بدأ الانفتاح على مناطق وأقطار أخرى تحقيقا لعالمية الإسلام، فكانت رسائل النبى ﷺ إلى الملوك والأمراء والرؤساء فى السنة السادسة للهجرة، وهى غير كتبه ﷺ التى كتبها بالأمان.

وتشترك كل هذه الرسائل فى مضمون محورى واحد وهو الدعوة إلى الإسلام، وقد جاءت هذه الدعوة فى أساليب متعددة وصور مختلفة تراعى شخصية المرسل إليه ومكانته السياسية والاجتماعية والدينية، ولكن – بجانب هذه الفكرة المحورية – كانت هناك مضامين أخرى فرعية مشتركة بين هذه الكتب جميعا

أو أغلبها منها:

١-فى الإسلام السلامة ومن امتنع عن الإسلام أثم.

٢-محمد ﷺ هو رسول الله ﷺ المبعوث للناس كافة.

٣-الممتنع عن الإسلام لا يحمل إثم بقائه على الكفر فحسب، ولكن إثم رعاياه كذلك، لأنهم يتبعونه ضلالة أو هداية، "والناس على دين ملوكهم".

٤-الاستشهاد بآية أو بآيات من القرآن الكريم مناسبة للمقام، ومتعلقة بطبيعة المرسل إليه ليكون القرآن حجة عليه.

فكل هذه الرسائل كانت الفكرة الأساسية التى تحملها هى الدعوة إلى الإسلام، ثم هى تمزج فى تضاعيفها بين الترغيب فى اعتناق الدين الجديد، والترهيب المجمل فى نتيجة المخالفة برفض اعتناق الإسلام، وهو الدين الخاتم الذى جاء به سيدنا ومولانا محمد ﷺ مبعوثا للناس كافة.

ولما أراد ﷺ أن يكتب للملوك قيل له: يا رسول الله إنهم لا يقرءون كتابا إلا إذا كان مختوما، أى: ليكون فى ذلك إشعار بأن الأحوال المعروضة عليهم ينبغى أن تكون مما لا يطلع عليها غيرهم، وفيه أن هذا واضح إذا كان الختم عليها بعد طيها، ويجعل عليها نحو شمع ويختم فوق ذلك. والظاهر أن ذلك لم يكن، وحينئذ يكون الغرض من ذلك أمن التزوير لبعده مع الختم، فاتخذ ﷺ خاتما من فضة، أى: بعد أن اتخذ خاتما من ذهب، فاقتدى به ﷺ ذو اليسار من أصحابه فصنعوا خواتيم من ذهب، ولما لبس رسول الله ﷺ ذلك لبس أصحابه خواتيمهم، فأخبره جبريل عليه السلام من الغد بأن لبس الذهب حرام على ذكور

أمتك، فطرح رسول الله ﷺ ذلك الخاتم، فطرح أصحابه خواتيمهم ﷺ.

وكان نقش خاتمه الفضة ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر.
والأسطر الثلاثة تقرأ من أسفل، فمحمد آخر الأسطر، ورسول فى الوسط، والله فوق، وكانت الكتابة مقلوبة لتكون على الاستواء إذا ختم بها، فكان ذلك الخاتم فى يده ﷺ، ثم فى يد أبى بكر، ثم فى يد عمر، ثم فى يد عثمان ﷺ، حتى وقع فى بئر أريس فى السنة التى توفى فيها عثمان ﷺ، فالتمسوه ثلاثة أيام فلم يجدوه، واختلفت الروايات فى موضع الخاتم من يده ﷺ فقيل: فى خنصر اليسار وهو المروى عن عامة الصحابة، وقيل: فى خنصر اليمين وهو المروى عن طائفة منهم ابن عباس وعائشة ﷺ، وجمع البغوى أن النبى ﷺ فعل كلا من الأمرين، تختم فى يمينه وفى يساره، لكن قال: التختم فى اليسار كان آخر الأمرين وكان يجعل فصه مما يلى كفه الشريف ﷺ.

وعند عزمه ﷺ على إرسال الكتب وتكلمه مع أصحابه فى ذلك، خرج على أصحابه يوما فقال: أيها الناس إن الله بعثنى رحمة وكافة، فأدوا عنى يرحمكم الله، ولا تختلفوا على كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم، فقال أصحابه: وكيف اختلفت الحواريون على عيسى يا رسول الله؟ قال: دعاهم لمثل ما دعوتكم له، فأما من بعثه مبعثا قريبا رضى وسلم، وأما من بعثه مبعثا بعيدا كره وأبى، فشكا ذلك عيسى إلى ربه، فأصبحوا وكل منهم يتكلم بلغة القوم الذى وجه إليهم.. ونعرض فيما يلى نصوص بعض هذه الرسائل:

١- كتابه ﷺ إلى قيصر

قيصر هو: المدعو هرقل ملك الروم، أرسل إليه ﷺ كتابه على يد دحية الكلبى ﷺ، والدحية بلسان اليمن الرئيس، وقيصر معناه فى اللغة البقير لأنه بقر، أى: شق عنه لأن أم قيصر ماتت فى المخاض فشق عنه وأخرج فسمى قيصر، وكان يفتخر بذلك ويقول: لم أخرج من فرج، ثم صار قيصر اسما لكل من ملك الروم، وكان إرسال الكتاب لقيصر سنة ست من الهجرة بعد رجوعه ﷺ من الحديبية، وكان وصوله إليه من المحرم سنة سبع، وكان ﷺ قال قبل ذلك: من ينطلق بكتابى هذا فيصير إلى هرقل وله الجنة؟. فقال دحية: أنا يا رسول الله، فأعطاه ذلك الكتاب. وقيل: إنه ﷺ أمر دحية ﷺ أن يدفعه إلى عظيم بصرى وهو الحارث ملك غسان ليدفعه إلى قيصر، فلما انتهى دحية إلى الحارث أرسل معه عدى بن حاتم ﷺ- فإنه أسلم بعد ذلك- ليوصله إلى قيصر فذهب به إليه، فقال قومه لدحية: إذا رأيت الملك فاسجد له ثم لا ترفع رأسك أبدا حتى يأذن لك، قال دحية ﷺ: لا أفعل هذا أبدا ولا أسجد لغير الله تعالى، قالوا: إذا لا يؤخذ كتابك، فقال له رجل منهم: أنا أدلك على أمر يؤخذ فيه كتابك ولا تسجد له، فقال دحية: وما هو؟ فقال: إن له على كل عتبة منبرا يجلس عليه فدع صحيفتك تجاه المنبر فإن أحدا لا يحركها حتى يأخذها هو، ثم يدعو صاحبها، ففعل، فلما أخذ قيصر الكتاب وجد عليه عنوان كتاب العرب، فدعا الترجمان الذى يقرأ بالعربية، ثم قال له: انظر لنا من قومه أحدا نسأله عنه، وكان أبو سفيان بن حرب ﷺ بالشام قبل إسلامه، أى: كان بغزة مع رجال من قريش فى تجارة لهم زمن هدنة الحديبية، وكان أول الهدنة فى ذى

القعدة سنة ست. وقيل: إن النبى ﷺ كتب لقيصر من تبوك فى السنة التاسعة، وجمع بينهما بأنه كتب لقيصر مرتين.

قيصر يحاور أبا سفيان

وحاصل القصة كما هو فى البخارى:

قال: حدثنا أبو اليمان، قال: أنبأنا شعيب عن الزهرى قال: أخبرنى عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش- وكانوا تجارا بالشام فى المدة التى كان رسول الله ﷺ مادا فيها أبا سفيان وكفار قريش- فأتوه وهم بإيلياء فدعاهم إلى مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم به نسبا، فقال: أدنوه منى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إنى سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبنى فكذبوه، قال: فو الله لولا الحياء من أن يؤثروا على كذبا لكذبت عليه، ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل ارتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل

فيها، قال: و لم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه، قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة، فقال للترجمان: قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه ذو نسب وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، قلت فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله عز وجل، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين يخالط بشاشة القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بم يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله عز وجل ولا تشركوا به شيئا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة، والصدق، والعفاف، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ثم دعا بكتاب رسول

الله ﷺ الذى بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، ﴿ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾).

قال أبو سفيان: فلما أن قضى مقالته علت أصوات الذين حوله من عظماء الروم وكثر لفظهم فلا أدرى ماذا قالوا، وأمر بنا فأخرجنا فلما أن خرجت مع أصحابى وخلوت بهم قلت لهم: لقد أمر أمر ابن أبى كبشة- يعنى النبى ﷺ- هذا ملك بنى الأصفر يخافه. قال أبو سفيان: والله ما زلت ذليلا مستيقنا بأن أمره سيظهر حتى أدخل الله قلبى الإسلام وأنا كاره، أى: للإسلام، وكان ذلك يوم فتح مكة، وقد حسن إسلامه وطاب له قلبه بعد ذلك ﷺ.

الختان علامة النبى الخاتم ﷺ

وكان ابن الناطور صاحب إيليا وهرقل، أسقف على نصارى الشام، يحدث أن هرقل حين قدم إيليا أصبح يوما خبيث النفس فقال له بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك، قال ابن الناطور: وكان هرقل حزاء ينظر فى النجوم، فقال لهم حين سألوه: إنى رأيت الليلة حين نظرت فى النجوم ملك الختان قد ظهر، فمن يختتن من هذه الأمة؟ قالوا: ليس يختتنوا إلا اليهود فلا يهمنك شأنهم، واكتب إلى مدائن ملكك فيقتلوا من فيهم من اليهود، فبينما هم على أمرهم أتى هرقل

برجل أرسل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله ﷺ، فلما استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا؟ فنظروا إليه فحدثوه أنه مختتن، وسأله عن العرب فقال: هم يختتنون، فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر، ثم كتب هرقل إلى صاحب له بروميا- وكان نظيره فى العلم- وصار هرقل إلى حمص، فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأى هرقل على خروج النبى ﷺ وأنه نبى، فأذن هرقل لعظماء الروم فى دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى، فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما رآى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردوهم على وقال: إنى قلت مقالتى آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه.

قيصر يكذب وأبو سفيان يساعده وبطريق يصدق أمر النبى ﷺ

وعند ذلك كتب كتابا وأرسله مع دحية إلى رسول الله ﷺ يقول فيه: إنى مسلم ولكننى مغلوب، وأرسل بهدية، فلما قرأ ﷺ الكتاب، قال: كذب عدو الله ليس بمسلم، وقبل ﷺ هديته وقسمها بين المسلمين، ومصداق قوله ﷺ أن قيصر بعد هذه القصة بسنتين قاتل المسلمين بغزوة مؤتة.

ويروى أن أبا سفيان رضي الله عنه قال لقيصر لما سأله هل كنتم تتهمونه بالكذب؟ فقال:

لا، لكن أخبرك عنه أيها الملك خبرا تعرف به أنه كذب، قال: وما هو؟ قلت: يزعم أنه خرج من أرضنا أرض الحرم فى ليلة فجاء إلى مسجدكم هذا ورجع إلينا فى تلك الليلة قبل الصباح، فقال بطريق، أى: قائد من قواد الملك كان واقفا عند رأس قيصر: صدق أيها الملك، فنظر إليه قيصر فقال: ما أعلمك بهذا؟ قال: إنى كنت لا أنام ليلة أبدا حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كنت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنى فاستعنت عليه بعمالى ومن يحضرنى، فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول جبلا، فدعوت النجارين فنظروا إليه فقالوا: لا نستطيع نحركه حتى نصبح، فلما أصبحت جئت إليه فإذا الحجر الذى فى زاوية المسجد مثقوب، وإذا فيه أثر مربط الدابة، فقلت لأصحابى: ما حبس هذا الباب الليلة إلا لهذا الأمر، فقال قيصر لقومه: يا قوم ألستم تعلمون أن بين يدى الساعة نبيا بشركم به عيسى بن مريم ترجون أن يجعله الله فيكم، قالوا: بلى، قال: فإن الله قد جعله فى غيركم وهى رحمة الله عز وجل يضعها حيث يشاء، وأمر بإنزال دحية وإكرامه.

قيصر يتأدب مع رسالة رسول الله ﷺ

وذكر أن ابن أخى قيصر أظهر الغيظ الشديد وقال لعمه: قد ابتدأ بنفسه وسماك صاحب الروم ألق به، يعنى الكتاب، فقال له: والله إنك لضعيف الرأى أترى أرمى بكتاب رجل يأتيه الناموس الأكبر، هو أحق أن يبدأ بنفسه، ولقد صدق أنا صاحب الروم والله مالكى ومالكه، أى: وفى لفظ أن أخا قيصر لما سمع الترجمان يقرأ من محمد رسول الله ﷺ إلى قيصر صاحب الروم ضرب فى

صدر الترجمان ضربة شديدة، ونزع الكتاب من يده، وأراد أن يقطعه، فقال له قيصر: ما شأنك؟ فقال: تنظر فى كتاب رجل قد بدأ بنفسه قبلك وسماك قيصر صاحب الروم، وما ذكر لك ملكا، فقال له قيصر: إنك أحمق صغيرا، ومجنون كبيرا، أتريد أن تمزق كتاب رجل قبل أن أنظر فيه، ولعمرى إن كان رسول الله كما يقول، لنفسه أحق أن يبدأ بها منى، ولئن سمانى صاحب الروم لقد صدق ما أنا إلا صاحبهم وما ملكهم، ولكن الله سخرهم لى، ولو شاء لسلطهم على كما سلط فارس على كسرى فقتلوه. ولما جاءه ﷺ الخبر عن قيصر قال: ثبت ملكه. وفى لفظ: سيكون لهم بقية.

رسالة رسول الله ﷺ تحفظ ملك قيصر

ولقد صدق الله ورسوله فقد ذكر الحافظ بن حجر رحمة الله تعالى عليه أن الملك المنصور قلاوون أرسل بعض أمرائه إلى ملك المغرب بهدية، فأرسله ملك المغرب إلى ملك الإفرنج فى شفاعة فقبله وأكرمه وقال له: لأتحفنك بتحفة سنية فأخرج له صندوقا مصحفا بالذهب، وأخرج منه مقلمة، وفى لفظ: قصبة من الذهب.

-قال السهيلى رحمه الله تعالى: قال: بلغنى أن هرقل وضع الكتاب فى قصبة من ذهب تعظيما له- فأخرج منها كتابا قد زالت أكثر حروفه، وقد ألصق عليه خرقة حرير فقال: هذا كتاب نبيكم لجدى قيصر ما زلنا نتوارثه إلى الآن، وذكر لنا آباؤنا عن آبائهم أن ما دام هذا الكتاب عندنا لا يزول الملك عنا، ونحن نحفظه غاية الحفظ ونعظمه ونكتمه عن النصارى ليدوم الملك فينا، أى:

ولا ينافيه ما جاء إذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، لأن المراد إذا زال ملكه عن الشام لا يخلفه فيه أحد، وكان كذلك لم يبق إلا ببلاد الروم.

رسالة ثانية لقيصر من رسول الله ﷺ

وفى صحيح ابن حبان عن أنس ﷺ أن النبى ﷺ كتب إليه أيضا من تبوك يدعوه وأنه قارب للإجابة ولم يجب. وقد ذكر حامل كتابه إليه ﷺ قال: جئت تبوك فإذا هو جالس بين ظهرانى أصحابه محتبيا فقلت: أين صاحبكم؟ قيل: هو هذا، فأقبلت أمشى حتى جلست بين يديه، فناولته كتابى، فوضعه فى حجره ثم قال: من أنت؟ قلت: إنى رسول قوم، وعلى دين قوم لا أرجع عنهم حتى أرجع إليهم، فضحك ﷺ وقال: إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين، فلما فرغ من قراءة كتابى قال: إن لك حقا وإنك رسول، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها، إنا قوم سفر، فقال رجل: أنا أجوزه، فأتى بحلة فوضعها فى حجرى فسألت عنه، فقيل لى: إنه عثمان بن عفان ﷺ.

٢- كتابه ﷺ إلى كسرى ملك فارس

كتب إليه ﷺ كتابا وبعث به مع عبد الله بن حذافة السهمى ﷺ- لأنه كان يتردد على كسرى كثيرا- وقيل: أرسله مع غيره، وفى الكتاب: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، أدعوك بدعاية الله فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا، ويحق القول على الكافرين، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس)، أى: الذين هم أتباعك. قال عبد الله بن حذافة ﷺ فأتيت إلى بابه وطلبت الإذن عليه حتى وصلت إليه فدفعت إليه بكتاب رسول الله ﷺ، فقرىء عليه فأخذه فمزقه.

وفى رواية: أن كسرى لما أعلم بكتاب رسول الله ﷺ أذن لحامل الكتاب أن يدخل عليه، فلما وصل، أمر كسرى أن يقبض منه الكتاب فقال: لا، حتى أدفعه إليه كما أمرنى رسول الله ﷺ، فقال كسرى: أدنه، فدنا فناوله الكتاب، فدعا من يقرؤه، فقرأه فإذا فيه: من محمد رسول الله ﷺ إلى كسرى عظيم فارس، فأغضبه حين بدأ رسول الله ﷺ بنفسه وصاح ومزق الكتاب قبل أن يعلم ما فيه، وأمر بإخراج حامل ذلك الكتاب، فأخرج، فلما رأى ذلك قعد على راحلته وسار، فلما ذهب عن كسرى ثورة غضبه بعث يطلب حامل الكتاب فلم يجده، فلما وصل إليه ﷺ وأخبره الخبر قال ﷺ: مزق ملك كسرى. وفى رواية: مزق الله ملكه. وفى رواية: اللهم مزق ملكه كل ممزق.

كسرى يأمر بالقبض على النبى ﷺ فيقتله ولده

وكتب كسرى إلى أمير له فى اليمن يقال له باذان: إنه بلغنى أن رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى فسر إليه فاستتبه، فإن تاب وإلا فابعث إلى برأسه، يكتب إلى بهذا الكتاب، أى: الذى بدأ فيه بنفسه وهو عبدى. وفى رواية قال له: إن لم تكفنى رجلا خرج بأرضك يدعونى إلى دينه وإلا فعلت فيك كذا- يتوعده- فابعث إليه رجلين جلدين فليأتيا به، فبعث باذان بكتاب كسرى إلى النبى ﷺ مع قهرمانه، وبعث معه رجلا آخر من الفرس، وبعث بهما إلى رسول الله ﷺ وكتب معهما إلى رسول ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى، فخرجا وقدما الطائف فوجدا رجلا من قريش فى أرض الطائف فسألوه عنه فقال: هو بالمدينة، فلما قدما عليه المدينة قالا له: شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى بعث إلى الملك باذان أن يبعث إليك من يأتى بك، وقد بعثنا إليك، فإن أبيت أهلكك وأهلك قومك وخرب بلادك، وكان على زى الفرس من حلق لحاهم وأعفا شوارهم، فقال لهما: ويلكما من أمركما بهذا؟ قالا: أمرنا ربنا- يعنيان كسرى- ثم قال لهما: ارجعا حتى تأتيانى غدا، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بأن الله سلط على كسرى ابنه فقتله فى شهر كذا فى ليلة كذا، أى: ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى سنة تسع، فلما كان الغد دعاهما وأخبرهما الخبر، وكتب رسول الله ﷺ إلى باذان أن الله قد وعدنى أن يقتل كسرى يوم كذا فى شهر كذا، فلما أتى باذان الكتاب توقف، قال: إن كان نبيا فسيكون ما قال، فقتل الله كسرى فى اليوم الذى قال رسول الله ﷺ على يد ولده شيرويه. قيل: قتله ليلا بعد ما مضى من الليل سبع ساعات، فيكون

المـــراد باليوم فى هذه الرواية مجرد الوقت، وفى رواية أنه ﷺ قال لرسول باذان: اذهب إلى صاحبك وقل له: إن ربى قد قتل ربك الليلة، ثم جاء الخـــبر بـــأن كسرى قتل تلك الليلة، فكان كما أخبر ﷺ، فلما جاءه ﷺ هـــلاك كســـرى قـــال: لعن الله كسرى أول الناس هلاكا فارس ثم العرب.

وعن جابر بن سمرة رضى الله عنهما أنه ﷺ قال: لتفتحن عصابة من المسلمين أو من المؤمنين أو رهط من أمتى كنوز كسرى التى فى القصر الأبيض، فكنت أنـــا وأبى فيهم وأصبنا من ذلك ألف درهم.

تحقق نبوءته ﷺ

وقدم على باذان كتاب شيرويه فيه: أما بعد فقد قتلت كســـرى و لم أقتلـــه إلا غضبا لفارس، فإنه قتل أشرافهم فتفرق الناس، فإذا جاءك كتابى هذا فخـــذ لى الطاعة ممن قبلك، وانظر الرجل الذى كان كسرى يكتب إليك فيه، فلا تزعجه حتى يأتيك أمرى فيه فبعث باذان بإسلامه وإسلام من معه إلى رسول الله ﷺ، ثم ملك الله المسلمين ملك كسرى وخزائنهم وأموالهم فى خلافة سيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، ومزقهم الله كل ممزق تحقيقا لدعوته ﷺ.

٣- كتابه ﷺ للنجاشى ملك الحبشة

بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى ﷺ إلى النجاشى سنة ست وبعث معه كتابا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة سلم أنت، أى: أنت سالم لأن السلم يأتى بمعنى السلامة، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول، أى: المنقطعة عن الرجال التى لا شهوة لها فيهم، والمنقطعة عن الدنيا وزينتها، الطيبة الحصينة- ومن ثم قيل لسيدتنا فاطمة بنت رسول الله ﷺ البتول- حملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده. وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى، فإنى رسول الله، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتى، والسلام على من اتبع الهدى).

فلما وصل إليه الكتاب وضعه على عينيه ونزل عن سريره فجلس على الأرض، ثم أسلم ودعا بحق من عاج، أى: وهو عظم الفيل، وجعل فيه كتاب رسول الله ﷺ وقال: لن تزال الحبشة بخير ما كان هذا الكتاب بين أظهرهم. وفى رواية: بعث ﷺ عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى فكان أول رسول، وكتب إليه كتابين يدعوه فى أحدهما إلى الإسلام، وفى الآخر يأمره أن يزوجه ﷺ أم حبيبة، فأخذ الكتابين وقبلهما ووضعهما على رأسه وعينيه ونزل عن سريره تواضعا، ثم أسلم وشهد شهادة الحق.

رسالة النجاشى إلى رسول الله ﷺ

وكتب النجاشى إليه ﷺ جواب الكتاب وفيه: (بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله ﷺ من النجاشى أصحمة، السلام عليك يا نبى الله من الله ورحمة الله وبركاته الذى لاإله إلا هو، زاد فى لفظ الذى هدانى للإسلام. أما بعد، فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى عليه السلام، فورب السماء والأرض إن عيسى عليه السلام لا يزيد على ما ذكرت، وقد عرفنا ما بعث به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه- يعنى جعفر بن أبى طالب ومن معه من المسلمين رضي الله عنهم- فأشهد أنك رسول الله ﷺ صادقا مصدقا، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، أى: جعفر بن أبى طالب، وأسلمت على يده لله رب العالمين).

وعند ذلك قال ﷺ: اتركوا الحبشة ما تركوكم.

النبى ﷺ رأى الخير فى النجاشى

وذكر أن عمرو بن أمية رضي الله عنه قال للنجاشى: أى: عند إعطائه الكتاب،: يا أصحمة إن على القول وعليك الاستماع، إنك كأنك فى الرقة علينا منا، وكأنا فى الثقة بك منك، لأنا لم نظن بك خيرا قط إلا نلناه، ولم نخفظك على شرقط إلا أمناه، وقد أخذنا الحجة عليك من قبل آدم، والإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد، وقاض لا يجور، وفى ذلك موقع الخير وإصابة الفضل، وإلا فأنت فى هذا النبى الأمى ﷺ كاليهود فى عيسى بن مريم عليه السلام، وقد فرق النبى ﷺ رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم له، وأمنك على ما خافهم عليه، لخير سالف، وأجر ينتظر، فقال النجاشى: أشهد بالله أنه النبى الذى ينتظره أهل الكتاب، وأن

بشارة موسى عليه السلام براكب الحمار كبشارة عيسى عليه السلام براكب الجمـــــل، وأن العيان ليس بأشفى من الخبر. زاد بعضهم: ولكـــن أعوانى من الحبشـــة قليـــل فانظرنى حتى أكثر الأعوان وألين القلوب.

٤- كتابه ﷺ للمقوقس

المقوقس معناه المطول البناء، وهو لقب لكل من ملك القبط وهم أهل مصر والأسكندرية وليسوا من بنى إسرائيل. بعث ﷺ حاطب بن أبى بلتعة اللخمى ﷺ إلى المقوقس، وذلك أنه ﷺ عند منصرفه من الحديبية قال: أيها الناس أيكم ينطلق بكتابى هذا إلى صاحب مصر وأجره على الله، فوثب إليه حاطب وقال: أنا يا رسول الله، قال: بارك الله فيك يا حاطب، قال حاطب: فأخذت الكتاب وودعته ﷺ وسرت إلى منزلى، وشددت على راحلتى، وودعت أهلى وسرت. وفى رواية: أنه ﷺ أرسل مع حاطب جبرا مولى ابن رهم الغفارى والكتاب مع حاطب وفيه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط ﴿ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾ وختم الكتاب.

حكيم جاء من عند حكيم

وجاء به حاطب ﷺ حتى دخل على المقوقس بالأسكندرية- بعد أن ذهب إلى مصر فلم يجده، فذهب إلى الأسكندرية فأخبر أنه فى مجلس مشرف على البحر، فركب حاطب ﷺ سفينة وحاذى مجلسه- وأشار بالكتاب إليه، فلما رآه أمر بإحضاره بين يديه، فلما جيء به نظر إلى الكتاب وفضه وقرأه وقال: ما

منعه إن كان نبيا أن يدعوا على من خالفه، أى: من قومه وأخرجوه من بلده إلى غيرها أن يسلط عليهم، فاستعاد منه الكلام مرتين ثم سكت، فقال له حاطب: ألست تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه أن لا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله تعالى حتى رفعه الله إليه، قال: أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم، ثم قال له حاطب ﷺ: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى- يعنى فرعون- فأخذه الله نكال الآخرة والأولى فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك، إن هذا النبى ﷺ دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له يهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى عليه السلام إلا كبشارة عيسى بمحمد ﷺ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكل نبى أدرك قوما فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، فأنت ممن أدرك هذا النبى ولسنا ننهاك عن دين المسيح عليه السلام ولكنا نأمرك به، فقال: إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب عنه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكذاب، ووجدت معه آلة النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى، وسأنظر. وأخذ كتاب النبى ﷺ وجعله فى حق عاج وختم عليه ودفعه إلى جارية له.

رسالة وهدايا المقوقس إلى النبى ﷺ

ثم دعا كاتبا له يكتب بالعربية فكتب إلى النبى ﷺ: (بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك أما بعد، فقد قرأت

كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعوا إليه، وقد علمت أن نبيا قد بقي، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، أى: فإنه قد دفع له مائـــة دينار وخمسة أثواب، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان فى القبـــط عظيـــم، أى: وهمـــا مارية وسيرين، وبثياب، أى: وهى عشرون ثوبا من قباطى مصـــر، وفى رواية: وأرسل له عمائم وقباطى وطيب وعودا وندا ومسكا، مع ألف مثقـــال من الذهب، ومع قدح من قوارير، فكان ﷺ يشرب فيـــه، ثم قال: وأهديـــت لك بغلة لتركبها، والسلام عليك)، ولم يزد على ذلك ولم يسلم، وفى روايـــة: أهدى له ﷺ مع الجاريتين جارية أخرى اسمها قيسى وهى أخت ماريـــة، وفى رواية: ذكر جارية رابعة اسمها بريرة وكانت سوداء، وأن النبى ﷺ أهدى واحدة من تلك الجوارى لأبى جهم بن حذيفة العدوى وهى أم ابنه زكريا الذى كـــان خليفة عمرو بن العاص ﷺ على مصر، وأهدى ﷺ أخرى لحسان بن ثـــابت ﷺ وهى أم عبد الرحمن بن ثابت ﷺ، وفى رواية: أن المقوقس أهدى للنبى ﷺ مـــع الجوارى غلاما أسود خصيا يقال له مأبور، وفى رواية: أنه أهدى مـــع البغلـــة حمارا أشهب يقال له يعفور، وأما البغلة فتسمى الدلدل وكـــانت شـــهباء، ولم يكن يومئذ فى العرب بغلة غيرها، وأهدى له أيضا فرسا وهو اللزاز، ففى رواية: أن المقوقس قال لحاطب: مالذى يحب صاحبك من الخيل؟ فقال له حـــاطب: الأشقر، وقد تركت عنده فرسا يقال له: المر تجز، فانتخب له فرسا من خيـــل مصر الموصوفة، فأسرج وألجم وهو فرسه الميمون، وأهدى له عسلا من عســـل بنها- قرى من قـــرى مصر- فأعجب به ﷺ ودعا فى عسل بنها بالبركة، ولمـــا أكل منه قال: إن كان عليكم أشرف فهذا أحلى، وأهدى له ﷺ مربعة يضـــع

فيها المكحلة، وقارورة الدهن، والمشط، والمقص، والسواك، ومكحلة من عيدان شامية، ومرآة، ومشطا. وفى رواية: أنه أرسل مع الهدية طبيباً، فقال له النبى ﷺ: ارجع إلى أهلك نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع.

ثم إن المقوقس قال لحاطب: ارجع إلى صاحبك وارحل من عندى ولا تسمع منك القبط حرفاً واحداً، قال حاطب: فرحلت من عنده وبعث معى جيشاً يحرسنى إلى أن دخلت جزيرة العرب، ووجدت قافلة من الشام تريد المدينة، فرد الجيش وارتفقت بالقافلة.

حوار المقوقس مع ثقيف

وفى بعض كتب السير أن المغيرة بن شعبة ﷺ وفد على المقوقس ومعه وهط من ثقيف- وكان ذلك قبل إسلام المغيرة- فلما دخلوا على المقوقس قال: ما صنعتم فيما دعاكم إليه محمد؟ قالوا: ما تبعه منا رجل واحد، قال: كيف صنع قومه؟ قال: اتبعه أحداثهم وقد لاقاه من خالفه فى مواطن كثيرة، قال: فإلى ماذا يدعو؟ قالوا: إلى أن نعبد الله وحده، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا، ويدعوا إلى الصلاة، والزكاة، وصلة الرحم، ووفاء العهد، وتحريم الزنا، والربا، والخمر، فقال المقوقس: هذا نبى مرسل إلى الناس كافة، ولو أصاب القبط والروم لاتبعوه، وقد أمرهم بذلك عيسى، وهذا الذى تصفون منه نعت الأنبياء من قبله، وستكون له العاقبة حتى لا ينازعه أحد، ويظهر دينه إلى منتهى الخف والحافر، فقالت ثقيف: لو دخل الناس كلهم معه ما دخلنا معه، فهز المقوقس رأسه وقال: أنتم فى اللعب.

ثم سألهم عن أشياء مثل سؤال هرقل لأبى سفيان، ثم قال لهم: ما فعلت يهود بيثرب؟ قلنا: خالفوه فأوقع بهم، فقال: هم حسدوه أما إنهم يعرفون من أمره مثل ما نعرف.

حوار المقوقس مع حاطب بن أبى بلتعة

وذكر الواقدى وابن الحكم من طريق أبان بن صالح قال: أرسل المقوقس إلى حاطب، أى: حين جاءه بكتاب النبى ﷺ، فقال: أسألك عن ثلاث، فقال: لا

تسألنى عن شىء إلا صدقتك، قال: على ما يدعو محمد؟ قلت: إلى أن يُعبد الله وحده، ويأمر بخمس صلوات فى اليوم والليلة، وصيام رمضان، وحج البيت، والوفاء بالعهد، وينهى عن أكل الميتة، والدم، إلى أن قال: صفه لى، فوصفته فأوجزت، قال: بقيت أشياء لم تذكرها، أفى عينيه حمرة؟ قلت: ما تفارقه، قال: وبين كتفيه خاتم النبوة، يركب الحمار، ويلبس الشملة، ويجتزى بالتمرات والكسر، لا يبالى من لاقى من عم ولا ابن عم، قلت: هذه صفته، قال: قد كنت أعلم أن نبياً قد بقى، وقد كنت أظن أن مخرجه من الشام وهناك كانت تخرج الأنبياء قبله، فأراه قد خرج من أرض العرب فى أرض جهد وبؤس، والقبط لا تطاوعنى على اتباعه، وأنا أضن بملكى أن أفارقه، وسيظهر على البلاد وينزل أصحابه من بعده بساحتنا هذه حتى يظهر على ما ههنا، وأنا لا أذكر للقبط من هذه حرفاً، ولا أحب أن تعلم بمجاورتى إياك أحداً، قال حاطب ﷺ: فذكرت قوله لرسول الله ﷺ، فقال: ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه كما قال، ولم يزد على هذا، ولم يسلم، بل استمر على نصرانيته حتى فتح المسلمون منه مصر فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ.

٥- كتابه ﷺ إلى المنذر بن ساوى التميمى وكان بالبحرين

بعث ﷺ إليه العلاء بن الحضرمى ﷺ ومعه كتاب يدعوه فيه إلى الإسلام، قال فى شرح المواهب: ولم نر أحدا ذكر لفظ ذلك الكتاب، إلا أن البعض ذكر أن النبى ﷺ حدد فيها ملامح المسلم وهى: (من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا)٠ فلما وصل إليه الكتاب آمن وكتب إلى رسول الله ﷺ: (أما بعد يا رسول الله فإنى قد قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه، ومنهم من كرهه فلم يدخل فيه، وبأرضى يهود ومجوس، أى: باقين على كفرهم، فأحدث إلى أمرك فى ذلك)٠ فكتب إليه رسول الله ﷺ: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، أما بعد، فإنى أذكرك الله فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى، ومن نصح لهم فقد نصح لى، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا، وإنى قد شفعتك فى قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية)٠

وجاء فى رواية: أنه كتب إليه أن أفرض على كل رجل ليس له أرض أربعة دراهم وعباءة٠ وفى رواية: كتب إليه أن أعرض عليهم الإسلام فإن أبوا أخذت منهم الجزية على أن تنكح نساؤهم ولا تؤكل ذبائحهم٠

العلاء ينصح والمنذر يسلم

وذكر السهيلى فى الروض أن العلاء لما قدم على المنذر قال له: يا منذر إنك عظيم العقل فى الدنيا فلا تقصرن عن الآخرة، إن هذه المجوسية شر دين ليس فيها تكرم العرب ولا علم أهل الكتاب، ينكحون ما يستحيا من نكاحه، ويأكلون ما يتكرم عن أكله، ويعبدون فى الدنيا نارا تأكلهم يوم القيامة، ولست بعديم عقل ولا رأى، فانظر هل ينبغى لمن لا يكذب أن لا تصدقه؟ ولمن لا يخون أن لا تأمنه؟ ولمن لا يخلف أن لا تثق به؟ فإن كان هكذا فهو النبى الأمى الذى والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول ليت ما أمر به نهى عنه، أو ما نهى عنه أمر به، أو ليته زاد فى عفوه أو نقص من عقابه، إذ كل ذلك منه على أمية أهل العقل وفكر أهل النظر، فقال المنذر: قد نظرت فى هذا الذى فى يدى فوجدته للدنيا دون الآخرة، ونظرت فى دينكم فرأيته للآخرة والدنيا، فما يمنعنى من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت، ولقد عجبت أمس ممن يقبله، وعجبت اليوم ممن يرده، وإن من إعظام ما جاء به أن يعظم رسوله، وسأنظر.

٦- كتابه ﷺ إلى جيفر وعباد ابني الجلندى ملك عمان

روى مسلم عن أبي برزة ﷺ قال: بعث رسول الله ﷺ رجلا إلى قوم فسبوه وضربوه فجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: لو أهل عمان أتيت ما سبوك ولا ضربوك. وروى الإمام أحمد عن عمر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنى لأعلم أرضا يقال لها عمان ينضح بناحيتها البحر، لو أتاهم رسولى ما رموه بسهم ولا بحجر. وعمان بضم العين المهملة وتخفيف الميم بلدة من بلاد اليمن.

بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص ﷺ إلى جيفر وعباد ابني الجلندى وبعث معه كتابا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعباد ابني الجلندى، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، إنى رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما، وخيلى تحل بساحتكما، وتظهر نبوتى على ملككما). وختم رسول الله ﷺ الكتاب.

حوار عمرو بن العاص مع عباد ابن الجلندى

قال عمرو ثم خرجت حتى انتهيت إلى عمان فعمدت إلى عباد- وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقاً- فقلت: إنى رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك، فقال: أخى المقدم علىّ بالسن والملك وأنا أوصلك به حتى يقرأ كتابك، ثم قال: وما تدعو إليه؟ قلت: أدعوك إلى الله وحده وتخلع ما عبد من دونه، وتشهد أن محمدا عبده ورسوله، قال: يا عمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك-

يعنى العاص بن وائل- فإن لنا فيه قدوة؟ قلت: مات و لم يؤمن بمحمد ﷺ، وودت له لو كان آمن وصدق به، وقد كنت قبل على مثل رأيه حتى هدانى الله للإسلام، قال: فمتى تبعته؟ قلت: قريبا، فسألنى أين كان إسلامى؟ فقلت: عند النجاشى، وأخبرته أن النجاشى قد أسلم، قال: فكيف صنع قومه بملكه؟ قلت: أقروه واتبعوه، قال: والأساقفة، أى: رؤساء النصرانية والرهبان، قلت: نعم، قال: انظر يا عمرو ما تقول إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له، أى: أكبر فضيحة، من كذب، قلت: وما كذبت ومانستحله فى ديننا، ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشى، قلت له: بلى، قال: بأى شىء علمت ذلك يا عمرو، قلت: كان النجاشى ﷺ يخرج له خراجا فلما أسلم النجاشى وصدق بمحمد ﷺ قال: لا والله ولو سألنى درهما واحدا ما أعطيته، فبلغ هرقل قوله، فقال له أخوه: أتدع عبدك لا يخرج لك خراجا ويدين دينا محدثا، فقال هرقل: رجل رغب فى دين واختاره لنفسه ما أصنع به، والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع، قال: انظر ما تقول يا عمرو، قلت: والله صدقتك، قال عباد: فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه؟ قلت: يأمر بطاعة الله عز وجل، وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر، وصلة الرحم، وينهى عن الظلم، والعدوان، وعن الزنا، وشرب الخمر، وعن عبادة الحجر، والوثن، والصليب، فقال: ما أحسن هذا الذى يدعو إليه لو كان أخى يتابعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به، ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا، أى: تابعا، قلت: إنه إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم فردها على فقيرهم، قال: إن هذا الخلق حسن، وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ من

الصدقات فى الأموال، ولما ذكرت المواشى قال: يا عمرو ويؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى فى الشجر وترد المياه، فقلت: نعم، فقال: والله ما أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذا.

إسلام جيفر وأخوه وقومهما بعد حوار مع عمرو بن العاص ﷺ

قال عمرو: فمكثت أياما بباب جيفر وقد أوصل إليه أخوه خبرى، ثم إنه دعانى فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بضبعى، أى: عضدى، قال: دعوه، فأرسلت فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعونى أجلس، فنظرت إليه، فقال: تكلم بحاجتك، فدفعت إليه كتابا مختوما، ففض خاتمه فقرأه حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه ثم قال: ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت؟ فقلت: تبعوه إما راغب فى الإسلام، وإما راهب مقهور بالسيف، قال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا فى الإسلام واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال مبين، فما أعلم أحد بقى غيرك فى هذه الخرجة، وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه، تطؤك الخيل وتبيد خضراءك، أى: جماعتك، فأسلم تسلم ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال، قال: دعنى يومى هذا وارجع إلى غدا، فلما كان الغد أتيت إليه فأبى أن يأذن لى، فرجعت إلى أخيه فأخبرته أنى لم أصل إليه فأوصلنى إليه فقال: إنى فكرت فيما دعوتنى إليه فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا ما فى يدى وهو لا تبلغ خيله ههنا، وإن بلغت خيله ألفت، أى: وجدت، قتالا ليس كقتال من لاقى،

قلت: وأنا خارج غدًا، فلما أيقن بمخرجى، خلا به أخوه فأصبح فأرسل إلى فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعا، وصدقا وخليا بينى وبين الصدقة، وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لى عونا على من خالفنى، وأسلم معهما خلق كثير، ووضعت الجزية على من لم يسلم. وكان بعث كتابه ﷺ إلى ملكى عمان فى ذى القعدة سنة ثمان.

٧- كتابه ﷺ إلى هوزة بن على الحنفى صاحب اليمامة

اليمامة بلاد بالمشرق كثيرة النخيل على نحو ست عشرة مرحلة من مكة. كتب ﷺ إلى صاحب اليمامة هوذة بن على الحنفى، وأرسل الكتاب مع سليط بن عمرو العامرى ﷺ- وكان ممن أسلم قديما وهاجر إلى الحبشة ثم المدينة، وشهد بدرا وغيرها واستشهد باليمامة فى قتال أهل الردة- وفى الكتاب: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﷺ إلى هوذة بن على، سلام على من اتبع الهدى، وأعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك). فلما قدم عليه سليط بكتاب رسول الله ﷺ مختوما أنزله وحياه وقرأ عليه الكتاب، فرد ردا فيه لطف.

قال السهيلى: وقال له سليط ﷺ: يا هوذة إنك سودتك أعظم حائلة، أى: بالية، وأرواح فى النار، وإنما السيد من متع بالإيمان، ثم زود بالتقوى، إن قوما سعدوا برأيك فلا يشقون به، وإنى آمرك بخير مأمور به، وأنهاك عن شر منهى عنه، آمرك بعبادة الله، وأنهاك عن عبادة الشيطان، فإن فى عبادة الله الجنة، وفى عبادة الشيطان النار، فإن قبلت نلت مارجوت، وأمنت ما خفت، وإن أبيت فبيننا وبينك كشف الغطاء، وهول المطلع، فقال هوذة: يا سليط سودنى من لو سودك شرفت به، وقد كان لى رأى أختبر به الأمور ففقدته فموضعه من قلبى هواء، فاجعل لى فسحة يرجع إلى فيها رأيي فأجيبك به إن شاء الله.

وذكر الواقدى أن أركون دمشق الرومى من عظماء النصارى كان عند هوذة، فقال له هوذة: جاءنى كتاب من النبى ﷺ يدعونى إلى الإسلام فلم أجبه، فقال

الأركون: لم لا تجيبه؟ قال: ضننت بديني وأنا ملك قومي ولئن تبعته لن أملك، قال: بلى والله لئن اتبعته ليملكنك، وأن الخير لك في اتباعه، وأنه للنبي العربي الذي بشر به عيسى بن مريم عليه السلام، وإنه المكتوب عندنا في الإنجيل محمد رسول الله. وأركون هذا أسلم على يد خالد بن الوليد رضي الله عنه في خلافة مولانا أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

رسالة هوذة إلى النبي ﷺ

ثم إن هوذة كتب للنبي ﷺ جواب كتابه وقال فيه: ﴿ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني فاجعل لي بعض الأمر اتبعك﴾. وكأنه أراد الشركة في النبوة والخلافة بعده ﷺ.

من أعلام نبوته ﷺ نبأ مسيلمة الكذاب

وأجاز هوذة سليطا بجائزة وكساه أثوابا من نسيج هجر، فقدم بكتابه على النبي ﷺ وأخبره بخبره فلما قرأ الكتاب على النبي ﷺ قال: لو سألني سيابة من الأرض، أي: قطعة منها، ما فعلت، باد وباد ما في يديه، أي: هلك، وهو خبر أو دعاء. فلما انصرف النبي ﷺ من الفتح أخبره جبريل عليه السلام بأن هوذة قد مات على كفره، فقال ﷺ: أما إن اليمامة سيظهر بها كذاب يتنبأ، يقتل بعدي، فكان كذلك فظهر بها مسيلمة الكذاب- لعنه الله- وقتل. وفي رواية: فقال قائل: يا رسول الله من يقتله؟ قال: أنت وأصحابك، قال بعضهم: والظاهر أن المخاطب من الذين اشتركوا في قتله، وتقدم الخلاف في قاتله، والمشهور أنه وحشي قاتل سيدنا الحمزة رضي الله عنهما.

٨- كتابه ﷺ إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى

وكان أميرا بدمشق من جهة قيصر، وكان إقامته بغوطتها وهو موضع بالشام كثير الماء والشجر. بعث ﷺ شجاع بن وهب إلى الحارث بن أبي شمر الغسانى وبعث معه كتابا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث ابن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى وآمن به وصدق، وإنى أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك). وختم الكتاب.

قال شجاع ﷺ: فخرجت حتى انتهيت إلى بابه فأقمت يومين أو ثلاثة، فقلت لحاجبه: إنى رسول رسول الله ﷺ إليه، فقال: لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا، وجعل حاجبه يسألنى عن رسول الله ﷺ وما يدعو إليه، فكنت أحدثه فيرق حتى يغلبه البكاء، ويقول: إنى قرأت فى الإنجيل وأجد صفة هذا النبى بعينه فكنت أراه، أى: أظن أنه يخرج بالشام، فأراه قد خرج بأرض القرظ، فأنا أؤمن به وأصدقه، وأنا أخاف من الحارث بن شمر أن يقتلنى، فكان هذا الحاجب يكرمنى ويحسن ضيافتى، ويخبرنى عن الحارث باليأس منه، ويقول: هو يخاف قيصر. فخرج الحارث يوما وجلس وعلى رأسه التاج وأذن لى عليه، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ فقرأه، ثم رمى به وقال: من ينزع منى ملكى؟ أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته، على بالناس، فلم يزل جالسا يعرض عليه حتى الليل، وأمر بالخيل أن تنقل، ثم قال لى: أخبر صاحبك بما ترى. وكتب إلى قيصر يخبره الخبر، وصادف أن كان عند قيصر دحية الكلبى ﷺ بعثه إليه ﷺ، فلما قرأ قيصر كتاب الحارث كتب إليه أن لا تسر إليه واله عنه، أى: لا تذكره، واشتغل

بإيليا، أى: بيت المقدس، ومعنى إيلياء بالعبرانية بيت الله، والمراد باشتغاله بذلك أن يهيء لقيصر الإنزال ببيت المقدس، فإنه كان نذر المشى إلى بيت المقدس شكراً لله حيث كشف عنه جنود فارس، فجاء إليه كتاب قيصر، أى: الذى فيه أنه يلهو عنه ولا يذكره.. وأنا مقيم، فدعانى وقال: متى تريد أن تخرج إلى صاحبك؟ قلت: غداً، فأمر لى بمثقال وبمائة مثقال ذهباً، ووصلنى حاجبه بنفقة وكسوة، وقال لى ذلك الحاجب: اقرأ على رسول الله ﷺ منى السلام وأخبره أنى متبع دينه.

قال شجاع: فقدمت على رسول الله ﷺ فأخبرته بما كان من الحارث، فقال: باد، أى: هلك، ملكه، وأقرأته السلام من الحاجب وأخبرته بما قال، فقال رسول الله ﷺ: صدق.

٩- كتابه ﷺ إلى بنى نهد

وهم قبيلة باليمن كانوا يتكلمون بألفاظ غريبة وحشية لا تعرفها أكثر العرب وكان ﷺ يخاطب كل قوم ويكاتبهم بلغتهم وذلك من أنواع بلاغته ﷺ، فكان يتكلم مع كل ذى لغة غريبة بلغته، ومع كل ذى لغة بليغة بلغته، اتساعا فى الفصاحة، واستحداثا للألفة والمحبة، فكان يخاطب أهل الحضر بكلام ألين من الدهن، وأرق من المزن، ويخاطب أهل البدو بكلام أرسى من الهضب، وأرهف من العضب، فانظر إلى دعائه ﷺ لأهل المدينة حين سألوه ذلك، فقال: اللهم بارك لهم فى مكيالهم، وبارك لهم فى صاعهم ومدهم. وفى رواية: اللهم بارك لنا فى تمرنا، وبارك لنا فى مدينتنا، وبارك لنا فى صاعنا، وبارك لنا فى مدنا، اللهم إنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك إبراهيم لمكة.

ثم انظر دعاءه ﷺ لبنى نهد وقد وفدوا عليه فى جملة الوفود فقام طهفة بن رهم النهدى يشكو الجدب إليه فقال: يا رسول الله أتيناك من غورى تهامه بأكوار الميس، ترتمى بنا العيس، نستحلب الصبير، ونستخلب الخبير، ونستعضد البرير، ونستخيل الرهام، ونستحيل الجهام، من أرض غائلة النطاء، غليظة الوطاء، قد نشف المدهن، ويبس الجعثن، وسعط الأملوج، ومات العسلوج، وهلك الهدى ومات الودى، برئنا إليك يا رسول الله من الوسن والعنن، وما يحدث الزمن، لنا دعوة الإسلام، وشرائع الإسلام، ماطمى البحر، وقام تعار، ولنا نعم همل، أغفال ما تبل ببلال، ووقير كثير الرسل قليل الرسل، أصابتها سنة حمراء مؤذلة ليس بها علل ولا نهل.

فقال رسول الله ﷺ فى الدعاء لهم: اللهم بارك لهم فى محضها ومخضها ومذقها، وابعث راعيها فى الدثر بيانع الثمر، وافجر له الثمد، وبارك له فى المال والولد، من أقام الصلاة كان مسلما، ومن آتى الزكاة كان محسنا، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصا، لكم يا بنى نهد ودائع الشرك، ووضائع الملك، لا تلطط فى الزكاة، ولا تلحد فى الحياة، ولا تتثاقل عن الصلاة.

ثم كتب معه كتابا إلى بنى نهد جاء فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﷺ إلى بنى نهد بن زين، السلام على من آمن بالله عز وجل ورسوله، لكم يا بنى نهد فى الوظيفة الفريضة، ولكم الفارض والفريش، وذو العنان الركوب والفلو الضبيس، لا يمنع سرحكم، ولا يعضد طلحكم، ولا يحبس دركم، مالم تضمروا الآماق، وتأكلوا الرباق، من أقر بما فى هذا الكتاب فله من رسول الله ﷺ الوفاء بالعهد والذمة، ومن أبى فعليه الربوة).

الصحابة الكرام يتعجبون من لسان رسول الله ﷺ

وروى عن على عليه السلام قلنا: يا نبى الله نحن بنى أب واحد، ونشأنا فى بلد واحد، وأنك تتكلم بلسان العرب مالا نعرف أكثره، قال: إن الله عز وجل أدبنى فأحسن تأديبى، ونشأت فى بنى سعد بن بكر، أى: فجمع لى بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها، وخلوص ألفاظ الحاضرة ورزان كلامها.

* وتفسير هذه الألفاظ هو:

- غورى تهامة: ما انحدر منها، والأكوار: الرحل، والميس: بفتح الميم شجر صلب يعمل منه رحل الإبل، ونستحلب الصبير: سحاب أبيض متراكب يتكاثف، أى: نستدر السحاب، ونستخلب الخبير: أى: نقطع عشب الأرض ونأكله، ونستعضد البرير: أى نأكل ثمر الأراك من الجدب، ونستخيل الرهام: أى نتخيل المطر فى السحاب وإن كان ضعيفا، وأرض غائلة النطاء: أى شديدة البعد، والجعثن: أصل النبات، والأملوج: ورق الشجر، والعسلوج: غصن النبات إذا يبس، والودى: فسيل النخل،

* أما تفسير قوله ﷺ هو:

- فى محضها: أى خالص لبنها، ومذقها: وهو اللبن الممزوج بالماء، وابعث راعيها فى الدثر: أى فى الخصب والنبات الكثير، وافجر له الثمد: أى كثر القليل وفجره واجعله كثيرا، لا تلطط: أى لا تمنع، ولا تلحد: أى لا تمل عن الحق،

وفى شرح الشهاب الخفاجى على الشفاء أن جماعة وفدوا على النبى ﷺ حين بعث، فلما دخلوا المسجد الحرام لم يعرفوا النبى ﷺ- وكانوا لا يعرفون العربية- فقال رجل منهم بلغته: من أبونا أسران؟، أى: أيكم رسول الله؟ فلم يفهم الحاضرون قوله، فقال النبى ﷺ: أشكد أورى، ومعنى أشكد تعال وأقبل وهلم، وأورى معناها هنا أو إلينا، وجعل رسول الله ﷺ يجيبه بلغته، ولا يفهم القوم، فأسلم وبايع وانصرف لقومه، وكان النبى ﷺ قد أخبر الصحابة بقدومه ولغته، ، فسبحان من علمه ذلك إنه المنعم الكريم،

١٠ - كتابه ﷺ لذى المشعار الهمدانى

المشعار اسم موضع باليمن لقب به مالك بن نمط الهمدانى، وهمـــدان شـــعب عظيم، أى: قبيلة من همدان، ويكنى مالك بأبى ثور، وفد على النبى ﷺ مقدمـــه من تبوك فقال: يا رسول الله نصبة من همدان من كل حاضر وباد أتوك علـــى قلص نواج متصلة بحبائل الإسلام، لا تأخذهم فى الله لومة لائم مـــن مخـــلاف خارف ويام، لا ينقضى عهدهم عن سنة ما حل، ولا سوداء عنقفير ما قام نعلع وما جرى اليعفـــور بصلع. فكتب لهم النبى ﷺ، أى: أمر بكتابة ما صورتـــه: (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رســول الله لمخـــلاف خـــارف وأهـــل جناب الهضب وحفاف الرمل مع وافدها ومن أسلم من قومه، علـــى أن لهم فراعها ووهاطها وعزازها، ما أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، يأكلون علافـــها، ويرعون عفاءها، الناس من دفئهم وصرامهم ما سلموا بالميثاق والأمانة، ولهـــم من الصدقة الثلث، والناب، والفصيل، والفـــارض، والداجـــن، والكبـــش الحوزى، وعليهم فيها الصالغ والقارح).

١١- كتابه ﷺ لقطن بن حارثة العليمى

والعليمى بمهملة مصغر نسبته لبنى عليم الكلبى، وفد قطن مع قومه على النبى ﷺ فأسلم وأنشد النبى ﷺ قوله:

رأيتك ياخير البرية كلها   نبت نضارا فى الأرومة من كعب

أغر كان البدر سنة وجهه   إذا ما بدا للناس فى حلل العضب

أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجها   ودنت اليتامى فى السقاية والجدب

فقال له النبى ﷺ خيرا، وكتب له كتابا، وخاطب فيه قومه بما يعرفون من لغتهم، وهذا صورته: (هذا كتاب من محمد لعمائر كلب وأجلافها، ومن ظأره الإسلام من غيرهم من قطن بن حارثة العليمى بإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة بحقها، فى شدة عقدها، ووفاء عهدها، بمحضر من شهود المسلمين، وسمى جماعة منهم دحية بن خليفة الكلبى، وسعد بن عبادة، وعبد الله بن أنيس، عليهم من الهمولة الراعية البساط الظئار فى كل خمسين ناقة غير ذات عوار، والحمولة المائرة لهم لاغية، وفى الشوى الورى مسنة حامل أو حائل، وفيما سقى الجدول من العين المعين العشر، وفى العثرى شطره بقيمة الأمين لايزاد عليهم وظيفة، ولا يفرق عهد على ذلك الله ورسوله، وكتبه ثابت بن قيس بن شماس).

١٢- كتابه ﷺ لوائل بن حجر فراء الحضرمى رضي الله عنه

ونسبه ينتهى إلى مالك بن مرة بن حمير بن زيد الحضرمى، كان أبوه من أقيال اليمن، ووفد هو على النبى ﷺ واستقطعه أرضها فأقطعه إياها، وأرسل النبى ﷺ معه معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما يسلمه إياها، وكان معاوية رضي الله عنه حافيا فأحرقه حر الشمس، فسأله أن يردفه خلفه فأبى، ورأى أنه لا يكون كفئا لأن يكون رديفه فقال له: لست ممن يردفه الملوك فسأله نعليه أن يلبسهما فأبى، وقال: دونك ظل ناقتى فامشى فيه وذلك كافيك، فنال حر الشمس من معاوية غايتها، وشق عليه ذلك.

فعاش وائل بن حجر حتى أدرك خلافه معاوية فوفد عليه فتلقاه وأكرمه، فقال وائل: فوددت لو كنت حملته بين يدى.

وكان لوائل صنم قبل الإسلام من عقيق يعبده ويسجد له، فنام عنده يوما فى الظهيرة فسمع صوتا هائلا، فأتى فسجد له، فسمع هاتفا يقول:

واعجبا لوائل بن حجر يخال يدرى وهو ليس يدرى
ماذا ترجى من نحيت صخر ليس بذى عرف ولا ذى نكر
ولا بذى نفع ولا بذى ضر لو كان ذا حجر أطاع أمرى

فرفع رأسه وقال: بماذا تأمرنى؟ فقال:

ارحل إلى يثرب ذات النخل وسر إليها سير مستقل
فدن بدين الصائم المصلى محمد الرسول خير الرسل

ثم خر الصّنم لوجهه، فقام إليه فجعله رفاتاً، ثم سار حتى أتى المدينة ودخل المسجد، فأدناه النبى ﷺ وبسط له رداءه وأجلسه معه، ثم صعد المنبر وقال: أيها الناس هذا وائل بن حجر سيد الأقيال أتاكم من أرض بعيدة راغباً فى الإسلام، فقال: يا رسول الله بلغنى ظهورك وأنا فى ملك عظيم فتركته واخترت دين الله، فقال: صدقت، اللهم بارك فى وائل وولده وولد ولده، ثم أنه نزل الكوفة فى آخر عمره وتوفى بها فى خلافة معاوية ﷺ وله بها عقب.

ثم بعث له ﷺ كتاباً فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الأقيال العياهلة، والأرواع المشابيب، فى البيعة شاة لا مقورة الألياط، ولا ضناك وأنطوا الثبجة، وفى السيوب الخمس، ومن زنى مم بكر فاصقعوه مائة، واستوفضوه عاماً، ومن زنى مم ثيب فضرجوه بالأضاميم، ولا توصيم فى الدين، ولا غمة فى فرائض الله تعالى، وكل مسكر حرام، ووائل بن حجر يترفل على الأقيال).

أمراء الولايات

وبعد أن بث ﷺ كتبه فى الآفاق، أمر أمراء فى كل قطر دخل فى طاعته، وانقاد لشريعته، فمن أمرائه ﷺ باذان بن ساسان كان نائباً لكسرى على اليمن فلما هلك كسرى بإخبار النبى ﷺ كما تقدم، أسلم باذان لظهور صدق النبى ﷺ له فى إخباره بهلاك كسرى مع ما بلغه عنه من المعجزات، وأرسل للنبى ﷺ بإسلامه وإسلام من معه، فأمره ﷺ على اليمن وفاء بقوله ﷺ لرسولا باذان حين أرادا الرجوع إليه: قولا له: إن أسلمت أقرك على ملكك، وهو أوّل أمير فى الإسلام على اليمن، وأوّل من أسلم من ملوك العجم، ثم مات واستعمل ﷺ ابنه شهر بن باذان، وقيل: إن باذان خرج للوفود على النبى ﷺ فلحقه الأسود العنسى الكذاب الذى ادعى النبوة باليمن فقتله، وقيل: إن الذى قتله الأسود إنما هو ابنه شهر لا هو، وأن العنسى تزوج زوجته بعد قتله- وكانت مسلمة- فأعانت فيروز الديلمى على قتل الأسود، فإنها مكنته من الدخول عليها ليلاً فقتله.

وأمّر ﷺ على صنعاء خالد بن سعيد بن العاص ﷺ، وولى زياد بن لبيد الأنصارى ﷺ حضرموت وهو مخلاف باليمن، وولى أبا موسى الأشعرى ﷺ زبيد وعدن، وولى معاذ بن جبل ﷺ الجند ومخاليفها، وولى أبا سفيان بن حرب ﷺ نجران وهو موضع باليمن، قال بعضهم: إنه لما توفى النبى ﷺ كان أبو سفيان بمكة فلعل مدة تلك الولاية لم تطل، وولى ابنه يزيد تيماء بلده بناحية تبوك.

ثم إن أبا بكر لما جهز الجيوش للشام كان أوّل أمير عقد رايته يزيد بن أبى

سفيان، ثم ولى الشام فى خلافة عمر رضى الله عنه بعد أبى عبيدة ﷺ، وقيـــــل: أخيه معاويـــة، وتوفى يزيد ﷺ بالشام وهو أكبر من معاوية، قال بعضــــهم: إن يزيد بن أبى سفيان، أفضل آل أبى سفيان وكان من فضلاء الصحابـة ﷺ، وولى ﷺ عتاب بن أبى أسيد ﷺ مكة، وولى على بن أبى طالب كرم الله وجهه القضاء باليمن؛ وولى عمرو بـــن العاص ﷺ عمان، إلى غير ذلك ممـــا بســـطه أهـــل السـير، وفى هذا القدر كفاية، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

ورسائل النبى ﷺ- وقد قدمنا بعضها- بينها سمات وملامح فارقة لا يخطئها النظر:

١- فبعضها يأتى موجزا فى سطرين أو ثلاثة، ويدعو إلى الإسلام مباشرة دون تفصيل كرسالته إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ونصها:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق، وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك).

٢- فى رسالة واحدة فقط وهى الموجهة إلى المنذر بن ساوى يذكر النبى ﷺ ملامح المسلم، فالمسلم- على حد قوله ﷺ- "من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا".

٣- وانفردت رسالته إلى النجاشى عن رسائله كلها بأمرين هما: ذكر بعض أسماء الله الحسنى: "الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن"، وشرح طبيعة سيدنا المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام فهو "روح الله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، حملته من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده ونفخه".

والعجيب أن يذكر النبى ﷺ ذلك فى كتابه إلى النجاشى، وربما كان أولى به رجل كالمقوقس "عظيم القبط" حتى يبعث فيه حسه الدينى.. فهو زعيم دينى

قبل كل شيء، ولكن معرفة الواقع التاريخي آنذاك تجعلنا نؤمن بأن النبي ﷺ في اختصاصه رسالته للنجاشي بذكر المسيح وكيفية ولادته كان هو حق، فقبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة بعدة أعوام هاجر جعفر بن أبي طالب وعشرات من المسلمين إلى الحبشة، وأرسلت قريش في أثرهم وفدا منهم عمرو بن العاص لاستعادة هؤلاء "الفارين الخارجين" وإرجاعهم إلى مكة، أو على الأقل محاولة تأليب النجاشي عليهم، فلم يجدوا سبيلا يتسللون منه إلى قلب النجاشي إلا طبيعة المسيح، ورأى المسلمين فيه "وهو سيء من وجهة نظر الكفار مما قد يغضب النجاشي"، وشرح المسلمون "الفارون" وجهة نظر الإسلام في خلق المسيح ومكانته عند المسلمين، فخابت مؤامرة الكفار، وعامل النجاشي المسلمين معاملة طيبة.

وقد أراد النبي ﷺ- بإعادة ذكر هذه المسألة في رسالته- تأييدا لما ذكره المسلمون، وتأكيدا له، وكسبا لمشاعر هذا الملك العظيم، وقد تحقق ما أراد، فأرسل إليه النجاشي كتابا يعلن فيه أنه أسلم على يد جعفر بن أبي طالب، ويعبر عن إيمانه بما ذكره الرسول في طبيعة المسيح عليه السلام.

٤- كما انفردت رسالة النبي ﷺ إلى النجاشي بذكر "مطلب خاص" هو أن يحسن النجاشي إلى جعفر بن أبي طالب ومن معه من المهاجرين إلى الحبشة، فهم في دار غربة فارون بدينهم من الشرك والظلم والعدوان.

٥- وأكد النبي ﷺ في بعض هذه الكتب مسؤولية الحكام عن ضلال الرعية، وكان هذا التأكيد صريحا قارعا شديد اللهجة في رسائل ثلاث، وهي رسائله إلى

كسرى الفرس، وهرقل الروم، والمقوقس عظيم القبط فى مصر، فالأولان هما أوسع حكام الأرض نفوذا، والثالث هو صاحب الهيمنة الدينية على أقباط مصر، ففى كتابه إلى قيصر الروم "...فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين"، وفى كتابه إلى كسرى الفرس: "...فإن أبيت فعليك إثم المجوس..". وفى كتابه إلى المقوقس "...فإن توليت فإنما عليك إثم القبط".

ولكن هذه الفروق التى ذكرناها بين الرسائل آنفا لا تبتعد، بل هى ترتبط بالفكرة المحورية الرئيسية فى هذه الرسائل، وهى الدعوة إلى الإسلام.

الآثار وردود الفعل

وقد كان تأثير هذه الرسائل مختلفا:

١- فيروى أن هرقل بعد أن قرأ رسالة النبى ﷺ عاد إلى حمص دار ملكه، ونزل قصره العظيم بها، وأغلق أبوابه، وأمر مناديا ينادى: ألا إن هرقل آمن بمحمد واتبعه، فأقبلت الأجناد فى سلاحها، وطافت بقصره تريد قتله، فأرسل إليهم إنى أردت اختبار صلابتكم فى دينكم، فقد رضيت، فرضوا عنه.

وهناك رواية أخرى خلاصتها أنه كتب كتابا وأرسله مع دحية الكلبى إلى رسول الله ﷺ يقول فيه: "إنى مسلم ولكنى مغلوب" فلما قرأه النبى ﷺ قال: (كذب عدو الله، ليس بمسلم).

٢- وأما كسرى أبرويز، فإنه مزق الرسالة، فقال رسول الله ﷺ: (مزق الله ملكه)، فسلط الله عليه ابنه شيرويه فقتله.

٣- وقبل المقوقس رسالة الرسول ﷺ، وأهدى إليه ضمن ما أهدى مارية القبطية، فتسراها النبي ﷺ وأنجب منها ابنه سيدنا إبراهيم الذى مات رضيعا، وماتت مارية مسلمة سنة ١٦هـ.

٤- وأما الحارث بن أبي شمر الغسانى، فإنه لما أتته الرسالة قال: أنا سائر إليه (يعنى محاربا) فقال رسول الله ﷺ: (باد ملكه).

٥- وأما هوذة بن على، فبعث يطلب من النبى ﷺ أن يجعل له الأمر من بعده حتى يسلم، وإلا قصده وحاربه، فقال النبى ﷺ: اللهم اكفنيه، فمات بعد قليل.

٦- وأما النجاشى، فإنه آمن برسول الله ﷺ واتبعه وأسلم على يد جعفر بن أبي طالب ﷺ وأرسل ابنه فى ستين من الحبشة فغرقوا فى البحر، وبعث إليه رسول الله ﷺ أن يزوجه بأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت مهاجرة فى الحبشة مع زوجها عبد الله بن جحش فتنصر هناك، فزوجه إياها، وقام النجاشى بصداقها أربعمائة دينار من عنده.

٧- وأما المنذر بن ساوى، فإنه أسلم، وأسلم معه أهل البحرين، والذين لم يسلموا فى حياة النبى ﷺ أسلموا فى حياة خلفائه.

المتابعات الجوابية

وفى بعض الأحيان لا تنتهى المسألة بالرسالة والرد عليها، بل تمتد المتابعة إلى كتابة رسالة تأتى الثالثة فى الترتيب الزمنى، وتكون جوابا أو وردا على الرد، ونكتفى بمثال واحد لهذه "المتابعة الجوابية": جاء رد المنذر بن ساوى ملك

البحرين على رسالة الرسول- بعد أن أعلن إسلامه- بالنص التالى:

أما بعد يا رسول الله: (فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه، ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضى مجوس ويهود، فأحدث لى فى ذلك أمرك). أى: أشر على بما أفعل، فكتب إليه ﷺ:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبد الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، أما بعد: فإنى أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى، ومن نصح لهم فقد نصح لى، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا، وإنى قد شفعتك فى قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية).

تنوع رسائله ﷺ

وهذه الرسائل الديوانية أو الرسمية أو العامة تميل فى أغلبها إلى الإيجاز والمباشرية فى معالجة الموضوع، وغلبة عنصر الفكر على الوجدان، وجاء الأداء التعبيرى فيها بالأسلوب المرسل دون تكلف أو تصيد، بعيدا عن السجع والتزين اللفظى، وهى مطعمة غالبا ببعض آيات من القرآن الكريم.

وفيما يتعلق بالدولة الإسلامية الناشئة فى المدينة نقرأ للنبى ﷺ عشرات من الرسائل والكتب والعهود والوصايا، ككتاب الموادعة أو دستور المعايشة بينه وبين اليهود ومن ساكنهم فى المدينة وما حولها، ومنها الرسائل والكتب

التشريعية التى كان يكتبها ويوجهها إلى الأفراد أو القبائل يعرض فيها أحكام الدين المختلفة فى مجال العبادات والمعاملات وغيرها، ومنها كتب الإقطاع والغنائم التى يمنح بمقتضاها فرد أو قبيلة الحق فى امتلاك أرض أوماء أو شجر أو ما شابه ذلك، أو احتكار الانتفاع بذلك بصفة دائمة أو وقت محدود.

ومنها الكتب الإدارية والتنظيمية التى تتعلق بتنظيم أمور الدولة وإدارتها فى حالتى الحرب والسلم، وتصدق كذلك على كتب تولية الولاة والقادة والتكليف بمهام محددة.

ومنها كتب التجسس والاستطلاع وهى رسائل سرية أشهرها الرسائل المتبادلة بين النبى ﷺ وعمه العباس ﷺ الذى بقى فى مكة ليكون عينا للنبى على قريش.

وللنبى ﷺ رسالة خاصة أو إخوانية واحدة لم ينقل التاريخ غيرها وهى الرسالة التى كتبها إلى الصحابى الجليل معاذ بن جبل ﷺ يعزيه فى ابن له مات جاء فيها:

(سلام الله عليك، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد، فأعظم الله لك الأجر، وألهمك الصبر، ورزقنا وإياك الشكر، ثم إن أنفسنا وأموالنا وأهلينا وأولادنا من مواهب الله المستودعة، وعواريه المستردة يمتع الله بها إلى أجل معدود، ويقبضها لوقت معلوم، ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى، والصبر إذا ابتلى، وكان ابنك هذا من مواهب الله المستودعة، وعواريه المستردة، متعك الله به فى غبطة وسرور، وقبضه بأجر كثير إن صبرت واحتسبت).

شك فى غير محله

يشككك البعض فى رسائل النبى إلى الملوك سنة ٦هـ بمقولة إن النبى ﷺ لم يكن قد بلغ فى تلك السنة من القوة الحربية ما يرغم قبائل العرب القريبة على الخضوع التام، فكيف يعقل أن يهتم بإخضاع كبار الملوك يومئذ وهو لا حول حربيا له ولا طول؟!!.

وهو شك فى غير موضعه وليس له ما يبرره للأسباب التالية:

١- الهدف من هذه الكتب لم يكن "إخضاع كبار الملوك"- كما يشككون- بل كان دعوة هؤلاء إلى هدى الإسلام، وليس فى هذه الكتب ما يوحى بطلب النبى خضوعا واستسلاما وتبعية.

٢- القول إن النبى ﷺ لم يكن له فى تلك السنة حول وطول، قول غير صحيح، ففى هذا العام هابته قريش، وإلا لقاتلته فى الحديبية، بل إنه والمسلمين- مع أنهم لم يكن معهم من السلاح إلا السيوف فى أغمادها- تأهبوا لقتال قريش اعتقادا منهم أن قريشا قتلت عثمان بن عفان رسول رسول الله إليها فى مكة.

٣- المسلمون خلال عامين فقط "الخامس والسادس من الهجرة" استطاعوا أن يقوموا بعشرين غزوة وسرية.

٤- على أن النبى ﷺ والمسلمين معه كانوا يعوضون بقوة الإيمان وشجاعة القلب والتسليم بقاعدة ﴿لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ ما يعوضهم عن العدد والعدد وقوة السلاح.

٥- هذه الكتب بعث بها النبى ﷺ إلى الملوك والرؤساء بعد أن عـــزل "جبهـــة قريش" سياسيا وعسكريا، وجنى بصلح الحديبية مكاسب سياسية كبرى،

٦- أخيرا: من يقرأ هذه الرسائل يرى أنها ذات سمات وملامح لا تختلف عــــن سمات الأسلوب النبوى فى رسائله الأخرى،

ومما ينبغى أن يلحق بالبعوث وفوده ﷺ،

كتـــاب الــوفــود

الوفود التى وفدت على رسول الله ﷺ

لما من الله سبحانه وتعالى على رسوله ﷺ بفتح مكة فى السنة الثامنة من الهجرة، وفرغ من غزوة تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجهة، وكان ذلك سنة تسع من الهجرة، وكانت هذه السنة تسمى سنة الوفود.

قال ابن إسحق: وإنما كانت العرب تربص بإسلامها أمر هذا الحى من قريش وأمر رسول الله ﷺ، وذلك أن قريشا كانوا إمام الناس وهاديتهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك.

وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش، ودوخها للإسلام عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا فى دين الله، كما قال عز وجل: (أفواجا) يضربون إليه من كل وجه، يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ۞ ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ۞ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا﴾ (سورة النصر).

وقد تقدم ذكر وفد هوازن بالجعرانة بعد فتح مكة، وكذا وفد عليه مالك بن عوف النصرى وذلك فى أواخر سنة ثمان، وكذا وفد عليه بنو تميم فى سرية عيينة بن حصن وكان ذلك فى المحرم سنة تسع.

وفد نصارى نجران

نجران بلدة كبيرة على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن، تشتمل على ثلاث وسبعين قرية، وفد عليه وفدهم وكانوا يدينون بالنصرانية، وكانوا ستين راكبا جاءوا يجادلونه ﷺ فى شأن عيسى عليه السلام.

وكان وصولهم إلى المدينة بعد دخول وقت العصر، وكانوا قد دخلوا المسجد النبوى، فقاموا يصلون فيه، فأراد الناس منعهم، فقال ﷺ: دعوهم، تأليفا لهم، فاستقبلوا المشرق، فصلوا صلاتهم.

ولما فرغوا من صلاتهم، عرض ﷺ عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فامتنعوا. وقالوا: قد كنا مسلمين قبلك، فقال رسول الله ﷺ: كذبتم.. يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، وأكلكم الخنزير، وزعمكم أن لله ولدا.

وفى رواية ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رهطا من نجران قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: ما شأنك تذكر صاحبنا، قال: من هو؟ قالوا: عيسى تزعم أنه عبد الله. قال: أجل، قالوا: فهل رأيت مثل عيسى أو أنبئت به؟ ثم خرجوا من عنده فجاءه جبريل فقال له: قل لهم إذا أتوك: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ (آل عمران: ٥٩). ونزل الوحى: ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين﴾ (آل عمران: ٦١). ثم قال لهم: إن الله أمرنى إن لم

تنقادوا للإسلام أباهلكم، أى: ندعوا ونجتهد فى الدعاء باللعنة على الكاذب. فقالوا له: يا أبا القاسم نرجع فننظر فى أمرنا، فخلا بعضهم ببعض، فقال بعضهم: والله قد علمتم أن الرجل نبى مرسل، وما لاعن قوم قط نبيا إلا استئصلوا، أى: أخذوا عن آخرهم، وإن أنتم أبيتم إلا دينكم فوادعوه، وصالحوه، وارجعوا إلى بلادكم. وفى لفظ أنهم واعدوه على الغد، فلما أصبح ﷺ أقبل ومعه السادة حسن وحسين وفاطمة وعلى ﷺ، وعند ذلك قال لهم الأسقف: إنى لأرى وجوها لو سألوا الله تعالى أن يزيل لهم جبلا لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصرانى، فقالوا له ﷺ: لا نباهلك.

ثم أنهم صالحوا النبى ﷺ على الجزية، وكتب لهم كتابا، وقالوا: أرسل معنا أمينا، فأرسل معهم أبا عبيدة عامر بن الجراح ﷺ.

وفى أهل نجران وفى الرد عليهم أنزل الله أكثر آيات سورة آل عمران وافتتحها بالتوحيد بقوله تعالى: ﴿هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء﴾ (آل عمران: ٦). أى: بأن يجعلكم من أم وأب، أو من أم بلا أب فيكون فى أول الكلام إشارة إلى الرد عليهم.

وفى البخارى: عن حذيفة بن اليمان أنه قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه. فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله إن كان نبيا فلاعنا، لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا.

فقالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلا أمينا، ولا تبعث معنا إلا أمينا.

فقال: لأبعثن معكم رجلا أمينا حق أمين.

فاستشرف له أصحابه ﷺ فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله ﷺ: هذا أمين هذه الأمة.

الحكمة من المباهلة

إن المقام كان يوحى ببروز معسكر الإيمان مقابل معسكر الشرك، وإن الذين برزوا هم طليعة ومقدمة الأمة وأقدس ما فيها من نفوس أذهب الله عنها الرجس فطهرهم تطهيرا، فلا ترد لهم دعوة، ولا تكذب لهم كلمة، ولو أرادت الأمة المحمدية أن تعود لها عزتها ومكانتها فلا بد أن تقدم أهل البيت الكرام أمام الصفوف حتى يواجهوا بهم أعداءهم، ومن هنا نفهم أن ما وردنا عن أهل البيت من فكر وتشريع ورواية وتفسير وهداية وتوجيه هو جار مجرى هذا الموقف، فهم الصادقون فى لهجتهم وسيرتهم ومنهجهم.

فالقرآن تحدى بهم أعداء الإسلام، وجعل خصومهم الكاذبين، المعرضين للعنة والعذاب: ﴿فنجعل لعنت الله على الكاذبين﴾ ولولا ضمان الاستقامة والصدق فيما يصدر عنهم لما منحهم الله هذا الشرف، ولما نطق القرآن بذلك.

وفى هذه الآية الكريمة يباهل الله ورسوله بهم أعداءه فيعترف بمقاهم العظيم، ومكانتهم المقدسة، ولولا ما لهم من حرمة خاصة على الله سبحانه وقدسية متميزة لديه، لما دعا رسول الله ﷺ لأن يخرج بهذه الكوكبة الطاهرة يتحدى أعداء الله بنزول العذاب، وضمان استجابة الدعاء.

وقال ﷺ: (والذى نفسى بيده، إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران، ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادى نارا، ولاستأصل الله نجران

وأهله حتى الطير على رؤوس الشجر، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا)٠

وفى الآية دقائق لغوية لا بد من الوقوف عندها، وهى إضافة هـــذه الكوكبـــة (الحسن والحسين وفاطمة وعلى) إلى رسول الله ﷺ، (أبناءنـــا) و (نســاءنا) و (أنفسنا)، فلولا تجسيد الحادثة، وخروج رسول الله ﷺ ومعه هذه الكوكبة مـــن هؤلاء السادة لانصرف الذهن من إطلاق كلمة (نساءنا) إلى أزواج النبى ﷺ، و (أبناءنا) إلى فاطمة وبناته الأخريات، و (أنفسنا) إلى ذاته المقدسة وحدهـــا، إلا أن رسول الله بإخراجه لهؤلاء الأربعة معه دون غيرهم، فسر لنا أن صفوة نســاء الأمة وقدوتها السيدة فاطمة، وأن صفوة أبناء المســـلمين الحســن والحســين، ونسبهم القرآن إلى رسول الله ﷺ فكانوا وفق منطوق الآية أبناءه، واعتبر القـرآن الإمام عليا كنفس رسول الله ﷺ٠

وفد تميم الدارى وأصحابه

وفد على رسول الله ﷺ الداريون، أبو تميم الدارى وأخوه نعيم وأربعة آخرون، وكانوا على دين النصرانية، فأسلموا وحسن إسلامهم ﷺ.

وكان وفدهم عليه ﷺ مرتين، مرة بمكة قبل الهجرة، ومرة بالمدينة بعد الهجرة.

ففى المرة الأولى سألوه ﷺ أن يعطيهم أرضا فى الشام، فقال لهم ﷺ: سلوا حيث شئتم.

قال أبو هند- وهو من أصحاب تميم-: فنهضنا من عنده نتشاور، فى أى الأراضى نأخذ، فقال تميم: نسأله بيت المقدس وكورها، فقال له أبو هند: هذا محل ملك العجم، وسيصير كل ملك العرب، فأخاف أن لا يتم لنا، قال تميم: نسأله بيت جيرون وكورها، فنهضنا إلى رسول الله ﷺ، فذكرنا ذلك له فدعا بقطعة من أدم وكتب لنا كتابا نسخته:

(بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب ذكر فيه ما وهب محمد رسول الله ﷺ للداريين إذا أعطاه الله الأرض، وهب لهم بيت عينون، وجيرون، والمرطوم، وبيت إبراهيم عليه السلام، إلى أبد الأبد، شهد بذلك عباس بن عبد المطلب، وخزيمة ابن قيس، وشرحبيل بن حسنة).

وكتب وأعطانا كتابنا، وقال: انصرفوا، حتى تسمعوا أنى قد هاجرت، قال أبو هند: فانصرفنا، فلما هاجر ﷺ إلى المدينة قدمنا عليه وسألناه أن يجدد لنا كتابا آخر، فكتب لنا كتابا نسخته: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى محمد

رسول الله ﷺ لتميم الداري وأصحابه، أني أعطيتكم بيت عينون، وجـــيرون، والمرطوم، وبيت إبراهيم، برمتهم وجميع ما فيهم عطية بت، ونفذت، وسلمت ذلك لهم ولأعقابهم من بعدهم أبد الأبد، فمن آذاهم فيه آذاه الله. شهد أبو بكر بن أبي قحافة، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان).

وفد ثقيف

لما قدم ﷺ من تبوك فى رمضان قدم عليه فى ذلك الشهر وفد ثقيف، وكان من خبرهم أنه لما انصرف ﷺ من محاصرهم، تبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم ﷺ، وسأل رسول الله ﷺ أن يرجع إلى قومه يأمرهم بالإسلام، فقال له ﷺ: إنهم قاتلوك، فقال عروة: يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبكارهم، أى: أولادهم. وفى رواية: أبصارهم، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء أن لا يخالفوه لمرتبته فيهم، لأنه كان محببا مطاعا، وفيه كانوا يقولون كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ (الزخرف: ٣١). فالقريتان مكة والطائف، والرجلان الوليد ابن المغيرة بمكة، وعروة بن مسعود الثقفى بالطائف.

عروة بن مسعود مثل صاحب يس

فتوجه إلى قومه، فلما أشرف لهم على علية دعاهم إلى الإسلام وأظهر دينه، فرموه بالنبل من كل جانب فأصابه سهم فقتله. وفى لفظ: أنه قدم الطائف عشاء فجاءته ثقيف يسلمون عليه، فدعاهم إلى الإسلام ونصح لهم، فعصوه وأسمعوه من الأذى ما لم يكن يخشاه منهم، فخرجوا من عنده، فلما كان السحر وطلع الفجر قام على غرفة فى داره وتشهد، فرماه رجل من ثقيف بسهم فقتله، فقيل له قبل أن يموت: ما ترى فى دمك؟ قال: كرامة أكرمنى الله بها، وشهادة ساقها إلى فليس فى إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم، فادفنونى معهم فدفنوه معهم ﷺ وعنهم.

وقال فى حقه ﷺ: إن مثله فى قومه كمثل صاحب يس أنه قال لقومه: ﴿اتبعوا المرسلين﴾ الآيات، فقتله قومه، والمراد المذكور فى سورة يس. وقد قال ﷺ مثل هذه المقالة فى حق شخص آخر يقال له قرة بن حصن أو ابن الحارث ﷺ، بعثه ﷺ إلى بنى هلال بن عامر يدعوهم إلى الإسلام فقتلوه، فقال ﷺ: مثله مثل صاحب يس.

إسلام وفد ثقيف

ثم إن ثقيفا أقامت بعد قتل عروة ﷺ أشهرا، ثم إنهم ائتمروا بينهم فرأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلا، فكلموا فى ذلك عبد يا ليل بن عمرو- وكان فى سن عروة ﷺ- فأبى لأنه خشى أن يفعل به كما فعل بعروة. وقيل: كلموا مسعود بن عبد يا ليل، فقال: لست فاعلا حتى ترسلوا معى رجالا: فبعثوا معه خمسة أنفار منهم: شرحبيل بن غيلان أحد أشراف ثقيف. ويقال وفد عليه ﷺ تسعة عشر رجلا هم أشراف ثقيف: فيهم كنانة بن عبد يا ليل- وهو رئيسهم يومئذ- وفيهم عثمان بن أبى العاص- وهو أصغرهم- فلما قربوا من المدينة رآهم المغيرة بن شعبة الثقفى فذهب مسرعا ليبشر رسول الله ﷺ بقدومهم عليه، فلقى أبا بكر ﷺ فأخبره، فقال له أبو بكر ﷺ: أقسمت عليك لا تسبقنى إلى رسول الله ﷺ حتى أكون أنا أحدثه ففعل، فدخل أبو بكر ﷺ على رسول الله ﷺ فأخبره بقدومهم عليه، ثم خرج المغيرة وعلمهم كيف يحيون رسول الله ﷺ، فأبوا إلا تحية الجاهلية وهى عم صباحا، ثم قدموا على رسول الله ﷺ فضرب لهم قبة فى

ناحية المسجد ليسمعوا القرآن، ويروا الناس إذا صلوا، وكانوا يغدون إلى رسول الله ﷺ كل يوم ويخلفون عثمان بن أبي العاص عند متاعهم، فكان عثمان ﷺ إذا رجعوا ذهب إلى النبي ﷺ يسأله عن الدين ويستقرئه القرآن، وإذا وجد النبي ﷺ نائما ذهب إلى أبي بكر ﷺ، وكان يكتم ذلك من أصحابه، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ فأحبه.

وكان فى هذا الوفد رجل مجذوم فأرسل له ﷺ يقول له: إنا با يعناك فارجع.

النبى ﷺ يؤمر عليهم أصغرهم ويكتب لهم كتابا

وعند انصراف وفد ثقيف قالوا: يا رسول الله أمر علينا رجلا يؤمنا فأمر عليهم عثمان بن أبي العاص، لما رأى ﷺ من حرصه على الإسلام وقراءة القرآن وتعلم الدين. وقال الصديق ﷺ للنبى ﷺ: يا رسول الله إنى رأيت هذا الغلام من أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن. وروى ابن منده وغيره عن عثمان بن أبي العاص ﷺ قال: استعملنى رسول الله ﷺ وأنا أصغر الذين وفدوا عليه من ثقيف، لأنى كنت قرأت سورة البقرة فى مدة إقامتهم. وعنه ﷺ قال: قلت: يا رسول الله إن القرآن يتفلت منى، فوضع يده على صدرى وقال: يا شيطان اخرج من صدر عثمان، فما نسيت شيئا بعده أريد حفظه. وعنه ﷺ قلت: يا رسول الله ادع الله أن يفقهنى فى الدين ويعلمنى، قال: ماذا؟ قلت:فأعدت عليه القول، فقال: لقد سألتنى عن شيء ما سألنى عنه أحد من أصحابك، اذهب فأنت أمير عليهم، وعلى من تقدم عليه من قومك. وعنه ﷺ قال: قلت: يا رسول الله اجعلنى إمام قومى، قال: أنت إمامهم، وقال له: إذا

أممت فأخف بهم الصلاة، واتخذ مؤذنا لا يأخذ على أذانه أجرا.

وكان خالد بن سعيد بن العاص ﷺ هو الذى يمشى بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى كتب لهم كتابا، وكان الكاتب له خالد المذكور ومن جملته: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبى رسول الله إلى المؤمنين، إن صيد "وج" وعضاهه حرام لا يعضد، من وجد يفعل ذلك فإنه يجلد، وتترع ثيابه). ووج واد بالطائف، وقيل: هو الطائف، والعضاه كل شجر له شوك، مفرده عضة.

وكان هؤلاء الوفد لا يطعمون طعاما يأتيهم من رسول الله ﷺ حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا ﷺ، وسألوا رسول الله ﷺ أن يترك لهم الصلاة، فقال: لا خير فى دين لا صلاة فيه، وفى لفظ: لا ركوع فيه، وأن يترك لهم الزنا، والربا، وشرب الخمر، فأبى ذلك، وسألوه أن يترك لهم الطاغية- التى هى صنمهم- لا يهدمها إلا بعد ثلاث سنين من مقدمهم وهى اللات، وكانوا يقولون لها الربة، فأبى رسول الله ﷺ، فسألوه أن يتركها سنة فأبى، حتى سألوه شهرا واحدا، وأرادوا بذلك ليدخل الإسلام فى قومهم، ولا يرتاع سفهاؤهم ونساؤهم وزراريهم بهدمها، فأبى عليهم ذلك رسول الله ﷺ.

حكمة الوفد سبب إسلام القوم

وعند خروجهم قال لهم سيدهم كنانة: أنا أعلمكم بثقيف اكتموا إسلامكم وخوفوهم الحرب والقتال، وأخبروهم أن محمدا ﷺ سألنا أمورا عظيمة فأبيناها عليه، سألنا أن نهدم الطاغية، وأن نترك الزنا، والربا، وشرب الخمر، فلما رجعوا وجاءهم ثقيف وسألوهم، قالوا: جئنا رجلا فظا غليظا قد ظهر

بالسيف ودان له الناس، فعرض علينا أمورا شدادا، وذكروا ما تقدم، قالوا: والله لا نعطيه ولا نقبل هذا أبدا، فقالوا لهم: أصلحوا السلاح وتهيئوا للقتال، ورمـوا حصونكم، فمكثت ثقيف كذلك يومين أو ثلاثة، ثم ألقى الله الرعب فى قلوبهم وقالوا: والله ما لنا به من طاقة، فارجعوا إليه وأعطوه ما سأل، فعند ذلك قـالوا لهم: قد قاضيناه وأسلمنا، فقالوا لهم: لم كتمتمونا؟ قالوا: أردنـا أن يـنزع الله مـن قلوبكم نخوة الشيطان، فأسلموا، ومكثوا أياما، فقدم عليهم رسل رسـول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعيبة رضى الله عنهما لهـدم الطاغيـة فهدماها كما تقدم، وأخذا ما فيها من المال والحلى، فلما قدما على رسـول الله ﷺ أمر ﷺ أبا سفيان أن يقضى بين بنى عروة وأخيه الأسود من مال الطاغيـة فقضاه. وذلك أن أبا مليح بن عروة بن مسعود وابن عمه قارب بن الأسـود أخو عروة بن مسعود سألا رسول الله ﷺ فى ذلك، وكانا قدما على رسـول الله ﷺ مسلمين لما قتلت ثقيف عروة بن مسعود ؓ قبل أن تسلم ثقيـف كمـا ذكرنا، فأجابهما لذلك رسول الله ﷺ.

وفد بنى عامر بن صعصعة

جاء فيهم عدو الله عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس، وجبار بن سلمى، وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم، وكان عامر بن الطفيل سيدهم، كان ينادى مناديه بسوق عكاظ: هل من راجل فنحمله، أو جائع فنطعمه، أو خائف فنؤمنه؟ وكان من أجمل الناس، وكان مضمر الغدر بالنبى ﷺ، فقال لأربد- وهو أخو لبيد الشاعر-: إذا قدمنا على هذا الرجل فإنى شاغل عنك وجهه، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف، وقد قال له قومه: يا عامر إن الناس قد أسلموا فأسلم، فقال: والله لقد كنت آليت، أى: حلفت، أن لا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى، فأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش، فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال عامر بن الطفيل: يا محمد خالنى، أى: اجعلنى خليلا وصديقا لك، قال: والله حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له، قال: يا محمد خالنى، وجعل يكلم النبى ﷺ وينتظر من أربد ما كان أمره به، فجعل أربد لا يأتى بشىء. وفى رواية: لما أتاه ﷺ وسده، أى: ألقى له وسادة يجلس عليها، ثم قال له ﷺ: أسلم يا عامر، فقال له عامر: إن لى إليك حاجة؟ قال: أقرب منى، فقرب منه حتى حنى على رسول الله ﷺ، وهذا يدل على أن قوله خالنى، أى: اجعل لى منك خلوة، وهو المناسب لقول عامر لأربد: إنى شاغل عنك وجهه.

وذكر أن عامر بن الطفيل قال لرسول الله ﷺ وقد قال له: أسلم يا عامر، فقال: أتجعل لى الأمر بعدك إن أسلمت؟ فقال رسول الله ﷺ: ليس ذلك لك ولا لقومك، أى: إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء، أى وقال له: يا محمد أسلم

على أن لى الوبر ولك المدر، فقال: لا، فقال: مالى إن أسلمت، فقال: لك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم، فقال: أما والله لأملأنها عليك خيلا ورجالا. وفى رواية: خيلا جردا، ورجالا مردا، ولأربطن بكل نخلة فرسا، فقال رسول الله ﷺ: يمنعك الله عز وجل.

قال السهيلى: وجعل أسيد بن حضير ﷺ يضرب فى رءوسهما ويقول: اخرجا أيها الهجرسان، أى: القردان، فقال له عامر: ومن أنت؟ فقال: أسيد بن حضير، فقال: أحضير بن سماك؟ قال: نعم، قال: أبوك كان خيرا منك، قال: بلى، أنا خير منك ومن أبى، لأن أبى كان مشركا وأنت مشرك.

ومكث ﷺ أياما يدعو الله عليهم ويقول: الله اكفنى عامر بن الطفيل بما شئت، وابعث له داء يقتله واهد قومه، ثم قال ﷺ: والذى نفسى بيده لو أسلم وأسلمت بنو عامر لزاحمت قريشا على منابرها، ثم دعا رسول الله ﷺ وقال: يا قوم آمنوا، ثم قال: اللهم اهد بنى عامر، واشغل عنى عامر بن الطفيل كيف شئت ومتى شئت.

وفى البخارى أنه قال للنبى ﷺ: أخيرك بين ثلاث خصال: يكون لك أهل السهل ولى أهل الوبر، وأكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك من غطفان بألف أشقر وألف شقرى.

﴿والله يعصمك من الناس﴾

ولما خرجوا من عند رسول الله ﷺ قال عامر لأربد: يا أربد أين ما كنت أمرتك به؟ والله ما كان على وجه الأرض من رجل أخافه على نفسى منك

أبدا، وأيم الله لأخافك بعد اليوم أبدا، فقال: لا أبا لك لا تعجل على، والله ما هممت بالذى أمرتنى به إلا دخلت بينى وبين الرجل حتى ما أرى غيرك أفأضربك بالسيف؟.

وفى رواية: إلا رأيت بينى وبينه سورا من حديد.

وفى رواية: لما وضعت يدى على قائم السيف يبست فلم أستطع أن أحركها.

وفى رواية: لما أردت سل سيفى نظرت فإذا فحل من الإبل فاغر فاه بين يدى يهوى إلى، فوالله لو سللته لخفت أن يبتلع رأسى.

ويمكن الجمع بين الروايات بأن ما فى الرواية الأولى كان بعد أن تكرر منه الهم، وما فى الرواية الثانية كان بعد ما حصل منه هم آخر، وكذا يقال فى الثالثة.

موت الطفيل بالطاعون وأربد بالصاعقة وإسلام قومهما

وخرجوا راجعين إلى بلادهم حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله على عامر ابن الطفيل الطاعون فى عنقه، وفى لفظ: حلقه، وآوى لبيت امرأة سلولية من بنى سلول وكانوا موصوفين باللؤم، وفى كلام السهيلى: إنما اختصها بالذكر لقرب نسبها لأنها منسوبة إلى سلول بن صعصعة، والطفيل من بنى عامر بن صعصعة، أى: فهى تأسف عليه، وصار يأسف الذى كان موته ببيتها، وصار يمس الطاعون ويقول: يا بنى عامر غدة، أى: أغد غدة كغدة البعير، وموتا فى بيت امرأة من بنى سلول، ائتونى بفرسى، ثم ركب فرسه وأخذ رمحه وصار يجول حتى وقع عن فرسه ميتا، ويذكر أنه صار يقول: أبرز يا ملك الموت، وفى لفظ: يا موت أبرز لى، أى: لأقاتلك، فلم يزل كذلك حتى أماته الله تعالى،

فأجاب سبحانه دعوة حبيبه ﷺ فقتل بالطاعون قبل أن يصل إلى قومه- لعنه الله تعالى- وهذا دليل على فرط حماقته. وقدما صاحباه على قومهما فقالوا لأربد: ما وراءك يا أربد؟ فقال: لا شيء، والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أني عنده الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله، فخرج بعد مقالته هذه بيوم أو يومين معه جمله يتبعه، فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة أحرقتهما، وكان ذلك في يوم سحوقا قائظ، وأنزل الله تعالى قوله سبحانه: ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء﴾ (الرعد: ١٣). وأما جبار بن سلمى الذى هو ثالثهم فقد أسلم مع من أسلموا من بنى عامر ﷺ وحسن إسلامه.

٥- وفد ضمام بن ثعلبة رضي الله عنه

قيل: وفد على النبى ﷺ فى سنة خمس، والصواب أنه سنة تسع كما قاله الحافظ ابن حجر . قال ابن عباس رضى الله عنهما: ما سمعنا بوافد وفد كان أفضل من ضمام بن ثعلبة، بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه متكئا جاءه رجل من أهل البادية على جمل فأناخه فى المسجد ثم عقله وقال: أيكم ابن عبد المطلب؟ وفى رواية: أيكم محمد ﷺ؟ قالوا: هذا الأبيض المرتفق، أى: الأبيض المشرب بحمرة، المتكىء على مرفقه، فدنا منه ﷺ، فقال: أنى سائلك فمشدد عليك فى المسألة فلا تجد على، فقال: سل عما بدا لك، فقال: يا محمد جاءنا رسولك فذكر لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال: صدق، فقال: أنشدك برب من قبلك ورب من بعدك، وفى رواية: أنشدك بالذى خلق السموات والأرض ونصب هذه الجبال، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدونها؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن نصلى خمس صلوات فى كل يوم وليلة؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ من أموال أغنيائنا فترد على فقرائنا؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من اثنى عشر شهرا؟ قال: اللهم نعم، قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن يحج هذا البيت من استطاع إليه سبيلا؟ قال: اللهم نعم، قال: فإنى آمنت وصدقت، وأنا ضمام بن ثعلبة .

ولما رجع إلى قومه كان أول شىء تكلم به أن سب اللات والعزى، فقال له قومه: يا ضمام اتق البرص، اتق الجذام، اتق الجنون، فقال: ويلكم إنهما والله

لا يضران ولا ينفعان، إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه، فلم يبق من القوم رجل ولا امرأة إلا وأسلم ﷺ.

وكان عمر ﷺ يقول: ما رأيت رجلا أحسن مسألة، ولا أوجز من ضمام بن ثعلبة ﷺ.

من سبقت له الحسنى يكفيه قليل الحكمة

لا تعجب من حال هذا الرجل المدهش الذى لم يسمع من رسول الله ﷺ إلا كلمة هى: حرف جواب، وهى: اللهم نعم، كيف رجع وهو كامل اليقين، ينطق بالحكمة العالية، تخرج الكلمة من فيه فتخرق القلوب، وتجذب النفوس، فإن الحق تنزهت ذاته كاشف أهل الحسنى يوم ألست بمصون جماله، وعلى جلاله، حتى شهدت النفس وتصورت أسرار الربوبية، ولكن دواعى البشرية ومقتضيات الآدمية سترت هذا العلم المصون عن الإنسان، فإذا سمع الحكمة انفتق رتق هذا الحجاب، وخر العقل ساجدا لربه، وسارعت النفس منيبة إليه سبحانه، وظهر مكنون العلم مصورا على جوهر النفس، واقشعر الجلد، واضطرب القلب، ثم لان الجلد، واطمأن القلب بذكر الله تعالى، فأهل الحسنى السابقة بينما يكون الرجل منهم فى ظلمات البعد وإذا به قد بلغ مقامات الصديقين بكلمة من الحسنى يسمعها، أو بإشارة من العارف يفقهها، أو بنفس من أنفاس واله واجد يتنفسه.

وإنما رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم وورثتهم نور مشرق لأهل البصائر والقلوب، لمن لهم أعين يبصرون بها، وآذان يسمعون بها، وقلوب يفقهون بها، ولا تعجب ممن كانوا يؤذون رسول الله ﷺ، فبين النور والظلمة مباينة، وبين الحق والباطل مفارقة، ومن جهل شيئا عاداه .

أسأل الله أن يجعلنى وأهلى وأولادى وإخوانى ممن سبقت لهم الحسنى.. إنه مجيب الدعاء .

٦- وفد عبد القيس

كانت منازلهم بالبحرين، وكان ممن وفد فيهم الجاروذ، وكان نصرانيا قد قرأ الكتب فقال أبياتا يخاطب بها النبى ﷺ منها قوله:

يا نبى الهدى أتاك رجال   قطعت فدا فدا وآلا فآلا

تتقى وقع شر يوم عبوس   أوجل القلب ذكره ثم هالا

قيل: كان مجيئهم سنة عشر، فعرض ﷺ الإسلام على الجاروذ بعد إنشاده الأبيات، فقال: يا محمد إنى كنت على دين وإنى تارك دينى لدينك، فتضمن لى ذنبى، فقال النبى ﷺ: نعم أنا ضامن لك أن قد هداك إلى ما هو خير لك منه، فأسلم وأسلم أصحابه ﷺ. وجاء فى رواية: أنه كان مع الجاروذ سلمة بن عياض الأسدى وأن الجاروذ قال لسلمة: إن خارجا خرج يزعم أنه نبى، فهل لك أن تخرج إليه، فإن رأينا خيرا دخلنا فيه، وأنا أرجو أن يكون هو النبى الذى بشر به عيسى بن مريم عليه السلام؟.

النبى ﷺ يكشف ما يكتمون

لكن يضمر كل واحد منا ثلاث مسائل يسأله عنها، لا يخبر بها صاحبه، فلعمرى إن أخبرنا بها إنه لنبى يوحى إليه، فلما قدما عليه ﷺ قال له الجاروذ: بما بعثك ربك يا محمد؟ قال: بشهادة أن لا إله إلا الله وأنى عبد الله ورسوله، والبراءة من كل ند يعبد من دون الله، وبإقام الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة لحقها، وصوم رمضان، وحج البيت بغير إلحاد، من عمل صالحا فلنفسه، ومن

أساء فعليها، وما ربك بظلام للعبيد، قال الجاروذ: يا محمد إن كنت نبيا أخبرنا عما أضمرنا عليه، فخفق رسول الله ﷺ خفقة كأنها سنة، ثم رفع رأسه والعرق يتحدر عنه ﷺ فقال: أما أنت يا جاروذ فإنك أضمرت أن تسألنى عن دماء الجاهلية، وعن حلف الجاهلية، وعن المنيحة، ألا وإن دم الجاهلية موضوع، وحلفها مردود، ولا حلف فى الإسلام، ألا وإن أفضل الصدقة أن تمنح أخاك ظهر دابتك أو لبن شاة.

وأما أنت يا سلمة فإنك أضمرت أن تسألنى عن عبادة الأوثان، وعن يوم السباسب، وعن عقل الهجين، فأما عبادة الأوثان فإن الله تعالى يقول: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ (الأنبياء: ٩٨). وأما يوم السباسب فقد أعقب الله ليلة خيرا من ألف شهر، فاطلبوها فى العشر الأخير من رمضان، فإنها ليلة بلجة سمحة لا ريح فيها، تطلع الشمس فى صبيحتها لا شعاع لها، وأما عقل الهجين فإن المؤمنين أخوة تتكافأ دماؤهم، يجير أقصاهم على أدناهم، أكرمهم عند الله أتقاهم، فقالا: نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله.

خير أهل الشرق

وجاء فى رواية: أنه ﷺ بينما يحدث أصحابه إذ قال لهم: سيطلع عليكم من ههنا ركب هم خير أهل المشرق. وفى رواية: يسبق ركب من أهل المشرق لم يكرهوا على الإسلام، قد أمضوا، أى: أهزلوا الركائب، وأفنوا الزاد، اللهم اغفر لعبد القيس، فقام عمر ﷺ فتوجه نحو مقدمهم فلقى ثلاثة عشر راكبا، وقيل:

كانوا عشرين راكبا، وقيل: كانوا أربعين رجلا، فقال: من القوم؟ قالوا: من بنى عبد القيس، فقال: أما إن النبى ﷺ قد ذكركم آنفا فقال خيرا، ثم مشى معهم حتى أتوا النبى ﷺ، فقال عمر ﷺ للقوم: هذا صاحبكم الذى تريدون، فرمى القوم بأنفسهم عن ركائبهم بباب المسجد، ودخلوا بثياب سفرهم، وتبادروا يقبلون يده ﷺ ورجله، وكان فيهم عبد الله بن عوف الأشج وهو رأسهم، وكان أصغرهم سنا، فتخلف عند الركائب حتى أناخها وجمع المتاع، وذلك بمرأى من النبى ﷺ، وأخرج ثوبين أبيضين فلبسهما، ثم جاء يمشى حتى أخذ بيد رسول الله ﷺ فقبلها، وكان رجلا دميما، ففطن لنظر رسول الله ﷺ إلى دمامته، فقال: يارسول الله إنه لا يستقى، أى: لا يشرب فى مسوك الرجال، أى: جلودهم، إنما يحتاج من الرجل إلى أصغريه لسانه وقلبه، فقال له رسول الله ﷺ: إن فيك خلتين. وفى رواية: خصلتين، يحبهما الله ورسوله الحلم والأناة، فقال: يا رسول الله أنا أتخلق بهما أم الله جبلنى عليهما؟ قال: بل الله تعالى جبلك عليهما، فقال: الحمد لله الذى جبلنى على خلتين يحبهما الله ورسوله. والأناة: كقناة التؤدة، أى: التأنى فى الأمر. وقد جاء فى الحديث: (التؤدة والاقتصاد والسمت الحسن جزء من أربعة وعشرين جزءا من النبوة).

آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع

وفى رواية: لما قدموا على رسول الله ﷺ قال لهم: من القوم؟ قالوا: من ربيعة، فقال: مرحبا بالقوم. وفى رواية: بالوفد غير خزايا ولا ندامى، فقالوا: يا رسول الله إنا نأتيك من شقة بعيدة، أى: لأن مساكنهم بالبحرين، أى: وما

والاها من أطراف العراق، وأنه يحول بيننا وبينك هذا الحى من كفار مضر، وإنا لا نصل إليك إلا فى شهر حرام. وصرح فى بعض الروايات بأنه رجب، فمرنا بأمر نأخذ به ونخبر به من وراءنا وندخل به الجنة، فقال رسول الله ﷺ: آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع، آمركم بالإيمان بالله وحده، هل تدرون ما الإيمان بالله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا الخمس من المغنم.

وفى مسند الإمام أحمد ذكر الحج فيما أمرهم به.

وأنهاكم عن الدباء والحنتم والنقير، وفى رواية: والمقير، والمراد النهى عن انتباز النبيذ فى هذه الأشياء لأنها تسرع بالتخمر الذى هو سبب الإسكار، والدباء القرع، والحنتم جرار مدهونة بدهان أخضر يحمل فيها الخمر، والنقير أصله النخلة ينقر وينبذ فيه التمر، والمقير ما طلى بالقار وهو الزفت. وجاء فى رواية: بدل المقيرالمزفت، قال: احفظوهن وأبلغوهن من وراءكم، أى: من قومكم. وفيه دليل على أن إبلاغ الخبر وتعليم العلم واجب.

وفى رواية قال: واشربوا فى أسقية الأدم، أى: الجلود، يعنى انتبذوا فيها بدل تلك الأوانى، فقالوا: يا رسول الله إن أرضنا كثيرة الجرذام، أى: الفيران، أىَ: لا تبقى فيها أسقية الأدم، قال: وإن أكلها الجرذام، قال: ذلك مرتين أو ثلاث، فقال له الأشج: يا رسول الله إن أرضنا ثقيلة واخمة، وإنا إذا لم نشرب هذه الأشربة عظمت بطوننا، فرخص لنا فى مثل هذه وأومأ بكفه، فقال ﷺ: يا أشج

إن أرخصت لك فى مثل هذه، شربته فى مثل هذه وفرج يديه وبسطها، يعنى أعظم منها، حتى إذا سمل أحدكم من شرابه، أى: سكر، قام إلى ابن عمه فضرب ساقه بالسيف، وكان فى القوم رجل قد وقع له ذلك وهو جهنم بن قثم، قال: لما سمعت ذلك من رسول الله ﷺ جعلت أسدل ثوبى لأغطى الضربة وقد أبداها الله لنبيه ﷺ.

وفى رواية: إنهم سألوه عن النبيذ، فقالوا: يا رسول الله إن أرضنا أرض وخمة لا يصلحنا إلا النبيذ، قال: فلا تشربوا فى النقير فكأنى بكم إذا شربتم فى النقير قام بعضكم إلى بعض بالسيوف، وضرب رجل منكم ضربة لا يزال يعرج منها حتى يوم القيامة، فضحكوا، ثم قال: ما يضحككم؟ قالوا: والله لقد شربنا فى النقير فقام بعضنا إلى بعض بالسيوف فضرب هذا ضربة بالسيف فهو أعرج كما ترى، ثم ذكر لهم ﷺ أنواع تمرهم فقال: لكم تمرة تدعونها كذا، وتمرة تدعونها كذا، فقال له رجل من القوم، بأبى أنت وأمى يا رسول الله، لو كنت ولدت فى جوف هجر ما كنت أعلم منك الساعة، أشهد أنك رسول الله، فقال: إن أرضكم رفعت لى منذ قعدتم، فنظرت من أدناها إلى أقصاها، وقال لهم: خير تمركم البرنى يذهب بالداء ولا داء معه.

النهى عن الانتباذ منسوخ

وإنما اقتصر فى المناهى على شرب الأنبذة فى الأوعية المذكورة مع أن فى المناهى من عوائد فى التحريم لكثرة تعاطيهم لها، ثم إن النهى عن الانتباذ فى هذه الأوانى إنما كان فى أول تحريم الخمر حين كانت نفوسهم راغبة فى شربها، معتادة لها،

ثم لما استقر أمر التحريم وتوطنت نفوسهم على تركها، والتباعد عنها قال ﷺ: كنت نهيتكم عن الانتباذ فى هذه الأوانى فانتبذوا فى كل إناء، واجتنبوا المسكر فالنهى عن الانتباذ فيها منسوخ، والقصد انتباذ المسكر فقط.

وكان فى عبد القيس أبو الوازع بن عامر وابن أخته مطر بن هلال، ولما ذكروا للنبى ﷺ أنه ابن اختهم قال: ابن أخت القوم منهم. وكان فيهم ابن أخى الوازع وكان شيخا كبيرا مجنونا، جاء به الوازع معه ليدعو له ﷺ، فمسح ظهره ودعا له فبرأ لحينه، وكسى شبابا وجمالا حتى كان وجهه وجه العذراء. وجاء أنه ﷺ زودهم الأراك يستاكون به.

٧- وفد بنى حنيفة بن لجيم ومعهم مسيلمة الكذاب

وفدوا عليه ﷺ وكانوا سبعة عشر رجلا ومعهم مسيلمة الكذاب. قيل: جاء بنو حنيفة إلى رسول الله ﷺ ومعهم مسيلمة الكذاب يسترونه بالثياب تعظيما لـــه، وكانت تلك عادتهم فيمن يعظمونه، وكان أمره عند قومه كبيرا، وكان رســول الله ﷺ جالسا فى أصحابه معه عسيب من سعف النخل فى رأسه خويصـــات، فلما انتهى مسيلمة إلى رسول الله ﷺ- وهم يسترونه بالثياب- كلم النـــبى ﷺ وسأله أن يشركه معه فى النبوة، فقال له رسول الله ﷺ: لو سألتنى هذا العســيب ما أعطيتكه. وقيل: إن بنى حنيفة جعلوه فى رحالهم، فلما أسلموا ذكروا مكانــه فقالوا: يا رسول الله إنا قد خلفنا صاحبنا فى رحالنا يحفظها لنا، فــأمر لــه ﷺ بمثــل ما أمر لواحد من القوم- وهو خمس أواق من فضة، فلما رجعــوا إليــه أخبروه بما قال عنه، فقال: إنما قال ذلك لأنه عرف أن لى الأمر من بعده، فلمــا رجعوا وانتهو إلى اليمامة ارتد عدو الله وتنبأ وكذب- وقال: أما إنــــه ليــس بشركم مكانا، فلما رجعوا وانتهوا إلى اليمامة ادعى مسيلمة أن النبى ﷺ أشركه معه فى النبوة، وقال لمن وفد معه: ألم يقل لكم حين ذكرتمونى أما إنــــه ليــس بشركم مكانا، ما ذاك إلا لما كان يعلم أنى أشركت معه فى الأمر، أى: وهو ﷺ إنما أراد بذلك أنه حفظ ضيعة أصحابه.

وفى الصحيحين: أنه ﷺ أقبل ومعه ثابت بن قيس بن شماس ﷺ، وفى يد النــبى ﷺ قطعة جريد حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه، وقد بلغه ﷺ أن مســـيلمة قال: إن جعل لى محمد الأمر من بعده اتبعته، فقال له النبى ﷺ: إن سألتنى هـــذه

القطعة ما أعطيتكها، وإنى لأراك الذى رأيت منه ما رأيت، وهذا قيس يجيبك عنى، ثم انصرف عنه ﷺ. والذى رأى منه ﷺ أنه رأى فى المنام أن فى يده سوارين من ذهب، قال: فأهمنى شأنهما، فأوحى الله تعالى إلى فى المنام أن أنفخها، فنفختهما فطارا فأولتهما كذابين يخرجان من بعدى، أى: وهما طليحة العنسى صاحب صنعاء، ومسيلمة الكذاب صاحب اليمامة، فإن كلا منهما ادعى النبوة فى حياته ﷺ، وكان طليحة العنسى يقول: إن ملكا كان يقال له ذو النون يأتينى كما يأتى جبريل عليه السلام محمدا ﷺ، فلما بلغه ﷺ ذلك قال: لقد ذكر ملكا عظيما فى السماء يقال له ذو النون.

ويمكن الجمع بين تلك الروايات بتكرار مجيىء مسيلمة لرسول الله ﷺ.

ثم صار مسيلمة- لعنه الله- يتكلم بالهذيان يضاهى به القرآن فمن ذلك قوله- قبحه الله- لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشا، ثم أن اللعين وضع عن قومه الصلاة، وأحل لهم الخمر والزنا، ترغيبا لهم فى اتباعه، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ بالنبوة، ويدعى أنه مشارك له، وهذا من سخافة عقله، إذ النبى لا يبيح المحرمات.

الكذاب يرسل والنبى ﷺ يرد

وكتب مسيلمة- قبحه الله- إلى رسول الله ﷺ كتابا، فقال: (من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد: فإنى قد أشركت فى الأمر معك، وإن لنا نصف الأمر، وليس قريشا قوما يعتدون) وبعث رجلين.

فكتب إليه رسول الله ﷺ: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى

مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)، ثم قال للرجلين: وإنما تقولان مثل ما يقول، قالا: نعم، قال: أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما.

الكذاب يجهز جيوشا لحرب المسلمين

وكانت دعوى مسيلمة النبوة فى حياة النبى ﷺ، لكن لم تظهر شوكته و لم تقع محاربته إلا فى زمن الصديق الأكبر ﷺ، فإن مسيلمة كان أقوى أسباب الفتنة على بنى حنيفة، جمع جموعا كثيرة ليقاتل بها الصحابة، فجهز له الصديق ﷺ جيشا أمر عليهم خالد بن الوليد ﷺ فقتل أصحاب مسيلمة، ثم كان الفتح بقتل مسيلمة لعنه الله.

الأسود العنسى يدعى النبوة ويعاونه شيطانان

ولما خرج الأسود العنسى بصنعاء وادعى النبوة، غلب عامل النبى ﷺ على صنعاء وهو المهاجر بن أبى أمية، ويقال: إنه مر به فلما حاذاه عثر حمار المهاجر فادعى الأسود أنه سجد له و لم يقم الحمار حتى قال له شيئا فقام، وكان مع الأسود شيطانان يقال لأحدهما سحيق مصفر، والآخر شقيق مصفر أيضا، وكانا يخبرانه بكل شيء يحدث من أمور الناس، وكان باذان عاملا للنبى ﷺ أيضا بصنعاء فمات، فجاء شيطان الأسود فأخبره، فخرج فى قومه حتى ملك صنعاء، وتزوج المرزبانة زوجة باذان، فواعدت فيروز الديلمى وغيره فدخلوا عليه ليلا- وقد سقته الخمرة سرفا حتى سكر، وكان على بابه ألف حارس- فنقب

فيروز ومن معه الجدار حتى دخلوا فقتله فيروز واحتز رأسه وأخرجوا المرأة ومـــا أحبوا من متاع البيت، وأرسلوا الخبر إلى المدينة فوافاهم عند وفاته ﷺ.

قال أبو الأسود عن عروة: أصيب الأسود قبل وفاة النبى ﷺ بيوم وليلة، فأتـــاه الوحى فأخبرأصحابه، ثم جاء الخبر إلى أبي بكر ﷺ. وقيل: وصل الخبر بذلـــك صبيحة دفن النبى ﷺ.

٨- وفد طيىء مع زيد الخيل ﷺ

وفد عليه ﷺ وفد طيىء وفيهم قبيصة بن الأسود، وسيدهم زيد الخيل، وكان زيد أعظم قومه جودا، وحلما، وخلقا، وأحسنهم وجها، وشعرا، وكان يركب الفرس الطويل العظيم فتخط رجلاه فى الأرض كأنه راكب حمار، فقال له النبى ﷺ- وهو لا يعرفه-: الحمد لله الذى أتى بك من حزنك وسهلك، وسهل قلبك للإيمان، ثم قبض على يده، فقال: من أنت؟ فقال: أنا زيد الخيل بن مهلهل، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبد الله ورسوله، فقال له ﷺ: بل أنت زيد الخير.

وعرض الإسلام على من معه، فأسلموا وحسن إسلامهم، ثم قال له: يا زيد ما أخبرت عن رجل قط شيئا إلا رأيته دون ما أخبرت عنه غيرك، فإنه لم يبلغ ما قيل فيه كل ما فيه من الفضل، وسماه زيد الخير، وأجاز ﷺ كل واحد منهم خمس أواق، وأعطى زيد الخير إثنى عشر أوقية ونشا، وأقطعه محلين من أرضه وكتب له بذلك كتابا.

ولما خرج من عند رسول الله ﷺ متوجها إلى قومه، قال رسول الله ﷺ: إن ينجو زيد من حمى المدينة، أى: ما ينجو منها، ففى أثناء الطريق أصابته الحمى، وفى لفظ قال له: يا زيد تقتلك أم ملدم- يعنى الحمى- ولما مات ﷺ أقام قبيصة بن الأسود النائحة عليه سنة، ثم وجه براحلته ورحله وفيه كتاب رسول الله ﷺ الذى أقطعه فيه محلين بأرضه، فلما رأت امرأته الراحلة أضرمتها بالنار فاحترقت واحترق الكتاب. وقيل: إن زيد الخير بقى إلى خلافة سيدنا أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب ﷺ، وأنه لما ارتدت العرب عند وفاة النبى ﷺ ثبت على الإسلام وكتب إلى أبى بكر ﷺ بهذين البيتين:

أما تخشين الله بيت أبى نصر فقد قام بالأمر الجلى أبى بكر

نجى رسول الله فى الغار وحده وصاحبه الصديق فى معظم الأمر

حديث عدى بن حاتم ﷺ

قال عدى بن حاتم ﷺ: كنت امرءا شريفاً فى قومى، آخذ الربع من الغنائم، كما هو عادة سادات العرب فى الجاهلية، فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته، ما رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ حين سمع به منى، وقلت لغلام كان راعياً لإبلى: لا أبالك اعزل لى من إبلى أجمالاً ذللاً سماناً، فاحبسها قريباً منى، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطىء هذه البلاد فآذنى، ففعل، ثم إنه أتانى ذات يوم فقال: يا عدى ما كنت صانعاً إذا غشيك محمد فاصنعه الآن، فإنى قد رأيت الرايات فسألت عنها فقالوا: هذه جيوش محمد، فقلت له: قرب لى أجمالى، فقربها، فاحتملت أهلى وولدى، والتحقت بأهل دينى من النصارى بالشام، وخلفت بنتاً لحاتم فى الحاضر فأصيبت فيمن أصيب من الحاضر، أى: سبيت، فلما قدمت فى السبايا على رسول الله ﷺ، وبلغ رسول الله ﷺ هربى إلى الشام، مَنَّ عليها رسول الله ﷺ وكساها وحملها وأعطاها نفقة، وخرجت إلى أن قدمت علىَّ الشام، فوالله إنى لقاعد فى أهلى إذ نظرت إلى ظعينة تؤمنا، فقلت: ابنة حاتم، فإذا هى، فلما وقفت علىَّ قالت: القاطع الظالم، احتملت بأهلك وولدك وقطعت بقية والديك وعورتك، فقلت: أى

أخية لا تقولى إلا خيراً، فوالله ما لى من عذر، ولقد صنعت ما ذكرت، ثم نزلت وأقامت عندى، فقلت لها- وكانت امرأة حازمة-: ماذا ترين فى أمر هذا الرجل؟ قالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن نبياً فللسابق إليه فضيلة، وإن يكن ملكاً فأنت أنت، فقلت: والله إن هذا للرأى، قال: فخرجت حتى جئت المدينة، فدخلت عليه، فقال: من الرجل؟ فقلت: عدى بن حاتم، فقام رسول الله ﷺ وانطلق بى إلى بيته، فوالله إنه لقائدنى إليه، إذ لقيته امرأة كبيرة ضعيفة فاستوقفته فوقف لها طويلاً تكلمه فى حاجتها، فقلت: ما هذا بملك، ثم مضى رسول الله ﷺ حتى إذا دخل بيته تناول وسادة بيده من أدم وحشوها ليف فقدمها إلىّ، وقال: اجلس على هذه، فقلت: بل أنت تجلس عليها، قال: بل أنت، فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض، فقلت: والله ما هذا بأمر ملك، ثم قال له ما معناه: يا عدى بن حاتم أسلم تسلم، قالها ثلاثاً، فقلت: إنى على دين، قال: أنا أعلم بدينك منك، فقلت: أنت أعلم بدينى، قال: نعم، ألست من الركوسية؟- لأنه كما تقدم كان نصرانياً- فقلت: بلى، فقال: ألم تكن تسير فى قومك بالمرباع؟ أى: تأخذ ربع الغنيمة كما هو شأن الأشراف من أخذهم فى الجاهلية ربع الغنيمة، قلت: بلى، قال: فإن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك، قلت: أجل والله، وعرفت أنه نبىّ مرسل يعلم ما يجهل، ثم قال ﷺ: لعلك يا عدى إنما يمنعك من الدخول فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوّهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية - وهى قرية بينها وبين الكوفة نحو

مرحلتين- على بعيرها حتى تزور البيت، أى: الكعبة، لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم.

قال عدىّ: وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تحج البيت، وأيم الله لتكونن الثانية ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه.

وفى الترمذى: أنه لما قدم قالوا هذا عدىّ بن حاتم، وكان النبى ﷺ قال قبل ذلك: إنى لأرجو الله أن يجعل يده فى يدى، فكان سبب إسلامه إصابة خيل النبى ﷺ أخته كما تقدم، رضي الله عنه.

٩- وفد عروة بن مسيك المرادى

وفد على رسول الله ﷺ عروة مفارقاً لملوك كندة، وكان بين قومه (مراد) وبين همدان قبيل الإسلام وقعة أصابت فيها همدان من مراد ما أرادوا، فى يوم يقال له الردم.

وقال له رسول الله ﷺ: هل ساءك ما أصاب قومك يوم الردم؟ فقال: يا رسول الله من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومى يوم الردم ولا يسوءه؟ فقال له رسول الله ﷺ: أما إن ذلك لم يزد قومك فى الإسلام إلا خيراً. واستعمله ﷺ على مراد وزبيد، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة، فكان معه فى بلاده رضى الله عنهما حتى توفى رسول الله ﷺ.

وقال عروة عند توجهه إلى رسول الله ﷺ:

لما رأيت ملوك كندة أعرضت ... كالرجل خان الرجل عرق نسائها

قربت راحلتى أؤم محمداً ... أرجو فواضلها وحسن ثرائها

١٠- وفد بنى زبيد

وفد بنو زبيد على رسول الله ﷺ وفيهم عمرو بن معد يكرب الزبيدى، وكان فارس العرب، مشهوراً بالشجاعة، شاعراً مجيداً، قال لابن أخيه قيس المرادى: إنك سيد قومك، وقد ذكر لنا أن رجلاً من قريش يقال له: محمد- ﷺ- قد خرج بالحجاز، يقول: إنه نبيّ فانطلق بنا إليه، حتى نعلم علمه فإن كان نبياً كما يقول فإنه لن يخفى عليك، وإذا لقيناه اتبعناه، وإن كان غير ذلك علمنا علمه، فأبى عليه قيس ذلك، وسفه رأيه، فركب عمرو ﷺ حتى قدم على رسول الله ﷺ مع قومه فأسلم، فلما بلغ ذلك قيساً قال: خالفنى وترك أمرى ورأيى، وتوعد عمرا. فقال عمرو فى قيس أبياتاً منها:

فمن ذا عاذرى من ذى سفاه — يريد بنفسه شد المزاد

أريد حياته ويريد قتلى — عذيرك من خليلك من مرادى

أى: وبعد وفاته ﷺ ارتد عمرو هذا مع الأسود العنسى، ثم أسلم وحسن إسلامه وشهد فتوحات كثيرة فى أيام الصديق وأيام عمر رضى الله عنهما، وأسلم قيس بعد ذلك، واختلف فى صحبته ﷺ.

١١- وفد كندة

كندة قبيلة باليمن ينسبون إلى كندة لقب جدهم ثور بن عفير، وله ﷺ جدة منهم وهى أم جده كلاب، وفد عليه ﷺ ثمانون من كندة، وقيل: ستون، فيهم الأشعث بن قيس وكان وجيهاً مطاعاً فى قومه وهو أصغرهم، فلما أرادوا الدخول عليه ﷺ سرحوا شعورهم وتكحلوا، ولبسوا جبب الحبرة قد سجعوها بالحرير، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ قالوا: أبيت اللعن، فقال رسول الله ﷺ: لست ملكاً أنا محمد بن عبد الله، قالوا: لا نسميك باسمك، قال: أنا أبو القاسم، فقالوا: يا أبا القاسم إنا خبأنا لك خباءً فما هو؟- وكانوا خبئوا لرسول الله ﷺ عين جرادة فى ظرف سمن- فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله إنما يفعل ذلك بالكاهن، وإن الكاهن والكهان والمتكهن فى النار، وقالوا: كيف نعلم أنك رسول الله؟ فأخذ كفا فى حصباء فقال: هذا يشهد أنى رسول الله، فسبح الحصى فى يده، فقالوا: نشهد أنك رسول الله، فقال ﷺ: إن الله بعثنى بالحق وأنزل على كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقالوا: أسمعنا منه، فتلى رسول الله ﷺ: ﴿والصافات صفاً ... حتى بلغ، ورب المشارق﴾ (الصافات: ١-٥). ثم سكت رسول الله ﷺ وسكن بحيث لا يتحرك منه شىء ودموعه تجرى على لحيته ﷺ، فقالوا: إنا نراك تبكى أفمن مخافت من أرسلك تبكى؟ فقال ﷺ: خشيتى منه أبكتنى، بعثنى على صراط مستقيم فى مثل حد السيف إن زغت عنه هلكت، ثم تلى ﷺ: ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك﴾ (الإسراء: ٨٦). ثم قال لهم: ألم تسلموا؟ قالوا: بلى، قال: فما بال هذا الحرير فى أعناقكم، فعند ذلك شقوه وألقوه، ولعل سجعهم جاوز الحد الجائز.

شرعاً، وكان على النبى ﷺ حين دخلوا عليه حلة يمانية قالوا: إنها حلة ذى يزن وعلى أبى بكر وعمر مثلها، وكان ﷺ إذا قدم عليه وفد لبس أحسن ثيابه وأمر أصحابه بذلك، وقد قال الأشعث بن قيس له ﷺ: نحن بنوا آكلة المرار، وأنت ابن آكلة المرار، ويعنون جدته أم كلاب فقد تقدم أنها من كندة، وآكل المرار هو الحارث بن عمر، ولقب بذلك لأكله شجراً يقال له المرار فى غزوة غزاها، ولما قال له الأشعث ما ذكر، قال له ﷺ: لا نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا وننتفى من أبينا، أى: لا ننسب إلى الأمهات ونترك النسب إلى الآباء، فقال الأشعث بن قيس: يا معشر كندة والله لا أسمع رجل يقولها إلا ضربته ثمانين. والأشعث هذا ممن ارتد بعد النبى ﷺ ثم عاد إلى الإسلام فى خلافة الصديق ﷺ حين أراد قتله فقال: استبقنى لحروبك وزوجنى أختك، فزوجه أخته أم فروة، فدخل سوق الإبل فى المدينة واخترط سيفه فجعل لا يرى جملاً إلا عرقبه، فصاح الناس كفر الأشعث فلما فرغ طرح سبعة، وقال: والله ما كفرت إلا أن الرجل- يعنى أبا بكر ﷺ- زوجنى أخته، ولو كنا ببلادنا كانت لى وليمة غير هذه، ثم قال: يا أهل المدينة انحروا وكلوا وأعطى أصحاب الإبل أثمانها.

وقال ﷺ للأشعث: هل لك من ولد؟ فقال: لى غلام ولد عند مخرجى إليك لوددت أن لى به سبعة، قال: إنهم لمجبنة مبخلة محزنة، وإنهم لقرة العين وثمرة الفؤاد.

وقد شهد الأشعث اليرموك بالشام ثم القادسية وحروب العراق، وسكن الكوفة، وشهد صفين مع علىّ كرم الله وجهه، ومات بعد ذلك بأربعين ليلة، وصلى عليه الحسن بن على رضى الله عنهما. وقيل: مات سنة اثنتين وأربعين ﷺ.

١٢- وفد أزد شنوءة

وفد على رسول الله ﷺ جمع من الأزد وفيهم صرد بن عبد الله الأزدى وكان أفضلهم، فأمره على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من يليه من أهل الشرك من قبائل اليمن، ففرج حتى نزل بجرش- وهى مدينة بها قبائل اليمن- فحاصرها المسلمون قريباً من شهر ثم رجعوا عنها حتى إذا كانوا بجبل يقال له: شكر، فلما وصلوا ذلك المحل ظن أهل جرش أن المسلمين إنما رجعوا عنهم منهزمين، فخرجوا فى طلبهم حتى إذا أدركوهم، عطف المسلمون عليهم فقتلوهم قتلاً شديداً، وقد كان أهل جرش بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة يرتادان، أى: ينظران الأخبار، فبينما هما عند رسول الله ﷺ إذ قال ﷺ: بأى بلاد الله شكر؟ فقام الرجلان فقالا: يا رسول الله ببلادنا جبل يقال كشر، فقال: إنه ليس بكشر ولكنه شكر، قالا: فما شأنه يا رسول الله؟ قال: إن بدن الله لتنحر عنده الآن- يعنى قتل قومهم الذين هم كالبدن فى عدم الإدراك حيث لم يؤمنوا وحاربوا المسلمين- ينحرون نحر البدن، فجلس الرجلان إلى أبى بكر وعثمان رضى الله عنهما فقالا لهما: ويحكما إن رسول الله ﷺ لينعى لكما قومكما، أى: يخبركما بموتهم، فقوما إليه فاسألاه أن يدعو الله أن يرفع عن قومكما، فسألاه ذلك فقال: اللهم ارفع عنهم، ثم خرجا من عند رسول الله ﷺ راجعين إلى قومهما فوجدوا قومهما قد أصيبوا فى اليوم والساعة التى قال فيها رسول الله ﷺ ما قال، وعند إخبارهما لقومهما بذلك وفد وفد جرش على رسول الله ﷺ فأسلموا، فقال رسول الله ﷺ: مرحباً بكم أحسن الناس وجوهاً، وأصدقهم لقاء، وأطيبهم كلاماً، وأعظمهم أمانة، أنتم منى وأنا منكم، وحمى لهم حمى حول بلدهم ﷺ وأرضاهم.

١٣- وفد رسول الحارث بن كلال

وأصحابه ملوك حمير وحامل كتابهم

وفد على رسول الله ﷺ رسول ملوك حمير وحامل كتابهم إليه ﷺ، وذلك أن الحارث بن كُلال، والنعمان، ومعافِر، وهِمدان- وهى قبيلة- كتبوا إلى النبى ﷺ بإسلامهم، فكتب إليهم رسول الله ﷺ: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﷺ إلى الحارث بن كلال وإلى النعمان ومعافر وهمدان أما بعد، فإنى أحمد الله إليكم الذى لا إله إلا هو أما بعد، فإنه وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم، أى: رجوعنا من غزوة تبوك، فلقينا بالمدينة فبلغ ما أرسلتم به وخبر ما قبلكم، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، وأن الله قد هداكم بهداه، وأنكم أصلحتم وأطعتم الله ورسوله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وأعطيتم من الغنائم خمس الله وسهم النبى وما كتب على المؤمنين من الصدقة، أما بعد، فإن محمدا النبى أرسل إلى زرعة ذى يزن. وفى رواية: إلى ذرعة بن سيف بن ذى يزن، أن إذا أتاكم رسلى فأوصيكم بهم خيراً، معاذ بن جبل، وعبد الله بن زيد، ومالك بن عبادة، وعقبة بن نمر، ومالك بن مرارة وأصحابهم، وأن اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخالفكم- جمع مخلاف- وأبلغوها رسلى، وأن أميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلبن إلا راضياً، أما بعد، فإن محمدا يشهد أن لا إله إلا الله وأنه عبده ورسوله، ثم إن مالك بن كعب بن مرارة قد حدثنى أنك قد أسلمت من أوّل حمير، وقتلت المشركين فأبشر بخير وآمرك بحمير خيراً، ولا تخزنوا ولا تخاذلوا فإن رسول الله ﷺ هو مولى غنيكم وفقيركم، إن الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته إنما هى زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل، وإن مالكاً قد بلغ الخبر وحفظ الغيب، وآمركم به خيراً، والسلام عليكم ورحمته الله وبركاته).

١٤- وفادة رسول فروة بن عمرو الجذامى

وفد رسول فروة على رسول ﷺ يخبره بإسلامه ﷺ، وأهدى فروة له ﷺ بغلة بيضاء يقال له: فضة، وحمار يقال له: يعفور، وفرساً يقال لها: الظرب، وثياباً وقباء مرصعاً بالذهب، فقبل ﷺ الهدية، وأعطى الرسول اثنتا عشرة أوقية من فضة، وكان فروة عاملاً للروم على ما يليهم من العرب، وكان مترله معان وما حولها من أرض الشام، ومعان اسم جبل، فلما بلغ الروم إسلامه أخذوه وحبسوه، ثم ضربوا عنقه بعد أن قال له الملك: ارجع عن دين محمد ﷺ ونحن نعيدك إلى ملكك، قال: لا أفارق دين محمد ﷺ، فإنك تعلم أن عيسى عليه السلام بشر به ولكنك تضن بملكك.

١٥- وفد الحارث بن كعب

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد ﷺ إلى بنى الحارث بن كعب بنجران وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم، وقال له: إن استجابوا فاقبل منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم، فخرج خالد ﷺ حتى قدم عليهم فبعث الركبان يضربون فى كل وجه ويدعون إلى الإسلام ويقولون: أيها الناس أسلموا تسلموا، فأسلموا، فقام فيهم خالد بن الوليد ﷺ يعلمهم شرائع الإسلام، وكتب إلى رسول الله ﷺ بذلك، فكتب له رسول الله ﷺ أن يُقبل ويقبل معه وفدهم، فأقبل ﷺ وأقبل معه وفدهم وفيهم قيس بن الحصين ذو الغصة- لأنه كان فى حلقه غصة لا يكاد يبين الكلام منها- وحين اجتمعوا به ﷺ قال لهم: بما كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية؟ قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق ولا نبدأ أحدا بظلم، قال: صدقتم، وأمَّر عليهم ﷺ زيد بن الحصين، ولم يمكثوا بعد رجوعهم إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى توفى رسول الله ﷺ.

١٦- وفد رفاعة بن زيد الخزاعى

وفد على رسول الله ﷺ فأسلم وأهدى لرسول الله غلاماً، وكتب له رسول الله ﷺ كتاباً إلى قومه: (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﷺ لرفاعة ابن زيد، إنى بعثته إلى قومه عامة من دخل منهم يدعوهم إلى الله وإلى رسوله ﷺ، فمن أقبل منهم ففى حزب الله ورسوله، ومن أدبر فله أمان شهرين)٠

فلما قدم رفاعة على قومه أجابوا وأسلموا ﷺ٠

١٧- وفد هِمدان

وفد على رسول الله ﷺ جمع من همدان فيهم مالك بن نمط- وكان شاعراً مجيداً- فلقوا رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك وعليهم مقطعات الحبرات بكسر الحاء- ثياب مخططة من برود اليمن- والعمائم العدنية- نسبة إلى عدن مدينة باليمن- ووفدوا عليه على الرواحل المهرية والأرحبية، والمهرية- نسبة إلى قبيلة يقال لها: مهرة باليمن، والأرحبية نسبة إلى أرحب- وقد أمّر ﷺ مالك بن نمط على من أسلم من قومه، وتقدم أن النبى ﷺ بعث خالد بن الوليد إليهم، ثم بعث علياً ﷺ وأمر خالد بالرجوع، وإن من كان مع خالد إن شاء بقى مع علىّ وإن شاء رجع، وأنه ﷺ لما جاءه خبر إسلامهم خر ساجداً ثم رفع رأسه ثم قال: السلام على هِمدان٠ وجاء أنه ﷺ قال: نعم الحى هِمدان ما أسرعها إلى النصر، وأصبرها على الجهد، وفيهم أبدال وفيهم أوتاد الإسلام٠

١٨- وفد تُحبب

وتُحبب بضم المثناة فوق هى قبيلة من كندة. وفد على رسول الله ﷺ منهم ثلاثة عشر رجلاً وقد ساقوا معهم صدقات أموالهم التى فرض الله عليهم، فسر رسول الله ﷺ بهم وأكرم مثواهم، وقالوا: يا رسول الله إنا سقنا إليك حق الله فى أموالنا، فقال رسول الله ﷺ: ردوها فاقسموها على فقرائكم، قالوا: يا رسول الله ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا، فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله ما قدم علينا وفد من العرب مثل هذا الوفد، فقال رسول الله ﷺ: إن الهدى بيد الله عز وجل فمن أراد الله به خيراً شرح صدره للدين، وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن فازداد رسول الله ﷺ رغبة فيهم، وأرادوا الرجوع إلى أهليهم فقيل لهم: ما يعجبكم؟ قالوا: نرجع إلى ما وراءنا فنخبرهم برؤية رسول الله ﷺ وملاقاتنا وكلامنا إياه وما رد علينا، ثم جاءوا إلى رسول الله ﷺ فودعوه، فأرسل إليهم بلالاً فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود، ثم قال لهم ﷺ: هل بقى منكم أحد؟ قالوا: غلام خلفناه على رحالنا وهو أحدثنا سناً، فقال: أرسلوه إلينا، فأقبل الغلام حتى أتى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله أنا من الوفد الذين أتوك آنفاً فقضيت حوائجهم فاقضى حاجتى، قال: وما حاجتك؟ فقال: يا رسول الله إن حاجتى ليست كحاجة أصحابى وإن كانوا راغبين فى الإسلام، والله ما أخرجنى إلا أن تسأل الله أن يغفر لى ويرحمنى، وأن يجعل غناى فى قلبى، فقال رسول الله ﷺ: اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه فى قلبه.

وقد قال ﷺ: من أراد الله به خيراً جعل غناه فى نفسه، وتقاه فى قلبه، وإذا أراد

الله بعبد شراً جعل فقره بين عينيه، ثم أمر له ﷺ بمثل ما أمر بـه لرجـل مـن أصحابه، ثم إنهم ﷺ بعد ذلك وافوا رسول الله ﷺ بمنى فى الموسـم إلا ذلـك الغلام، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما فعل الغلام الذى أتانى معكم؟ قـالوا: يـا رسول الله ما رأينا مثله قط، ولا حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله، لـو أن النـاس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها ولا التفت إليها، فقال رسول الله ﷺ: الحمـد لله إنى لأرجو أن يموت جميعاً، فقال رجل منهم: أو ليس يموت الرجـل جميعـاً يـا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: تشعب أهواؤه وهمومه فى أودية الدنيـا، فلعـل الأجل يدركه فى بعض تلك الأودية فلا يبالى عز وجل فى أيها هلك.

ولما توفى رسول الله ﷺ ورجع من رجع من أهل اليمن عن الإسلام، قام ذلـك الغلام فى قومه فذكرهم الله والإسلام فلم يرجع منهم أحد.

وجعل أبو بكر الصديق ﷺ يذكر ذلك الغلام ويسأل عنه ولما بلغه ما قام بـه، كتب إلى زياد بن الوليد، أى: وكان ﷺ والياً على حضرموت، يوصيه به خـيراً ﷺ.

١٩- وفد بنى ثعلبة

وفد على رسول الله ﷺ مرجعه من الجعرانة أربعة نفر من بنى ثعلبة مقرين بالإسلام، فإذا رسول الله ﷺ قد خرج من بيته ورأسه يقطر ماءً، قال بعضهم: فرمى ببصره إلينا فأسرعنا إليه وبلال يقيم الصلاة، فسلمنا وقلنا: يا رسول الله إنا رسل من خلفنا من قومنا ونحن مقرون بالإسلام وقد قيل لنا: إن رسول الله ﷺ يقول: لا إسلام لمن لا هجرة له، فقال رسول الله ﷺ: حيثما كنتم واتقيتم الله فلا يضركم، ثم صلى بنا الظهر، ثم انصرف إلى بيته، فلم يلبث أن خرج إلينا فدعا بنا فقال: كيف بلادكم؟ فقلنا: مخصبون، فقال: الحمد لله، فأقمنا أياماً وضيافته تجرى علينا.

ثم لما جاءوا يودعونه قال لبلال: أجزهم، فأعطى كل واحد منهم خمس أواقى فضة.

٢٠- وفد بنى سعد هذيم من قضاعة

عن النعمان ﷺ قال: قدمت على رسول الله ﷺ وافداً فى نفر من قومى، وقد أوطأ رسول الله ﷺ البلاد، أى: جعلها موطوءة قهراً وغلبة، واستولى عليها، والناس نصفان: إما داخل فى الإسلام راغب فيه، وإما خائف السيف، فترلنا ناحية من المدينة، ثم خرجنا نؤم المسجد حتى انتهينا إلى بابه، فنجد رسول الله ﷺ يصلى على جنازة فى المسجد وهى لسهيل بن بيضاء ﷺ، فقمنا خلفه ولم ندخل مع الناس فى صلاقم وقلنا: حتى يصلى رسول الله ﷺ ونبايعه، ثم انصرف رسول الله ﷺ فنظر إلينا فدعا بنا فقال: ممن أنتم؟ فقلنا: من بنى سعد هذيم، فقال: أمسلمون أنتم؟ قلنا: نعم، فقال: هلا صليتم على أخيكم؟ قلنا: يا رسول الله ظننا أن ذلك لا يجوز لنا حتى نبايعك، فقال رسول الله ﷺ: أينما أسلمتم فأنتم مسلمون، قال: فأسلمنا وبايعنا رسول الله ﷺ على الإسلام، ثم انصرفنا إلى رحالنا وقد كنا خلفنا عليها أصغرنا، فبعث رسول الله ﷺ فى طلبنا، فأتى بنا إليه، فتقدم صاحبنا فبايعه على الإسلام، فقلنا: يا رسول الله إنه أصغرنا وإنه خادمنا، فقال: أصغر القوم خادمهم بارك الله عليه، قال النعمان: فكان والله خيرنا وأقرأنا للقرآن لدعاء رسول الله ﷺ له، ثم أمَّره رسول الله ﷺ فكان يؤمنا، فلما أردنا الانصراف أمر بلالاً فأجازنا بأواق من فضة لكل رجل منا، فرجعنا إلى قومنا فرزقهم الله الإسلام.

٢١- وفد بنى فزارة

وفد عليه ﷺ بضعة عشر رجلاً من بنى فزارة فيهم خارجة بن حصن أخو عيينة ابن حصن، وابن أخيه الجد بن قيس بن حصن- وهو أصغرهم- مقرين بالإسلام بعد أن ولت عليهم السنون والجدب على ركائب عجاف، أى: هزال، فسألهم رسول الله ﷺ عن بلادهم، فقال خارجة: يا رسول الله أسنت بلادنا، وهلكت مواشينا، وأجدب جنابنا، أى: ما حولنا، وجاعت عيالنا، فادع لنا ربك يغيثنا، واشفع لنا إلى ربك، فصعد ﷺ المنبر ورفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه ودعا، وكان مما حفظ من دعائه: (اللهم اسق بلدك غيثاً مغثياً مريعاً طبقاً واسعاً، عاجلاً غير آجل، نافعاً غير ضار، اللهم سقياً رحمة لا سقياً عذاب، ولا هدم ولا غرق ولا محق، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء) فقام أبو لبابة ﷺ فقال: يا رسول الله إن التمر فى المربد ثلاث مرات، فقال ﷺ: اللهم اسقنا حتى يقوم أبو لبابة عرياناً يسد ثعلب مربده بإزاره، قال: فلا والله ما فى السماء من قزعة ولا سحاب وما بين المسجد وسلع من بناء ولا دار، فطلعت من وراء سلع- اسم جبل- سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت وهم ينظرون ثم أمطرت السماء، وقام أبو لبابة عريان يسد ثعلب مربده بإزاره لئلا يخرج التمر منه، فوالله ما رأوا الشمس سبعاً، ثم قام الرجل- يعنى الذى سأله أن يستسقى لهم- فقال: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل، فصعد رسول الله ﷺ المنبر فدعا ورفع يديه حتى رؤى بياض إبطيه فقال: اللهم حوالينا لا علينا، وعلى الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر،

فانجابت السحابة عن المدينة كانجياب الثوب.

وفى السيرة الحلبية: إن هذا المطر كان عاما للمدينة وما حولها إلى محل هؤلاء الوافدين.

الصحابة يفزعون إليه ﷺ عند الشدائد

أحاديث الاستسقاء تعددت وتكررت، فهذه القصة غير قصة الأعرابى الذى سأله السقيا وهو ﷺ على المنبر، وحديث الأعرابى رواه أنس بن مالك ﷺ قال: أصابت الناس سنة على عهد رسول الله ﷺ فبينما هو يخطب على المنبر يوم الجمعة إذ قام أعرابى فقال: يا رسول الله هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا أن يسقينا، فرفع رسول الله ﷺ يديه وما فى السماء قزعة فدار السحاب أمثال الجبال ثم لم ينزل عن المنبر حتى رأينا المطر يتحادر عن لحيته، قال: فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد ومن بعد الغد والذى يليه إلى يوم الجمعة الأخرى، فقام ذلك الأعرابى أو غيره فقال: يا رسول الله تهدم البناء وغرق المال، أدع الله لنا، فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال: اللهم حوالينا لا علينا، قال: فما جعل يشير بيده إلى ناحية من السماء إلا انفرجت حتى صارت المدينة فى مثل الجونة، حتى سال الوادى شهرا فلم يجىء أحد من ناحية إلا حدث بالجود، أى: المطر الكثير.

وجاء فى أحاديث أنه ﷺ خرج مرة أخرى إلى المصلى بعد أن وعد الناس يوما أن يخرج فيه، ونصب له منبر، واستسقى وأجيبت دعوته ونزل المطر.

وجاء إليه مرة أعرابى فقال: يا رسول الله أتيناك وما لنا بعير يئط ولا بعير يغط، ثم أنشد أبياتا منها قوله:

وليس لنا إلا إليك فرارنا وأين فرار الناس إلا إلى الرسل

فقام ﷺ يجر رداءه حتى صعد المنبر فدعا فسقوا، ثم قال لو كان أبو طالب حياً لقرت عيناه، من ينشد قوله؟ فقام عليٌّ فقال: يا رسول الله كأنك أردت قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال ﷺ أجل.

وفى رواية لما جاءه المسلمون وقالوا: يا رسول الله قحط المطر، ويبس الشجر، وهلكت المواشى، وأسنت الناس، فاستسق لنا ربك، فخرج ﷺ والناس معه يمشون بالسكينة والوقار حتى أتوا المصلى، فتقدم ﷺ فصلى بهم ركعتين يجهر فيهما بالقراءة- وكان يقرأ فى العيدين والاستسقاء فى الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وسبح اسم ربك الأعلى، وفى الركعة الثانية بالفاتحة وهل أتاك حديث الغاشية- فلما قضى صلاته استقبل الناس بوجهه وقلب رداءه، لكى ينقلب القحط إلى الخصب، ثم جثا على ركبتيه ورفع يديه وكثر تكبيره ثم قال: (اللهم اسقنا غيثاً واسعاً، طبقاً، مغدقاً، عاماً، هنيئاً، مريئاً، مريعاً، وابلاً، شاملاً، مجللاً، نافعاً غير ضار، عاجلاً غير آجل، اللهم غيثاً تحيى به البلاد، وتغيث به العباد، وتجعله بلاغا للحاضر منا والباد، اللهم أنزل فى أرضنا زينتها، وأنزل علينا سكينتها، اللهم أنزل علينا من السماء ماء طهوراً تحيى به بلدك الميت، وتسقيه مما خلقت أنعاماً وأناسيَّ كثيراً). فما برحوا حتى أقبل قزع من السماء فالتأم بعضه إلى بعض، ثم أمطرت سبعة أيام بلياليهن لا يقلع عن المدينة، فأتاه المسلمون وهو على المنبر فقالوا: قد غرقت الأرض، وتهدمت البيوت، وانقطعت

السبل، فادع الله يصرفه عنا، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه- تعجباً لسرعة ملال ابن آدم- ثم رفع يديه وقال: (اللهم حوالينا لا علينا، اللهم على رءوس الظراب، ومنبت الشجر، وبطون الأودية، وظهور الآكام). فتقشعت عن المدينة، ثم قال: لله در أبي طالب لو كان حياً لقرت عيناه، من الذى ينشدنا قوله؟ فقام علىٌّ رضي الله عنه فقال: يا رسول الله كأنك أردت قوله:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال: أجل.

فهذه الأحاديث كلها تدل على تعدد الاستسقاء وتكرره منه ﷺ وفى كل مرة يسقون، ففى ذلك معجزة له ﷺ.

ثم أجاز ﷺ بنى فزارة بما يجيز به الوفود ورجعوا إلى قومهم رضي الله عنهم.

٢٢- وفد بنى أسد

وفد عليه ﷺ جماعة من بنى أسد فيهم حضرمى بن عامر، فدخلوا المدينة ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد مع أصحابه، فسلموا عليه وقال شخص منهم: يا رسول الله صلى الله عليك وسلم أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله، ثم أسلم الباقون وقالوا: جئناك يا رسول الله و لم تبعث إلينا بعثاً ونحن على مَن ورائنا. وفى رواية: إن حضرمى بن عامر قال: أتيناك بتدرع الليل البهيم فى سنة شهباء، أى: ذات قحط، و لم تبعث إلينا. وفى رواية: يا رسول الله أسلمنا و لم نقاتلك كما قاتلتك العرب، فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علىّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين﴾ (الحجرات: ١٧). وسألوه عما كانوا يفعلونه فى الجاهلية من العيافة، وهى زجر الطير. والكهانة، وهى الإخبار عن الكائنات فى المستقبل، فنهاهم عن ذلك، فقالوا: يا رسول الله خصلة بقيت، قال: وما هى؟ قالوا: الخط، أى: خط الرمل ومعرفة ما يدل عليه، فقال: علمه نبىّ فمن صادف مثل ما علمه عُلِّم. ففى رواية فى مسلم: فمن وافق خطه خطه فذاك، أى: مباح له، فلا يباح إلا بتبين الموافقة. وفى شرح مسلم أن محصل مجموع كلام العلماء الاتفاق على النهى عنه، أى: لأنه لا طريق لنا إلى العلم اليقينى بالموافقة، وكأنه ﷺ قال: لو علمتم موافقته لكن لا علم لكم بها.

وأقاموا أياماً يتعلمون الفرائض، ثم جاءوا لرسول الله ﷺ فودعوه، وأمر لهم بجوائز ثم انصرفوا إلى أهليهم ﷺ.

٢٣- وفد بنى عذرة

عذرة قبيلة باليمن. وفد على رسول الله ﷺ اثنى عشر رجلاً من بـــنى عــذرة وسلّموا سلام الجاهلية، فقال لهم ﷺ: من القوم؟ فقال قائل منهم: نحن من بـــنى عذرة أخــو قصي من أمه، نحن الذين عضدوا قصياً وأزاحوا خزاعة وبنى بكــر من بطن مكة، فلنا قرابات وأرحام، فقال رسول الله ﷺ: مرحباً بكم وأهلاً مـــا أعرفنى بكم، أى: لقيتم مكاناً رحباً وأتيتم أهلاً، فاستأنسوا ولاتستوحشــــوا ثم قال: فما يمنعكم من تحية الإسلام؟ قالوا: يا محمد كنا على ما كان عليه أباؤنـــا فقدمنا مرتادين لأنفسنا ولقومنا، ثم قالوا: إلى ما تدعو؟ فقال رســـول الله ﷺ: أدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن تشهدوا أنى رسول الله إلى النـــاس كافة، فقال متكلمهم: فما وراء ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ: الصلوات الخمـــس تحسن طهورهن وتصليهن لمواقيتهن فإنه أفضل العمل، ثم ذكر لهم باقى الفرائض من الصيام والزكاة والحج، فأسلموا وبشرهم رسول الله ﷺ بفتح الشام عليـــهم وهرب هرقل إلى ممتنع بلاده. ونهاهم عن سؤال الكهانة- لأنهم قالوا: يا رسول الله إن فينا امرأة كاهنة وقريش والعرب يتحاكمون إليها أفنسألها عن أمـــور؟- فقال: لا تسألوها عن شيء، ونهاهم عن الذبائح التى كانوا يذبحونها لأصنامـــهم، وقالوا: نحن أعوانك وأنصارك، ثم انصرفوا وقد أجيزوا وكسى أحدهم برداً.

٢٤- وفد بلى

على وزن على مكبراً، وهم حىّ من قضاعة ، وفد على رسول الله ﷺ جمع من بلى منهم- وهو شيخهم- أبو الضبيب تصغير الضب الدابة المعروفة، فنزلوا على رويفع بن ثابت البلوى، فقدم بهم على رسول الله ﷺ فقال له: هؤلاء قومى، فقال له رسول الله ﷺ: مرحباً بك وبقومك، فأسلموا وقال لهم رسول الله ﷺ: الحمد لله الذى هداكم للإسلام، فكل من مات منكم على غير الإسلام فهو فى النار .

وفى رواية عن رويفع قال: قدم وفد قومى فأنزلتهم علىَّ ثم خرجت بهم حتى انتهينا إلى رسول الله ﷺ وهو جالس فى أصحابه فسلمنا، فقال: رويفع؟ فقلت: لبيك، قال: من هؤلاء؟ قلت: قومى، قال: مرحباً بك وبقومك، قلت: يا رسول الله قدموا وافدين عليك مقرين بالإسلام وهم على من وراءهم من قومهم، فقال رسول الله ﷺ: من يرد الله به خيراً يهده للإسلام، فتقدم شيخ الوفد أبو الضبيب فجلس بين يدى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنا قدمنا عليك لنصدقك ونشهد أنك نبىّ حقاً ونخلع ما كنا نعبد وآباؤنا، فقال رسول الله ﷺ: الحمد لله الذى هداكم للإسلام فكل من مات على غير الإسلام فهو فى النار . وقال له أبو الضبيب: يا رسول الله إن لى رغبة فى الضيافة فهل لى فى ذلك أجر؟ قال: نعم، وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقير فهو صدقة، قال: يا رسول الله ما وقت الضيافة؟ قال: ثلاثة أيام، قال: فما بعد ذلك؟ قال: فصدقة، ولا يحل للضيف أن يقيم عندك فيحرجك، أى: يضيق عليك، وفى

لفظ: فيؤثمك، أى: يعرضك للإثم، بأن تتكلم بسيء القول، قال: يا رسول الله أرأيت الضالة من الغنم أجدها فى الفلاة من الأرض، قال: لك أو لأخيك أو للذئب، قال: فالبعير، قال: ما لك وله، دعه حتى يجده صاحبه.

قال رويقع: ثم قاموا فرجعوا إلى منزلى، فإذا رسول الله ﷺ يأتى منزلى بجمل تمرا، فقال: استعن بهذا التمر، فكانوا يأكلون منه ومن غيره، فأقاموا ثلاثة ثم ودعوا رسول الله ﷺ وأجازهم، ورجعوا إلى بلادهم ﷺ.

٢٥- وفد بنى مرة

وفد على رسول الله ﷺ ثلاثة عشر رجلاً من بنى مرة ورأسهم الحـــارث بـــن عـــوف فقال: يا رسول الله إنا قومك وعشيرتك، نحن قوم من بنى لـــؤى بـــن غالب، فتبسم رسول الله ﷺ وقال له: أين تركت أهلك؟ قال: بســـلاح ومـــا والاها، قال: فكيف البلاد؟ قال: والله إنا لمسنتون وما فى المال صـــوت يـــردده. فادع الله لنا، قال رسول الله ﷺ: اللهم اسقهم الغيث.

فأقاموا أياماً ثم أرادوا الانصراف إلى بلادهم فجاءوا إلى رسول الله ﷺ مودعـــين له، فأمر بلالاً أن يجيزهم، فأجاز كل واحد بعشر أواق فضة، وفضل الحارث بن عوف فأعطاه اثنتى عشرة أوقية، ورجعوا إلى بلادهم فوجدوا البـــلاد مطـــيرة، فسألوا قومهم متى مطرتم؟ فإذا هو ذلك اليوم الذى دعا لهم فيه رســـول الله ﷺ، وأخصبت بعد ذلك بلادهم ببركة دعائه ﷺ.

٢٦- وفد خَولان

وهى قبيلة من اليمن. وفد على رسول الله ﷺ عشرة من خولان فقالوا: يا رسول الله نحن على من وراءنا من قومنا، ونحن مؤمنون بالله عز وجل، مصدقون برسوله، قد ضربنا إليك آباط الإبل وركبنا حزون الأرض وسهولها- وحزون كفلوس جمع حزن وهو ما غلظ من الأرض- والمنة لله ولرسوله علينا، وقدمنا زائرين لك. فقال رسول الله ﷺ: أما ما ذكرتم من مسيركم إلىّ فإن لكم بكل خطوة خطاها بعير أحدكم حسنة، وأما قولكم: زائرين لك، فإن من زارنى بالمدينة كان فى جوارى يوم القيامة.

ثم سألهم عن صنم الخولان اسمه عم أنس كانوا يعبدونه، فقالوا: بدلنا الله ما جئت به، وقد بقيت منا بقايا شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسكون به، ولو قدمنا عليه هدمناه إن شاء الله تعالى، فقد كنا منه فى غرور وفتنة، فقال لهم رسول الله ﷺ: وما أعظم ما رأيتم من فتنته؟ قالوا: لقد أصابتنا سنة مسنتة حتى أكلنا الرمة، فجمعنا ما قدرنا عليه وابتعنا مائة ثور ونحرناها لذلك الصنم قرباناً فى غداة واحدة وتركناها فأكلتها السباع- ونحن أحوج إليها من السباع- فجاءنا الغيث من ساعتنا، ولقد رأينا العشب يوارى الرجال ويقول قائلنا: أنعم علينا عم أنس.

وذكروا لرسول الله ﷺ ما كانوا يقسمون لهذا الصنم من أموالهم وأنعامهم وحرثهم فقالوا: كنا نزرع الزرع فنجعل له وسطه فنسميه له، ونسمى زرعاً آخر حجراً، أى: ناحية لله، فإذا مالت الريح بالذى سميناه له، أى: لله

جعلنـــاه لعم أنس- يعنون الصنم- و لم نجعله لله، فذكر لهم رســـول الله ﷺ أن الله أنزل عليه فى ذلك: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كـــان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون﴾ (الأنعام: ١٣٦)٠

وقالوا: كنا نتحاكم إليه فيتكلم، فقـــال رســـول الله ﷺ: تلـــك الشـــياطين تكلمكم٠ وسألوه ﷺ عن فرائض الدين، فأخبرهم بها، وأمرهـم بالوفاء بالعـــهد، وحسن الجوار لمن جاوروا، وأن لا يظلموا أحداً فإن الظلم ظلمات يوم القيامة٠

ثم ودعوه بعد أيام وأجازهم، أى: أعطى كل واحد اثنتى عشرة أوقية ونشـــا، أى: نصفا، ورجعوا إلى قومهم فلم يحلوا عقدة حتى هدموا صنمهم المسمى عـــم أنس٠

٢٧- وفد بنى محارب

وفد على رسول الله ﷺ عشرة من بنى محارب وفيهم خزيمة بن سواد، وكانوا أغلظ العرب وأشدهم على رسول الله ﷺ أيام عرضه نفسه على القبائل فى المواسم يدعوهم إلى الله تعالى، فجلسوا عنده يوماً من الظهر إلى العصر وأدام ﷺ النظر لرجل منهم وقال له: قد رأيتك- يعنى قبل هذا اليوم- فقال له ذلك الرجل: إنك والله لقد رأيتنى وكلمتك بأقبح الكلام، ورددتك بأقبح الرد بعكاظ، وأنت تطوف على الناس، فقال رسول الله ﷺ: نعم، قال: يا رسول الله ما كان فى أصحابى أشد عليك يومئذ ولا أبعد عن الإسلام منى، فأحمد الله الذى جاء بى حتى صدقت بك، ولقد مات أولئك النفر الذين كانوا معى على دينهم، فقال رسول الله ﷺ: إن هذه القلوب بيد الله عز وجل، فقال: يا رسول الله استغفر لى من مراجعتى إياك، فقال رسول الله ﷺ: إن الإسلام يجب ما قبله من الكفر، ومسح رسول الله ﷺ وجه خزيمة بن سواد فصارت له غرة بيضاء، وأجازهم كما يجيزوا الوفود وانصرفوا إلى أهليهم ﷺ.

٢٨- وفد صداء

وهم حيّ من عرب اليمن، وفدوا عليه ﷺ وكانوا خمسة عشر رجلاً، وسبب ذلك أنه ﷺ هيأ بعثاً- أربعمائة من المسلمين- واستعمل عليهم قيس بن سعد بن عبادة ﷺ، ودفع له لواء أبيض وراية سوداء، وأمره أن يطأ ناحية اليمن التى كان فيها صداء، فقدم على رسول الله ﷺ رجل منهم وعلم بالجيش، فأتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله جئتك وافداً عمن ورائى فاردد الجيش وأنا لك بقومى، فرد رسول الله ﷺ قيس بن سعد، وخرج الصدائى إلى قومه، ثم قدم على رسول الله ﷺ بأولئك القوم، فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله دعهم يترلون علىّ فترلوا عليه فأعطاهم وأكرمهم وكساهم، ثم ذهب بهم إلى النبى ﷺ فبايعوه على الإسلام وقالوا: نحن لك على من وراءنا من قومنا، فرجعوا إلى قومهم ففشا الإسلام فيهم، فوافى رسول الله ﷺ منهم مائة فى حجة الوداع.

الصدقة صداع فى الرأس وداء فى البطن

ويسمى ذلك الرجل- الذى كان سبباً فى رد الجيش ومجىء الوفد- بزيادة بن الحارث الصدائى، وقال له ﷺ: يا أخا صداء إنك لمطاع فى قومك، قال: فقلت بل من من الله عز وجل ومن رسوله. وفى رواية: بل الله هداهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ: أفلا أؤمّرك عليهم؟ فقلت: بلى يا رسول الله، فكتب لى بذلك، فقلت: يا رسول مر لى بشىء من صدقاتهم، قال: نعم، فكتب لى كتاباً آخر.

قال زياد: وكنت معه ﷺ فى بعض أسفاره، وكنت رجلاً قوياً فلزمت ركابه وجعل أصحابه يتفرقون عنه، فلما كان السحر قال: أذن يا أخا صداء، فأذنت على راحلتى ثم سرنا حتى نزلنا فذهب لحاجته ثم رجع فقال: يا أخا صداء هل معك ماء؟ قلت: معى شيء فى أدواتى أى: وهى إناء من جلد صغير. وفى رواية: إلا شيء قليل لا يكفيك، قال: هاته، فجئته به، قال: صب فصببت ما فى الأدواة فى القعب وجعل أصحابه يتلاحقون، ثم وضع كفه على الإناء فرأيت من بين كل أصبعين عيناً تفور ثم قال: يا أخا صداء لولا أنى استحى من ربى عز وجل لسقينا وأسقينا، أى: من غير نهاية، ثم توضأ وقال: أذن فى أصحابى من كانت له حاجة بالوضوء- بفتح الواو- فليرد، قال: فورد الناس من آخرهم، ثم جاء بلال يقيم، فقال رسول الله ﷺ: إن أخا صداء أذن ومن أذن فهو يقيم، قال: فأقمت، ثم تقدم رسول الله ﷺ فصلى بنا، فلما سلم من صلاته قام رجل يشكو من عامله فقال: يا رسول الله إنه آخذنا بكل شيء كان بيننا وبينه فى الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: لا خير فى الإمارة لرجل مسلم، ثم قام رجل آخر فقال: يا رسول الله اعطنى من الصدقة، فقال رسول الله ﷺ: إن الله لم يكل قسمها إلى ملك مقرب ولا نبى مرسل، جزأها على ثمانية أجزاء فإن كنت جزأ منها أعطيتك، وإن كنت غنياً عنها فإنما هو صداع فى الرأس وداء فى البطن فقلت: يا رسول الله هذان كتاباك، فقال رسول الله ﷺ: ولِمَ قلت إنى سمعتك تقول لا خير فى الإمارة لرجل مسلم وأنا رجل مسلم؟ وسمعتك تقول من سأل الصدقة وهو عنها غنى فإنما هى صداع فى الرأس وداء فى البطن، وأنا غنى؟ فقال رسول الله ﷺ: أما إن الذى قلت كما قلت.

ثم قال له رسول الله ﷺ: دلني على رجل من قومك استعمله، فدللته على رجل منهم فاستعمله،

حصى النبي ﷺ تبارك في البئر

قلت: يا رسول الله إن لنا بئراً إذا كان لنا الشتاء كفانا ماؤها، وإن كان الصيف قل علينا فتفرقنا على المياه، والإسلام اليوم فينا قليل ونحن نخاف، فادع الله عز وجل لنا في بئرنا، فقال رسول الله ﷺ: ناولني سبع حصيات، فناولته، فعركهن بيده الشريفة ثم دفعهن إليّ وقال: إذا انتهيت إليها فألق فيها حصاة حصاة وسم الله، قال: ففعلت فما أدركنا لها قعراً حتى الساعة،

٢٩- وفد غسان

غسان اسم ماء نزل عليه قوم من الأزد فنسبوا إليه، ومنهم بنو حنيفة، وقيل: غسان قبيلة. وفد على رسول الله ﷺ ثلاثة نفر من غسان فأسلموا وقالوا: لا ندرى هل يتبعنا قومنا أم لا؟ لأنهم يحبون بقاء ملكهم وقربهم من قيصر، فأجازهم رسول الله ﷺ بجوائز وانصرفوا راجعين إلى قومهم، فلما قدموا عليهم ولم يستجيبوا لهم كتموا إسلامهم.

٣٠- وفد سلامان

وفد على رسول الله ﷺ سبعة نفر من سلامان فيهم خبيب بن عمرو السلاماني فأسلموا، قال خبيب رضي الله عنه: صادفنا رسول الله ﷺ خارجاً من المسجد إلى جنازة دعى إليها، فقلنا: السلام عليك يا رسول الله، فقال: وعليكم من أنتم؟ قلنا: نحن من سلامان قدمنا إليك لنبايعك على الإسلام، ونحن على من وراءنا من قومنا، فالتفت إلى ثوبان غلامه فقال: أنزل هؤلاء، قال خبيب: قلت يا رسول الله ما أفضل الأعمال؟ قال: الصلاة فى وقتها، وصلوا معه يومئذ الظهر والعصر ثم شكوا له ﷺ جدب بلادهم، فقال رسول الله ﷺ بيده: اللهم اسقهم الغيث فى بلادهم، فقلت: يا رسول الله ارفع يديك فإنه أكثر وأطيب، فتبسم رسول الله ﷺ ورفع يديه حتى رأيت بياض أبطيه، ثم قام وقمنا معه ثلاثة أيام وضيافته تجرى علينا، ثم ودعناه وأمر لنا بجوائز، فأعطانا لكل واحد منا خمس أواق فضة، واعتذر إلينا بلال رضي الله عنه وقال: ليس عندنا اليوم مال، فقلنا: ما أكثر هذا وأطيبه، ثم رحلنا إلى بلادنا فوجدناها قد مطرت فى اليوم الذى دعا فيه رسول الله ﷺ.

٣١- وفد بنى عبس

وفد على رسول الله ﷺ ثلاثة من بنى عبس فقالوا: يا رسول الله قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له، ولنا أموال ومواشى هى معاشنا فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا عن آخرنا، فقال رسول الله ﷺ: اتقوا الله حيث كنتم فلن يلتكم، أى: ينقصكم، من أعمالكم شيئاً.

وسألهم رسول الله ﷺ عن خالد بن سنان هل له عقب؟ فأخبروه بأنه لا عقب له، كانت له ابنة فانقرضت، وأنشأ رسول الله ﷺ يحدث أصحابه عن خالد بن سنان وقال: إنه نبى ضيعه قومه.

ولكن ورد (ليس بينى وبين عيسى نبى) ويمكن الجمع بأن معنى هذا ليس بينى وبينه نبى مرسل، فلا ينافى أن خالداً نبى غير مرسل.

٣٢- وفد مزينة

وهى قبيلة تنسب إلى مزينة امرأة عمرو بن أدين طابخة بن إلياس بن مضر، روى البيهقى عن النعمان بن مقرون المزنى ﷺ قال: قدمنا على رسول الله ﷺ أربعمائة رجل. وفى رواية غير النعمان: أن فيهم رجالاً من جهينة، فلما أردنا أن ننصرف قال القوم: يا رسول الله ما لنا من طعام نتزوده، فقال: يا عمر زود القوم، قال: ما عندى ما أزودهم به إلا شىء من تمر ما أظنه يقع من القوم موقعاً، قال: انطلق فزودهم، فانطلق بهم فأدخلهم مترله ثم صعدهم إلى علية، قال عمر ﷺ: فلما دخلنا إذا فيها من التمر مثل الجمل الأورق، فأخذ

القوم منه حاجتهم.

قال النعمان: وكنت فى آخر من خرج فنظرت وما أفقد موضع تمرة من مكانها، ففى هذا معجزة له ﷺ، فإن التمر كان قليلاً فزاد القليل حتى أخذوا منه كفايتهم واستمر على زيادته، وفى رواية: وقد احتمل منه أربعمائة وكأنا لم نرزاه، أى: ننقصه.

٣٣- وفد الأشعريين

قوم أبى موسى الأشعرى ﷺ وهم منسوبون إلى أشعر ابن أدد.

وفدوا عليه ﷺ فى سنة سبع عند فتح خيبر مع أبى موسى الأشعرى ﷺ.

وعن أبى هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: جاء أهل اليمن هم أرق أفئدة، وألين قلوباً، الإيمان يمان، والحكمة يمنية، والسكينة فى أهل الغنم، والفخر والخيلاء فى أهل الإبل.

عن عمران بن حصين قال: جاءت بنو تميم إلى رسول الله ﷺ فقال: أبشروا يا بنى تميم، فقالوا: أما إذا بشرتنا فأعطنا، فتغير وجه رسول الله ﷺ، فجاء ناس من أهل اليمن فقال: اقبلوا البشرى إذ لم تقبلها بنو تميم، فقالوا: قبلنا يا رسول الله.

وهذا مما يدل على فضل وفد اليمن وليس فيه تعرض لوقت وفودهم، لأن الأشعريين وفدوا قبل قدوم تميم فإنهم قدموا صحبة أبى موسى الأشعرى فى صحبة جعفر بن أبى طالب وأصحابه المهاجرين الذين كانوا بالحبشة.

٣٤- وفد دوس

وهم قوم أبي هريرة ﷺ ينتهى نسبهم إلى الأزد وكان قدومهم بخيبر سنة سبع، قال ابن إسحق: كان الطفيل بن عمرو الدوسى ﷺ يحدث أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها قبل الهجرة، فمشى إليه رجال من قريش- وكان الطفيل رجلا شريفا شاعرا لبيبا كثير الضيافة- فقالوا له: إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذى بين أظهرنا فرق جماعتنا؛ وشتت آراءنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين المرء وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين الرجل وزوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا من الكلام فلا تكلمه ولا تسمع منه، قال: فوالله ما زالوا بى حتى عزمت أن لا أسمع منه شيئا ولا أكلمه، حتى حشوت فى أذنى حين غدوت إليه كرسفا، أى: قطنا، فرقا من أن يبلغنى شىء، فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى عند الكعبة فقمت قريبا منه، فأبى الله إلا أن يسمعنى بعض قوله، فسمعت كلاما حسنا فقلت: وأثكل أمى والله إنى لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح فما يمنعنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان ما يقول حسنا قبلت، وإن كان قبيحا تركت، قال: فمكثت حتى أتى عليه الصلاة والسلام إلى بيته فتبعته، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت: يا محمد إن قومك قد قالوا لى كذا وكذا فوالله ما برحوا يخوفونى أمرك حتى سددت أذنى بكرسف لأجل أن لا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعنيه فسمعت قولا حسنا، فرد الله كيدهم فى نحورهم، وقلب مكرهم عليهم، فأعرض على أمرك، فعرض على رسول الله ﷺ الإسلام وتلا على القرآن، قال: فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه، ولا أمرا أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق.

اللهم اجعل له آية

وقلت: يا رسول الله إنى امرؤ مطاع فى قومى وإنى راجع إليهم فداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لى آية فقال: اللهم اجعل له آية . وفى رواية: اللهم اجعل له نوراً، قال الطفيل: فخرجت إلى قومى حتى إذا كنت بثنية تطلعنى على الحاضر وقع نور بين عينى مثل الصباح فقلت: اللهم فى غير وجهى إنى أخشى أن يقولوا إنها مثله وقعت فى وجهى لفراقى دينهم، فوقع فى رأس سوطى فكان يضىء كالقنديل فى الليلة المظلمة فكان يسمى ذا النور، فرأى قومه ذلك النور وهو مقبل عليهم، قال: فلما أصبحت فيهم جاءنى أبى وكان شيخاً كبيراً، فقلت: إليك عنى يا أبت فلست منى ولست منك، قال: ولم يا بنى؟ قلت: أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ، قال: يا بنى فدينى دينك، قال: فقلت: فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثم تعال أعلمك ما علمت، قال: فذهب فاغتسل وطهر ثيابه ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم، ثم أتتنى صاحبتى -يعنى زوجته- فقلت لها: إليك عنى فلست منى ولست منك، قالت: ولم؟ قلت: فرق الإسلام بينى وبينك، أسلمت وتابعت محمداً ﷺ، قالت: فدينى دينك، ثم أمرها فذهبت فاغتسلت وجاءت فعرض عليها الإسلام فأسلمت، ثم دعا دوساً إلى الإسلام فأجابه أبو هريرة ﷺ وأبطأ الباقون، قال: فجئت رسول الله ﷺ بمكة وقلت: يا رسول الله قد غلبنى على دوس الزنا، أى: حبهم له، وعلمهم بأنهم إن أسلموا منعوا منه، فادع الله عليهم فقال ﷺ: اللهم اهد دوساً وائت بهم ثم قال: ارجع إلى قومك فادعهم إلى الله وارفق بهم، فرجعت إليهم فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الله حتى هاجر النبى ﷺ إلى المدينة، ثم قدمت على النبى ﷺ وهو بخيبر

فنزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً وكانوا فى العدد أربعمائة، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر، فلما رآهم النبى ﷺ قال: مرحباً بأحسن الناس وجوهاً، وأطيبهم أفواهاً، أى: كلاماً، وأعظمهم أمانة.

روى البيهقى عن أبى هريرة ﷺ قال: قدمنا المدينة ونحن ثمانين بيتاً من دوس فصلينا الصبح خلف سباع بن عرفطة الغفارى، فقرأ فى الركعة الأولى سورة مريم، وفى الآخيرة بويل للمطففين، فلما قرأ إذا اكتالوا على الناس يستوفون، قلت: تركت عمى له مكيالان إذا اكتال اكتال بالأوفى، وإذا كال كال بالناقص.

فلما فرغنا من صلاتنا قال قائل: رسول الله ﷺ بخيبر وهو قادم عليكم، فقلت: لا أسمع به فى مكان أبداً إلا جئته، فزودنا سباع وجئنا خيبر فنجده قد فتح النطاة، وهو محاصر الكتيبة فأقمنا حتى فتح الله علينا فأسهم لنا مع المسلمين.
ويروى أن الطفيل بن عمرو ﷺ قال: لم أزل مع النبى ﷺ حتى إذا فتح الله عليه مكة قلت: يا رسول الله ابعثنى إلى صنم عمرو بن حمة- يعنى صنم دوس- حتى أحرقه، فبعثه فهدمه ثم أوقد النار عليه وهو يقول: ياذا الكعين لست من عبادكا.. ميلادنا أقدم من ميلادكا.. إنى حشوت النار فى فؤادكا.. ثم رجع فكان مع المصطفى ﷺ حتى قبض ﷺ.

فلما ارتدت العرب خرج مع المسلمين حتى فرغوا من قتال أهل الردة من أهل اليمامة وغيرهم، وكان وهو متوجه إلى اليمامة ومعه ابنه عمرو رآى رؤيا فقال لأصحابه: إنى رأيت رؤيا فاعبروها لى، إنى رأيت أن رأسى قد حرق وأنه خرج

من فمي طائر ولقيتني امرأة فأدخلتني في فرجها، وإن ابني يطلبني طلباً حثيثاً ثم رأيته حبس عني، قالوا: خيراً، قال: أما فقد أولتها، قالوا: بماذا؟ قال: أما حلق رأسي فوصفه، وأما الطائر الذي خرج من فمي فروحي، وأما المرأة التي أدخلتني في فرجها فالأرض تحفر لي فأغيب فيها، وأما طلب ابني إياي ثم حبسه عني فإني أراه سيجهد أن يصيبه ما أصابني، فاستشهد الطفيل باليمامة وجرح ابنه جراحة شديدة ثم شفي منها، ثم استشهد عام اليرموك زمن عمر بن الخطاب ﷺ.

وقال بعض أهل المغازي: إن الطفيل استشهد باليرموك، جزم بهذا ابن حبان، وقال موسى بن عقبة: استشهد بأجنادين.

وأخرج البغوي عن الطفيل بن عمرو الدوسي ﷺ قال: أقرأني أُبي بن كعب القرآن فأهديت له فرساً.

٣٥- وفد طارق بن عبد الله المحاربى ﷺ

روى البيهقى عن جامع بن شداد المحاربى قال: حدثنى رجل يقال له طارق ابن عبد الله المحاربى قال: إنى لقائم بسوق ذى المجاز- وكان على فرسخ من عرفة بناحية كبكب- إذ أقبل رجل فسمعته وهويقول: أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، ورجل يتبعه يرميه بالحجارة وقد أدمى كعبيه، يقول: يا أيها الناس إنه كذاب فلا تصدقوه، فقلت: من هذا؟ قالوا غلام من بنى هاشم يزعم أنه رسول الله، قلت: من هذا الذى يفعل به هذا الأذى؟ قالوا: عمه عبد العزى أبو لهب.

قال: فلما أسلم الناس وهاجروا خرجنا من الربذة- وهى موضع معروف به قبر أبى ذر ﷺ- نريد المدينة نمتار من تمرها، فلما دنونا من حيطانها ونخلها قلنا: لو نزلنا فلبسنا ثياباً غير هذه فإذا رجل فى طمرين له فسلم وقال: من أين أقبل القوم؟ قلنا: من الربذة، قال: وأين تريدون؟ قلنا: نريد المدينة، قال: ما حاجتكم فيها؟ قلنا: نمتار من تمرها، قال طارق بن عبد الله: ومعنا ظعينة لنا ومعنا جمل أحمر مخطوم، فقال: أتبيعونى جملكم هذا؟ قلنا: نعم بكذا وكذا صاعا من تمر، فأخذ بخطام الجمل فانطلق به فلما توارى عنا بحيطان المدينة ونخلها قلنا: ما صنعنا والله ما بعنا جملنا ممن نعرف ولا أخذنا له ثمناً فعرضناه للضياع، قال طارق: فقالت المرأة التى معنا والله لقد رأيت رجلاً كأن وجهه قطعة القمر ليلة البدر أنا ضامنة لثمن جملكم. وفى رواية قالت الظعينة: فلا تلاوموا، أى: لا يلم بعضكم بعضاً، لقد رأيت وجه رجل لا يغدر بكم، ما رأيت شيئاً أشبه

بالقمر ليلة البدر من وجهه، فلما كان العشى أتانا رجل فقال: أنا رسولُ رسولِ الله ﷺ إليكم هذا تمركم الذى بعتم به جملكم، فكلوا واشبعوا واكتالوا واستوفوا، أى: فلا تسامحوا فى الكيل فى مقابلة أكلكم، قال: فأكلنا حتى شبعنا واكتلنا واستوفينا حتى دخلنا المدينة، فلما دخلنا المسجد إذا هو قائم على المنبر يخطب الناس فأدركنا من خطبته وهو يقول: تصدقوا فإن الصدقة خير لكم، اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول أمك فأباك، وأختك وأخاك، وأدناك فأدناك، فقام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله هؤلاء بنو ثعلبة بن يربوع قتلوا فلاناً فى الجاهلية فخذ لنا بثأرنا، فرفع ﷺ يده حتى رأيت بياض إبطيه فقال: لا تجنى أم على ولد مرتين، وأسلم القوم على يديه ﷺ ثم رجعوا إلى أهلهم ﷺ.

٣٦- وفد بهراء

قبيلة من قضاعة، روى الواقدى عن كريمة بنت المقداد قالت: سمعت أمى ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب تقول: قدم وفد بهراء من اليمن وكانوا ثلاثة عشر رجلاً فأقبلوا يقودون رواحلهم، فلما انتهوا إلى باب المقداد ونحن فى منازل الأنصار خرج إليهم المقداد فرحب بهم وقدم لهم جفنة من حيس، وهو تمر يعجن بسمن وأقط، فأكلوا منها حتى نهلوا، وردت القصعة وفيها شيء، فجمع فى قصعة صغيرة فأرسل بها إلى رسول الله ﷺ مع سدرة مولاة ضباعة، وهو فى بيت أم سلمة رضى الله عنها فأصاب منها هو ومن معه فى البيت حتى نهلوا، ثم قال: اذهبى بما بقى إلى ضيفكم فرجعت بها فأكل منها الضيف ما أقاموا، أى: مدة إقامتهم، يرددون ذلك عليهم وما تنقص، فجعلوا يقولون للمقداد: يا أبا معبد إنك لتنهلنا من أحب الطعام إلينا وما كنا نقدر على مثل هذا إلا فى الحين، فأخبرهم أبو معبد بخبر رسول الله ﷺ وأنه أكل منها وردها فإن هذه بركة أصابعه ﷺ، فجعل القوم يقولون: نشهد أنه رسول الله ﷺ، وازدادوا يقيناً وذلك الذى أراد ﷺ.

فأظهروا الإسلام ونطقوا بالشهادتين، وتعلموا الفرائض، وأقاموا أياماً، ثم ودعوا رسول الله ﷺ، فأمر لهم بجوائز وانصرفوا إلى أهليهم باليمن ﷺ.

٣٧- وفد غامد قبيلة من الأزد باليمن

قدم عليه ﷺ سنة عشر عشرة من غامد فنزلوا فى بقيع الغرقد وفيه يومئذ أثل وطرفاء، ثم انطلقوا إلى النبى ﷺ وخلفوا أصغرهم فى رحالهم فأقروا بالإسلام وسلموا على النبى ﷺ، وكتب لهم كتابا فيه شرائع الإسلام، وقال لهم النبى ﷺ: من خلفتم فى رحالكم؟ قالوا: أحدثنا سنا، قال: فإنه قد نام عن متاعكم حتى أتى آت فأخذ عيبة أحدكم، فقال أحدهم: ما لأحد عيبة غيرى، فقال رسول الله ﷺ: قد أخذت وردت إلى موضعها، فخرجوا حتى أتوا رحلهم فسألوا الذى خلفوه فقال: فزعت من نومى ففقدت العيبة فقمت فى طلبها، فإذا رجل كان قاعدا فثار يعدو منى فانتهيت إلى حيث ينتهى، فإذا أثر حفر وإذا هو قد غيب العيبة فاستخرجتها، فقالوا: نشهد أنه رسول الله، فإنه قد أخبرنا خبرها وأنها قد ردت، فرجعوا وأخبروه ﷺ، وجاء الغلام الذى خلفوه فأسلم، وأمر النبى ﷺ أبى ابن كعب أن يعلمهم قرآنا، ثم أجازهم كما يجيز الوفود وانصرفوا إلى بلادهم رضي الله عنهم.

٣٨- وفد الأزد

قدم عليه ﷺ قوم من الأزد ينسبون إلى جدهم الأعلى وهو الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن أدد بن زيد بن كهلان بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

حكماء علماء والنبى ﷺ زادهم

روى أبو نعيم عن سويد بن الحارث الأزدى رضي الله عنه قال: وفدت سابع سبعة من قومى على رسول الله ﷺ فلما دخلنا عليه وكلمناه أعجبه ما رأى من سمتنا وزينا فقال: ما أنتم، أى: ما صفتكم؟ قلنا: مؤمنون، فتبسم ﷺ وقال: إن لكل قول حقيقة، قال: فما حقيقة قولكم وإيمانكم؟ قلنا: خمس عشرة خصلة، خمس منها أمرتنا رسلك أن نؤمن بها، وخمس أمرتنا أن نعمل بها، وخمس تخلقنا بها فى الجاهلية فنحن عليها إلا أن تكره شيئاً منها فنتركه.

فقال ﷺ: وما الخمس التى أمرتكم رسلى أن تؤمنوا بها؟ قلنا: أمرتنا أن نؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت.

قال: وما الخمس التى أمرتكم أن تعملوا بها؟ قلنا: أمرتنا أن نقول لا إله إلا الله، أى: مع محمد رسول الله، ونقيم الصلاة، ونؤتى الزكاة، ونصوم رمضان، ونحج البيت إن استطعنا إليه سبيلاً.

قال: وما الخمس الذى تخلقتم بها فى الجاهلية؟ قلنا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضا بمر القضاء، والصدق فى موطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء.

فقال ﷺ: حكماء علماء، أى: هم حكماء علماء، كـــادوا مـــن فقهـــهم أن يكونـــوا أنبياء.

ثم قال:وأنا أزيدكم خمساً فتتم لكم عشرون خصلة إن كنتم كما تقولون، أى: متصفين بالخمس عشرة التى ذكرتم (فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنـــوا مـــا تسكنون، ولا تنافسوا فى شىء أنتم عنه زائلون، واتقوا الله الذى إليه ترجعـــون وعليه تعرضون، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون).

فانصرفوا وقد حفظوا وصيته ﷺ وعملوا بها توفيقاً من الله تعالى ببركته ﷺ.

٣٩- وفد بنى المنتفق

وهى قبيلة من عامر بن صعصعة، قدم عليه ﷺ جماعة من بنى المنتفق وفيهم لقيط ابن عامر بن صبرة بن عبد الله بن المنتفق قال: فوافيناه حتى انصرف من صـــلاة الغداء، أى: الصبح، فقام فى الناس خطيباً، فلما فرغ قلت: يا رسول الله عـــلام نبايعك؟ فبسط ﷺ يده وقال: على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن لا تشـــركوا بالله شيئاً، قال: قلت يا رسول الله وإن لنا ما بين المشرق والمغرب، فقال: تحـــل منها حيث شئت ولا يجنى عليك إلا نفسك، فلما انصرفنا عنه قال: إنهم مـــن أتقى النـــاس لله فى الدنيا والآخرة، فقال له بعض أصحابه: من هم يا رســـول الله؟ قال: بنو المنتفق.. قالها ثلاثاً.

٤٠- وفد النخع

بفتح النون والخاء المعجمة قبيلة من اليمن، وهم آخر وفود الإنس عليه ﷺ، وكان وفودهم سنة إحدى عشرة فى النصف من المحرم، وفد على رسول الله ﷺ مائتا رجل من النخع مقرين بالإسلام، وقد كانوا بايعوا معاذ بن جبل ﷺ فقال رجل منهم يقال له زرارة بن عمرو: يا رسول الله إنى رأيت فى سفرى هذا عجبا. وفى رواية: رأيت رؤيا هالتنى، قال: وما رأيت؟ قال: رأيت أتانا نركبها فى الحى ولدت جديا، أى: وهو ولد المعز، أسفع أحوى، والأسفع الذى سواده مشرب بحمرة، والأحوى الذى ليس شديد السواد، فقال رسول الله ﷺ: هل تركت لك أمة مصرة على حمل؟ قال: نعم، قال: فإنها قد ولدت غلاما وهو ابنك، فقال: يا رسول الله فما له أسفع أحوى؟ قال: ادن منى، فدنا منه فقال: هل بك برص تكتمه؟ قال: فو الذى بعثك بالحق ما علم به أحد ولا اطلع عليه غيرك، قال: هو ذاك، قال: يا رسول الله ورأيت النعمان بن المنذر، أى: وهو ملك العرب، وعليه قرطان- والقرط ما يكون فى شحمة الأذن- ودملجان- بضم الدال وضم اللام وفتحها - ومسكتان - بفتح الميم والسين المهملة- قال: ذلك ملك العرب رجع إلى أحسن زيه وبهجته، قال: يا رسول الله ورأيت عجوزا شمطاء، أى: يخالط شعر رأسها الأبيض شعر أسود خرجت من الأرض، قال: تلك بقية الدنيا، قال: ورأيت نارا خرجت من الأرض فحالت بينى وبين ابن لى يقال له عمرو، وهى تقول: لظى لظى بصير وأعمى أطعمونى آكلكم وأهلكم وما لكم، قال رسول الله ﷺ: تلك فتنة تكون فى آخر

الزمان، قال: يا رسول الله وما الفتنة؟ قال: يقتل الناس إمامهم ويشتجرون اشتجار أطباق الرأس، أى: يشتبكون فى الفتنة اشتباك أطباق الرأس، وخالف رسول الله بين أصابعه، يحسب المسيىء فيها أنه محسن، ويكون دم المؤمن عند المؤمن أسهل. وفى رواية: أحلى من شرب الماء، وإن مات ابنك أدركت الفتنة، وإن مت أنت أدركها ابنك، قال: يا رسول الله أدع الله أنى لا أدركها، فقال رسول الله ﷺ: اللهم لا تدركها إياه. فمات وبقى ابنه عمرو و لم يجتمع به ﷺ فهو تابعى، وكان ممن خلع سيدنا عثمان ﷺ.

وفى رواية: أن النخع بعثوا رجلين أرطاة بن شرحبيل من بنى حارثة، والأرقم من بنى بكر إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم فلما قدما على رسول الله ﷺ وعرض عليهما الإسلام فقبلاه فبايعاه على قومهما، وأعجب رسول الله ﷺ شأنهما وحسن هيئتهما وقال لهما: خلفتما وراءكما من قومكما مثلكما، قالا: يا رسول الله قد خلفنا وراءنا من قومنا سبعين رجلا كلهم أفضل منا، وكلهم يقطع الأمر وينفذ من الأشياء ما يشاء، فدعا لهما رسول الله ﷺ ولقومهما بخير، وقال: اللهم بارك فى النخع، وعقد لأرطاة لواء على قومه فكان فى يده يوم الفتح، وشهد به القادسية وقتل يومئذ.

لكن قوله كان فى يده يوم الفتح لا يناسب ما تقدم أن وفد النخع كان قدومه فى المحرم سنة إحدى عشرة، إلا أن يقال: إن هذين وفدا قبل وفود النخع.

٤١- وفد الجن

ما بعث الله رسولاً من الرسل قبل سيدنا ومولانا محمد ﷺ إلا ليعلـــم الإنـــس شريعة الله، و لم يكن ذلك ممكناً له بالنسبة للجن، فكان الله يرسل رجلاً مـــن الجن يعلمهم الشريعة التي يعلمها الرسول إلى الإنس.. حتى بعـــث الله تعـــالى خـــاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وخصه بخصوصية لم تكن لرسول من قبلـــه ﷺ وهى أن يعلم الإنس والجن كما قال تعالى: ﴿قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر مـــن الجن فقالوا إنا سمعنا قرءاناً عجباً * يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنـــا أحداً﴾ (الجن: ١، ٢).

وقال ﷺ: (أرسلت إلى الإنس والجن)، لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين فلو أرســـل معه رجل يعلم الجن شريعة الإسلام لختمت النبـــوة والرســـالة برســـولين، و لم يتحقق الختم لسيدنا ومولانا محمد ﷺ وحده، وكان ﷺ يتمثل بصورهم حـــين يلتقى بهم، وهذا من عظيم معجزاته ﷺ.

قال أبو نعيم: إسلام الجن ووفادهم على النبى ﷺ كوفادة الإنس فوجاً بعد فوج، وقبيلة بعد قبيلة بمكة وبعد الهجرة.

وأخرج أبو نعيم عن ابن مسعود قال: إن أهل الصفة أخذ كل رجل منهم رجل يعشيه وتركت، فأخذنى رسول الله ﷺ إلى حجرة أم سلمة ثم انطلق بى حـــتى أتينا بقيع الغرقد فخط بعصاه خطة ثم قال: اجلس فيها ولا تبرح حتى آتيـــك، ثم انطلق يمشى وأنا أنظر إليه خلال النخل حتى إذا كان من حيث أراه ثارت مثـــل العجاجة السوداء ففرقت فقلت: ألحق برسول الله ﷺ فإنى أظن هـــذه هـــوازن

مكروا برسول الله ﷺ ليقتلوه، فأسعى إلى البيوت فأستغيث بالناس، فذكـــرت أن رسول الله ﷺ أوصانى أن لا أبرح مكـــانى الذى أنا فيه، فسمعت رســـول الله ﷺ يقرعهم بعصاه ويقول: اجلسوا فجلسوا حتى كاد ينشق عمود الصبـــح، ثم ثـــاروا وذهبوا فأتانى رسول الله ﷺ فقال: أولئك وفد الجن سألونى المتـــاع والزاد فمنعتهم بكل عظم حائل أو روثة أو بعـــر، فلا يجدون عظما إلا وجـدوا عليه لحمه الذى كان عليه يوم أكل، ولا روثة إلا وجدوا فيها حبـــها الـــذى كـــان فيها يوم أكلت.

وأخرج أبو نعيم عن الزبير بن العوام قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبـــح فى مسجد المدينة فلما انصرف قال: أيكم يتبعنى إلى وفد الجن الليلة؟ فخرجـــت معه حتى خفيت عنا جبال المدينة كلها، وأفضينا إلى أرض براز، فـــإذا رجـــال طوال كأنهم الرماح مستذفرى ثيابهم من بين أرجلهم، فلما رأيتـــهم غشـــيتنى رعدة شديدة حتى ما تمسكنى رجلاى من الفرق، فلما دنونا منـــهم خـــط لى رسول الله ﷺ خطاً، فقال لى: اقعد فى وسطه، فلما جلست ذهب عـــنى كـــل شىء كنت أجده من ريبة، ومضى النبى ﷺ بينى وبينهم فتلا قرآناً وبقوا حـــتى طلع الفجر، ثم أقبل فقال لى: الحق فمشيت معه فمضينا غير بعيـــد فقـــال لى: التفت وانظر هل ترى حيث كان أولئك من أحد؟ فقلت: أرى سواداً كثـــيراً، فخفض رســـول الله ﷺ رأسه إلى الأرض فنظم عظماً بروثة ثم رمى بها إليـــهم وقال: إنهم ســـألونى الزاد فجعلت لهم كل عظم وروثة.

وأخرج أبو نعيم عن أبى هريرة قال: خرجت مع رسول الله ﷺ فقـــال: ابغـــنى أحجاراً استنفض بها ولا تأتنى بعظم ولا بروثة، فقلت: يا رسول الله مـــا بـــال

العظم والروثة؟ قال: إنه قد جاءنى وفد جن نصيبين من الشام – ونعم الوفد – فسألونى الزاد فدعوت لهم أن لا يمروا بعظم ولا روثة إلا وجدوا عليه طعاماً.

وأخرج أبو نعيم عن أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال: إن بالمدينة نفراً من الجن قد أسلموا، فمن رأى من هذه العوامر شيئاً فليؤذنه ثلاثة أيام، فإن بدا له بعد ثلاث فليقتله فإنه شيطان.

وأخرج أبو نعيم عن ابن عمر أن النبى ﷺ جاءته وفود الجن من الجزيرة فأقاموا عند النبى ﷺ ما بدا لهم، ثم أرادوا الرجوع إلى بلادهم فسألوه أن يزودهم فقال: ما عندى ما أزودكم ولكن اذهبوا فكل عظم مررتم به فهو لكم لحماً غريضاً، أى: طرياً، وكل روث مررتم به فهو لكم تمر، فلذلك نهى أن يستنجى بالروث والرمة.

وأخرج أحمد والبزار وأبو يعلى والبيهقى وأبو نعيم عن ابن عباس قال: خرج رجل من خيبر فتبعه رجلان وآخر يتلوهما يقول: ارجعا، حتى أدركهما فردهما، ثم لحق الرجل فقال له: إن هذين شيطانان، وإنى لم أزل بهما حتى رددتهما عنك، فإذا أتيت رسول الله ﷺ فأقرئه السلام وأخبره أنا فى جمع صدقاتنا ولو كانت تصلح له لبعثنا بها إليه، فلما قدم الرجل المدينة أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فنهى رسول الله ﷺ عند ذلك عن الخلوة.

وأخرج أبو الشيخ فى العظمة وأبو نعيم عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده قال بلال بن الحارث: نزلنا مع النبى ﷺ فى بعض أسفارنا العرج فلما قاربته سمعت لغطا وخصومة رجال لم أر أحد من ألسنتهم قط،

فوقفت حتى جاء النبى ﷺ وهو يضحك فقال: اختصم عندى الجن المسلمون والجن المشركون فسألونى أن أسكنهم، فأسكنت المسلمين الجلس، وأسكنت المشركين الغور. وقال كثير: الجلس القرى والجبال، والغور ما بين الجبال والبحار، قال كثير: وما رأيت أحداً أصيب بالجلس إلا سلم، ولا أصيب بالغور إلا لم يكد يسلم.

وأخرج الخطيب فى رواة مالك عن جابر بن عبد الله قال: رأيت من رسول الله ﷺ ثلاثة أشياء لو لم يأت بالقرآن لآمنت به، تصحرنا فى جبانة تنقطع الطرق دونها فأخذ النبى ﷺ الوضوء، ورأى نخلتين متفرقتين فقال النبى ﷺ: يا جابر اذهب إليهما فقل لهما: اجتمعا، فاجتمعا حتى كأنهما أصل واحد، فتوضأ رسول الله ﷺ فبادرته بالماء وقلت: لعل الله أن يطلعنى على ما خرج من جوفه فآكله، فرأيت الأرض بيضاء فقلت: يا رسول الله أما كنت توضأت؟ قال: بلى، ولكنا معشر النبيين أمرت الأرض أن توارى ما يخرج منا، ثم افترقت النخلتان. فبينما نسير إذ أقبلت حية سوداء- ثعبان ذكر- فوضعت رأسها فى أذن النبى ﷺ ووضع النبى ﷺ فمه على أذنها فناجاها، ثم لكأنما الأرض قد ابتلعتها فقلت: يا رسول الله لقد أشفقنا عليك، قال: هذا وفد الجن نسوا سورة فأرسلوه إلىّ ففتحت عليهم القرآن. ثم انتهينا إلى قرية فخرج إلينا فئام من الناس مع جارية كأنها فلقة القمر حين تمحى عنه السحاب حسناء مجنونة فقال أهلها: احتسب فيها يا رسول الله، فدعا رسول الله ﷺ وقال لجنيها: ويحك أنا محمد رسول الله خل عنها، فتنقبت واستحيت ورجعت صحيحة.

حجة الوداع

لم يخرج ﷺ من المدينة للحج إلا لهذه الحجة، ولذا يقال عنها حجة الوداع أو البلاغ لأنه ﷺ ودع الناس فيها، وذكر لهم ما يحل وما يحرم، وقال لهم: هل بلغت؟.

وقد فرض الحج فى سنة ستة من الهجرة، وقيل: سنة عشرة من الهجرة، خرج رسول الله ﷺ يريد الحج وأخبر الناس بذلك، وهو ﷺ لم يحج منذ هاجر إلى المدينة إلا هذه الحجة وقيل: إنه ﷺ حج بعد النبوة من مكة حجتين أو ثلاث حجج، وفى كلام ابن الأثير أنه ﷺ كان يحج كل سنة قبل أن يهاجر، وقال ابن الجوزى: إنه ﷺ حج قبل النبوة وبعدها حججاً كثيرة لا يعلم عددها سوى الله.

وعند خروجه ﷺ للحج أصاب الناس بالمدينة وباء منع كثيراً من الناس من الحج معه ﷺ، ورغم ذلك كان معه فى الحج أربعين ألفاً. وقيل: كان معه سبعين ألفاً. وقيل: تسعين ألفاً. وقيل: مائة وأربعة عشر ألفاً. أو وعشرين ألفاً. وقال ﷺ عند خروجه أو عند عودته: عمرة فى رمضان تعدل حجة معى.

وخرج المصطفى ﷺ يوم الخميس لست بقين من ذى القعدة، وقيل يوم السبت لخمس بقين من ذى القعدة، سنة عشرة من الهجرة نهاراً بعد أن صلى الظهر بالمدينة وصلى عصر ذلك اليوم بذى الحليفة ركعتين، وطاف تلك الليلة على نسائه لأنهن كن معه ﷺ فى الهوادج وكن تسعة، ثم اغتسل ﷺ وصلى الصبح، والظهر، ثم طيبته عائشة رضى الله عنها بذريرة- وهى نوع من الطيب

مجمـــوع من أخلاط الطيب- وبطيب فيه مسك، ثم أحرم ﷺ- وكان ذلـــك بعد أن اغتسل للإحرام غير الغسل الأول- فى رداء وإزار ولم يغسل الطيب بـــل كان يرى وبيص المسك فى مفرقه ولحيته الشريفة.

وصلى ﷺ كما فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنـــهما ركعتـــين قبـــل إحرامه، وأهل حيث انبعثت به راحلته، أى: وهى القصواء، وقـــد اختلفـــت الروايات فى حجه ﷺ فى حجة الوداع هل كان مفردا أو قارنا أو متمتعا، وكلها صحاح إلا من قال: إنه متمتع وأراد أنه أهل بعمرة.

وفى صحيح البخارى أنه ﷺ أهل بالحج فلما كان بالعقيق أتاه آت مـــن ربـــه فقال: صل بهذا الوادى المبارك وقل: لبيك بحجة وعمرة معا، فصار قارنا بعد أن كان مفردا، وعن سيدنا أنس رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: لبيـــك عمـــرة وحجا.

وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه ﷺ أهل فقال: لبيك بحج ولم يذكر العمرة.

وروى الشافعى رضي الله عنه أنه ﷺ خرج هو وأصحابه رضي الله عنهم مهللين، أى: محرمين إحرامـــا مطلقا ينتظرون أمر الله، أى: نزول الوحى، لتعيين ما يعرفون إحرامهم المطلـــق إليه أى: بإفراد أو إقران أو تمتع، فجاءه ﷺ الوحى أن يأمر من معه هـــدى أن يجعـــل إحرامه عمرة فيكون متمتعا، ومن لا هدى معه أن يجعله حجا فيكـــون مفردا.

ولما نزلو بمحل يقال له العرج فقد البعير الذى عليه زاملته ﷺ وزاملـــة أبى بكـــر، أى: زادهما، وكان ذلك البعير مع غلام لأبى بكر رضي الله عنه، فقال للغلام: أين بعـــيرك؟

فقال: ضللته البارحة، فقال أبو بكر- وقد اعترته حدة -: بعـير واحـد تضلـه وأخذ يضربه بالسوط، ورسول الله ﷺ يقول: انظروا إلى هذا المحرم مـا يصنـع ويتبسم لا يزيد على ذلك، فلما بلغ الصحابة أن زاملة رسول الله ﷺ فقدت جـاء أحدهم بحيس ووضعه بين يديه ﷺ، فقال ﷺ: يا أبا بكر هون عليك فإن الأمـر ليس لك ولا إلينا، وقد كان الغلام حريصاً على أن لا يضل بعيره، وهـذا غـذاء طيب قد جاء الله به، وهو خلف عما كان معه، فأكل ﷺ وأبو بكر ومـن كـان يأكل معهما حتى شبعوا، فأقبل صفوان بن المعطل رضي الله عنه وكان على سـاقة القـوم والبعير معه وعليه الزاملة حتى أناخه بباب منزله ﷺ، ولما بلغ سعد بن عبادة وابنـه قيس رضى الله عنهما أن زاملته ﷺ قد ضلت، جاءا بزاملة وقالا، أى: كل واحـد منهما: يا رسول الله بلغنا أن زاملتك ضلت الغداة وهذه زاملـة مكانهـا، فقـال رسول الله ﷺ: قد جاء الله بزاملتنا فارجعا بزاملتكم بارك الله لكما.

ونزل رسول ﷺ بذى طوى فبات بها الليلة وصلى الصبح بعد أن اغتسل بهـا، ثم سار ﷺ ونزل بالمسلمين ظاهر مكة ودخل مكة نهاراً وقت الضحى، من الثنية العليا التى هى ثنية كداء، ودخل المسجد الحرام من باب عبد مناف وهو بـاب بنى شيبة المعروف الآن بباب السلام، وكان ﷺ إذا رأى البيت قال: (اللـهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً ومهابة وبراً، وزد فى شرفه وكرمه، ومن حجـه أو اعتمـره تشريفاً وتكريماً وتعظيماً وبراً).

وعند دخوله ﷺ المسجد طاف بالبيت سبعاً ماشياً، فعن جـابر بـن عبـد الله رضـى الله عنهما قال: دخلنا مكة عند ارتفاع الشمس فأتى النـبى ﷺ بـاب المسجد فأناخ راحلته ثم دخل المسجد فبدأ بالحجر الأسعد فاستلمه وفـاضت

عيناه بالبكاء، ثم رمل ثلاثاً ومشى أربعاً، فلما فرغ ﷺ قبَّل الحجر ووضع يديه عليه ومسح بهما وجهه.

ثم بعد الطواف صلى ﷺ ركعتين عند مقام سيدنا إبراهيم ، جعل المقام بينه وبين الكعبة، ودخل زمزم فنزع له دلو فشرب منه ثم مج فيه ثم أفرغها فى زمزم، ثم رجع إلى الحجر الأسعد فاستلمه.

ثم خرج إلى الصفا وقرأ: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ (البقرة: ١٥٨). فسعى بين الصفا والمروة سبعاً راكبا على بعيره.

ثم أمر ﷺ من معه الهدى بالإحلال، وأمر ﷺ من لا هدى معه أن يبقى على إحرامه، أى: بالحج قارناً أو مفرداً. وكان من جملة من ساق الهدى أبو بكر وعمر وطلحة والزبير وعلى .

وفى يوم الثامن من ذى الحجة يوم التروية خرج ﷺ إلى منى ومعه الناس، وأحرم بالحج كل من كان أحل، فصلى رسول الله ﷺ الظهر والعصر والمغرب والعشاء بمنى وبات بها تلك الليلة وكانت ليلة الجمعة، وصلى بها الصبح، ثم نهض بعد طلوع الشمس إلى عرفة، وأمر ﷺ أن تضرب له قبة من شعر بنمرة، فأتى ﷺ عرفة ونزل فى تلك القبة حتى زالت الشمس، فأمر بناقته القصواء فرحلت ثم أتى بطن الوادى فخطب على راحلته.

خطبة الرسول ﷺ فى حجة الوداع

وإليك القسطاس المستقيم، والبيان الحكيم، وهو خطبة رسول الله ﷺ فى حجة الوداع التى هى أم كتاب أسرار الإسلام، وسور الأمن وحصن الأمان للمسلمين، والشفاء الحقيقى لكل الأمراض، وها هى بنصها وفصها:

(إن الحمد لله نحمده ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعة الله، وأستفتح بالذى هو خير.

أما بعد: أيها الناس اسمعوا منى أبين لكم، فإنى لا أدرى، لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا، فى موقفى هذا.

أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. فمن كان عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب. وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية. والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ففيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس: ﴿إنما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونـــــه عامـــاً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله﴾ (التوبة: ٣٧)، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشـــــر شهراً فى كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض منها أربعة حــــرم، ثلاثـــة متواليات وواحد فـــرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقاً، وإن لكم عليهن حقاً، لكم عليـــهن أن لا يواطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكـــم إلا بـــإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهــــن وتهجروهــن فى المضاجع، وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكـــم رزقـــهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان لا يملكـــن لأنفســـهن شـــيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فـــاتقوا الله فى النســـاء واستوصوا بهن خيراً.

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، فلا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفســـه. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تــــراب. أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى. ألا هـــل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس: إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصيـــة

فى أكثر من الثلث. والولد للفراش وللعاهر الحجر. من دعى لغير أبيه أو تولى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

من تدبر معانيها، وأمعن النظر فى مبانيها، وتناول بروحه من طهور شرابها، يظهر له الحق جلياً، والهدى بيناً لا خفياً، ويحكم حكماً عدلاً أن الإسلام هو الوطن الذى يجب أن يحمى حماه، ويوالى من والاه، ويعادى من عاداه، ويبذل كل مسلم النفس والنفيس لإعلائه، وتجديد سننه حتى يظهره الله على الدين كله، ولو كره المشركون. به السعادة والعز والسلطان فى الدنيا، ونيل الخير الحقيقى والمجد الأبدى فى الدار الآخرة، ومن تساهل فيه أو تهاون، فكأنما انحط من السماء، فتهوى به الريح فى مكان سحيق، وتخطفه الشياطين.

وإن ظن – لسوء فهمه وظلمة عقله – أنه ينال العز بسبب تفرقة الجماعة فى الدين، أو التقرب لأعداء وطنه العزيز الذى هو الإسلام فإنما ذلك عز يتخيله حيوان، يؤكل لحمه، يعتنى مالكه بغذائه وشرابه ليسمن فيذبحه، ولو علم الحيوان الأعجم سر عناية الإنسان بأكله وشربه، والمحافظة عليه من السباع لألف السباع، واستوحش من بنى الإنسان.

ولكن الإنسان قد تبلغ به الجهالة إلى حالة ينحط فيها عن الحيوان الأعجم، فيفرح بزهرة عاجلة يعقبها الذل الأبدى، والعذاب السرمدى، وسخط رسول الله ﷺ.

وجاء أنه ﷺ أمر منادياً صار ينادى بكل ما قاله وهو ربيعة بن أمية بن خلف.

النبى ﷺ يكمل المناسك

ولما تم ﷺ خطبته أمر بلالاً فأذن ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، و لم يصل بينهما شيئاً فصلاهما مجموعين فى وقت الظهر بأذان واحد وإقامتين.

ثم ركب ﷺ راحلته إلى أن أتى الموقف فاستقبل القبلة و لم يزل واقفاً للدعاء من الزوال إلى الغروب، واستمر كذلك حتى غربت الشمس.

ونزلت: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى﴾ (المائدة: ٣). يوم الجمعة بعد العصر والنبى ﷺ واقف بعرفات على ناقته فكاد عضد الناقة يندق من ثقل الوحى.

ولما نزلت بكى عمر ﷺ، فقال له النبى ﷺ: ما يبكيك يا عمر؟ فقال ﷺ: أبكانى أنا كنا فى زيادة أما إذا كمل فإنه لا يكمل شىء إلا نقص، فقال: صدقت، فكانت هذه الآية نعى رسول الله ﷺ فإنه انتقل بعدها إلى الرفيق الأعلى بثلاثة أشهر وثلاثة أيام، و لم ينزل بعدها شىء من الأحكام.

ثم أردف رسول الله ﷺ أسامة بن زيد ﷺ خلفه ودفع إلى مزدلفة وقد ضم زمام راحلته التى خطب عليها فى نمرة حتى أن رأسها ليصيب طرف رجليه، وهو يأمر الناس بالسكينة، فلما كان الطريق عند الشعب الأبتر نزل وتوضأ ثم ركب حتى أتى لمزدلفة، وصلى المغرب والعشاء مجموعين فى وقت العشاء ثم اضطجع.

وأذن للنساء والضعفة أن يرموا ليلاً، أى: يذهبوا من مزدلفة إلى منى بعد منتصف الليل بساعة ليرموا جمرة العقبة قبل الازدحام.

أخرج أبو يعلى والبيهقى بسند حسنه ابن حجر فى (المطالب العالية) عن أسامة ابن زيد قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الحجة التى حجها حتى إذا كنا ببطن الروحاء نظر إلى امرأة تؤمه فحبس راحلته فلما دنت منه قالت: يا رسول الله هذا ابنى ما أفاق من يوم ولدته إلى يومى هذا، فأخذه رسول الله ﷺ منها ووضعه فيما بين صدره وواسطة الرحل ثم تفل فى فيه وقال: اخرج يا عدو الله فإنى رسول الله، ثم ناولها إياه وقال: خذيه فلا بأس عليه.

قال أسامة: فلما قضى رسول الله ﷺ حجته انصرف حتى إذا نزل ببطن الروحاء أتته تلك المرأة بشاة قد شوتها ثم قال: ناولنى ذراعاً فناولته، ثم قال: ناولنى ذراعاً فناولته، ثم قال: ناولنى ذراعاً فقلت: يا رسول الله إنما هما ذراعان وقد ناولتك، فقال: والذى نفسى بيده لو سكتّ ما زلت تناولنى ذراعاً ما قلت لك ناولنى ذراعاً. ثم قال: انظر هل ترى من نخل أو حجارة، فقلت: قد رأيت نخلات متقاربات ورضماً من حجارة، قال: انطلق إلى النخلات فقل لهن: إن رسول الله ﷺ يأمركن أن تدانين لمخرج رسول الله ﷺ، وقل للحجارة مثل ذلك، فأتيتهن فقلت لهن، فوالذى بعثه بالحق لقد جعلت أنظر إلى النخلات يخددن الأرض خداً حتى اجتمعن، وأنظر إلى الحجارة يتناقزن حتى صرن رضماً خلف النخلات، فلما قضى حاجته وانصرف قال: عد إلى النخلات والحجارة فقل لهن: إن رسول الله ﷺ يأمركن أن ترجعن إلى مواضعكن.

فلما كان وقت الفجر قام ﷺ بالناس الصبح مغلساً، ثم أتى المشعر الحرام فوقف به، أى: وهو راكب ناقته، واستقبل القبلة ودعا الله وكبر وهلل ووحد، ولم يزل واقفاً حتى أسفر، ثم أنه ﷺ دفع من المشعر الحرام قبل أن تطلع الشمس

وأردف خلفه الفضل بن العباس، فلما وصل ﷺ إلى محسر حرك ناقته قليلاً وسلك طريقه إلى جمرة العقبة فرمى فى أسفلها سبع حصيات، ثم انصرف ﷺ إلى المنحر بمنى فنحر ثلاثاً وستين بدنة بعدد سنوات عمره ﷺ، وطبخ له اللحم من لحمها وأكل منه وأكل الناس، وفى ذلك جواز الاحتفال بمولده ﷺ وإطعام الطعام فيه، ثم أمر علياً رضي الله عنه فنحر ما بقى وهو تمام المائة، ثم حلق رسول الله ﷺ رأسه الشريفة، ثم دعا أبا طلحة الأنصارى فأعطاه شعره، أى: بعد أن حلقه، وقال: اقسمه بين الناس، وفى هذا جواز التبرك بآثاره ﷺ، ثم تطيب رسول الله ﷺ بطيب فيه مسك قبل أن يطوف طواف الإفاضة.

ثم ركب ﷺ إلى مكة فطاف فى يومه هذا طواف الإفاضة قبل الظهر، وشرب من زمزم، ثم رجع ﷺ إلى منى فصلى بها الظهر، كما اتفق عليه الشيخان. وقيل: صلاه بمكة، ونهض ﷺ من منى فى اليوم الثالث بعد الزوال، ثم إنه دخل مكة فى تلك الليلة وطاف طواف الوداع سحراً قبل صلاة الصبح ثم خرج من الثنية السفلى- ثنية كدى- متوجهاً إلى المدينة، ولما وصل إلى ذى الحليفة بات بها لأنه ﷺ كان يكره أن يدخل المدينة ليلاً.

وأخرج البيهقى وابن عساكر عن معيقيب اليمانى قال: حججت حجة الوداع فدخلت داراً بمكة فرأيت فيها رسول الله ﷺ ورأيت منه عجباً، جاءه رجل من أهل اليمامة بغلام يوم ولد فقال له رسول الله ﷺ: يا غلام من أنا؟ قال: أنت رسول الله، قال: صدقت بارك الله فيك، ثم إن الغلام لم يتكلم بعد ذلك حتى شب فكنا نسميه مبارك اليمامة.

وأخرج البيهقى من طريق الزهرى عن ابن كعب بن مالك قال: لما حج النبى ﷺ بعث معاذا إلى اليمن فقدم على أبى بكر من اليمن وقد توفى رسول الله ﷺ.

وأخرج الخطيب والسيوطى فى خصائصه عن عائشة قالت: حج بنا رسول الله ﷺ حجة الوداع فمر بى على عقبة الحجون وهو باك حزين مغتم، ثم ذهب وعاد وهو فرح مبتسم فسألته فقال: ذهبت إلى قبر أمى فسألت الله أن يحييها فآمنت بى وردها الله.

وإيمان والدة المصطفى ﷺ مزيد فضل وإكرام له ﷺ، لأن أبوى النبى عليهما السلام كانا من أهل الفترة فلم تبلغهما الرسالة و لم يبعث فى عهدهما نبى، وقد ثبت أنهما كانا حنفاء على ملة إبراهيم عليه السلام سيدا عن سيد إلى جدهم إسماعيل ابن إبراهيم.

ويجب اعتقاد أن جميع آباء الأنبياء وأمهاتهم مؤمنون وأنهم فى الجنة مخلدون، وهذا هو الذى نعتقده ونلقى الله عليه، وهو ما أجمعت عليه الكثرة المؤمنة المؤدبة، وقد سئل إمام المالكية أبو بكر بن العربى عن رجل قال: إن أبويه ﷺ فى النار، فأجاب بأنه ملعون لقوله تعالى: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة﴾ (الأحزاب: ٥٧). قال: ولا أذى أعظم من أن يقال إن أباه وأمه فى النار.

معجزاته ﷺ

كان العالم أجمع محتاجا إلى رسالته ﷺ أكثر من احتياجه إلى رسالات سائر النبيين، لأن كل رسول كان يأتى بعده رسول يقرر ما أتى به الأول أو يتممه، أو يأتى بشرع جديد حتى بعث الله سيدنا محمدا ﷺ فختم به نبوة الأنبياء ورسالة الرسل عليهم الصلاة والسلام، فنسخ شرعه تلك الشرائع، فكان هو ﷺ رسول الأنبياء والمرسلين، ورسول الخلائق أجمعين.

ولذلك كانت معجزاته أكثر وأعظم، وأظهر وأدوم من سائر معجزات النبيين.

والمعجزة هى الأمر العجيب الخارق للعادة، الذى يعجز البشر عن الإتيان بمثله، يظهره على يد أنبيائه المرسلين منه إلى الناس كافة.

هذا وأمر المعجزة فيه غرابة عن العقل، ولكن هذه الغرابة تزول إذا علم الإنسان أن ذلك شأن من شئون الله تعالى القادر على كل شىء، والذى لا يعجزه شىء أبدا، إذ أن قدرته لا تقاس على قدرة البشر. فقدرة الله تعالى ليس فيها عجب، ولا تقاس بأحكام العقل، لأنها فوق حكم العقل.

وليست للمعجزة أسباب أو مقدمات، لأنها تظهر بمحض القدرة عند التحدى، وكيف يتأتى للعقل أن يحكم على المعجزة وهو مخلوق لمن أوجب المعجزة وهو الخالق.

ومعجزاته وفضائله ﷺ لا تحصى عدا، ولم ترد لأحد من الأنبياء والمرسلين السابقين معجزة إلا ورد له ﷺ ما هو أعظم منها أو مثلها. وقد انقضت

معجزاتهم بانقضائهم وله ﷺ المعجزات الباقية .

ومن ذلك كرامات أولياء أمته ﷺ فإنها كلها معجزات له وهي مستمرة الوقوع، وقلما يخلو مسلم من مشاهدة شيء من هذه الكرامات، وكثيرا ما يشاهد بعض المنكرين كراماتهم ولا يؤمنون بولايتهم وشأنهم في ذلك شأن الذين كانوا يشاهدون معجزات النبي ﷺ ولا يؤمنون به .

فكراماتهم ﷺ هي فروع معجزاته ﷺ، كما أنهم بمنزلة فروعه أيضا، فلا بد أن يحصل لهم ولكراماتهم حظ ونصيب - كما حصل له ولمعجزاته ﷺ - من إنكار أهل الإنكار ومكابرة أهل العناد .

وقد تناقل معجزاته ﷺ أئمة أمته في جميع الأزمنة والأمكنة، ودونوها في الكتب ونشروها في جميع البلاد .

وهؤلاء يذكرون ما يذكرون بالأسانيد المعروفة، والطرق المتعددة، وكتبهم كبيرة يشتمل الواحد منها على مجلدات كثيرة . وهذه الكتب جميعها ندر وجودها وقل تداولها في عصرنا هذا لطولها وكثرة الأسانيد وتعدد الروايات .

لذلك سوف نبين خلاصة معجزاته وفضائله ﷺ للراغبين في الاطلاع على السيرة الشريفة ممن لا يتسع أمامهم الوقت لمطالعة المطولات من الكتب السابقة، ولعل في قراءتها ما يعد تلخيصا للمقاصد وجمعا للفوائد .

بعض معجزاته ﷺ

اعلم - وفقنى الله وإياك لمحابه ومراضيه، وشرح صدورنا، ونور قلوبنا- أن الله تعالى قد خص نبينا ﷺ بأشياء لم يعطها لنبى قبله، وما خص نبياً أو رسولاً بشىء إلا وكان لسيدنا محمد ﷺ مثله، فإنه أوتى جوامع الكلم، وكان نبياً وآدم بين الروح والجسد، وغيره من الأنبياء لم يكن نبياً إلا فى حال نبوته، وزمان رسالته، ولما أعطى هذه المترلة علمنا أنه ﷺ الممد لكل إنسان كاملٍ مبعوث، وقد أحسن من قال فى ذلك:

وكل آى أتى الرسل الكرام بها ... فإنما اتصلت من نوره بهم

فكل معجزة أتى بها كل واحد من الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، فإنما اتصلت بكل واحد منهم من نور سيدنا ومولانا محمد ﷺ، فهو الشمس الممدة لكل منهم، وهم الكواكب المضيئة بأنوار تلك الشمس، التى لا تظهر فى الظلمات عند شروقها فى أفق غير أفق هذه الكواكب، فكذلك الأنبياء قبل وجوده ﷺ كانوا يظهرون فضله، فجميع ما ظهر على أيدى الرسل عليهم الصلاة والسلام سواه من الأنوار فإنما هو من نوره الفائض، ومدده الواسع، من غير أن ينقص منه شىء.

وأول ما ظهر ذلك فى آدم عليه السلام، حيث جعله الله خليفة، وأمده بالأسماء كلها فظهر آدم بعلم الأسماء على الملائكة القائلين: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ (البقرة: ٣٠). ثم توالت الخلائف فى الأرض إلى أن وصل إلى زمان وجود صورة جسم نبينا ﷺ الشريف، لإظهار حكم مترلته، فلما برز كان

كالشمس اندرج فى نوره كل نور، وانطوى تحت منشور آياته كل آية لغيره من الأنبيـــاء، ودخلت الرسالة كلها فى صلب نبوته، والنبوات كلها تحـــت لـــواء رسالته، فلم يعط أحد منهم كرامة أو فضيلة إلا وقد أعطى ﷺ مثلها، ولم تظـهر على يد نبى من الأنبياء أو رسول من الرسل معجزة إلا ولنبينا محمد ﷺ معجـــزة مثلها، بل وتفوقها، فإن معجزاته ﷺ لا تنحصر عداً، ولا تدرك قدراً.

القرآن الكريم

أعظم المعجزات

هو أعظمها لأنه أتى مشتملاً على أخبار الأمم السالفة، وسير الأنبياء التى عرفها أهل الكتاب، وهو ﷺ أمىّ، ولم يعرف بمجالسة الكهان والأحبار، لأنه ﷺ قد نشأ بين أظهرهم، فى بلد ليس بها عالم يعرف أخبار القرون الماضية والأمم السالفة التى اشتمل عليها، ومن كان من العرب يكتب ويقرأ أو يجالس الأحبار لم يدرك علم ما أخبر به القرآن، خصوصاً عن المغيبات المستقبلة الدالة على صدقه، لوقوعها على ما أخبر به ﷺ.

وقد أعجز الفصحاء البلغاء لحسن تأليفه والتئام كلماته، بهرت العقول بلاغته، وظهرت على كل قول فصاحته، أحكمت آياته، وفصلت كلماته، فحارت فيه عقولهم،وتبدلت فيه أحلامهم، وهم رجال النظم والنثر وفرسان السجع، وقد جاء على وصف مباين لأوصاف كلامهم النثر، لأن نظمه لم يكن كنظم الرسائل والخطب، ولا الأشعار وأسجاع الكهان.

وقد تحداهم ودعاهم إلى معارضته والإتيان بأقصر سورة منه، وهو دليل قاطع على أنه ﷺ لم يقل لهم ذلك إلا وهو واثق مستيقن أنهم لا يستطيعون ذلك، لكونه من عند الله. إذ يستحيل أن يقول ﷺ ذلك وهو يعلم أنه الذى تولى نظمه ولم يترل عليه من عند الله، إذ لا يأمن أن يكون من قومه من يعارضه وهم أهل فصاحة وشعر وخطابة، قد بلغوا الدرجة العليا فى البلاغة وهو من جنس كلامهم فيصير كذاباً، ولو كان فى استطاعة أحد منهم ذلك لما عدلوا عن

التحدى بالمحاربة التى قتل فيها صناديدهم، وغنم أموالهم وسبى ذراريهم.

ومعجزة القرآن لا يمكن أن تضارعها معجزة، لأن كل معجزة تأتى بها الرسل تكون حجة فقط إلا القرآن فقد امتاز على كل المعجزات بأنه حجة ودعوة فى آن واحد، وهو معجزة باقية فى الأمة المحمدية، مع أن كل معجزة رسول تنتهى بانتهاء الحادثة وفناء المشاهدين لها بخلاف القرآن، فإنه حجة لكل فرد وارث من ورثته ﷺ فى كل زمان، وهو الكتاب الذى لا تنتهى عجائبه، ولا يقف باحث على ما فيه من المعانى التى لا حد لها.

الكلام فى بعض آيات القرآن المجيد

ليس بعد العيان بيان، ومن لا يسمع صوت الرعد فهو أصم، ومن لا يرى الشمس ضحوة فى النهار الصائف فهو أعمى، ومن أنا حتى أخاطب الصم البكم العمى الذين لا يعقلون، أو أبين لمن فى القبور، لكنى أضرب مثلا يعقله العالمون:

غابة فيها سبع وأنواع أخرى من أنواع الوحوش، وجاء السبع إلى الأنواع الكثيرة من أنواع الوحوش فقال: أنا ملك تلك الغابة بما من الله به على من الجرأة وشدة الافتراس والقوة، ومن لا يعترف بملكى على تلك الغابة فليبارزنى إما منفردا، أو اجتمعوا جميعا وبارزونى، وزأر فيها زأرة فك مفاصلها حتى اقشعرت جلودها، وصرعت جميعا من زئيره، وبايعته على أنه الملك عليها. وصار سكان الغابة من كل أنواع الوحوش والغزلان وأنواع الطيور المختلفة خاضعة لهذا السبع العظيم. وكان للسبع وأتباعه غابة أخرى يمضون فيها فصلا من فصول السنة، فلما أن انتقل الملك ورعيته إلى الغابة الأخرى ونزلت الأمطار

على الأرض، تولدت الضفادع، مفتخرة أن لها ملك الغابة، وأن أحداً لا يقهرها، حتى جاءت سلحفاة فقالت للضفادع: إن تلك الغابة يملكها السبع الذى زأر زأرة صرع بها كل أنواع الوحوش والطيور وأخضعها له، فقامت الضفادع تحقر تلك الزأرة وتفتخر بصوتها، وتنقص زئير الملك العظيم، فقالت لها السلحفاة: جهل الحقيقة مؤد إلى الغرور، وهل بعد أنى رأيت أنواع الوحوش المفترسة والطيور الجارحة والحيوانات الهائلة، تصعق لزأرة السبع أغر بما تدعيه بجهلك وضعفك؟ إليك عنى، فإنما يغتر بك من هم أضعف منك صوتاً، وأخس منك فكراً.

هذا المثال يطابق الحقيقة فى نفس الأمر، وذلك لأن كل رسول أرسله الله تعالى يمده من المعجزات بما يكون معتنى به عند الأمة التى أرسله الله إليها.

مثال ذلك: أرسل الله سيدنا موسى فى عصر كان السحر فيه معتنى به، وكان الساحر سيد قومه، فجعل المعجزة من هذا النوع، وكل من قام بعد سحرة أهل هذا الزمان، فقال : إنى يمكننى أن أقهر عصا موسى، فهو كاذب جاهل، لأن أكابر السحرة خروا ساجدين، إعظاماً للآية وإجلالاً لمن أنزلها.

وأرسل الله سيدنا عيسى بن مريم فى زمان ساد فيه الطب، وكان الطبيب عظيم قومه، فجعل معجزته من هذا النوع. فكان الطبيب يهيىء المريض للعافية وقد يشفيه الله، وكان عيسى بن مريم عليه السلام لا يهيىء المريض للعافية، ولكن يضع يده عليه ويقول: على قدر إيمانك، فيشفيه الله تعالى من الأمراض المعضلة التى ليس للطبيب فيها يد.

ثم ما هو فوق ذلك، كان يضع يده على الميت ويقول: أحياك الله، فيجيبه الله. ومن جاء بعد المسيح وقال: إنى لا أعترف بعمله لأنى أعمل عملاً أجلّ من عمله، فذاك كاذب مغرور جاهل.

وكذلك بعث الله رسوله سيدنا محمداً ﷺ فى زمان سجد أهله للفصاحة والبلاغة، حتى بلغت العناية بالفصاحة والبلاغة مبلغاً، هو أن القبيلة الدنيئة النسب، البعيدة عن الشرف، اللئيمة الطبع، إذا ظهر فيها شاعر أو خطيب، عزت بعد الذل، ورفعت بعد الضعة، وشرفت بعد التعسة، وانتسب إليها من ليس منها ليفتخر بها. وبلغ من تعظيم الفصاحة والبلاغة أن جعلت بعض القصائد تعلق على الكعبة فتعبد ويسجد له كالأصنام. فكانت القصيدة أو الخطبة فى مترلة الإله عندهم، وقائلها سيد عظيم تسود به قبيلته على أهل عصره، فجعل الله معجزته ﷺ مما تسجد له العقول وتخشع له القلوب. وهو الكلام الذى كان زئير الأسد مثال له. فسجد له فحول الفصحاء وفطاحل البلغاء ومن أعجزوا بفصاحتهم الفصحاء وأخفى نور شمسه أقمار وأنجم البلغاء.

قال: اجتمعوا فأتوا بسورة من مثله فعجزوا، وهم ألد أعدائه وأشر حساده، يبحثون عن نقيصة يرمونه بها، أو خسيسة ينسبونها إليه، أو قبيح يصفونه به، فقطعت كمالاته العلية أعناقهم، وأخرست أنواره الجلية ألسنتهم، فحاربوه بالسيف و لم يجدوا فيما أنزله الله عليه مجالاً للإنكار، ولا منفذاً للاتهام، وهم معدن البلاغة والفصاحة وأصل الحكمة وأهل الجدل والبحث وفصل الخطاب.

بيان إعجاز القرآن لجميع بنى الإنسان

لو أنى أوردت عليك أقصر آيـــة فى القــرآن قــام فصحــاؤهم وبلغــاؤهم وحكمــاؤهم ليأتوا بمثلها فنادهم ضمائرهم: الشـــمس تخفـــى كــل نجم وكوكب. تلك الآية هى قوله تعالى: ﴿القصاص حيــاة﴾ (البقــرة: ١٧٩). فقالوا: القتل أنفى للقتل. أنظر إلى حلاوة الآية لفظاً، وجمالها معنى فى قولــه: (القصاص) ولم يقتل: القتل! وهى تروح القلب بروح محاسنها. وانظر إلى قوله: (حياة) وهى طهور للروح ونعيم للنفس إن سمعها الجانى فقه منــها أن رضـاه بالقتل حياة طيبة أبدية له، فيقدم نفسه مسروراً فرحاً، وإذا سمعها مـــن يـهم بالجناية خشع قلبه لما تومى إليه من الرحمة والشفقة، وما تشير إليه من العــدل والمؤاخذة وأناب إلى ربه. أنظر إلى ما فى تلك الآية القصــيرة مــن الحكــم الاجتماعية والكمالات العمرانية، وما تؤثر به على النفوس من سر التعــاطف والتآلف، وما تنتجه من الرحمة والشفقة. ثم لا تنظر نظر مقابلة بين كلام الخالق والمخلوق، فإنه ليس بينهما نسبة. ولكن الأخماص؟ يشحذ النفــوس لتلقــى الكمالات.

القتل أنفى للقتل، أنظر إلى بشاعة اللفظة فى قولهم القتل، فإنها تجعــل القلــب يحترق بنار الغيظ وحب الانتقام، ويبث فى النفس حمية الجهل والحماقة والجــرأة على أقبح القبائح. فكان الرجل يقتل بعبده سيد القبيلة، ويقتل برجــل قبيلــة أخرى، وربما محقت القبيلة لقتيل قتلته من الأخرى، كل ذلك نتيجة: القتل أنفى للقتل. وهى كلمة أكابر حكمائهم، وأعاظم فصحائهم، وفحول بلغائهم. لفظ القتل لا تخصص المراد، فإن القتل كلمة دالة على حدث وعلى من يقع الحــدث،

لا قرينة تعين وقوعه على الجانى فقط، بل يجوز أن يقع على كل من له اتصال ما بالجانى، ولكن كلمة (القصاص) كلمة جامعة مانعة تعين المراد، فإن القصاص لا يكون إلا من الجانى فقط، ثم انظر إن كلمة الله تعالى مع أنها كثر تضمنت من الحكم والأسرار والخيرات العمرانية والبركات الاجتماعية والكمالات الأخلاقية، وتزكية النفوس وتطهيرها من لقسها، ما لا يمكن أن تسعه بطون الدفاتر ولا تجمعه القلوب، فإن حروفها عشرة أحرف، وحروف الكلمة الأخرى خمسة عشر حرفاً فسبحان القادر الحكيم. هذا هو كلام الله حقاً الذى أعجز البلغاء وحير الفصحاء. وهل بعد أن سجد فحول العرب الذين كانت السيادة فيهم بالفصاحة والبلاغة، يأتى قوم أعجام ينكرون، وإنما مثلهم وما هم فيه كما قال الشاعر:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

عجز أهل البلاغة أمام القرآن يثبت عجز غيرهم

عجباً! أبعد أن يعاديه أهل الفصاحة والبلاغة عداوة أدت إلى سفك الدماء والاجتهاد فى إثبات نقيصة له، فلم يتمكنوا من ذلك وعجزوا، يقوم الأعجام يثبتون نقائصه؟ إنما ذلك من فساد المزاج الذى يجعل الحلو مراً فى الذوق. والجاهل يرى العصا فى الماء كأنها معوجة، ويرى الأرض تجرى أمامه وهو راكب على القطار، فيتيقن أنه ساكن والأرض ماشية. وهكذا مريض القلب فاقد العقل المحروم من نور الحكمة يقول وهو جاهل: إنى يمكننى أن أعيب عصا موسى، وأنقص يد عيسى بن مريم عليهما السلام، وانتقد كلام الرسول

العظيم الذى بشر به كل رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، وأعجز كلامه فصحاء العالم بأجمعه، وبلغاء بنى الإنسان بأكملهم، حتى بلغ من سجود العقل له أنه لا يزال منذ أنزل على قلبه ﷺ ونطق به لسانه ﷺ غضاً نضراً طرياً، تجدد أسراره وتشرق أنواره فى كل مكان وزمان، تغترف العلماء من فيضه الهاطل، ونوره المتلألىء أسرار حكم، لم تكن تظهر من قبل، وينكشف لهم دقائق علوم وغوامض فهوم وأنوار شموس، لم تكن تلوح من قبل، ولا يزال غيثاً هاطلاً وموردا عذباً لكل ذى قلب سليم.

لا تظهر خواص الكائنات فى أى زمان إلا وقد أشار إليها، ولا تخترع مخترعات فى أى مكان إلا وقد نبه عنها. ولا يترقى الإنسان فى مراقى الحضارة والعمران إلا وكان به الرقى. ولا يسعد الإنسان بالإنسان إلا وكانت به السعادة.

مالى وللخوض فى هذا البحر المتلاطم بالأمواج، إذا أنكر الضب فيضه ونفعه، وقد اعترفت كل الأنواع الحية بفضله ونفعه، بل ونطقت ألسنة الجمادات بخيره وبره. اللهم إلا من اختل توازن أمزجتهم فزاد عنصر من العناصر المكونة للجسم، فقهر بقية العناصر فصار ممروراً لا يعقل، أو بهيماً لا يتروى، أو شيطاناً خبيثاً يقبح الحسن ويحسن القبيح، لأنه مفطور على الخبث، وليست هذه الأنواع إلا أعداء للنوع الإنسانى، وإن كانت على صورته، كعدواة الأفعى له وعداوة الشيطان. وإنما يميل إليهم من هو منهم ويصغى لقولهم أشكالهم.

يجهلون مغازى أساليب العرب ومدلول ألفاظهم، وأنواع البديع فى تعبيرهم، وما

يدل عليه اللفظ بالمطابقة أو بالالتزام أو بالتضمين، بل ويجهلون مراجع الضمائر، بل ويجهلون استعمال الفصاحة والتفنن فى التعبير والتوسعة فى الإفادة والبيان والتجوز بأنواعه من الكناية والمجاز والتشبيه والاستعارة، كل ذلك يجهلونه. فمن يجهل كل تلك المفاهيم والمعاليم وهو عجمى الأصل بعيد عن اللغة وأهلها، كيف يدنس هذا الشرف العلى والمجد الرفيع بأن يدعى أنه يفهمه، وأنه يمكنه أن ينتقد عليه أو ينكره.. لا حول ولا قوة إلا بالله.

لا تعجب أيها الإنسان! فإن شبيهك فى الجهالة ومشاكلك فى الضلالة، دعته جهالته إلى أن يبنى سلماً من الطين ويرقى به إلى السماء ليحارب رب السماء، وهو إنسان مثلك، وعمله أقل فى الشر من عملك، لأن السماء ينظرها الإنسان قريبة، والطين يمكن أن يجعل منه صرح مرتفع. وأما أنت أيها الإنسان المغرور فحفرت بئراً عميقة، وأردت أن تقع فى جبها، ومن هناك تنفخ فى الشمس بفمك لتطفىء نورها. من أنت وأنت عدو الحق، وخصم الهداية وبغيض النور؟

المسلم لا يعقد قلبه إلا على ما وضح دليله لعقله

لعلك تظن أن المسلم غمض عينيه وكف نور عقله، وحكم على قلبه الذى يتقلب فى الشئون الكونية، وقال لقلبه: اعتقد أن الإله العظيم الكبير الذى خلق تلك الآثار العظيمة، دخل فى فرج امرأة وتجسم وصار إنساناً، ثم نزل إلى الأرض، فقال اليهود: لا يكون فى الأرض إلهان، إما نحن، وإما أنت، فقهروه مسكيناً وصلبوه – كما تزعمون – وهو ذليل مهان مخزى. لا، ومن خلق

السموات وفطر البريات ودحا المدحوات.

المسلم لا يعقد قلبه إلا على ما وضح دليله لعقله، ومحا برهانه كل شبهة من قلبه، وأشرقت أنواره لعينيه، ولاحت أسراره لضميره. ولو أن الرسول العظيم الكريم قال: إنى ملك عبد تجسمت فصرت إنساناً، لما قبلنا منه ولما سلمنا له. ولكنه قال ما أمره الله به: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ (الكهف: ١١٠). وقال بلسانه ﷺ: "إنما أنا رجل من قريش ابن امرأة كانت تأكل القديد" فدع عنك التكلم فيما لم تستطع أن تفهم ظاهره، لأنك متنجس بقاذورات العقيدة الفاسدة، ومتقذر بأوساخ الآراء المضلة، والجعران يقتله الطيب، والحوت يقتله النسيم العليل البليل، والخفاش (الوطواط) تهلكه أنوار الشمس. لم أكتب لأناظرك، فإنما يناظر النظير، ويجادل المثيل. وإنما كتبت لأرشدك إلى الحق وأدعوك إلى الهدى، عسى الله أن يهديك فتبصر النور المبين. ويدلك فتسمع الوعظ المفيد، فتخلص نفسك من هاوية العذاب الأليم، وحضيض السخط.

أيها الإنسان مالك وللقرآن المجيد؟

أيها الإنسان وأنا إنسان أحب والله الخير لك، وأشفق بقلبى عليك، وأرجو لك النجاة كما أحب ذلك لنفسى، مالك وللقرآن المجيد:

أبعد أن يمضى عليه أربعه عشر قرناً، والقلوب خاشعة لهيبته، والعقول ساجدة لعظمته، والألسنة رطبة بتلاوته، والعالم الحى بأجمعه راتعاً فى رياض النعيم واللذة بأحكامه، والقلوب السليمة مقتبسة من أنواره، وهو إلى وقتنا هذا نور مضىء يلوح أسراره وتظهر أنواره، ويفوح شذا عبيره، تأتى أيها العجمى البعيد

عن أساليب لغة نزل بها، العمى عن فهم مدلول ألفاظ ظهر بها، فتنتقد بها على كماله الروحانى، وجماله المعنوى ومحاسنه اللفظية؟ لا يضر ضوء الشمس أنه لا يعترف به الخفاش، ولا ينقص الشهد الخالص أنه مر فى فم المريض، ولا يحجب الحق البين على قلوب أهله أنه ثقيل على البهائم والشياطين.

تنبه أيها الإنسان العاقل، فليست السعادة بالعناد ولا النجاة بالعصبية، ولا الفوز بسجن العقول فى هوة الظلمات، وقهر القلوب على اعتقاد الضلالات؟. لا أبيح للقلم أن يناظرك إجلالاً لكمال كلام الله، ولا للسان أن يتكلم معك إعظاماً لهذا المقام العلى وخوفاً على نفسى أن أكرر قولاً ينجس لسانى.

اللهم إنى أعوذ بك من غضبك الذى تحجب به الأنوار عن قلوب من غضبت عليهم، وأسألك ياذا الفضل نوراً تجعله فى قلبى وقلب كل أخ من إخوتى المؤمنين، تبين لى به الحق والباطل، وتعيننى به يا إلهى على اتباع الحق والبعد عن الأباطيل، وأسألك آية من آياتك الكبرى تؤيد بها الحق وأهله، وتذل بها الباطل وأهله، إنك على كل شىء قدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

أدلة القرآن صارت فى منزلة الآيات الكبرى

جلى للعقول أن الكتب السماوية نزلت لتكميل الجسم والنفس، ولا كمال للناس إنا بكمال الجسم. ولذلك كانت الوصايا الإلهية تارة تكون خاصة بالأجسام، ومرة بالنفوس، وأخرى عامة للأجسام والأرواح، ولم يأت كتاب سماوى فصل تلك المعانى تفصيلاً حتى قرب أصوله وفروعه للعقل قرباً يكاد يمس إلا القرآن المجيد. فالذى أنزل منه خاصاً بالنفوس قسم العقيدة الذى قرره تقريراً

كادت حقائقه أن تطمئن بها القلوب طمأنينة أكثر من طمأنينة القلب بما تشهده الحواس،فإن العقل قد يخطىء الحواس فى كثير من مشاهداتها مثال ذلك: أن العين ترى الشمس صغيرة، ولكن العقل يحكم بخطأ العين، وترى العود فى الماء منكسراً فيحكم العقل بخطئها فى تلك المشاهد، ولكن أحكام العقول بما قرره القرآن فى العقيدة بلغت من اليقين مبلغاً صار أقوى من المشهود بالحواس، لما أقامه من الحجج والبراهين الجلية . ومن قرأ القرآن المجيد متدبراً تظهر له جلية الأمر .

أقام الله الحجة على وحدانيته - تنزه وتعالى - بما جعل المسلم وهو فى آخر لحظة من مفارقة الدنيا تنكشف له الحقيقة، فتنسيه آلام نزع الروح لما يداخله من السرور لطمأنينة قلبه بحقيقة ما اعتقد . وتراه عند الشدائد العظيمة يرجع إلى الواحد الأحد المنزه عن الوالد والولد رجوع الطفل الصغير إلى أمه المشهودة له حساً ومعنى، وتلك المواضع تنسى الإنسان مالا يطمئن به القلب . وأدلة القرآن صارت فى منزلة الآيات الكبرى، التى أشهدها الله لرسله صلوات الله وسلامه عليهم، فترى إيمان أصغر مسلم كإيمان المسيح عليه السلام لقوة البرهان . ولو أن الله هداك أيها الإنسان للإسلام، وقرأت القرآن قراءة مسلم، لأشرقت لك أنوار الدلائل . وإن شئت أن تفهم أنواع الدلائل التى أقامها القرآن المجيد على وحدانيته سبحانه وتعالى، وعلى قدرته وحكمته جل وعز، فراجع ذلك فى غير هذا المختصر .

تلك الآيات الشريفة القرآنية التى حجب العمى عن أنوارها المشرقة، يمكن أن تلوح لك أسرارها، وتظهر لك خفياتها إذا جردت نفسك من أن تنظر إلى

● السبت ١٧ ذى الحجة ١٤١٩ هـ الوفد ● ٣ أبريل

محكمة الصلح الكبرى.. أول نص مسرحى مصرى

وافق حمدى الكنيسى رئيس الإذاعة، على تسجيل مسرحية «محكمة الصلح الكبرى» للإمام المجدد محمد ماضى أبو العزايم بعد موافقة لجنة التخطيط الدرامى. كما وافق على إستثناء بعض الممثلين فى الأجور. يعتبر النص فى تاريخ المسرح أول تأليف أصيل للمسرحين المصرى والعربى حيث طبع عام ١٩١٩ أى قبل توفيق الحكيم بستة وعشرين عاماً، الذى يعتبر أول من كتب مسرحية بمفاهيمها الصحيحة.



أحمد ماهر



أحمد سليم

تعتبر مسرحية «محكمة الصلح الكبرى» النص الوحيد الذى كتبه الإمام فى حياته وأول مسرحية فى تاريخ المسرح المصرى، يستعـ النص النفس البشرية بكل عناصر الفكر والعقل والخيال والشجاعة والضعف والنفس السوية والنفس البهيمية والتهور والجبن والعفة والعلم والعدل والعدالة.

المسرحية يجسدها أحمد ماهر ومدحت مرسى وأمين هاشم وليلى حمادة ورباب وسلوى محمد على وماجدة حمادة وخالد الذهبى ومفيد عاشور وأحمد خليل ويخرجها أحمد سليم.

الشمس بعين رمداء وبقلب مظلم بفساد العقيدة ودخان العصبية. فإذا غسلت عينيك بمطهر، وقلبك بعزم على طلب الحق والاعتراف به من أى طريق وصل إليك، لا نكشف لعقلك ما به يقبل ولقلبك ما به يطمئن ولنفسك ما به تسكن إلى مبدعها سبحانه وتعالى. ولكنك أيها الإنسان إذا كنت مريضاً وتعلم أن دواء الطبيب مر أو مؤلم، وذكر لك الطبيب انزعجت نفسك وتصورته فى خيالك بأقبح صورة، وانقبض صدرك وضاق قلبك به، فإذا وقع نظرك عليه ومعه راحتك، وبإقبالك عليه شفاؤك، وبتسليمك له عافيتك لم تره بحقيقته، ولكن يحجب بصرك عنه المثال الذى تخيلته، فتراه وحشاً ضارياً أو سبعاً مفترساً، وتفر منه، وربما ألقيت بنفسك من شاهق لتموت ولا تراه. هكذا أنت أيها الإنسان الجاهل بكمالات نفسك، الضال عن طريق ربك، تتمثل كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بصورة حكم بها خيالك الفاسد، وقلبك المظلم ونفسك الخبيثة، فلا يقع نظرك إلا وحكمت عليه بما حكم به المريض الجاهل الأحمق على الطبيب الرحيم الشفيق، وفيه شفاؤك من أمراض نفسك وعافيتك من آلام الدنيا والآخرة وسعادتك الأبدية.

مثال أعمال دعاة النصرانية

لا تظن أنى أرغبك فى القرآن لاحتياج القرآن إليك! لا ومن أنزل القرآن نوراً وهدى، أو لأدفع ضررك عن المسلمين! لا ومن بيده نفسى. لأن المسلم كامل اليقين بما بينه له القرآن من البراهين والأدلة الناصعة، يحتقر فى نفسه ويصغر أمام عقله ما لا يوافق القرآن من الأباطيل التى لا تقبلها العقول، ويرى أعمال

دعاة النصرانية أمامه كأعمال جماعة من البعوض دفعها الشبع وغرها طيب المرعى، وكانت فى واد يحيط به جبلان، وظنت لضعف إدراكها أن تقوم بزوال الجبلين ليتسع الوادى، وغرها الجهل والحماقة فقالت: نبتدىء بكسر أعالى الجبلين، فجهدت نفسها حتى بلغت قمة الجبل بعناء شديد وتعب، فلما أن وصلت إلى قمة الجبل سقطت مغشياً عليها لطول المسافة وكان على قمة الجبل ثلوج، فلما سقطت على الثلوج تقصفت أجنحتها وجمد جسمها وكان بعضها لم يصل، فلما رأى ما حل بالقسم الذى التصق بقمة الجبل أجهد نفسه فارتفع عن الثلج فلفحه السموم، فألقاه خلف الجبل على أحجار محرقة بمجدبة كان فيها طيور تتغذى بالبعوض فنادت الطيور بعضها وقالت: رزق ساقه الله إلينا، فقال البعوض: لا والله، قدرٌ أوقعنا فيه جهلنا بقدر أنفسنا وغرورنا برغد العيش وإنكارنا على الحق وأهله. وهكذا دعاة النصرانية وصلوا إلى واد خصب مما نالوه من تساهل أهل الإسلام فجرهم الطمع الأشعبى والجهل بضلالهم وبقدر الإسلام، فأرادوا أن يزيلوا هذين الجبلين الذين أصلهما ثابت وفرعهما فى السماء، وأبت نفوسهم الخبيثة إلا أن يتكلموا فى المقام المحمدى وفى الكلام القدسى. ويعلم الله أنهم بصعودهم هذا هاوون فى هوة الهلاك الأكبر. وسيهلكهم طمعهم ويمحقهم حمقهم. إما بانكشاف الحقيقة ورجوعهم إليها فيسعدون السعادتين، وإما بنقمة سماوية تمحقهم بعضهم ببعض، ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (يوسف: ٢١). أو ينزل عليهم صواعق من السماء كما أنزل على أبرهة صاحب الفيل النصرانى الذى قام بخيله ورجله ليهدم الكعبة، فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من

سجيل فجعلهم كعصف مأكول. وإن هدم الكعبة في الزمان الصنمي، ليس بأعظم ذنب عند الله تعالى من تكذيبهم الله ورسوله ﷺ، ومجاهرتهم بذلك. وعملهم هذا كعمل اليهود الذين كذبوا الله وكذبوا رسله عليهم الصلاة والسلام، فسلط الله عليهم بختنصر ثم العمالقة ثم الرومان، فانتقم الله منهم، وسينتقم الله ممن ينكر كلامه سبحانه، ويكذب رسله صلوات الله وسلامه عليهم.

باقى المعجزات

*منها شق صدره الشريف ﷺ، والتئامه من غير حصول أدنى ضرر ولا مشقة مع تكرر ذلك مرات.

*ومنها انشقاق القمر عندما طلب منه كفار قريش، فأشار إليه ﷺ بأصبعه فانفلق فرقتين.

*ومنها أن الملأ من قريش لما تعاقدوا على قتله ﷺ فى دار الندوة، وجاءوا إلى مترله وقعدوا إلى بابه، فخرج عليهم وقبض قبضة من تراب وقال: "شاهت الوجوه" وألقاها على رؤسهم فسقطت ذقوهم على صدورهم ولم يشعروا به.

*ومنها أنه هزم القوم يوم حنين بقبضة من تراب رمى بها فى وجوههم، كما فعل فى يوم بدر مثل ذلك.

*ومنها نسج العنكبوت عليه ﷺ فى الغار.

*ومنها ما وقع لسراقة من غوص قوائم فرسه فى الأرض الصخرية.

*ومنها در لبن الشاة التى لم يترل الفحل عليها.

*ومنها رد عين قتادة بعد أن سالت على خده فكانت أحسن عينيه.

*ومنها نطق الذراع المسموم له ﷺ وإخباره بدس السم فيه.

*ومنها استسقاءه ﷺ فأمطروا أسبوعاً ثم استصحى لهم فانجابت السحاب.

*ومنها دعاءه ﷺ على عتيبة بن أبي لهب فأكله الأسد بالزرقاء من الشام.

*ومنها تسليم الحجر والشجر عليه ﷺ بلفظ: السلام عليك يا رسول الله ،

*ومنها حنين الجذع إليه ﷺ، وتسبيح الحصى فى كفه ،

*ومنها شكوى البعير إليه ﷺ كثرة العمل وقلة العلف ،

*ومنها عند دخوله ﷺ مكة عام الفتح والأصنام حول الكعبة معلقة وبيده قضيب، فجعل يشير إليها ويقول: جاء الحق وزهق الباطل وهى تتساقط ،

*ومنها إيتاءه ﷺ بقدح فيه ماء فوضع أصابعه فيه وقال: (هلموا)، فتوضأوا منه أجمعون وهم من السبعين إلى الثمانين ،

*ومنها وروده ﷺ فى غزوة تبوك على ماء لا يروى واحداً والقوم عطاش، فشكوا إليه فأخذ ﷺ سهماً من كنانة فغرسه ففار الماء وارتوى القوم وكانوا ثلاثين ألفاً ،

*ومنها شكوى قوم إليه ﷺ ملوحة فى مائهم، فجاء فى نفر من أصحابه حتى وقف ﷺ على بئر فتفل فيها فتفجر الماء العذب المعين ،

*ومنها أنه أتته ﷺ امرأة بصبى لها أقرع فمسح على رأسه فاستوى شعره وذهب داءه، فسمع أهل اليمامة بذلك،فأتت امرأة إلى مسيلمة بصبى فمسح رأسه فتصلع وبقى الصلع فى نسله ،

*ومنها انكسار سيف عكاشة يوم بدر، فأعطاه ﷺ جذلاً من حطب فصار فى يده سيفاً و لم يزل بعد ذلك عنده ،

***ومنها ما أطلعه الله عليه من الغيبيات:**

- كإخباره ﷺ عن مصارع المشركين يوم بدر فلم يعدو أحد منهم مصرعه.

- وإخباره ﷺ أن طائفة من أمته يغزون البحر، وأن أم حرام بنت ملحان منهم فكان ذلك.

- وإخباره ﷺ لعثمان رضي الله عنه أن سيصيبه بلوى شديدة فكانت وقتل شهيداً.

- وإخباره ﷺ بقتل العنسى الكذاب وهو بصنعاء ليلة قتله ومن قتله.

- وإخباره ﷺ لثابت بن قيس: تعيش حميداً وتقتل شهيداً، فقتل يوم اليمامة.

- وإخباره ﷺ لمن ارتد ولحق بالمشركين فبلغه ﷺ أنه مات فقال: الأرض لا تقبله فكان كذلك.

- ومنها.. ومنها.. ومنها.. مما لا يحصى ولا يحصر.

فضائله ﷺ

وأما فضائله ﷺ وخصوصياته فجلت أن تداني، أو يقوم بها وصف واصف، أو توضح بألسنة أهل البيان مهما أوتوا من كشف وتبيين. وهنا أردت أن تستبين بعض مقاماته ﷺ، فقارن بينه وبين مقامات الرسل، وما أعطاه وأعطاهم الله، وما خصه وخصهم به جل جلاله، تشرق لك شمس فرديته ﷺ، ومطلوبيته ومحبوبيته لذات الحق تبارك وتعالى.

ونحن إن أردنا أن نبين فضائل هذا الحبيب الأعظم ﷺ، فهذه الرسالة وعشرات الألوف من أمثالها لا تحصيها عداً، ولا تفى بحاجة الوصف، بل الوصف نفسه يقصر عن ما خصه الله به من المزايا وما شرفه على سائر خلقه.

على أن ذلك القصور فى هذا الجانب الأعظم لا يمنعنا من أن نذكر رشفة من بحر فضله، وبارقة من سواطع مقامه على قدر ما تسع العقول وتفهم الأرواح.

من فضائله ﷺ أنه أعطى الكوثر

قال الله تعالى مخاطباً حبيبه ﷺ: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ (الكوثر: ١). بين الله تعالى فى خطابه هذا قدر حبيبه وما أكرمه به وفضله على سائر أنبيائه ورسله. والكوثر بمعان كثيرة، والذى عليه جمهور السلف الصالح أنه نهر فى الجنة، روى أنس عن النبى ﷺ قال: "رأيت نهراً فى الجنة حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فضربت بيدى إلى مجرى الماء فإذا أنا بمسك أذفر فقلت: ما هذا؟ قيل: الكوثر الذى أعطاك الله" وقال ﷺ: "الكوثر نهر وعدنيه ربى فيه خير كثير".

وقال بعض المفسرين: الكوثر آل بيته ﷺ. وقد نزلت الآية رداً على من عابه عليه السلام من الكفار بأن لا أولاد له، فالمعنى أن الله تعالى أعطاه نسلاً عظيماً يحفظون سنته، ويجددون شريعته، وبارك سبحانه فيهم فلم يخل منهم زمان ولا مكان مع ما لاقوا من القتل والاضطهاد، وكان منهم العلماء والحكماء والخلفاء والفاتحون.

وقال آخرون: الكوثر علماء أمته فإنهم مصابيح الأمة وهداتها، وهم الخير الكثير، لأنهم كما قال ﷺ: " العلماء ورثة الأنبياء".

وقالوا: الكوثر هو النبوة، وهى لاشك الخير الوفير لأنها المترلة الثانية بعد الربوبية، ولذلك قرن سبحانه وتعالى اسم حبيبه ﷺ باسمه فى كثير من آيات الكتاب، وأردف طاعته عليه السلام بطاعة الله تعالى،وعلق محبته سبحانه على اتباعه ﷺ فقال تعالى: ﴿من يُطع الرسول فقد أطاع الله﴾ (النساء: ٨٠). وقال: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾ (الفتح: ١٠). وقال: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾ (آل عمران: ٣١). وكفاه شرفاً ﷺ أنه المبعوث آخر الأنبياء والمذكور قبلهم بل سيدهم، وخيرة الله تعالى منهم الذى واثقهم بالإيمان به ونصرته منذ أن خلقهم، فسمعوا وأطاعوا.

وقالوا: الكوثر هو القرآن. وقالوا: الكوثر هو الإسلام. وقال فريق: هو المقام المحمود وشفاعته ﷺ فى أهل الكبائر من أمته. وقال آخرون: هو ما اختصه الله به من الفضائل والأخلاق والشمائل، إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة.

فضله على موسى عليه السلام

أفرد الله تعالى نبينا ﷺ بمكانة المحبوب من بين رسله وأنبيائه عليهم السلام، وشتان بين محب ومحبوب، وطالب ومطلوب.

طلب موسى عليه السلام من ربه أن يشرح صدره فقال ملتمساً: ﴿رب اشرح لى صدرى﴾ (طه: ٢٥). وأعطى الله ذلك لحبيبه ﷺ دون سؤال فقال: ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ (الانشراح: ١).

وسأل موسى عليه السلام ربه أن يجعل له وزيراً من أهله هارون أخاه، وقال سبحانه لحبيبه: ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ (الانشراح: ٤). أى: قرنت اسمك باسمى فى الشهادة والآذان، وكنت أنا وزيرك وظهيرك ومعينك. وروى عن مجاهد فى هذا المعنى فى تفسير قوله: ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ (الاسراء: ٧٩). قال: يجلسه على العرش لأن العرش مكان الربوبية بمشيئته فى الدنيا، وهو مستغن عنه بقدرته، فوهبه لحبيبه فى الآخرة.

وجعل عطاءه لموسى محدوداً فقال: ﴿قد أوتيت سؤلك يا موسى ولقد مننا عليك مرة أخرى﴾ (طه: ٣٦،٣٧). وقال لحبيبه ﷺ بعد ما وهب له من علم لا نهاية له ومقام لا غاية له: ﴿وقل رب زدنى علماً﴾ (طه: ١١٤). فلم يجعل له حداً.

وطلب موسى من ربه أن يراه فى مكانه عند نفسه فأبى عليه ورده، وأسرى بالحبيب ﷺ إلى الرفيق الأعلى وقال: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ (النجم: ١٧). ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ (النجم: ٩).

كم بين من طلب أن يرى ربه على قدر نفسه عند نفسه فى مكان العبودية فلم يره، وبين من طلبه هو فأراه نفسه عند ذاته على قدره تعالى فى مكانة الربوبية .

كم بين من عجل إلى ربه شوقاً منه لينال رضاه، وبين من عجل ربه به شوقاً إليه ليرضيه .

كم بين من رأى أنوار التجلى ففاضت عليه الأنوار فصعق لضيقه، وبين من رأى المجلى فثبت وغاضت فيه الأنوار لسعته .

كم بين من صنعه سبحانه لنفسه وأدخل فى خطابه لام الملك فقال: ﴿واصطنعتك لنفسى﴾ (طه: ٤١). وبين من أقامه مقام نفسه بدلاً من نفسه فى الملك فقال: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾ (الفتح: ١٠).

كم بين من فصل مدحه من وصفه فقال: ﴿وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى﴾ (طه: ٣٩). وبين من وصل مدحه بوصفه وقرن ذكره بذكره فقال: ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه﴾ (الفتح: ٩). وقال: ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾ (التوبة: ٦٢).

وقد ورد فى تفسير قوله تعالى: ﴿إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك﴾ (الأعراف: ١٤٤). – أى من الكلام – وأشكر عليه فذلك ما اصطفيتك به على الناس، أما النظر فقد خصصت به حبيبى محمداً .

وعن ابن عباس أن الله قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد، فأعطى موسى عليه السلام الكلام، وخص محمداً ﷺ بالرؤية .

فضل معجزاته ﷺ على معجزات سائر الأنبياء والرسل الكرام

جاء فى الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: أعطيت خمساً. لم يعطهن أحد قبلى، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلّ، وأحلت لى الغنائم و لم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة .

وما جعل سبحانه وتعالى لنبى من أنبيائه ولا لرسول ميزة أو آية أكرمه بها، إلا وجعل لحبيبه ﷺ أعظم وأفخر منها .

١- فجعل سبحانه كتاب آدم وإبراهيم عليهما السلام كلمات، وكتاب موسى صحفاً، كما قال تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات﴾ (البقرة: ٣٧) وقال: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات﴾ (البقرة: ١٢٤)، وقال: ﴿صحف إبراهيم وموسى﴾ (الأعلى: ١٩)، وقال: فى حق الكتاب الذى أنزل عليه ﷺ: ﴿ومهيمناً عليه﴾ (المائدة: ٤٨)، فجعل الكتاب الذى خصه به ﷺ ظاهراً على جميع الكتب ناسخاً لها .

٢- وخص الله آدم بالأسماء المنثورة ﴿أنبئونى بأسماء هؤلاء﴾ (البقرة: ٣١)، وخصه ﷺ بالمنظوم فقال: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً﴾ (الإسراء: ٨٨) .

٣- وأكرم الله نوحاً عليه السلام بإمساك سفينته على الماء، وأكرم سيدنا محمداً ﷺ بأعظم من هذا، فقد روى أنه ﷺ كان على شاطئ ماء ومعه عكرمة بن أبي جهل فقال له: لئن كنت صادقاً فادع ذلك الحجر الذى هو فى الجانب الآخر فليأت سابحاً ولا يغرق، فأشار رسول الله ﷺ إلى الحجر فانقلع من مكانه وأتى سابحاً حتى وقف بين يديه وسلم وشهد له بالرسالة، فقال ﷺ لعكرمة: أيكفيك هذا؟!! قال: حتى يعود إلى مكانه. فأمره ﷺ فعاد إلى مكانه.

٤- وأكرم الله إبراهيم عليه السلام فجعل النار عليه برداً وسلاماً، وأكرمه ﷺ بما هو أعجب من هذا، فقد تفل على جلد محمد بن حاطب وقد احترق جلده وقال: "أذهب الباس رب الناس" فصار صحيحاً، وكسر إبراهيم أصنام قومه غضباً لله تعالى، وأشار ﷺ إلى أصنام قومه وهى ثلاث مائة وستون صنماً فتساقطت، وتقدم حديثها فى باب فتح مكة.

٥- وأكرم سبحانه موسى عليه السلام ففلق له البحر فى الأرض، وأكرمه ﷺ ففلق له القمر فى السماء.

٦- وفجر لموسى عليه السلام الماء من الحجر، وفجر لحبيبه ﷺ الماء من بين أصابعه عيوناً، وهو أعجب فإن نبعه من الحجر متعارف معهود، أما من بين اللحم والدم فلم يعهد.

٧- وأكرم موسى بأن ظللته الغمامة بعد رسالته، وأكرم حبيبه ﷺ بها قبل رسالته.

٨- وخص موسى باليد البيضاء، وأكرمه ﷺ بالقرآن الشريف، الذى ملأ نوره

العالم من أقصاه.

٩- وأظهر على يد موسى معجزة قلب العصا إلى ثعبان، وأظهرها لنبيه ﷺمكبرة، حينما أراد أبو جهل أن يرميه بالحجر فرأى على كتفيه ثعبانين هائلين فولى مرعوباً.

١٠- وسبحت الجبال مع داود، وسبحت الأحجار فى يده ﷺ وفى يد أصحابه.

١١- وكان داود إذا مسح على الحديد لان، ومسح ﷺعلى الشاة الجدباء فدرت، وقد لينت الحجارة له ﷺ وصم الصخور، واستتر من المشركين يوم أحد مال برأسه إلى الجبل ليخفى شخصه عنهم فلين الله له الجبل حتى أدخل فيه رأسه، وهذا أعجب لأن الحديد تلينه النار، ولم تر النار تلين الحجر.

١٢- وأكرم الله داود عليه السلام بالطير المحشورة، وأكرم سليمان بالريح، وأكرمه ﷺ بالبراق.

١٣- وأكرم عيسى عليه السلام بإحياء الموتى وإبراء الأبرص، وأكرمه ﷺ بمثل ذلك، فقد نطقت له الشاة المسمومة، وأبرأ امرأة معاذ بن عفراء من البرص بأن مسح عليها بغصن فشفيت بإذن الله، ورد حدقة الصحابى يوم أحد إلى مكانها بعد أن سقطت، وجعل أبو نعيم نظير خلق الطين طيراً جعل العسيب سيفاً من حديد فى غزوة بدر.

١٤- وكان عيسى عليه السلام يعرف ما يخفيه الناس فى بيوتهم، وأخبر ﷺ عمه العباس بما أخفاه عند أم الفضل فسلم العباس.

١٥- ورد الله الشمس لسليمان مرة، وردها له ﷺ يـــوم أن كـــان نائمـــاً فى حجـــر على كرم الله وجهه، وردها لعلى أيضاً.

١٦- وعلم سليمان منطق الطير، وعلمه ﷺ ذلك، فقد روى أن طـــيراً جعـــل يرفرف على رأسه الشريفة ويكلمه فقال: "أيكم فجع هذه بولدها؟" فأجـــاب رجل: أنا، فأمره برده إليها، وكلمه الذئب والضب والغزالة والجمل.

١٧- وأكرم سليمان بمسيره غدوة شهراً، وأكرمه ﷺ بالمسير إلى بيت المقدس فى ساعة من الليل.

١٨- وانقاد الجن لسليمان وكانت تعتاض عليه حتى يصفدها ويعذبها، وانقاد له ﷺوآمن به.

١٩- وذللت له الوحوش، فقد روى أنه ﷺ أرسل معاذاً إلى بعـــض النواحـــى فاعترضه أسد فى إحدى الغابات ولم يستطع الرجوع، فصاح به: أنـــا رســـولُ رسولِ الله. فذل الأسد له وتمسح به.

٢٠- وأطعم الخلق الكثير من الطعام القليل.

٢١- ورفع إدريس عليه السلام مكاناً علياً، ورفع ﷺ إلى قاب قوسين أو أدنى.

٢٢- وأوتى هود عليه السلام الريح، وقد نصر بها ﷺ فى غزوة الخندق.

٢٣- وأوتى إسماعيل عليه السلام الصبر على الذبح، وأبلغ منه شق صدره ﷺ لأنه وقع حقيقة والذبح لم يقع، وأوتى الفداء من الذبح وكذلك عبد الله أبو النـــبى ﷺ، وأوتى زمزم وكذلك عبد المطلب جد النبى (، وأوتى العربية وجـــاء أن عمـــر

ﷺقال: يا رسول الله مالك أفصحنا و لم تخرج من بين أظهرنا؟ قال: كانت لغة إسماعيل درست فجاء بها جبريل فحفظنيها.

٢٤- أعطى يوسف من الحسن ما فاق به الأنبياء والمرسلين بل والخلق أجمعين، وأوتى (من الجمال المحلى بالهيبة ما لم يؤته أحد، و لم يؤت يوسف إلا شطر الحسن وأوتى ﷺجميعه.

٢٥- وأوتى يوشع عليه السلام حبس الشمس حين قاتل الجبارين، وقد حبست له ﷺفى الإسراء، وأعجب منه رد الشمس حين فات عصر علىّ كرم الله وجهه.

إلى غير ذلك من فضائله ﷺ التى لا حد لها ولا نهاية، فكل ذلك برهان ساطع على فضائله ﷺ، وعلى ما خصه الله به وحباه.

والبدر شق له والضب خاطبه	والماء يجرى بكف المصطفى نهراً
والجذع حن له كيما يلامسه	والعين ردت وفضل الله قد أجرى
والرمل سبح ينبئنا بأن له	قدراً عظيماً بهذا العقل لا يدرى
نطق الذراع وتسليم النبات ضياً	يهدى به الله من قد يسمع الذكرا
فى كل سفر من الأسفار آيته	تتلى من الأنبيا ولنا لقد تقرا
قد أعجزت آيه الألباب كثرتها	لم تحص عدا وتلك الآى تستقرى
لا تعجبوا فهو خير الرسل قاطبة	وهو الشفيع وفضل الله والبشرى

نسأل الله أن يمنحنا محبته، ويجملنا باتباع سنته والتمسك بشريعته، وأن يهب لنا من أنوار ذكرى مولده الشريف قسطاً وافراً تستضىء به قلوبنا، وتنشرح

له صدورنا، ويجمل به ظاهرنا وباطننا، إنه مجيب الدعاء.

باب عن القريبين منه ﷺ

١- أولاده ﷺ

لا خلاف أن جميع أولاده ﷺ من السيدة خديجة بنت خويلد سوى إبراهيم فمن مارية بنت شمعون القبطية.

عن ابن عباس قال: كان أكبر ولد رسول الله ﷺ القاسم، ثم زينب، ثم رقية، ثم عبد الله ويسمى الطيب ويقال له الطاهر أيضا، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة وكانت أصغرهم من خديجة، فتوفى القاسم - وهو أول متوفى من ولده بمكة - ثم توفى عبد الله فقال العاص بن وائل السهمى: قد انقطع نسله فهو أبتر، فأنزل الله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر * فصل لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر﴾ (سورة الكوثر). وشانئك، أى: مبغضك هو الأبتر من كل خير. قال: وكانت خديجة إذا ولدت ولدا دفعته إلى من يرضعه، فلما ولدت فاطمة لم يرضعها غيرها. قال: ثم ولدت له مارية بالمدينة إبراهيم فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة، فتوفى ابن ثمانية عشر شهرا. وقيل: ستة عشر شهرا. وقيل: سبعة عشر شهرا.

السيدة زينب عليها السلام

قال عبد الرزاق عن ابن جريج: كانت زينب أكبر بنات رسول الله ﷺ، وكانت فاطمة أصغرهن وأحبهن إلى رسول الله ﷺ، وتزوجت السيدة زينب بابن خالتها هالة بنت خويلد أبى العاص بن الربيع فولدت منه عليا - توفى فى سن المراهقة - وأمامة، وهى التى كان رسول الله ﷺ يحملها فى الصلاة، فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها، وقد تزوجها على ابن أبى طالب كرم الله وجهه بعد وفاة السيدة فاطمة تنفيذا لوصيتها.. ومن بعده تزوجها المغيرة بن نوفل بن

الحارث بن عبد المطلب وليس لها عقب. وكانت وفاة السيدة زينب فى سنة ثمان، وقد تقدم أنها لما هاجرت دفعها رجل فوقعت على صخرة فأسقطت حملها، ثم لم تزل وجعة حتى توفيت، فكانوا يرونها شهيدة.

السيدة رقية والسيدة أم كلثوم عليهما السلام

فالأولى تزوجها أولاً ابن عمها عتبة بن أبى لهب، كما تزوج أختها أم كلثوم أخوه عتيبة بن أبى لهب، ثم طلقاهما قبل الدخول بهما بغضة فى رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿تبت يدا أبى لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى ناراً ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * فى جيدها حبل من مسد﴾ (سورة المسد).

فتزوج سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه رقية، وهاجرت معه إلى أرض الحبشة، ويقال: إنه أول من هاجر إليها بأهله، ثم رجعا إلى مكة وهاجرا إلى المدينة وولدت له ابنه عبد الله فبلغ ست سنين، فتوفى وكان يكنى به أولاً، ثم اكتنى بابنه عمرو، وتوفيت عليها السلام وقد انتصر رسول الله ﷺ ببدر يوم الفرقان يوم التقى الجمعان. ولما أن جاء البشير بالنصر إلى المدينة — وهو زيد بن حارثة — وجدهم قد دفنوها. وكان عثمان قد أقام عليها يمرضها بأمر رسول الله ﷺ وضرب له بسهمه وأجره، ولما رجع ﷺ زوجه بأختها أم كلثوم أيضاً فى شهر ربيع من العام الثالث للهجرة ولهذا كان يقال له ذو النورين، وظلت معه ست سنوات حتى توفيت عنده فى شعبان سنة تسع ولم تلد له شيئاً. وقد قال رسول الله ﷺ: لوكانت عندى ثالثة لزوجتها عثمان. وفى رواية: لو كن عشراً

لزوجتهن عثمان .

السيدة فاطمة عليها السلام

سيدة نساء العالمين، شديدة الاعتزاز بانتسابها إلى أبيها، مفطورة على يقين التدين، ريحانة رسول الله ﷺ، آخر من بقى من أولاده على قيد الحياة، فشهدت انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وكانت أول من لحق به ﷺ.. وكان النبى ﷺ لا يصبر عن رؤيتها، ولا يبطىء عن زيارتها، ولا يطيق بعده عنها، فكثيراً ما يذهب إليها ويجلس عندها ويطيل الجلوس، ويشاركها شئونها، ويحمل عنها أولادها، ويسألها عن مكنون سرها ودخيلة أمرها .

تزوجها ابن عمها على بن أبى طالب سنة اثنتين، فولدت له الحسن والحسين، ويقال: ومحسن، وولدت له أم كلثوم وزينب . وقد تزوج عمر بن الخطاب فى أيام ولايته بأم كلثوم بنت على كرم الله وجهه من فاطمة، وأكرمها وأصدقها أربعين ألف درهم لأجل نسبها من رسول الله ﷺ، فولدت له زيد بن عمر ورقية . ولما توفى عمر تزوجها بعده ابن عمها عون بن جعفر فتوفى عنها، فخلف عليها أخوه محمد فتوفى عنها، فتزوجها أخوهما عبد الله بن جعفر فتوفيت عنده . وقد كان عبد الله بن جعفر تزوج بأختها زينب بنت على وقد أثمر زواجها المبارك من ابن عمها ثمرته اليانعة، فولدت أربعة بنين هم على وعون وعباس ومحمد، كما ولدت فتاتين هما أم كلثوم وأم عبد الله، فكان هؤلاء الأبناء نوراً ساطعاً بالعلم والحكمة، وجميعهم توفى دون عقب إلا علياً وأم كلثوم، فقد بارك الله فيهما، وجعل الخير فى نسلهما، والبر فى عقبهما، والفقه

فى ذريتهما، وقد توفيت عنده أيضا ودفنت بالقاهرة رضى الله عنها. وانتقلت السيدة فاطمة بعد رسول الله ﷺ بستة أشهر على أشهر الأقوال، وهذا الثابت عن عائشة فى الصحيح.

أسماؤها وألقابها وكنيتها

١- فهى فاطمة: قال رسول الله ﷺ للسيدة فاطمة: (يا فاطمة، أتدرين لم سميت فاطمة؟ قال الإمام على: يا رسول الله، لم سميت فاطمة؟ قال: إن الله عز وجل قد فطمها وذريتها من النار يوم القيامة).

٢- لقبت بالزهراء: لأنها كانت نورانية اللون، وعن جعفر بن محمد بن على ﷺ - عن أبيه - قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام، عن فاطمة لم سميت الزهراء؟ فقال: لأنها كانت إذا قامت فى محرابها يزهو نورها لأهل السماء، كما يزهو نور الكواكب لأهل الأرض. وقيل: إنه حين وضعتها السيدة خديجة رضى الله عنها حدث فى السماء نور زاهر لم تره الملائكة قبل ذلك اليوم. وقيل: إنها سميت الزهراء لأنها كانت لا تحيض، وإذا ولدت طهرت من نفاسها بعد ساعة حتى لا تفوتها صلاة.

يا بنى الزهراء أنتم عترتى   أنتم ذخرى وكنزى ونجدتى

يا بنى الزهراء من أمكم   راجيا يحظى بنيل النعمة

يا بنى الزهراء حبى لكم   طمأن القلب بنور الحجة

يا بنى الزهراء لى أمل ولى   نسبة صحت بنور حقيقة

يا بنى الزهراء المودة سادتى | فى القرابة نص محكم آيـــة
ودّكم يا آل طه أرتجـــى | أسعدوا مضنى بمعنى النسبة
يا بنى الزهراء كفاكم شرفاً | آية القرآن فرحى بهجتـــى

٣- لقبت بالمحدثة: لأن الملائكة كانت تهبط من السماء فتناديها، كما كـــانت تنادى مريم ابنة عمران عليهما السلام.

٤- لقبت بالصدِّيقة والمباركة والطاهرة والزكية والراضية والمرضـــية: وهـــى آيات على ما اتسمت به عليها السلام من الصـــدق، والبركـــة، والطـــهارة، والعفـــة، والرضا، والطمأنينة.

٥- لقبت بالبتول: لانقطاعها عن نساء زمانها فضلاً ودينـــاً وحســباً — لأن البتـــل لغة هو القطع — وقيل: لانقطاعها عن الدنيا إلى الله تعالى. وعن عمـــر بن علىّ رضى الله عنهما: أن النبى سئل عن البتول وقد قيل له: سمعناك يا رسول الله تقول مريم بتول، وفاطمة بتول، فما ذاك؟ فقال: (البتول التى لم تـــر حمـــرة قط)، أى: لم تحض. وعن أسماء بنت عميس قالت: قـــال لى رســـول الله ﷺ وقد كنت شهدت فاطمة قد ولدت بعض ولدها، لم أر لها دماً، وسألته فقـــال: (يا أسماء، إن فاطمة خلقت حورية إنسية، أمـــا علمـــت أن فاطمـــة طـــاهرة مطهرة؟).

إلى البتول بمولاى الحسين لقد | توسل الفرع فى نيلى وإمدادى
وبالبتول إلى طـــه الحبيب لقد | تشفع الفرد فى وردى وإسعادى

٦- كنيت بأم أبيها: قال بعض العلماء: وذلك لأنها كانت أصغر بنات الرسول ﷺ، ولأنها كانت فى البيت وحدها بعد وفاة السيدة خديجة، فتولت رعاية الرسول ﷺ والسهر عليه.

وعندى: إنه من الطبيعى أن تكون الزهراء أما للرسول ﷺ فى رسالته لا فى ولادته، ولعله لأمر قد قدر، فالنبى ﷺ على علم من أنه لن يعقب إلا من الزهراء، فستكون هى التيار الذى يحمل نوره الفياض، عن طريق الورثة المحمديين فكان يعاملها معاملة الأم، فيقبل يدها ويخصها بالزيارة عند كل عودة منه إلى المدينة، فهو ﷺ لا يهب الألقاب عبثا ولا يمنح الكنى تشهيا، وإنما هى الحكمة تضع الشىء موضعه، وسيان فى هذا للعمود من النور المتطاول برأسه إلى عنان السماء أن تكون السيدة فاطمة بنتا لأبيها وأما له، وسيان فى دوحة الشرف أصل وفرع، مادام الجميع يهب من إشعاعه وتدفقه ما يعجز الغير عن اللحوق به.

بلاغتها وفصاحتها وفلسفتها

أوتيت الزهراء عليها السلام حظا عظيما من الفصاحة والبلاغة، فكلامها متناسق متشاكل الأطراف، تملك القلوب بمعانيه، وتجتذب النفوس بمحكم أدائه ومبانيه، فهى فى البيان من أغزر القوم مادة،وأطولهم باعا، وأمضاهم سليقة، وأسرعهم خاطرا، وإنه يتبين ذلك خاصة فى هذه الخطبة :

فبعد أن حمدت الله وأثنت عليه وصلت على أبيها.. التفتت إلى أهل المجلس وقالت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه، وأمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم، وزعيم حق له فيكم، وعهد قدمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم، كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، بينة بصائره، منكشفة سرائره، متجلية ظواهره، مغتبط به أشياعه، قائد إلى الرضوان اتباعه، مؤد إلى النجاة استماعه، به تنال حجج الله المنورة، وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذرة، وبيناته الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة، فجعل الله الإيمان تطهيرا لكم من الشرك، والصلاة تتريها لكم من الكبر، والزكاة تزكية للنفس، ونماء فى الرزق، والصيام تثبيتا للإخلاص، والحج تشييدا للدين، والعدل تنسيقا للقلوب، وطاعتنا نظاما للملة، وإمامتنا أمانا من الفرقة، والجهاد عزا للإسلام، وذلا لأهل الكفر والنفاق، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مصلحة للعامة، وبر الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام منسأة فى العمر، والقصاص حقنا للدماء، والوفاء بالنذر تعريضا للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازيين تغييرا للبخس، والنهى عن شرب الخمر تتريها عن الرجس، واجتناب القذف حجابا عن اللعنة، وترك السرقة إيجابا للعفة، وحرم الله الشرك إخلاصا له بالربوبية، ﴿فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ (آل عمران: ١٠٢). وأطيعوا الله فيما أمركم ونهاكم عنه ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (فاطر: ٢٨).

فى هذا المقطع الوضاء من الخطبة ترسم السيدة الزهراء الحقيقة الكبرى التى امتاز بها الإسلام عن سواه من الشرائع فى كونه عقيدة ونظاما ومنهجا،

طـــرق باب كل مشكلة من مشكلات الحياة الإنسانية، وتوفر على حلها بمـــا يتناسب والمصلحة، وبما يتماشى والحكمة.

ويتضح لنا أن السيدة الزهراء عليها السلام قد تحدثت عـــن فلســـفة الإســـلام وأرادت أن ترسم العلل التي من أجلها حددت معالم الرسالة الإســـلامية بهـــذه الصيغة لا بسواها.

خصائصها ومناقبها وفضائلها

١- سيدة نساء الأمة: روى الطبراني قال ﷺ: (إن ملكا من السماء لم يكـــن زارني فاستأذن الله في زيارتي فبشرني، أو قال: أخبرني، أن فاطمة سيدة نســـاء أمتي).

٢- أحب الأهل: روى أبو داود قال ﷺ: (أحب أهلي إلى فاطمة).

٣- نجاتها هي وولدها: روى الطبراني قال ﷺ للسيدة فاطمـــة: (إن الله غـــير معذبك ولا ولدك بالنار).

وعن الإمام علي أنه كان عند رسول الله ﷺ فقال: (أي شيء خير للمـــرأة؟) فسكتوا، فلما رجع، قال للسيدة فاطمة: أي شيء خير للنســـاء؟ قـــالت: لا يراهن الرجال!!

فذكر ذلك للمصطفى ﷺ فقال: (إنما فاطمة بضعة مني) رواه البزار.

وفي قول المصطفى ﷺ: (فاطمة بضعة مني) إشارة إلى أنها تحمـــل خصـــائص وصفات النبي ﷺ التي أفرده ربه بها دون سائر الخلق، ولها من الفضل والعطايـــا

ما لأبيها ﷺ، لأن البضعة هى القطعة من اللحم.

٤- مكانتها: روى البخارى قال ﷺ: (فاطمة بضعة منى "أى جزء منى" فمن أغضبها فقد أغضبنى).

وروى الإمام أحمد: (فاطمة بضعة منى يقبضنى ما يقبضها، ويبسطنى ما يبسطها، وإن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبى).

وروى البخارى بمعناه وأبو داود قال ﷺ: (إن فاطمة وعليا والحسن والحسين فى حظيرة القدس فى قبة بيضاء سقفها عرش الرحمن).

٥- رضا الله لرضاها وغضبه لغضبها: روى الطبرانى قال ﷺ: (يا فاطمة إن الله يرضى لرضاك ويغضب لغضبك).

٦- حسن لقاء الرسول ﷺ لها: روى الإمام أحمد عن أم سلمة قالت: بينا رسول الله فى بيتى إذ قال الخادم: إن عليا وفاطمة بالباب، فقال رسول الله ﷺ: (قومى فتنحى عن أهل بيتى)، فدخل على وفاطمة ومعهما الحسن والحسين، فأخذ الصبيين فوضعهما فى حجره، واعتنق عليا بإحدى يديه وفاطمة بالأخرى، فقبل فاطمة وقبل عليا.

٧- مسئوليتها عن نفسها: قال رسول الله ﷺ: (يا فاطمة بنت رسول الله اعملى خيرا فإنى لا أغنى عنك من الله شيئا يوم القيامة)، فتلك خصوصية تفردت بها السيدة فاطمة، لأن جميع الأمة يوم القيامة فى حاجة إلى شفاعة النبى ﷺ، لأن أعمالهم مهما كثرت لن تدخلهم فى رحمة الله، أما السيدة فاطمة فبعملها لا تحتاج إلى شفاعة، ولما كانت هى بضعته وهو ﷺ يشفع ولا يشفع

فيه، فهى أيضا تشفع ولا يشفع فيها.

٨- إغضاء الجميع حياء عند مرورها يوم القيامة: روى أبو بكر الشافعى قال ﷺ: (إذا كان يوم القيامة ناد مناد من بطنان العرش: يا أهل الجمع نكسوا رءوسكم، وغضوا أبصاركم حتى تمر فاطمة بنت محمد على الصراط، فتمر مع سبعين ألف جارية من الحور العين كمر البرق).

٩- أول من يدخل الجنة: روى ابن سعد عن الإمام على قال: أخبرنى رسول الله ﷺ أن أول من يدخل الجنة أنا وفاطمة، أى: بعده ﷺ.

١٠- أشد الناس شبها برسول الله ﷺ: روى ابن حبان عن السيدة عائشة قالت: (ما رأيت أحدا أشبه كلاما ولا حديثا برسول الله ﷺ من فاطمة، كانت إذا دخلت قام إليها فقبلها، ورحب بها، وأخذ بيديها وأجلسها فى مجلسه. وكانت هى إذا دخل عليها قامت إليه فقبلته، وأخذت بيده، وأجلسته مكانها. فدخلت عليه فى مرضه الذى توفى فيه فأسر إليها فبكت، ثم أسر إليها فضحكت، فقلت: كنت أحسب لهذه المرأة فضلا على النساء فإذا هى امرأة منهن. بينما هى تبكى إذ هى تضحك. فلما توفى رسول الله ﷺ سألتها عن ذلك فقالت: (أسر لى أنه قد حضر أجلى فبكيت، ثم أسر لى أنى أول أهله لحوقا به فضحكت).

وروى الحاكم فى المستدرك عن أنس بن مالك قال: سألت أمى عن صفة فاطمة فقالت: [كانت أشد الناس شبها برسول الله ﷺ، بيضاء مشربة بحمرة لها شعر أسود يتعفر لها.. كانت كأنها القمر ليلة البدر].

١١- تخدمها الملائكة: قال الملا فى سيرته وابن حجر فى الصواعق المحرقة: أنــه ﷺ أرسل أبا ذر ينادى عليا فرأى رحى تطحن فى بيته وليــس معــها أحــد، فأخبــر النبى ﷺ بذلك فقال: (يا أبا ذر أما علمت أن لله ملائكة ســياحين فى الأرض قد وكلوا بمعونة آل محمد).

١٢- يحرم التزوج عليها والجمع بينها وبين ضرة: قال المحب الطبرى: دلــت الأخبار على تحريم نكاح على على فاطمة حتى تأذن.

١٣- أنها لا تجوع: روى البيهقى فى الدلائل عن عمران بن حصين قال: كنت مع رسول الله ﷺ إذ أقبلت فاطمة فوقفت بين يديه فنظر إليها وقد ذهب الــدم من وجهها، وغلبت عليها الصفرة من الجوع، فرفع يده حتى وضعــها علــى صدرها فى موضع القلادة، وفرج بين أصابعه ثم قال: (اللهم مشبع الجماعـــة، وقاضى الحاجة، ورافع الوضيعة، لا تجع فاطمة بنت محمد).

فرأيت الصفرة قد ذهبت عن وجهها وظهر الدم. ثم سألتها بعد فقالت: (مــا جعت بعد ذلك أبدا) رواه الطبرانى فى الأوسط.

١٤- لم تغسل بعد الموت: روى الإمام أحمد وابن سعد فى طبقاته عن ســلمى قالت: اشتكت السيدة فاطمة شكوها الذى قبضت فيه! فكنــت أمرضــها، فأصبحت يوما، وخرج على لبعض حاجته، فقالت: يا أمة أسكبى لى غســلا، فسكبت لها غسلا فاغتسلت كأحسن ما رأيتها تغتسل ثم قالت: اعطينى ثيــابى الجدد، فلبستها، ثم قالت: قربى فراشى وسط البيت، فاضطجعت واســتقبلت القبلة، وجعلت يدها تحت خدها وقالت: إنى مقبوضة وقــد تطــهرت، فــلا

يكشفنى أحد! فقبضت مكانها فجاء على فأخبرته فقال: لا والله لا يكشفها أحد، فدفنها بغسلها.

وكان ذلك ليلة الثلاثاء الثالث من رمضان سنة أحدى عشرة من الهجرة وهى بنت ثمان وعشرين سنة.

وصيتها عليها السلام

أوصت السيدة الزهراء الإمام عليا بثلاث وصايا:

١- أن يتزوج بأمامة بنت أختها زينب رضى الله عنها.

٢- أن يتخذ لها نعشا وصفته له، فكانت أول من غطى نعشها من النساء فى الإسلام.

٣- أن تدفن ليلا، ولم يحضر مع الإمام على سوى الصفوة المختارة من أصحابه.

وما أعظم مناجاتها لربها سبحانه وتعالى:

(اللهم قنعنى بما رزقتنى، واسترنى، وعافنى أبدا ما أبقيتنى، واغفر لى وارحمنى إذا توفيتنى، اللهم لا تفتنى فى طلب ما لم تقدر لى، وما قدرته على فاجعله ميسرا سهلا، اللهم كافئ عنى ولدى، وكل من له نعمة على خير مكافأتك، اللهم فرغنى لما خلقتنى له،ولا تشغلنى بما تكفلت لى به، ولا تعذبنى وأنا أستغفرك، ولا تحرمنى وأنا أسألك، اللهم ذلل نفسى فى نفسى، وعظم شأنك فى نفسى، وألهمنى طاعتك، والعمل بما يرضيك، والتجنب لما يسخطك، يا أرحم الراحمين).

سيدنا إبراهيم عليه السلام

أمه مارية القبطية كما قدمنا، وكان ميلاده فى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة، وكانت قابلته سلمى مولاة رسول الله ﷺ امرأة أبى رافع، فبشر به أبو رافع النبى ﷺ فوهب له عبدا.

ولما بلغ سابعه عق عنه النبى ﷺ وحلق شعره وتصدق بزنته فضة على المساكين، وأخذوا شعره ودفنوه فى الأرض، وسماه. وقد روى عن ابن لهيعة وغيره قال: لما حمل بإبراهيم أتى جبريل فقال: السلام عليك يا أبا إبراهيم، إن الله قد وهب لك غلاما من أم ولدك مارية، وأمرك أن تسميه إبراهيم، فبارك الله لك فيه وجعله قرة عين لك فى الدنيا والآخرة.

وعن أنس قال: توفى إبراهيم ابن النبى ﷺ وهو ابن ستة عشر شهرا. فقال رسول الله ﷺ: ادفنوه فى البقيع فإن له مرضعا يتم رضاعه فى الجنة.

وعن أنس قال: ما رأيت أحدا أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ. كان إبراهيم مسترضعا فى عوالى المدينة عند أم سيف امرأة قين- حداد- يقال له أبو سيف، وكان ينطلق ونحن معه فيدخل إلى البيت وإنه ليدخن، فيأخذه فيقبله ويشمه ثم يرجع.

وعن البراء قال: صلى رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم، وتوفى وهو ابن ستة عشر شهرا وقال: إن له فى الجنة من يتم رضاعه وهو صديق.

ودخل على كرم الله وجهه فى روضته حتى سوى عليه ودفنه، ثم خرج ورش عليها الماء، وأدخل رسول الله ﷺ يده فيها وبكى، وبكى المسلمون حوله حتى

ارتفع الصوت، ثم قال ﷺ: تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول مـــا يغضـــب الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون.

وقال الواقدى: توفى إبراهيم ابن رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء لعشر خلـــون مـــن ربيع الأول سنة عشر، فى بنى مازن بن النجار فى دار أم برزة بنت المنذر، ودفن بالبقيع.

قال الحافظ ابن عساكر: إن الشمس كسفت يوم وفاته، فقال الناس: كســفت لوفاة إبراهيم. فخطب رسول الله ﷺ فقال فى خطبته: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز جل، لا ينكسفان أو ينخسفان لموت أحد ولا لحياته.

٢- أعمامه وعماته ﷺ

أولا: أعمامه ﷺ

كان للنبى عشرة من الأعمام هم:

الحارث، والزبير، وأبو طالب، وحمزة، وأبو لهب، والغيداق، وذو المقوم، وضرار، والعباس، وقثم، والمغيرة. قيل: وقد أسلم منهم اثنان هما حمزة، والعباس رضى الله عنهما، وقد قدمنا فيما سبق أدلة إسلام عمه أبو طالب رضي الله عنه، و لم يثبت أن أحدا من أعمامه كفر بدعوته إلا أبو لهب.

١- البطل الضرغام

سيدنا حمزة بن عبد المطلب

هو: حمزة بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أسد الله وأسد رسوله ﷺ وعمه وأخوه من الرضاعة، أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب، وكنيته أبو عمارة.

وكان له من الولد: يعلى، وعامر، وبنت – وهى التى اختصم فيها زيد وجعفر وعلى – واسمها أمامة. وانفرد الواقدى، فقال: عمارة.

وأمه: هالة بنت أهيب بن عبد مناف بن زهرة، وهى بنت عم السيدة آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ، وهو شقيق صفية بنت عبد المطلب، أم الزبير بن العوام – رضى الله عنهم أجمعين –.

ولد سيدنا حمزة رضي الله عنه قبل رسول الله ﷺ بسنتين، وقيل: بأربع. وكان فارسا من

فرسان قريش وسادتها وأسخيائها المعدودين.

أسلم ﷺ فى السنة السادسة من مبعث رسول الله ﷺ بعد دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، فعز به المسلمون، وثبت لهم بعض أمرهم وهابتهم قريش وعلموا أن حمزة سيمنعهم.

قال محمد بن كعب القرظى: قال أبو جهل فى رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك حمزة فدخل المسجد مغضبا فضرب رأس أبي جهل بالقوس ضربة أوضحته. وأسلم حمزة فعز به رسول الله ﷺ والمسلمون.

لازم سيدنا حمزة ﷺ نصر رسول الله ﷺ وهاجر إلى المدينة، وآخى النبى ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة، وشهد بدرا، وبارز وأبلى فيها بلاء عظيما، وهو صاحب أول لواء عقده رسول الله ﷺ حين قدم المدينة، وقاتل بين يدى رسول الله ﷺ يوم أحد بسيفين، حتى قتل شهيدا، وهو سيد الشهداء ﷺ.

الأحاديث الواردة فى مناقبه:

روى جابر بن عبد الله ﷺ عن النبى ﷺ قال: "سيد الشهداء عند الله يوم القيامة حمزة بن عبد المطلب" (أخرجه الحاكم والطبرانى).

وفى رواية عنه ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "سيد الشهداء حمزة، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله" (أخرجه الحاكم والخطيب البغدادى).

وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: كان حمزة يقاتل فى يوم أحد بين يدى رسول الله ﷺ بسيفين ويقول: "أنا أسد الله"(أخرجه البخارى ومسلم والحاكم)

وعن قيس بن عباد قال: سمعت أبا ذر يقسم: لقد نزلت هذه الآية: ﴿هـذان خصمان اختصموا فى ربهم﴾ (الحج: ١٩)٠ فى على، وحمـزة، وعبيـدة بـن الحارث، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، اختصموا يـوم بدر٠

بارز الثلاثة الأوائل وهم مسلمون الثلاثة الأواخر من المشركين يوم بدر، وقـد قتل المشركون الثلاثة٠

وفـاتـه ﷺ:

استشهد سيدنا حمزة ﷺ فى غزوة أحد، فقتل غدرا بعد أن أبلى بلاء حسـنا، وقتل واحدا وثلاثين رجلا من المشركين، وقصة استشهاده مشهورة أخرجـها البخارى وغيره وقد ذكرناها كاملة عند الحديث عن غزوة أحد٠ وكان ذلـك فى النصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة، وهو فى الثامنة والخمسـين مـن عمره٠

وجاءت شقيقته صفية يوم أحد معها ثوبان لحمزة فلما رآها رسول الله ﷺ كره أن ترى حمزة على حاله، وكان المشركون قد مثلوا به، فبعث إليها ابنها الزبـير يحبسها٠

قال الزبير: فخرجت أسعى إليها فأدركتها قبل أن تنتهى إلى القتلـى، قـال: فلدمت – ضربت ودفعت – فى صدرى وكانت امرأة جلدة، قالت: إليـك – ابتعد عنى – لا أرض لك، قال فقلت: إن رسول الله ﷺ عزم عليـك، قـال: فوقفت وأخرجت ثوبين معها فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخى حمزة، فقـد

بلغنى مقتله فكفنوه فيهما. قال: فجئنا بالثوبين لنكفن فيهما حمزة، فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قتيل قد فعل به كما فعل بحمزة. قال: فوجدنا غضاضة وحياء أن نكفن حمزة فى ثوبين والأنصارى لا كفن له. فقلنا: لحمزة ثوب، وللأنصارى ثوب، فقدرناهما فكان أحدهما أكبر من الآخر فأقرعنا بينهما فكفنا كل واحد منهما فى الثوب الذى صار له.

وحزن عليه النبى ﷺ حزنا شديدا، ووقف عليه حين قتل ومثل به، فجعل ينظر إليه وهو يتألم ويقول: "رحمك الله .. أى عم، لقد كنت، وصولا للرحم، فعولا للخيرات، لن أصاب بمثلك بعد اليوم"

وقد واسى الله عز وجل نبيه ﷺ فى حمزة وإخوانه الشهداء ونهاه عن التمثيل بقتلى المشركين انتقاما لحمزة، وعزاه به وصبره فيه، فقال عز وجل: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون﴾ (النحل: ١٢٦، ١٢٧). وفى حمزة وشهداء أحد نزل قوله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ (آل عمران: ١٦٩).

وذكر ابن الجوزى فى (صفة الصفوة) عن جابر بن عبد الله قال: لما أراد معاوية أن يجرى عينه التى بأحد كتبوا إليه إنا لا نستطيع أن نجريها إلا على قبور الشهداء، فكتب انبشوهم. قال: فرأيتهم يحملون على أعناق الرجال كأنهم قوم نيام، وأصابت المسحاة – المجرفة من الحديد – طرف رجل حمزة فانبعث دما رضى الله عنه وأرضاه.

٢- سيدنا العباس بن عبد المطلب

عم رسول الله ﷺ

هو: أبو الفضل العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ولد قبله بثلاث سنوات.

عن أبي رزين قال: قيل للعباس، أنت أكبر أم النبى ﷺ؟ قال ﷺ: هو أكبر وأنا ولدت قبله (أورده الهيثمى ورجاله رجال الصحيح).

وأمه: نتيلة بنت جناب بن كليب، أول عربية كست الكعبة الحرير. قالوا: سببه أن العباس ضاع وهو صغير فنذرت إن وجدته أن تكسوها، فوجدته ففعلت.

وله من الولد: الفضل وهو أكبر ولده وبه يكنى، وعبد الله وهو الحبر، وعبيد الله وكان جوادا، وعبد الرحمن، وقثم، ومعبد، وحبيبة، وأمهم جميعا أم الفضل واسمها لبابة بنت الحارث بن حزن، وكثير وتمام وصفية وأميمة وأمهم أم ولد، والحارث وأمه حجيلة بنت جندب.

وكان سيدنا العباس ﷺ من سادة قريش فى الجاهلية والإسلام، وكانت إليه السقاية وعمارة المسجد الحرام. حضر مع رسول الله ﷺ بيعة العقبة – حين بايعه الأنصار – فبايعهم النبى ﷺ والعباس آخذ بيده يؤكد له البيعة.

خرج سيدنا العباس ﷺ مع المشركين إلى بدر مكرها فقال ﷺ: من لقى العباس فلا يقتله فإنه خرج مستكرها، وأسره أبو اليسر كعب بن عمرو وفدى نفسه – على الرغم من أنه كان مسلما سرا، وذلك تطييبا لنفوس الصحابة لأن أقاربهم

من المشركين فعلوا ذلك – ورجع ﷺ إلى مكة. وقيل: إنه أسلم قديما وكتم إسلامه وصار يكتب لرسول الله ﷺ بأخبار قريش، وكان عونا للمسلمين المستضعفين بمكة، وأراد أن يهاجر إلى المدينة، فقال له الرسول ﷺ "مقامك بمكة خير".

ثم هاجر قبل فتح مكة بقليل فختم الله به الهجرة كما ختم برسول الله ﷺ النبوة، وشهد الفتح، ويوم حنين ثبت مع رسول الله ﷺ حين انهزم الناس، وكان آخذا بلجام بغلة النبى ﷺ، فأمره النبى ﷺ أن ينادى فى الناس بالرجوع فنادى فيهم – وكان صيتا – فأقبلوا عليه، وحملوا على المشركين فهزموهم.

وكان رسول الله ﷺ يجله إجلال الوالد فيعظمه ويفخمه ويبره، وكانت الصحابة تقدمه وتشاوره فقد كان صاحب رأى سديد، جوادا وصولا لأرحام قريش محسنا إليهم.

قال الزبير بن بكار: كان العباس ثوب لعارى بنى هاشم، وجفنة لجائعهم، ومنظرة لجاهلهم.

وفى ذلك يقول إبراهيم بن هرمة:

وكانت لعباس ثلاث نعدها	إذا ما جناب الحى أصبح أشهبا
فسلسلة تنهى الظلوم وجفنة	تباح فيكسوها السنام المزغبا
وحلة عصب ما تزال معدة	لعار ضريك ثوبه قد تهيبا

وكان عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان رضى الله عنهما يكرمانه ويبجلانه،

فكان العباس ﷺ إذا مر بعمر، أو عثمان – فى أيام خلافتهما – وهما راكبان ترجلا حتى يجاوزهما إجلالا لعم رسول الله ﷺ.

وثبت فى صحيح البخارى وغيره أن عمر بن الخطاب ﷺ كان إذا قحطوا استسقى بالعباس ﷺ فيقول: "اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك اليوم بعم نبينا فاسقنا" فيسقون (أخرجه البخارى).

قال الحافظ بن حجر "فتح البارى": وقد بين الزبير بن بكار فى "الأنساب" صفة ما دعا به العباس فى هذه الواقعة، والقول الذى وقع فيه ذلك فأخرج بإسناد له أن العباس لما استسقى به عمر قال: "اللهم إنه لم يترل بلاء إلا بذنب، ولا يكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بى إليك لمكانى فى نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث" فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس، وكان ذلك عام الرمادة سنة ثمان عشرة.

الأحاديث الواردة فى فضله:

عن سعيد بن جبير قال: أخبرنى ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال: "العباس منى وأنا منه" (أخرجه الترمذى والنسائى والحاكم).

وعن سعيد بن أبى وقاص قال: كنا فى بقيع النخل، فأقبل العباس فقال رسول الله ﷺ: "هذا العباس بن عبد المطلب، أجود قريش كفا وأوصلها" (أخرجه أحمد والبزار).

وعن عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، أن العباس بن عبد المطلب دخل على رسول الله ﷺ مغضبا وأنا عنده، فقال ﷺ: ما أغضبك؟

قال: يا رسول الله ما لنا ولقريش، إذا تلاقوا بينهم تلاقوا بوجوه مبشرة، وإذا لقونا لقونا بغير، قال: فغضب رسول الله ﷺ حتى أحمر وجهه ثم قال: "والذى نفسى بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله". ثم قال: "يا أيها الناس من آذى عمى فقد آذانى فإنما عم الرجل صنو أبيه" (أخرجه الترمذى والنسائى). والصنو: المماثل والمشابه.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ للعباس: إذا كان غداة الاثنين فأتنى وولدك حتى أدعو لك بدعوة ينفعك الله بها وولدك. فغدا وغدونا معه. وألبسنا كساء ثم قال: "اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنبا، اللهم احفظه فى ولده" (أخرجه الترمذى).

وفاته رضي الله عنه:

توفى سيدنا العباس رضي الله عنه بالمدينة يوم الجمعة لأربع عشر خلت من رجب سنة اثنتين وثلاثين وكان فى نحو الثامنة والثمانين من عمره، وصلى عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه ودفن بالبقيع رضي الله عنه وأرضاه.

ثانيا: عماته ﷺ

كان لرسول الله ﷺ ست عمات هن: أم حكيم وهى البيضاء، وبرة، وعاتكة، وصفية، وأروى، وأميمة. أسلمت صفية، واختلف فى إسلام أروى وعاتكة. قال محمد بن سعيد: أسلمتا وهاجرتا إلى المدينة، وعاتكة هى التى رأت رؤيا غزوة بدر وقصتها مشهورة، ولم يثبت أن واحدة من عماته ﷺ كفرت بدعوته.

السيدة صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ

أما السيدة صفية فهى بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، عمة رسول الله ﷺ وشقيقة أسد الله حمزة، وأم الزبير بن العوام حوارى رسول الله ﷺ، صحابية شجاعة شاعرة.

كان أول من تزوجها الحارث بن حرب بن أمية، أخو أبى سفيان بن حرب، ثم هلك عنها وتزوجها العوام بن خويلد، أخو سيدة النساء خديجة بنت خويلد، فولدت له: الزبير والسائب وعبد الكعبة.

والسائب: صحابى، شهد بدرا والخندق وغيرهما واستشهد باليمامة ولا عقب له كما فى الإصابة.

كانت رضى الله عنها من المهاجرات الأول، وقد أجمعوا على إسلامها بين عماته ﷺ، قال الذهبى: "وما أعلم من أسلمت.مع حمزة أخيها إلا أم الزبير وولدها".

ويوم أحد استشهد أخوها حمزة — سيد الشهداء – فوجدت على مصرعه، وكانت من الصابرات المحتسبات.

ويوم الخندق: كانت فى حصن حسان بن ثابت فنزلت من الحصن وقتلت يهوديا بعمود.

عن عروة بن الزبير رضى الله عنهما عن صفية الهاشمية قالت: "أنا أول امرأة قتلت رجلا: كنت فى فارع – حصن حسان بن ثابت – وكان حسان معنا فى النساء والصبيان حين خندق النبى ﷺ.

قالت السيدة صفية: فمر بنا رجل من يهود، فجعل يطيف بالحصن فقلت لحسان: إن هذا اليهودى بالحصن كما ترى، ولا آمنه أن يدل على عوراتنا، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه فقم إليه فاقتله".

قال: "يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا".

قالت صفية: "فلما قال ذلك ولم أر عنده شيئا احتجزت، أى: شدت وسطها، وأخذت عمودا من الحصن ثم نزلت إليه فضربته بالعمود حتى قتلته ثم رجعت إلى الحصن" فقلت: "يا حسان انزل فاسلبه فإنه لم يمنعنى أن أسلبه إلا أنه رجل" (أخرجه الحاكم والهيثمى والطبرانى).

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: لما نزلت: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ (الشعراء: ٢١٤). قام النبى ﷺ فقال: "يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بنى عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئا. سلونى من مالى ما شئتم" (أخرجه مسلم والترمذى والنسائى).

وهى رضى الله عنها القائلة تندب رسول الله ﷺ بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى:

عين جودى بدمعة وسهود ... واندبى خير واصل مفقود
واندبى المصطفى بحزن شديد ... خالط القلب فهو كا لمعمود
كدت أقضى الحياة لما أتاه ... قدر خط فى كتاب مجيد
فلقد كان بالعباد رؤوفا ... ولهم رحمة وخير رشيد
رضى الله عنه حيا وميتا ... وجزاه الجنان يوم الخلود

توفيت السيدة صفية رضى الله عنها فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ سنة عشرين، ولها بضع وسبعون سنة، ودفنت بالبقيع رضى الله عنها وأرضاها.

٣- زوجاته ﷺ

مقدمة:

خلق الله الإنسان ليكون خليفة عنه جل جلاله، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه، خلق سبحانه ملكه بيد واحدة، وملكوته بيد واحدة، والإنسان بيديه، ليظهر جل جلاله بعجائب قدرته وغرائب حكمته ظهورا تقوم به الحجة على أنه القادر الحكيم سبحانه، المتره عن الزوجة والولد والوالد، خلق سبحانه الإنسان على صورة الرحمن، فهو جل جلاله الواحد الأحد، المنفرد بالأحدية، المتره عن الكثرة والاحتياج، فهو سبحانه وتعالى المنفرد بالواحدية دون غيره، والإنسان وإن كان خلقه الله على صورة الرحمن، إلا أنه جل جلاله فطره على الضرورة والمثنوية، فالله هو الغنى الذى لا يفتقر إلى شىء.

والإنسان يغنى ويفتقر، ويعز ويذل، ويقوى ويضعف، ويقدر ويعجز، ويحيا ويموت، ويعين ويعان، ويعلم ويجهل، ويضل ويهتدى، قهره الله تعالى على حقيقة العبودية – وإن نسيها – وجعله مضطرا فى كل نفس إلى عناية ومعونة – وإن غفل عن نشأته الأولى والآخرة – ومن دلائل احتياجه واضطراره وافتقاره أن خلق له بطنا يأكل ويتغوط، وجعله يقهر بالنوم فى كل يوم، وجعل جسمه أصغر الأجسام، قال سبحانه: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ (غافر: ٥٧). فهو فوق الملائكة قدرا إذا زكت نفسه، وأسفل من الشياطين إذا دساها.

بين له سبحانه وتعالى سبيل الخير والشر، وأمره بما فيه خيره فى الدنيا والآخرة،

ومنحه الحرية والإرادة قال تعالى: ﴿فمن شاء فليؤمن ومـــن شــاء فليكفــر﴾ (الكهف: ٢٩)٠ ومن دلائل اضطراره وحجج احتياجه أن خلق له من نفســه زوجة، هى هو فى الحقيقة ونفس الأمر، ولذلك جعل له أنسا بها وسكونا إليـها، فهى كالأرض للإنسان وهو كالبذر لها، قال تعالى: ﴿هو الذى خلقكــم مــن نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ (الأعراف: ١٨٩)٠

فالمرأة حجة على أن الرجل عبد لله، والرجل حجة على أن المرأة أمــة لله، لمــا لكل نوع من الحاجة إلى الآخر، الدالة على الذل والاحتياج، فهى محل أنســه وهو محل أنسها، وهى أرض الأشجار الإنسانية، وبستان مشاهد عجائب القدرة والحكمة العلية٠

حكمة تعدد الزوجات:

لا شك أن من لا يشهد الشمس ضحوة أشد عمى من كل أعمى، وكذلك من ينكر الفضائل الكاملة يكون أضل الخلق أجمعين٠ ينكرون على الإسلام تعــدد الزوجات، وإن التلميذ المبتدىء يعلم حق العلم أن الدين الذى يدين به جميــع الناس يجب أن يكون جامعا لما لا بد للعمران منه، وخصوصا ما يحفظ النــوع الإنســانى من الفناء٠

أنت أيها المنتقد تجهل سر الحكمة فى إباحة تعدد الزوجات، كما تجهل أســرار الحكمة فى المجتمع الإنسانى، وتجهل الوسائط التى بها بقاء هــذا النــوع وقــوة التعاضد والتعاون مما لولاه لفسد العمران الإنسانى٠

الأساس الأول: من البديهى أن الإنسان لا يمكنــه أن يقــوم لنفســه بكــل

حاجياتـــه، وأن الإنسان معرض لأمراض كثيرة، وأكثر الأمـــراض تكـــون فى الرحم، وأن أمراض الأخـــلاق أضر من أمراض الأبدان، وأن الوالديـــن قـــد يقهران البنت أو الولد على من لا تميل إليه أو من لا يميل إليـــها. وأن افتتـــاح العشرة لا تظهر فى مبدئها حقيقة الأخلاق. لأن الأخلاق السـيئة كامنـــة فى النفس يخفيها الإنسان تكلفا عند الضعف، كما أن الأمراض يخفيـــها الإنســـان تكلفا بالتجمل. ولو أن الحكم الإلهـــى يوجب أن الإنسان إذا تزوج امـــرأة لا يفارقها إلا بالموت ولا تفارقه هى إلا بالموت، لكان ذلك سببا فى البؤس وتعاسة الحياة وتؤول بخراب العمران.

تلك الأساسات التى ذكرتها لك تنتج أن الرجل إذا تزوج امرأة مريضة برحمـــها عاش معها معذبا مما يتحمله من مرضها محروما من الذرية. وإذا تزوجت المـــرأة رجلا عقيما أو عنينا لا يمكنها أن تحفظ نفسها، أو تعيش تعيســـة فى مـــرض وحزن وهم.

وبحقك أيها المنتقد لو أن كل إنسان تزوج واحدة وكثر النســـاء فى العـــالم ولم يجدن لهن من يتزوجهن أيحفظن دينهن أو يحافظن على شرفهن؟.

لم يكن السر فى تعدد الزوجات إلا حفظ النسل أولا بأنه إذا تزوج الرجل امرأة وتحقق له طبا أنها لا تلد، فالدين لا يمنعه أن يتزوج أخرى وله أن يبقـــى الأولى معه وفاء أو يطلقها. وقد اشترط الدين لتعدد الزوجات شروطا: منها العـــدل فى مساواتهن، والوسعة التى بها يقوم بنفقتهن وتربية أولاده منهن، وحسن المعاشـــرة التى تطيب بها حياتها معه. قال الله تعالى: ﴿فإن خفتم ألا تعدلـــوا فواحـــدة﴾

(النساء: ٣)، وقال تعالى: ﴿فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف﴾ (الطلاق: ٢)، وقال تعالى: ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ (البقرة: ٢٣٧)،

أمرنا الله تعالى أن لا نضيق على المرأة بالعضل بأن نضايقهن ليتركن حقوقهن بعد الطلاق، أمرنا الله تعالى أن ننفق عليهن بعد الطلاق، وأن نعطيهن ما لهن عندنا من الصداق، وأن تدوم النفقة حتى يتحقق عدم الحمل، فإن كانت حبلى وجبت عليه النفقة حتى يبلغ الولد سبع سنين والبنت تسع سنين،

الأساس الثاني: الإنسان فى حاجة للتعاون، وأكمل من يعينه أقاربه وأصحابه، فقد يتزوج الرجل من العائلة ليكون أولاده أهل شرف وعصبة، وقد يتزوج ليكون أولاده أصحاء أقوياء البنية، وقد يتزوج لتكون الزوجة معينة له على دينه ودنياه، وقد يتزوج لتكون الزوجة مدبرة لمنزله مربية لأولاده، والمعانى المعقولة التى ترجح تعدد الزوجات محسوسة راجحة، والحقيقة أن الإنسان إذا تزوج امرأة أخرى هى كالأولى لا تتفاوت عنها لم ينصف، ولما كان الدين الإسلامى يوجب العمل والنشاط على كل مسلم ويجعل أول واجب التعليم، كان ولا شك كلما كثر النسل انتشرت الفضائل وعمت الخيرات،

لا تعجب فأكثر أهل أوربا تلاميذ دارون، وقد كادت تلك الحقيقة تكون مقررة فى أذهان نصارى الشرق، لأن تعاليم الدين المسيحى ترغب فى العيشة الحيوانية، وهم يعتقدون أنه ابن الله فلم يرغبهم فى العيشة الحيوانية إلا ليرجعهم إلى أصولهم،

ولما كان الدين المسيحى أوجب على الناس ترك الدنيا وكرههم فى العمل لها

فيها، وأخبر أن الغنى لا يدخل الملكوت، ولم يتزوج أمام تلاميذه ولم يأمر أحـدا منهم بالزواج، وكان يتناول طعامه من أيدى الناس بلا عمل، كان ولا بـد أن يأمر بترك الزواج مرة واحدة أو بتزويج واحدة فقط، وإلا مات الناس جوعـا، لأنه لم يأمر بتعليم الصناعة والحرف ولا بالزراعة ولا بالعمل مطلقا للدنيا فيها. فكأن دين المسيح دين الكسل والبطالة والرهبانية، وسكنى الغابات والكهوف. ولذلك ترى أن أهل أوربا لما أشرقت عليهم أنوار العلوم الإسلامية والعمـل فى الدنيا، وقام أهل الأفكار منهم وطالعوا التعاليم المسيحية التى تحتم علـى بنى الإنسان أن يترك الحضارة والمدنية والتمتع بنعم الله من الائتـلاف والتعـاون، حكم أن أصل الإنسان قرد، وأنه لا بد وأن يؤمر بالرجوع إلى ما كان عليه من العيشة فى الكهوف والغابات وترك استكشاف أسرار الكائنـات وخواصـها للانتفاع بها، وإلا ما الذى دعا دارون أن يقول: إن أصل الإنسان قرد، ويقـوم مبرهنا بالبراهين التى تنبىء عن فساد قواه العقلية واختـلال تركيـب أمزجتـه وضعف المجموع العصبى.

أستغفرك اللهم من حكاية أقوال من لا يعقلون، وأعوذ بوجهك الكريم مـن أن أقصد الشر لأحد من بنى الإنسان. اللهم وأنت سبحانك تعلم لا غـيرك أنى لا أريد إلا الخير، فأنزل يا إلهى بيانى هذا من قلوب الذين ينتقدون علينا منزلته مـن قلبى من القبول، واحفظنى

يا إلهى بحفظك من شرهم وكيدهم ومكرهـم، إن قـدرت سـبحانك عـدم هدايتهم. إذ تقرر هذا الأمر، أبين لك أيها المنكر ما يمكنك أن تفهمـه مـن حكمة تعدد زوجات رسول الله ﷺ.

حكمة تعدد الزوجات لرسول الله ﷺ:

اعتقد معى أنه رسول لجميع الخلق، وأنه خاتم الأنبياء، وأنه أرسله الله على فترة من الرسل بين جاهلية عمياء، وأمم ظلمة، ومدن فاسقة، وملوك جبابرة. وهو الذى يضع الحرب كما بشر به المسيح الذى قال: ما جئت لأضع حربا ولكنى جئت لأضع سلاما، والذى يأتى من بعدى يحصدهم بالسيف، أو كقوله عليه السلام. وكان الرسل قبل رسول الله ﷺ يبعثون لأممهم فقط، وأرسله الله تعالى للناس كافة، فكان لابد أن يكون له ﷺ حزب قوى متماسك متحد اتحادا بكل معنى الكلمة من أوجه الاتحاد كلها: من جهة الدين، ومن جهة الألفة، ومن جهة القرابة، ومن جهة النسب.

فحقق الله تلك الرابطة القوية بالدين وباللغة، فكان يتكلم مع كل قبيلة بلغتها، ثم أكمل الله تلك الرابطة بما أباحه له ﷺ من تعدد الزوجات بوسعة، فتزوج ابنة أبى بكر الصديق وابنة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، وزينب بنت جحش للحكمة التى سبقت، وابنة أبى سفيان، وغيرهن ممن كن سببا فى تقوية الروابط الدينية بسبب النسب واتصاله. ومن نظر بعين المفكر العالم الحكيم يتحقق أن تعدد الزوجات للنبى ﷺ من علامات النبوة، وأكمل دليل على أنه خاتم الرسل، وأنه المبعوث للناس كافة بشيرا ونذيرا، وكيف يخفى على إنسان يعقل البديهى حكم هذا الحكم؟.

وقد مكث ﷺ راضيا بزوجة واحدة مدة عشرين سنة تقريبا وهو فى ريعان الشباب وراحة البدن وصفاء الوقت، ولم يتزوج السيدة عائشة رضى الله عنها

والسيدة حفصة وغيرهما، إلا بعد بضع وخمسين سنة من عمره الشريف، وهو فى أعظم أوقات العمل وأصعب آنات الصعوبة، وهو بين جهاد بالسيف أو باليد أو باللسان، وبين تقرير أصول الدين وبيان فروعه، وبين تنظيم الجيوش وتزكية النفوس، حيث إن أنفاسه ﷺ كانت أنفس من النفائس. ومن قرأ تاريخه ﷺ بعد الهجرة يتحقق أنه ﷺ، لم يتزوج واحدة من أمهات المؤمنين بعد الهجرة لشهوة أو رغبة فى لذة، ولم يتزوج قبل الهجرة على التحقيق إلا السيدة خديجة عليها السلام قبل البعثة، ومكثت معه ﷺ راضيا بها وراضية به ﷺ، منذ كان عمره الشريف سبعا وعشرين سنة إلى بضع وأربعين. فهل القائم بعظائم الأمور الذى يدعو الخلق أجمعين إلى نجاتهم بالرحمة والرأفة والحرص عليهم، المنصب بكليته على الحق، المجاهد بنفسه منفردا فى سبيل الله إظهارا لدين الله ومحوا للضلال والكفر يتلذذ بغير الحق أو يشتغل نفسا بغيره؟ حاشا أن يخطر على قلب رسول من غير أولى العزم هذا الخاطر، فكيف يخطر على قلب أفضل أولى العزم؟ إنما هى أعمال لحكمة عالية هى من أكمل الجهاد فى الله سبحانه وتعالى. والعاقل يكتفى بأقل إشارة فكيف لا يكتفى بالعبارة؟!

وأرى أن ألحق بهذه المقدمة الحديث عن زوجاته ﷺ بحسب ترتيب الزواج منهن رضى الله عنهن.

أم المؤمنين السيدة خديجة الكاملة الطاهرة

رضى الله عنها

هى أم المؤمنين الأولى السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر .. ومن مفاخر أبيها أنه نازع تبعا ملك اليمن حين أراد أخذ الحجر الأسعد.

أمها – فاطمة بنت زائدة بن الأصم (واسمه جندب) بن رواحة الهرم بن حجر ابن عبد بن معيص بن عامر بن لؤى بن غالب بن فهر.

كانت تدعى فى الجاهلية (الطاهرة). وتسمى أيضا سيدة نساء قريش، واشتهرت رضى الله عنها بالعفة والكرم والنبل والطهارة.

تجتمع مع رسول الله فى النسب الشريف فى قصى من جهة أبيها، وفى لؤى من جهة أمها – فهى قرشية أبا وأما – وهى من أقرب نسائه إليه ﷺ فى النسب، كريمة الأصل، شريفة المنبت، نبيلة الفعال، طيبة المعشر ذات رأى سديد، وفعل حميد، وعمل مجيد رضى الله عنها وأرضاها.

ولدت له ﷺ القاسم وزينب ورقية وعبد الله وأم كلثوم وفاطمة، ولم يتزوج عليها رسول الله ﷺ مدة حياتها امرأة.

نشأت فى بيت سيادة ومجد، وتزوجت مرتين قبله ﷺ، أحدهما مخزومى قرشى هو عتيق بن عابد بن عبد الله المخزومى وولدت له بنتا، والآخر تميمى وهو أبو هالة هند بن زرارة بن نباش التميمى وولدت له ابنها هندا، وقيل: ابنتها هندا.

تأيمت بعد زوجها الثانى وعاشت عقيلة قريش وأشرف نساء مكة تتطلع إليها نفوس السادة، وسادة القبائل، وتخطب ودها العظماء والكبراء الأمجاد، ولكنها رغبت عنهم، وأعرضت فى سماحة أبية، وفى إباء سمح، لا يغض من قدر الخاطبين، ولكنه يقطع آمال المؤملين، وتخلت عن اتخاذ الزوج إلى إدارة مالها الوافر، وتجارتها الواسعة ورعاية أسرتها، وقصرت صلتها برجال مكة على الذين يعملون فى مالها، ويرتحلون بعيرها وقوافلها.

وتمتلىء أندية مكة ودورها بحديث عطر عن سيد كريم أمين من بنى عبد المطلب هو ابن الذبيح عبد الله بن عبد المطلب – سمح سهل مشغول بنفسه عن الناس. له جاه وهيبة، وعليه وقار وحشمة، يحفه التواضع، وتظهر عليه سمات الرفعة والجاه على قلة ماله ورقة حاله، كان أمينا جوادا، حسن الطلعة، سمح المحيا، يألف الناس ويألفونه، ويحبهم ويحبونه، ويلقى الناس دائما بوجه صبيح حسن، ويحدثهم بأعذب الحديث، وأطيب الكلم.

كان على شبابه لا يخالط اللاهين ولا يشارك العابثين، ولا يرد حيث يعاتب أو يلام، يتكلم نزرا، وينطق فصلا، ولا يقول هجرا ولا لغوا، ترعاه العيون بهاء وعزة، وتحوطه القلوب إجلالا ومودة، وتتمنى كل أم أن يكون لها ابنا، أو يكون لها مثله، وتود كل كريمة من كرائم مكة أن يكون لها حليلا، وهو عن أصنامهم مشغول بفكر يتأمل، وعن أنصابهم وأزلامهم محجوب بقلب أبى، وعقل ذكى، وروح قوى، وقد عرفوا من صدقه وبره، ويمنه وفضله ما جعلهم يرجعون إليه فى مهم أمرهم إذا التبست الآراء، ويقبلون حكمه على حداثة سنه إذا اختلفوا فى أمر عظيم.

وتهيأت تجارة خديجة لرحلة تقصد بصرى، وقد ذكر غير مجهول - محمد ابـــن عبد الله الهاشمى - ليقوم فى تجارتها فأثنت ورحبـــت ووعـــدت وأضعفـــت، وأرسلت معه مولاها ميسرة خادما ومعينا، وأوصته أن يرصـــد لهـــا حالـــه، ويعـــرف لها ما تحب أن تعرفه من شأنه فارتحلا بالقافلة.

وكل يوم يرى ميسرة عجبا، من صدقه وبره، وأمانتـــه وكرامتـــه، ويشـــهد الأعاجيب من بركة يده فى المطاعم والمشارب، ويمن نقيبته فى البيع والشـــراء، وتلك الغمامة التى تقفو أثره تظله إن انطلق، وتقف على رأسه إن جلس. وتلك الشجرة التى حنت عليه بجذعها، وانعطفت إليه بظلها، ودهشة الراهب الـــذى رأى ذلك فسأل ميسرة عن هذا المستظل الكريم - وقوله: ما نزل تحت هـــذه الشجرة إلا نبى.

وتمضى أيام الرحلة يحسبها ميسرة خفافا ندية، لا يضنيه ســـعيها، ولا يوحشـــه ليلها، لما يجد من الأنس برفقة هذا السيد الكريم الذى سمته مكة الصادق الأمين، ورآه هو ورأى منه ما ملك عليه قلبه وحير عقله، فـــهو لا يحلـــف بـــاللات والعـــزى كما يحلفون، بل ولا يحلف فى بيع ولا شراء حتى يروج تجارته، وكـــم رأى من التجار قبله من لجاجة وحلف، وهو سمح فى بيعه وشـــرائه واقتضائـــه، بشوش فى نظرته ولقائه، محبب لدى كل من يجالسه أو يخالطه أو يبايعه.

يأخذ النفس منه جلال هادىء، ووقار وسماحة، وكأن قوله خرزات من الـــدر سلكت فى نظام - فلا تجد فيها هجرا ولا فحشا ولا تطاولا.

ويوم عادت القافلة سبق ميسرة إلى مولاته يبشرها، فأطلت مع نسائها من عليـــة

لها فرأته ﷺ على ناقته فى قائم الظهيرة – ومن خلفه القافلة تتهادى والغمامة تظلله .

أتراها سعيدة بعودة هذا السيد الهاشمى النبيل سالما غانما، أم تراها محبورة بأنباء الربح المضاعف والمتجر الفاخر الذى عاد به؟ .

وميسرة يقول ما عنده، ويحدث بما رأى وما سمع، وعن الربح والمال، والرحلة وعجائبها، ولكن قلب السيدة خديجة الطاهرة وعينها الساهمة لا تجد فى وجدانها ولا لحاظها إلا شخصه ﷺ يسعى على مهل حتى يحط فى ساحة دارها ويلتفت محييا مغضيا .. وهى تلقاه فى بهجة تفيض بها روحها، وبشر يسبق تحيتها ومباركتها بسلامة العودة، ويمن القفول، ويوجز لها ﷺ فى بشاشة أنباء سفرته وعائد تجارته، ويؤدى إليها ما استودعته من مالها وتجارتها، ثم يمضى مودعا، غير مستأن .

وخديجة من أسرة تهتم بالشرف، وفى رجالها من كان متحنفا مطلعا على ما فى التوراة والإنجيل، يترقب ظهور نبى قد أظل زمانه، ويوشك أن تشرق أنواره، يبعثه الله من ولد إسماعيل .

ومن مآثر أبيها أنه تصدى لآخر ملوك تبع، ومنعه أن يأخذ الحجر الأسعد يوم حاول تبع أن يأخذه إلى اليمن .

ورغبت رضى الله عنها فى نكاحها منه ﷺ ولكنها كانت ذات تصون وحياء، وكانت تتحرج مما كانت عليه قريش وقبائل العرب من عبادة الأصنام والأوثان، التى عرفت من ابن عمها ورقة بن نوفل أنها لا تضر ولا تنفع، وأنها

تخالف ما فى الحنيفية الأولى التى كان عليها إبراهيم وإسماعيل عليهما السـلام، كما تخالف ما ورد فى التوراة والإنجيل من التوحيد الخالص لله الواحد الأحـد، فهى ترقب مع ابن عمها ورقة ظهور نبى آخر الزمان، الذى بشرت به التـوراة والإنجيل.

وها هى ذى ترى أمامها هذا السيد الأمين ﷺ الذى شغل أندية مكـة بخلقه وصدقه وعظيم سجاياه، كما شغلها بما سمعته من أمره من أحـاديث قريـش وغلامها ميسرة!!

إنه لا يسجد لصنم ولا يتقرب إلى وثن، ولا يعبد ما يعبدون من آلهة، ولا يحلف بما يحلفون، ولا يشاركهم فى إثم، ولا يعاقر خمـرا، ولا يقـارف مجونـا ولا عبثـا.. وكانت تتساءل فى سرها: أيكون هو نبى آخر الزمان؟!!

فإن المتحنثين جميعا يلهجون بعلامات مبعثه، ويتحدثون عن اقتراب ظـهوره، فهل يكون هو؟!!

وتمر الأيام بطيئة ثقيلة، وخديجة فى تساؤلاتها الملحة، وآمالها الباسمة، فلقد ساقت الأقدار إليها أعظم الرجال، ولقد أعدت وصيغت لتكـون زوجـا لـه ﷺ، ويكـون نسله منها رضى الله عنها، ولكن كيف السبيل إلى الظفر بهذا الـزوج الكريم، وماذا تفعل، وماذا تقول، ولمن تبوح بسرها الذى تكتمـه عـن كـل إنسان؟!!

وتلمح صديقتها نفيسة بنت منية شرودها ووجومها وحيرتها وما تخفيه من أمـر نفسها فتسألها عما يدور فى أعماقها.

وتحرجت السيدة خديجة أول الأمر أن تفصح عـــن خواطرهـــا ومشـــاعرها، وراجعتها نفيسة فى إشفاق وإلحاح ودود .. ودار الحديث حول محمد بن عبـــد الله فيم عزوفه عن الزواج؟ ولماذا لم يتقدم لخطبتها كما فعـــل كـــل أشـــراف مكة؟.

فتقول نفيسة: أو يرضيك أن يتقدم إليك محمد بن عبد الله خاطبـــا؟ فتســـكت خديجة ولكنه صمت أبلغ من الكلام .. وتقول نفيسة: يا ابنة العم سيكون لك ما تريدين.

وتنطلق نفيسة تطلب سيد الأولين والآخرين ﷺ حتى وجدته ومعه عمـــار بـــن ياسر فحدثته متسائلة عن انصرافه عن الزواج – وهو زين شباب مكـــة وابـــن سادتها الأمجاد من آل هاشم .. ويجيبها ﷺ: ما عندى ما أتزوج به .. فتقـــول له نفيسة: فإذا كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والشرف فيقول لها: ومن هـــذه؟ فتقول له: خديجة بنت خويلد سيدة نساء قريش.

إنها خديجة الشريفة التى عمل فى تجارتها وعرف نبلها وفضلها، وتطلع الكبراء من قريش إلى اتخاذها زوجة، ورغبتها عنهم، وردها لهم، تعرض نفسها عليه.

ويحدث أعمامه فيسرعون فى تحقيق أمنيته ويلتقى حمزة والعباس وأبـــو طـــالب ويذهبون خاطبين إلى بيت خديجة ويقوم أبو طالب خطيبا .. فكان مما قـــال: "الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضىء – أصـــل – معد، وعنصر مضر، وجعلنا حفظة بيته وسواس حرمه، وجعل لنا بيتا محجوجـــا، وحرما آمنا، وجعلنا الحكام على الناس.

ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به، فإن كان فى المال قل، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، محمد من قد عرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وبذل لها الصداق ما آجله وعاجله من مالى، وهو بعد هذا والله له نبأ عظيم وخطب جليل".

لقد كان لهذه السيدة الجليلة أكبر الفضل وأعظم الأثر فى تهيئة الأجواء المناسبة لهذا النبى العظيم، والرسول الكريم، فلم تشغله بنفسها و لم تضايقه بمطالبها، حتى يكون مع ربه فى خلوته وتحنثه، وكلما عاد إليها شجعته وزودته بكل ما يحتاج إليه فى صبر، وصدق وثقة، ووقفت إلى جانبه برقة مشاعرها وعواطفها الكريمة المتدفقة، حتى فى لحظات تلقى أمر الله وكلماته، جاء موقفها العظيم وعونها الكبير، فقالت قولتها المشهورة: "أبشر، فو الله لا يخزيك الله أبدا، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق".

وكانت أول من أسلم به من الرجال والنساء على السواء.

إنها كلمات عظيمة لسيدة عظيمة، وموقف شجاع لسيدة حكيمة عاقلة ..

و لم تكتف بالتأييد والتثبيت للنبى ﷺ على ما رآه وسمعه، بل انطلقت به إلى ابن عمها ورقة، حتى إذا قص عليه ما كان من أمر الملك حين جاءه فى غار حراء، وما سمع وما رأى فى اللقاء الأول بين السماء والأرض على حين فترة من الرسل، قال ورقة:

"أبشر يا ابن أخى، هذا هو الناموس الذى أنزله الله على موسى، ليتنى أكون حيا

إذ يخرجك قومك من مكة" وكانت إجابة الرسول ﷺ فى تعجب واستغراب: "أومخرجى هم؟"، فرد ورقة بن نوفل: "نعم، لم يأت نبى قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا".. ثم لم يلبث أن توفى ورقة.

يقول ابن إسحاق: "كان رسول الله ﷺ لا يسمع شيئا يكرهه، من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج عنه بخديجة رضى الله عنها إذا رجع إليها تثبته، وتخفف عنه وتصدقه، وتهون عليه أمر الناس حتى توفيت رضى الله عنها".

فقد كانت السيدة خديجة تروح عن قلبه الهموم، وتذهب عن صدره الأحزان بما لها من كياسة وفطنة، وبما وهبها الله من رفق ولين على أنها رضى الله عنها لم تسلم من أذى الكفار، ولم تنج من شرور المشركين، بل لقد نالت من عنتهم حظها وأخذت من شرورهم نصيبها.

دخلت مع المسلمين شعب أبى طالب، فقد أبى الكفار إلا أن يشعلوها حربا حامية لا رحمة فيها: "إن على قريش أن تقاطع بنى هاشم فلا يبيعون لهم ولا يشترون، ولا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم، ولا يتقدمون إليهم أبدا بعون ولا مساعدة، ولا يعرضون عليهم طعاما ولا شرابا، حتى يموتوا جوعا ويهلكوا ظمأ، أو يسلموا محمدا للقتل والهلاك"، ولم يتأخر أحد من عظماء مكة عن الموافقة على هذه الصحيفة، بل لقد رضى بكل ما فيها كبراؤهم ووقع عليها سادتهم ورؤساؤهم ثم علقوها فى جوف الكعبة مبالغة فى الظلم وإسرافا فى الطغيان.

وحوصر بنو هاشم وبنو المطلب فى الشعب وقاطعتهم قريش حتى أجهدهم

الجوع، وأهلكهم الظمأ، و لم يفت السيدة خديجة أن تشارك الرسول فى محنتـــه القاسية وأن تقاسمه فى بلائه العظيم، فوقفت إلى جواره فى داخل الشعب تجـــوع كما يجوع المسلمون، وتقاسى ما يقاسونه، مع أنها سليلة مجد وربيبة نعمــة، ولا عهد لها بهذا الشقاء ولا بتلك الخشونة، ولا يمكنها أن تصبر على هذا البــلاء، أو تحمل هذا العناء، ولكنها أبت إلا أن تنصر الرسول ﷺ، مهما كانت التضحيـــة والفداء، ولقد دام هذا الحصار ثلاث سنين، وكانت فى أثنائها من أقوى النـــاس إيمانا، وأشدهم عزما، وأكملهم يقينا، وأقربهم إلى رضوان الله، وأقدرهم علـــى التضحية، وأصبرهم على البلاء.

والذى لا شك فيه أبدا أن السيدة خديجة كانت من أجل نعم الله على رســوله، فقد هيأها الله عز وجل لتخفف عنه أعباء المهمة الصعبة والحمــــل الثقيـــل فى دعـــوة العرب إلى الإسلام، فتواسيه وتنصره، وتشد عزيمته، وتبعـــث الأمـــل والرجاء فى صدره حتى أدى الرسالة وبلغ الأمانة.

وإذا كان الأمر على هذا فكيف لا تكون السيدة خديجة أحب أزواجـــه إليـــه، يذكرها بالحب والرضى، ويخصها بالمترلة العالية، حتى غارت زوجاته منها بعـــد وفاها، إنها الزوجة التى عاصرت أشد الظروف قسوة على الرسول الكـــريم ﷺ، وأصعب المواقف والأزمات، فنصرت الله ورسوله بمالها ونفسها، وصبرت علـــى الأذى الشديد فما وهنت عزيمتها، ولا لانت قناها، وظلت تبعث الأمل فى قلب النبى ﷺ حتى آخر حياها، وكان من أشد ما صبرت عليـــه حصـــار الشـــعب، وتطليق ابنتيها رقية وأم كلثوم حين أمر أبو لهب ابنيه بتطليقهما إمعانا منـــه فى الكيد للنبى ﷺ، والأذى له.

وقد جاء جبريل بالبشرى لها ببيت من قصب لا صخب فيه ولا نصب جـزاء صبرها وجهادها، وإخلاصها لدينها:

فقد روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة قال: أتى جبريل عليه السلام إلى النبى ﷺ فقال له: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت ومعها إناء فيـه أدم أو طعام أو شراب فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب. فأخبر الرسول ﷺ السيدة خديجة بما قال جبريل، فقالت: "الله هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام".

وقولها رضى الله عنها: (الله هو السلام) يدل على وفور عقلها وكمال معرفتـها بربها، فلم تقل: السلام على الله، بل قالت: (الله هو السلام) لأن الله لا يرد عليه السلام كما يرد على المخلوقين .. لأن السلام اسم من أسمائه، وهو أيضا دعاء بالسلامة، وكلاهما لا يصلح أن يرد به على الله، فجعلت مكان رد السلام عليه، الثناء عليه، ثم غايرت بين ما يليق بالله وما يليق بغيره، فقالت: (وعلى جـبريل السلام). وكفى بذلك مترلة وتكريما.

وقيل: إنها ماتت شهيدة الإسلام وضحية الجهاد إذ أنها لم تخرج من الشـعب إلا وهى معتلـة الجسم منهوكة القوى، حتى لقيت ربها طاهرة وراضية مرضيـة، ففى رمضان من السنة العاشرة بعد البعثة فاضت روحها إلى بارئها تحفها الرحمـة ويتترل عليها الرضوان.

وكان النبى إلى جانبها ينظر إليها وهى تجود بنفسها وتودع بناتها، وكانت رقيـة يومئذ فى الحبشة مع زوجها عثمان، وألقى ﷺ على وجهـها السـمح نظـرة

أخيــرة، ودع فيها الأم الحنون، والزوجة البارة، والشريك الحبيب، وهو الــوفى ﷺ، وهو الرءوف الرحيم فبكى فراقها كثيرا ثم قام بدفنها فى الحجــون ونــزل معها فى روضتها، ثم عاد إلى البيت ليشارك بناته الثلاث حرارة الفراق .

لقد كانت سندا وعونا فى وجوه الطغاة الذين آذوه ﷺ، واستهزأوا به وسخروا منه، فكان كلما ضاق بهم عاد إلى مترله، يجد هذه السيدة العظيمة هاشة باشــة تستقبله فى فرح، وتلقاه فى سرور، وتحتضنه فى حنان بالغ فتسرى عنه، وتملــؤه بالأمل وتشحذ من همته فيعود إلى جهاده من جديد، وكلماتها الحلوة وعباراتهــا العذبة تتردد أصداؤها فى أذنيه، تشجعه وتسليه وتعزيه، وتقوى مــن عزمــه، وتصبره على المكاره، وتعينه على الثبات على الحق، فكيف لا يكــون الفــراق صعبا؟

بكاها رسول الله ﷺ كما لم يبك أحدا أبدا، وكان عاما حزينــا سمــى عــام الحزن . . وقد أشرنا إلى حكمة ذلك فيما تقدم .

لقد صدقته يوم كذبه الناس، وأيدته يوم حاربه الناس، وأعطته يوم حرمه الناس، وزملته ودثرته وعضدته رضى الله عنها، وظل وفيا لها، حتى أثار حبــه ﷺ لهــا غيرة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما غــرت على أحد من نساء النبى ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها قط، ولكــن كان يكثر من ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها فى صدائق خديجة، وربما قلت له: كأنه لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: "إنهــا كــانت

وكانت، وكان لى منها ولد". وفى رواية لمسلم: "وكان إذا ذبح الشاة يقول: "أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة" قالت: فأغضبته يوما فقلت: "خديجة؟ فقال رسول الله ﷺ: "إنى قد رزقت حبها".

وعنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر خديجة لم يكن يسأم من ثناء عليها واستغفار، فذكرها ذات يوم فاحتملتنى الغيرة، فقلت: لقد عوضك الله من كبيرة السن. قال: فرأيت النبى ﷺ غضب غضبا شديدا، وسقطت من جلدى، فقلت: "اللهم إنك إذا أذهبت غضب رسولك عنى لم أعد لذكرها بسوء ما بقيت". قالت: فلما رأى رسول الله ﷺ ما لقيت، قال: "كيف قلت؟ والله لقد آمنت بى إذ كذبنى الناس، وآوتنى إذ رفضنى الناس، ورزقت منها الولد وحرمتموه منى" قالت رضى الله عنها: فغدا وراح على بها شهرا" (أخرجه الطبرانى وأحمد والهيثمى).

وجاءت أخت السيدة خديجة وكان اسمها هالة، ففرح بها النبى ﷺ، فقد كان صوتها يشبه صوت السيدة خديجة رضى الله عنها وأحست أم المؤمنين عائشة بغيرة، فقالت: "وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت فى الدهر بدلك الله خيرا منها".

وهنا يتمثل الوفاء الصادق، والود الخالص، فعلى الرغم من محبته ﷺ لأم المؤمنين عائشة، وهى زوجته البكر الصغيرة الحسيبة النسيبة، إلا أنه لم يقبل فى السيدة الكريمة خديجة أية كلمة ولو مزاحا، ولهذا فقد غضب ﷺ، وقال فى وفاء لتلك السيدة العظيمة، وإعزاز:

"لا والله ما أبدلنى الله خيرا منها..

لقد آمنت بى حين كفر بى الناس..

وصدقتنى حين كذبنى الناس..

وواستنى حين حرمنى الناس..

ورزقنى الله منها ولدا، ولم يرزقنى من سواها". (أخرجه أحمد والطبرانى).

هنا بلوغى آمالى هنا البشرى — أنا لها فى مقام خديجة الكبرى

وفدت والقلب منجذب لروض هدى — حيث الكريمة فيه فضلها يترى

خديجة زوجة المختار شمس هدى — بنورها جملت دنيا وفى الأخرى

خديجة من هى الكنز المفيض ندى — لخير رسل به مولاى قد أسرى

أتيت أغترف الجدوى وملتمسا — عواطفا أطلقت بعميمها الأسرى

أتيت مستجديا فضلا وعاطفة — من الكريمة تجذبنى بها الذكرى

ذكرت أيامها فى الله قائمة — مع الحبيب وآى الذكر قد تقرا

بلغت منزلة الرسل الكرام علا — عليك سلم رب العرش بالبشرى

ونلت منزلة عند الحبيب بها — عليك ربى إحساناته أجرى

أنست بالمصطفى الهادى فنلت رضا — خدمت طه فكنت الآية الكبرى

رضى الله عن السيدة خديجة أم المؤمنين الأولى، وجمعنا يوم الحشر وإياها فى منازل الأبرار مع سائر النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.

السيدة سودة بنت زمعة رضى الله عنها

لما توفيت السيدة خديجة رضى الله عنها، ورأت خولة بنت حكيم حال رسول الله ﷺ وما نزل به، ودفعها إشفاقها عليه أن تفاتحه فى هذا الأمر الذى تعرف أنه ينكأ جرحه، ويجدد حزنه، وإن لم يكن قد سلا، فقالت له:

"يا رسول الله، كأنى أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة"؟

فأجابها: "أجل، كانت أم العيال، وربة البيت".

فسألته لماذا لا تتزوج؟ وعجب متسائلا من تلك التى يتزوجها بعد السيدة خديجة، فأسرعت خولة تقول له: بكر وثيب، أما البكر فعائشة بنت أحب الناس إليك، فقال لها: لكنها صغيرة. فأجابته خولة: تخطبها ثم تنتظر بها حتى تنضج. وأما الثيب فهى سودة بنت زمعة بنت قيس بن عبد شمس العامرية القرشية، وأمها من خئولة جده عبد المطلب فهى الشموس بنت قيس بن زيد بن عمر النجارية.

ووافق الرسول ﷺ على ما عرضته خولة، فقد ذكر لأبى بكر صدقه وبلاءه فأحب أن يقربه صهرا، وذكر لسودة سبقها إلى الإسلام، وهجرتها مع زوجها إلى الحبشة، وترملها بعد زوجها وابن عمها المهاجر المسلم (السكران بن عمرو ابن عبد شمس بن عبد ود العامرى) وهو أخو سهيل بن عمرو. وسواء صحت رواية موته فى الحبشة أو رواية موته بمكة بعد العودة من الحبشة فيمن عاد، فإنها أرملة مسنة صابرة، لا تنتظر أن يتزوجها أحد بعد ترملها وهى فى تلك السن، ومن لهذه الكسيرة الصابرة يأسو جرحها، ويؤنس وحدتها إلا النبى

الكريم، لا يتزوج كسائر الناس فحسب، وإنما لوصل الوشائج، وجبر الكسر، ورحمة الحزين.

وتمت الخطبة والزواج بالسيدة سودة فى يسر، التى أخذتها الفرحة حتى نسيت رزانة الكهولة، وكيف لا تفرح وتخف وقد أوشكت أن تصير زوجة لأكرم الناس فى الدنيا والآخرة، ورسول الله ﷺ، إنها ستصبح زوجا للنبى الذى تصلى وتسلم عليه فى كل صلاة، للرسول الذى تتقطع الأعناق دون التطلع إلى مكانته وشرفه عند الله وعند الناس ﷺ.

وقد رضيها ﷺ زوجا وأكرمها واحترمها، وانتقلت إلى بيته فى مكة.

وكانت امرأة طيبة القلب ضخمة الجسم حتى أن رسول الله ﷺ كان يضاحكها إذا رآها تمشى على حالتها تلك.

ولقد أحست بعد أن جاءت عائشة وبقية الزوجات الكريمات – رضى الله عنهن جميعا – إلى بيت النبى ﷺ أنهن أكثر شبابا وجمالا وخفة حركة، ورأت رسول الله ﷺ مع ذلك يعدل فى القسط بينهن، إلا أنها بحس المرأة المجربة أشفقت أن يطلقها رسول الله ﷺ، وفى بعض الروايات أنه كاد أن يطلقها، فقالت له: "أمسكنى ووالله ما بى إلى الأزواج من حرص، ولكننى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجا لك، وأهب ليلتى لعائشة، وإنى لا أريد ما تريد النساء، ووافقها رسول الله ﷺ أول الأمر، وجعل ليلتها لعائشة حتى يشعرها أنه قبل هبتها، ثم قسم لها ليلتها مثل بقية أزواجه بعد حين ليشعرها بأنه لا يجفوها ولا يهملها.

وقد حجت مع الرسول ﷺ حجة الوداع، وكانت مع أمثالها من الضعفاء سببا

فى التيسير على الأمة فى كثير من أعمال الحج كالتبكير بالنفرة من مزدلفة، والرمى قبل الفجر، والإفاضة إلى مكة رضى الله عنها.

وظلت عنده ﷺ زوجا بارة وأما للمؤمنين، حتى توفى عنها ﷺ، وامتدت بها الحياة بعده حتى توفيت رضى الله عنها فى أواخر خلافة سيدنا عمر ﷺ.

السيدة عائشة بنت الصديق رضى الله عنها

هى أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبى بكر بن أبى قحافة بن عامر بن عمرو ابن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر .

عرفنا أن التى خطبتها للنبى ﷺ (خولة بنت حكيم) بعد وفاة السيدة خديجة رضى الله عنها، فقد دخلت على أم عائشة (أم رومان) فذكرت لها رغبة رسول الله ﷺ فى خطبة عائشة فاستمهلتها حتى جاء زوجها أبو بكر فذكرت له خولة ما كان، فظن أبو بكر أن الأخوة التى بينه وبين رسول الله ﷺ تمنع من ذلك، فقال لها: "وهل تصلح له؟ إنما هى ابنة أخيه"، فرجعت خولة إلى الرسول ﷺ فأخبرته بمقالة أبى بكر، فأجابها النبى ﷺ : "قولى له أنت أخى فى الإسلام، وأنا أخوك وابنتك تصلح لى" (أخرجه البخارى) .

فذهبت إلى أبى بكر فأبلغته ذلك، فطلب منها أن تنتظره حتى يعود وخرج لا تدرى فيم خرج، ولكن أم رومان زوجته قالت لخولة: "إن المطعم بن عدى كان قد ذكر عائشة على ابنه جبير، ولا والله ما وعد أبو بكر شيئا قط فأخلف، وكان هذا سر خروجه فى تلك الساعة، فذهب إلى مطعم وعنده زوجته أم جبير، وكانا مشركين ليتحلل من وعده، فسألهما عن بقاء رغبتهما فى تزويج ولدهما من عائشة فأسرعت المرأة قائلة: "يا ابن أبى قحافة، لعلنا إن زوجنا ابننا أن تصبئه وتدخله فى دينك الذى أنت عليه؟ فلم يجبها أبو بكر، وإنما سأل زوجها المطعم بن عدى قائلا: "ما تقول هذه؟" فأجاب المطعم: "إنها تقول ذلك الذى سمعت" .

فأسرع أبو بكر فرحا بتحلله من وعده لهما، ولما وصل إلى بيته قـــال لخولـــة: (اذهبى إلى رسول الله ﷺ وقولى له مرحبا وأهلا).

فعادت خولة مستبشرة إلى رسول الله ﷺ، فذهب إلى أبى بكر فعقد له عليـــها، ولم يدخل بها ﷺ إلا فى المدينة.

وأمها: أم رومان بنت عامر من بنى مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركـــة بـــن إلياس بن مضر، وقد روى عن الرسول ﷺ أنه قال: "من ســـره أن ينظـــر إلى امـــرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان". ويوم توفيت نزل الرســول ﷺ فى قبرها واستغفر لها.

أما عائشة رضى الله عنها فهى تلك الصبية التى تفتحت مداركها على الإســـلام فى بيتها فقد كان أبو بكـــر رضي الله عنه أسرع الناس إلى الإسلام، وكذلك زوجتـــه أم رومان، فنشأت عائشة فى بيئة مسلمة منذ ولادها فقد ولدت بعد البعثة وكانت لبيبة فصيحة، راوية للشعر، وكانت كشأن نساء عشيرها بنى تيم محببـــات إلى الأزواج. قال ﷺ: "فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعـــام" متفق عليه.

وكانت أحداث الهجرة المباركة إلى المدينة، وبلغ الرسول ﷺ وأبو بكر مأمنـــهما فى يثرب التى أصبحت بقدومه إليها منيرة، فسميت (المدينة المنورة) على منورها أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وما إن استقر بالرسول ﷺ المقام فى مهاجره حتى بعث مولاه زيد بـــن حارثـــة ومولاه الآخر أبا رافع ليحضرا بنات النبى ﷺ، وأرسل معهما أبو بكر إلى ولـــده

عبد الله ليصطحب زوجته أم رومان وابنتيه أسماء وعائشة ويحضروا جميعـــا إلى المدينة، وكان الرسول ﷺ قد أسس مسجده وبنى بيوته حوله.

فلما وصل الركب بآل النبى ﷺ وآل أبى بكر ﷺ، لم تمــض شــهور حــتى تم الزفاف فى يوم كانت عائشة فيه تلهو على أرجوحة مدت بين عذقين من النخل فجاءها أمها وبعض نساء الأنصار وهن يقلن: "على الخير والبركة وعلى خـــير طائر" (أخرجه البخارى ومسلم).

وبدأت السيدة عائشة حياة جديدة فى كنف أكرم زوج وأحناه وأبره وأرحمــه، ولما كانت هى البكر الوحيدة فى زوجاته ﷺ، فقد كان يلاطفــها، ويلاعبــها، ويأتيها ببنات من لداتها يلعبن معها وتصنع الدمى لتلعب بها، وحين رآها مـــرة تلعب بدمية على هيئة حصان له أجنحة تساءل ضاحكا: "وخيلا مجنحـــة يـــا عائشة" فقالت فى براءة: "أوما سمعت عن خيل سليمان" (أخرجــه البخـــارى ومسلم).

وقد وعت السيدة عائشة وهى فى بيت الرسول ﷺ من علم الدين وأدب الدنيــا كثيرا، وكانت فقيهة النساء فى عصر الصحابة، ورغم تدللها وغيرتهـــا كـــانت تلميذة نجيبة ومعلمة واعية، حققت أمر الله لها ولزوجات النبى ﷺ: ﴿واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾ (الأحزاب: ٣٤).

فكانت لبيبة أريبة سائلة ومسئولة، وقد حدث حادث الإفك عقب عودها مـــن غزوة بنى المصطلق، وبرأها الله مما قالوا، فزادها ذلك شرفا ومجدا، وقـــد تقـــدم ذكر حادث الإفك. ولما ظهرت أعراض المرض على رســـول الله ﷺ اســـتأذن

نساءه أن يقيم فى بيت السيدة عائشة فأذن له، فظل عندها حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى، ودفن فى حجرتها.

روى البخارى ومسلم وغيرهما عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: توفى النبى ﷺ فى بيتى وفى يومى وبين سحرى ونحرى، وكانت إحدانا تعوذه بدعاء إذا مرض فذهبت أعوذه فرفع رأسه إلى السماء وقال: "فى الرفيق الأعلى" ومر عبد الرحمن بن أبى بكر وفى يده جريدة رطبة، فنظر إليه النبى ﷺ فظننت أن له بها حاجة، فأخذتها فمضغت رأسها ونفضتها فدفعتها إليه فاستن بها كأحسن ما كان مستنا ثم ناولنيها فسقطت يده – أو سقطت من يده – فجمع الله بين ريقى وريقه فى آخر يوم من الدنيا وأول يوم من الآخرة" (أخرجه البخارى ومسلم). وعاشت هى بعد النبى ﷺ مرجعا فى السنة وفقيهة فى الإسلام، قال الإمام الزهرى: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبى ﷺ لكان علم عائشة أفضل".

وظل يسألها علماء الصحابة وكبار التابعين، وأمد الله فى حياتها حتى توفيت عام سبعة وخمسين فى شهر رمضان، وصلى عليها أبو هريرة إذ كان أمير المدينة، ودفنت بالبقيع ليلا رضى الله عنها وأرضاها.

السيدة العابدة

حفصة بنت عمر رضى الله عنها

هى أم المؤمنين السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن عبد الله بن قرط بن رباح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر.

وأمها زينب بنت مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح.

تزوجت قبل رسول الله ﷺ خنيس بن حذافة بن عدى السهمى رضي الله عنه. وقد استشهد متأثرا بجراحه فى أحد.

ولما انقضت عدة حفصة ذهب أبوها عمر يعرضها على أبى بكر رضي الله عنه فسكت ولم يجب، فانصرف عمر وفى نفسه من صمت أبى بكر شىء.

فتوجه إلى عثمان بن عفان - وكانت زوجته رقية بنت النبى ﷺ قد توفيت - فعرض عمر عليه ابنته حفصة ولكن عثمان اعتذر قائلا: "ما أريد أن أتزوج اليوم".

فوجد عمر فى نفسه، وانطلق إلى رسول الله ﷺ يشكو ما لقى من صمت أبى بكر ورفض عثمان، رضي الله عنهم أجمعين، فواساه النبى ﷺ مبتسما وقال: "يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة" (أخرجه البخارى).

وزوج النبى الكريم ﷺ عثمان ابنته الأخرى أم كلثوم، وتزوج هو ﷺ حفصة،

وحينما لقى عمر أبا بكر بعد ذلك اعتذر له أبو بكر قائلا: "لا تجد علـى يـا عمر، فإن رسول الله ﷺ ذكر حفصة، فلم أكن لأفشى سر رسول الله ﷺ، ولـو تركها لتزوجتها" (أخرجه البخارى)٠

ونلحظ هنا الأدب من أبي بكر ﷺ فى حفظ سر رسول الله ﷺ الذى كان قـد ذكر حفصة معرضا بخطبتها وهى فى عدتها، والتعريض فى خطبة النساء المتـوفى عنهن أزواجهن هو أن يلمح الراغب عن رغبته للمرأة أو لوليها، وأنه سيخطبها بعد انتهاء عدتها٠

وكانت حفصة تحس أنها ترب عائشة وكفء لها، فعن عائشة رضى الله عنـها قالت: "هى التى كانت تساميني من أزواج النبى ﷺ"، أى: قبل زواجـه مـن السيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها٠

وفى ذكر بعض الرواة طلاق النبى لحفصة وأن عمر حين علم بكى وحثا علـى رأسه التراب وهو يقول: "ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها"٠ وأن النبى ﷺ ارتجعـها بعد أن قال له جبريل: "أرجعها فإنها صوامة قوامة وإنها زوجتـك فى الجنـة، فراجعها النبى ﷺ" (أخرجه أبو داود وابن ماجة والنسائى)٠

وينفى بعض العلماء خبر طلاقها، ولكن الثابت الصحيح أن النبى ﷺ قد هجـر نساءه شهرا٠

وقد توفى النبى ﷺ عن حفصة وبقية من ترك من نسائه، فأقامت حفصة بالمدينـة عابدة قانتة إلى أن توفيت فى عهد سيدنا على على الأرجح عام سبعة وثلاثـين، وقيل غير ذلك، رضى الله عنها وأرضاها٠

أم المساكين

السيدة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها

هى أم المؤمنين السيدة زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة. وأمها هند بنت عوف بن الحارث ابن حماطة الحميرية، فهى بهذا أخت أم المؤمنين السيدة ميمونة لأمها.

تزوجها قبل الرسول ﷺ ابنا عمه الحارث بن عبد المطلب، أولا: الطفيل بن الحارث، ولما طلقها تزوجها أخوه عبيدة بن الحارث.

وقيل فى هذا أقوال أخرى منها: أن عبد الله بن جحش كان زوجها قبل رسول الله ﷺ حتى استشهد فى أحد.

ومن المعروف أن عبيدة بن الحارث - زوجها على الرواية الأولى - كان أحد المبارزين فى بدر، وكان أول من أصيب يوم بدر، وأنهم حملوه جريحا إلى النبى ﷺ فوضعوا رأسه على فخذ النبى ﷺ، ومات عند عودتهم من بدر شهيدا، وقد تزوجها النبى الكريم ﷺ فى شهر رمضان عام ثلاثة للهجرة فمكثت عنده ثمانية أشهر وتوفيت فى ربيع الآخر عام أربعة، وعمرها حول الثلاثين.

كانت تسمى أم المساكين لكثرة إطعامها ورعايتها لهم، وكانت إقامتها فى بيت النبى ﷺ شهورا معدودة مما جعل الأخبار المدونة عنها قليلة رضى الله عنها وأرضاها.

عقيلة بنى مخزوم

السيدة هند بنت أبى أمية (أم سلمة)

رضى الله عنها

هى أم المؤمنين السيدة هند بنت أبي أمية (الملقب بزاد الراكب) ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم.

وأمها عاتكة بنت عامر بن ربيعة بن مالك بن جذيمة بن علقمة بن فراس الكنانية.

نشأت أم سلمة فى مجد وسؤدد وغنى ورفاهية، فأبوها حذيفة بن المغيرة من الأجواد المعدودين ولهذا لقب بزاد الراكب، فقد كان لا يحتاج المسافر معه إلى أن يستصحب معه زادا اكتفاء ببر حذيفة.

وقد انتقلت من هذا البيت إلى بيت زوجها ونظيره فى الغنى والمجد وابن عمها أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو أيضا ابن عمة النبى ﷺ، فأمه برة بنت عبد المطلب بن هاشم، وأخوه فى الرضاعة أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب.

ومضى أبو سلمة مهاجرا وحده إلى المدينة، بعد أن هاجر إلى أرض الحبشة الهجرتين هو وزوجته أم سلمة، تقول أم سلمة: "وفرق بينى وبين زوجى وابنى فكنت أخرج كل غداة وأجلس بالأبطح فما أزال أبكى حتى أمسى

سنة أو قريبا منها، حتى مر بى رجل من بنى عمى- أحد بنى المغيرة - فرأى ما بى فرحمنى فقال لبنى المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وابنها وما زال بهم حتى قالوا: الحقى بزوجك".

تقول: فرحلت بعيرى، ووضعت ابنى فى حجرى ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة، وما معى أحد من خلق الله، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة فقال: "أين يا بنت أمية"؟ فقلت: "أريد زوجى بالمدينة"، فقال: "هل معك أحد"؟ فقلت: "لا والله إلا الله وابنى هذا"، فقال: "والله ما لك من مترك" وساق بها فى أكرم صحبة رغم أنه كان لم يسلم بعد حتى أبلغها قباء، وكان يسكنها أبو سلمة.

وعاشت معه مجاهدة صابرة حتى رمى فى عضده يوم أحد، ورقا دم الجرح بعد علاج، وأرسل النبى ﷺ أبا سلمة قائدا لسرية إلى (قطن) ليغير على بنى أسد فظفر بهم وعاد منصورا، لكن جرحه انتقض فمات، ودخل رسول الله ﷺ على أبى سلمة بعد وفاته فأغمض عينيه، ودعا له، وصلى عليه، وكانت وفاته فى الثامن من جمادى الآخرة عام أربعة ﷺ.

ونظر رسول الله ﷺ فوجد عقيلة قومها أم سلمة وزوج ابن عمته وأخيه من الرضاع أصبحت أرملة غريبة، ومهاجرة وحيدة فى بلد ليس لها فيها ولى حاضر، ولا عاصب كافل، ولها صغار أيتام، يحتاجون إلى من يقوم بشأنهم ويسهر عليهم، فترقب نهاية عدتها، وأرسل إليها يخطبها، ووجمت أم سلمة فهى ما كانت تظن أن تنال شرف الزواج من رسول الله ﷺ، وما أسعدها أن تصبح

أما للمؤمنين والمؤمنات، إلا أن حقه ﷺ على المؤمنين والمؤمنات عظيم، وحقه على زوجاته أعظم، فهل تراها تطيق القيام بهذا الحق، وعندها مما تعرف من حالها ما يفسد على الزوج هناءه؟ فهل تنسيها الفرحة بشرف الزواج منه أن تكشف عن تلك المنغصات حتى تعذر إلى الله ورسوله أنها لم تأل جهدا فى الصدق والنصح؟.

لهذا أجابت من جاء يبلغها خطبة رسول الله ﷺ لها قائلة: "مرحبا برسول الله ﷺ" ثم قالت: "إن فى خلالا ثلاثا".

١- أنا امرأة شديدة الغيرة.

٢- وأنا امرأة مصبية، أى: ذات صبيان أرعاهم.

٣- وأنا امرأة ليس لى ها هنا أحد من أوليائى فيزوجنى.

وكان سيدنا عمر قد خطبها قبل ذلك فرفضته، ولكنه غضب لرسول الله ﷺ، إذ ظنها أنها ترفض، وجاءها - وهى من بنات أخواله - فقال لها معنفا: "أنت التى تردين رسول الله ﷺ بما تردينه، فقالت: "يا ابن الخطاب لى كذا وكذا وذكرت أعذارها".

فجاءها رسول الله ﷺ فقال: "أما ما ذكرت من غيرتك فإننى أدعو الله عز وجل أن يذهبها عنك، وأما ما ذكرت من صبيتك فإن الله عز وجل سيكفيكهم، وأما ما ذكرت من أنه ليس من أوليائك أحد شاهد فليس من أوليائك أحد شاهد، ولا غائب يكرهنى" (أخرجه أحمد والنسائى وابن حبان والحاكم).

ورعى النبى ﷺ أيتامها وأكرم مثواها، وأعز جانبها، حتى أنها بكت حين رأته فى بيتها يضم إليه الزهراء وولديها الحسن والحسين ويقول: "رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد، فقالت وهى تبكى خصصتهم وتركتنى، فقال لها: أنت على مكانك وأنت على خير.

وعاشت فى كنف الرسول ﷺ قريرة العين، وكان من شرفها نزول الوحى بالتوبة على أبى لبابة فى بيتها وقد تقدم ذكر قصته.

وكان من يمن رأيها وإصابته أنها أشارت على النبى ﷺ أن يخرج يوم الحديبية دون أن يكلم أحدا حتى ينحر بدنه ويحلق شعره، وذلك حينما أمر الناس أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا، وتحقق ظنها حين فعل الرسول ﷺ ما أشارت به، فقد سارعوا جميعا يحلق بعضهم لبعض حتى كاد يصيب بعضهم بعضا.

وقد صحبت النبى فى خيبر وفتح مكة وفى غزوة هوازن وفى حجة الوداع، ويوم قامت الفتنة فى أيام خلافة الإمام على قدمت إليه ولدها عمر، وعاشت حتى عام اثنين وستين حين توفيت وعمرها أربع وثمانون سنة، ودفنت بالبقيع رضى الله عنها وأرضاها.

الحسيبة الكريمة أطولهن يدا

السيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها

هى أم المؤمنين، وأكرم نساء النبى ﷺ وليا، فقد كانت تقول له عنهن: "ليست امرأة منهن إلا زوجها أبوها أو أخوها أو أهلها غيرى، زوجنى الله من السماء"، تشير إلى قوله تعالى: ﴿فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها﴾ (الأحزاب: ٣٧)

وهى السيدة زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة بن كثير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة، إحدى أمهات المؤمنين، وابنة عمة النبى ﷺ، وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة النبى ﷺ.

تزوجها رسول الله ﷺ بعد أن طلقها مولاه ومتبناه زيد بن حارثة ليبطل بأمر الله قاعدة التبنى الجاهلية التى كانت تحرم زوجة الابن بالتبنى على أبيه الذى تبناه. ولزيد بن حارثة زوجها الأول قصة يحسن أن نشير إليها: "خرجت به أمه تزور أهله من طىء، فأخذه بعض المغيرين من بنى القين بن جسر فباعوه وهو صبى، فاشتراه حكيم بن حزام وأخذته منه عمته خديجة، ثم وهبته لزوجها رسول الله ﷺ، وكان أبوه شاعرا ومن أشراف قومه بنى كلب، فخرج مع عمه يبحثان عنه حتى لقياه فى مكة، وعرفا أن سيده هو الأمين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب القرشى ﷺ فانطلقا إليه وقالا له: يا ابن عبد المطلب يا ابن سيد قومه، أنتم جيران الله، تفكون العانى، وتطعمون الجائع، وقد جئناك فى ابننا فتحسن إلينا فى فدائه، فقال ﷺ: "أو غير ذلك؟" فقالا: ما هو؟ فقال: ادعوه

وأخيره، فإن اختاركما فذاك، وإن اختارنى فوالله ما أنا أختار على من اختارنى أحدا، فوافقا على ذلك راضيين.

ودعى زيد فعرفهما وخيره الرسول الكريم ﷺ، فاختار سيده ﷺ، فقال له أبوه: يا زيد أتختار العبودية على أبيك وأمك وبلدك وقومك؟ فانظر كيف أنساه بر مولاه الأمين، وحسن معاملته أهله وعشيرته وبلاده!! وفضل العبودية على الحرية، ذلك أنه كان يرى فى مولاه الأمين الأهل والعشيرة، والأب والأخ والقريب وما هو أجل من ذلك وأعظم .. عند ذلك أشهد مولاه ﷺ الناس أنه أعتقه وتبناه، وأنه منذ اليوم صار ابنه وارثا موروثا، فأصبح ينادى بين الناس زيد ابن محمد، وجاء الإسلام فكان أول الموالى إسلاما (تاريخ الطبرانى).

وآخى النبى ﷺ بينه وبين عمه حمزة ﷺ، وزوجه السيدة زينب ابنة عمته تكريما، رغم رفضها وفى هذا نزلت الآية الكريمة: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا﴾ (الأحزاب: ٣٦).

ومع إتمام الزواج كانت تضيق به وترى لنفسها ولنسبها من الفضل والسمو وعلو المنزلة ما جعلها تترفع عليه، فكان يشكو ذلك إلى رسول الله ﷺ، فكان يأمره بالصبر وحسن المعاشرة.

وقد زعم بعض القدامى والمحدثين أن رسول الله ﷺ رآها بعد ذلك فوقع حبها فى قلبه، وهى روايات لا تعدو أن تكون من دس القصاصين ونسج الإسرائيليين الذين ينسبون ما هو أشنع من ذلك لأنبيائهم، ومهما قيل فى

ناقليها من صدق وضبط كالطبرى والزمخشرى، فإن القواعد المقررة التى تثبت العصمة للرسل تؤكد بعد هذه الأقاصيص عن الحقيقة، وما من شك أن عشق النبى لزوجة رجل آخر يتنافى مع العصمة التى تعنى طهارة ظاهرهم وباطنهم من الإثم بل ومن شبه الإثم، ولو قيل عن واحد منا – يتكرم فى نفسه –: إنه عشق امرأة صديقه لعامة الناس لتجنبوه فكيف لو كان نبيا ورسولا؟. وما معنى حفظ الله له إذا تركه يقع فى مثل هذا؟ وكيف وقد أمره الله بعكس ذلك: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم﴾ (الحجر: ٨٨)؟. وليست هذه أول فرية فى حق نبى تسردها الكتب قديما ويدافع عنها – دون إرادة السوء – كاتبون حديثا، وقد وضعها أعداء الرسل بقصد التطاول على مقام العصمة الواجب لهم.

ويقع بعض المخلصين فى إيمانهم من المعاصرين فى وهم تأكيد بشرية الرسول بإثبات أمثال هذه الأقاصيص، ونسوا أن الرسل مع أنهم بشر من البشر إلا أن لهم خصوصية ليست لسائر البشر، وهى العصمة التى تنافى كل ما يرذلون به ويعابون، فضلا عن منافاتها لما به يأثمون، وقصتهم هذه حول السيدة زينب تكاد تتفق مع ما زعموه وردده كثير من المفسرين حول نبى الله داود زاعمين أنه رأى زوجة أوريا فأعجبته، وكيف احتال ليتزوجها مع كثرة ما عنده من الزوجات، وكل موقف من أحداث هذه القصة المزعومة يخرق العصمة، ويهدم طهارة النبوة، وليس إثبات بشرية الرسول ﷺ فى حاجة إلى مثل هذه الأقاويل، وليست السيدة زينب بالتى لم يرها النبى مرات عديدة قبل زواجها حتى يفاجأ بعد زواجها بهذا الجمال الباهر، ولو كان الأمر كما يزعمون لتزوجها بكرا،

وقد كانت زينب طامعة بهذا الزواج، حريصة عليه. وقد فندنا كل هذه الأباطيل فيما تقدم بما لا يدع مجالا لصاحب نفس مريضة أن يتطاول إلى النيل منه ﷺ.

فالله سبحانه وتعالى بتدبيره قد تولى الأمر كله، حتى عقد الزواج، وعاشت السيدة زينب فى بيت رسول الله ﷺ عزيزة، مكرمة، برة، تقية، عابدة، زاهدة، صناعا - لها صنعة - تعمل بيدها لتتصدق، ولهذا تحقق فيها قول الرسول ﷺ لنسائه: "يتبعنى أطولكن يدا" وكان طول اليد هو سخاؤها بالصدقة. قالت السيدة عائشة: فكنا إذا اجتمعنا بعده نمد أيدينا فى الجدار نتطاول، فلم نزل نفعله حتى توفيت زينب، وكانت امرأة قصيرة ولم تكن - رحمها الله - أطولنا فعرفنا أنما أراد الصدقة، وكانت صناع اليد فكانت تدبغ وتخرز وتصدق (أخرجه مسلم).

روى أن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ أرسل إليها عطاءها وهو اثنا عشر ألف درهم - وقد قسم فى خلافته لكل سيدة من أزواج النبى ﷺ اثنا عشر ألفا، وأعطى جويرية وصفية ستة آلاف، بسبب أنهما سبيتا - فغطته بثوب ثم قالت لبرزة بنت رافع: "أدخلى يدك فاقبضى منه قبضة فاذهبى إلى آل فلان وآل فلان من أيتامها وذوى رحمها، فقسمته فبقيت منه بقية فقالت لها زينب: فلكم ما تحت الثوب، تقول برزة: فرفعنا الثوب فوجدنا خمسة وثمانين درهما، ثم رفعت زينب بيدها داعية فقالت: "اللهم لا يدركنى عطاء لعمر بعد عامى هذا" (طبقات ابن سعد).

واستجاب الله دعاءها فتوفيت فى عامها ذاك سنة عشرين رضـــى الله عنـــها، فكانت أول نسائه لحوقا به ﷺ، وكان أعجب رثاء لها قول السيدة عائشة: "لقد ذهبت حميدة متعبدة مفزع اليتامى والأرامل" رضى الله عنها.

وعن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: "كانت زينب بنت جحش تســاميني فى المنــزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أر امرأة قط خيرا فى الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة، وأشد ابتذالا لنفســها فى العمــل، والذى تصدق به وتتقرب به إلى الله تعالى" رضى الله عنها وأرضاها.

عقيلة خزاعة

السيدة جويرية بنت الحارث المصطلقية

رضى الله عنها

هى أم المؤمنين السيدة جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار بن حبيب بن جذيمة وهو المصطلق بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو، الخزاعية المصطلقية.

كانت قبل النبى ﷺ زوجا لمسافع بن صفوان من بنى عمومتها.

حدثت غزوة المريسيع وسبى فيها بنو المصطلق، لأنهم كانوا وحدهم دون بطون خزاعة يظاهرون قريشا على رسول الله ﷺ، وقد بلغ النبى ﷺ أن زعيمهم الحارث بن أبى ضرار يستعد لغزو المدينة فعاجله النبى ﷺ وأغار عليه عند ماء يقال له المريسيع، فلما هزموا فر من بقى منهم وسبى نساؤهم ومن بين السبايا كانت برة بنت الحارث.

يقول ابن هشام: إن أباها ساق إبلا لفدائها، وحين قرب من المدينة أعجبه من إبله بعيران فأخفاهما فى شعب من شعاب وادى العقيق ثم جاء ببقية الإبل إلى النبى ﷺ، فقال النبى ﷺ: "أين البعيران اللذان بالعقيق؟"

فقال الحارث: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فو الله ما اطلع على ذلك إلا الله.

عند ذلك خطب النبى ﷺ ابنته برة وسماها جويرية (أخرجه مسلم).

أما رواية أبى داود وغيره فتقول: إن جويرية لما قسم السبى وقعت فى سهم ثابت ابن قيس بن شماس، وكاتبته لتفدى نفسها على تسع أواق، ثم جاءت إلى النبى ﷺ تستعينه فى الأداء فعرض عليها أن يؤدى عنها ويكون ذلك مهرها فيتزوجها، فقبلت.

فلما سمع المسلمون خبر زواجها من النبى ﷺ وفى أيديهم السبايا من قومها قالوا: أصهار رسول الله ﷺ فأعتقوهم جميعا، وكانوا مائة بيت، ولهذا تقول السيدة عائشة: فما نعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها، وأسلم قومها جميعا.

أخرج مسلم فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما، عن جويرية: انطلق - أتى - على رسول الله ﷺ غدوة وأنا أسبح. ثم انطلق لحاجته ثم رجع قريبا من نصف النهار فقال: أما زلت قاعدة؟ قلت: نعم. قال: ألا أعلمك كلمات لو عدلن بهن لعدلنهن، ولو وزن بهن وزنهن، يعنى جميع ما سبحت: "سبحان الله عدد خلقه ثلاث مرات، سبحان الله زنة عرشه ثلاث مرات، سبحان الله رضا نفسه ثلاث مرات، سبحان الله مداد كلماته ثلاث مرات".

وعاشت بعد رسول الله ﷺ حتى توفيت سنة ست وخمسين رضى الله عنها وأرضاها.

السيدة صفية بنت حيي رضى الله عنها

هى أم المؤمنين السيدة صفية بنت حيي بن أخطب بن سعنة بن ثعلبة بن عبيد بن كعب بن أبي حبيب من بنى النضير من سبط هارون بن عمران،وأمها برة بنت سموأل أى: تعريب لاسم صاموئيل بالعبرية.

كانت زوجا لسلام بن مشكم الشاعر، ثم تزوجت من بعده كنانة بن أبي الحقيق صاحب حصن القموص أمنع حصون خيبر، قتل يوم خيبر هو وأخوها.

وقد تزوجها النبى ﷺ فى سنة سبع بعد سبيها يوم خيبر، وكانت فى سهم دحية الكلبى، ويقال: إن النبى ﷺ عوضه عنها حين قيل: إنها سيدة قريظة والنضير وما تصلح إلا لك فأعتقها وتزوجها (أخرجه البخارى ومسلم).

وفى رواية ابن إسحق أنها سيقت مع ابنة عم لها من سبايا حصن القموص يقودهما بلال فمر بهما على قتلى المعركة، فصرخت المرأة وصكت وجهها فأمر النبى ﷺ بإبعادها، ثم خرجت معه ﷺ تمشى حتى ثنى لها ركبته على فخذه. فأجلت رسول الله ﷺ أن تضع قدمها على فخذه فوضعت ركبتها على فخذه فركبت. ثم ركب، فعرف الناس أنه اصطفاها لنفسه، وقال لبلال: "أنزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما".

ويحكى أن صفية رأت قبل ذلك أن القمر وقع فى حجرها فذكرت ذلك لزوجها، فلطم وجهها وقال لها: إنك لتمدين عنقك إلى أن تكونى عند ملك العرب، فلم يزل أثر اللطمة خضرة فى عينيها حتى سباها رسول الله ﷺ.

وأعرس بها الرسول ﷺ فى الطريق بمكان يقال له (الصهباء)، وبات أبو أيوب الأنصارى ليلته يحرس رسول الله ﷺ. وأنزلها فى المدينة فى بيت حارثة بن النعمان، وقد تسامع النسوة بجمالها فجئن ينظرن إليها حتى إن السيدة عائشة جاءت متنكرة متنقبة لتنظر إليها وعرفها النبى ﷺ فسألها: "كيف رأيت يا شقيراء"؟ فقالت: رأيت يهودية، فقال لها الرسول ﷺ: "لا تقولى ذلك فإنها أسلمت وحسن إسلامها".

وقد تكلمت حفصة وعائشة مرة عن أصل صفية اليهودى فجاءت باكية إلى الرسول ﷺ فقال لها: "ألا قلت وكيف تكونان خيرا منى وزوجى محمد وأبى هارون وعمى موسى" (أخرجه أحمد والترمذى).

وتوفى الرسول الكريم ﷺ وهى فى نسائه عزيزة كريمة، وكانت تضع أيام فتنة سيدنا عثمان معبرا بين منزلها ومنزل سيدنا عثمان لتنقل إليه الطعام والماء، وتوفيت عام خمسين ودفنت بالبقيع.

رضى الله عنها وأرضاها فقد بوأها زواجها المبارك بالنبى ﷺ منزلة عالية، ورفعها إسلامها إلى أن تكون إحدى أمهات المؤمنين الطاهرات.

أم حبيبة

السيدة رملة بنت أبى سفيان

رضى الله عنها

هى أم المؤمنين السيدة رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس، كنيتها (أم حبيبة). وأمها صفية بنت أبي العاص بن أمية بن عبد شمس.

ولدت بمكة قبل البعثة بسبعة عشر عاما، وتزوجها حليف قومها عبيد الله بن جحش أخو السيدة زينب بنت جحش أم المؤمنين.

وهاجرت أم حبيبة مع زوجها إلى الحبشة وهناك ولدت حبيبة التى بها كنيت، وارتد زوجها عن الدين وتنصر هناك، أما هى فقد أصرت على الإسلام وانقطع ما بينهما، وقتلت الخمر عبيد الله بن جحش هناك.

وأرسل النبى ﷺ عمرو بن أمية الضمرى يخطبها ووكل النجاشى ليعقد له عليها – وكان قد أسلم سرا– فأرسل إليها النجاشى من يبلغها ذلك، فوكلت خالد بن سعيد بن العاص بن أمية ليزوجها.

وحضر مهاجرو الحبشة مجلس العقد، وقدم النجاشى المهر أربعمائة دينار عن رسول الله ﷺ، وأقام لهم النجاشى وليمة، وأرسل نساؤه الطرف والهدايا من طيب وغيره إلى أم المؤمنين المهاجرة أم حبيبة.

ومرت الأيام حتى عادت السيدة أم حبيبة عام سبعة إلى المدينة مع بقية العائدين

من مهاجرى الحبشة، وفيهم ابن عم النبى ﷺ وشبيهه سيدنا جعفر بن أبى طالب ﷺ الذى وصل والنبى ﷺ عائد بالنصر من خيبر، فوثب إليه وعانقه وقال لـــه: "أشبهت خَلقى وخُلقى ما أدرى بأيهما أسر أكثر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر".

وتمر الأيام بعد ذلك، وتنقض قريش عهد الحديبية، ويأتى أبو سفيان إلى المدينـة يحاول إصلاح ما فسد، فيبدأ ببيت ابنته أم حبيبة لعلها تشفع له عند النـبى ﷺ، فيشد فى العهد، ويزيد فى المدة، ويزول شبح الحرب.

ولما دخل أبو سفيان بيت ابنته واتجه ليجلس على فراش النبى ﷺ أبـت عليـه ذلك، وطوت عنه الفراش، فتعجب منها أبوها أشد العجب وسـألها: أطويتـه رغبة بى عن الفراش أم رغبة بالفراش عنى؟ فتجيبه: هو فراش رسـول الله ﷺ وأنت رجل مشرك فلا ينبغى لك أن تجلس عليه!

فيجيبها فى حسرة: لقد أصابك بعدى شر.

وعاشت بعد رسول الله ﷺ إلى عام أربعة وأربعين فى المدينة، حيـث توفيـت رضـى الله عنها وأرضاها.

السيدة ميمونة الهلالية رضى الله عنها

هى أم المؤمنين السيدة ميمونة بنت الحارث بن حزن بن بجير بن الهرم بن رويبة ابن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر.

وأمها هند بنت عوف بن زهير بن الحارث بن حماطة الحميرية، وقيل: هى كنانية، والسيدة ميمونة هى خالة ابن عباس وخالد بن الوليد وأبناء جعفر الطيار. وكان اسمها برة فسماها النبى ﷺ ميمونة. وهى أيضاً أخت أم المؤمنين السيدة زينب بنت خزيمة لأمها.

ترملت السيدة ميمونة وهى شابة فى السادسة والعشرين، وكان زوجها أبا رهم ابن عبد العزى العامرى من بنى عمومتها.

وفى عمرة القضاء فى العام السابع من الهجرة خطبها رسول الله ﷺ.

وبنى بها الرسول ﷺ عند منصرفه من عمرة القضاء بمكان قرب التنعيم اسمه (سرف)، وهى آخر من تزوج من النساء.

يروى الرواة أنه لما جاءها البشير بخطبة الرسول ﷺ لها، كانت على بعير فألقت بنفسها فرحة وهى تقول: "البعير وما عليه لرسول الله ﷺ".

وعاشت السيدة ميمونة فى كنف رسول الله ﷺ حتى انتقل إلى جوار ربه. وتوفيت رضى الله عنها بسرف ودفنت بموضع قبتها التى زفت فيها إلى النبى ﷺ ورضى الله عنها.

هؤلاء هن زوجات رسول الله ﷺ، وهن إحدى عشرة امرأة من أمهات المؤمنين، توفى منهن فى حياته اثنتان: السيدة خديجة وتوفيت فى مكة المكرمة، والسيدة زينب بنت خزيمة وتوفيت فى المدينة المنورة، وانتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى عن تسع.

*** وقد تزوج ﷺ بأزواج لم يدخل بهن:**

١-أسماء بنت النعمان الكندية و لم يدخل بها وردها لأهلها، قيل: لأنها استعاذت منه وكانت حديثة عهد بكفر، وقيل غير ذلك: قالت: نحن قوم نؤتى ولا نأتى حينما دعاها.

٢-عمرة بنت يزيد الكلابية، و لم يدخل بها وردها إلى أهلها وأعطاها ما تتمتع به، واختلفوا فى سبب فراقه لها، وقيل: وجد بها بياضا، وقيل: غير ذلك.

٣-قال الزهرى: وتزوج العالية بنت ظبيان بن عمرو من بنى بكر بن كلاب ودخل بها وطلقها، وفى رواية غيره و لم يدخل بها فطلقها.

٤-وتزوج خولة بنت الهذيل بن هبيرة التغلبى وأمها خرنق بنت خليفة أخت دحية بن خليفة فحملت إليه من الشام فماتت فى الطريق، فتزوج خالتها شراف بنت فضلة بن خليفة فحملت إليه من الشام فماتت فى الطريق أيضاً.

٥-قال البخارى: وتزوج النبى ﷺ أميمة بنت النعمان بن شراحيل، فلما أدخلت عليه بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقتين.

٦-قال قتادة: وتزوج أسماء بنت الصلت من بنى حرام ثم من بنى سليم ولم يدخل بها.

٧-وممن تزوجها ولم يدخل بها أم شريك الأزدية. قال الواقدى: والمثبت أنها دوسية، وقيل: الأنصارية، ويقال: عامرية وأنها خولة بنت حكيم السلمى. وقال الواقدى: اسمها غزية بنت جابر بن حكيم. وقال محمد إبن اسحق: كان جميع ما تزوج رسول الله ﷺ خمس عشرة إمرأة، منهم أم شريك الأنصارية وهبت نفسها للنبى ﷺ. وقال قتادة: وتزوج أم شريك الأنصارية من بنى النجار، وقال: إنى أحب أن أتزوج من الأنصار ولكنى أكره غيرتهن، ولم يدخل بها.

*** فيمن خطبها ﷺ ولم يعقد عليها:**

١-أم هانىء فاختة بنت أبى طالب خطبها ﷺ فذكرت أن لها صبية صغارا فتركها.

٢-ليلى بنت الحطيم.

٣-ضباعة بنت عامر بن قرط.

٤-صفية بنت بشامة بن نضلة العنبرى.

٥-جمزة بنت الحارث بن عون بن أبى حارثة المرى.

٦-قال قتادة: وخطب حبيبة بنت العباس بن عبد المطلب فوجد أباها أخوه من الرضاعة، أرضعتهما ثويبة مولاة أبى لهب.

* **فهؤلاء نساؤه وهن ثلاثة أصناف:**

الصنف الأول: دخل بهن وتوفى عنهن، وهن التسع المبدأ بذكرهن، وهن حرام على الناس بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى بالإجماع المحقق المعلوم من الدين ضرورة، وعدتهن بانقضاء أعمارهن.

الصنف الثانى: دخل بهن وطلقهن فى حياته، واختلف العلماء فى حكم زواجهن بعد انقضاء عدتهن منه ﷺ، فقال فريق: لا يحل لهن الزواج لقوله تعالى: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا﴾ (الأحزاب: ٥٤). وفريق آخر قال: نعم، بدليل آية التخيير وهى قوله تعالى: ﴿يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما﴾ (الأحزاب: ٢٨،٢٩). فلو لم تحل لغيره لما كان هناك فائدة من التخيير.

الصنف الثالث: وهى من تزوجها وطلقها قبل أن يدخل بها، فهذه تحل لغيره أن يتزوجها، وأما من خطبها و لم يعقد عليها فأولى لها أن تتزوج.

واستسر ﷺ مارية القبطية فولدت له إبراهيم، واستسر ريحانه من بنى قريظة ثم أعتقها فلحقت بأهلها.

خصوصية الرسول ﷺ

لقد تزوج الرسول ﷺ نساءه قبل أن يترل القرآن بتحديد الأزواج بأربع، فلما نزل لم يؤمر بتطليق، بل نزل القرآن الكريم بالنص على حلهن له بلا حرج: ﴿يا أيها النبى إن أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما﴾ (الأحزاب: ٥٠).

إن بقاء أزواجه التسع خصوصية من خصوصياته، وخصوصية لنسائه، كخصوصية وجوب قيام الليل عليه، وخصوصية تحريم الصدقة عليه وعلى آل بيته، وخصوصية نسائه فى مضاعفة العذاب على الفاحشة، ومضاعفة أعمالهن الصالحة بنص القرآن الكريم: ﴿يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا * ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما﴾ (الأحزاب: ٣٠،٣١).

ثم نزل القرآن بتحريم زواجه بغيرهن: ﴿لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شىء رقيبا﴾ (الأحزاب: ٦).

وحكمة تحليل أزواجه له فى غاية الكمال والجمال والرحمة والإحسان، لأنه لو كلف بتطليق بعض نسائه لوقع هذا الطلاق على النسوة المهاجرات اللاتى ترملن وهن غير مشهورات بجمال، ويكون ذلك خلاف ما كان قد قصد إليه النبى ﷺ حين تزوجهن، كما يكون حطا لأقدارهن، وخدشا لكرامتهن بعد أن شرفهن الله بالانتساب إلى أشرف بيت عرفته البشرية، والاقتران بأشرف المرسلين، وخاتم النبيين، ولو وقع منه تطليق لكان ذلك منافيا لخلقه العظيم، ورحمته ورأفته التى شملت العالمين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وحاشا لرسول الله ﷺ أن يكون من المطلقين!!

إلى جانب أن الله عز وجل قد أنشأ صلة الأمومة الشعورية بين أزواج النبى ﷺ وجميع المؤمنين: ﴿النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم﴾ (الأحزاب: ٦)٠ ثم حرم زوجاته من بعده على المؤمنين، وعد ذلك إيذاء للرسول ﷺ، واعتداء على شرف النبوة العظيم، وجعل ذلك أمرا عظيما : ﴿وما كان أن تؤذوا رسول الله ولا تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما﴾ (الأحزاب: ٥٤)٠

مع النبى ﷺ فى بيته

ومما يجمل ذكره فى هذا السياق أسلوب حياته، ونمط عيشه فى بيته مع أهله ﷺ، فقد كان أزهد الناس بمتع الحياة ولذائذ العيش، لا يأخذ من ذلك إلا ما لا بد منه ولا غنى عنه، وبمقدار ما تدعو إليه الضرورة، وهو أمر قد ذاعت شهرته، وعرف عنه لدرجة تدعو إلى العجب والتأمل!!

عن عروة عن عائشة أنها كانت تقول: "والله يا ابن أختى إن كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال ثلاثة أهلة فى شهرين، وما أوقد فى أبيات رسول الله ﷺ نار. قلت: يا خالة فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان، التمر والماء، إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح، وكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا" (متفق عليه).

وقول السيدة عائشة أمر بديهى، يقبله العقل السليم، إذ كيف يترك الصحابة الكرام رسول الله ﷺ يوقد فى بيته نارا؟ فكانوا ﷺ يجهزون الطعام فى بيوتهم ويقدمونه لرسول الله ﷺ أدبا معه وطمعا فى رضا الله تعالى ورسوله عنهم.

ولعل ذلك كان أمرا خاصا ببيت السيدة عائشة رضى الله عنها دون سائر نسائه ﷺ مصداقا لما أخرجه البخارى ومسلم والنسائى والترمذى عن عروة قال: كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة. قالت: فاجتمع صواحبى إلى بيت أم سلمة فقالوا: يا أم سلمة إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريد عائشة، فمرى رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيثما كان.

قالت: فذكرت ذلك أم سلمة للنبى ﷺ. قالت: فأعرض عنى. فلما كان فى

الثالثة ذكرتُ له ذلك فقال: يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة فإنه والله ما نـــزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها.

ولم يكن تقشفه ﷺ عن فقر وقلة مال، فقد فتح له من الأرض، وجاءته الغنـــائم وكثرت لديه الأموال، وشبع أفقر الناس، وفاضت يداه بالعطاء السخي.

عن جابر رضي الله عنه: (ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقـــال لا) (متفـــق عليه). وعن أنس ﷺ قال: (ما سئل رسول الله ﷺ علـــى الإســـلام شـــيئاً إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قـــوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وإن كان الرجل يسلم مـــا يريد إلا الدنيا فما يلبث إلا يسيراً حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا ومـــا عليها) (أخرجه مسلم).

لقد اختار ﷺ لنفسه ولأهله هذا النمط الفريد من الحياة زهداً في الدنيا وزينتـــها، وإيماناً بأن متاعها قليل، وأن الآخرة خير لمن اتقى، ورغبة فيما أعده الله لعبـــاده المتقين، وليكونْ بيته ﷺ منارة يهتدي بها المسلمون إلى يوم القيامة، يجـــد فيـــها الفقراء عزاء لما يواجهون من ضيق وحرمان، ويجد فيـــها الأغنيـــاء والمنعمـــون داعيـــاً إلى التخفيف من المغريات والتقليل من الانغماس في الملـــذات، وعـــدم الاغترار بالشهوات، وليكون النبي ﷺ الأسوة لأمته في الغنى والفقر، وفي الســـراء والضراء، كما أراد له الله سبحانه أن يكون: ﴿لقد كان لكـــم في رســـول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثـــيراً﴾ (الأحـــزاب: ٢١).

وبلغ من زهده وتقشفه أن أزواجه رضى الله عنهن لم يطقن فى بداية الأمر ما تعرضن له من مشقة وضيق فأجمعن على مطالبته أن يوسع عليهن فى النفقة، فأبى، واعتزلهن شهراً.

وحين علم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما بما كان من مطالبهن قام أبو بكر إلى عائشة ليضربها،وقام عمر إلى حفصة كلاهما يقولان: تسألان النبى ﷺ ما ليس عنده؟! فنهاهما الرسول ﷺ، فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده.

ثم أنزل الله عز وجل الخيار: ﴿يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾ (الأحزاب: ٢٨،٢٩).

وبدأ رسول الله ﷺ بعائشة رضى الله عنها - وكانت أحب أزواجه إليه - فقال: إنى أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك. قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها: ﴿يا أيها النبى قل لأزواجك...) قالت: أفيك أستأمر أبوى؟ بل أختار الله ورسوله!

ثم عرض مثل ذلك على سائر نسائه فما اختارت منهن واحدة الدنيا وزينتها، بل اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقام الأمر بعد ذلك على هذا، فما رغبن عن الآخرة، ولا أسفن على الدنيا حتى لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى، رضى الله عنهن.

٤- خدمه ﷺ من الأحرار

١-منهم ﷺ أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب ابن عامر بن غنم بن عدى بن النجار، أبو حمزة الأنصارى الخزرجى، خادم رسول الله ﷺ، وأحد المكثرين من الرواية عنه، صح عنه أنه قال: قدم النبى ﷺ المدينة وأنا ابن عشر سنين. وأن أمه أم سليم أتت به النبى ﷺ لما قدم فقالت له: هذا أنس غلام يخدمك فقبله، وأن النبى ﷺ كناه: أبا حمزة ببقلة كان يجتنيها، ومازحه النبى ﷺ فقال له: (ياذا الأذنين)، وقال محمد بن عبد الله الأنصارى: خرج أنس مع رسول الله ﷺ إلى بدر وهو غلام يخدمه.

عن أبى خلدة قال: قلت لأبى العالية: أسمع أنس من النبى ﷺ؟ قال: خدمه عشر سنين، فما عاتبه على شىء أبدا، ولا قال لشىء فعله لم فعلته، ولا لشىء لم يفعله ألا فعلته.. ودعا له النبى ﷺ، وكان له بستان يحمل الفاكهة فى السنة مرتين، وكان فيه ريحان، ويجىء منه ريح المسك. وكانت إقامته بعد النبى ﷺ بالمدينة، ثم شهد الفتوح، ثم قطن البصرة ومات بها، وهو آخر من مات من الصحابة بها.

عن إسحاق بن عثمان قال: سألت موسى بن أنس: كم غزا أنس مع النبى ﷺ؟ قال: ثمانى غزوات. قال ثابت البنانى: قال لى أنس بن مالك: (هذه شعرة من شعر رسول الله ﷺ فضعها تحت لسانى، قال: فوضعتها تحت لسانه، فدفن وهى تحت لسانه) ومات سنة تسعين وكان عمره مائة سنة إلا سنة، وقيل غير ذلك.

عن أنس قال: قالت أم سليم: يا رسول الله أدع الله لأنس، فقال: (اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه) فقال أنس: إنى لمن أكثر الأنصار مالا وولدا، ويقال: إنه ولد لأنس بن مالك ثمانون ولدا منهم ثمانية وسبعون ذكرا، وبنتان، إحداهما تسمى حفصة، والثانية تكنى أم عمرو.

وعنه رضى الله عنه: (جاءت بى أم سليم إلى النبى ﷺ وأنا غلام فقالت: يا رسول الله، أنس، أدع الله له، فقال النبى ﷺ: (اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة) قال: قد رأيت اثنتين وأنا أرجو الثالثة. وقال جعفر بن سلمان عن ثابت: كنت مع أنس فجاء قهرمانه فقال: أبا حمزة عطشت أرضنا، قال: فقام أنس فتوضأ وخرج إلى البرية فصلى ركعتين ثم دعا، فرأيت السحاب تلتئم، قال: ثم أمطرت حتى ملأت كل شيء، فلما سكن المطر بعث أنس بعض أهله فقال: انظر أين بلغت السماء، فنظر فلم تعد أرضه إلا يسيرا وذلك فى الصيف. وقال أبو هريرة: (ما رأيت أحدا أشبه صلاة برسول الله ﷺ من ابن أم سليم) يعنى أنسا.

عن موسى بن أنس أن أبا بكر لما استخلف بعث إلى أنس ليوجهه إلى البحرين على السعاية، فدخل عليه عمر فاستشاره فقال: ابعثه، فإنه لبيب كاتب، قال: فبعثه.

٢-ومنهم ﷺ الأسلع بن شريك بن عوف الأعرجى. قال محمد بن سعد: كان اسمه ميمون بن سنباذ. قال الربيع بن بدر الأعرجى عن أبيه عن جده عن الأسلع قال: كنت أخدم النبى ﷺ وأرحل معه، فقال ذات ليلة:"يا أسلع قم

فارحل" قال: أصابتنى جنابة يا رسول الله، قال: فسكت ساعة وأتـاه جـبريل بآيـة الصعيد، [فقال: قم يا أسلع فتيمم] قال: فتيممت وصليت، فلما انتـهيت إلى الماء قال:

"يا أسلع قم فاغتسل" قال: فأرانى التيمم فضرب رسول الله يديـه إلى الأرض ثم نفضهما، ثم مسح بهما وجهه، ثم ضرب بيديه الأرض ثم نفضهما فمسح بهمـا ذراعيه. باليمنى على اليسرى، وباليسرى على اليمنى، ظاهرهما وباطنهما.

٣-ومنهم ﷺ أسماء بن حارثة بن سعد بن عبد الله بن عباد بن سعد بن عمـرو ابن عامر بن ثعلبة بن مالك بن أقصى الأسلمى. وكان من أهل الصفة، قالـه محمد بن سعد. وهو أخو هند بن حارثة وكانا يخدمان النبى ﷺ.

قال الإمام أحمد عن يحى بن هند بن حارثة وكان هند من أصحاب الحديبيـة، وكان أخوه الذى بعثه رسول الله يأمر قومه بالصيام يوم عاشوراء، وهو أسمـاء ابن حارثة. فحدثنى يحى بن هند عن أسماء بن حارثة أن رسـول الله ﷺ بعثـه فقال: "مر قومك بصيام هذا اليوم". قال: أرأيت إن وجدتهم قد طعموا؟ قـال: "فليتموا آخر يومهم". قال أبو هريرة: ما كنت أظن أن هنـدا وأسمـاء ابـنى حـارثة إلا مملوكين لرسول الله ﷺ. قال الواقدى: كانا يخدمانه لا يبرحان بابه هما وأنس بن مالك. قال محمد بن سعد: وقد توفى أسماء بن حارثة فى سنة ست وستين بالبصرة عن ثمانين سنة.

٤-ومنهم ﷺ بكير بن الشداخ الليثى. ذكر ابن منده من طريق أبى بكر الهـذلى عـن عبد الملك بن يعلى الليثى أن بكير بن شداخ الليثى كان يخدم النـبى ﷺ

فاحتلم فاعلم بذلك رسول الله ﷺ وقال: إنى كنت أدخل على أهلك وقد احتلمت الآن يا رسول الله، فقال ﷺ: "اللهم صدق قوله، ولقه الظفر".

فلما كان فى زمان عمر قتل رجل من اليهود، فقام عمر خطيبا فقال: أنشد الله رجلا عنده من ذلك علم؟ فقام بكير فقال: أنا قتلته يا أمير المؤمنين. فقال عمر بؤت بدمه فأين المخرج؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن رجلا من الغزاة استخلفنى على أهله، فجئت فإذا هذا اليهودى عند امرأته.

قال: فصدق عمر قوله وأبطل دم اليهودى بدعاء رسول الله ﷺ لبكير بما تقدم.

٥-ومنهم ﷺ بلال بن رباح الحبشى. ولد بمكة وكان مولى لأمية بن خلف، فاشتراه أبو بكر منه بمال جزيل لأن أمية كان يعذبه عذابا شديدا ليرتد عن الإسلام فيأبى إلا الإسلام ﷺ. فلما اشتراه أبو بكر أعتقه ابتغاء وجه الله، فقال عمر ﷺ: كان أبو بكر سيدنا وأعتق بلالا سيدنا. وهاجر حين هاجر الناس، وشهد بدرا وأحدا وما بعدهما من المشاهد ﷺ. وكان يعرف ببلال بن حمامة وهى أمه، وكان من أفصح الناس لا كما يعتقده بعض الناس أن سينه كانت شينا، وهو أحد المؤذنين الأربعة، وهو أول من أذن لرسول الله ﷺ، وكان خازنه على بيت ماله. وكان يلى أمر النفقة على العيال، ومعه حاصل ما يكون من المال. ولما توفى رسول الله ﷺ كان فيمن خرج إلى الشام للغزو، ويقال: إنه أقام يؤذن لأبى بكر أيام خلافته، والأول أصح وأشهر.

قال الواقدى: توفى بدمشق سنة عشرين وله بضع وستون سنة. وقال الفلاس: قبره بدمشق، ويقال بداريا، وقيل: إنه توفى بحلب، والصحيح أن الذى مات

بحلب أخوه خالد.

قال مكحول حدثني من رأى بلالا قال: كان شديد الأدمة نحيفا أجنا – واسع الجبين – له شعر كثير، وكان لا يغير شيبه ﷺ.

٦–ومنهم ﷺ حبة وسواء ابنا خالد رضى الله عنهما. قال الإمام أحمد عن حبة وسواء ابنا خالد قالا: دخلنا على النبى ﷺ وهو يصلح شيئا فأعناه، فقال: "لا ينسأ من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما، فإن الإنسان تلده أمه أحيمر ليس عليه قشرة، ثم يرزقه الله عز وجل".

٧–ومنهم ﷺ ذو مخمر، ويقال ذو مخبر، وهو ابن أخى النجاشى ملك الحبشة، ويقال ابن أخته. والصحيح الأول. كان بعثه ليخدم رسول الله ﷺ نيابة عنه. قال الإمام أحمد عن ذى مخمر: وكان رجلا من الحبشة يخدم النبى ﷺ، قال: كنا معه فى سفر فأسرع السير حتى انصرف، وكان يفعل ذلك لقلة الزاد. فقال له قائل: يا رسول الله قد انقطع الناس، قال: فجلس وحبس الناس معه حتى تكاملوا إليه، فقال لهم: "هل لكم أن نهجع هجعة؟" [أو قال له قائل]: فنزل ونزلوا، فقالوا: من يكلؤنا الليلة؟ فقلت: أنا جعلنى الله فداك، فأعطانى خطام ناقته فقال: "هاك لا تكونن لكعا" قال: فأخذت بخطام ناقة رسول الله وخطام ناقتى فتنحيت غير بعيد فخليت سبيلهما ترعيان. فإنى كذلك أنظر إليهما إذا أخذنى النوم، فلم أشعر بشىء حتى وجدت حر الشمس على وجهى، فاستيقظت فنظرت يمينا وشمالا فإذا أنا بالراحلتين منى غير بعيد، فأخذت بخطام ناقة رسول الله ﷺ وبخطام ناقتى، فأتيت أدنى القوم فأيقظته فقلت: أصليت؟

قال: لا، فأيقظ الناس بعضهم بعضا حتى استيقظ رسول الله ﷺ فقال: "يا بلال هل فى الميضأة ماء"؟ يعنى الأزادة، فقال: نعم جعلنى الله فداك، فأتاه بوضوء لم يلت منه التراب، فأمر بلالا فأذن ثم قام النبى ﷺ فصلى الركعتين قبل الصبح وهو غير عجل، ثم أمره فأقام الصلاة فصلى وهو غير عجل، فقال له قائل: يا رسول الله أفرطنا . قال: "لا، قبض الله أرواحنا وردها إلينا، وقد صلينا" .

٨-ومنهم ﷺ ربيعة بن كعب الأسلمى أبو فراس . قال الأوزاعى عن ربيعة بن كعب قال: كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فآتيته بوضوئه وحاجته، فكان يقوم من الليل فيقول: "سبحان ربى وبحمده الهوى، سبحان رب العالمين الهوى" فقال رسول الله ﷺ: "هل لك حاجة؟" قلت: يا رسول الله مرافقتك فى الجنة، قال: "فأعنى على نفسك بكثرة السجود" . وقال الإمام أحمد عن ربيعة بن كعب قال: كنت أخدم رسول الله نهارى أجمع، حتى يصلى عشاء الآخرة فأجلس ببابه إذا دخل بيته أقول لعلها أن تحدث لرسول الله حاجة، فما أزال أسمع رسول الله ﷺ يقول: "سبحان الله وبحمده" حتى أمل فأرجع، أو تغلبنى عيناى فأرقد، فقال لى يوما: -لما يرى من حقى له وخدمتى إياه - "يا ربيعة بن كعب سلنى أعطك" قال: فقلت: أنظر فى أمرى يا رسول الله ثم أعلمك ذلك، قال: ففكرت فى نفسى فعرفت أن الدنيا منقطعة وزائلة وأن لى فيها رزقا سيكفينى ويأتينى، قال: فقلت أسأل رسول الله لآخرتى فإنه من الله بالمترل الذى هو به، قال: فجئته، فقال: "ما فعلت يا ربيعة؟" قال: فقلت نعم يا رسول الله أسألك أن تشفع لى إلى ربك فيعتقنى من النار، قال: فقال "من أمرك بهذا يا ربيعة؟" قال: فقلت لا والذى بعثك بالحق ما أمرنى به أحد، ولكنك لما قلت

سلنى اعطك و كنت من الله بالمنزل الذى انت به نظرت فى امرى فعرفت ان الدنيا منقطعة وزائلة، وأن لى فيها رزقا سيأتينى، فقلت أسأل رسول الله لآخرتى. قال: فصمت رسول الله ﷺ طويلا ثم قال لى: "إنى فاعل فأعنى على نفسك بكثرة السجود".

مسئولية الأمة عن زواج غير القادرين

وقال الحافظ أبو يعلى عن ربيعة الأسلمى – وكان يخدم النبى ﷺ – قال: فقال لى ذات يوم: "يا ربيعة ألا تزوج؟" قال: قلت يا رسول الله ما أحب أن يشغلنى عن خدمتك شيء وما عندى ما أعطى المرأة. قال: فقلت بعد ذلك رسول الله أعلم بما عندى منى يدعونى إلى التزويج، لئن دعانى هذه المرة لأجيبنه. قال: فقال لى: "يا ربيعة ألا تزوج؟" فقلت: يا رسول الله ومن يزوجنى؟ ما عندى ما أعطى المرأة. فقال لى: انطلق إلى بنى فلان فقل لهم: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تزوجونى فتاتكم فلانة، قال: فأتيتهم فقلت: إن رسول الله ﷺ أرسلنى إليكم لتزوجونى فتاتكم فلانة ، قالوا: فلانة؟ قال: نعم، قالوا: مرحبا برسول الله ومرحبا برسوله، فزوجونى، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أتيتك من خير أهل بيت صدقونى وزوجونى، فمن أين لى ما أعطى صداقى؟ فقال رسول الله ﷺ لبريدة الأسلمى: "اجمعوا لربيعة فى صداقه فى وزن نواة من ذهب" فجمعوها فأعطونى فأتيتهم فقبلوها، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله قد قبلوا، فمن أين لى ما أولم؟ قال: قال رسول الله ﷺ لبريدة: "اجمعوا لربيعة فى ثمن كبش" قال: فجمعوا وقال لى: "انطلق إلى عائشة

فقل لها فلتدفع إليك ما عندها من الشعير" قال: فأتيتها فدفعت إلى، فانطلقت بالكبش والشعير فأصبح والله عندنا خبز ولحم.

وهذه القصة تؤكد مسئولية المجتمع المسلم عن زواج غير القادرين.

ثم إن رسول الله ﷺ أقطع أبا بكر أرضا له فاختلفنا فى عذق - النخلة بحملها - فقلت: هو فى أرضى. وقال أبو بكر: هو فى أرضى، فتنازعنا فقال لى أبو بكر كلمة كرهتها، فندم فأحضرنى فقال لى: قل لى كما قلت، قال: فقلت لا والله لا أقول لك كما قلت لى، قال: إذا أتى رسول الله ﷺ. قال: فأتى رسول الله ﷺوتبعته فجاءنى قومى يتبعوننى فقالوا: هو الذى قال لك وهو يأتى رسول الله فيشكو؟ قال: فالتفت إليهم فقلت: تدرون من هذا، هذا الصديق وذو شيبة المسلمين، ارجعوا لا يلتفت فيراكم فيظن أنكم إنما جئتم لتعينونى عليه فيغضب، فيأتى رسول الله ﷺ فيخبره فيهلك ربيعة. قال: فأتى رسول الله ﷺ فقال: إنى قلت لربيعة كلمة كرهتها فقلت له: يقول مثل ما قلت له فأبى، فقال رسول الله ﷺ: "يا ربيعة ومالك وللصديق؟" قال: فقلت يا رسول الله والله لا أقول له كما قال لى، فقال رسول الله ﷺ: "لا تقل له كما قال لك، ولكن قل غفر الله لك يا أبا بكر".

٩-ومنهم ﷺ سعد مولى أبى بكر ﷺ، ويقال: مولى النبى ﷺ، قال أبو داود الطيالسى عن سعد مولى أبى بكر الصديق أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر - وكان سعد مملوكا لأبى بكر، وكان رسول الله ﷺ يعجبه خدمته -: "أعتق سعدا" فقال: يا رسول الله ما لنا خادم ها هنا غيره، فقال: "أعتق سعدا أتتك

الرجال أتتك الرجال".

وقال أبو داود الطيالسى عن سعد قال: قربت بين يدى رسول الله ﷺ تمرا، فجعلوا يقرنون - يجمعون بين تمرتين أو لقمتين - فنهى رسول الله ﷺ عن القران.

١٠-ومنهم ﷺ عبد الله بن رواحة يكنى أبا محمد، أحد النقباء الاثنى عشر، شهد العقبة مع السبعين، وبدرا، وأحدا، والخندق، والحديبية، وخيبر، وعمرة القضاء، دخل يوم عمرة القضاء مكة وهو يقود بناقة رسول الله ﷺ وهو يقول:

خلوا بنى الكفار عن سبيله   اليوم نضربكم على تأويله

كما ضربناكم على تنزيله   ضربا يزيل الهام عن مقيله

ويشغل الخليل عن خليله

كما قدمنا ذلك بطوله. وقد قتل عبد الله بن رواحة شهيدا بعد هذا بأشهر فى يوم مؤتة كما تقدم أيضا.

حامل نعلى النبى ﷺ وعصاه ووسادته

١١-ومنهم عبد الله بن مسعود من أئمة الصحابة ويكنى أبا عبد الرحمن، أمه أم عبد، أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، ويقال: كان سادسا فى الإسلام. هاجر الهجرتين وشهد بدرا وما بعدها، كان يلى حمل نعلى النبى ﷺ ووساده وسواكه، ويلى طهوره فى السفر، ويرحل دابته إذا أراد الركوب، وكانت له اليد الطولى فى تفسير كلام الله، وله العلم الجم والفضل والحلم.

وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: - وقد جعلوا يعجبون من دقة ساقيه - فقال: "والذى نفسى بيده لهما فى الميزان أثقل من أحد"، وقال عمر بن الخطاب فى ابن مسعود: هو كنيف ملىء علما، وذكروا أنه نحيف الخلق حسن الخلق، يقال: إنه كان إذا مشى يسامت الجلوس، وكان يشبه النبى ﷺ فى هديه ودله وسمته، يعنى أن يشبه بالنبى ﷺ فى حركاته وسكناته وكلامه ويتشبه بما استطاع من عبادته.

وعن القاسم بن عبد الرحمن قال: كان عبد الله يلبس رسول الله ﷺ نعليه ثم يمشى أمامه بالعصا حتى إذا أتى مجلسه نزع نعليه، فأدخلهما فى ذراعيه وأعطاه العصا، فإذا أراد رسول الله ﷺ أن يقوم ألبسه نعليه ثم مشى بالعصا أمامه حتى يدخل الحجرة قبل رسول الله ﷺ.

توفى ﷺ فى أيام عثمان سنة اثنتين - أو ثلاث - وثلاثين بالمدينة عن ثلاث وستين سنة، وقيل: إنه توفى بالكوفة والأول أصح.

١٢-ومنهم ﷺ عقبة بن عامر الجهنى. قال الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال: بينما أقود برسول الله ﷺ فى نقب من تلك النقاب، إذ قال لى "يا عقبة ألا تركب؟" قال: فأشفقت أن تكون معصية، قال: فنزل رسول الله وركبت هنيهة، ثم ركب ثم قال: "يا عقب ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟" قلت: بلى يا رسول الله، فأقرأنى قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، ثم أقيمت الصلاة فتقدم رسول الله ﷺ فقرأ بهما، ثم مر بى فقال: "اقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت".

١٣-ومنهم ﷺ قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى الخزرجى. روى البخارى عن أنس قال: كان قيس بن سعد بن عبادة من النبى ﷺ بمنزلة صاحب الشرط من الأمير، وقد كان قيس هذا ﷺ من أطول الرجال، وكان كوسجا، ويقال: إن سراويله كان يضعه على أنفه من يكون من أطول الرجال فتصل رجلاه الأرض، وقد بعث بسراويله معاوية إلى ملك الروم يقول له: هل عندكم رجل يجىء هذه السراويل على طوله؟ فتعجب صاحب الروم من ذلك. وذكروا أنه كان كريما ذا رأى ودهاء، وقد تقدم ذكر قصته فى سرية الخبط مع أمير المجاهدين أبى عبيدة بن الجراح ﷺ. وكان مع سيدنا على بن أبى طالب أيام صفين. وقال مسعر عن معبد بن خالد: كان قيس بن سعد لا يزال رافعا أصبعه المسبحة يدعو ﷺ وأرضاه.

وقال الواقدى وخليفة بن خياط وغيرهما: توفى بالمدينة فى آخر أيام معاوية. وقال الحافظ أبو بكر البزاز عن أنس قال: كان عشرون شابا من الأنصار يلزمون رسول الله ﷺ لحوائجه، فإذا أراد أمرا بعثهم فيه.

١٤-ومنهم ﷺ المغيرة بن شعبة الثقفى ﷺ كان بمنزلة السلحدار بين يدى رسول الله ﷺ، كما كان رافعا السيف فى يده وهو واقف على رأس النبى ﷺ فى الخيمة يوم الحديبية: فجعل كلما أهوى عمه عروة بن مسعود الثقفى حين قدم فى الرسيلة إلى لحية رسول الله ﷺ - على ما جرت به عادة العرب فى مخاطبتها - يقرع يده بقائمة السيف ويقول: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك. الحديث كما قدمناه.

قال محمد بن سعد وغيره: شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وولاه مع أبي سفيان الإمرة حين ذهبا فخربا طاغوت أهل الطائف، وهى المدعوة بالربة، وهى اللات، وكان داهية من دهاة العرب. وقال الشعبى سمعت قبيصة بن جابر يقول: صحبت المغيرة بن شعبة فلو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بمكر لخرج من أبوابها.

وقد اختلف فى وفاته على أقوال أشهرها وأصحها وهو الذى حكى عليه الخطيب البغدادى الإجماع أنه توفى سنة خمسين.

١٥-ومنهم ﷺ المقداد بن عمرو أبو معبد الكندى حليف بنى زهرة، كان حالف الأسود بن عبد يغوث الزهرى فى الجاهلية فتبناه. فكان يقال له: المقداد ابن الأسود، فلما نزل قوله تعالى: ﴿أدعوهم لآبائهم﴾ (الأحزاب:٥). قيل: المقداد بن عمرو. وشهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها مع النبى ﷺ، وكان طويلا آدم، ذا بطن، كثير شعر الرأس، واسع العين، مقرون الحاجبين.

وعن القاسم بن عبد الرحمن قال: أول من عدا به فرسه فى سبيل الله المقداد بن الأسود. وقال الإمام على عليه السلام: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد.

وقد تقدم قوله ﷺ فى غزوة بدر الذى سر به النبى ﷺ.

قال الإمام أحمد عن المقداد بن عمرو قال: قدمت المدينة أنا وصاحبان فتعرضنا للناس فلم يضفنا أحد، فأتينا إلى النبى ﷺ فذكرنا له، فذهب بنا إلى مترله وعنده أربعة أعتز، فقال: "احلبهن يا مقداد، وجزئهن أربعة أجزاء،وأعط كل إنسان جزءا" فكنت أفعل ذلك فرفعت للنبى ﷺ ذات ليلة، فاحتبس واضجعت على

فراشى فقال لى نفسى: إن النبى ﷺ قد أتى أهل بيت من الأنصار، فلو قمت فشربت هذه الشربة، فلم تزل حتى قمت فشربت جزأه، فلما دخل فى بطنى ومعائى أخذنى ما قدم وما حدث، فقلت: يجيء الآن النبى ﷺ جائعا ظمآنا فلا يرى فى القدح شيئا. فسجيت ثوبا على وجهى. وجاء النبى ﷺ فسلم تسليمة تسمع اليقظان ولا توقظ النائم، فكشف عنه فلم ير شيئا، فرفع رأسه إلى السماء فقال: "اللهم اسق من سقانى، وأطعم من أطعمنى" فاغتنمت دعوته وقمت فأخذت الشفرة فدنوت إلى الأعنز فجعلت أجسهن أيتهن أسمن لأذبحها، فوقعت يدى على ضرع إحداهن فإذا هى حافلا، ونظرت إلى الأخرى فإذا هى حافل، فنظرت فإذا كلهن حفل، فحلبت فى الإناء فأتيته به فقلت: اشرب، فقال: "ما الخبر يا مقداد؟" فقلت: اشرب ثم الخبر، فقال: "بعض سوآتك يا مقداد" فشرب ثم قال: "اشرب" فقلت: اشرب يا نبى الله، فشرب حتى تضلع ثم أخذته فشربته، ثم أخبرته، فقال النبى ﷺ:" هيه" كان كذا وكذا، ثم قال النبى ﷺ: "هذه بركة منزلة من السماء أفلا أخبرتنى حتى أسقى صاحبيك؟" فقلت: إذا شربت البركة أنا وأنت فلا أبالى من أخطأت.

وفى رواية: فى الإناء الذى كانوا لا يطيقون أن يحلبوا فيه، فحلب حتى علته الرغوة، ولما جاء به قال له رسول الله: "أما شربتم شرابكم الليلة يا مقداد؟" فقلت: اشرب يا رسول الله، ثم ناولنى فأخذت ما بقى ثم شربت، فلما عرفت أن رسول الله قد روى فأصابتنى دعوته ضحكت حتى ألقيت إلى الأرض، فقال رسول الله ﷺ: "إحدى سوآتك يا مقداد" فقلت: يا رسول الله كان من أمرى كذا، صنعت كذا. فقال: "ما كانت هذه إلا رحمة الله، ألا كنت أذنتنى توقظ

صاحبيك هذين فيصيبان منهما؟" قال قلت: والذى بعثك بالحق ما أبالى إذا أصبتها وأصبتها معك من أصابها من الناس.

قال أهل السير: شرب المقداد دهن الخروع فمات، وذلك بالجرف على ثلاثة أميال من المدينة، فحمل على رقاب الرجال حتى دفن بالبقيع، وصلى عليه عثمان وذلك فى سنة ثلاث وثلاثين وهو ابن سبعين سنة أو نحوها.

١٦-ومنهم ﷺ مهاجر مولى أم سلمة. قال الطبرانى قال مهاجر: خدمت رسول الله ﷺ سنين فلم يقل لى لشيء صنعته لم صنعته، ولا لشيء تركته لم تركته. وفى رواية: خدمته عشر سنين أو خمس عشرة سنة.

١٧-ومنهم ﷺ أبو السمح. قال أبو السمح: كنت أخدم رسول الله، وكان إذا أراد أن يغتسل قال: ناولنى أدواتى، قال: فأناوله وأستره، فأتى بحسن أو حسين فبال على صدره، فجئت لأغسله فقال: "يغسل من بول الجارية، ويرش من بول الغلام" وهكذا رواه أبو داود والنسائى وابن ماجة.

١٨-ومنهم ﷺ أبو بكر ﷺ. تولى خدمته بنفسه فى سفرة الهجرة لا سيما فى الغار وبعد خروجه منه حتى وصلوا إلى المدينة كما تقدم ذلك، وسوف نتحدث عن ترجمته عند ذكر العشرة المبشرين بالجنة.

فهؤلاء هم جملة خدامه من الأحرار ﷺ.

٥- مواليه ﷺ الذين أعتقهم

١-فمنهم أسامة بن زيد بن حارثة أبو زيد الكلبى، ويقال: أبو زيد، ويقال: أبو محمد، مولى رسول الله ﷺ وابن مولاه، وحبه وابن حبه، وأمه أم أيمن واسمها بركة كانت حاضنة رسول الله ﷺ فى صغره، وممن آمن به قديما بعد بعثته، وقد أمره رسول الله ﷺ فى آخر أيام حياته، وكان عمره إذ ذاك سبع عشرة أو تسع عشرة أو عشرين، وتوفى وهو أمير على جيش كثيف منهم عمر بن الخطاب، لأن رسول الله ﷺ نصبه للإمامة، فلما توفى ﷺ وجيش أسامة مخيم بالجرف كما قدمناه، استطلق أبو بكر من أسامة عمر بن الخطاب فى الإقامة عنده ليستضىء برأيه فأطلقه له، وأنفذ أبو بكر جيش أسامة بعد مراجعة كثيرة من الصحابة له فى ذلك، وكل ذلك يأبى عليهم ويقول: والله لا أحل راية عقدها رسول الله ﷺ، فساروا حتى بلغوا تخوم البلقاء من أرض الشام حيث قتل أبوه زيد شهيدا وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة ﷺ. فأغار على تلك البلاد وغنم وسبى وكر راجعا سالما مؤيدا. فلهذا كان عمر بن الخطاب ﷺ لايلقى أسامة إلا قال له: السلام عليك أيها الأمير.

ولما عقد له رسول الله ﷺ راية الإمرة طعن بعض الناس فى إمارته، فخطب رسول الله فقال فيها: "إن تطعنوا فى إمارته فقد طعنتم فى إمارة أبيه من قبل، وأيم الله إن كان لخليقا للإمارة، وإن كان لمن أحب الخلق إلى بعده"

وثبت فى صحيح البخارى عن أسامة ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يأخذنى والحسن فيقول: "اللهم إنى أحبهما فأحبهما". وروى عن الشعبى عن عائشة

سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من أحب الله ورسوله فليحب أسامة بن زيد" ولهذا لما فرض عمر بن الخطاب للناس فى الديوان فرض لأسامة فى خمسة آلاف . وأعطى ابنه عبد الله بن عمر فى أربعة آلاف . فقيل له فى ذلك، فقال: إنه كان أحب إلى رسول الله ﷺ منك، وأبوه كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك . وقد روى عبد الرزاق عن أسامة: أن رسول الله أردفه خلفه على حمار عليه قطيفة حين ذهب يعود سعد بن عبادة، قبل وقعة بدر .

وأردفه أيضا وراءه على ناقته حين دفع من عرفات إلى المزدلفة كما قدمنا فى حجة الوداع . وقد ذكر غير واحد أنه ﷺ لم يشهد مع سيدنا على شيئا من مشاهده، واعتذر إليه بما قال له رسول الله ﷺ حين قتل ذلك الرجل وقد قال: لا إله إلا الله، فقال: "من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة" الحديث .

وذكر فضائله كثيرة ﷺ . وقد كان أسود كالليل، أفطس حلوا كبيرا فصيحا عالما ربانيا ﷺ، وكان أبوه كذلك إلا أنه كان أبيض شديد البياض، ولهذا طعن من لا يعلم فى نسبه منه . ولما مر مجزز المدلجى عليهما وهما نائمان فى قطيفة وقد بدت أقدامها، أسامة بسواده وأبوه زيد ببياضه قال: سبحان الله إن بعض هذه الأقدام لمن بعض، أعجب بذلك رسول الله ﷺ . ودخل على عائشة مسرورا تبرق أسارير وجهه فقال: "ألم تر أن مجززا نظر آنفا إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد فقال إن بعض هذه الأقدام لمن بعض" . ولهذا أخذ فقهاء الحديث كالشافعى وأحمد من هذا الحديث من حيث التقرير عليه والاستبشار به، والعمل بقول القافة فى اختلاط الأنساب واشتباهها كما هو [illegible] فى

موضعه.

والمقصود أنه ﷺ توفى سنة أربع وخمسين مما صححه أبو عمر. وقال غيره: سنة ثمان أو تسع وخمسين، وقيل: توفى بعد مقتل عثمان. وروى له الجماعة فى كتبهم الستة.

٢-ومنهم أسلم، وقيل: إبراهيم، وقيل: ثابت، وقيل: هرمز أبو رافع القبطى أسلم قبل بدر ولم يشهدها لأنه كان بمكة مع سادته آل العباس، وكان ينحت القداح، ثم هاجر وشهد أحدا وما بعدها، وكان كاتبا، وقد كتب بين يدى على بن طالب بالكوفة، وشهد فتح مصر فى أيام عمر. وقد كان أولا للعباس بن عبد المطلب فوهبه للنبى ﷺ وعتقه وزوجه مولاته سلمى، فولدت له أولادا، وكان على ثقل النبى ﷺ.

وقال الإمام أحمد عن ابن أبى رافع عن أبى رافع أن رسول الله ﷺ بعث رجلا من بنى مخزوم على الصدقة، فقال لأبى رافع: اصحبنى كيما تصيب منها، فقال: لا حتى آتى رسول الله ﷺ فأسأله، فأتى رسول الله فسأله فقال: "الصدقة لا تحل لنا، وإن مولى القوم منهم" وقد رواه الثورى عن محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن الحكم به. وروى أبو يعلى فى مسنده عنه أنه أصابهم برد شديد وهو بخيبر، فقال رسول الله ﷺ: "من كان له لحاف فليلحف من لا لحاف له، قال أبو رافع: فلم أجد من يلحفنى معه، فأتيت رسول الله فألقى على لحافه، فنمنا حتى أصبحنا، فوجد رسول الله ﷺ عند رجليه حية فقال: " يا أبا رافع اقتلها اقتلها" وروى له الجماعة فى كتبهم، ومات فى أيام سيدنا على ﷺ.

٣-ومنهم أنسة بن زيادة بن مشرح، ويقال: أبو مسرح، من مولدى السراة مهاجرى شهد بدرا فيما ذكره عروة والزهرى وموسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق والبخارى وغير واحد. قالوا: وكان ممن يأذن على النبى ﷺ إذا جلس، وذكر خليفة بن خياط فى كتابه عن ابن عباس قال: استشهد يوم بدر أنسة مولى رسول الله ﷺ. قال الواقدى: وليس هذا يثبت عندنا، ورأيت أهل العلم يثبتون أنه شهد أحدا أيضا، وبقى زمانا وأنه توفى فى حياة أبى بكر ﷺ أيام خلافته.

٤-ومنهم أيمن بن عبيد بن زيد الحبشى ونسبه ابن منده إلى عوف بن الخزرج وفيه نظر، وهو ابن أم أيمن بركة أخو أسامة لأمه. قال ابن إسحاق: وكان على مطهرة – كل إناء يتطهر منه – النبى ﷺ، وكان ممن ثبت يوم حنين، ويقول: إن فيه وفى أصحابه نزل قوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ (الكهف: ١١٠). قال الشافعى: قتل أيمن مع النبى ﷺ يوم حنين.

الجنة بدون النبى ﷺ عذاب

٥-ومنهم ثوبان بن بجدد، ويقال: ابن جحدر أبو عبد الله، ويقال: أبو عبد الكريم، ويقال: أبو عبد الرحمن. أصله من أهل السراة مكان بين مكة واليمن، وقيل: من حمير من أهل اليمن، وقيل: من الهان، وقيل: من حكم بن سعد العشيرة من مذحج أصابه سبى فى الجاهلية. فاشتراه رسول الله ﷺ فأعتقه وخيره إن شاء أن يرجع إلى قومه، وإن شاء يثبت فإنه منهم أهل البيت. فأقام على

ولاء رسول الله ﷺ ولم يفارقه حضرا ولا سفرا حتى توفى رسول الله ﷺ.

روى الطبرانى وابن مردويه عن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا [قال البغوى فى تفسيره: إنه ثوبان مولى رسول الله] أتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله لأنت أحب إلى من أهلى ومالى، وإنى لأذكرك فما أصبر حتى أجيء فأنظر إليك، وإنى ذكرت موتى وموتك، فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلتها لا أراك فأنزل الله عز وجل: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا﴾ (النساء: ٦٩). فدعاه النبى ﷺ وقرأها عليه، فقرت عينه بذلك.

وشهد فتح مصر أيام عمر ونزل حمص بعد ذلك وابتنى بها دارا، وأقام بها إلى أن مات سنة أربع وخمسين، وقيل: سنة أربع وأربعين – وهو خطأ – وقيل: إنه مات بمصر، والصحيح بحمص كما قدمنا، روى له البخارى فى كتاب الأدب، ومسلم فى صحيحه وأهل السنن الأربعة.

شارب ماء وضوء النبى ﷺ

٦-ومنهم حنين مولى النبى ﷺ وهو جد إبراهيم بن عبد الله بن حنين، كان يخدم النبى ﷺ ويوضئه، فإذا فرغ النبى ﷺ خرج بفضلة الوضوء إلى أصحابه، فمنهم من يشرب منه، ومنهم من يتمسح به، فاحتبسه حنين فخبأه عنده فى جرة حتى شكوه إلى النبى ﷺ فقال له: "ما تصنع به؟" فقال: أدخره عندى أشربه يا رسول الله، فقال ﷺ: "هل رأيتم غلاما أحصى ما أحصى هذا؟" ثم إن النبى ﷺ وهبه

لعمه العباس فاعتقه رضى الله عنهما.

٧-ومنهم رافع أو أبو رافع، ويقال له: أبو البهى. قال أبو بكر بن أبى خيثمة: كان لأبى أحيحة سعيد بن العاص الأكبر فورثه بنوه وأعتق ثلاثة منهم أنصباءهم وشهد معهم يوم بدر، فقتلوا ثلاثتهم، ثم اشترى أبو رافع بقية أنصباء بنى سعيد مولاه إلا نصيب خالد بن سعيد، فوهب خالد نصيبه لرسول الله ﷺ فقبله وأعتقه، فكان يقول: أنا مولى رسول الله ﷺوكذلك كان بنوه يقولون من بعده.

٨-ومنهم رباح الأسود، وكان يأذن على النبى ﷺ وهو الذى أخذ الإذن لعمر ابن الخطاب حتى دخل على رسول الله ﷺ فى تلك المشربة يوم آلى من نسائه واعتزلهن فى تلك المشربة وحده ﷺ، هكذا جاء مصرحاً باسمه فى حديث عكرمة بن عمار عن سماك بن الوليد عن ابن عباس عن عمر.

وقال الإمام أحمد عن أياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: كان للنبى ﷺ غلام يسمى رباح.

٩-ومنهم رويفع مولاه ﷺ، هكذا عدّه فى الموالى مصعب بن عبد الله الزبيرى وأبو بكر بن أبى خيثمة قالا: وقد وفد ابنه على عمر بن عبد العزيز فى أيام خلافته ففرض له. قالا: ولا عقب له.

كان عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - شديد الاعتناء بموالى رسول الله ﷺ، يحب أن يعرفهم ويحسن إليهم. وقد كتب فى أيام خلافته إلى أبى بكر بن حزم عالم أهل المدينة فى زمانه: أن يفحص له عن موالى رسول الله ﷺ الرجال

والنساء وخدامه. (رواه الواقدى).

١٠-ومنهم زيد بن حارثة الكلبى. وقد قدمنا طرفاً من ذكره عند ذكر مقتله شهيداً بغزوة مؤتة ﷺ، وذلك فى جمادى من سنة ثمان قبل الفتح بأشهر، وقد كان هو الأمير المقدم، ثم بعده جعفر، ثم بعدهما عبد الله بن رواحة.

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى سرية إلا أمَّره عليهم، ولو بقى بعده لاستخلفه. (رواه أحمد).

وهو زيد بن حارثة بن شراحيل بن عبد العزى بن امرىء القيس، ويقال له: زيد الحب، أو زيد الخير. وأمه سعدى بنت ثعلبة بن عامر، وقد مرت قصة إغارة خيل بنى القين فى الجاهلية، واختطاف سيدنا زيد وبيعه فى سوق عكاظ عند ذكر أم المؤمنين السيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها.

قال أهل السير: وشهد زيد بدراً وأحداً والخندق والحديبية وخيبر، واستخلفه رسول الله ﷺ على المدينة حين خرج إلى المريسيع، وخرج أميراً فى سبع سرايا، ولم يسم أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فى القرآن باسمه غيره.

وكان له من الولد: زيد -- مات صغيرا -، ورقية: أمها أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط. وأسامة: أمه أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ.

١١-ومنهم زيد أبو يسار، قال أبو القاسم البغوى فى معجم الصحابة: سكن المدينة، روى حديثا واحدا. ثنا أبو عمر بن مرة سمعت بلال بن يسار بن زيد مولى النبى ﷺ سمعت أبى حدثنى عن جدى أنه سمع رسول الله يقول: "من قال استغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه، غفر له وإن كان فر من

الزحف" وهكذ رواه أبو داود عن أبى سلمة. وأخرجه الترمذى عن محمد بن إسماعيل البخارى عن أبى سلمة موسى بن إسماعيل به. وقال الترمذى غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

أرسله النبى ﷺ فكلمه الأسد

١٢-ومنهم سفينة أبو عبد الرحمن، ويقال: أبو البخترى كان اسمه مهران، وقيل: عبس، وقيل: أحمر، وقيل: رومان، فلقبه رسول الله ﷺ لسبب سنذكره، فغلب عليه. وكان مولى لأم سلمة فاعتقته واشترطت عليه أن يخدم رسول الله ﷺ حتى يموت، فقبل ذلك. وقال: لو لم تشترطى على ما فارقته، وهذا الحديث فى السنن. وهو من مولدى العرب وأصله من أبناء فارس وهو سفينه بن مافنة. وقال الإمام أحمد: حدث سعيد بن جمهان قال سفينة: قال رسول الله ﷺ: "الخلافة فى أمتى ثلاثون سنة، ثم ملكا بعد ذلك" ثم قال لى سفينة: أمسك خلافة أبى بكر، وخلافة عمر، وخلافة عثمان، وأمسك خلافة على، ثم قال: فوجدناها ثلاثين سنة. ثم نظرت بعد ذلك فى الخلفاء فلم أجده يتفق لهم ثلاثون. قلت لسعيد أين لقيت سفية؟ قال: ببطن نخلة فى زمن الحجاج، فأقمت عنده ثلاث ليال أسأله عن أحاديث رسول الله ﷺ. قلت له: ما اسمك؟ قال: ما أنا بمخبرك، سمانى رسول الله سفينه. قلت: و لم سماك سفينة؟ قال: خرج رسول الله ﷺ ومعه أصحابه، فنقل عليهم متاعهم فقال لى: "ابسط كساك" فبسطته، فجعلوا فيه متاعهم ثم حملوه على، فقال لى رسول الله ﷺ: "احمل فإنما أنت سفينة" فلو حملت يومئذ وقر بعير أو بعيرين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة أو سبعة ما

ثقل عليَّ، إلا أن يخفوا. وهذا الحديث عن أبي داود والترمذى والنسائى. ولفظه ع دهم "خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم تكون ملكاً".

وقال الإمام أحمد: عن سفينة قال: كنا فى سفر فكان كلما أعيا رجل ألقى عليَّ ثيابه، ترساً أو سيفا حتى حملت من ذلك شيئاً كثيراً، فقال النبى ﷺ: "أنت سفينة" هذا هو المشهور فى تسميته سفينة.

وقد قال أبو القاسم البغوى عن مولى لأم سلمة قال: كنا مع رسول الله ﷺ فمررنا بواد – أو نهر– فكنت أعبر الناس. فقال لى رسول الله ﷺ: "ما كنت منذ اليوم إلا سفينة" وهكذا رواه الإمام أحمد عن أسود بن عامر عن شريك. وقال أبو عبد الله بن منده عن سفينة قال: ركبت البحر فى سفينه فكسرت بنا، فركبت لوحاً منها فطرحنى فى جزيرة فيها أسد، فلم يرعنى إلا به، فقلت: يا أبا الحارث أنا مولى رسول الله ﷺ، فجعل يغمزنى بمنكبه حتى أقامنى على الطريق، ثم همهم فظننت أنه السلام.

وروى الإمام أحمد أنه كان يسكن بطن نخلة، وأنه تأخر إلى أيام الحجاج.

١٣–ومنهم سلمان الفارسى: مولى رسول الله ﷺ ويعرف بسلمان الخير، أصله من فارس من رام هرمز، وكان إذا قيل له: ابن من أنت؟ قال: أنا سلمان بن الإسلام من بنى آدم، وكان سلمان يطلب دين الله تعالى، ويتبع من يرجو ذلك عنده، فدان بالنصرانية وغيرها، وقرأ الكتب، وصبر فى ذلك على مشقات نالته، وذلك كله مذكور فى خبر إسلامه، وذكر سليمان التيمى عن أبى عثمان النهدى عن سلمان الفارسى أنه تداوله فى ذلك بضعة عشر ربا من رب إلى

رب، حتى أفضى إلى النبى ﷺ ومن الله عليه بالإسلام.

قصة إسلامه رضي الله عنه

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: حدثنى سلمان الفارسى قال: كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان، من أهل قرية منها يقال لها جـى، وكـان أبى دهقان – رئيس الإقليم – قريته. وكنت أحب خلق الله إليه. فلم يزل به حبه إياى حتى حبسنى فى بيته كما تحبس الجارية. واجتهدت فى المجوسية حتى كنت قطن – خازن – النار الذى يوقدها لا يتركها تخبو ساعة.

قال: وكانت لأبى ضيعة عظيمة. قال: فشغل فى بنيان له يوما. قال لى: يا بنى إنى قد شغلت فى بنيانى هذا اليوم عن ضيعتى فاذهب فطالعها، وأمرنى فيها ببعض ما يريد، فخرجت أريد ضيعته، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدرى ما أمر الناس لحبس أبى إياى فى بيته. فلما مررت بهم وسمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون. قال: فلما رأيتهم أعجبتنى صلاتهم ورغبت فى أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الذى نحن عليه. فو الله ما تركتهم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبى و لم آتها، فقلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام؟.

قال: ثم رجعت إلى أبى وقد بعث فى طلبى وشغلته عن عمله كله. فلما جئته قال: أى بنى أين كنت ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟ قلت: يا أبة، مررت بناس يصلون فى كنيسة لهم فأعجبنى ما رأيت دينهم، فو الله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس، قال: أى بنى ليس فى ذلك الدين خير، دينك ودين

آبائك خير منه. قلت: كلا والله إنه لخير من ديننا. قال: فخافنى فجعل فى رجلى قيداً ثم حبسنى فى بيته.

قال: وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام تجاراً من النصارى فأخبرونى بهم. قال: فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى. قال: فأخبرونى بقدوم تجار، فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فآذنونى بهم. قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم ألقيت الحديد من رجلى ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا: الأسقف فى الكنيسة. قال: فجئته فقلت: إنى قد رغبت فى هذا الدين وأحببت أن أكون معك أخدمك فى كنيستك وأتعلم منك وأصلى معك. قال: فادخل. فدخلت معه.

قال: فكان رجل سوء، يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها فإذا جمعوا إليه منها شيئاً اكتنزه لنفسه و لم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال، أى: مفردها قلة وهى الجرة العظيمة، من ذهب. قال: وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع. قال: ثم مات. فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه و لم يعط المساكين منها شيئاً. قالوا: وما علمك بذلك؟ قلت: أنا أدلكم على كنزه. قالوا: فدُلنا عليه. قال: فأريتهم موضعه. قال: فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً. قال: فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبداً. قال: فصلبوه ثم رجموه بالحجارة.

ثم جاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه، فما رأيت رجلاً يصلى الخمس أرى أنه أفضل منه وأزهد فى الدنيا، ولا أرغب فى الآخرة، ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه. قال: فأحببته حباً لم أحبه من قبله، فأقمت معه زماناً ثم حضرته الوفاة. قلت له: يا فلان إنى كنت معه فأحببتك حباً لم أحبه من قبلك وقد حضرتك الوفاة فإلى من توصى بى، وما تأمرنى؟ قال: أى بنى والله ما أعلم أحداً اليوم على ما كنت عليه. لقد هلك الناس وبدّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل وهو فلان، وهو على ما كنت عليه، فالحق به.

قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل فقلت له: يا فلان إن فلاناً أوصانى عند موته أن ألحق بك وأخبرنى أنك على أمره. قال: فقال لى: أقم عندى. قال: فأقمت عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة قلت له: يا فلان إن فلاناً أوصى بى إليك وأمرنى باللحوق بك وقد حضرك من أمر الله ما ترى فإلى من توصى بى وما تأمرنى؟ قال: أى بنى والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين – بلدة على حدود تركيا وسوريا – وهو فلان فالحق به.

قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين فجئت فأخبرته بما جرى وما أمرنى به صاحبى قال: فأقم عندى فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه. فأقمت مع خير رجل. فو الله ما لبث أن نزل به الموت فلما حضر قلت له: يا فلان إن فلاناً كان أوصى بى إلى فلان، ثم أوصى بى فلان إليك فإلى من توصى بى، وما تأمرنى؟ قال: أى بنى والله ما أعلم أحداً بقى على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية فإنه على مثل ما نحن عليه فإن أحببت فأته فإنه على

مثل أمرنا.

قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية وأخبرته خبرى فقال: أقم عندى. فأقمت عند رجل على هدى أصحابه وأمرهم. قال: وكنت أكتسبت حتى كانت لى بقرات وغنيمة قال: ثم به نزل أمر الله عز وجل فلما حضر قلت له: يا فلان إنى كنت مع فلان فأوصى بى إلى فلان، وأوصى بى فلان إلى فلان، وأوصى بى فلان إلى فلان، وأصى بى فلان إليك فإلى من توصى بى وما تأمرنى؟ قال: أى بنى والله ما أعلم أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس آمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبى مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب مهاجرا إلى أرض بين حرتين، أى: أرض ذات حجارة سود، بينهما نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة. فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

قال: ثم مات وغيب، فمكث بعمورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مر بى نفر من كلب تجارا فقلت لهم: تحملونى إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتى هذه وغنيمتى هذه؟ قالوا: نعم. فأعطيتهم إياها وحملونى حتى إذا قدموا بى وادى القرى ظلمونى فباعونى من رجل من يهود. فكنت عنده ورأيت النخل ورجوت أن يكون البلد التى وصف لى صاحبى ولم يحق لى فى نفسى.

فبينا أنا عنده قدم عليه ابن عم له من المدينة من بنى قريظة فابتاعنى منه فاحتملنى إلى المدينة، فو الله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبى فأقمت بها، وبعث الله رسوله ﷺ فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق.

ثم هاجر إلى المدينة فو الله إني لفى رأس عذق، أى: نخلة، لسيدى أعمل فيه بعض العمل وسيدى جالس إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال: فلان، قاتل الله بنى قيلة، أى: الأوس والخزرج، والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم زعم أنه نبى.

قال: فلما سمعتها أخذتنى العرواء، أى: من الحمى، حتى ظننت أنى ساقط على سيدى. قال: ونزلت عن النخلة فجعلت أقول لابن عمه ماذا تقول؟ قال: فغضب سيدى فلكمنى لكمة شديدة وقال: مالك ولهذا؟ أقبل على عملك. قال: قلت لا شيء، إنما أردت أن استثبته عما قال.

وقد كان شيء عندى قد جمعته فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت به إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء فدخلت عليه فقلت له: إنه قد بلغنى أنك رجل صالح معك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندى للصدقة فرأيتكم أحق به من غيركم. قال: فقربته إليه فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: كلوا وأمسك يده هو فلم يأكل. قال: فقلت فى نفسى: هذه واحدة.

ثم انصرفت عنه فجمعت شيئا وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة ثم جئته به فقلت: إنى رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها، فأكل رسول الله ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه. قال: فقلت فى نفسى: هاتان اثنتان.

قال: ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد – قد تبع جنازة من أصحابه عليه شملتان – وهو جالس فى أصحابه فسلمت عليه، ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذى وصف لى صاحبى؟ فلما رآنى رسول الله ﷺ استدبرته عرف

أنى أستثبت فى شىء وصف لى. قال: فألقى رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته فانكببت عليه أقبله وأبكى فقال رسول الله ﷺ: تحول. فتحولت فقصصت عليه حديثى كما حدثتك يا بن عباس فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه.

عن عبد الله بن بعريزة عن أبيه أن سلمان الفارسى أتى إلى رسول الله ﷺ بصدقة فقال: هذه صدقة عليك وعلى أصحابك، فقال ﷺ: "يا سلمان إنا أهل البيت لا تحل لنا الصدقة، فرفعها. ثم جاءه من الغد بمثلها فقال: هذه هدية، فقال ﷺ لأصحابه: كلوا" فاشتراه رسول الله ﷺ من قوم من اليهود بكذا وكذا درهما، وعلى أن يغرس لهم كذا وكذا من النخيل، يعمل فيها سلمان حتى تدرك، فغرس رسول الله ﷺ النخل كله إلا نخلة واحدة غرسها عمر ﷺ، فأطعم النخل كله إلا تلك النخلة، فقال رسول الله ﷺ: "من غرسها؟ فقالوا: عمر، فقلعها رسول الله ﷺ وغرسها بيده فأطعمت من عامها".

وذكر معمر عن رجل من أصحابه ﷺ قال: دخل قوم على سلمان – وهو أمير على المدائن وهو يعمل الخوص – فقيل له: تعمل هذا وأنت أمير يجرى عليك رزق؟ فقال: إنى أحب أن آكل من عمل يدى، وذكر أنه تعلم عمل الخوص بالمدينة من الأنصار عند بعض مواليه.

أول مشاهده الخندق، وهو الذى أشار بحفره، فقال أبو سفيان وأصحابه إذا رأوه: هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها. وقد قيل: إنه شهد بدرا وأحدا إلا أنه كان عبدا يومئذ، والأكثر أن أول مشاهده الخندق، و لم يفته بعد ذلك

مشهد مع رسول الله ﷺ، وكان خيرا فاضلا حبرا عالما زاهدا متقشفا.

ذكر هشام بن حسان عن الحسن قال: كان عطاء سلمان خمسة آلاف، وكان إذا خرج عطاؤه تصدق به ويأكل من عمل يده، وكانت له عباءة يفترش بعضها ويلبس بعضها. وعن مالك قال: كان سلمان يعمل الخوص بيده فيعيش منه، ولا يقبل من أحد شيئا، قال: ولم يكن له بيت، وإنما كان يستظل بالجدر والشجر، وأن رجلا قال له: ألا أبنى لك بيتا فيه تسكن؟ فقال: مالى به حاجة، فما زال به الرجل حتى قال له: إنى أعرف البيت الذى يوافقك، قال: فصفه لى، قال: أبنى لك بيتا إذا أنت قمت فيه أصاب رأسك سقفه، وإن أنت مددت فيه رجليك أصابهم الجدار، قال: نعم، فبنى له بيتا كذلك.

وروى عن النبى ﷺ قال: "لو كان الدين عند الثريا لناله سلمان". وفى رواية أخرى: "لناله رجال من فارس". وعن عائشة رضى الله عنها قالت: "كان لسلمان مجلس من رسول الله ﷺ ينفرد به بالليل حتى كاد يغلبنا على رسول الله ﷺ". وروى من حديث ابن بريدة عن أبيه عن النبى ﷺ أنه قال: "أمرنى ربى بحب أربعة، وأخبرنى أنه يحبهم، على، وأبو ذر، والمقداد، وسلمان ﷺ".

عن أبى هريرة قال: كان سلمان صاحب الكتابين، قال: قتادة: يعنى الإنجيل والفرقان. وسئل سيدنا على عليه السلام عن سلمان فقال: علم العلم الأول والآخر بحر لا ينزف، وهو منا آل البيت، وعن سيدنا على كرم الله وجهه أنه قال: سلمان الفارسى مثل لقمان الحكيم.

وعن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال فى نفر

فقالوا: ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها، فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ وأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: "يا أبا بكر لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك جل وعلا" فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا يا أبا بكر، يغفر الله لك.

وكان رسول الله ﷺ قد آخى بينه وبين أبي الدرداء، فرأى أم الدرداء مبتذلة، فقال: ما شأنك؟ قالت: إن أخاك ليس له حاجة في شيء من الدنيا، قال: فلما جاء أبو الدرداء رحب بسلمان وقرب له طعاما، فقال سلمان: أطعم، قال: إني صائم، قال: أقسمت عليك إلا ما طعمت، إني لست بآكل حتى تطعم، قال: وبات سلمان عند أبي الدرداء، فلما كان الليل قام أبو الدرداء فحبسه سلمان وقال: يا أبا الدرداء إن لربك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا، وإن لجسدك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه، قال: فلما كان وجه الصبح قال: قم الآن، قال: فقاما فصليا ثم خرجا إلى الصلاة، قال: فلما صلى رسول الله ﷺ قام إليه أبو الدرداء وأخبره بما قال سلمان، فقال رسول الله ﷺ: مثل ما قال سلمان. وكانت وفاته سنة خمس وثلاثين في آخر أيام عثمان، وقيل غير ذلك.

١٤-ومنهم شقران الحبشي واسمه صالح بن عدي، ورثه ﷺ من أبيه. وقال مصعب الزبيري ومحمد بن سعد: كان لعبد الرحمن بن عوف فوهبه للنبي ﷺ. وقد روى الإمام أحمد بن حنبل عن إسحاق بن عيسى عن أبي معشر أنه ذكره فيمن شهد بدرا، وهو مملوك، فلهذا لم يسهم له بل استعمله على الأسرى، فحذاه - أعطاه - كل رجل له أسير شيئا، فحصل له أكثر من نصيب كامل. قال: وقد كان ببدر ثلاثة غلمان غيره، غلام لعبد الرحمن بن عوف، وغلام

لحاطب بن أبي بلتعة، وغلام لسعيد بن معاذ،فرضخ لهم و لم يقسم.

قال أبو القاسم البغوى: وليس له ذكر فيمن شهد بدرا. وذكر الواقدى قال: استعمل رسول الله ﷺ شقران مولاه على جميع ما وجد فى رحال المريسيع من رثة المتاع والسلاح والنعم والشاء وجمع الذرية ناحية. وقال الإمام أحمد عن شقران مولى رسول الله ﷺ قال: رأيته - يعنى النبى ﷺ - متوجها إلى خيبر على حمار يصلى عليه، يومىء إيماء. وفى هذه الأحاديث شواهد أنه ﷺ شهد هذه المشاهد.

وروى الترمذى عن ابن أبى رافع قال سمعت شقران يقول: أنا والله طرحت القطيفة تحت رسول الله ﷺ فى روضته. وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: الذى اتخذ روضة النبى ﷺ أبو طلحة، والذى ألقى القطيفة شقران. ثم قال الترمذى حسن غريب. وقد شهد غسل رسول الله ﷺ. ونزل فى روضته، وأنه وضع تحته القطيفة التى كان يصلى عليها وقال: والله لا يلبسنها أحد بعدك. وذكر الحافظ أبو الحسن بن الأثير فى الغابة أنه انقرض نسله فكان آجرهم موتا بالمدينة فى أيام الرشيد.

١٥-ومنهم ضميرة بن أبى ضميرة الحميرى، أصابه سبى فى الجاهلية فاشتراه النبى ﷺ فأعتقه، ذكره مصعب الزبيرى قال: وكانت له دار بالبقيع، وولد.

قال عبد الله بن وهب عن ابن أبى ذئب عن حسين بن عبد الله بن ضميرة عن أبيه عن جده ضميرة أن رسول الله ﷺ مر بأم ضميرة وهى تبكى فقال لها: "ما يبكيك؟ أجائعة أنت، أعارية أنت" قالت: يا رسول الله فرق بينى وبين ابنى،

فقال رسول الله ﷺ: "لا يفرق بين الوالدة وولدها" ثم أرسل إلى الذى عنده ضميرة فدعاه فابتاعه منه ببكر، قال ابن أبى ذئب: ثم اقرأنى كتابا عنده: (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لأبى ضميرة وأهل بيته، أن رسول الله أعتقهم، وأنهم أهل بيت من العرب، إن أحبوا أقاموا عند رسول الله، وإن أحبوا رجعوا إلى قومهم، فلا يعرض لهم إلا بحق، ومن لقيهم من المسلمين فليستوصى بهم خيرا، وكتبه أبى بن كعب).

١٦-ومنهم طهمان. ويقال: ذكوان، ويقال: مهران، ويقال: ميمون، وقيل: كيسان، وقيل: باذام.

روى عن النبى ﷺ قال: "إن الصدقة لا تحل لى ولا لأهل بيتى، وإن مولى القوم من أنفسهم" رواه البغوى عن منجاب بن الحارث وغيره عن شريك عن عطاء ابن السائب عن إحدى بنات على بن أبى طالب وهى أم كلثوم بنت على قالت: حدثنى مولى للنبى ﷺ يقال له طهمان أو ذكوان. قال: قال رسول الله. فذكره.

١٧-ومنهم عبيد مولى النبى ﷺ قال أبو داود الطيالسى عن شعبة عن سليمان التيمى عن شيخ عن عبيد مولى للنبى ﷺ قال: قلت هل كان النبى ﷺ يأمر بصلاة سوى المكتوبة؟ قال: صلاة بين المغرب والعشاء. قال أبو القاسم البغوى: لا أعلم روى غيره. ثم ساق من طريق أبى يعلى الموصلى حدثنا عبد الأعلى بن حماد ثنا حماد بن سلمة عن سليمان التيمى عن عبيد مولى رسول الله ﷺ أن امرأتين كانتا صائمتين وكانتا تغتابان الناس، فدعا رسول الله ﷺ بقدح فقال

لهما: "قيئا" فقاءتا قيحا ودما ولحما عبيطا – طريا – ثم قال: "إن هاتين صامتا عن الحلال وأفطرتا على الحرام" وقد رواه الإمام أحمد.

١٨–ومنهم فضالة مولى النبى ﷺ. قال محمد بن سعيد أنبأنا الواقدى حدثنى عتبة بن خيرة الأشهلى قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبى بكر محمد بن عمرو بن حزم أن افحص لى عن خدم رسول الله ﷺ من الرجال والنساء ومواليه، فكتب إليه قال: وكان فضالة مولى له يمانى نزل الشام بعد، وكان أبو مويهبة مولدا من مولدى مزينة فأعتقه. قال ابن عساكر: لم أجد لفضالة ذكرا فى الموالى إلا من هذا الوجه.

١٩–ومنهم قفيز أوله قاف وآخره زاى. قال أبو عبد الله بن منده: كان لرسول الله ﷺ غلاما يقال له قفيز، تفرد به محمد بن سليمان.

٢٠–ومنهم كركرة، كان على ثقل النبى ﷺ فى بعض غزواته وقد ذكره أبو بكر ابن حزم فيما كتب به إلى عمر بن عبد العزيز. قال الإمام أحمد: كان على ثقل النبى ﷺ رجل يقال له كركرة، فمات فقال ﷺ: "هو فى النار" فنظروا فإذا عليه عباءة قد غلها، أو كساء قد غله. رواه البخارى عن على بن المدينى عن سفيان.

٢١–ومنهم كيسان. قال البغوى: عن عطاء بن السائب قال: أتيت أم كلثوم بنت على فقالت حدثنى مولى للنبى ﷺ يقال له كيسان قال له النبى ﷺ فى شىء من أمر الصدقة: "إنا أهل بيت نهينا أن نأكل الصدقة، وإن مولانا من أنفسنا فلا تأكل الصدقة".

٢٢-ومنهم مابور القبطى الخصي، أهداه له صاحب الإسكندرية مع مارية وشيرين والبغلة. وقد قدمنا من خبره فى كتابه ﷺ للمقوقس ما فيه كفاية.

٢٣-ومنهم مدعم، وكان أسود من مولدى حسمى، أى: أرض ببادية الشام، أهداه رفاعة بن زيد الخزامى، قتل فى حياة النبى ﷺ، وذلك مرجعهم من خيبر. فلما وصلوا إلى وادى القرى فبينما مدعم يحط عن ناقة رسول الله ﷺ رحلها، إذ جاءه سهم عائر - لا يعرف من رماه - فقتله. فقال الناس: هنيئا له الشهادة، فقال رسول الله ﷺ: "كلا والذى نفسى بيده، إن الشملة التى أخذها يوم خيبر - لم تصبها المقاسم - لتشتعل عليه نارا" فلما سمعوا ذلك جاء رجل بشراك - أو شراكين - فقال النبى ﷺ: "شراك من نار، أو شراكان من نار".

٢٤-ومنهم نافع مولاه. قال الحافظ ابن عساكر: عن نافع مولى رسول الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺيقول: "لا يدخل الجنة شيخ زان، ولا مسكين متكبر، ولا منان بعمله على الله عز وجل".

٢٥-ومنهم نفيع، ويقال: مسروح، ويقال: نافع بن مسروح. والصحيح نافع ابن الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج بن سلمة بن عبد العزى بن غيرة بن عوف بن قيس، وهو ثقيف أبو بكرة الثقفى. وأمه سمية أم زياد. تدلى هو وجماعة من العبيد من سور الطائف، فأعتقهم رسول الله ﷺ، وكان نزوله فى بكرة فسماه رسول الله ﷺ أبا بكرة. قال أبو نعيم: وكان رجلا صالحا آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أبى برزة الأسلمى.

وهو الذى صلى عليه بوصيته إليه، ولم يشهد أبو بكرة وقعة الجمل، ولا أيـــام صفين، وكانت وفاته فى سنة إحدى وخمسين، وقيل سنة اثنتين وخمسين .

٢٦-ومنهم واقد، أو أبو واقد مولى رسول الله ﷺ . قال الحافظ أبو نعيم: عـــن واقد مولى النبى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "من أطاع الله فقد ذكـــر الله، وإن قلت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن، ومن عصى الله فلم يذكره وإن كـــثرت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن" .

٢٧-ومنهم هشام مولى النبى ﷺ قال محمد بن سعد: عن هشام مولى رســـول الله ﷺ قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله إن امرأتى لا تدفع يد لامس، قـــال: "طلقها" قال: إنها تعجبنى، قال: "فتمتع بها" أى: هداها الله .

٢٨-ومنهم يسار . ويقال: إنه الذى قتله العرنيون وقد مثلوا به . وقـــال ابـــن هشام: هم نفر من قيس كبة بن بجيلة وكان يرعى إبل الصدقة . وقـــد ذكـــر الواقدى بسنده عن يعقوب بن عتبة أن رسول الله ﷺ أخذه يوم قرقرة الكدر مع نعم بنى غطفان وسليم، فوهبه الناس لرسول الله ﷺ فقبلـــه منـــهم، لأنـــه رآه يحســـن الصلاة فأعتقه، ثم قسم فى الناس النعم فأصاب كل إنسان منهم ســـبعة أبعرة، وكانوا مائتين .

٢٩-ومنهم أبو الحمراء مولى النبى ﷺ وخادمه، وهو الذى يقال: إن اسمه هـــلال ابن الحارث، وقيل: ابن مظفر، وقيل: هلال بن الحارث بن ظفر السلمى، أصابه سبى فى الجاهلية . عن أبي الحمراء قال: رابطت المدينة سبعة أشهر كيوم، فكـــان النبى ﷺ يأتى باب على وفاطمة كل غداة فيقول: [الصلاة الصلاة]، ﴿إنما يريد

الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾.

وعن أبى الحمراء قال: مر النبى ﷺ برجل عنده طعام فى وعاء فأدخله يده فقال: "غششته! من غشنا فليس منا" وقد رواه ابن ماجة عن أبى بكر بن أبى شيبة عن أبى نعيم. قال عباس الدورى عن ابن معين: أبو الحمراء صاحب رسول الله ﷺ اسمه هلال بن الحارث، كان يكون بحمص، وقد رأيت بها غلاما من ولده، وقال غيره: كان منزله خارج باب حمص. وقال أبو الوازع عن سمرة كان أبو الحمراء فى الموالى.

٣٠-ومنهم أبو سلمى راعى النبى ﷺ. ويقال: أبو سلام واسمه حريث. قال أبو سلمة راعى النبى ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من لقى الله يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وآمن بالبعث والحساب، دخل الجنة". لم يورد له ابن عساكر سوى هذا الحديث. وقد روى له النسائى فى اليوم والليلة آخر، وأخرج له ابن ماجة ثالثا.

المسبح بالحصى

٣١-ومنهم أبو صفية مولى النبى ﷺ. قال أبو القاسم البغوى: عن أبى صفية مولى النبى ﷺ أنه كان يوضع له نطع ويجاء بزبيل فيه حصى فيسبح به إلى نصف النهار، ثم يرفع فإذا صلى الأولى سبح حتى يمسى.

٣٢-ومنهم أبو ضميرة مولى النبى ﷺ والد ضميرة المتقدم، وزوج أم ضميرة. وقد تقدم فى ترجمة ابنه طرف من ذكرهم وخبرهم فى كتابهم.

قال إسماعيل بن أبى أويس: فهو مولى رسول الله ﷺ وهو أحد حمير. وخرج قوم منهم فى سفر ومعهم هذا الكتاب فعرض لهم اللصوص، فأخذوا ما معهم فأخرجوا هذا الكتاب إليهم فأعلموهم بما فيه، فقرءوه فردوا عليهم ما أخذوا منهم ولم يعرضوا لهم. قال: ووفد حسين بن عبد الله بن أبى ضميرة إلى المهدى أمير المؤمنين وجاء معه بكتابهم هذا، فأخذه المهدى فوضعه على بصره، وأعطى حسينا ثلاثمائة دينار.

٣٣-ومنهم أبو عبيد مولاه ﷺ. قال الإمام أحمد: عن أبى عبيد أنه طبخ لرسول الله ﷺ قدرا فيها لحم. فقال رسول الله ﷺ: "ناولنى ذراعها" فناولته، فقال: "ناولنى ذراعها" فناولته، فقال: "ناولنى ذراعها" فقلت: يا نبى الله كم للشاة من ذراع؟ قال: "والذى نفسى بيده لو سكت لأعطيتنى ذراعها ما دعوت به" ورواه الترمذى فى الشمائل.

٣٤-ومنهم أبو عشيب. ومنهم من يقول: أبو عسيب. والصحيح الأول، ومن الناس من فرق بينهما، وقد روى أنه شهد الصلاة على النبى ﷺ وحضر دفنه، قال أبو عشيب مولى رسول الله ﷺ: إن النبى ﷺ قال: "أتانى جبريل بالحمى والطاعون، فأمسكت الحمى بالمدينة وأرسلت الطاعون إلى الشام، فالطاعون شهادة لأمتى ورحمة لهم ورجس على الكافر" وكذا رواه الإمام أحمد.

وقال أبو عبد الله بن منده عن أبى عشيب مولى رسول الله ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ ليلا فمر بى فدعانى، ثم مر بأبى بكر فدعاه فخرج إليه، ثم مر بعمر فدعاه فخرج إليه، ثم انطلق يمشى حتى دخل حائطا لبعض الأنصار، فقال رسول الله

ﷺ لصاحب الحائط: "أطعمنا بسرا"، أي: تمرا لم ينضج، فجاء به فوضعه فأكل رسول الله ﷺ فأكلوا جميعا ثم دعا بماء فشرب منه، ثم قال: "إن هذا النعيم، لتسألن يوم القيامة عن هذا"، فأخذ عمر العذق فضرب به الأرض حتى تناثر البسر، ثم قال: يا نبي الله إنا لمسئولون عن هذا يوم القيامة؟ قال: "نعم إلا من ثلاثة، خرقة يستر بها الرجل عورته، أو كسرة يسد بها جوعته، أوحجر يدخل فيه – يعني من الحر والقر –".

وروى محمد بن سعد في الطبقات: كان أبو عشيب يواصل بين ثلاث في الصيام، وكان يصلي الضحى قائما بعجز، وكان يصوم أيام البيض.

قالت ميمونة بنت أبي عشيب: وكان في سريره جلجل، أي: جرس، فيعجز صوته حين يناديها به، فإذا حركه جاءت.

٣٥-ومنهم أبو كبشة الأنماري من أنمار مذحج على المشهور مولى النبي ﷺ. في اسمه أقوال أشهرها أن اسمه سليم، وقيل: عمرو بن سعد، وقيل: عكسه. وأصله من مولدي أرض دوس، وكان ممن شهد بدرا.

زاد الواقدي، وشهد أحدا وما بعدها من المشاهد، وتوفي يوم استخلف عمر بن الخطاب، وذلك في يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة. وقال خليفة بن خياط: وفي سنة ثلاث وعشرين توفي أبو كبشة مولى رسول الله ﷺ.

وقد روى عن أبي كبشة أن رسول الله ﷺ لما مر في ذهابه إلى تبوك بالحجر جعل الناس يدخلون بيوتهم، فنودي أن الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فقال

رسول الله ﷺ: "ما يدخلكم على هؤلاء القوم الذين غضب الله عليهم؟ فقال رجل: نعجب منهم يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: "ألا أنبئكم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم، وما هو كائن بعدكم" الحديث.

وقال الإمام أحمد عن أبي كبشة الأنماري قال: قال رسول الله ﷺ: "مثل هذه الأمة مثل أربعة نفر، رجل أتاه الله مالا وعلما فهو يعمل به في ماله وينفقه في حقه، ورجل أتاه الله علما ولم يؤته مالا فهو يقول لو كان لي مثل مال هذا عملت فيه مثل الذي يعمل" قال رسول الله ﷺ: "فهما في الأجر سواء، ورجل أتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو يخبط فيه ينفقه في غير حقه، ورجل لم يؤته الله مالا ولا علما فهو يقول لو كان لي مثل مال هذا عملت فيه مثل الذي يعمل"، قال رسول الله ﷺ: "فهما في الوزر سواء".

وقد روى الترمذي عن أبي كبشة أنه قال: ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثا فاحفظوه، ما نقص مال من صدقة، وما ظلم عبد بمظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزا، ولا يفتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر، الحديث. وقال حسن صحيح.

وروى أبو داود وابن ماجة عن ابن ثوبان عن أبيه عن أبي كبشة الأنماري أن رسول الله ﷺ كان يحتجم على هامته وبين كتفيه.

وروى الترمذي حدثنا حميد بن مسعدة ثنا محمد بن حمران عن أبي سعيد – وهو عبد الله بن بسر – قال: سمعت أبا كبشة الأنماري يقول: كانت كمام – قلنسوة

- أصحاب رسول الله ﷺ بطحا، أى: لازمة بالرأس.

٣٦-ومنهم أبو مويهبة مولاه ﷺ، كان من مولدى مزينة اشتراه رسول الله ﷺ فأعتقه ولا يعرف اسمه ﷺ. وقال أبو مصعب الزبيرى، شهد أبو مويهبة المريسيع، وهو الذى كان يقود لعائشة رضى الله عنها بعيرها. وقد روى الإمام أحمد وبسنده عنه فى ذهابه مع رسول ?لله ﷺ فى الليل إلى البقيع، فوقف ﷺ فدعا لهم واستغفر لهم ثم قال: "ليهنكم ما أنتم فيه مما فيه بعض الناس، أتت الفتن كقطع الليل المظلم يركب بعضها بعضا، الآخرة أشد من الأولى، فليهنكم ما أنتم فيه". ثم رجع فقال: "يا أبا مويهبة إنى خيرت مفاتيح ما يفتح على أمتى

من بعدى والجنة أو لقاء ربى، فاخترت لقاء ربى" قال: فما لبث بعد ذلك إلا سبعا - أو ثمانيا - حتى قبض. فهؤلاء مواليه ﷺ.

٦- إماؤه ﷺ

١-فمنهن أمة الله بنت رزينة. الصحيح أن الصحبة لأمها رزينة كما سيأتى، ولكن وقع فى رواية: أن رسول الله ﷺ سبا صفية يوم قريظة والنضير فأعتقها وأمهرها رزينة أم أمة الله. وهذا حديث غريب جدا.

٢-ومنهن أميمة. قال ابن الأثير: وهى مولاة رسول الله ﷺ. روى حديثها أهل الشام. روى عنها جبير بن نفير أنها كانت توضىء رسول الله ﷺ فأتاه رجل يوما فقال له: أوصنى، فقال: "لا تشرك بالله شيئا وإن قطعت أو حرقت بالنار، ولا تدع صلاة متعمدا، فمن تركها متعمدا ?قد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله، ولا تشربن مسكرا فإنه رأس كل خطيئة، ولا تعصين والديك وإن أمراك أن تختلى من أهلك ودنياك".

٣-ومنهن بركة أم أيمن وأم أسامة بن زيد بن حارثة، وهى بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصين بن مالك بن سلمة بن عمرو بن النعمان الحبشية، غلب عليها كنيتها أم أيمن وهو ابنها من زوجها الأول عبيد بن زيد الحبشى، ثم تزوجها بعده زيد بن حارثة فولدت له أسامة بن زيد، وتعرف بأم الظباء، وقد هاجرت الهجرتين رضى الله عنها، وهى حاضنة رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب، وقد كانت ممن ورثها رسول الله ﷺ من أبيه، قاله الواقدى.

وقال غيره: بل ورثها من أمه، وقيل: بل كانت لأخت خديجة فوهبتها من رسول الله ﷺ. وآمنت قديما وهاجرت، وتأخرت بعد النبى ﷺ. وقد زار أبو بكر وعمر رضى الله عنهما إياها بعد وفاة النبى ﷺ، وأنها بكت فقالا لها: أما

تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ؟ فقالت: بلى، ولكن أبكى لأن الوحى قد انقطع من السماء، فجعلا يبكيان معها.

وقال البخارى فى التاريخ: كانت أم أيمن تحضن النبى ﷺ حتى كبر، فأعتقها ثم زوجها زيد بن حارثة، وقيل: إنها بقيت بعد قتل عمر بن الخطاب. وقال محمد ابن سعد عن الواقدى: توفيت أم أيمن فى أول خلافة عثمان بن عفان.

قال الواقدى: كان رسول الله ﷺ يقول لأم أيمن: "يا أمه" وكان إذا نظر إليها قال: "هذه بقية أهل بيتى". وقال أبو بكر بن أبى خيثمة: كان رسول الله ﷺ يقول لأم أيمن: "أم أيمن أمى بعد أمى".

وقال الواقدى عن أصحابه المدنيين قالوا: نظرت أم أيمن إلى النبى ﷺ وهو يشرب فقالت اسقنى، فقالت: عائشة أتقولين هذا لرسول الله ﷺ؟! فقالت: ما خدمته أطول، فقال رسول الله ﷺ: "صدقت" فجاء بالماء فسقاها.

وقال المفضل بن غسان: حدثنا بن جرير ثنا أبى قال: سمعت عثمان بن القاسم قال: لما هاجرت أم أيمن أمست بالمنصرف دون الروحاء وهى صائمة، فأصابها عطش شديد حتى جهدها. قال: فدلى عليها دلو من السماء برشاء، أى: جبل، أبيض فيه ماء، قالت: فشربت فما أصابنى عطش بعد، وقد تعرضت العطش بالصوم فى الهواجر، أى: الحر الشديد، فما عطشت بعد.

٤-ومنهن بريرة فإنها كانت لآل أبى أحمد بن جحش فكاتبوها فاشترتها عائشة منهم فأعتقتها، فثبت ولاؤها لها كما ورد الحديث بذلك فى الصحيحين، و لم يذكرها ابن عساكر.

٥-ومنهن خضرة ذكرها ابن منده فقال: روى معاوية عن هشام عن سفيان عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: كان للنبى ﷺ خادم يقال لها خضرة. وقال محمد ابن سعد عن الواقدى ثنا قائد مولى عبد الله عن عبد الله بن على بن أبي رافع عن جدته سلمى قالت: كان خادم رسول الله أنا وخضرة ورضوى وميمونة بنت سعد، أعتقهن رسول الله ﷺ كلهن.

٦-ومنهن خليسة مولاة حفصة بنت عمر، قال ابن الأثير فى الغابة: روت حديثها عليلة بنت الكميث عن جدتها عن خليسة مولاة حفصة فى قصة حفصة وعائشة مع سودة بنت زمعة ومزحهما معها بأن الدجال قد خرج. فاختبأت فى بيت كانوا يوقدون فيه واستضحكتا، وجاء رسول الله ﷺ فقال: "ما شأنكم"؟ فأخبرتاه بما كان من أمر سودة. فذهب إليها فقالت: يا رسول الله أخرج الدجال؟ فقال: "لا، وكأن قد خرج" فخرجت وجعلت تنفض عنها بيض العنكبوت. وذكر ابن الأثير خليسة مولاة سلمان الفارسى وقال: لها ذكر فى إسلام سلمان وإعتقاهما إياه، وتعويضه ﷺ لها بأن غرس لها ثلاثمائة فسيلة.

٧-ومنهن خولة خادم النبى ﷺ، كذا قال ابن الأثير. وقد روى حديثها الحافظ أبو نعيم من طريق حفص بن سعيد القرشى عن أمه عن أمها خولة.

٨-ومنهن رزينة، قال ابن عساكر والصحيح أنها كانت لصفية بنت حيى. وكانت تخدم النبى ﷺ.

وقد تقدم فى ترجمة ابنتها أمة الله أنه ﷺ أمهر صفية بنت حي أمها رزينة، فعلى هذا يكون أصلها له ﷺ. وقال الحافظ أبو يعلى: ثنا أبو سعيد الجشمى حدثتنا

عليلة بنت الكميت قالت: سمعت أمى أمينة قالت: حدثتنى أمة الله بنت رزينة مولاة رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ سبا صفية يوم قريظة والنضير حين فتح الله عليه، فجاء يقودها سبية، فلما رأت النساء قالت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. فأرسلها وكان ذراعها فى يده، فأعتقها ثم خطبها وتزوجها وأمهرها رزينة. هكذا وقع فى هذا السياق. ولكن الحق أنه ﷺ اصطفى صفية من غنائم خيبر، وأنه أعتقها وجعل عتقها صداقها وما وقع فى هذه الرواية يوم قريظة والنضير غير صحيح فإنهما يومان، بينهما سنتان.

وقال الحافظ أبو بكر البيهقى فى الدلائل. حدثتنا عليلة بنت الكميت العتكية عن أمها أمينة قالت: قلت لأمة الله بنت رزينة مولاة رسول الله ﷺ: يا أمة الله أسمعت أمك تذكر أنها سمعت رسول الله يذكر صوم عاشوراء؟ قالت: نعم، كان يعظمه ويدعو برضعائه ورضعاء ابنته فاطمة فيتفل فى أفواههم ويقول لأمهاتهم: "لا ترضعيهم إلى الليل" له شاهد فى الصحيح.

٩-ومنهن رضوى، قال ابن الأثير: روى سعيد بن بشير عن قتادة عن رضوى بنت كعب أنها سألت رسول الله ﷺ عن الحائض تخضب، فقال: "ما بذلك بأس" رواه أبو موسى المدينى.

١٠-ومنهن ريحانة بنت شمعون القرظية، وقيل النضرية، وقد تقدم ذكرها بعد أزواجه رضى الله عنهن.

١١-ومنهن سانية مولاة رسول الله ﷺ. روت عنه حديثا فى اللقطة.

١٢-ومنهن سديسة الأنصارية، وقيل: مولاة حفصة بنت عمر. روت عن النبى

ﷺ قال: "إن الشيطان لم يلق عمر منذ أسلم إلا خر لوجهه".

١٣-ومنهن سلامة حاضنة سيدنا إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، روت عنه حديثا في فضل الحمل والطلق والرضاع والسهر، فيه غرابة ونكارة من جهة إسناده ومتنه.

١٤-ومنهن سلمى وهى أم رافع امرأة أبى رافع كما رواه الواقدى عنها أنها قالت: كنت أخدم رسول الله ﷺ أنا وخضرة ورضوى وميمونة بنت سعد فاعتقنا رسول الله ﷺ كلنا.

قال الإمام أحمد عن فائد مولى ابن أبى رافع عن جدته سلمى خادم النبى ﷺ قالت: ما سمعت قط أحدا يشكو إلى رسول الله ﷺ وجعا فى رأسه إلا قال: "احتجم" وفى رجليه إلا قال: "اخضبهما بالحناء".

وقد روت عدة أحاديث عن النبى ﷺ يطول ذكرها واستقصائها. قال مصعب الزبيرى: وقد شهدت سلمى وقعة حنين.

وقد ورد أنها كانت تطبخ للنبى ﷺ الحريرة، أى: حساء مطبوخ من الدقيق والدسم والماء، فتعجبه، وقد تأخرت إلى بعد وفاته ﷺ، وشهدت وفاة السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها، وقد كانت أولا لصفية بنت عبد المطلب عمته ﷺ، ثم صارت لرسول الله ﷺ وكانت قابلة أولاد السيدة فاطمة وهى التى قبلت سيدنا إبراهيم عليه السلام ابن رسول الله ﷺ.

وقد قال الإمام أحمد عن عبيد الله بن على بن أبى رافع عن أبيه عن سلمى قالت: اشتكت فاطمة رضى الله عنها شكواها الذى قبضت فيه، فكنت

أمرضها، فأصبحت يوما كمثل ما يأتيها فى شكواها ذلك، قالت: وخرج على لبعض حاجته فقالت: يا أمة اسكبى لى غسلا، فسكبت لها غسلا فاغتسلت كأحسن ما رأيتها تغتسل، ثم قالت: يا أمة اعطنى ثيابى الجدد فلبستها، ثم قالت: يا أمة قدمى لى فراشى وسط البيت، ففعلت واضطجعت فاستقبلت القبلة وجعلت يدها تحت خدها، ثم قالت: يا أمة إنى مقبوضة الآن وقد تطهرت فلا يكشفنى أحد، فقبضت مكانها. قالت: فجاء على فأخبرته.

١٥-ومنهن شيرين، ويقال: سيرن أخت مارية القبطية خالة سيدنا إبراهيم عليه السلام ابن رسول الله ﷺ وقدمنا أن المقوقس صاحب الإسكندرية واسمه جريج بن مينا أهداهما مع غلام اسمه مابور وبغلة يقال لها الدلدل، فوهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت، فولدت له ابنه عبد الرحمن بن حسان.

١٦-ومنهن عنقودة أم مليح الحبشية جارية عائشة، كان اسمها عنبة فسماها رسول الله ﷺ عنقودة رواه أبو نعيم. ويقال: اسمها غفيرة.

١٧-ومنهن فروة ظئر النبى ﷺ -يعنى مرضعه- قالت: قال لى رسول الله: "إذا أويت إلى فراشك فاقرئى قل يا أيها الكافرون فإنها براءة من الشرك" ذكرها أبو أحمد العسكرى، وقاله ابن الأثير فى الغابة.

فأما فضة النوبية فقد ذكر ابن الأثير فى الغابة أنها كانت مولاة لفاطمة بنت رسول الله ﷺ، ثم أورد بإسناد عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا﴾ (الإنسان: ٨). ثم ذكر ما مضمونه: أن الحسن والحسين مرضا فعادهما رسول الله ﷺ وعادهما عامة

العرب، فقالوا لعلى: لو نذرت؟ فقال على: إن برئا مما بهما صمت لله ثلاثة أيام، وقالت فاطمة كذلك، وقالت فضة كذلك، فألبسهما الله العافية فصاموا.

وذهب على فاستقرض ثلاثة آصع من شعير من رجل يهودى فهيئوا منه تلك اللية صاعا فلما وضعوه بين أيديهم للعشاء وقف على الباب سائل فقال: أطعموا المسكين أطعمكم الله على موائد الجنة، فأمرهم على فأعطوه ذلك الطعام وطووا، فلما كانت الليلة الثانية صنعوا لهم الصاع الآخر فلما وضعوه بين أيديهم وقف سائل فقال: أطعموا اليتيم فأعطوه ذلك وطووا. فلما كانت الليلة الثالثة قال: أطعموا الأسير فأعطوه وطووا ثلاثة أيام وثلاث ليال. فأنزل الله فى حقهم: ﴿هل أتى على الإنسان﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لا نريد منكم جزاء ولا شكورا﴾، ومن الأئمة من يجعله موضوعا ويسند ذلك إلى ركة ألفاظه.

وقال عطاء: هذه الآيات نزلت فى على ﷺ، وذلك أنه أجر نفسه ليلة ليسقى نخلا بشىء من شعير حتى أصبح وقبض الشعير، وطحنوه وجعلوا منه شيئا ليأكلوه يقال له الحريرة، فلما تم نضجه أتى مسكين فأخرجوا إليه الطعام، فلما تم نضجه أتى أسير من المشركين فسأل فأطعموه، ثم صنع الثلث الثالث فلما تم نضجه أتى أسير من المشركين فسأل فأطعموه وطووا يومهم ذلك فأنزل الله فيهم هذه الآيات.

١٨-ومنهن ليلى مولاة السيدة عائشة رضى الله عنها، قالت: يا رسول إنك تخرج من الخلاء فأدخل فى أثرك فلم أر شيئا إلا أنى أجد ريح المسك؟ فقال:

"إنا معشر الأنبياء تنبت أجسادنا على أرواح أهل الجنة، فما خرج منا ابتلعته الأرض". رواه أبو نعيم.

١٩-ومنهن مارية القبطية رضى الله عنها، مولاة رسول الله ﷺ، وأم ولده سيدنا إبراهيم عليه السلام، لم تكن من أزواجه، وإنما من سراريه، لكنها انفردت بأنها الوحيدة التى أنجبت لرسول الله ﷺ بعد السيدة خديجة رضى الله عنها. أهداها المقوقس عظيم القبط إلى النبى ﷺ فى سنة سبع، وحملت فى العام التالى، وهى الوحيدة من إمائه التى ضرب عليها الحجاب رضى الله عنها. وقد فرق ابن الأثير بينها وبين مارية أم الرباب، قال: وهى جارية النبى ﷺ أيضا. حديثها عند أهل البصرة رواه عبد الله بن حبيب عن أم سلمى عن أمها عن جدتها مارية قالت: تطأطأت للنبى ﷺ حتى صعد حائطا ليلة فر من المشركين. ثم قال: ومارية خادم النبى ﷺ. روى أبو بكر عن ابن عباس عن المثنى بن صالح عن جدته مارية – وكانت خادم النبى ﷺ – أنها قالت: ما مسست بيدى شيئا قط ألين من كف رسول الله ﷺ.

٢٠-ومنهن ميمونة بنت سعد، قال الإمام أحمد: إن ميمونة مولاة النبى ﷺ قالت: يا رسول الله أفتنا فى بيت المقدس؟ قال: "أرض المنشر والمحشر، إئتوه فصلوا فيه، فإن صلاة فيه كألف صلاة"، قالت: أرأيت من لم يطق أن يتحمل إليه أو يأتيه؟ قال: "فليهد إليه زيتا يسرج فيه، فإنه من أهدى له كان كمن صلى فيه" وهكذا رواه ابن ماجة.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى عن ميمونة – وكانت تخدم النبى ﷺ – قالت:

قال رسول الله ﷺ: "الرافلة في الزينة في غير أهلها، كالظلمة يوم القيامة لا نـــور لها".

٢١-ومنهن ميمونة بنت أبي عسيبة أو عنبسة، قاله أبو عمرو بن منده. قال أبو نعيم: وهو تصحيف والصواب ميمونة بنت أبي عسيب، كذلك روى حديثـــها المشجع بن مصعب أبو عبد الله العبدى عن ميمونة بنت أبي عســـيب، وقيـــل: بنت أبي عنبسة مولاة النبي ﷺ، أن امرأة من حريش أتت النبي ﷺ فنادت: يـــا عائشة أغيثيني بدعوة من رسول الله ﷺ تسكنيني بها وتطمنيني بها، وأنه قال لهـــا: "ضعي يدك اليمنى على فؤادك فامسحيه، وقولي بسم الله اللهم داوني بدوائـــك، واشفني بشفائك، واغنني بفضلك عمن سواك" قالت ربيعة: فدعوت به فوجدته جيدا.

٢٢-ومنهن أم ضميرة زوج أبي ضميرة، وقد تقدم الكلام عليهم ﷺ.

٢٣-ومنهن أم عياش بعثها رسول الله ﷺ مع ابنته تخدمها حين زوجها بعثمـــان ابن عفان. قال أبو القاسم البغوى: حدث أبو صفوان عن أبيه عن جدتـــه أم عياش – وكانت خادم النبي ﷺ – بعث بها مع ابنته إلى عثمان، قالت: كنـــت أمغث، أي: أمرث وأدلك، لعثمان التمر غدوة فيشربه عشية، وأنبـــذه عشـــية فيشربه غدوة، فسألني ذات يوم فقال: تخلطين فيه شيئا؟ فقلت: أجل، قال: فـــلا تعودى.

فهؤلاء إماؤه رضى الله عنهن.

وقد قال الإمام أحمد حدثنا وكيع ثنا القاسم بـــن الفضل حدثني ثمامة بن حـــزن

قال: سألت عائشة عن النبيذ، فقالت: هذه خادم رسول الله ﷺ فسلها، لجارية حبشية، فقالت: كنت أنبذ لرسول الله ﷺ فى سقاء عشاء فأوكيه، فإذا أصبح شرب منه. ورواه مسلم والنسائى من حديث القاسم بن الفضل به. هكذا ذكره أصحاب الأطراف فى مسند عائشة، والأليق ذكره فى مسند جارية حبشية كانت تخدم النبى، وهى إما أن تكون واحدة ممن قدمنا ذكرهن، أو زائدة عليهن.

٧- كُتَّاب الوحى وغيره بين يديه ﷺ

١-فمنهم الخلفاء الأربعة، أبو بكر وعمر وعثمان وعلى بن أبى طالب ﷺ، وسنلحق حديثهم بعد ذلك، وسيأتى ترجمة كل واحد منهم عند ذكر العشرة المبشرين بالجنة.

٢-ومنهم رضى الله عنهم أبان بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى الأموى. أسلم بعد أخويه خالد وعمرو، وكان إسلامه بعد الحديبية لأنه هو الذى أجاز عثمان حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة يوم الحديبية، وقيل: خيبر، لأن له ذكر فى الصحيح من حديث أبى هريرة فى قسمة غنائم خيبر، وكان سبب إسلامه أنه اجتمع براهب وهو فى تجارة بالشام فذكر له أمر رسول الله ﷺ، فقال له الراهب: ما اسمه؟ قال: محمد، قال: فأنا أنعته لك، فوصفه بصفته سواء وقال: إذا رجعت إلى أهلك فأقرئه السلام. فأسلم بعد مرجعه وهو أخو عمرو بن سعيد الأشدق الذى قتله عبد الملك بن مروان. قال أبو بكر بن أبى شيبة: كان أول من كتب الوحى بين يدى رسول الله ﷺ أبى بن كعب، فإذا لم يحضر كتب زيد بن ثابت، وكتب له عثمان وخالد بن سعيد وأبان بن سعيد. هكذا قال – يعنى بالمدينة – وإلا فالسور المكية لم يكن أبى بن كعب حال نزولها، وقد كتبها الصحابة بمكة ﷺ.

وقد اختلف فى وفاة أبان بن سعيد هذا، فقال موسى بن عقبة، ومصعب بن الزبير بن بكار، وأكثر أهل النسب: قتل يوم أجنادين، يعنى فى جمادى الأولى

سنة اثنتى عشرة. وقال آخرون: قتل يوم مرج الصفر سنة أربع عشرة. وقال محمد بن سحاق: قتل هو وأخوه عمرو يوم اليرموك لخمس مضين من رجب سنة خمس عشرة. وقيل: إنه تأخر إلى أيام عثمان وكان يملى المصحف الإمام على زيد بن ثابت ثم توفى سنة تسع وعشرين.

٣-ومنهم ﷺ أبى بن كعب بن قيس بن عبيد الخزرجى الأنصارى. أبو المنذر، ويقال: أبو الطفيل، سيد القراء، شهد العقبة الثانية وبدرا وما بعدها. وكان ربعة نحيفا أبيض الرأس واللحية لا يغير شيبه. قال أنس: جمع القرآن أربعة - يعنى من الأنصار - أبى بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، ورجل من الأنصار يقال له: أبو يزيد أخرجاه. وفى الصحيحين عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لأبى: "إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن" قال: وسمانى لك يا رسول الله؟ قال: "نعم" قال: فذرفت عيناه. ومعنى أن أقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع لا قراءة تعلم منه، هذا لا يفهمه أحد من أهل العلم، وإنما نبهنا على هذا لئلا يعتقد خلافه. وقد ذكر أن سبب القراءة عليه أنه قرأ عليه سورة ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة * رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة﴾ (سورة البينة: ١،٢). وذلك أن أبى بن كعب كان قد أنكر على رجل قراءة سورة على خلاف ما كان يقرأ أبى، فرفعه إلى رسول الله ﷺ فقال: "اقرأ يا أبى" فقرأ. فقال: "هكذا أنزلت" ثم قال لذلك الرجل: "اقرأ" فقرأ فقال: "هكذا أنزلت" قال أبى: فأخذنى من الشك ولا إذ كنت فى الجاهلية، قال: فضرب رسول الله ﷺ فى صدره فنضضت عرقا وكأنما أنظر إلى الله فرقا، فبعد ذلك تلا عليه رسول الله ﷺ هذه السورة

كالتثبيت له والبيان له إن هذا القرآن حق وصدق. وإنه أنزل على أحرف كثيرة رحمة ولطفا بالعباد.

وقد اختلف فى وفاته فقيل: فى سنة تسع عشرة، وقيل: سنة عشرين، وقيل: ثلاث وعشرين، وقيل: قبل مقتل عثمان بجمعة.

٤-ومنهم ﷺ أرقم بن أبى الأرقم، واسمه مناف بن أسد بن جندبِ بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم المخزومى. أسلم قديما وهو الذى كان رسول الله ﷺ. مستخفيا فى داره عند الصفا وتعرف تلك الدار بعد ذلك بالخيزران. وهاجر وشهد بدرا وما بعدها، وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين عبد الله بن أنيس، وهو الذى كتب أقطاع عظيم بن الحارث المحاربى بأمر رسول الله ﷺ بفخ وغيره، وذلك فيما رواهن الحافظ ابن عساكر.

وقد توفى فى سنة ثلاث، وقيل: خمس وخمسين وله خمس وثمانون سنة، وقد روى الإمام أحمد له حديثين، الأول: أن رسول الله ﷺ قال: "إن الذى يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة ويفرق بين الاثنين بعد خروج الإمام كالجار قصبه - المعى - فى النار".

والثانى: عن عبد الله بن عثمان بن الأرقم عن جده الأرقم أنه جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: "أين تريد؟" قال: أردت يا رسول الله ها هنا وأومأ بيده إلى حيز بيت المقدس، قال: "ما يخرجك إليه أتجارة؟" قال: لا ولكن أردت الصلاة فيه، قال: "الصلاة ها هنا" وأومأ بيده إلى مكة "خير من ألف صلاة" وأومأ بيده إلى الشام. تفرد بهما أحمد.

٥-ومنهم ﷺ ثابت بن قيس بن شماس الأنصارى الخزرجى أبو عبد الرحمن، ويقال: أبو محمد المدنى خطيب الأنصار، ويقال له: خطيب النبى ﷺ، قال محمد ابن سعد: أنبأنا على بن محمد المداينى بأسانيده عن شيوخه فى وفود العرب على رسول الله ﷺ، قالوا: قدم عبد الله بن عبس اليمانى ومسلمة بن هاران الحدابى على رسول الله فى رهط من قومهما بعد فتح مكة فأسلموا وبايعوا على قومهم، وكتب لهم كتابا بما فرض عليهم من الصدقة فى أموالهم، كتبه ثابت بن قيس بن شماس وشهد فيه سعد بن معاذ ومحمد بن مسلمة ﷺ. وهذا الصحابى الجليل ممن ثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ بشره بالجنة.

وروى الترمذى فى جامعه بإسناد على شرط مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "نعم الرجل أبو بكر، نعم الرجل عمر، نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح، نعم الرجل أسيد بن حضير، نعم الرجل ثابت بن قيس بن شماس، نعم الرجل معاذ بن عمرو بن الجموح".

وقد قتل ﷺ شهيدا يوم اليمامة سنة اثنتى عشرة فى أيام أبى بكر الصديق.

٦-ومنهم ﷺ حنظلة بن الربيع بن صبيغى بن رياح بن الحارث بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة بن أسيد بن عمرو بن تميم التميمى الأسيدى الكاتب، وأخوه رباح صحابى أيضا، وعمه أكثم بن صيفى كان حكيم العرب. قال الواقدى: كتب للنبى ﷺ كتابا. وقال غيره بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل الطوائف فى الصلح، وشهد مع خالد حروبه بالعراق وغيرها وقد أدرك أيام على وتخلف عن القتال معه فى الجمل وغيره، ثم انتقل عن الكوفة لما شتم بها

عثمان، ومات بعد أيام علي. وقد ذكر ابن الأثير في الغابة: أن امرأته لما مات جزعت عليه، فلامها جاراتها في ذلك، فقالت:

تعجبتْ دعدُ لمحزونة تبكي على ذي شيبة شاحب

إن تسألني اليوم ما شفّني أخبرك قولا ليس بالكاذب

إن سواد العين أودى به حزن على حنظلة الكاتب

قال أحمد: كان معتزلا للفتنة حتى توفي بعد علي، جاء عنه حديثان. والصواب ثلاثة، قال الإمام أحمد عن حنظلة الكاتب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من حافظ على الصوات الخمس بركوعهن وسجودهن ووضوئهن ومواقيتهن وعلم أنهن حق من عند الله دخل الجنة" أو قال: "وجبت له" تفرد به أحمد وهو منقطع بين قتادة وحنظلة.

والحديث الثاني رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجة من حديث سعيد الجريري عن أبي عثمان النهدي عن حنظلة: "لو تدومون كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم وعلى فرشكم، ولكن ساعة وساعة".

والثالث رواه أحمد والنسائي وابن ماجة من حديث سفيان الثوري عن أبي الزناد عن المرقع بن صيفي بن حنظلة عن جده في النهي عن قتل النساء في الحرب.

٧-ومنهم ﷺ خالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أبو سعيد الأموي. أسلم قديما، وذكروا أن سبب إسلامه أنه رأى في النوم كأنه

واقفا على شفير جهنم فذكر من سعتها ما الله به عليم. قال: وكأن أباه يدفعه فيها، وكأن رسول الله ﷺ آخذ بيده ليمنعه من الوقوع، فقص هذه الرؤيا على أبي بكر الصديق فقال له: لقد أريد بك خير، هذا رسول الله ﷺ فاتبعه تنج مما خفته. فجاء رسول الله فأسلم، فلما بلغ أباه إسلامه غضب عليه وضربه بعصاة فى يده حتى كسرها على رأسه وأخرجه من منزله ومنعه القوت، ونهى بقية إخوته أن يكلموه، فلزم خالد رسول الله ﷺ ليلا ونهارا، ثم أسلم أخوه عمرو، فلما هاجر الناس إلى أرض الحبشة هاجر معهم، ثم كان هو الذى ولى العقد فى تزويج أم حبيبة من رسول الله ﷺ كما قدمنا. ثم هاجرا من أرض الحبشة صحبة جعفر فقدما على رسول الله ﷺ بخيبر وقد افتتحها، فأسهم لهما عن مشورة المسلمين، وجاء أخوهما أبان بن سعيد فشهد فتح خيبر كما قدمنا، ثم كان رسول الله ﷺ يوليهم الأعمال. فلما كانت خلافة الصديق خرجوا إلى الشام للغزو فقتل خالد بأجنادين، ويقال: بمرج الصفر. قال عتيق بن يعقوب حدثنى عبد الملك بن أبى بكر عن أبيه عن جده عن عمرو بن حزم، يعنى أن خالد بن سعيد كتب عن رسول الله ﷺ كتابا: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى محمد رسول الله ﷺ راشد بن عبد رب السلمى أعطاه علوتين وعلوة –ولعلها غلوة وهى مقدار ما يبلغه السهم– بحجر برهاط، فمن خافه فلا حق له وحقه حق، وكتب خالد بن سعيد.

وقال محمد بن سعد عن الواقدى: حدثنى جعفر بن محمد بن خالد عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان قال: أقام خالد بن سعيد بعد أن قدم من أرض الحبشة بالمدينة، وكان يكتب لرسول الله ﷺ، وهو الذى كتب كتاب أهل

الطائف لوفد ثقيف وسعى فى الصلح بينهم وبين رسول الله ﷺ.

٨-ومنهم ﷺ خالد بن الوليد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم (أبـــو ســلمان) المخزومى وهو أمير الجيوش المنصورة الإسلامية، والعساكر المحمدية، والمواقــف المشهودة، والأيام المحمودة. ذو الرأى السديد، أبو سليمان خالد بن الوليـــد. ويقال: إنه لم يكن فى جيش فكسر لا فى جاهلية ولا إسلام.

قال الزبير بن بكار: كانت إليه فى قريش القبة وأعنه الخيل، أسلم هو وعمرو بن العاص وعثمان بن أبى طلحة بعد الحديبية وقيل: خيبر، والثانى هو الصحيح كما قدمنا. و لم يزل رسول الله ﷺ يبعثه فيما يبعثه أميرا. ثم كـــان المقــدم علـــى العساكر كلها فى أيام الصديق، فلما ولى عمر بن الخطاب عزله وولى أبو عبيـدة أمين الأمة على أن لا يخرج عن رأى أبى سليمان. ثم توفى خالد فى أيام عمـــر وذلك فى سنة إحدى وعشرين، وقيل: اثنتين وعشـــرين - والأول الأصـــح - بقرية على ميل من حمص.

قال الواقدى: سألت عنها فقيل لى دثرت. وقال دحيم: توفى بالمدينــة. والأول الأصح. وقد روى أحاديث كثيرة يطول ذكرها، قال عتيق بن يعقوب حدثـــنى عبد الملك بن أبى بكر عن أبيه عن جده عن عمرو بن حزم أن هـــذه قطـــايع أقطعها رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمــد رســـول الله ﷺ إلى المؤمنين أن صيد وح وصيده لا يعضد صيده ولا يقتل، فمن وجد يفعــل مـــن ذلك شيئا فإنه يجلد ويترع ثيابه، وإن تعدى ذلك أحد فإنه يؤخذ فيبلغ به النــبى ﷺ، وأن هذا من محمد النبى، وكتب خالد بن الوليد بأمر رســـول الله ﷺ فـــلا

يتعداه أحد فيظلم نفسه فيما أمره به محمد.

٩-ومنهم ﷺ الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى، أبو عبد الله الأسدى أحد العشرة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذى توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض (وحوارى رسول الله ﷺ وابن عمته صفية بنت عبد المطلب وزوج أسماء بنت أبى بكر ﷺ).

روى عتيق بن يعقوب أن الزبير بن العوام هو الذى كتب لبنى معاوية بن جرول الكتاب الذى أمره به رسول الله ﷺ أن يكتبه لهم. وسوف يأتى الحديث عنه مفصلا عن ذكر العشرة ﷺ.

مترجم رسول الله ﷺ

١٠-ومنهم ﷺ زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوذان بن عمرو بن عبيد ابن عوف بن غنم بن مالك بن النجار الأنصارى النجارى، أبو سعيد ويقال: أبو خارجة، ويقال: أبو عبد الرحمن المدنى، قدم رسول الله ﷺ المدينة وهو ابن إحدى عشرة سنة فلهذا لم يشهد بدرا لصغره، قيل: ولا أحد وأول مشاهده الخندق، ثم شهد ما بعدها. وكان حافظا لبيبا عالما عاقلا، ثبت عنه فى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ أمره أن يتعلم كتاب يهود ليقرأه على النبى ﷺ إذا كتبوا إليه فتعلمه فى خمسة عشر يوما. وقال الإمام أحمد عن خارجة بن زيد أن أباه زيدا أخبره أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قال زيد: ذهب بى إلى رسول الله ﷺ فأعجب بى، فقالوا: يا رسول الله هذا غلام من بنى النجار معه مما أنزل الله عليك بضع عشرة سورة، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ وقال: "يا زيد تعلم

لى كتاب يهود فإنى والله ما آمن يهود على كتابى". قال زيد: فتعلمت لهم كتابهم، ما مرت خمس عشرة ليلة حتى حذقته، وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه، وأجيب عنه إذا كتب. وقد علقه البخارى فى الأحكام عن خارجة ابن زيد بن ثابت بصيغة الجزم فقال: وقال خارجة بن زيد فذكره. وهذا ذكاء مفرط جدا. وقد كان ممن جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ من القراء كما ثبت فى الصحيحين عن أنس. وروى أحمد والنسائى من حديث أبى قلابة عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: "أرحم أمتى بأمتى أبو بكر، وأشدها فى دين الله عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأقضاهم على بن أبى طالب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأعلمهم بالفرائض زيد بن ثابت، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح" ومن الحفاظ من يجعله مرسلا إلا ما يتعلق بأبى عبيدة ففى صحيح البخارى من هذا الوجه.

وقد كتب الوحى بين يدى رسول الله ﷺ فى غير ما موطن، ومن أفضح ذلك ما ثبت فى الصحيح عنه أنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله﴾ (النساء: ٩٥). دعانى رسول الله ﷺ فقال: اكتب "لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله" فجاء ابن مكتوم فجعل يشكو ضرارته، فنزل الوحى على رسول الله ﷺ فثقلت فخذه على فخذى حتى كادت ترضها، فنزل ﴿غير أولى الضرر﴾ فأمرنى فألحقتها، فقال زيد: فإنى لأعرف موضع ملحقها عند صدع فى ذلك اللوح - يعنى من عظام - الحديث.

وقد شهد زيد اليمامة وأصابه سهم فلم يضره، وهو الذى أمره الصديق بعد هذا

بأن يتتبع القرآن ليجمعه، وقال له: إنك شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه، ففعل ما أمره به الصديق، فكان فى ذلك خير كثير ولله الحمد والمنة.

وقد استنابه عمر مرتين فى حجتين على المدينة، واستنابه لما خرج إلى الشام. وكذلك كان عثمان يستنيبه على المدينة أيضا، وكان على يحبه، وكان يعظم عليا ويعرف له قدره، ولم يشهد معه شيئا من حروبه. وتأخر بعده حتى توفى سنة خمس وأربعين. وقيل: سنة إحدى، وقيل: خمس وخمسين، وهو ممن كان يكتب المصاحف الأئمة التى نفذ بها عثمان بن عفان إلى سائر الآفاق اللائى وقع على التلاوة طبق رسمهن الإجماع والاتفاق.

وارته الملائكة وأنزل عليين

١١-ومنهم عامر بن فهيرة، مولى أبى بكر الصديق ﷺ. قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق عن عمر قال: قال الزهرى: أخبرنى عبد الملك بن مالك المدلجى – وهو ابن أخى سراقة بن مالك – أن أباه أخبره أنه سمع سراقة يقول: فذكر خبر هجرة النبى ﷺ وقال فيه: فقلت له إن قومك جعلوا فيك الدية.

وأخبرتهم من أخبار سفرهم وما يرد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزؤنى منه شيئا ولم يسألونى إلا أن أخف عنا، فسألته أن يكتب لى كتاب موادعة آمن به، فأمر عامر بن فهيرة فكتب فى رقعة من أدم، ثم مضى.

وقد تقدم الحديث بتمامة فى الهجرة. وقد روى أن أبا بكر هو الذى كتب لسراقة هذا الكتاب. وقد كان عامر بن فهيرة ويكنى أبا عمرو من مولدى

الأزد أسود اللون، وكان أولا مولى للطفيل بن الحارث أخى عائشة لأمها أم رومان، فأسلم قديما قبل أن يدخل رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبى الأرقم التى عند الصفا مستخفيا، فكان عامر يعذب مع جملة المستضعفين بمكة ليرجع عن دينه فيأبى، فاشتراه أبو بكر الصديق فأعتقه، فكان يرعى له غنما بظاهر مكة. ولما هاجر رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر كان معهما رديفا لأبى بكر ومعهم الدليل الدئلى فقط كما تقدم مبسوطا، ولما وردوا المدينة نزل عامر بن فهيرة على سعد بن خيثمة، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين أوس بن معاذ وشهد بدرا وأحدا، وقتل يوم بئر معونة وذلك سنة أربع من الهجرة، وكان عمره إذ ذاك أربعين سنة. وقد ذكر عروة وابن إسحاق والواقدى وغير واحد، أن عامر قتله يوم بئر معونة رجل يقال له جبار بن سلمى من بنى كلاب، فلما طعنه بالرمح قال: فزت ورب الكعبة، ورفع عامر حتى غاب عن الأبصار، حتى قال عامر بن الطفيل: لقد رفع حتى رأيت السماء دونه، وسئل عمرو بن أمية عنه فقال: كان من أفضلنا ومن أول أهل بيت نبينا ﷺ، قال جبار: فسألت الضحاك بن سفيان عما قال ما يعنى به؟ فقال: يعنى الجنة. ودعانى الضحاك إلى الإسلام فأسلمت لما رأيت من قتل عامر بن فهيرة، فكتب الضحاك إلى رسول الله ﷺ يخبره بإسلامى وما كان من أمر عامر، فقال: "وارته الملائكة وأنزل عليين".

وفى الصحيحين عن أنس أنه قال: قرأنا فيهم قرآنا أن بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا. وقال محمد بن إسحاق: حدثنى هشام بن عروة عن أبيه أن عامر بن الطفيل كان يقول: من رجل منكم لما قتل رأيته رفع بين السماء

والأرض حتى رأيت السماء دونه؟ قالوا: عامر بن فهيرة. وقال الواقدى: رفع عامر بن فهيرة إلى السماء فلم توجد جثته، يرون أن الملائكة وارته.

١٢-ومنهم ﷺعبد الله بن أرقم بن أبى الأرقم المخزومى. أسلم عام الفتح وكتب للنبى ﷺ. قال الإمام مالك. وكان ينفذ ما يفعله ويشكره ويستجيده. عن عبد الله بن الزبير أن رسول الله ﷺ استكتب عبد الله بن الأرقم بن عبد يغوث، وكان يجيب عنه الملوك، وبلغ من أمانته أنه ﷺ كان يأمره أن يكتب إلى بعض الملوك فيكتب، ويختم على ما يقرأه لأمانته عنده. وكتب لأبى بكر وجعل إليه بيت المال، وأقره عليهما عمر بن الخطاب، فلما كان عثمان عزله عنهما. وذلك بعد ما استعفاه عبد الله بن الأرقم، ويقال: إن عثمان عرض عليه ثلاثمائة ألف درهم عن أجرة عمالته فأبى أن يقبلها وقال: إنما عملت لله فأجرى على الله عز وجل.

قال ابن إسحاق: وكتب لرسول الله ﷺ زيد بن ثابت، فإذا لم يحضر ابن الأرقم وزيد بن ثابت كتب من حضر من الناس، وقد كتب عمر، وعلى، وزيد، والمغيرة بن شعبة، ومعاوية، وخالد بن سعيد بن العاص وغيرهم ممن سمى من العرب. وقال الأعمش: قلت لشقيق بن سلمة من كان كاتب النبى ﷺ؟ قال: عبد الله بن الأرقم، وقد جاءنا كتاب عمر بالقادسية وفى أسفله، وكتب عبد الله بن الأرقم. وقال البيهقى: عن القاسم بن محمد عن عبد الله بن عمر قال: أتى رسول الله ﷺ كتاب رجل، فقال لعبد الله بن الأرقم: "أجب عنى" فكتب جوابه ثم قرأه عليه، فقال: "أصبت وأحسنت، اللهم وفقه" قال: فلما ولى عمر كان يشاوره. وقد روى عمر بن الخطاب أنه قال: ما رأيت أخشى لله منه —

يعنى فى العمال - رضي الله عنه.

١٣-ومنهم رضي الله عنه عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصارى الخزرجى، صاحب الأذان، أسلم قديما فشهد عقبة السبعين، وحضر بدرا وما بعدها، ومن أكبر مناقبه - فى بعض الروايات - رؤيته الأذان والإقامة فى النوم، وعرضه ذلك على رسول الله ﷺ وتقريره عليه، وقوله له: "إنها لرؤيا حق فألقه على بلال، فإنه أندى صوتا منك". وقد روى الواقدى بأسانيده عن ابن عباس أنه كتب كتابا لمن أسلم من جرش فيه الأمر لهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإعطاء خمس المغنم. وقد توفى رضي الله عنه سنة اثنتين وثلاثين عن أربع وستين سنة، وصلى عليه سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

١٤-ومنهم رضي الله عنه عبد الله بن سعد بن أبى سرح، القرشى العامرى، أخو عثمان لأمه من الرضاعة. أرضعته أم عثمان. وكتب الوحى ثم ارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين بمكة، فلما فتحها رسول الله ﷺ - وكان قد أهدر دمه فيمن أهدر من الدماء - فجاء إلى عثمان بن عفان فاستأمن له، فأمنه رسول الله ﷺ كما قدمنا فى غزوة الفتح، ثم حسن إسلام عبد الله بن سعد جدا.

قال أبو داود عن ابن عباس قال: كان عبد الله بن سعد بن أبى سرح يكتب للنبى ﷺ، فأزله الشيطان فلحق بالكفار، فأمر به رسول الله ﷺ أن يقتل، فاستجار له عثمان بن عفان فأجاره رسول الله ﷺ. ورواه النسائى.

وكان على ميمنة عمرو بن العاص حين افتتح عمرو مصر سنة عشرين فى الدولة العمرية فاستناب عمر بن الخطاب عمرا عليها، فلما صارت الخلافة إلى عثمان

عزل عنها عمرو بن العاص وولى عليها عبد الله بن سعد بسنة خمس وعشرين وأمره بغزو بلاد أفريقية فغزاها ففتحها، وحصل للجيش منها مال عظيم كان قسم الغنيمة لكل فارس من الجيش ثلاثة آلاف مثقال من ذهب، وللراجل ألف مثقال. وكان معه فى جيشه هذا ثلاثة من العبادلة، عبد الله بن الزبير، وعبد الله ابن عمر، وعبد الله بن عمرو، ثم غزا عبد الله بن سعد بعد أفريقية الأساود من أرض النوبة فهادنهم، وذلك سنة إحدى وثلاثين. ثم غزا غَزوة الصوارى فى البحر إلى الروم وهى غزوة عظيمة فلما اختلف الناس على عثمان خرج من مصر واستناب عليها ليذهب إلى عثمان لينصره. فلما قتل عثمان أقام بعسقلان – وقيل بالرملة – ودعا الله أن يقبضه فى الصلاة، فصلى يوما الفجر وقرأ فى الأولى منها بفاتحة الكتاب والعاديات، وفى الثانية بفاتحة الكتاب وسورة، ولما فرغ من التشهد سلم التسليمة الأولى، ثم أراد أن يسلم الثانية فقبض بينهما ﷺ، وذلك فى سنة ست وثلاثين، وقيل: سنة سبع، وقيل: إنه تأخر إلى سنة تسع وخمسين، والصحيح الأول.

ولم يقع له رواية فى الكتب الستة ولا فى المسند للإمام أحمد.

١٥-ومنهم ﷺ عبد الله بن عثمان، أبو بكر الصديق. وقد تقدم الوعد بأن ترجمته ستأتى عند ذكر العشرة إن شاء الله عز وجل وبه الثقة. والدليل على كتابه ما ذكره موسى بن عقبة عن الزهرى عن عبد الرحمن بن مالك بن جعشم عن أبيه عن سراقة بن مالك فى حديث حين اتبع رسول الله ﷺ حين خرج هو وأبو بكر من الغار فمروا على أرضهم، فلما غشيهم – وكان من أمر فرسه ما كان – سأل رسول الله ﷺ أن يكتب له كتاب أمان، فأمر أبا بكر فكتب له

كتابا ثم ألقاه إليه. وقد روى الإمام أحمد من طريق الزهرى بهذا السند أن عامر بن فهيرة كتبه، فيحتمل أن أبا بكر كتب بعضه ثم أمر مولاه عامرا فكتب باقيه.

١٦-ومنهم ﷺ عثمان بن عفان أمير المؤمنين، وستأتى ترجمته عند ذكر العشرة وكتابته بين يديه ﷺ مشهورة. وقد روى الواقدى بأسانيده أن نهشل بن مالك الوائلى لما قدم على رسول الله ﷺ أمر رسول الله ﷺ عثمان ابن عفان فكتب له كتابا فيه شرائع الإسلام.

١٧-ومنهم ﷺ على بن أبى طالب أمير المؤمنين، وستأتى ترجمته عند ذكر العشرة، وقد تقدم أنه كتب الصلح بين رسول الله ﷺ وبين قريش يوم الحديبية أن يأمن الناس، وأنه لا إسلال - يعنى إغارة - ولا إغلال - يعنى خيانة - وعلى وضع الحرب عشر سنين. وقد كتب غير ذلك من الكتب بين يديه ﷺ.

١٨-ومن الكتاب بين يديه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وستأتى ترجمته عند ذكر العشرة، وقد تقدم بيان كتابته فى ترجمة عبد الله بن الأرقم.

١٩-ومنهم ﷺ العلاء بن الحضرمى واسم الحضرمى عباد، ويقال: عبد الله بن عباد بن أكبر بن ربيعة بن عريقة بن مالك بن الخزرج بن أياد بن الصدق بن زيد بن مقنع بن حضرموت بن قحطان، وقيل: غير ذلك فى نسبه وهو من حلفاء بنى أمية. وقد تقدم بيان كتابته فى ترجمة أبان بن سعيد بن العاص، وكان له من الأخوة عشرة غيره فمنهم، عمرو بن الحضرمى أول قتيل من المشركين قتله المسلمون فى سرية عبد الله بن جحش، ومنهم عامر بن الحضرمى

الذى أمره أبو جهل - لعنه الله - فكشف عن عورته وناداه وا عمـــراه حـــين اصطف المسلمون والمشركون يوم بدر فهاجت الحرب وقامت على ساق وكان ما كان. ومنهم شريح بن الحضرمى، وكان من خيار الصحابة. قال فيه رسول الله ﷺ: "ذاك رجل لا يتوسد القرآن" يعنى لا ينام ويتركه، بل يقوم به آناء الليل والنهار، ولهم كلهم أخت واحدة وهى الصعبة بنت الحضرمى أم طلحة بن عبيد الله. وقد بعث النبى ﷺ العلاء بن الحضرمى إلى المنـــذر بـــن ســـاوى ملـــك البحريـــن، ثم ولاه عليها أميرا حين افتتحها. وأقره عليها الصديق، ثم عمر بـــن الخطاب، ولم يزل بها حتى عزله عنها عمر بن الخطاب وولاه البصرة. فلما كان فى أثناء الطريق توفى وذلك فى سنة إحدى وعشرين.

من كراماته رضي الله عنه

وقد روى البيهقى عنه وغيره كرامات كثيرة منها أنه سار بجيشه على وجـــه البحر ما يصل إلى ركب خيولهم، وقيل: إنه ما بل أسافر نعال خيولهم، وأمرهـــم كلهم فجعلوا يقولون: يـــا حليم يا عظيم. وأنه كان فى جيشه فاحتـــاجوا إلى ماء فدعا الله فأمطرهم قدر كفايتهم، وأنه لما دفن لما ير له أثر بالكلية، وكان قد سأل الله ذلك.

وله عن رسول الله ﷺ ثلاثة أحاديث، الأول: قال الإمام أحمد عن العلاء بـــن الحضرمى أن رســـول الله ﷺ قال: "يمكث المهاجر بعد قضاء نسكه ثلاثا" وقـــد أخرجه الجماعة من حديثه.

والثانى: قال الإمام أحمد: عن ابن العلاء بن الحضرمى أن أباه كتب إلى النبى ﷺ

فبدأ بنفسه، وكذا رواه أبو داود عن الإمام أحمد بن حنبل.

والحديث الثالث: رواه أحمد وابن ماجة عن حبان الأعرج عنه أنه كتب إلى رسول الله ﷺ من البحرين فى الحائط - يعنى البستان - يكون بين الأخوة فيسلم أحدهم؟ فأمره أن يأخذ العشر ممن أسلم. والخراج - يعنى ممن لم يسلم -.

٢٠-ومنهم رضي الله عنه العلاء بن عقبة، قال الحافظ ابن عساكر: كان كاتبا للنبى ﷺ، ولم أجد أحدا ذكره إلا فيما أخبرنا. ثم ذكر إسناده إلى عتيق بن يعقوب حدثنى عبد الملك بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده عن عمرو بن حزم أن هذه قطائع أقطعها رسول الله ﷺ هؤلاء القوم فذكرها، وذكر فيها: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى النبى محمد عباس بن مرداس السلمى أعطاه مدمورا، فمن خافه فيها للأحق له، وحقه حق، وكتب العلاء بن عقبة وشهد.

ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى محمد رسول الله عوسجة بن حرملة الجهنى، من ذى المروة إلى ظبية إلى الجعلات إلى جبل القبلية لا يحاقه فيه أحد فمن حاقه فلا حق له ولا حقه حق، وكتبه العلاء بن عقبة. وروى الواقدى بأسانيده أن رسول الله ﷺ أقطع لبنى سيح من جهينة وكتب كتابهم بذلك العلاء بن عقبة، وشهد. وقد ذكر ابن الأثير فى الغابة هذا الرجل مختصرا فقال: العلاء بن عقبة كتب للنبى ﷺ، وذكره فى حديث عمرو بن حزم، ذكره جعفر أخرجه أبو موسى - يعنى المدينى - فى كتابه.

٢١-ومنهم رضي الله عنه محمد بن مسلمة بن جريس بن خالد بن عدى بن مجدعة بن

حارثة بن الحارث بن الخزرج الأنصارى الحارثى أبو عبد الله، ويقال: أبو عبد الرحمن، ويقال: أبو سعيد المدنى حليف بنى عبد الأشهل. أسلم على يدى مصعب بن عمير، وقيل: سعد بن معاذ وأسيد بن حصير، وآخى رسول الله حين قدم المدينة بينه وبين أبى عبيدة بن الجراح، وشهد بدرا والمشاهد بعدها. واستخلفه رسول الله على المدينة عام تبوك. قال ابن عبد البر فى الاستيعاب: كان شديد السمرة طويلا أصلع ذا جشة وكان من فضلاء الصحابة، وكان ممن اعتزل الفتنة واتخذ سيفا من خشب. وتوفى بالمدينة سنة ثلاث وأربعين على المشهور عند الجمهور، وصلى عليه مروان بن الحكم. وقد روى حديثا كثيرا عن النبى ﷺ. وذكر محمد بن سعد أن محمد بن مسلمة هو الذى كتب لوفد مرة كتابا عن أمر رسول الله ﷺ.

٢٢-ومنهم ﷺ معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية الأموى. وقد ذكره مسلم بن الحجاج فى كتابه ﷺ. وقد روى مسلم فى صحيحه من حديث عكرمة بن عمار عن أبى زميل سماك بن الوليد عن ابن عباس أن أبا سفيان قال: يا رسول الله ثلاث أعطنيهن؟ قال: "نعم"، قال: تؤمرنى حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين، قال: "نعم"؟، قال: ومعاوية تجعله كاتبا بين يديك، قال: "نعم"؟ الحديث.

قال: وذكر طلبه تزويج أم حبيبة من رسول الله ﷺ، ولكن فيه من المحفوظ تأمير أبى سفيان وتوليته معاوية منصب الكتابة بين يديه ﷺ، وهذا قدر متفق عليه، لأن النبى ﷺ تزوج أم حبيبة قبل إسلام أبى سفيان.

٢٣-ومنهم ﷺ المغيرة بن شعبة الثقفى، وقد قدمت ترجمته فيمن كان يخدمه ﷺ من بين أصحابه من غير مواليه، وأنه كان سيافا على رأس رسول الله ﷺ، وقد روى ابن عساكر بسنده عن عتيق بن يعقوب أن مغيرة بن شعبة هو الذى كتب إقطاع حصين بن نضلة الأسدى الذى أقطعه إياه رسول الله ﷺ بأمره، وزاد بعضهم معيقيب بن أبى فاطمة، والحصين بن نمير.

فهؤلاء كتابه الذين يكتبون بأمره بين يديه ﷺ.

رؤى حول كُتَّابه ﷺ

بعث رسول الله ﷺ فى أمة أمية، ليمحو سبحانه وتعالى أباطيل الضلال، وخبث الجاهلين، وظلمات الفساق، ويظهر الحق على ألسنة وقلوب وأيدى رجال أميين، لا دين لهم ولا علم لهم ولا ملك، ليظهر صافيا من الشوب، خالصا من عكر الأوضاع، وظلمات الأطماع، وهى الحكمة فى بعثته ﷺ فى الأميين، ليعلم الخلف أن الله تعالى أغنانا بما بعث به حبيبه ومصطفاه ﷺ فى ديننا ودنيانا، وتربية نفوسنا وتنظيم مجتمعنا. وقد جاء فى القرآن الكريم: ﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾ (الجمعة: ٢).

فأصلح ﷺ ما فسد من عقائد البشر، وأخلاقهم، وآدابهم، وأعمالهم، وأحكامهم، وعمل بها فكان لها من التأثير ما لم يكن، ولن يكون لغيره ﷺ.
فالأمية كانت متفشية فى بلاد العرب، ولم يكن هناك من يكتب بالعربية حينما جاء الإسلام إلا سبعة عشر إنسانا ذكرهم ابن عبد ربه فى العقد الفريد على سبيل الحصر، وإن رفع غيره العدد إلى الضعف أو أكثر.

وكتاب النبى ﷺ كانوا نوعين:

الأول: الكتاب المباشرون: وهم الذين يتلقون من النبى ﷺ مباشرة فيكتبون له الوحى والرسائل منهم: على بن أبى طالب، وعثمان بن عفان، وأبى بن كعب، وزيد بن ثابت، وخالد بن سعيد.

الثانى: كتاب الدولة: وهم يسجلون ما يحتاج إلى تسجيل من غنائم الحروب

وأنصبة الناس وحاجات قومهم وما شابه ذلك منهم معيقيب بن أبي فاطمة حليف بنى أسد الذى كان يكتب مغانم الرسول ﷺ، وعبد الله بن أبي سرح. والمغيرة بن شعبة، والحصين بن نمير وكانا يكتبان ما بين الناس.

وعبد الله بن الأرقم، والعلاء بن عقبة، وكانا يكتبان بين القوم فى قبائلهم ومياههم، وفى دور الأنصار بين الرجال والنساء.

وكان حنظلة بن الربيع خليفة كل كاتب من كتاب النبى ﷺ إذا غاب عن عمله.

وأقل من هؤلاء بكثير النساء اللاتى كن يكتبن منهن: الشفاء بنت عبد الله التى كانت كاتبة فى الجاهلية، وحفصة بنت عمر، وأم كلثوم بنت عقبة، أما أم سلمة – أم المؤمنين – فكانت تقرأ ولا تكتب.

أهمية تعلم لغة الأعداء

وهناك توجيه طيب من رسول الله ﷺ نراه فى حديث زيد بن ثابت ﷺ قال: أمرنى رسول الله ﷺ أن أتعلم له كتاب يهود، أى: لغتهم قراءة وكتابة. قال: "إنى والله ما آمن يهود على كتاب" قال زيد: فما مر بى نصف شهر حتى تعلمته له، فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم، وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم. (رواه الترمذى).

وبذلك فوت رسول الله ﷺ على اليهود ما يحرصون عليه من التحريف والمغالطة إذ كانوا لا يكتبون إليه إلا بلغتهم التى لا يعرفها أحد من المسلمين،

مع أن كثيرين منهم كانوا يعرفون العربية جيدا، ومنهم شعراء ينظمون بالعربية، وبعد ذلك كان زيد بن ثابت يقوم بدور المترجم قراءة وكتابة، وفى هذا الحديث توجيه للمسلمين على مدار العصور بأهمية تعلم اللغات الأجنبية وخصوصا لغة الأعداء.

٨- أمناؤه ﷺ

١-منهم ﷺ الإمام على كرم الله وجهه وكان على رأس الأمناء حين استخلفه ﷺ يوم هجرته ليؤدى عنه الأمانات لأهل مكة.

٢-وذكر ابن عساكر من أمنائه أبا عبيدة بن عبد الله بن الجراح القرشى الفهرى، وعبد الرحمن بن عوف الزهرى.

روى البخارى أن رسول الله ﷺ قال: (لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة ابن الجراح). وفى لفظ: أن رسول الله ﷺ قال لوفد عبد القيس نجران: (لأبعثن فيكم أمينا حق أمين) فبعث معهم أبا عبيدة.

وأخرج أبو عمر عن الزبير بن بكار قال: كان عبد الرحمن بن عوف أمين النبى ﷺ على نسائه.

وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن عمر أن عبد الرحمن بن عوف قال لأصحاب الشورى - بعد انتقال عمر بن الخطاب -: هل لكم أن أختار لكم وانتفى منها؟ قال على: أنا أول من يرضى، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنت أمين فى أهل السماء وأنت أمين فى أهل الأرض.

وسوف يأتى ترجمة لهؤلاء الثلاثة عند ذكر العشرة المبشرين بالجنة ﷺ.

٣-ومنهم ﷺ معيقيب بن أبى فاطمة الدوسى مولى عبد شمس، كان على خاتمه ﷺ، ويقال: كان خادمه (ذكره ابن عساكر).

وقال غيره: أسلم قديما وهاجر إلى الحبشة فى الناس، ثم إلى المدينة وشهد بدرا

وما بعدها، وكان على الخاتم، واستعمله الشيخان على بيت المال، قالوا: وكان قد أصابه الجذام فأمر عمر بن الخطاب ﷺ فدووى بالحنظل فتوقف المرض. وكان وفاته فى خلافة عثمان بن عفان. وقيل: سنة أربعين.

قال الإمام أحمد عن معيقيب أن رسول الله ﷺ قال فى الرجل يسوى التراب حيث يسجد: (إن كنت لا بد فاعلا فواحدة).

وقال الإمام أحمد عن معيقيب قال: قال رسول الله ﷺ: (ويل للأعقاب من النار). وقد روى أبو داود والنسائى عن أياس بن الحارث بن المعيقيب عن جده قال: كان خاتم النبى ﷺ من حديد ملوى عليه فضة.

والصحيح أن خاتم النبى ﷺ كان من فضة فصه منه، ونقشه محمد رسول الله ﷺ، محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر، فكان فى يده ﷺ ثم كان فى يد أبى بكر من بعده، ثم فى يد عمر، ثم كان فى يد عثمان فلبث فى يده ست سنين، ثم سقط منه فى بئر أريس، فاجتهد فى تحصيله فلم يقدر عليه.

٩- أمراؤه ﷺ

أما أمراؤه ﷺ فقد ذكرناهم، عند بعث السرايا منصوصا على أسمائهم ﷺ أجمعين.

١٠- العشرة المبشرون بالجنة

لقد استطاع الرسول ﷺ بناء الإنسان ليكون قدوة على مر الزمان فى السلم والحرب.. أخلاقا وسلوكا.. ومعاملة ومنهجا، وكان ذلك على ثلاث دعائم هى: العقيدة الراسخة، والقدوة الحسنة، واختيار الرجل المناسب للعمل المناسب.. فرأينا أبا بكر الصديق نموذج الرحمة فى أجلى صورها ومعانيها. وكان عمر أقواهم فى دين الله، وكان عثمان أشدهم حياء، وكان على أقضاهم، وطلحة حوارى الرسول ﷺ وكذلك صاحبه الزبير، وكان عبد الرحمن ابن عوف من تجار الرحمن، وكان أبو عبيدة بن الجراح أمين الله، وأمين رسوله.. وسوف تظل هذه النماذج مضيئة على مر الزمن تملأ حياة المؤمن خيرا وبركة ونماء وجودا.

عن عبد الرحمن بن عوف أن النبى ﷺ قال: "أبو بكر فى الجنة، وعمر فى الجنة، وعثمان فى الجنة، وعلى فى الجنة، وطلحة فى الجنة، والزبير فى الجنة، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة، وسعد بن أبى وقاص فى الجنة، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل فى الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح فى الجنة". أخرجه أحمد والترمذى.

إن العشرة المبشرين بالجنة نماذج سباقة إلى الإيمان والعمل الصالح لمن أراد القدوة من الرجال والنساء، فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض.

والمسلمون اليوم فى أمس الحاجة إلى كثير من ألوان القوة والاستعداد لأعدائهم الذين يتربصون بهم الدوائر، ومن بين هذه الألوان: القدوة الطيبة التى تجذب ببهائها، وتهدى بسناها.

ويأتى فى المقدمة أولئك العشرة المبشرون بالجنة على رأس من يقتدى بهم، ويهتدى بهديهم، ويسار على دربهم.

أول العشرة المبشرين بالجنة

الصديق الأكبر سيدنا أبو بكر رضي الله عنه

السابق إلى التصديق، الملقب بالعتيق، المؤيد من الله بالتوفيق.. صاحب النبى ﷺ فى الحضر والأسفار، ورفيقه الشفيق فى جميع الأطوار، وضجيعه بعد الانتقال فى الروضة المحفوفة بالأنوار، المخصوص فى الذكر الحكيم بمفخر فاق به كافة الأخيار، وعامة الأبرار، وبقى له شرفه على كرور الأعصار، و لم يسم إلى ذروته همم أولى الأيد والأبصار، حيث يقول عالم الأسرار: ﴿ثانى اثنين إذ هما فى الغار﴾ إلى غير ذلك من الآيات والآثار، ومشهور النصوص الواردة فيه والأخبار، التى غدت كالشمس فى الانتشار.. وفضل كل من فاضل، وفاق كل من جادل وناضل، ونزل فيه: ﴿لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل﴾ (الحديد: ١٠).. توحد الصديق، فى الأحوال بالتحقيق، واختار الاختيار من الله دعاه إلى الطريق.. فتجرد من الأموال والأعراض، وانتصب فى قيام التوحيد للتهدف والأغراض.. صار للمحن هدفاً، وللبلاء غرضاً، وزهد فيما عز له جوهراً كان أو عرضاً.. تفرد بالحق، عن الالتفاف إلى الخلق.

هو عبد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة. وينسب "أبو بكر" إلى تيم قريش، فيقال: التيمى، ويلتقى فى النسب مع رسول الله ﷺ عند مرة بن كعب وبين كل منهما وبين "مرة" ستة آباء.

وكان اسمه فى الجاهلية عبد الكعبة فسماه رسول الله ﷺ عبد الله، وسمى بالعتيق:

لأن رسول الله ﷺ قال له: أنت عتيق من النار "أخرجه الترمذى".

وقيل: سمى بالعتيق لجمال وجهه "قاله الليث بن سعد وأحمد بن حنبل وابن معين وغيرهم".

وأما الصديق فقيل: كان يلقب به فى الجاهلية، لما عرف منه الصدق ذكره ابن مسدى. وقيل: لمبادرته إلى رسول الله ﷺ فيما كان يخبره به. قال ابن إسحق عن الحسن البصرى وقتادة: وأول ما اشتهر به صبيحة الإسراء، وأخرج البيهقى وأبو نعيم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى ﷺ هو الذى سماه صديقاً، وكان سيدنا علىّ بن أبى طالب يحلف بالله أن الله أنزل اسم أبى بكر من السماء: "الصديق" (أخرجه الطبرانى ورجاله ثقات).

والده: أبو قحافة عثمان بن عمرو بن كعب، أسلم يوم فتح مكة وأتى أبو بكر به إلى رسول الله ﷺ، فقال النبى ﷺ: "ألا أقررتم الشيخ فى بيته حتى كنا نأتيه – تكرمه لأبى بكر – وأمرهم أن يغيروا شيبه، وبايعه، وأتى المدينة، وبقى حتى توفى فى خلافة سيدنا عمر عن سبع وتسعين سنة.

وتوفى أبو بكر قبله، وورثه أبو قحافة السدس، فرده على ولد أبى بكر.

وولد أبو قحافة: أبا بكر، وأم فروة، وقريبة.

فأما أم فروة فتزوجها رجل من الأزد فولدت له جارية. ثم تزوجها تميم الدارى. ثم تزوجها الأشعث بن قيس كما قدمناه عند ذكر الوفود.

وأما قريبة فكانت عند سعد بن قيس بن عبادة.

ووالدة أبى بكر: سلمى بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، وهى بنت عم أبى قحافة، وتكنى: أم الخير، أسلمت قديما حيث كان المسلمون فى دار الأرقم.

أولاده: كان له ﷺ من الولد: عبد الله، وأسماء ذات النطاقين.. وأمهما قتيلة بنت عبد العزى، وعبد الرحمن وعائشة.. وأمهما أم رومان بنت عامر بن عويمر، ومحمد.. وأمه أسماء بنت عميس، وأم كلثوم.. وأمها حبيبة بنت خارجة بن زيد، وكان الصديق أبو بكر لما هاجر إلى المدينة نزل على خارجة فتزوج ابنته.

فأما عبد الله:فإنه شهد الطائف.

وأما أسماء: فتزوجها الزبير بن العوام فولدت له عدة من الأولاد ثم طلقها، فكانت مع ابنها عبد الله إلى أن قتل وعاشت مائة سنة.

وأما عبد الرحمن: فشهد يوم بدر مع المشركين ثم أسلم.

وأما محمد: فكان من نساك قريش، وقد ولاه سيدنا على بن أبى طالب مصر فقتله صاحب معاوية.

وأما أم كلثوم: فتزوجها طلحة بن عبيد الله ﷺ. قال البغوى فى تفسيره: اجتمع لأبى بكر إسلام أولاده وأبويه جميعا.

مولده ومنشأه: كان مولد أبى الصديق ﷺ بعد مولد النبى ﷺ بسنتين وأربعة أشهر وأيام، وتوفى وله ثلاث وستون سنة.

وكان منشؤه بمكة لا يخرج منها إلا للتجارة، وكان ذا مال جزيل فى قومه، ومروءة تامة، وإحسان، وتفضل فيهم.

وكان من رؤساء قريش فى الجاهلية، وأهل مشاورتهم، ومحببا فيهم، وأعلم لمعالمهم، فلما جاء الإسلام أقره على ما سواه، ودخل فيه أكمل دخول. وأخرج الزبير بن بكار وابن عساكر عن معروف ابن خربوذ قال: إن أبا بكر الصديق ﵁، أحد عشرة من قريش اتصل بهم شرف الجاهلية والإسلام فكان إليه أمر الديات والغرم فى قريش.

وكان أبو بكر ﵁ أعف الناس فى الجاهلية، أخرج ابن عساكر بسند صحيح عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: والله ما قال أبو بكر شعرا قط فى الجاهلية ولا إسلام ولم يسجد لصنم قط، ولقد ترك هو وعثمان بن عفان شرب الخمر فى الجاهلية.

إسلامه: أسلم الصديق ﵁ وهو ابن سبع وثلاثين وقيل: ثمان، وعاش فى الإسلام ستا وعشرين سنة، وهو أول من أسلم من الرجال، وأسلم على يديه خمسة من العشرة المبشرين بالجنة: عثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف ﵃.

وأخرج الطبرانى فى الكبير، وعبد الله بن أحمد بن حنبل فى زوائد الزهد عن الشعبى قال: سألت ابن عباس: أى الناس كان أولا إسلاما؟ قال: أبو بكر الصديق، ألم تسمع قول حسان بن ثابت:

إذا تذكرت شجوا فى أخى ثقة　　　فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خير البـــرية أتقاهـــا وأعدلهـــا بعد النبى وأوفاهـــا بما حمـــلا

والثانى التـــالى المحمود مشهده وأول الناس منهم صدق الرسلا

وأخرج ابن عساكر بسند جيد عن محمد بن سعد بن أبى وقاص أنه قال لأبيـــه سعد: أكان أبو بكر أولكم إسلاما؟ قال: لا، ولكن أسلم قبلـــه أكـــثر مـــن خمســـة، ولكنه كان خيرنا إسلاما.

ويقصد بذلك أن السيدة خديجة، وزيد بن حارثة، وزوجه أم أيمن، وسيدنا على ابن أبى طالب، وورقة بن نوفل أسلموا قبله.

وقد صحب أبو بكر النبى ﷺ من حين أسلم إلى حين انتقل إلى الرفيق الأعلـــى، لم يفارقه سفرا ولا حضرا، إلا فيما أذن له ﷺ فى الخروج من حـــج وغـــزو، وشهد معه المشاهد كلها، وهاجر معه، وترك عياله وأولاده رغبة فى الله ورسوله ﷺ، وهو رفيقه فى الغار، قال تعالى: ﴿ثانى اثنين إذ همـــا فى الغـــار إذا يقـــول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ (التوبة: ٤٠).

وقام بنصر رسول الله ﷺ فى غير موضع، وله الآثار الجميلة فى المشاهد، وثبـــت يوم أحد ويوم حنين، وقد فر الناس، ودفع إليه رسول الله ﷺ رايتـــه العظمـــى يـــوم تبوك، وانفق ماله كله على رسول الله ﷺ فقد أخرج أحمد وابن ماجـــة والترمذى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "مانفعنى مال قط ما نفعـــنى مال أبى بكر" فبكى أبو بكر وقال: (هل أنا ومالى إلا لك يـــا رســـول الله ؟) وكان يملك يوم أسلم أربعين ألف درهم، فكان يعتق منها ويقوى المسلمين.

وكان ﷺ أعلم الناس بأنساب العرب، ولا سيما قريش، وكان كذلك غايـــة فى

علم تعبير الرؤيا، وقد كان يعبر الرؤيا فى زمن النبى ﷺ، وقد قال محمد بن سيرين – وهو المقدم فى هذا العلم بالاتفاق –: كان أبو بكر أعبر هذه الأمة بعد النبى ﷺ "أخرجه ابن سعد".

وهو أول من جمع القرآن، وأول من قاء تحرجا من الشبهات.

وروى مائة حديث واثنين وأربعين حديثا، جاء منها فى الصحيحين ثمانية عشر حديثا، اتفقا على ستة، وانفرد البخارى بأحد عشر، ومسلم بواحد، وخرج له جماعة: روى عنه ابن عباس، وأنس، وقيس بن أبي حازم.

فضائله رضي الله عنه فى القرآن الكريم:

تتعدد فضائل الصديق فى القرآن الكريم، والناظر عبر آياته وأسراره يرى المكانة العلية، والمرتبة السنية لأبى بكر الصديق رضي الله عنه فى القرآن:

١-قال تعالى: ﴿وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى﴾ (الليل: ١٧-٢١).

قال ابن الجوزى: أجمعوا أنها نزلت فى أبى بكر، ففيها التصريح بأنه أتقى من سائر الأمة، والأتقى هو الأكرم عند الله لقوله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (الحجرات: ١٣). وأخرج البزار عن الزبير بن العوام وابن جرير وابن المنذر والآجرى وابن أبى حاتم عن عروة، والحاكم عن ابن إسحق وقال صحيح على شرط مسلم، وقال الفخر الرازى: أجمع المفسرون على أن المراد بالأتقى أبو بكر، وللسيوطى فى ذلك رسالة "الحبل الوثيق فى نصرة الصديق".

وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى أن أبا بكر أعتق سبعة كلهم يعذب فى الله فأنزل الله هذه الآيات.

٢-قال تعالى: ﴿والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى﴾ (الليل: ١-٤). أخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود أن أبا بكر اشترى بلالا من أمية بن خلف ببردة وعشرة أواق فأعتقه لله، فأنزل الله هذه الآية، أى: أن سعى أبى بكر وأمية لمفترق فرقانا عظيما فشتان ما بينهما.

٣-قال تعالى: ﴿ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾ (التوبة: ٤٠). أجمع المسلمون على أن المراد بالصاحب هنا أبو بكر، ومن ثم من أنكر صحبته كفر إجماعا. وكانت مشاهداته فى الغار أعلى من مشاهدات سيدنا يونس فى بطن الحوت إكراما للنبى ﷺ:

إلى غيب مجلى الذات هاجرت تفريدا فأشرق هذا الغيب للروح مشهودا
وفى آى "لا تحزن" شراب تديرها على روح صديق فيفقه توحيدا
تهاجر يا مولاى والقدس موئل لتشهد فى حق العبودة معبودا
تجاوزت ترك الترك فى السير حاضرا وصاحبك الممنوح نال وجودا
مع الله فى غار كيونس أشرقت له حضرة الإطلاق كشفا وتحديدا
معية قرب فى غياهب ظلمة بها الأنس يمحو غربة وجهودا
بأعينه قد كنت فى الغار سيدى وصديقك الممنوح خاف صدودا

ويونس فى حوت الجواذب أشرقت عليه المعانى آنسته سجودا

يرى صاحب المختار فى الغار ظاهرا وشتان بين الحضرتين ورودا

٤-قال تعالى: ﴿والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون﴾ (الزمر: ٣٣) أخرج البزار وابن عساكر أن سيدنا عليا كرم الله وجهه قال فى تفسيرها: الذى جاء بالصدق هو رسول الله ﷺ، والذى صدق به أبو بكر رضي الله عنه.

٥-قال تعالى: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ (الرحمن: ٤٦). أخرج ابن أبى حاتم عن ابن شوذب أنها نزلت فى أبى بكر رضي الله عنه.

٦-قوله تعالى: ﴿هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ (الأحزاب: ٤٣) أخرج عبد بن حميد عن مجاهد لما نزل ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾ (الأحزاب: ٥٦). قال أبو بكر: يا رسول الله ما أنزل عليك خيرا إلا شركنا فيه، فنزلت هذه الآية.

٧-قال تعالى: ﴿ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين﴾ (الحجر: ٤٧). قال: سيدنا على زين العابدين رضي الله عنه: نزلت فى أبى بكر وعمر وعلى رضي الله عنهم.

٨-قال تعالى: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ (النور: ٢٢) نزلت كما فى البخارى وغيره عن عائشة

فى أبى بكر لما حلف أن لا ينفق على مسطح لكونه كان من جملة من رمى السيدة عائشة بالإفك الذى تولى الله سبحانه وتعالى براءها منه بالآيات التى أنزلها فى شأنها. ولما نزلت قال أبو بكر: بلى والله يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا، وعاد بما كان يصنع أن ينفقه عليه، وقد تقدم ذكر ذلك مفصلا فى حادثة الإفك.

فضائله ﷺ فى السنة الشريفة:

إذا كانت فضائل الصديق تتعدد فى القرآن الكريم فإن السنة النبوية الشريفة تلقى علينا بأنهار جارية من فضائله ﷺ سوف نشير إلى نذر يسير منها:

١-أخرج أحمد والبخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "إنه ليس فى الناس أحدا من على فى نفسه وماله من ابن أبى قحافة، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن خلة الإسلام أفضل، سدوا عنى كل خوخة فى المسجد غير خوخة أبى بكر".

٢-أورد ابن حجر فى الصواعق المحرقة عن ابن عمر رضى الله عنهما أن ﷺ قال لأبى بكر: "أنت صاحبى على الحوض وصاحبى فى الغار". (أخرجه الترمذى).

٣-أخرج سعيد بن منصور فى سننه عن أبى وهب مولى أبى هريرة قال: لما رجع رسول الله ﷺ ليلة أسرى به فكان بذى طوى فقال: "يا جبريل إن قومى لا يصدقونى فقال: يصدقك أبو بكر وهو الصديق" ووصله الطبرانى فى الأوسط عن أبى وهب عن أبى هريرة.

٤-أخرج الحاكم عن النزال بن سبرة قلنا لعلى أمير المؤمنين أخبرنا عن أبى

بكـــر فقال: ذلك امرؤ سماه الله الصديق على لسان محمد ﷺ لأنه خليفة رسول الله ﷺ رضيه لديننا فرضيناه لدنيانا.

٥-أخرج الترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه بها ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يدا يكافيه الله بها يوم القيامة، ومـــا نفعنى مال أحد قط ما نفعنى مال أبى بكر، ولو كنت متخذ خليلا لاتخذت أبـــا بكر خليلا إلا وإن صاحبكم – أى: محمدا ﷺ – خليل الله ".

٦-أخرج ابن أبى الدنيا فى مكارم الأخلاق وابن عساكر من طريق صدفة بـــن ميمونة القرشى عن سليمان بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: "خصال الخـــير ثلاثمائة وستون خصلة إذا أراد الله بعبد خيرا جعل فيه خصلة منها بها يدخـــل الجنة، فقال أبو بكر ﷺ: يا رسول الله أفى شىء منها؟ قال: نعم جميعـــها مـــن كل".

٧-أخرج ابن عساكر عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: "حب أبى بكر وشكره واجب على كل أمتى" وأخرج مثله من حديث سهل بن سعد.

٨-أخرج البغوى وابن عساكر عن ابن عمر قال: كنت عند النبى ﷺ وعنده أبو بكر الصديق وعليه عباءة قد خللها فى صدره بخلال فنزل عليه جبريل فقـــال: (يـــا محمد أرى أبا بكر عليه عباءة قد خللها فى صدره بخلال. فقال: يا جبريل أنفق ماله على قبل الفتح، قال: فإن الله يقرأ عليه السلام ويقول: قل لـــه أراض عنى فى فقرك هذا أم ساخط؟ فقال أبو بكر: أسخط على ربى؟ أنـــا عـــن ربى راض، أنا عن ربى راض، أنا عن ربى راض).

١٠-أخرج أبو يعلى وأحمد والحاكم عن سيدنا عليّ قال: قال لى رسول الله ﷺ يوم بدر ولأبى بكر: (مع أحدكما جبريل ومع الآخر ميكائيل).

أقوال الصحابة والسلف الصالح فى فضله:

١-أخرج البخارى أن سيدنا عمر قال: أبو بكر سيدنا. والبيهقى أنه قال: لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم. وعبد الله بن أحمد أنه قال: إن أبا بكر كان سابقاً مبرزاً. ومسدد فى مسنده، قال - يعنى عمر -: لوددت أنى شعرة فى صدر أبى بكر. وابن أبى الدنيا وابن عساكر أنه قال: وددت أنى من أهل الجنة حيث أرى أبا بكر. وأبو نعيم أنه قال: لقد كان ريح أبى بكر أطيب من ريح المسك.

٢-أخرج ابن عساكر عن سيدنا عليّ أنه دخل على أبى بكر وهو مسجى فقال: ما أحد لقى الله بصحيفته أحب إلىَّ من هذا المسجى، أى: بعد رسول الله ﷺ. والطبرانى عن عليّ قال: والذى نفسى بيده ما استبقنا إلى خير قط إلا سبقنا إليه أبو بكر. والطبرانى عن عليّ قال: قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: (هل قلت شيئاً فى أبى بكر؟ فقال: نعم، فقال: (قل وأنا استمع) فقال:

وثانى اثنين فى الغار المنيف وقد ... طاف العدو به إذ صعد الجبلا

وكان حب رسول الله قد علموا ... من البرية لم يعدل به رجلا

فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجزه ثم قال: (صدقت يا حسان هو كما قلت).

٣-وأورد ابن سعد عن إبراهيم النخعى قال: كان أبو بكر يسمى الأواه لرأفته

ورحمته.

٤-وأخرج الدينورى وابن عساكر عن أبي حصين قال: خص الله أبا بكر بأربع خصال لم يخص بها أحداً من الناس، سماه الصديق ولم يسم أحداً الصديق غيره، وهو صاحب الغار مع رسول الله ﷺ، ورفيقه فى الهجرة، وأمره ﷺ بالصلاة والمسلمين شهود.

٥-أخرج الطبرانى عن سيدنا الحسن بن على بن أبي طالب رضى الله عنهما قال: لما احتضر أبو بكر قال: يا عائشة انظرى اللقحة التى كنا نشرب من لبنها، والجفنة التى كنا نصطبغ فيها، والقطيفة التى كنا نلبسها فإنا كنا ننتفع بذلك حين نلى أمر المسلمين. فإذا مت فارددیه إلى عمر، فلما توفى أبو بكر أرسلت به إلى عمر. فقال عمر: رحمك الله يا أبا بكر لقد اتعبت من جاء بعدك.

الصوفى الأزهر

الصوفية هم الذين صفت قلوبهم من شوائب الكون، وتطهرت نفوسهم من رجس الشهوات، وتعلقت هممهم بالله تعالى ففنوا عن كل ما سواه، ووجهوا وجوههم شطره، لم تحجبهم الكائنات عن شهود مبدعها، ولم تشغلهم الآيات الجلية عن فهم إشاراتها وذوق معانيها، هم عبيد الله السائرون على منهج نبيه ﷺ، وهم الذين تلقوا أسرار التوحيد وأنوار الحكمة بقلوب واعية ونفوس صافية عن العلماء العارفين بالله، ورثة رسول الله ﷺ.

وسيدنا أبو بكر الصديق هو الصوفى الأزهر فى أخلاقه وأقواله وأفعاله وأحواله

فقد قيل فى تعريف التصوف ما أورده أبو نعيم فى حلية الأولياء:

١-التصوف هو: الاعتصام بالحقائق عند اختلاف الطرائق.

ويتحقق هذا المعنى فى الصديق ﷺ بعد انتقال النبى ﷺ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما: أن أبا بكر خرج حين توفى النبى ﷺ وعمر يكلم الناس فقال: اجلس يا عمر فأبى عمر أن يجلس، فقال: اجلس يا عمر. فتشهد فقال: أما بعد فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حى لا يموت، إن الله تعالى قال: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم﴾ (آل عمران: ١٤٤). قال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله عز وجل أنزل هذه الآية حين تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما نسمع بشراً من الناس إلا يتلوها.

واعلم أن الصحابة ﷺ إذا اختلفوا فى أمر فكلاهما يكون على صواب فسيدنا عمر ﷺ، وسيدنا أبو بكر ﷺ كلاهما كان على صواب فيما قال، فسيدنا عمر نظر إلى النبى ﷺ من جهة الرسالة التى لا تموت فقال: من قال إن رسول الله مات قطعت عنقه، وهذا حق يؤيده قوله تعالى: ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم﴾ (الحجرات: ٧).

وسيدنا أبو بكر نظر إلى النبى ﷺ من جهة الجسد الذى انتقل إلى الرفيق الأعلى فقال ماقال.

٢-التصوف هو: تفرد العبد بالصمد الفرد.

ويتحقق هذا المعنى فى الصديق ﷺ بعد أن رده ابن الدغنة وهو مهاجر إلى

الحبشة وصار الصديق فى جواره، فتقول السيدة عائشة: لما أنفذت قريش جوار ابن الدغنة قالوا له: مر أبا بكر فليعبد ربه فى داره وليصل فيها ما شاء وليقرأ ما شاء. ولا يؤذينا ولا يستعلن بالصلاة والقراءة فى غير داره. ففعل أبو بكر ﷺ ثم بدا له فابتنى مسجدا بفناء داره. فكان يصلى فيه ويقرأ، فتتقصف "تزدحم" عليه نساء المشركين وأبناؤهم يتعجبون منه، وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلا بكاء لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن فأفزع ذلك أشراف قريش، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم، فأتى ابن الدغنة أبا بكر فقال: يا أبا بكر قد علمت الذى عقدت لك عليه، فإما أن تقصر على ذلك، وإما أن ترجع إلى ذمتى، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت فى عقد رجل عقدت له.

فقال أبو بكر: فإنى أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله ورسوله، ورسول الله ﷺ يومئذ بمكة.

٣-التصوف هو تطليق الدنيا بتاتا، والإعراض عن منالها ثباتا.

ويتحقق ذلك فى الصديق ﷺ فى عزوفه عن العاجلة وأزوفه من الآجلة، فعن زيد ابن أرقم قال: استسقى أبو بكر فأتى بإناء فيه ماء وعسل، فلما أدناه من فيه بكى وأبكى من حوله، فسكت وما سكتوا. ثم عاد وبكى حتى ظنوا أن لا يقدروا على مساءلته، ثم مسح وجهه وأفاق. فقالوا: ما هاجك على هذا البكاء؟ قال: كنت مع النبى ﷺ، وجعل يدفع عنه شيئا ويقول: (إليك عنى، إليك عنى) ولم أر معه أحدا، فقلت يا رسول الله: أراك تدفع عنك شيئا ولا أرى معك أحدا؟ قال: (هذه الدنيا تمثلت لى بما فيها، فقلت لها: إليك عنى

فتنحت وقالت: أما والله لئن انفلت منى لا ينفلت منى من بعدك) فخشيت أن تكون قد لحقتنى فذاك الذى أبكانى.

٤-التصوف هو: الجد فى السلوك إلى ملك الملوك.

ويتحقق ذلك أيضاً فى الصديق ﷺ فى شدة ورعه وبعده عن الشبهات وهو أول من قاء من الشبهات، فعن زيد بن أرقم قال: كان لأبى بكر الصديق ﷺ مملوك يغل عليه فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة، فقال له المملوك: مالك كنت تسألنى كل ليلة و لم تسألنى الليلة؟ قال: حملنى على ذلك الجوع من أين جئت بهذا؟ قال: مررت بقوم فى الجاهلية فرقيت لهم فوعدونى. فلما أن كان اليوم مررت بهم فإذا عرس لهم فأعطونى، قال: إن كدت أن تهلكنى، فأدخل يده فى حلقه فجعل يتقيأ، وجعلت لا تخرج، فقيل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء فدعا بطست من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها. فقيل له: يرحمك الله كل هذا من أجل هذه اللقمة؟ قال: لو لم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها سمعت رسول الله ﷺ: (كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به). فخشيت أن ينبت شىء من جسدى من هذه اللقمة.

٥-التصوف هو: السكون إلى اللهيب، فى الحنين إلى الحبيب.

ويتحقق ذلك فى الصديق ﷺ فى أنه كان يقدم على المضار، لما يؤمل فيه من المسار، فعن أسماء بنت أبى بكر قالت: أتى الصريخ آل أبى بكر. فقيل له: أدرك صاحبك. فخرج من عندنا – وإن له غدائر – فدخل المسجد وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟ فلهوا

عن رسول الله وأقبلوا على أبي بكر، فرجع إلينا أبو بكر فجعل لا يمس شيئاً من غدائره إلا جاء معه وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

٦-التصوف هو: وقف الهمم على مولى النعم.

ويتحقق ذلك فى الصديق ﷺ فى أنه كان يقدم الحقير مفتاداً للخطير، فعن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ قال: (أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدق ووافق ذلك مال عندى، فقلت اليوم أسبق أبا بكر، إن سبقته يوماً، قال: فجئت بنصف مالى، فقال لى رسول الله ﷺ: "ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده. فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً).

٧-التصوف هو: استنفاد الطوق، فى معاناة الشوق، وتزجية الأمور، على تصفية الصدور.

ويتحقق ذلك فى الصديق ﷺ لأنه فى المصافات صافياً، وفى المؤخاة وافياً، فعن أنس بن مالك قال: لما كان ليلة الغار، قال أبو بكر: يا رسول الله دعنى فلأدخل قبلك فإن كانت حية أو شيء كان لى قبلك، قال: ادخل، فدخل أبو بكر فجعل يتلمس بيديه فكلما رأى جحراً جاء بثوبه فشقه ثم ألقمه الجحر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع، قال: فبقى جحر فوضع عقبه عليه، ثم أدخل رسول الله ﷺ. قال: فلما أصبح قال له النبى ﷺ: (فأين ثوبك يا أبا بكر؟) فأخبره بالذى صنع، فرفع النبى ﷺ يديه وقال: (اللهم اجعل أبا بكر معى فى درجتى يوم القيامة) فأوحى الله إليه: [إن الله قد استجاب لك].

وعن أسماء بنت أبي بكر قالت: كان يد النبي ﷺ في مال أبي بكر ويد أبي بكر واحدة حين حجا.

شجاعته وحروبه:

شهد الصديق ﷺ جميع المشاهد مع رسول الله ﷺ وما تخلف عن مشهد واحد، وكان دائما بجوار رسول الله ﷺ يدفع عنه، وكان ﷺ من أشجع الصحابة وأثبتهم في دين الله ففي (معالم التنزيل) لما قبض رسول الله ﷺ وانتشر خبر وفاته ارتد عامة العرب إلا أهل مكة والمدينة والبحرين، ومنع بعضهم الزكاة فهم أبو بكر بقتالهم، فكره ذلك صحابة رسول الله ﷺ، وقال عمر ﷺ: كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم" فقال له أبو بكر: أليس قد قال: (إلا بحقها) ومن حقها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والله لو منعوني عقالا – وفي رواية عناقا – كانو يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه، لو خذلني الناس كلهم لجاهدتهم بنفسي، فقال عمر: فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق، ووالله لقد رجح إيمان أبي بكر بإيمان هذه الأمة جميعا في قتال أهل الردة وفي مدة خلافته اليسيرة "سنتين وثلاثة أشهر وتسع ليال".

فتوحات كثيرة...، فأول ما بدأ بعد خلافته أنه أنفذ جيش أسامة بن زيد إلى الروم، وأرسل أبو بكر خالدا إلى بني أسد وغطفان فقتل من قتل وأسر من أسر ورجع الباقون إلى الإسلام بعد الردة، ثم أرسله إلى اليمامة إلى قتال

مسيلمة الكذاب فالتقى الجمعان ودام الحصار أياما ثم قتل الكذاب على يد وحشى قاتل سيدنا حمزة عم النبى ﷺ، وقاتل أبو بكر جموع أهل الردة حتى رجعوا إلى دين الله، وفتح أطراف العراق وبعض الشام.

وفاته:

يقول عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبى السفر قال: مرض أبو بكر رضي الله عنه فعادوه، فقالوا: ألا ندعوا لك الطبيب؟ قال: قد رآنى. قالوا: فأى شيء قال لك؟ قال: قال: (إنى فعال لما أريد).

ويقول عبد الله بن عمر: كان سبب موت أبى بكر وفاة رسول الله، كمد فما زال جسده يجرى (ينقص) حتى مات.

وقيل: كان بدء مرضه أنه اغتسل فى يوم بارد فحم خمسة عشر يوما، وقيل: إنه مات مسموما.

وقالت السيدة عائشة رضى الله عنها: لما ثقل أبو بكر قال: أى يوم هذا؟ قلنا: يوم الاثنين. قال: فإنى أرجو ما بينى وبين الليل، قالت: وكان عليه ثوب عليه درع من مشق (نوع من الأصباغ) فقال: إذا أن مت فاغسلوا ثوبى هذا وضموا عليه ثوبين جديدين وكفنونى فى ثلاثة أثواب، فقلنا: أفلا نجعلها جددا كلها؟ قال: لا. (أخرجه البخارى).

وطلبه رضي الله عنه أن ينتقل يوم الاثنين لأنه اليوم الذى انتقل فيه النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

فتوفى ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء لثمان ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة، وهو ابن ثلاث وستين، وأوصى أن تغسله أسماء زوجته فغسلته، وأن يدفن إلى جنب رسول الله ﷺ، وأن يخلفه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأن يصلى عليه عمر بين الروضة الشريفة والمنبر، ونزل فى روضته ابنه عبد الرحمن وعمر وعثمان وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم أجمعين.

ثاني العشرة

الفاروق الأكبر سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه

ذو المقام الثابت المأنوق، أعلن الله تعالى به دعوة الصادق المصدوق .. وفرق به بين الفصل والهزل، وأيد بما قواه به من لوامع الطول .. ومهد له من منائح الفضل شواهد التوحيد، وبدد به مواد التنديد .. فظهرت الدعوة، ورسخت الكلمة، فجمع الله تعالى بما منحه من الصولة، ما نشأت لهم من الدولة .. فعلت بالتوحيد أصواتهم بعد تخافت، وتثبتوا في أحوالهم بعد تهافت .. غلب كيد المشركين، بما ألزم قلبه من حق اليقين .. لا يلتفت إلى كثرتهم وتواطيهم، ولا يكترث لممانعتهم وتعاطيهم، اتكالاً على من هو منشئهم وكافيهم، واستنصاراً بمن هو قاصمهم وشافيهم .. محتملاً لما احتمل الرسول، ومصطبراً على المكاره لما يؤمل من الوصول .. ومفارقاً لمن اختار التنعيم والترفيه، ومعانقاً لمن كلف من التشمر والتوجيه .. المخصوص من بين الصحابة بالمعارضة للمبطلين، والموافقة في الأحكام لرب العالمين .. السكينة تنطق على لسانه، والحق يجري الحكمة عن بيانه .. كان للحق موئلاً، وبالحق صائلاً، وللأثقال حاملاً، ولم يخف دون الله طائلاً .. شيد من الدين أركانه، وزحزح من الكفر بنيانه .. وأعلى من الحق مناره، وأخمد من الكفر ناره .. فاستعز بالإسلام، وأغيظ به عبدة الأصنام .. المتسربل برداء الحياء والغيرة، الذي ما سلك فجا إلا سلك الشيطان غيره، الذي أزاح عن الحق دين الباطل ولفظه، وحل حبله ونقضه، وسل صارم عزمه على جيش الجهالة فأنقضه، ورمى الطاعون بسهام

الإسلام فأرفضه.. وزوج نبيه بالطاهرة بنته حفصه، ونعته النبى ﷺ بالفاروق وخصه.. القصير الأمل، الكثير العمل، الذى لا يتداخل فعله زيغ ولا روع ولا زلل.. الناطق بالصواب، المنصور يوم الأحزاب، الملهم فصل الخطاب، السابق يوم القيامة بيمينه لأخذ الكتاب، أمير المؤمنين أبى حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى، يلتقى هو ورسول الله ﷺ فى كعب بن لؤى.

والدته: حنتمة بنت هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وهى شقيقة أبو جهل "عمرو بن هشام".

مولده: ولد رضي الله عنه فى السنة الثالثة عشرة بعد مولده ﷺ، و لم يزل اسمه فى الجاهلية والإسلام عمر، وإليه كان السفارة فى الجاهلية فكانت قريش إذا وقع الحرب بينهم – أو بينهم وبين غيرهم – بعثوه سفيرا، وإذا نافرهم منافر، أو فاخرهم مفاخر، بعثوه منافرا أو مفاخرا.

لقبه: لقبه النبى ﷺ بالفاروق يوم أسلم فى دار الأرقم وبه تم المسلمون أربعون فخرجوا وأظهروا الإسلام، ففرق الله بسيدنا عمر الحق من الباطل.

أوليات الفاروق: هو أول من دعى أمير المؤمنين، وأول من أشار على سيدنا أبى بكر بجمع القرآن فى المصحف، وجمع الناس فى قيام شهر رمضان، وأول من حمل الدرة لتأديب الناس وتعزيرهم، ووضع الخراج، ومصر الأمصار، واستقضى القضاة، وأول من اتخذ بيت المال، وأول من عس بالليل أى: طاف بالليل، وأول من ضرب فى الخمر ثمانين جلدة، وأول من نهى عن بيع أمهات

الأولاد. وأخرج ابن عساكر عن إسماعيل بن زياد قال: مر على بن أبي طالب على المساجد فى رمضان وفيها القناديل فقال: نور الله على عمر قبره ما نور علينا فى مساجدنا.

وكان **نقش خاتمه**: كفى بالموت واعظا يا عمر.

أولاده وزوجاته:

كان له الولد ﷺ: عبد الله، وعبد الرحمن، وحفصة.. أمهم زينب بنت مظعون، وزيد الأكبر، ورقية.. أمهما أم كلثوم بنت الإمام على، وزيد الأصغر، وعبيد الله.. أمهما أم كلثوم بنت جرول، وعاصم.. أمه جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح، وعبد الرحمن الأوسط.. أمه لهية أم ولد، وعبد الرحمن الأصغر.. أمه أم ولد، وفاطمة.. [illegible] ـيم بنت الحارث، وعياض.. أمه عاتكة بنت زيد، وزينب.. أمها فكيهة أم ولد.

أما عبد الله: ويكنى أبا عبد الرحمن آمن بمكة فى صغره مع أبيه وهاجر معه وهو ابن عشر سنين وشهد المشاهد كلها بعد بدر وأحد، وتوفى بمكة ودفن فى موضع قريب منها يسمى (فخ) وهو ابن أربع وثمانين سنة وله عقب ومروياته ألف وستمائة وثلاثون حديثا.

وأما عبد الرحمن الأكبر: فقد أدرك النبى ﷺ ولم يحفظ عنه.

وأما زيد الأكبر: وأمه أم كلثوم بنت الإمام على كرم الله وجهه بنت السيدة. فاطمة الزهراء عليها السلام، يقال: إنه رمى بحجر بين حيين فى حرب فتوفى ولا عقب له، ويقال: إنه توفى هو وأمه فى ساعة واحدة فلم يرث أحدهما الآخر

وصلى عليهما عبد الله بن عمر، وقدم زيدا على أمه فصارت سنة وكان بسببهما حكمان.

وأما عاصم: فهو الذى زوج بابنة المرأة التى كانت تغش اللبن، وكان من ذريتهما الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز.

وأما عبيد الله: فكان شديد البطش، لما قتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب جرد سيفه وقتل الهرمزان وجفينة وهو رجل نصرانى من أهل الحيرة، وقتل بنتا صغيرة لأبى لؤلؤة قاتل الفاروق عمر، ثم لحق بعد ذلك بجيش معاوية وقتل فى صفين معه وله عقب.

أما عبد الرحمن الأوسط: فهو الملقب بأبى شحمة وهو الذى أعاد جلده الفاروق عمر حتى مات ولا عقب له (ذكره الدارقطنى).

وأما عبد الرحمن الأصغر: فهو الملقب بالمجبر لأنه وقع وهو غلام فكسر فأتى به إلى عمته حفصة أم المؤمنين فقيل لها: انظرى إلى ابن أخيك انكسر فقالت: ليس بالمنكسر ولكنه الجبر، وتوفى وله عقب فبادوا ولم يبق منهم أحد.

وأما حفصة: فهى زوج النبى ﷺ، وهى أم المؤمنين رضى الله عنها وأرضاها.

وأما رقية: فقد تزوجها إبراهيم بن نعيم بن عبد الله فتوفيت عنده ولم تلد له.

وأما فاطمة: تزوجها ابن عمها عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب فولدت له عبد الله (ذكره الدارقطنى).

وأما زينب: تزوجها عبد الله بن سراقة العدوى، وروت عن أختها حفصة

(ذكره ابن قتيبة وغيره).

إســـلامـــه:

أسلم الفاروق عمر فى السنة السادسة من النبوة، وله ثـــلاث وثلاثـــون ســـنة ففـــرح به المسلمون وظهر الإسلام بمكة عقب إسلامه. وقصة إسلامه ذكـــرت كاملة فيما تقدم.

هجرته:

أخرج ابن عساكر عن الإمام على قال: ما علمت أحدا هاجر إلا مختفيا إلا عمر ابن الخطاب فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه، وانتضـــى فى يـــده أسهما وأتى الكعبة وأشراف قريش بفنائها فطاف سبعا ثم صلى ركعتين خلـــف المقام، ثم أتى حلقهم واحدة واحدة، فقال: شاهت الوجوه، من أراد أن تثكلـــه أمه، ويؤتم ولده، وترمل زوجته، فليلقنى وراء هذا الوادى، فما تبعه منهم أحد.

موافقات الفاروق ﷺ للقرآن:

القرآن هو كلام الله القديم، وأى كلام بعده محدث، والقرآن لا يؤيد أحدا، وإنما خص الفاروق بموافقته للقرآن لأن الله أجرى الحق على قلبه ولسانه.

وللإمام السيوطى منظومة تسمى بـــ (قطف الثمر فى موافقات عمر). وذكر فى تاريخ الخلفاء أن أبا عبد الله الشيبانى ذكر فى كتابه (فضل الإمامين) لعمر أحـــدا وعشرين موضعا وافق فيها القرآن نذكر منها ما يلى:

الأولى والثانية والثالثة: أخرج الشيخان عن عمر قال: وافقت ربى فى ثـــلاث،

قلت: يا رسول الله لو اتخذنا مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ (البقرة: ١٢٥). وقلت: يا رسول الله يدخل على نسائك البر والفاجر فلو أمرتهن يحتجبن؟ فنزلت آية الحجاب. واجتمع نساء النبى فى الغيرة، فقلت: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن، فنزلت كذلك.

الرابعة: أسارى بدر. أخرج سالم عن عمر قال: وافقت ربى فى ثلاث: فى الحجاب، وفى أسارى بدر، وفى مقام إبراهيم.

الخامسة: تحريم الخمر. أخرج أصحاب السنن والحاكم أن عمر قال: اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا، فأنزل الله تحريمها.

السادسة: فتبارك الله أحسن الخالقين. أخرج بن أبى حاتم فى تفسيره عن أنس قال: قال عمر: وافقت ربى فى أربع نزلت هذه الآية: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ (المؤمنون: ١٢). فلما نزلت قلت: فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت كما قلت.

السابعة: قصة عبد الله بن أبى بن سلول. وحديثها فى الصحيح عنه، أى: عمر، قال: لما توفى عبد الله بن أبى دعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه فقام إليه فقمت حتى وقفت فى صدره، فقلت: يا رسول الله أعلى عدو الله ابن أبى القائل يوم كذا وكذا، كذا وكذا، فو الله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا﴾ (التوبة: ٨٤).

الثامنة: الاستشارة فى الخروج إلى بدر. وذلك أنه ﷺ استشار أصحابه فى الخروج إلى بدر فأشار عمر بالخروج فنزل قوله تعالى: ﴿كما أخرجك ربك من

بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون﴾ (الأنفال: ٥).

التاسعة: الاستشارة فى قصة الإفك وذلك أنه ﷺ لما استشار الصحابة فى قصة الإفك قال عمر: من زوجكها يا رسول الله؟ قال: الله، قلت: أفتظن أن ربك دلس عليها فيها، سبحانك هذا بهتان عظيم، فترلت كذلك.

العاشرة: قصته فى الصيام لما جامع زوجته. أخرج أحمد فى مسنده لما جامع عمر زوجته بعد الانتباه، وكان ذلك محرما فى أول الإسلام فترل: ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم﴾ (البقرة: ١٨٧).

الحادية عشرة: قوله تعالى: ﴿من كان عدوا﴾ (البقرة: ٩٨). إلى آخره، أخرج ابن جرير وغيره من طرق عديدة أقربها للموافقة ما أخرجه ابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن أبى ليلى أن يهوديا لقى عمر فقال: إن جبريل الذى يذكر صاحبكم عدو لنا، فقال عمر: من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين، فترلت الآية.

الثانية عشرة: ﴿فلا وربك لا يؤمنون﴾ (النساء: ٦٥). أخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه عن أبى الأسود قال: اختصم رجلان إلى النبى ﷺ فقضى بينهما، فقال الذى قضى عليه: ردنا إلى عمر بن الخطاب. فأتيا إليه فقال الرجل: قضى لى رسول الله ﷺ على هذا، فقال: ردنا إلى عمر، فقال: أكذلك؟ قال: نعم. فقال عمر: مكانكما حتى أخرج إليكما، فخرج إليهما مشتملا على سيفه فضرب الذى قال ردنا إلى عمر فقتله وأدبر الآخر، فقال: يا رسول الله قتل عمر والله صاحبى. فأنزل الله: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم

لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ (النساء: ٦٥). فأهدر دم الرجل وبرىء عمر من قتله.

الثالثة عشرة: الاستئذان فى الدخول. وذلك أنه دخل عليه غلامه وكان نائما فقال: اللهم حرم الدخول، فترلت آية الاستئذان.

فضائله ﷺ فى السنة الشريفة:

إن فضائل وشمائل الفاروق عمر ﷺ فى السنة النبوية الشريفة تتعدد وسوف نذكر منها بعضها والمؤمن يكفيه قليل الحكمة:

١-أخرج البخارى ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺقال: "بينا أنا نائم شربت – يعنى اللبن – حتى أنظر إلى الرى يجرى فى أظفارى، ثم ناولته عمر، قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: العلم".

٢-أخرج البخارى ومسلم وأحمد والترمذى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: بينا أنا نائم رأيت الناس عرضوا على وعليهم قمص فمنها ما يبلغ الثدى، ومنها ما يبلغ دون ذلك، وعرض على عمر وعليه قميص يجره، قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: الدين.

٣-أخرج البخارى ومسلم عن سعد بن أبى وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: "يا ابن الخطاب والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فجك".

٤-أخرج أحمد والبخارى عن أبى هريرة وأحمد ومسلم والترمذى والنسائى عن

عائشة أن رسول الله ﷺ قال: "لقد كان فيما قبلكم من الأمم نـــاس محدثـــون فـــإن يكن فى أمتى أحد فإنه عمر".

قال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى: محدثون بفتح الدال جمع محدث واختلــف فى تأويله فقيل: ملهم، قاله الأكثر، وقالوا: المحدث هو الرجل الصادق الظن وهو من ألقى فى روعه شىء من قبل الملأ الأعلى فيكون كالذى حدثه غــيره بــه، وقيل: هو من يجرى الصواب على لسانه من غير قصد، وقيل: تكلمه الملائكـــة بغير نبوة.. أهـــ.

ويؤيد ذلك الحديث الذى أخرجه البيهقى وأبو نعيم فى الدلائل والخطيــــب فى زواية مالك عن نافع عن ابن عمر قال: وجه عمر جيشا ورأس رجلا يدعــــى ســـارية، فبينما عمر يخطب جعل ينادى: يا سارية الجبل ثلاثا، ثم قدم رســـول الجيش فسأله عمر، فقال: يا أمير المؤمنين هزمنا، فبينما نحن كذلـــك إذ سمعنـــا صوتا ينادى: يا سارية الجبل، ثلاثا. فأسندنا ظهورنا إلى الجبل، فهزمـــهم الله، قال: قيل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك وذلك الجبل الذى كان سارية عنـــده بنهاوند من أرض العجم. (قال ابن حجر فى الأعيـــان: والحديـــث إســـناده حسن).

٥-أخرج أحمد والترمذى والحاكم والطبرانى قال ﷺ: "لو كان بعـــدى نـــبى لكـــان عمر بن الخطاب".

٦-أخرج الترمذى وابن ماجة والحاكم فى المستدرك وابن عدى وابن عســـاكر عن أنس عن النبى ﷺ قال: "أشد أمتى فى أمر الله عمر".

أقوال الصحابة والسلف الصالح فى فضله:

كان الرعيل الأول لهذه الأمة يعرفون حق الأخوة الإيمانية حق المعرفة، فكان كل واحد منهم يعرف قدر الآخر وينزله المنزلة اللائقة به، وها هم يكشفون لنا مكانة الفاروق ﷺ وﷺ أجمعين.

١-قال الصديق أبو بكر ﷺ: ما على ظهر الأرض رجل أحب إلى من عمر.
وقيل لأبى بكر فى مرضه: ماذا تقول لربك وقد وليت عمر؟ قال: أقول له وليت عليهم خيرهم.

٢-أخرج ابن منيع فى مسنده عن الإمام على قال: كنا أصحاب محمد لا نشك أن السكينة تنطق على لسان عمر.. ولما دخل الإمام على على الفاروق وهو مسجى قال: رحمة الله عليك ما من أحد أحب إلى أن ألقى الله بما فى صحيفته بعد صحيفة النبى ﷺ من هذا المسجى.

٣-قال ابن عمر: ما رأيت أحدا قط بعد النبى ﷺ من حين قبض أحدّ ولا أجود من عمر.

٤-سئل ابن عباس عن عمر فقال: كان كالطير الحذر الذى يرى أنه له بكل طريق شركا يأخذه. وسئل عن على فقال: مليء عزما وحزما وعلما ونجدة.

٥-جاء عبد الله بن سلام وقد صلى على عمر فقال: والله لئن كنتم سبقتمونى بالصلاة عليه لا تسبقونى بالثناء عليه نعم أخو الإسلام كنت يا عمر، جوادا بالحق، بخيلا بالباطل، ترضى حين الرضى، وتغضب حين الغضب، عفيف الطرف، طيب الظرف، لم تكن مداحا ولا مغتابا.

٦-قال طارق بن شهاب: كان رأى عمر كيقين رجل.

الصوفى الأنور

١-قيل التصوف هو: ركوب الصعب فى جلال الكرب.

ويتحقق هذا المعنى فى الفاروق رضي الله عنه يوم أحد عندما جاء أبو سفيان بن حرب فقال: أفيكم محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: لا تجيبوه، ثم قال: أفيكم محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: لا تجيبوه، ثم قال الثالثة: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم ابن أبى قحافة ثلاثا؟ فلم يجيبوه، ثم قال: أفيكم عمر بن الخطاب ثلاثا؟ فلم يجيبوه، فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو الله، ها هو ذا رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وأنا، أحياء ولك منا يوم سوء. فقال: يوم بيوم بدر والحرب سجال. وقال: أعل هبل. فقال رسول الله ﷺ لعمر قل: الله أعلا وأجل. فقال أبو سفيان. لنا العزى ولا عزى لكم. فقال رسول الله ﷺ لعمر: قل الله مولانا ولا مولى لكم.

٢-التصوف هو: الوصول بما علن إلى ظهور ما بطن.

ويتحقق هذا المعنى فى الفاروق لما سأله ابن عباس رضي الله عنهم أجمعين لأى شىء سميت الفاروق؟ قال: أسلم حمزة قبلى بثلاثة أيام، ثم شرح الله صدرى للإسلام، فقلت: الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، فما فى الأرض نسمة أحب إلى من نسمة رسول الله ﷺ، قلت: أين رسول الله؟ قالت أختى: هو فى دار الأرقم بن أبى الأرقم عند الصفا، فأتيت الدار وحمزة فى أصحابه جلوس فى الدار، ورسول الله ﷺ فى البيت فضربت الباب فاستجمع القوم، فقال لهم حمزة: ما

لكم؟ قالوا: عمر، قال: فخرج رسول الله ﷺ فأخذ بمجامع ثيابه ثم نثره فما تمالك أن وقع على ركبته، فقال: "ما أنت بمنته يا عمر؟" قال: فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا رسول الله.

قال: فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد. فقلت: يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: "بلى، والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم". فقلت: ففيم الاختفاء؟ والذى بعثك بالحق لتخرجن، فأخرجناه فى صفين حمزة فى أحدهما وأنا فى الآخر، له كديد - الغبار الذى يخرج من أثر السير - ككديد الطحين حتى دخلنا المسجد، قال: فنظرت إلى قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فسمانى رسول الله ﷺ يومئذ الفاروق. وفرق الله به بين الحق والباطل. (أخرجه أبو نعيم فى الدلائل، وابن عساكر، وابن حجر الهيتمى فى الصواعق).

والسادة الصوفية يستدلون على فعل المسيرات فى الموالد والاحتفالات بهذه المسيرة التى قام بها سيدنا عمر وسيدنا الحمزة فى شوارع مكة.

٣-التصوف هو: الموافقة للحق، والمفارقة للخلق.

ينطبق هذا المعنى على الفاروق عمر لأنه بعد أن أخلى همه فى مفارقة الخلق، أنزل الله تعالى الوحى فى موافقته للحق، وبشهادة الإمام على كرم الله وجهه حيث قال: كنا نتحدث أن ملكا ينطق على لسان عمر ﷺ.

وأخرج الطبرانى وأحمد والترمذى والحاكم وأبو يعلى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: "إن الله تعالى جعل الحق على لسان عمر وقلبه".

٤-التصوف هو: النبو عن رتب الدنيا، والسمو إلى المرتبة العليا.

ويتحقق هذا فى الفاروق عمر لما قدم إلى الشام لاستلام مفاتيح بيت المقدس فعرضت له مخاضة، فنزل عن بعيره ونزع خفيه فأمسكهما، وخاض الماء ومعه بعيره فقال أبو عبيدة بن الجراح: لقد صنعت اليوم صنيعا عظيما عند أهل الأرض. فصك فى صدره وقال: أوه لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة! إنكم كنتم أذل الناس فأعزكم الله برسوله، فمهما تطلبون العز بغيره يذلكم الله.

وثنا الأوزاعى أن عمر بن الخطاب ﷺ خرج فى سواد الليل فرآه طلحة، فذهب عمر فدخل بيتا ثم دخل بيتا آخر، فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا بعجوز عمياء مقعدة، فقال لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ قالت: إنه يتعاهدنى منذ كذا وكذا يأتينى بما يصلحنى، ويخرج عنى الأذى، فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة أعثرات عمر تتبع!

٥-التصوف هو: حمل النفس على الشدائد، الذى هو من أشرف الموارد.

ويتحقق ذلك فى الفاروق عمر لأنه كان عن فناء الملاذ منتهيا، ولباقى المعاد مبتغيا، يلازم المشقات، ويفارق الشهوات، ففى عام الرمادة حرم الفاروق عمر على نفسه السمن، فكانت بطنه تقرقر فينقر بطنه بأصبعه ويقول: تقرقر ما تقرقر إنه ليس لك عندنا غير الزيت حتى يحيا الناس.

وكان الفاروق عمر يقول: والله لوشئت لكنت من ألينكم لباسا، وأطيبكم طعاما، وأرقكم عيشا، إنى والله ما أجهل عن كراكر وأسنمة، وعن صلاء وصناب وصلابق، ولكنى سمعت الله عز وجل عير قوما بأمر فعلوه فقال:

﴿أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها﴾ (الأحقاف: ٢٠).

ويذكر الشعرانى فى الطبقات: أنه أبطأ يوما عن الخروج لصلاة الجمعة فاعتذر للناس وقال: إنما حبسني عنكم ثوبى هذا كان يغسل وليس عندى غيره.

وعن عبد الله بن عيسى قال: كان فى وجه عمر خطان أسودان من البكاء.

وقال هشام بن الحسن: كان عمر يمر بالآية فى ورده فتخنقه فيبكى حتى يسقط، ثم يلزم بيته حتى يعاد يحسبونه مريضا.

وكان الفاروق عمر يقول: لو نادى مناد من السماء أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم أجمعون إلا رجلا واحدا، لخفت أن أكون هو، ولو نادي مناد أيها الناس إنكم داخلون النار إلا رجلا واحدا لرجوت أن أكون هو.

خلافته وفتوحاته:

إذا ثبت الإجماع ونصوص الكتاب والسنة على حقية خلافة أبى بكر، فيلزم قيام الإجماع ونصوص الكتاب والسنة على حقية خلافة عمر، لأن الفرع يثبت له من حيث كونه فرعا ما ثبت للأصل، فحينئذ لا مطمع لأحد فى التراع فى حقية خلافة عمر.

لقد توفى أبو بكر الصديق ﷺ مساء ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة من سنة ثلاث عشرة، فاستقبل عمر بخلافته يوم الثلاثاء صبيحة وفاة أبى بكر واستمرت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربع ليال فقام بالأمر أتم قيام وكثرت الفتوحات فى أيامه، فقد فتحت بلاد الشام (سوريا والأردن وفلسطين

وبيت المقدس) والعراق ومصر وأذربيجان وليبيا وأصبهان وبلـــدان كثـــيرة فى إيران.

وفـــاتـــه:

كان سيدنا عمر لا يأذن لصبى قد احتلم من غير المسلمين فى دخـــول المدينـــة حتـــى كتب إليه المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة يذكرغلاما عنـــده يحســـن أعمالا كثيرة فيها منافع للناس كالحدادة والنقش والنجارة،ويصنع الأرحـــاء.. فأذن له فى دخول المدينة، واسمه أبو لؤلؤة – وهو مجوسى – فجاء لعمر يشتكى من ثقل خراجه، وهو أربعة دراهم كل يوم فقال له: مـــا خراجـــك بكثـــير. فانصرف مغضبا وقال: وسع الناس كلهم عدله غيرى، ثم بعد يسير أرسل إليـــه عمر فقال له: ألم أخبر أنك تقول: لو أشاء لصنعت رحا تطحن بالريح؟ فالتفت إلى عمر عابسا وقال: لأصنعن لك رحا يتحدث الناس بها. فلما ولى قال عمـــر لأصحابه: أوعدنى العبد آنفا، وكان كذلك فأضمر قتله وأعد خنجرا وشـــحذه وسمه، ثم كمن له فى الغلس بزاوية من زوايا المسجد حتى خرج عمـــر يوقـــظ الناس للصلاة، وكان يـــأمر بتسوية الصفوف قبل تكبيرة الإحرام، فجاء أبـــو لؤلؤة إلى أن دنا من عمر فضربه بذلك الخنجر ثلاثا فى كتفه وخاصرته، فوقـــع عمر، وطعن معه ثلاثة عشر رجلا فمات منهم ستة، فألقى عليه رجـــل مـــن العراق – وقيل عبد الرحمن بن عوف – ثوبا فلما اغتم فيه قتل نفسه، وحمـــل عمر إلى أهله فقال: الحمد لله الذى لم يجعل قتلى إلا على يد رجل لم يسجد لله سجدة واحدة، يا عبد الله اذهب إلى عائشة فاسألها هل تأذن لى أن أدفن مـــع النبى ﷺ وأبى بكر، فأذنت له.

وقال الفاروق: لقد جعلتها شورى فى ستة انتقل النبى ﷺ وهـــو راض عنـــهم: عثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد، وأمر صهيبا الرومى أن يصلى بالناس، وأجل الستة ثلاثا، وكانت إصابته يوم الأربعاء لسبع بقـــين مـــن ذى الحجة سنة ٢٣ هـــ ودفن يوم الأحد، وصلى عليه صهيب الرومى، وكان عمره ﷺ وأرضاه ثلاثا وستين سنة وهو نفس عمر الصديق أبو بكر ﷺ، ومن قبلـهما المصطفى ﷺ.

ثالث العشرة

ذو النورين الأوحد سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه

القانت ذو النورين، والخائف ذو الهجرتين، والمصلى إلى القبلتين.. كان من الذين ﴿اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا﴾ (المائدة: ٩٣). فكان ممن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه.. غالب أحواله الكرم والحياء، والحذر والرجاء.. حظه من النهار الجود والصيام، ومن الليل السجود والقيام.. مبشر بالبلوى، ومنعم بالنجوى.

زوجه النبى ﷺ اثنتين من بناته وخصه، فلم يحظ أحد بزواج ابنتى نبى غيره.. ثالث الخلفا، ذى الصدق والوفا، والكرم والصفا، لم يقدر إلا عفا.. أعلى الله فى الفردوس أرائكه، واستحيت من جلالته الملائكة.. سمير الحق وأليفه، ومزهق الباطل ومزيقه.. مشيد أركان الإيمان، ومرتل القرآن، أمير المؤمنين أبو عبد الله

عثمان بن عفان بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، يلتقى هو ورسول الله ﷺ فى عبد مناف، فبين سيدنا عثمان وعبد مناف أربعة آباء، وبين النبى ﷺ وعبد مناف ثلاثة آباء فهو أقرب الخلفاء الأربعة إلى رسول الله ﷺ بعد سيدنا على كرم الله وجهه.

أمه: أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمها أم حكيم بنت عبد المطلب، وأسلمت رضى الله عنها قديما وهاجرت الهجرتين.

مولده ونشأته: ولد سينا عثمان ﷺ بالطائف فى السنة السادسة من عام الفيل، ونشأ فى نعمة عيش، ولم يؤثر عنه أنه اختبر شظف العيش قط فى صباه أو طفوليته.. وكان أبوه تاجرا واسع التجارة، وكان يحمل قوافله إلى الشام على دأب الأكثرين من تجار بنى أمية وفى إحدى الرحلات التجارية توفى عن ثروة عظيمة وترك ابنه بين الصبا والشباب.

كنيته: كان سيدنا عثمان يكنى فى الجاهلية أبا عمرو، فلما ولدت له فى الإسلام السيدة رقية ابنة رسول الله ﷺ غلاما سماه عبد الله واكتنى به.

وقيل: ولدت له السيدة رقية ولدا سماه عبد الله فاكتنى به فتوفى، ثم ولد له عمرو فاكتنى به إلى أن لقى ربه.

لقبه: لقب ﷺ بذى النورين، وسئل سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه عن سيدنا عثمان فقال: (فذاك امرؤ يدعى فى الملأ ذا النورين، كان ختن – صهره ونسيبه – رسول الله ﷺ على ابنتيه).

وسئل المهلب بن أبى صفرة: لم قيل لعثمان ذو النورين؟ قال: لأنه لم يعلم أحد تزوج ابنتى نبى غيره.

وقال الإمام أبو الحسن القزوينى فى تسميته بذى النورين ثلاثة أقوال:

١- لم يعلم أحد تزوج ابنتى نبى غير عثمان.

٢-كان عثمان يختم القرآن فى الوتر، فالقرآن نور وقيام الليل نور.

٣-كان لعثمان ﷺ سخاءان: أحدهما قبل الإسلام والثانى بعده.

وكان نقش خاتمه: آمنت بالله مخلصا، وقيل: آمنت بالذى خلق فسوى..
وكان فى يده خاتم رسول الله ﷺ يطبع به إلى أن وقع فى بئر أريس كما تقدم.

أولاده وزوجاته:

أما أولاده رضي الله عنه فستة عشر، تسعة ذكور وسبع إناث، وأما زوجاته فثمانية كما يلى:

كان له من الولد عبد الله بن السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ.

وعبد الله الأصغر.. أمه فاختة بنت غزوان، وعمرو وخالد وأبان وعمر ومريم الكبرى.. أمهم أم عمرو بنت جندب من الأزد، والوليد وسعيد وأم سعيد.. أمهم فاطمة بنت الوليد، وعبد الملك.. أمه أم البنين بنت عيينة بن حصن وقد حضرت جنازته رضي الله عنه، وعائشة وأم أبان وأم عمرو.. أمهن رملة بنت شيبة بن ربيعة، ومريم الصغرى.. أمها نائلة بنت الفرافصة وهى التى حضرت مقتل وجنازة سيدنا عثمان رضي الله عنه، وأم البنين.. أمها أم ولد.

ويتعذر القطع أو الإثبات فى مشاركة زوجاته للسيدة رقية أو أختها السيدة أم كلثوم ابنتى رسول الله ﷺ، وإن أمكن القول بأنه تزوج امرأة أو أكثر قبل السيدة رقية، ثم تزوج غير واحدة بعد السيدة أم كلثوم.

أما عبد الله: ابن السيدة رقية توفى صغيرا، وقيل: ست سنين.

أما عبد الله الأصغر: فكان أشرفهم عقبا وولدا وتوفى بمنى.

أما أبان: ويكنى أبا سعيد وهو من رواة الحديث وشهد حرب الجمل مع

السيدة عائشة، ولى المدينة فى أيام عبد الملك بن مروان، وتوفى فى خلافة يزيد ابن عبد الله وعقبه كثير وكان له ولد فى الأندلس.

وأما خالد: فكان فى يده وأولاده المصحف الذى قطر عليه دم عثمان يوم قتل، وتوفى فى خلافة أبيه بركض دابة، وله عقب وهو الذى يقال له الكسير.

وأما عمرو: فله عقب وأمه بنت جندب من الأزد.

وأما سعيد والوليد: أمهما بنت الوليد وكان سعيد يكنى أبا عثمان، ولاه معاوية على خراسان وكان حاكما بها من قبل معاوية وقتل هناك.

وأما عبد الملك: توفى غلاما.

وأما عائشة: فقد تزوجها الحارث بن الحكم بن أبى العاص ثم خلف عليها بعده عبد الله بن الزبير.

وأما أم أبان: فقد تزوجها مروان بن الحكم بن أبى العاص.

وأما مريم الصغرى: فقد تزوجها عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبى معيط.

إسلامه:

كان سيدنا عثمان ﷺ أول الناس إسلاما بعد السادة أبى بكر الصديق، وعلى بن أبى طالب، وزيد بن حارثة.. وكان هو الرجل الأول من بنى أمية إسلاما.

وكان إسلامه عجيبا فيما ذكر الحافظ ابن عساكر، وملخص ذلك: أنه لما بلغه أن رسول الله ﷺ زوج ابنته السيدة رقية، وكانت ذات جمال، من ابن عمه عتبة ابن أبى لهب، تأسف إذ لم يكن هو تزوجها، فدخل على أهله مهموما فوجد

عندهم خالته سعدية بنت كريز، وكانت كاهنة، فبشرته بزواجه من السيدة رقية، قال عثمان: فعجبت من أمرها حتى تبشرنى بالمرأة وقد تزوجت بغيرى، أى: ولم يدخل بها، فقلت: أيا خالة ما تقولين؟! قالت: عثمان لك الجاه، ولك الشأن، هذا النبى معه البرهان، أرسله بحقه الديان، وجاءه التنزيل والفرقان، فاتبعه لا تغتالك الأوثان.

قال عثمان: فانطلقت مفكراً فلقينى أبو بكر ﷺ فأخبرته. قال: ويحك يا عثمان إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل، ما هذه الأصنام التى يعبدها قومك، أليست من حجارة صمّ لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع؟! قلت: بلى والله لكذلك. فقال: والله لقد صدقتك خالتك، هذا رسول الله محمد بن عبد الله، قد بعثه الله إلى خلقه برسالته، هل لك أن تأتيه؟ فاجتمعنا برسول الله ﷺ فقال: "يا عثمان، أجب الله إلى حقه، فإنى رسول الله إليك وإلى خلقه". قال: فو الله ما تمالكت نفسى منذ سمعت رسول الله ﷺ أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية بنت رسول الله ﷺ فكان يقال:

أحسن زوج رآه إنسان   رقية وزوجها عثمان

وقد روى ﷺ مائة حديث وستة وأربعين حديثاً منها ثلاثاً فى البخارى ومسلم، وانفرد البخارى بثمانية، ومسلم بخمسة.

فضائله ﷺ فى القرآن الكريم:

١-قال تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا

أذى﴾ (البقرة: ٢٦٢)٠ قال أبو سعيد الخدرى: رأيت النبى ﷺ رافعاً يديه يدعو لعثمان يقول: "يارب عثمان إنى رضيت عن عثمان فارض عنه"

فما زال يدعو حتى طلع الفجر فنزلت: ﴿الذين ينفقون أموالهم فى سبيل٠٠٠﴾ إلخ الآية٠

٢ -قال تعالى: ﴿أم من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة﴾ (الزمر: ٩)٠ أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله تعالى: ﴿أمن هو قانت٠٠٠﴾ قال: نزلت فى عثمان بن عفان٠٠

٣-قال تعالى: ﴿وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾ (النحل: ٧٦)٠ قال الإمام فخر الدين الرازى: المراد من هذا الأبكم هو عبد لعثمان بن عفان، كان ذلك العبد يكره الإسلام وما كان فيه خير، ومولاه عثمان بن عفان كان يأمر بالعدل وكان على الدين القويم والصراط المستقيم٠٠.

وقال ابن عباس: نزلت فى عثمان ومولى له كان يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما٠

فضائله ﷺ فى السنة الشريفة:

كان أصحاب رسول الله ﷺ سباقين دائما إلى الخير وفعله٠٠ فقد كان النبى ﷺ ينزل كل واحد منهم المنزلة التى تليق به وتبين فضله ليقتدى به كل من أراد السعادة فى الدنيا والآخرة٠

١-أخرج أبو يعلى والطبراني عن أنس قال: أول من هاجر إلى الحبشة بأهله عثمان فقال رسول الله ﷺ: "صحبهما الله إن عثمان لأول من هاجر إلى الله بأهله بعد لوط".

٢-أخرج ابن عساكر عن ابن عمر، وابن عدى عن عائشة رضى الله عنها قالت: لما زوّج النبى ﷺ ابنته أم كلثوم بعثمان قال لها: "إن بعلك أشبه الناس بجدك إبراهيم وأبيك محمد".

٣-أخرج البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ جمع ثيابه حين دخل عثمان وقال: "ألا أستحيى من رجل تستحيى منه الملائكة".

٤-أخرج أبو نعيم فى الحلية عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "أشد أمتى حياءً عثمان بن عفان".

٥-أخرج الخطيب عن ابن عباس، وابن عساكر عن عائشة أن النبى ﷺ قال: "إن الله تعالى أوحى إلىّ أن أزوج كريمتى – يعنى رقية وأم كلثوم – من عثمان" وهذه خصوصية انفرد بها سيدنا عثمان بن عفان ﷺ من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة فلم يتزوج أحد ابنتى نبى غيره ﷺ.

٦-أخرج أحمد والترمذى وابن ماجة عن عائشة أن النبى ﷺ قال لعثمان: "يا عثمان إن الله مقمصك قميصاً فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقانى". وهذا من الأحاديث الظاهرة فى خلافته الدالة دلالة واضحة على حقيقتها لنسبة القميص فى الحديث المكنى به عن الخلافة إلى الله تعالى.

٧-أخرج الترمذى عن طلحة، وابن ماجة عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: "لكل

نبى رفيق فى الجنة ورفيقى فيها عثمان".

٨-أخرج ابن عساكر عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: "ليدخلن بشفاعة عثمان سبعون ألفاً - كلهم قد استوجبوا النار - الجنة بغير حساب".

٩-أخرج البخارى عن أبى عبد الرحمن السلمى أن عثمان حين حوصر أشرف عليهم فقال: أنشدكم بالله ولا أنشد إلا أصحاب النبى ﷺ، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: "من جهز جيش العسرة فله الجنة". فجهزتهم، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: "من حفر بئر رومة فله الجنة". فحفرتها.. فصدقوه بما قال.

١٠-أخرج الترمذى والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن سمرة قال: جاء عثمان إلى النبى ﷺ بألف دينار حين جهز جيش العسرة فنثرها فى حجره فجعل رسول الله ﷺ يقبلها ويقول: "ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم، ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم".

١١-أخرج الترمذى عن أنس قال: لما أمر رسول الله ﷺ ببيعة الرضوان كان عثمان رسول رسول الله ﷺ إلى مكة فبايع الناس فقال ﷺ: "إن عثمان فى حاجة الله وحاجة رسول الله". فضرب بإحدى يديه على الأخرى فكانت يد رسول الله لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم.

١٢-أخرج ابن عساكر عن سيدنا علىّ كرم الله وجهه قال سمعت النبى ﷺ يقول لعثمان: "لو أن لى أربعين ابنة لزوجتك واحدة بعد واحدة حتى لا تبقى منهن واحدة".

١٣-أخرج الترمذى عن ابن عمر قال: ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقال: "يقتل فيها هذا مظلوما لعثمان".

١٤-روى البخارى بسنده عن عثمان بن عبد الله بن موهب قال: جاء رجل من أهل مصر وحج البيت فرأى قوما جلوسا، فقال: من هؤلاء القوم؟ قال: هؤلاء قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد الله بن عمر، قال: يا ابن عمر.. إني سائلك عن شيء فحدثني عنه: هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد؟ قال: نعم. فقال: تعلم أنه تغيب عن بدر و لم يشهد؟ قال: نعم، قال الرجل: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم. قال: الله أكبر.. قال ابن عمر: تعالى أبين لك..

-أما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه وغفر له.

-وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحت بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة، فقال رسول الله ﷺ: "إن لك أجر رجل ممن شهد بدرا وسهمه".

-وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلا كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة. فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: "هذه يد عثمان". فضرب بها على يده.. فقال هذه لعثمان، فقال له ابن عمر: اذهب بها الآن معك.

أقوال السلف الصالح فى فضله:

كان السلف الصالح ﷺ يذكرون دائما فضائل سيدنا عثمان رضي الله عنه، وكانت له عندهم منزلة سامية، وهذه هي بعض أقوالهم فيه:

١-قد صح عن أبى بكر الصديق ﷺ أنه أملى على عثمان وصيته عند وفاته فلما بلغ إلى ذكر الخليفة أغمى عليه.

فكتب عثمان: (عمر)، فلما أفاق قال: من كُتب؟ قال: "عمر" فقال: لو كتبت لكنت لها أهلاً.

٢-قد صح عن عمر أنه جعله فى أهل الشورى، وشهد له أن رسول الله ﷺ توفى وهو عنه راض.

٣-قال أبو هريرة: اشترى عثمان الجنة من النبى ﷺ مرتين حين حفر بئر رومة، وحيث جهز جيش العسرة.

٤-أخرج ابن عساكر عن الحسن بن علىّ أنه ذكر عنده حياء عثمان فقال: إن كان ليكون فى جوف البيت والباب عليه مغلق فيضع ثوبه ليفيض عليه الماء فيمنعه الحياء أن يرفع صلبه.

٥-قال الشعرانى فى الطبقات: كان سيدنا عثمان يصوم النهار ويقوم الليل إلا هجعة من أوله، وكان يختم القرآن فى كل ركعة كثيراً، وكان يخطب فى الناس وعليه إزار عدنى غليظ ثمنه أربعة دراهم أو خمسة، وكان يطعم الناس طعام الإمارة ويدخل بيته يأكل الخل والزيت، وكان يردف غلامه خلفه فى أيام خلافته ولا يستعيب ذلك، وكان إذا مر على مقبرة بكى حتى تبتل لحيته.. رضي الله عنه.

الصوفى الأمجد

١-قيل التصوف هو: الإكباب على العمل، تطرقاً إلى بلوغ الأمل.

ويتحقق هذا المعنى فى سيدنا عثمان ﷺ فقد كان مبشراً بالمحن والبلوى، ومحفوظاً فيها من الجزع والشكوى، يتحرز من الجزع بالصبر، ويتبرر فى المحن بالشكر.

قال محمد بن حاطب: ذكر عثمان بن عفان فقال الحسن بن علىّ: الآن يجىء أمير المؤمنين، قال: فجاء علىّ فقال: كان عثمان من الذين ﴿اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين﴾ (المائدة: ٩٣).

قال محمد بن سيرين: قالت امرأة عثمان بن عفان حتى أطافوا به يريديون قتله: إن تقتلوه أو تتركوه فإنه كان يحيى الليل كله فى ركعة يجمع فيها القرآن.

٢-التصوف هو: الصبر على مرارة البلوى، ليدرك به حلاوة النجوى.

ويتحقق ذلك فى سيدنا عثمان ﷺ فيما أخرّجه البخارى عن أبى موسى الأشعرى: كنت مع رسول الله ﷺ فى حائط من تلك الحوائط، إذ جاء رجل فاستفتح الباب، فقال: "افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه". فإذا هو عثمان، فأخبرته فقال: الله المستعان. قال أبو قيس بن أبى حازم حدثنى أبو سهلة: إن عثمان قال يوم الدار حين حصر: إن النبى ﷺ عهد إلىّ عهداً فأنا صابر عليه. قال قيس: فكانوا يرونه ذلك اليوم، يعنى اليوم الذى قال ﷺ: "وددت أن عندى بعض أصحابى فشكوت إليه، فقيل له: ألا ندعو لك أبا بكر؟

فقـــال: لا، قيل: عمر؟قال: لا، قيل: فعلى؟ قال: لا، فدعى له عثمان فجعـــل يناجيه ويشكو إليه، ووجه عثمان يتلون" أخرجه أحمد وابن ماجة والترمذى.

قال عبد الرحمن بن مهدى: كان لعثمان شيئان ليـــس لأبى بكـــر ولا عمـــر مثلهما.. صبره على نفسه حتى قتل مظلوما، وجمعه الناس على المصحف.

٣-التصوف هو: ابتغاء الوسيلة إلى منتهى الفضيلة.

ويتحقق هذا أيضا فى سيدنا عثمان فيما ذكره مسروق عن عبد الله قـــال: رأى رسول الله ﷺ عثمان بن عفان يوم جيش العسرة جائيا وذاهبا. فقال: "اللـــهم اغفر لعثمان ما أقبل وما أدبر، وما أخفى وما أعلن، وما أسر وما أجهر".

قال يونس بن عبيد: إن الحسن سئل عن القائلين فى المســـجد فقـــال: رأيـــت عثمـــان بن عفان يقيل فى المسجد وهو يومئذ خليفة، قـــال: ويقـــوم وأثـــر الحصـــى بجنبه. قال فيقال: هذا أمير المؤمنين، هذا أمير المؤمنين.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل بلغنى أن عثمان قال: لو أنى بين الجنة والنـــار ولا أدرى إلى أيتها يؤمر لى لاخترت أن أكون رمادا قبل أن أعلم إلى أيتها أصير.

وقال الليث بن سعد أن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: إنهم كانوا مع عثمـــان رضي الله عنه فى الدار فقال: وأيم الله ما زنيت فى جاهلية ولا إسلام وما ازددت للإســـلام إلا حياء.

قال عقبة بن صبهان: سمعت عثمان بن عفان يقول: ما أخذتـــه بيميـــنى منـــذ أسلمت – يعنى ذكره.

خلافته وفتوحاته:

جعل الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ الخلافة بعده شورى فى ستة انتقل النبى ﷺ وهم عنهم راض وهم السادة: عثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد.. ولما فرغ الصحابة من دفنه رجعوا واجتمع هؤلاء الرهط فقال عبد الرحمن بن عوف: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم. فقال الزبير بن العوام: قد جعلت أمرى إلى على، وقال سعد بن أبي وقاص: قد جعلت أمرى إلى عبد الرحمن بن عوف، وقال طلحة بن عبيد الله: قد جعلت أمرى إلى عثمان فخلا هؤلاء الثلاثة.. فقال عبد الرحمن بن عوف: أنا لا أريدها فأيكما يبرأ من هذا الأمر ونجعله إليه والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم فى نفسه وليحرص على صلاح الأمة، فسكت الشيخان على وعثمان، فقال عبد الرحمن: اجعلوه إلى والله على أن لا آلوكم عن أفضلكم. قالا: نعم، فخلا بعلى وقال: لك التقدم فى الإسلام والقرابة من رسول الله ﷺ ما قد علمت، والله عليك لئن أمرتك لتعدلن ولئن أمرت عليك لتسمعن ولتطيعن.. قال: نعم، ثم خلا بعثمان فقال له كذلك.. فلما أخذ ميثاقهما بايع عبد الرحمن عثمان بن عفان وبايعه على ابن أبي طالب وبايعه المهاجرون والأنصار، وكانت مبايعته بعد وفاة عمر بثلاث ليال.

فثبت بذلك جميعه صحة بيعة سيدنا عثمان وإجماع الصحابة عليها وأنه لا مرية فى ذلك ولا نزاع فيه، وأن سيدنا عليا كرم الله وجهه من جملة من بايعه وأثنى عليه، وقد غزا معه وأقام الحدود بين يديه.. ومبايعة الإمام على له ليست كما يقول مدعو التشيع للتقية فإن ذلك شىء باطل لا يترك بما يعلم من

الظاهر.

بويع سيدنا عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة، واستقبل بخلافته المحرم سنة أربع وعشرين، وعاش فى الخلافة اثنتى عشرة سنة - قال أبو معشر - إلا اثنتى عشرة ليلة.

وسيدنا عثمان هو صاحب الفتوحات الإسلامية الخالدة ففى عهده فتحت الرى، وقبرص، وأرجان، وأفريقيا، والأندلس، وبلاد كثيرة من أرض خراسان، ونيسابور، وطوس، وسرخس، ومرو.. وغيرها، ولما فتحت هذه البلاد الواسعة كثر المال على سيدنا عثمان وأتاه من كل وجه حتى اتخذ له الخزائن وأدر الأرزاق، وكان يأمر للرجل بمائة ألف بدرة فى كل بدرة أربعة آلاف أوقية.

ظلموه فقالوا:

بعد كل هذه الأيادى البيضاء لسيدنا عثمان بن عفان ﷺ لم يسلم من أحقاد الحاقدين فتمادى الظالمون فجمعوا له من نثار الأحداث التى يتعرض لها أى حاكم، ويخوله منصبه التصرف فيها فى حدود القانون وصوروها تصويرا ذاتيا ظالما.. وسلبوه سلطانه فيها.. وبالتالى بدا - عثمان المظلوم - وكأنه ظالم معتد منتقم لنفسه لا لحدود الله، وحاشا عثمان أن يكون كذلك.

أخرج ابن عساكر عن الزهرى قال: قلت لابن المسيب: هل أنت مخبرى كيف كان قتل عثمان وما كان شأن الناس وشأنه؟ و لم خذله بعض أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال ابن المسيب: قتل عثمان مظلوما، ومن قتله كان ظالما،

ومن خذله كان معذورا.

وأخرج ابن عساكر عن أبى ثور الفهرى قال: دخلت على عثمان وهو محصور فقال: لقد اختبأت عند ربى عشرا: (إنى لرابع أربعة فى الإسلام، وأنكحنى رسول الله ﷺ ابنته ثم توفيت فأنكحنى ابنته الأخرى، وما تغنيت، ولا تمنيت، ولا وضعت يمينى على فرجى منذ بايعت رسول الله ﷺ، وما مرت بى جمعة منذ أسلمت إلا وأنا أعتق فيها رقبة إلا أن يكون عندى شيء فأعتقها بعد ذلك، أى: فجملة ما أعتقه ألفان وأربعمائة رقبة.

ولا زنيت فى جاهلية ولا إسلام قط، ولا سرقت فى جاهلية ولا إسلام، ولقد جمعت القرآن على عهد رسول الله ﷺ).

وأخرج عبد الرزاق أن عبد الله بن سلام كان يدخل على محاصرى سيدنا عثمان فيقول: لا تقتلوه فو الله لا يقتله رجل منكم إلا لقى الله أجذم لا يد له، وإن سيف الله لم يزل مغمودا وإنكم والله إن قتلتموه ليسلنه الله ثم لا يغمد عنكم أبدا، وما قتل نبى قط إلا قتل به سبعون ألفا، ولا قتل خليفة إلا قتل به خمسة وثلاثون ألفا قبل أن يجتمعوا.

وقد وفد على أبى ذر – وهو بالربذة – وفد من الكوفة، يسألونه رفع راية الثورة، فقال لهم: (والله لو أن عثمان صلبنى على أطول خشبة أو حبل لسمعت، وأطعت، وصبرت، واحتسبت، ورأيت ذلك خيرا لى).

كان خلاف الصحابة فيما بينهم خلافا اجتهاديا يدور فى فلك الشورى والنصيحة لولى أمر المسلمين، والحوار حول قضية مصلحة الأمة الإسلامية التى

مثّل عهد سيدنا عثمان طفرة جديدة من طفرتها الجغرافية والحضارية. وصدق سيدنا عليّ كرَّم الله وجهه، حين خاطب الناس على سمع من قتلة سيدنا عثمان، فتطرق لقتل عثمان وقتلته فقال: (ثم حدث هذا الحادث الذى جره على الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا، حسدوا من أفاء الله عليه على الفضيلة، وأرادوا رد الأشياء على أدبارها).

هؤلاء هم قتلة سيدنا عثمان على حقيقتهم – كما وصفهم سيدنا عليّ – وكما دلت عليهم أحوالهم.

وفاته:

طال حصار الثوار لدار عثمان، وساءت معاملتهم له، فمنعوه من الخروج والصلاة فى مسجد النبى وحالوا دون وصول الماء إليه، فأرسل عثمان إلى بعض أصحاب النبى وأمهات المؤمنين يطلب إليهم أن يمدوه بحاجته من الماء، فسارع سيدنا عليّ إلى تلبية رغبته، وأقبل على الثوار، وقال لهم: (إن الذى تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين، لا تقطعوا عن هذا الرجل المادة، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقى، وما تعرض لكم هذا الرجل، فبم تستحلون حصره وقتله؟ قالوا: "لا والله ولا نعمة عين، لا نتركه يأكل ولا يشرب".

قيل: إن الحصار استمر أربعين يوماً. وكان سيدنا عثمان من حين لآخر يحذر الثائرين الفتنة ويذكرهم بآيات الله، فلا يحفلون به. وبينما هو على هذه الحال، إذ دعاه رجل من الصحابة يدعى نيار بن عياض الأسلمى أن يخلع نفسه من

الخلافة، فرماه كثير بن الصلت الكندى - أحد الذين كانوا يدافعون عن عثمان - بسهم أصاب منه مقتلا، فطلب الثوار من عثمان أن يسلمهم قاتل ابن عياض ليقتلوه به، فأبى عثمان تسليمه لهم، وقال: (لم أكن لأقتل رجلا نصرنى وأنتم تريدون قتلى)، و لم يلبث الثوار أن أقدموا على مهاجمة دار عثمان وأشعلوا النار فى بابها والسقيفة التى عليه، فخرج إليهم أصحاب عثمان يقاتلونهم ويصدونهم عن الدار. ودار بين الفريقين قتال عنيف، أصيب فيه كثير من أنصار عثمان بجراح وقتل آخرون. و لم يكتف الثوار بذلك، بل أخذوا يتسللون إلى دار عثمان عن طريق دار عمرو بن حزم الأنصارى، فوجدوا عثمان يقرأ فى المصحف سورة البقرة. فرفع كنانة بن بشر - وهو من أتباع عبد الله بن سبأ اليهودى دعى التشيع - مشاقص كانت فى يده فوجأ بها فى أصل أذن عثمان فمضت حتى دخلت فى حلقه، ثم علاه بالسيف بيده فقطعها، كما أكبت عليه زوجه نائلة بنت الفرافصة وتلقت السيف عنه بيدها، فقطع أصبعها، وما لبث كنانة هذا أن قتل بعد عامين فى الحرب التى دارت بين محمد بن أبى بكر - نائب سيدنا على على مصر - وبين عمرو بن العاص سنة ٣٨هـ. وضرب سودان بن حمران المرادى - وهو من أتباع عبد الله بن سبأ أيضا - سيدنا عثمان فى جنبه فخر صريعا. وكان ذلك فى يوم الجمعة الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥هـ. وعمره اثنتان وثمانين سنة، ثم هجم العامة على الدار فنهبوها كما نهبوا بيت المال.

و لم يسمح الثوار فى بادىء الأمر بدفن سيدنا عثمان، فظل ثلاثة أيام دون دفن، وطلب بعض القرشيين من سيدنا على بن أبى طالب أن يتوسط لدى

الثوار ليسمحوا بدفنه، فأذنوا.

و لم يشهد جنازته سوى مروان بن الحكم، وجبير بن مطعم "وهو الذى صلى عليه". وحكيم بن حزام، وأبو جهم بن حذيفة العدوى، ونيار بن مكرم، وزوجتى عثمان نائلة بنت الفرافصة، وأم البنين بنت عيينة.

وحاول الدهماء قذف جنازة عثمان بالحجارة، فنهرهم على بن أبى طالب، وهرع القوم بالجثمان ليواروه متخذين من الظلام ستارا يحجبهم عن عيون الظلام.

رحم الله سيدنا عثمان.. الشهيد.. المبشر بالجنة على بلوى تصيبه.

وأى بلوى أكثر من تسلط الغوغاء على الخاصة، والرعاع على السادة، والمرتزقة النفعيين على المخلصين ذوى الأفضال المشهود بها، والأيادى التى لا ينكرها أحد.

ثالث العشرة

الإمام الأكرم سيدنا على بن أبى طالب

كرم الله وجهه

سيد القوم: محب المشهود، ومحبوب المعبود، باب مدينة العلم والجـود.. ورأس المخاطبات، ومستنبط الإشارات.. راية المـهتدين، ونـور المطيعـين، وولى المتقـين، وإمام العادلين.. أقدسهم إجابة وإيمانا، وأقومهم قضية وإيقانـا.. وأعظمهم حلما، وأوفرهم علما.. زينة العارفين، قدوة الواصلين.. المنبىء عن حقائق التوحيد، المشير إلى لوامع علم التفريد.. صـاحب القلـب العقـول، واللسان السؤول.. والأذن الواعى، والعهد الوافى.. فقاء عيون الفتن، ووقـى من فنـون المحن.. فدافع الناكثين، ووضع القاسـطين، ودمـغ المـارقين.. الأخيشن فى ديـن الله، الممسوس فى ذات الله.

بطل الأبطال، من تمادى على أهل الزيغ واستطال.. سيف الله المسلول، وابـن عم الرسول، وزوج الطاهرة البتول.. الطيـب المنـاقب، فـارس المشـارق والمغارب، والنجم الثاقب، أمير المؤمنين أبى الحسنين على بن أبى طالب.

قد يعرف التاريخ أبطالا للمعارك يقاس مجدهم ويرتفع شأنهم بمقدار ما أحـرزوا من نصر، وما أبرزوا فيه من معارك ولا شىء وراء ذلك.

وقد يعرف التاريخ زعماء تجمع حولهم الأتباع وتعصبت لهم الأهواء، ويذكرون فى التاريخ تنويها بقدرهم عند أتباعهم، وذكرا لمكانتهم عند محبيهم ولا ذكر لهم

إلا ذلك.. وقد يعرف التاريخ حكاما، وملوكا وأمراء ساسوا فى الناس أو بعضهم فيذكر لهم عصرهم فى الملك ودورهم فى السطة ولا حديث عنهم بعد حديث الملك والسلطان.. وقد يعرف التاريخ علماء وفقهاء وقضاة ومفكرين يذكر لكل منهم دوره فيما تفوق فيه مقارنا بسابق أو لاحق أو ند ونظير ثم لا يعرف له مكان فى غير تخصصه وفنه.

ولكن فتى كالإمام على كرم الله وجهه تجده فى كل هؤلاء ولا تجده من بينهم، لأنه سبقهم فلم يدركوه، وفاهم فلم يلحقوه، وتفرد عنهم بأنك تجده فى كل ذلك رأسا لا تاليا، وتجد كل هذه العبقريات عنده، وهى تكاد تتناقص إلا فى نفس هذا الإنسان الفذ العجيب.

فهو بطل حرب، ولكن حربه يحكمها الفقه، ويحركها العلم، ويصونها العفاف. وهو زعيم متبوع، ولكنها زعامة أساسها الورع، وعمادها الخضوع، ولا تعرف إلى التطاول سبيلا. وهو خليفة رائد، وأمير حاكم، ولكن فى تواضع الزهاد، وضبط العلماء، وعدل القضاة، ويقين العرفان بالله.

وهو عالم ذو فهم، وفقيه ذو رأى، وإمام العلماء الربانيين، وقائد ذو بصيرة لم يفسد علمه بالإمرة، ولا مال فقهه بالسلطة، ولا جار قضاؤه لرضى الأتباع، وهو الفتى الذى لم يفارق رسول الله ﷺ منذ أن نشأ فى حجره ﷺ إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى.

وهو يعرف هذا الشرف ويعتز به حيث يقول: (تعلمون موضعى من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة، والمترلة الخصيصة، وضعنى فى حجره ﷺ وأنا وليد يضمنى

إلى صدره، ويكنفني فراشه، ويمسني جسمه ويشمني عرفه، وما وجد لى من كذبة فى قول، ولا خطلا فى فعل، وكنت أتبعه أتباع الفصيل إثر أمه، يرفع لى فى كل يوم من صفاته علما، ويأمرنى بهذا الاقتداء).

الإمام على تاريخ ومعالم:

هو أبو الحسن على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم، يلتقى هو ورسول الله ﷺ فى عبد المطلب، وهو ابن عم النبى ﷺ ولذلك فهو أقرب الخلفاء الأربعة إلى رسول الله ﷺ، وزوج ابنته وأحب عترته إليه، كما كان كاتب وحيه، وأقرب الناس إلى فصاحته وبلاغته، وأحفظهم لقوله وجوامع كلمه.

أمه: فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف تجتمع مع أبى طالب فى هاشم جد النبى ﷺ، أسلمت بعد عشر من المسلمين، وهاجرت مع النبى ﷺ، وتوفيت مسلمة، وكفنها النبى ﷺ بقميصه لأنها كانت عنده بمنزلة أمه، وأمر ﷺ أسامة بن زيد، وأبا أيوب الأنصارى، وعمر بن الخطاب، وغلاما أسود فحفروا روضتها بالبقيع، فلما بلغوا لحدها حفره رسول الله ﷺ بيده الشريفة وأخرج ترابه، فلما فرغ اضطجع فيه وقال: "اللهم اغفر لأمى فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى فإنك أرحم الراحمين". فقيل: يا رسول الله رأيناك صنعت شيئا لم تكن صنعته بأحد قبلها فقال ﷺ: "ألبستها قميصى لتلبس من ثياب الجنة، واضطجعت فى قبرها ليخفف عنها من ضغطة القبر لأنها كانت من أحسن خلق الله تعالى صنعا إلى بعد أبى طالب" رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط، وابن حبان، والحاكم،

والهيثمى فى مجمع الزوائد.

مولده ونشأته: ولد كرم الله وجهه، بالبيت الحرام بمكة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رجب قبل البعثة بعشر سنين، ولم يذكر التاريخ أن أحدا ولد ببيت من بيوت الله قبله.. وتربى فى كنف النبى ﷺ.. وأسلم وهو بعد صبى، ولم يسجد لصنم قط، وآخى الرسول بينه وبين الإمام على وقال له: "وأنت أخى فى الدنيا والآخرة".. ولما كانت ليلة الهجرة افتداه بنفسه ونام فى سريره تمويها للمشركين الذين تربصوا به ليقتلوه. فكان أول من باع نفسه لله فى الإسلام. وشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها إلا غزوة تبوك، إذ خلفه ﷺ فى أهله، وقال له: "أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدى؟!" .. وكان أول المبارزين يوم بدر، وممن ثبت يوم أحد وحنين، وعلى يديه فتحت خيبر بعد أن طال حصارها.. وكان آخر الناس عهدا برسول الله ﷺ فى مرضه الذى انتقل فيه إلى الرفيق الأعلى، وهو الذى ولى غسله ونزل لحده فيمن نزل.

وكان نقش خاتمه: الله الملك.

أحاديثه: وروى عن النبى ﷺ خمسمائة حديث، وروى عنه من التابعين خلائق مشهورين.

كنيته: كناه الرسول ﷺ بأبى تراب، كناية عن كثرة عبادته وصلواته، لأن المسلمين فى السابق كانوا يسجدون على التراب، وكان الإمام على معفر الجبين لكثرة ما يسجد، فقوله: قم أبا تراب على حد قوله، أى: قم يا كثير العبادة.

أبـــــوه: "أبو طالب" لقب بذى الكفلين: كفل النبى ﷺ بعد وفاة جده "عبـد المطلب" ولرسول الله يومئذ ثمان سنين وشهران، وقد كان أبو طالب الحصـــن المنيع الذى كف عن الرسول أذى المشركين فى أول سنى البعثة، وقد توفى قبـل الهجرة بثلاث سنين وأربعة عشر يوما وقد قدمنا أدلة إسلامه ﷺ.

لما بلغ الإمام على السادسة أصاب أهل مكة جدب وقحط فقال رســول الله ﷺ لعمه العباس ﷺ: "يا عم إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس مـــا ترى، فانطلق بنا إلى بيته لنخفف من عياله عنه، فتأخذ أنت رجلا وأنا آخـــذ رجلا فنكفلهما عنه"، وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم فقال: "دعــوا لى عقيلا وخذوا من شئتم" وكان أحب هؤلاء الأخوة إلى أبيه، فأخذ العبـــاس طالبا، وأخذ حمزة جعفرا، وأخذ النبى ﷺ عليا وكان أصغرهم، وصدق القائل:

أتت سنة شهباء أصبح عندها ... أبو طالب قد حل ساحته الفقر

فقالوا دعونا نكفه بعض ولده ... مساعدة فالحـــر يسنده الحـر

خذوا من أردتم إن تركتم بجانبى ... عقيلا فلى فى حبه منكم عـــذر

لأحمد أعطينا عليـــا وجعفرا ... لحمزة والعباس طالب فليـــدروا

وكان الإمام على يلازم رسول الله ﷺ، بل إنه عندما اتخذه كان يلـــى أكـثر تربيته، ويطهره وقت غسله، ويوجره اللبن عند شربه، ويحرك مهده عند نومـــه، ويلاعبه فى يقظته، ويحمله على صدره، وكان يحمله دائما ويطوف به جبـــال مكـــة وشعابها وأوديتها كأنه يفعل ذلك ترويحا وصدق القائل:

وربيت فى حجر النبى محمد فطوبى لمن من أحمد ضمه حجر
وغذاك بالعلم الإلهى ناشئا فلا علم إلا منك قد حاطه خير
بآدابه أدبت طفلا ويافعــا وأكسبك الأخلاق أخلاقه الغر

إسلامــه: أسلم الإمام على وهو بعد صبى، وهكذا – كـرم الله وجهـه – لم يسجد لصنم قط، وصلى خلف النبى – صلاة خاصة بالنبى ﷺ قبل فرض الصلاة – قبل الناس تسع سنين.

وقد اشتهر الإمام على بالفروسية والقوة والإقدام وأبلى بلاء حسنا فى مواقـــع الإسلام، وكان اللواء بيده فى كثير منها، فكان أول المبارزين فى يـــوم بــدر، وممـــن ثبت يوم أحد وحنين، وعلى يدبه فتحت خيبر بعد أن طال حصارها.

زواجـــه: زوجه رسول الله ﷺ السيدة فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين ابنتـــه فى السنة الثانية من الهجرة ولم يتزوج عليها فى حياتها، وقد ولدت له الحســـن والحسين ومحسن وزينب وأم كلثوم ﷺ أجمعين، وتزوج بعدها تســـع وأنجـــب منهن اثنين وعشرين ولدا وبنتا، وقد تقدم ذكر زواجه كرم الله وجهـــه مـــن السيدة فاطمة عليها السلام.

وفى هذا يتحدث الإمام على عن نعمة الله عليه فيقول:

محمد النبى أخى وصهـــرى وحمزة سيد الشهداء عمى
وجعفر الذى يمسى ويضحى يطير مع الملائكة ابن أمـــى
وبنت محمد سكنى وعرسى مشوب لحمها بدمى ولحمى

وسبطا أحمد ولداى منهـــا فأيكم له سهم كسهمـــى

سبقتكم إلى الإسلام طـــرا صغيرا ما بلغت أوان حلمى

وصليت الصلاة وكنت فردا فمن ذا يدعى يوما كيومى

مع الخلفـــاء: فقد الإمام على كرم الله وجهه بفقد الرسول ﷺ أخـــاه وأبـــاه وأهله أجمعين، فالمصاب أجل من أن يحتمله قلب الرجل، فلزم بيته حزنا علـــى رسول الله ﷺ وزهد فى الدنيا زهدا على زهده، وعكف على جمـــع القـــرآن. فتهامس المتهامسون من منافقين وضعاف قلوب أن عليا قد تأخر عن بيعـــة أبى بكر ناقمـــا عليه اغتصابه الخلافة منه، ولكنه كرم الله وجهه يدفع التهمة ويجلى الأمر قـــائلا: "إنى آليت بيمين حين قبض رسول الله ﷺ ألا أرتدى بردائـــى إلا إلى الصلاة المكتوبة حتى أجمع القرآن، فإنى خشيت أن ينفلت" ثم خرج فبـــايع الصديق. وكرس الإمام على قلبه وعقله ولسانه وسيفه فى خدمة الصديق دفاعـــا عن الحق والإسلام سلما وحربا.

ولما توفى أبو بكر وبويع عمر خرج وبايعه وكان له العـــون فى كـــل معضلـــة حتـــى إن سيدنا عمر رضي الله عنه كان يتعوذ من معضلة ليس لها أبو الحسن، وحتى قال له: أعوذ بالله أن أكون فى قوم لست فيهم، وقال: ليس المقام ببلد ليس فيه أبـــو الحسن.

ثم جاء عثمان ذو النورين رضي الله عنه بعد عمر، فلم يستمع إلى مريدى الفتن والقلاقـــل الذين هيجوه عليه، وكان الإمام على لسيدنا عثمان العضـــد والسنـــد والأخ والناصح الأمين، يكف عنه الأذى ويشير عليه بالصواب جـــاهدا فى القضـــاء

علـــى الفتن. ولكن قضى الله – ولا راد لقضائه – أن ينال ســــيدنا عثمــــان الشهادة على أيدى الثوار الآثمين وهو يقرأ فى كتاب الله.

خـــلافـــتـــه: وبويع الإمام علىّ بالخلافة – وهو لها كاره – بعد مقتل سـيدنا عثمان، وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر، قضاها فى كفاح شديد لجمـع شمل المسلمين بعد أن فرّقتهم الفتنة وصيّرتهم شيعاً وفرقاً، وكان مقتل ســـيدنا عثمان أحد أسباب الفتنة إذ كان لمقتله وقعا أليماً فى نفوس المسلمين.

وطالب الحاقدون والموتورون بدم عثمان، واتهموا الإمام علىّ بالتخاذل عــــن نصرته والتستر على قتلته.

جهد الإمام على فى إعادة الفرق الثائرة إلى صوابهـــا، ولكـــن دون جـــدوى. وخرجت السيدة عائشة وهى أم المؤمنين، لاستطلاع الأمر بعد أن استصرختها الفرق المتحاربة، فلا هى راضية عن مقتل عثمان ﷺ، ولا هى مصدقة ما يقـــال فى الإمام علىّ من تخاذله عن نصرته وسكوته عن قتلته، وهى تعرف الإمام عليّاً وتعرف أنه أحبّ الناس إلى رسول الله ﷺ.

وكانت وقعة الجمل: التقى فيها فريقاً الإمام على والثوار، وخشى الإمام علـــى على السيدة عائشة أن تهان أو يمس طرفها وسط الجموع الغاضبـــة فأحاطـــها بنفـــر من النساء وأعادها معزّزة مكرّمة إلى دارها فعرفت له فضله ومدحتـــــه على صنيعه. وكانت بعد وقعة الجمل مواقع ومواقع، قتل فيها خيرة الصحابـــة وأفضلهم من الفريقين.

وقعة صفين: كانت وقعة صفين هى الوقعة الفاصلة حيث ظهر فيـــها الإمـــام

علـــىّ على جيش معاوية، وكانت الحيلة المشهورة التى لجأ إليها المغلوبون برفـع المصاحف على أسنّة الرماح وطلب التحكيم، وكان أصحاب الإمام علىّ بـــين قابل للتحكيم حقناً للدماء، وبين رافض يريد أن يخمد الفتنة ويحسم الأمر.

وقبل الإمام التحكيم على مضض، نزولاً على رأى الأغلبية فازدادت الصفـوف انقساماً، وخرج عليه بعض أصحابه، وانتهى التحكيم بإعلان عزل الإمام علـــىّ وتولية معاوية، فازدادت الصفوف فرقة بين رافض وقابل.

لم يلن الإمام علىّ ولم يكل عن نصرة الحق ودحض الباطل، وجهد فى القضــاء على الفتنة والفئة الباغية حتى قتل شهيداً ﷺ على يد ابن ملجم ليلــة الجمعـة السابع عشر من رمضان سنة أربعين من الهجرة.. وكان الإمام فى هذه الليلــة يكثر الخروج والنظر إلى السماء ويقول: (والله ما كذبت ولا كذبت وإنها الليلة الموعودة)، فاهتز بقتله ركن من أركان الإسلام ودفن كرّم الله وجهه بالكوفـة. والعجيب أن ابن ملجم جاء للإمام علىّ يستحمله فحمله وقال:

أريد حياته ويريد قتلى   عذيرك من خليلك من مراد

ثم قال: هذا والله قاتلى، فقيل له: ألا تقتله؟ فقال: من يقتلنى؟

وقام سيدنا الحسن بن على ﷺ خطيبا فقال:

"لقد قتلتم الليلة رجلا فى ليلة فيها نزل القرآن، وفيها رفع عيسى بن مريم عليه السلام، وفيها قتل يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام، والله ما سبقه أحد كـــان قبله، ولا يدركه أحد يكون بعده، والله إن رسول الله ﷺ كان يبعثه فى الســرية وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، والله ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا ثمانمائة

أرصدها لخادمه!!".

وحين علمت السيدة عائشة رضى الله عنها بانتقال الإمام على ذهبت إلى روضة رسول الله ﷺ فأخذت بعضادتى الباب وقالت:

"السلام عليك يا رسول الله .. أنا ناعية إليك أحظى أحبابك، وذاكرة لك أكرم أودائك عليك، قتل والله حبيبك المجتبى، وصفيك المرتضى، قتل والله من زوجته خير النساء، قتل والله من آمن ووفى، وإنى لنادبة ثكلى، وعليه باكية حراء.. لتصنع العرب بعد ما شاءت فليس لها أحد ينهاها".

كراماته كرم الله وجهه

من كراماته: أخرج ابن سعد عنه قال: والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت وأين نزلت وعلى من نزلت، إن ربى وهب لى قلبا عقولا ولسانا ناطقا.

ومن كراماته الباهرة: أن الشمس ردت عليه لما كان رأس النبى ﷺ فى حجره والوحى يترل عليه والإمام على لم يصل العصر، فما سرى عنه ﷺ إلا وقد غربت الشمس، فقال النبى ﷺ: "اللهم إنه كان فى طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس فطلعت بعد ما غربت". وحديث ردها صححه الطحاوى والقاضى فى الشفاء وحسنه شيخ الإسلام أبو زرعة، وللسيوطى جزء فى تتبع طرق هذا الحديث سماه "كشف اللبس فى حديث رد الشمس" وختمه بقوله: ومما يشهد لصحة ذلك قول الشافعى وغيره: ما أوتى نبى معجزة إلا أوتى نبينا ﷺ نظيرها أو أبلغ منها، وقد صح أن الشمس حبست ليوشع بن نون ليالى قاتل الجبارين فلا بد أن يكون لنبينا نظير ذلك.

ومن كراماته: أنه حدث بحديث فكذبه رجل فقال له: أدعو عليك إن كنت كاذبا قال: ادع، فدعا عليه فلم يبرح حتى ذهب بصره.

ومن كراماته: قال النسفى: إن الإمام على قال: سلونى عن طرق السموات فإنى أعلم بها من طرق الأرض، فجاءه جبريل فى صورة رجل فقال: إن كنت صادقا فأخبرنى أين جبريل؟ فنظر إلى السماء يمينا وشمالا وإلى الأرض كذلك. فقال: ما وجدته فى السماء ولا فى الأرض ولعله أنت.

ومن كراماته: أن الله أعطاه علم أحوال البرزخ فكان يكلم أهل القبور ويسمعهم.

مناقب الإمام على كرم الله وجهه

كان الإمام على سهما صائبا من مرامى الله على عدوه، ربانى هذه الأمة، أعطى القرآن عزائمه، فكان إمام الفقهاء وعلماء الشريعة، وأقدرهم على استنباط الأحكام الدينية وإليه رجع الخلفاء من قبله فى مشكلات الحكم والقضاء..
وكانت له مناقب عديدة نذكر منها:

١-أول من صلى مع النبى ﷺ: فقد أخرج الإمام أحمد عن سيدنا على قال: "اللهم لا أعرف لك عبدا من هذه الأمة عبدك قبلى غير نبيك (ثلاث مرات) لقد صليت قبل أن يصلى الناس".

وقال ابن عباس رضى الله عنهما: أربع خصال لعلى ليست لأحد غيره:

-هو أول عربى وعجمى صلى مع رسول الله ﷺ.

-هو الذى صبر معه يوم فر عنه غيره.

-هو الذى كان لواؤه معه فى كل زحف.

-هو الذى غسله وأدخله قبره.

٢-لا يؤثر فيه حر ولا برد: أخرج النسائى عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن أبيه قال للإمام على: إن الناس قد أنكروا منك شيئا: تخرج فى البرد فى الملاءتين، وتخرج فى الحر فى الخشن والثوب الغليظ، فقال: لم تكن معنا بخيبر؟ قال: بلى، قال: "بعث رسول الله ﷺ أبا بكر وعقد له لواء فرجع، وبعث عمر وعقد له لواء فرجع، فقال رسول الله ﷺ: لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، ليس بفرار، فأرسل إلى وأنا أرمد، فتفل فى عينى وقال: اللهم اكفه أذى الحر والبرد، قال: ما وجدت حرا بعد ذلك ولا بردا.

٣-على منى وأنا من على: روى الترمذى وابن ماجة قال ﷺ: "على منى وأنا من على، ولا يؤدى عنى إلا على". ولما قتل سيدنا على كرم الله وجهه أصحاب الألوية يوم أحد قال جبريل: يا رسول الله إن هذه لهى المواساة، فقال النبى ﷺ: "إنه منى وأنا منه، فقال جبريل: وأنا منكما يا رسول الله" رواه الإمام أحمد فى المناقب، وقال ﷺ فيما رواه الخطيب عن البراء بن عازب والديلمى فى مسند الفردوس عن ابن عباس: "على منى بمنزله رأسى من بدنى".

٤-الإمام على مغفور له: ذكر النسائى فى الخصائص قال رسول الله ﷺ: "يا على ألا أعلمك كلمات إذا قلتهن غفر لك مع أنه مغفور لك، تقول: لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله العلى العظيم".

٥-هدى الله قلبه وثبت لسانه: قال الإمام على: بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن وأنا شاب حديث السن، فقلت: يا رسول الله تبعثنى إلى قوم يكون بينهم أحداث وأنا شاب حديث السن؟

فقال: "إن الله سيهدى قلبك ويثبت لسانك" قال: ما شككت فى حديث أقضى بين اثنين. ذكره النسائى فى الخصائص.

٦-سدوا الأبواب إلا باب على: روى الإمام أحمد والضياء المقدسى عن زيد بن أرقم قال: كان لنفر من أصحاب رسول الله ﷺ أبواب شارعة فى المسجد، فقال رسول الله ﷺ: "سدوا الأبواب إلا باب على" فتكلم بذلك الناس فقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فإنى أمرت بسد هذه الأبواب غير باب على، وقال فيه قائلكم، والله ما سددته ولا فتحته، ولكن أمرت فاتبعته.

وروى الترمذى قال ﷺ لعلى: "يا على لا يحل لأحد أن يجنب فى هذا المسجد غيرى وغيرك" أى: تكون له أبواب مفتوحة على المسجد غيرهما. وفى رواية: ثبت ذلك أيضا لأبى بكر الصديق رضي الله عنه.

٧-الإمام على أخو رسول الله ﷺ: روى الطبرانى أن النبى ﷺ قال: "على أخى فى الدنيا والآخرة". وأخرج الإمام أحمد فى المناقب أنه ورد فى الحديث الشريف أنه مكتوب على باب الجنة "محمد رسول الله، على أخو رسول الله قبل أن تخلق السموات بألفى سنة".

٨-الإمام على كنفس رسول الله ﷺ: ذكر النسائى فى الخصائص قال رسول الله

ﷺ: "لينتهين بنو وليعة، أى: ملوك حضرموت، أو لأبعثن عليهم رجلا كنفسى، ينفذ فيهم أمرى، فيقتل المقاتلة ويسبى الذرية، فقال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، ولكن ذلك الذى يخصف النعل" وقد أعطى النبى ﷺ عليا نعلا يخصفها. (أخرجه أحمد فى الفضائل).

٩-الإمام على مولى كل مؤمن ومؤمنة: أخرج ابن السمان عن البراء بن عازب وأخرج الإمام أحمد مثله فى المسند عن زيد بن أرقم كنا عند النبى ﷺ فى سفر فترلنا بغدير خم فنودى: "الصلاة جامعة" وكسح لرسول الله ﷺ تحت شجرة فصلى الظهر، وأخذ بيد على وقال: "ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟" قالوا: بلى فأخذ بيد على، وقال: "اللهم من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه" قال: فلقيه عمر بعد ذلك، فقال له: هنيئا لك يا بن أبى طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة. وزاد الإمام أحمد "وانصر من نصره، وأحب من أحبه".

١٠-من سب عليا فإنما سب الله ورسوله: روى الإمام أحمد والحاكم عن أم سلمة عن النبى ﷺ قال: "من سب عليا فقد سبنى، ومن سبنى فقد سب الله".

١١-لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق: روى مسلم أن الإمام على كرم الله وجهه قال: "والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبى الأمى ﷺ إلى: لا يحبنى إلا مؤمن ولا يبغضنى إلا منافق".

١٢-المثل الذى ضربه النبى ﷺ لسيدنا على: ذكر النسائى فى الخصائص قال ﷺ: "يا على فيك مثل من مثل عيسى، أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه، وأحبته

النصارى حتى أنزلوه المنزل الذى ليس به" أخرجه البزاز وأبو يعلى والحاكم، وهذا هو الواقع حيث اتهم الخوارج الإمام عليا بالكفر، وجاء آخرون وقالوا للإمام: أنت الله.

١٣-النبى ﷺ يسأل الله لنفسه وللإمام على: ذكر النسائى فى الخصائص قال الإمام على: مرضت فعادنى رسول الله ﷺ فدخل على وأنا مضطجع فاتكأ إلى جنبى ثم سجانى - غطانى - بثوبه فلما رآنى قد برئت قام إلى المسجد يصلى، فلما قضى صلاته جاء فرفع الثوب، وقال: قم يا على فقمت وقد برئت كأنما لم أشك شيئا قبل ذلك، فقال: "ما سألت ربى شيئا فى صلاتى إلا أعطانى، وما سألت لنفسى شيئا إلا سألت لك".

١٤-خليفة رسول الله ﷺ: خلفه رسول الله ﷺ على الودائع فى وقت الهجرة، وبقى بمكة ثلاث ليال بأيامها حتى رد ما كان عند رسول الله ﷺ من ودائع لأصحابها.

ثم خلفه الرسول ﷺ على العيال والنساء بالمدينة فى وقت الخروج إلى غزوة تبوك حتى بكى كرم الله وجهه وقال: يا رسول الله إن قريشا تقول: إن رسول الله استثقله فتركه. فقال النبى ﷺ: "أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى" متفق عليه.

وقد أشركه النبى ﷺ فى هديه فى حجة الوداع، فقدم مائة بدنة، نحر منها بيديه ثلاثا وستين، وأناب الإمام على فى نحر ما زاد من المائة.

١٥-باب مدينة العلم: أخرج البزار، والطبرانى فى الأوسط، والحاكم،

والعقيلـــى، وابن عدى عن ابن عمر، والترمذى والحاكم عن الإمام على قـــال: قال رسول الله ﷺ: "أنا مدينة العلم وعلى بابها" وفى رواية: فمـــن أراد العلـــم فليأت البـــاب. وفى أخرى عند الترمذى: أنا دار الحكمة وعلى بابها.

وقال ابن عباس: والله لقد أعطى على بن أبى طالب تسعة أعشار العلم، وأيم الله لقد شارككم أو شاركهم فى العشر العاشر.

١٦-النظر إليه عبادة: أخرج الحاكم والطبرانى أن النبى ﷺ قـــال: "النظـــر إلى علـــى عبادة" وذلك لأن رؤية الإمام على تجعل الناس يذكرون الله فيشـــتغلون بالعبادة.

١٧-منقبة جامعة: قال ﷺ: "إن تنظروا إلى آدم فى علمـــه، ونـــوح فى همـــه، وإبراهيم فى خلقه، وموسى فى مناجاته، وعيسى فى ســـنه، ومحمـــد فى هديـــه وعلمه، فانظروا إلى على بن أبى طالب" ذكره ابن الجوزى.

الإمام على كرم الله وجهه والقرآن:

من رأى الإمام عليا كرم الله وجهه على الحقيقة يشهد عقلا نورانيا، لا يشـــبه خلقا جسدانيا، فصل عن الموكب الإلهى، واتصل بالروح الإنسانى، فخلعه عـــن غاشيات الطبيعة، وسما به إلى الملكوت الأعلى، ونمـــا بـــه إلى مشـــهد النـــور الأجلى.. لذلك تعددت فضائله فى القرآن.

أخرج الطبرانى وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: ما أنزل الله: ﴿يا أيها الذيـــن آمنوا﴾ إلا وعلى أميرها وشريفها، وأخرج ابن عساكر عنه. قال: ما نـــزل فى أحد من كتاب الله تعالى ما نزل فى على، وأخرج عنه أيضا قال: نزل فى علـــى

ثلاثمائة آية.

وأخرج أحمد والحاكم أن رسول الله ﷺ قال: "يا على إنك تقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله".

ولنضرب مثلا لبعض الآيات التى تحدثت عن الإمام على كرم الله وجهه:

١-روى ابن جرير فى تفسيره: لما نزل قوله تعالى: ﴿وتعيها أذن واعية﴾ (الحاقة: ١٢). قال رسول الله ﷺ: "سألت الله عز وجل أن يجعلها أذنك يا على" قال على: "فما نسيت شيئا بعد ذلك وما كان لى أن أنسى".

٢-روى البخارى فى تفسير سورة الحج أن الإمام على أول من يجثو بين يدي الرحمن يوم القيامة للخصومة، وفى هذا نزل قوله تعالى: ﴿هذان خصمان اختصموا فى ربهم﴾ (الحج: ١٩). وهم الذين تبارزوا يوم بدر: على، وحمزة، وعبيدة، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة.

٣-عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية﴾ (البقرة: ٢٧٤). قال: نزلت فى على بن أبى طالب.. كان يملك أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلا، وبدرهم نهارا، وبدهم سرا، وبدرهم علانية.. فقال له النبى ﷺ: ما حملك على ذلك؟ فقال: أريد أن أكون أهلا لما وعدنى ربى، فقال النبى ﷺ: لك ذلك، فأنزل الله هذه الآية.

٤-قال تعالى: ﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا﴾ (السجدة: ١٨). قال ابن عباس: نزلت فى على بن أبى طالب والوليد بن عتبة.

٥-قال تعالى: ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه﴾ (القصص: ٦١). ذكر النيسابورى فى أسباب النزول أن هذه الآية نزلت فى علىّ وحمزة وأبى جهل.

٦-قال تعالى: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا﴾ (الإنسان: ٨). قال عطاء عن ابن عباس: نزلت فى على وأهل بيته.

٧-نقل الواحدى فى "أسباب النزول" أن الحسن والشعبى والقرطبى قالوا: إن عليا والعباس بن عبد المطلب وعثمان بن شيبة ﷺ افتخروا، فقال عثمان: أعطانى رسول الله ﷺ السدانة، يعنى مفاتيح الكعبة. وقال العباس: أعطانى رسول الله السقاية، وهى زمزم. قال: و لم يعطك شيئا يا على. فأنزل الله تعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله ﴾ إلى أن قال: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾ (التوبة: ١٩،٢٠).

٨-قال أبو إسحق الثعلبى فى تفسيره: أن الحرث بن النعمان الفهرى اعترض على قول النبى ﷺ: من كنت مولاه فعلى مولاه، فقال له النبى ﷺ: إن هذا أمر من الله.

فولى الحرث بن النعمان يريد راحلته وهو يقول: اللهم إن كان ما يقول محمد حقا فأنزل علينا حجارة من السماء أو أئتنا بعذاب أليم. فما وصل إلى راحلته حتى رماه الله عز وجل بحجر سقط على هامته فقتله. فأنزل الله تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع* للكافرين ليس له دافع* من الله ذى المعارج﴾ (المعارج: ١-٣).

أولاده وزوجاته:

لم يثبت أن الإمام عليّاً كرّم الله وجهه تزوج فى حياة السيدة فاطمة الزهراء ابنة رسول الله ﷺ غيرها، ولكنه تزوج بعدها الكثير، منهن من عرفت أسماءهن وهن تسعة، ومنهن من لم يعرفن، وبلغ عدد أولاده على التحقيق أربعة عشر ذكراً، وتسع عشرة أنثى بخلاف أخرى ماتت صغيرة و لم تسم، وهم:

١-السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، وأنجبت السادة: الحسن، والحسين، وزينب الكبرى، وأم كلثوم الكبرى ويقال: ومحسناً.

٢-أمامة بنت أبى العاص بن الربيع بن عبد العزى، وأمها السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ، وقد أوصت السيدة الزهراء الإمام عليّاً أن يتزوجها بعد وفاتها، وأنجبت السيد محمد الأوسط وليس له عقب.

٣-خولة بنت جعفر بن قيس بن مسلمة، وأنجبت محمد الأكبر وهو المعروف بابن الحنفية.

٤-ليلى بنت مسعود بن خالد، وأنجبت عبيد الله وقتله المختار، وأبو بكر واستشهد فى كربلاء مع الإمام الحسين.

٥-أم البنين بنت حزام بن خالد الكلابية وأنجبت العباس الأكبر، وعثمان، وجعفر، وعبد الله.. وكلهم نالوا الشهادة مع الإمام الحسين فى كربلاء.

٦-أم ولد، وأنجبت محمد الأصغر ونال الشهادة مع الإمام الحسين فى كربلاء.

٧-أسماء بنت عميس، وأنجبت يحيى، وعون.

٨-الصهباء وهى أم حبيب بنت ربيعة، وكانت سبية أصابها خالد بن الوليـــد حين أغا على بنى تغلب بناحية عين التمر، وأنجبت عمر الأكبر - الذى عمّـــر حتى بلغ خمساً وثمانين سنة - وأنجبت رقية.

٩-أم سعيد بنت عروة بن مسعود، وأنجبت أم الحسن، ورملة الكبرى.

١٠-محياة بنت امرىء القيس، وأنجبت بنتاً ماتت صغيرة و لم تسم.

١١-أما السيدات: أم هانىء، وميمونة، وزينب الصغرى، ورملة الصغـــرى، وأم كلثوم الصغرى، وفاطمة، وأمامة، وخديجة، وأم الكرام، وأم جعفر، وجُمانــــة، ونفيسة، وأم سلمة.. فهن لأمهات شتى.

*وكان النسل من ولده لخمسة: الحسن، والحسين، ومحمد بن الحنفية، والعبـــاس ابن الكلابية، وعمر بن التغلبية.

قال محمد بن سعد والواقدى: لم يصح لنا من ولد علىّ ﷺ غير هؤلاء.

أقوال السلف الصالح فى فضله:

كان السلف الصالح ﷺ يعرفون فضل الإمام علىّ كرم الله وجهه، وكانوا يحبونه حباً جماً لعلمه وفقهه وقرابته من رسول الله ﷺ:

١-قال عمر بن الخطاب: علىّ أقضانا، وقال: أطال الله بقاءك، وأيدك الله يـــا أبـــا الحسن.

٢-قال أبو سعيد الخدرى: كنا نعرف المنافقين ببغضهم علياً.

٣-قال ابن مسعود: أفرض أهل المدينة وأقضاها علىّ ابن أبى طالب (أخرجــــه

الترمذى)٠

وقال: لم يكن أحد من الصحابة يقول سلونى إلا على٠

٤-قال ابن عباس: إذا حدثنا ثقة عن على بفتيا لا نعدوها٠٠ وسئل ابن عباس أين علمك من علم ابن عمك؟ فقال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط٠

وقال: (كان على والله علم الهدى، وكهف التقى، وطود النهى، ومحل الحجى، وعين الندا، ومنتهى العلم للورى، ونورا أسفر فى ظلم الدجى، وداعيا إلى المحجة العظمى، مستمسكا بالعروة الوثقى، أتقى من تقمص وارتدى، وأكرم من شهد النجوى، بعد محمد المصطفى، صاحب القبلتين، وأبا السبطين٠٠ زوجته خير النساء، فما يفوقه أحد، لم تر عيناى مثله، و لم أسمع بمثله٠٠ فى الحرب ختالا، وللأقران قتالا، وللأبطال شغالا٠٠ فعلى من يبغضه لعنة الله ولعنة العباد، إلى يوم التناد)٠

٥-قال ابن المسيب: كان عمر بن الخطاب يتعوذ بالله من معضلة ليس منها أبو الحسن٠

٦-قالت السيدة عائشة: أما إنه أعلم من بقى بالسنة٠٠ ولما بلغها وفاته قالت: فلتصنع العرب ما شاءت فليس لها أحد ينهاها٠

٧-قال عبد الله بن عباس بن أبى ربيعة: كان لعلى ما شئت من ضرس قاطع فى العلم، وكان له البسطة فى العشيرة، والقدم فى الإسلام، والعهد برسول الله ﷺ، والفقه فى السنة، والنجدة فى الحرب، والجود فى المال٠

٨-قال الحسن البصرى: كان والله سهما صائبا من مرامى الإسلام.. وكان ربانى هذه الأمة فى ذروة فضلها وشرفها.. كان ذا قرابة قريبة من رسول الله ﷺ، وأبا الحسن والحسين رضى الله عنهما، وزوج فاطمة الزهراء.. ولم يكن بالسروقة لمال الله، ولا بالنئومة فى أمر الله، ولا بالملومة فى حق الله.. أعطى القرآن عزائمه، وعلم ما له فيه وما عليه.. رضي الله عنه وكرم الله وجهه.

٩-قال الإمام أحمد بن حنبل، واسماعيل القاضى، والنسائى، وأبو على النيسابورى: لم يرد فى حق أحد من الصحابة بالأسانيد الجياد أكثر مما جاء فى على.

وصفه فى مجلس معاوية:

عن أبى صالح قال: قال معاوية بن أبى سفيان لضرار بن حمزة: صف لى عليا. فقال: أو تعفينى؟ قال: بل صفه. قال: أو تعفينى؟ قال: لا أعفيك. قال: أما إذا فإنه والله كان بعيد المدى شديد القوى، يقول فصلا ويحكم عدلا، يتفجر العلم من جوانبه، وينطق بالحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقلب كفه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشب (الغليظ الخشن)، كان والله كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتيناه، ويأتينا إذا دعوناه، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة، ولا نبتديه لعظمه. فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظم أهل الدين، ويحب المساكين، لا يطمع القوى فى باطله،ولاييئس الضعيف من عدله. وأشهد بالله لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه وغارب نجومه، وقد مثل فى محرابه قابضا على

لحيته يتململ تململ السليم،ويبكى بكاء الحزين، وكأنى اسمعه وهو يقول: يا دنيا يا دنيا أبى تعرضت أم لى تشوقت؟ هيهات هيهات غرى غيرى، قد بنتك (طلقتك) ثلاثا لا رجعة لى فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير. آه من قلة الزاد وبعد السفر، ووحشة الطريق.

قال: فذرفت دموع معاوية حتى خرت على لحيته فما يملكها، وهو ينشفها بكمه، وقد اختنق القوم بالبكاء. ثم قال معاوية: رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزن من ذبح ولدها فى حجرها فلا ترقأ عبرتها، ولا يسكن حزنها (ذكره ابن الجوزى فى الصفوة).

وصيته لكميل بن زياد:

قال كميل بن زياد النخعى: أخذ بيدى أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام فأخرجنى إلى أجبان (المقبرة)، فلما أصحر تنفس الصعداء ثم قال:

يا كميل إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها. فاحفظ عنى ما أقول:

الناس ثلاثة: فعالم ربانى، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق.

يا كميل: العلم خير من المال. العلم يحرسك وأنت تحرس المال. المال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق، وصنيع المال يزول بزواله.

يا كميل: العلم دين يدان به. به يكسب الإنسان الطاعة فى حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته، والعلم حاكم والمال محكوم عليه.

يا كميل: هلك خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقــى الدهــر أعيانهم مفقودة، وأمثالهم فى القلوب موجودة. ها، إن ههنا لعلما جما (وأشــار إلي صدره) لو أصبت له حملة،بلى أصبت لقنا (من يفهم بسرعة، ولا يطبع العلم على أخلاقه الفضائل) غير مأمون عليه، مستعملا آلة الدين للدنيا، ومســتظهرا بنعم الله على عباده، وبحججه على أوليائه، أو منقادا لحملة الحق، لا بصيرة لــه فى أحنائه، ينقدح الشك فى قلبه لأول عارض من شــبهة. ألا لاذا ولا ذاك، أو منهوما باللذة سلس القياد للشهوة، أو مغرما بالجمع والادخار ليسا من رعــاة الدين فى شىء، أقرب شىء شبها بهما الأنعام السائمة، كذلك يموت العلم بموت حامليه.

اللهم بلى، لا تخلوا الأرض من قائم لله بحجة، إما ظاهرا مشــهورا، أو خائفــا مغمورا (غمرة الظلم حتى غطاه فهو لا يظهر) لئلا تبطل حجج الله وبيناتـــه. وكم ذا؟ وأين أولئك؟ أولئك والله الأقلون عددا والأعظمون قدرا. يحفــظ الله بهم حججه وبيناته حتى يودعوها نظراءهم ويزرعوها فى قلوب أشباههم، هجــم بهم العلم على حقيقة البصيرة، وباشروا روح اليقين، واستلانوا مـــا اســـتوعره المترفون،وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بـــأبدان أرواحـــها معلقة بالمحل الأعلى. أولئك خلفاء الله فى أرضه والدعاة إلى دينه. آه آه شـــوقا إلى رؤيتهم انصرف إذا شئت.

-ومن حكمه: اتقوا صولة الكريم إذا جاع، والبخيل إذا شبع.

-وقال سيدنا على كرم الله وجهه لقائل قال بحضرته أستغفر الله: ثكلتك أمــك

أتدرى ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين. وهو اسم واقع على ستة معان:

أولهما: الندم على ما مضى.

والثانى: العزم على ترك العود إليه أبدا.

والثالث: أن تؤدى إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة.

والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدى حقها.

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذى نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.

والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية. فعند ذلك تقول: أستغفر الله.

-وقيل له مرة: ألا نحرسك يا أمير المؤمنين؟ فقال: حارس كل امرىء أجله.

الصوفى الأعظم

سيدنا الإمام على هو الصوفى الأعظم فى أخلاقه وأقواله وأفعاله وأحواله، قال أبو نعيم فى الحلية:

١-التصوف هو: مرامقة المودود، ومصارمة المحدود.

ويتحقق هذا المعنى فى سيدنا على كرم الله وجهه فى قول سيدنا رسول الله ﷺ يوم خيبر: "لأعطين هذه الراية رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله،

ويحبه الله ورسوله"، فبات الناس يدوكون (خوض واختلاط) ليلتهم أيهم يعطاها فقال: "أين على بن أبي طالب؟" فقالوا: يا رسول الله يشتكى عينيه. قال: "فأرسلوا إليه" فأتى به، فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، وأعطاه الراية. فقال على: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا. قال: "انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم" أخرجه البخارى ومسلم.

*عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "يا أنس اسكب لى وضوءا" ثم قام فصلى ركعتين. ثم قال: "يا أنس أول من يدخل عليك من هذا الباب أمير المؤمنين، وسيد المسلمين، وقائد الغر المحجلين، وخاتم الوصيين" قال أنس: قلت اللهم اجعله رجلا من الأنصار وكتمته. إذ جاء على فقال: " من هذا يا أنس؟" فقلت: على، فقام مستبشرا فاعتنقه ثم جعل يمسح عرق وجهه بوجهه، ويمسح عرق على بوجهه. فقال على: يا رسول الله لقد رأيتك صنعت شيئا ما صنعت بى من قبل؟ قال: "وما يمنعنى وأنت تؤدى عنى، وتسمعهم صوتى، وتبين لهم ما اختلفوا فيه بعدى".

*قال الإمام على يا رسول الله أوصنى. قال: "قل ربى الله ثم استقم" فقال الإمام على: الله ربى وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. فقال: "ليهنك العلم أبا الحسن، لقد شربت العلم شربا، ونهلته نهلا".

*عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ لعلى – وضرب بين كتفيه –:

"يا عليّ لك سبع خصال لا يحاجك فيهن أحد يوم القيامة: أنت أول المؤمنين بالله إيماناً، وأوفاهم بعهد الله، وأقواهم بأمر الله، وأرأفهم بالرعية، وأقسمهم بالسوية، وأعلمهم بالقضية، وأعظمهم مزية يوم القيامة".

*عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى عهد إليّ عهداً في علي فقلت: يارب بينه لي، فقال: اسمع، فقلت: سمعت. فقال: إن عليّاً راية الهدى، وإمام أوليائي، ونور من أطاعني، وهو الكلمة التي ألزمتها المتقين، من أحبه أحبني، ومن أبغضه أبغضني، فبشره بذلك. فجاء عليّ فبشرته، فقال: يا رسول الله أنا عبد الله، وفي قبضته فإن يعذبني فبذنبي، وإن يتم لي الذي بشرتني به فالله أولى بي. قال: قلت: اللهم اجل قلبه، واجعل ربيعه الإيمان، فقال الله: قد فعلت به ذلك. ثم إنه رفع إليّ أنه سيخصه من البلاء بشيء لم يخص به أحداً من أصحابي. فقلت: يارب أخي وصاحبي، فقال: إن هذا شيء قد سبق إنه مبتلى ومبتلى به".

*قال الإمام عليّ كرَّم الله وجهه: أنا فقأت عين الفتنة، ولو لم أكن فيكم ما قوتل فلان وفلان.

*عن أبي سعيد الخدري قال: شكى الناس عليّاً. فقام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: "يا أيها الناس لا تشكوا عليّاً، فو الله إنه لأخيشن في ذات الله عز وجل".

*عن إسحاق بن كعب بن عجرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تسبوا عليّاً فإنه ممسوس في ذات الله تعالى".

*عن ابن عباس قال: كنا نتحدث أن النبي ﷺ عهد إلى عليّ سبعين عهداً، لم

يعهد إلى غيره.

٢-التصوف هو: إسلام الغيوب، إلى مقلب القلوب.

ويتحقق هذا المعنى فى سيدنا علىّ فقد كان الاستسلام والانقياد شأنه، والتبرأ من الحول والقوة مكانه.

عن الزهرى عن علىّ بن الحسين عن أبيه قال: سمعت عليّاً يقول: أتانى رسول الله ﷺ وأنا نائم وفاطمة وذلك من السحر، حتى قام على باب البيت. فقال ألا تصلون؟ فقلت مجيباً له: يا رسول الله إنما نفوسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، قال: فرجع رسول الله و لم يرجع إلى الكلام. قال: فسمعته حين ولى يقول - وضرب بيده على فخذه -: ﴿وكان الإنسان أكثر شىء جدلاً﴾ (الكهف: ٥٤). رواه البخارى ومسلم عن قتيبة بن سعيد.

٣-التصوف هو: الرغبة إلى المحبوب، فى درك المطلوب.

ويتحقق هذا المعنى فى سيدنا علىّ كرّم الله وجهه لأنه كان على الأوراد مواظباً، وللأزواد مناحباً.

يقول سيدنا علىّ كرّم الله وجهه: أتانا رسول الله ﷺ حتى وضع رجليه بينى وبين فاطمة فعلمنا ما نقول إذا أخذنا مضاجعنا: ثلاثاً وثلاثين تسبيحة، وثلاثاً وثلاثين تحميدة، وأربعاً وثلاثين تكبيرة. يقول: فما تركتها بعد.. فقال له رجل: ولا ليلة صفين؟ قال: ولا ليلة صفين.

*عن أبى أراكة قال: صلى علىّ الغداة ثم لبث فى مجلسه حتى ارتفعت الشمس

قيد رمح كأن عليه كآبة، ثم قال: رأيت أثراً من أصحاب رسول الله ﷺ فما أرى أحداً يشبههم، والله إن كانوا ليصبحون شعثاً غبراً صفراً بين أعينهم مثل رُكب المعزى، قد باتوا يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم، إذا ذكر الله مادوا (تمايلوا) كما تميد الشجرة فى يوم ريح، فانهملت أعينهم حتى تبل والله ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين.

**ومن هنا استنبط السادة الصوفية التمايل عند ذكر الله تعالى.

٤-التصوف هو: الارتقاء فى الأسباب، إلى المقدرات من الأبواب.

ويتحقق هذا المعنى فى سيدنا على كرم الله وجهه لأنه كان إذا لزمه فى العيش الضيق والجهد، أعرض عن الخلق فأقبل على الكسب والكد.

*قال مجاهد: خرج علينا على يوما متعجرا، فقال: جعت مرة بالمدينة جوعا شديدا فخرجت أطلب العمل فى عوالى المدينة فإذا أنا بامرأة قد جمعت مدرا تريد بله، فأتيتها فقاطعتها كل ذنوب على تمرة، فمددت ستة عشر ذنوبا حتى مجلت يداى (ثخن جلدها) ثم أتيت الماء فأصبت منه ثم أتيتها فقلت: يكفى هكذا بين يديها، فعدت لى ست عشرة تمرة، فأتيت النبى ﷺ فأخبرته فأكل معى منها.

٥-التصوف هو: البروز من الحجاب، إلى رفع الحجاب.

ويتحقق هذا المعنى فى سيدنا على كرم الله وجهه لأنه كان بذات الله عليما، وعرفان الله فى صدره عظيما.

*قال النعمان بن سعد: كنت بالكوفة فى دار الإمارة دار على بن أبى طالب إذ

دخل علينا نوف بن عبد الله فقال: يا أمير المؤمنين: بالباب أربعون رجلا من اليهود، فقال على: على بهم. فلما وقفوا بين يديه قالوا: يا على صف لنا ربك هذا الذى فى السماء كيف هو؟ وكيف كان؟ ومتى كان؟ وعلى أى شيء هو؟

فاستوى على جالسا وقال: معشر اليهود اسمعوا منى ولا تبالوا أن لا تسألوا أحدا غيرى، إن ربى عز وجل هو الأول لم يبد مما، ولا ممازج معما، ولا حال وهما، ولا شبح يتقصى، ولا محجوب فيحوى، ولا كان بعد أن لم يكن فيقال حادث. بل جل أن يكيف المكيف للأشياء كيف كان. بل لم يزل ولا يزول لاختلاف الأزمان، ولا لتقلب شأن بعد شأن، وكيف يوصف بالأشباح، وكيف ينعت بالألسن الفصاح، من لم يكن فى الأشياء فيقال بائن، ولم يبن عنها فيقال كائن، بل هو بلا كيفية. وهو أقرب من حبل الوريد، وأبعد فى الشبه من كل بعيد، لا يخفى عليه من عباده شخوص لحظة، ولا كرور لفظة، ولا أزدلاف رقوة، ولا انبساط خطوة، فى غسق ليل داج، ولا إدلاج، لا يتغشى عليه القمر المنير، ولا انبساط الشمس ذات النور بضوئهما فى الكرور، ولا إقبال ليل مقبل، ولا إدبار نهار مدبر، إلا هو محيط بما يريد من تكوينه. فهو العالم بكل مكان، وكل حين وأوان، وكل نهاية ومدة. والأمد إلى الخلق مضروب، والحد إلى غيره منسوب. لم يخلق الأشياء من أصول أولية، ولا بأوائل كانت قبله بدية، بل خلق ما خلق فأقام خلقه، وصور ما صور فأحسن صورته. توحد فى علوه فليس لشيء منه امتناع، ولا له بطاعة شيء من خلقه انتفاع. إجابته للداعين سريعة، والملائكة فى السموات والأرضين له مطيعة. علمه بالأموات البائدين، كعلمه بالأحياء المتقلبين. وعلمه بما فى السموات العلا، كعلمه بما فى

الأرض السفلى، وعلمه بكل شيء. لا تحيره الأصوات، ولا تشغله اللغات. سميع للأصوات المختلفة، بلا جوارح له مؤتلفة. مدبر بصير، عالم بالأمور، حى قيوم. سبحانه كلم موسى تكليما بلا جوارح ولا أدوات، ولا شفة ولا لهوات، سبحانه وتعالى عن تكييف الصفات. من يزعم أن إلهنا محدود، فقد جهل الخالق المعبود. ومن ذكر أن الأماكن به تحيط، لزمته الحيرة والتخليط. بل هو المحيط بكل مكان، فإن كنت صادقا أيها المتكلف لوصف الرحمن، بخلاف التنزيل والبرهان، فصف لى جبريل وميكائيل وإسرافيل.. هيهات؟

أتعجز عن صفة مخلوق مثلك، وتصف الخالق المعبود، وأنت تدرك صفة رب الهيئة والأدوات، فكيف من لم تأخذه سنة ولا نوم؟ له ما فى الأرضين والسموات وما بينهما وهو رب العرش العظيم.

*ثنا أحمد بن أبى الحوارى قال سمعت أبا الفرج يقول: قال على بن أبى طالب: ما يسرنى لو مت طفلا وأدخلت الجنة ولم أكبر فأعرف ربى عز وجل.

*ثنا إسحق بن بشر أخبرنا مقاتل عن قتادة عن خلاس بن عمرو قال: كنا جلوسا عند على بن أبى طالب إذ أتاه رجل من خزاعة فقال: يا أمير المؤمنين. هل سمعت رسول الله ﷺ ينعت الإسلام؟ قال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: "بنى الإسلام على أربعة أركان على الصبر، واليقين، والجهاد، والعدل.

-وللصبر أربع شعب: الشوق، والشفقة، والزهادة، والترقب.

فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن الحرمات، ومن زهد فى الدنيا هاون بالمصيبات، ومن ارتقب للموت سارع فى الخيرات.

-ولليقين أربع شعب: تبصره الفطنة، وتأويل الحكمة، ومعبرة العبرة، واتباع السنة.

فمن أبصر الفطنة تأول الحكمة، ومن تأول الحكمة عرف العبرة، ومن عرف العبرة اتبع السنة، ومن اتبع السنة فكأنما كان فى الأولين.

-وللجهاد أربع شعب: الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، والصدق فى المواطن، وشنآن الفاسقين.

فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق، ومن صدق فى المواطن قضى الذى عليه وأحرز دينه، ومن شنأ الفاسقين فقد غضب لله، ومن غضب لله يغضب الله له.

-وللعدل أربع شعب: غوص الفهم، وزهرة العلم، وشرائع الحكم، وروضة الحلم.

فمن غاص الفهم فسر جمل العلم، ومن رعى زهرة العلم عرف شرائع الحكم، ومن عرف شرائع الحكم ورد روضة الحلم، ومن ورد روضة الحلم لم يفرط فى أمره، وعاش فى الناس وهو فى راحة".

٦-التصوف هو: السلو عن الأعراض، بالسمو إلى الأغراض.

ويتحقق هذا المعنى فى سيدنا على كرم الله وجهه لأنه نقل عنه التقلل والتزهد، واشتهر بالترهيب والتعبد.

*ثنا محمد بن قيس عن ابن ربيعة الوالى عن سيدنا على بن أبى طالب قال: جاء ابن النباح فقال: يا أمير المؤمنين امتلأ بيت مال المسلمين من صفراء وبيضاء، قال: الله أكبر! فقام متوكئا على ابن النباح حتى قام على بيت مال

المسلمين . فقال:

هذا جناى وخياره فيه وكل جان يده إلى فيه

يا ابن النباح: على بأشياع الكوفة، قال فنودى فى الناس فأعطى جميع ما فى بيت مال المسلمين وهو يقول: يا صفراء ويا بيضاء غرى غيرى، ها، وها . حتى ما بقى منه دينار ولا درهم، ثم أمره بنضحه وصلى فيه ركعتين .

*ويقول عمرو بن قيس: قيل لعلى: يا أمير المؤمنين لم ترقع قميصك؟ قال: يخشع القلب، ويقتدى به المؤمن .

خلافته والفتنة:

قال ابن سعد: لما قتل سيدنا عثمان ﷺ، يوم الجمعة لثمانى عشرة ليلة مضت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين وبويع الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه بالمدينة – الغد من يوم قتل عثمان – بالخلافة . . بايعه طلحة، والزبير، وسعد ابن أبى وقاص، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعمار بن ياسر، وأبو أيوب الأنصارى، ومحمد بن مسلمة، وزيد بن ثابت، وخزيمة بن ثابت، وجميع من كان بالمدينة من أصحاب رسول الله ﷺ، وغيرهم . ثم ذكر طلحة والزبير وأنهما بايعا كارهين غير طائعين ثم حدث ما حدث كما قدمنا من موقعة الجمل . ثم خرج معاوية ومن معه بالشام فبلغ الإمام عليا فسار فالتقوا بصفين فى صفر سنة سبع وثلاثين ودام القتال أياما كما قدمنا .

وكانت مدة خلافته أربع سنين وتسعة أشهر .

هذا ملخص تلك الوقائع ولها بسط فى كتب السابقين، على أن الاختصار فى هذا المقام هو اللائق فقد قال ﷺ: "إذا ذكر أصحابى فأمسكوا".

وقال عمر بن عبد العزيز ﷺ حين سئل عن رأيه فى أصحاب الجمل: (أناس طهر الله أيدينا من دمائهم فلنطهر ألسنتنا من ذكرهم).

وفاته كرم الله وجهه:

ذكر ابن جرير: أن ثلاثة من الخوارج وهم: عبد الرحمن بن عمرو، المعروف بابن ملجم.. والبرك بن عبد الله التميمى.. وعمرو بن بكر التميمى.

اجتمع هؤلاء الثلاثة وقرروا أن يقتل ابن ملجم عليا، والبرك معاوية، وعمرو بن بكر يقتل ابن العاص. وتعاهدوا وتواثقوا أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه، حتى يقتله أو يموت دونه. فأخذوا أسيافهم فسموها وخرج كل منهم إلى حيث شاء، على أن تكون ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان سنة ٤٠هـ هى الليلة الجامعة.

وقصد ابن ملجم الكوفة.. وفى الليلة المتفق عليها، وبينما الإمام على يوقظ الناس لصلاة الفجر.. إذ ضربه ابن ملجم بالسيف فى قرنه، فسال دمه على لحيته. أما معاوية وابن العاص.. فقد شاء الله لهما أن ينجوا.

وأمسك الناس بابن ملجم.. وحمل الإمام على إلى بيته وجيء بابن ملجم، فوقف مكتوفا أمام سيدنا على فسأله: أى عدو الله! ألم أحسن إليك؟ قال: بلى.. قال: فما حملك على هذا؟ قال: شحذته أربعين صباحا، وسألت الله أن يقتل به شر خلقه. فقال سيدنا على: لا أراك إلا مقتولا به، ولا أراك إلا من شر خلق الله. ثم قال: إن مت فاقتلوه، وإن عشت فأنا أعلم كيف أصنع به.

فقال جندب بن عبد الله: يا أمير المؤمنين إن مت نبايع الحسن؟ فقال: لا آمركم ولا أنهاكم.. أنتم أبصر.

وأقام الإمام على الجمعة والسبت وتوفى فى ليلة الأحد وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ومحمد بن الحنفية يصب الماء، وكفن فى ثلاثة أثواب ليس فيها قميص، وصلى عليه الحسن، وكبر عليه سبعا، ودفن بدار الإمارة بالكوفة.

وانتقل إلى الرفيق الأعلى وعمره ثلاث وستون سنة وهو نفس عمر السادة أبى بكر الصديق والفاروق عمر ومن قبلهم سيدنا رسول الله ﷺ.

وبوفاة الإمام على تكون الأمة قد خسرت ركنا كبيرا من أركان الإسلام.

وعندى: أن الأمة لم تستفد من الإمام على .. فقد كان لديه الكثير من الخير .. ولكن ما سبق فى علم الله حال دون ذلك.

وختاما:

هذا هو الإمام على عيش العلم وموت الجهل، يخبرنا حلمه عن علمه، وصمته عن حكم منطقه، لا يخالف الحق ولا يختلف فيه، هو دعامة الإسلام، ووليجة الاعتصام، به عاد الحق فى نصابه، وانزاح الباطل عن مقامه، وانقطع لسانه عن منبته، عقل الدين عقل وعاية لا عقل سماع ورواية..

آل خير الرسل أرجو نظرة ... كى أهنى سادتى فى طيبة
فى حمى المختار مبتهجا بما ... أرتجيه من وصالى وقربتى
بالإمام المرتجى شمس الهدى ... حجة الله لسان الحكمة

بالوصى على الفرد الـــذى قد محا ظلمات ظلم الفتنة

بالكرام ومن ببـــدر أيـــدوا منهج الحق بكل الهمـــة

والصلاة عليك يا خير الهدى نمنح الحسنى بها بالرحمـــة

خامس العشرة

الشهيد الحى طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه

هو طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب، يجتمع مع النبى ﷺ فى مرة بن كعب، ومع أبى بكر الصديق فى تيم بن مرة:

رجل عربى، أسمر لون الوجه، ليس بالطويل فارع الطول، ولا بالقصير الذى يتميز بقصره كسمة بارزة فيه، يبدو الذكاء الحاد على وجهه الحسن برغم سمرته، حاد البصر، ضخم القدمين، عريض المنكبين.

كنيته: أبو محمد.

أمه: هى الصعبة بنت عبد الله بن عباد بن مالك بن ربيعة الحضرمى، وأمها عاتكة بنت وهب بن عبد بن قصى بن كلاب، وكان وهب بن عبد صاحب الرفادة "إطعام الفقراء فى الحج" دون قريش كلها، وأخوها العلاء بن الحضرمى الذى حمل رسالة الإسلام إلى "أوال" – دولة البحرين الآن – أسلمت وهاجرت وعاشت بعد أبيها ?ليلا.

وقد روى الطبرانى من حديث ابن عباس قال: "أسلمت أم أبى بكر وأم عثمان وأم طلحة وأم عبد الرحمن بن عوف".

أسماء لها دلالات: كان اسمه فى الجاهلية والإسلام طلحة.

* وكان يلقب "بطلحة الخير" لقبه به رسول الله ﷺ فى غزوة أحد، وقيل فى غزوة بدر حين غاب عنها فى مهمة للمسلمين.. وكان ينفق كل يوم ألفا

وتصدق يوماً بمائة ألف.

* ولقبه الرسول ﷺ فى غزوة ذات العشيرة "بطلحة الفياض" وكان ذلك لسعة عطائه وكرمه، لأنه تصدق ببئر اشتراها ونحر جذوراً فأطعمهم وأسقاهم.. مر رسول الله ﷺ فى غزوة ذى قرد على ماء مالح يقال له: بيسان فغير الرسول ﷺ اسمه وقال: هو "نعمان" وهو طيب. فلما سمع طلحة ذلك من سيدنا رسول الله ﷺ ذهب على الفور واشتراه وتصدق به على المسلمين، فقال رسول الله ﷺ: "ما أنت يا طلحة إلا فياض".

فقد شبهه الرسول ﷺ بالنهر الذى يفيض بالماء والخير فيملأ جنبات الوادى.. وهو تشبيه عظيم خرج من فم حبيب الله ومصطفاه ﷺ.

* ولقبه ﷺ فى غزوة حنين "بطلحة الجود" ودعاه رسول الله ﷺ: الصبيح، الفصيح، المليح، وقال: "أبشر يا طلحة فقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وقد ثبت اسمك فى ديوان المقربين".

* إنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة الذين جعل سيدنا عمر فيهم الشورى، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام وهم: أبو بكر، وعثمان، وطلحة، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وزيد بن حارثة، بعد علىّ وخديجة ﷺ.

أولاده وزوجاته: أما أولاده ﷺ فخمسة عشر، أحد عشر ذكراً، وأربع إناث، وأما زوجاته فتسعة وهم:

١-محمد بن طلحة السجاد وبه كان يكنى أباه، قتل يوم الجمل مع أبيه، وعمران

ابن طلحة.. وأمهما حمنة بنت جحش بن رئاب بن يعمر بن صبرة بن مرة ابن كبير بن غنم بن دودان بن أسد بن خزيمة، وأمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى.

٢-موسى بن طلحة.. وأمه خولة بنت القعقاع بن معبد بن زرارة بن عدس ابن زيد من بنى تميم، وكان يقال للقعقاع بن معبد تيار الفرات من سخائه.

٣-يعقوب بن طلحة وكان جواداً قتل يوم الحرة، وإسماعيل، وإسحق.. وأمهم أم أبان بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس.

٤-زكريا، ويوسف، وعائشة.. وأمهم أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق.

٥-عيسى، ويحي.. وأمهما سُعدى بنت عوف بن خارجة بن سنان بن أبى حارثة المرى.

٦-أم إسحاق بنت طلحة تزوجها سيدنا الحسن بن علىّ بن أبى طالب فولدت له طلحة ثم توفى عنها، فخلف عليها سيدنا الحسين بن علىّ فولدت له فاطمة.. وأمها الجرباء وهى أم الحارث بنت قسامة بن حنظلة بن وهب بن قيس بن طريف بن مالك بن جدعاء من طيء.

٧-الصعبة بنت طلحة.. وأمها أم ولد.

٨-مريم بنت طلحة.. وأمها أم ولد.

٩-صالح بن طلحة.. وأم الفرعة بنت على سبية.

إسـلامـه:

أخرج الحاكم فى المستدرك عن إبراهيم بن محمد بن طلحة قال: قال لى طلحة ابن عبيد الله ﷺ: حضرت سوق بصرى، فإذا راهب فى صومعته يقول: سلوا أهل هذا الموسم، أفيهم أحد من أهل الحرم؟ قال طلحة - ﷺ - قلت: نعم، أنا. فقال: هل ظهر أحمد بعد؟ قال، قلت: ومن أحمد؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب، هذا شهره الذى يخرج فيه وهو آخر الأنبياء، مخرجه من الحرم ومهاجره إلى نخل وحرة وسباخ فإياك أن تسبق إليه. قال طلحة: فوقع فى قلبى ما قال، فخرجت سريعا حتى قدمت مكة، فقلت: هل كان من حدث؟ قالوا: نعم، محمد بن عبد الله ﷺ الأمين تنبأ وقد تبعه ابن أبى قحافة. قال: فخرجت حتى دخلت على أبى بكر ﷺ فقلت: أتبعت هذا الرجل؟ قال: نعم، فانطلق إليه فادخل عليه فاتبعه فإنه يدعو إلى الحق، فأخبره طلحة بما قال الراهب.

فخرج أبو بكر بطلحة فدخل به على رسول الله ﷺ فأسلم طلحة، وأخبر رسول الله ﷺ بما قال الراهب: فسر رسول الله ﷺ بذلك.

ولكن أمه الصعبة بنت عبد الله فعلت به الأفاعيل كما أخرج ذلك البخارى فى التاريخ عن مسعود بن خراشى ﷺ قال: بينما نحن نطوف بين الصفا والمروة إذا أناس كثير يتبعون فتى شابا موثقا بيده فى عنقه، قلت: ما شأنه؟ قالوا: هذا طلحة بن عبيد الله - ﷺ - صبأ، وامرأة وراءه تدمدم (تتكلم بغضب) وتسبه. قلت: من هذه؟ قالوا: الصعبة بنت الحضرمى أمه.

وعلى الرغم من ثراء طلحة العريض، وجاهه فى قومه، وتجارته الناجحة فقد

حمل حظه من اضطهاد قريش، إذ وكل به وبأبى بكر نوفل بن خويلد بن العدوية، وكان يدعى (أسد قريش) فنادى أتباعه - وكان طاغية جبارا - وربطوا أبا بكر وطلحة فى حبل واحد تعذيبا لهما على إسلامهما، ولهذا كان يقال لهما (القرينان) وهى تسمية خالدة تذكرنا بشرف احتمال العذاب فى سبيل إعلاء كلمة الله.

بيد أن اضطهادهما لم يطل مداه، إذ سرعان ما خجلت قريش من نفسها، وخافت عاقبة عملها.. فلما نجاهما الله تعالى قال النبى ﷺ: "يا طلحة هذا جبريل يقرئك السلام ويقول: أنا معك فى أهوال يوم القيامة حتى أنجيك منها"، وفى رواية: "هذا جبريل يخبرنى أنه لا يراك يوم القيامة فى هول إلا أنقذك منه".

هجرته وجهاده:

هاجر الرسول ﷺ ومعه الصديق أبو بكر.. وهاجرت السيدة رقية ابنته ﷺ مع زوجها عثمان بن عفان، ولم تهاجر ابنته السيدة زينب حيث بقيت مع زوجها أبو العاص بن الربيع، أما السيدتان فاطمة وأم كلثوم فقد كانتا فى انتظار من يرافقهما إلى المدينة لتصلا إليها فى أمان الله.

ويذكر ابن سعد فى طبقاته: لما ارتحل رسول الله ﷺ من الخزار (اسم مكان) فى هجرته إلى المدينة فكان الغد لقيه طلحة بن عبيد الله جائيا من الشام فى عير، فكسا رسول الله ﷺ، وأبا بكر من ثياب الشام، وخبر رسول الله ﷺ أن من بالمدينة من المسلمين قد استبطئوا رسول الله، فعجل رسول الله ﷺ المسير، ومضى طلحة إلى مكة حتى فرغ من حاجته، ثم خرج بعد ذلك مع آل أبى

بكـــر الصديق فهو الذى قدم بهم المدينة.

ويتاح لطلحة بن عبيد الله أن ينال شرف مرافقة أسرة النبى ﷺ، مـــع حاديـــها وحارسها.

فلقد أسند ﷺ إلى زيد بن حارثة، وأسامة بن زيد حراسة القافلـــة. وصـــادف موعد خروج طلحة وآل أبى بكر الصديق تحرك القافلة التى بها أسرة النـــبى ﷺ، والتى ضمت ابنتى النبى ﷺ: فاطمة وأم كلثوم ومعـــهما زوج الرســـول ﷺ أم المؤمنين سودة بنت زمعة، وأم أيمن مرضعة الرسول ﷺ أجمعين.

ولما وصل المدينة نزل على أسعد بن زرارة، وآخى الرسول بينه وبين سعيد بـــن زيد بن عمرو بن نفيل أحد العشرة المبشرين بالجنة.

يـــوم بـــدر:

فى (الحوراء) بصحراء شبه الجزيرة العربية بين مكة ويثرب قبع طلحة بن عبيـــد الله، ومعه سعيد بن زيد وهما مكلفان من رسول الله ﷺ برصد حركـــة أكـــبر قوافل قريش التى تحمل تجارهم، وتمر على قرب (يثرب) وكأن هذين البطليـــن – طلحة وسعيد – عينان نافذتان، أو كأنهما جنديان فى سلاح الحدود الآن، أو سلاح الإشارة، أو قبسة من سلاح الإنذار المبكر. ولكنهما يسيران فى ضـــوء نور الإيمان وهدى الحق. وباتت عيوهما تحرس فى سبيل الله.

وكم عانى سيدنا طلحة، وإخوانه المهاجرون مـــن ظلـــم قريـــش واضطـــهاد كفارهـــا، وعندما رصد البطلان تحركات هذه القافلة عادا إلى المدينة بالخبر إلى رسول الله ﷺ، إلا أنهما عرفا بأن الرسول ﷺ قد عسكر بالجيش عند موضـــع

يقال له: (بدرا)، وكان اللقاء الأول بين كفار مكة والمسلمين الذين من الله عليهم بأول نصر مؤزر وهم أقل عددا وعدة وعتادا من عدوهم.

وبرغم فرحة سيدنا طلحة بن عبيد الله بنصر المؤمنين، إلا أنه أسف لعدم مشاركته فى هذه الحرب، ولما أحس النبى ﷺ بذلك الأسف.طمأن طلحة وسعيدا بأن لهما أجر المجاهدين فى بدر، كما لهما سهامهم.. بل وقسم لهما من غنائم المعركة مثل من شهدوها.

أحد وما أدراك ما أحد؟

وتجيء غزوة (أحد) لتشهد كل جبروت قريش وكل بأسها حيث جاءت تثأر ليوم بدر، وتؤمن مصيرها بإنزال هزيمة كبيرة بالمسلمين، هزيمة حسبتها قريش أمرا ميسورا مقدورا..!!.

ودارت حرب طاحنة سرعان ما غطت الأرض بحصادها الأليم.. ودارت الدائرة على المشركين. ثم لما رآهم المسلمون ينسحبون وضعوا أسلحتهم، ونزل الرماة عن مواقعهم ليحوزوا نصيبهم من الغنائم..وفجأة عاد جيش قريش بقيادة خالد بن الوليد من الوراء على حين بغتة، فامتلك ناصية الحرب وزمام المعركة.

واستأنف القتال ضراوته وقسوته وطحنه، وكان للمفاجأة أثرها فى تشتيت صفوف المسلمين.

وأبصر (سيدنا طلحة) جانب المعركة الذى يقف فيه رسول الله ﷺ، فألفاه قد صارهدفا لقوى الوثنية والشرك، فسارع نحو الرسول.

وراح - ﷺ - يجتاز طريقا ما أطوله على قصره..! طريقا تغترض كل شبر منه عشرات السيوف المسعورة، وعشرات من الرماح المجنونة.

ورأى رسول الله ﷺ من بعيد يسيل من وجنته الدم، ويتحامل على نفسه، فجن جنونه، وقطع طريق الهول فى قفزة أو قفزتين، وأمام الرسول ﷺ وجد ما يخشاه.. سيوف المشركين تلهث نحوه، وتحيط به تريد أن تناله بسوء.

ووقف طلحة كالجيش اللجب، يضرب بسيفه البتار يمينا وشمالا.. ورأى دم الرسول الكريم ﷺ يترف، فسانده وحمله بعيدا عن الحفرة - التى حفرها أبو عامر الفاسق - وزلت فيها قدمه الشريفة ﷺ.

كان يساند الرسول ﷺ بيسراه وصدره، متأخرا به إلى مكان آمن، بينما يمينه - بارك الله يمينه - تضرب بالسيف وتقاتل المشركين الذين أحاطوا بالرسول ﷺ، وملئوا دائرة القتال مثل الجراد..!!.

ولندع الصديق أبو بكر ﷺ يصف لنا المشهد.

تقول عائشة: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد يقول: ذلك كان يوم طلحة، كنت أول من جاء إلى النبى ﷺ، فقال لى الرسول ولأبى عبيدة بن الجراح: دونكم أخاكم يريد طلحة.. ونظرنا، وإذا به بضع وسبعون طعنة وضربة رمح.. وإذا أصبعه مقطوعة.. فأصلحنا من شأنه.

ويذكر ابن جرير فى تاريخه عن السدى قال: ما زال طلحة يدافع عن رسوله ﷺ حتى صدهم عنه. قال أبو بكر وكنت أنئذ وأبو عبيدة بن الجراح بعيدين عن رسول الله ﷺ.. فلما أقبلنا عليه نريد إسعافه قال: اتركانى وانصرفا إلى صاحبكما

يريد طلحة.. فإذا طلحة تنزف دماؤه، وفيه بضع وسبعون ضربة سيف أو طعنة رمح أو رمية بسهم.. وإذا هو قد قطعت كفه، وقيل: أصبعه، وسقط فى حفرة مغشيا عليه.. فكان رسول الله ﷺ يقول بعد ذلك: "من سره أن ينظر إلى رجل يمشى على الأرض وقد قضى عنه فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله".

وفى رواية أخرجها ابن ماجة والبغوى عن جابر بن عبد الله: "من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة".

وأخرج أحمد والترمذى والحاكم فى المستدرك عن عبد الله بن الزبير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول يومئذ – يعنى يوم أحد –: "أوجب طلحة حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع" يعنى حين برك له طلحة، فصعد رسول الله ﷺ على ظهره، وأوجب: يعنى وجبت له الجنة.

وأخرج البخارى عن قيس بن أبى حازم قال: رأيت طلحة يده شلاء وقى بها رسول الله ﷺ يوم أحد.

وأخرج الترمذى بسند حسن عن موسى بن طلحة عن أبيه طلحة بن عبيد الله قال: لما رجع رسول الله ﷺ من أحد صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قرأ هذه الآية: ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر﴾ (الأحزاب: ٢٣). فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله، من هؤلاء؟ فأقبلت وعلى ثوبان أخضران، فقال: أيها السائل هذا منهم.

وأخرج ابن سعد فى الطبقات: (شهد طلحة أحدا مع رسول الله ﷺ، وكان فيمن ثبت معه يومئذ حين ولى الناس، وبايعه على الموت، ورمى مالك بن زهير

يوم أحد رسول الله ﷺ، فاتقى طلحة بيده عن وجه رسول الله ﷺ، فأصاب خنصره فشلت، فقال حين أصابته الرمية: حس (كلمة تقال عند الألم المفاجىء)، فقال رسول الله ﷺ: لو قال بسم الله لدخل الجنة والناس ينظرون. وكان طلحة قد أصابته يومئذ فى رأسه المصلبة، ضربه رجل من المشركين ضربتين، ضربة وهو مقبل وضربة وهو معرض عنه، فكان قد نزف منها الدم، وكان ضرار بن الخطاب الفهرى يقول: أنا والله ضربته يومئذ.

وأخرج ابن عساكر عن طلحة رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد ارتجزت بهذا الشعر:

نحن حماة غالب ومالك ... نذب عن رسولنا المبارك

نضرب عنه القوم فى المعارك ... ضرب صفاح الكوم فى المبارك

الكوم: الناقة الضخمة السنام.

وما انصرف رسول الله ﷺ يوم أحد حتى قال لحسان بن ثابت - رضي الله عنه - قل فى طلحة - رضي الله عنه - فقال:

وطلحة يوم الشعب آسى محمدا ... على ساعة ضاقت عليه وشقت

يقيه بكفيه الرماح وأسلمت ... أشاجعه تحت السيوف فشلت

وكان أمام الناس إلا محمدا ... أقام رحى الإسلام حتى استقلت

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

حمى نبى الهدى والخيل تتبعه ... حتى إذا ما لقوا حامى عن الدين

صبرا على الطعن إذ ولت حماتهم ... والناس من بين مهدى ومفتون

يا طلحة بن عبيد الله قد وجبت لك الجنان وزوجت المها العين

وقال عمر ﷺ:

حمى نبى الهدى بالسيف منصلتا لما تولى جميع الناس وانكشفوا

قال: فقال النبى ﷺ: صدقت يا عمر.

جوده وكرمه:

أورد ابن سعد فى طبقاته قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: أخبرنا موسى بن محمد ابن إبراهيم عن أبيه قال: كان طلحة بن عبيد الله يغل بالعراق ما بين أربعمائة ألف إلى خمسمائة ألف، ويغل بالسراه عشرة آلاف دينار أو أقل أو أكثر، وبالأعراض له غلات، وكان لا يدع أحدا من بنى تيم عائلا إلا كفاه مؤونته ومؤونة عياله وزوج أياماهم (أيم الرجل من زوجته فقدها، أو المرأة من زوجها فقدته)،وأخدم عائلهم، وقضى دين غارمهم، ولقد كان يرسل إلى عائشة إذا جاءت كل سنة بعشرة آلاف، ولقد قضى عن صبيحة التيمى ثلاثين ألف درهم.

ويذكر ابن سعد أيضا قال: أخبرنا محمد بن عمر قال: حدثنى إسحاق بن يحيى عن جدته سعدى بنت عوف المرية أم يحيى بن طلحة قالت: قتل طلحة بن عبيد الله - يرحمه الله - وفى يد خازنه ألفا ألف درهم ومائتا ألف درهم، وقومت أصوله وعقاره ثلاثين ألف ألف درهم.

وعلى هذا فقد كان سيدنا طلحة بن عبيد الله ﷺ من أكثر المسلمين ثراء، وأنماهم ثروة.. وكانت ثروته كلها فى خدمة الدين الذى حمل مع رسول الله

ﷺ رايته. كان ينفق منها بغير حساب.. وكان الله ينميها له بغير حساب.

وما أكثر ما كان يخرج من ثروته مرة واحدة، فإذا الله الكريم يردها إليه مضاعفة.

تحدثنا زوجته سعدى بنت عوف فتقول: دخلت على طلحة يوما فرأيته مهموما، فسألته: ما شأنك؟ فقال: المال الذى عندى.. قد كثر حتى أهمنى وأكربنى.. فقلت له: ما عليك.. اقسمه.. فقام ودعا الناس، وأخذ يقسمه عليهم حتى ما بقى منه درهم. قال طلحة بن يحي: فسألت خازن طلحة: كم من المال؟ قال: أربعمائة ألف. (الخبر أخرجه الطبرانى ورجاله ثقات).

ومرة أخرى باع أرضا له بثمن مرتفع، ونظر إلى كومة المال ففاضت عيناه من الدمع ثم قال: (إن رجلا تبيت هذه الأموال فى بيته لا يدرى ما يطرق من أمر، لمغرور بالله).. ثم دعا بعض أصحابه وحمل معهم أمواله هذه، ومضى فى شوارع المدينة وبيوتها يوزعها، حتى أسحر وما عنده منها درهم. (رواه أحمد).

ويصف سيدنا جابر بن عبد الله سيدنا طلحة فيقول: (ما رأيت أحدا أعطى لجزيل مال من غير مسألة، من طلحة بن عبيد الله).

ويقول السائب بن زيد: (صحبت طلحة بن عبيد الله فى السفر والحضر فما وجدت أحدا أعم سخاء على الدرهم، والثوب، والطعام من طلحة).

ويذكر أبو نعيم الأصفهانى فى حلية الأولياء أن سيدنا طلحة تصدق يوما بمائة ألف درهم، ثم حبسه عن الرواح إلى المسجد أن جمع له بين طرفى ثوبه، (يعنى لم يكن عنده ثوب يصلح أن يذهب به إلى المسجد).

وقد وصفه أبو نعيم فى الحلية فقال: (ومن الأعلام الشاهرة، صاحب الأحوال الزاهرة.. الجواد بنفسه، الفياض بماله، طلحة بن عبيد الله، قضى نحبه، وأقرض ربه.. كان فى الشدة والقلة لنفسه بذولاً، وفى الرخاء والسعة بماله موصولاً).

مع الخلفاء الراشدين:

كان سيدنا طلحة ﷺ تلميذاً أحسن أستاذه ﷺ إعداده، وقد وهبه الله استعداداً طيباً طاهراً فى الشجاعة والإقدام، والجود والكرم، والفصاحة والبلاغة، إنه عطاء ربك الكريم، يخص به من يشاء من عباده.

وكان أثناء حروب الردة قد اختاره الصديق أبو بكر لتأمين المدينة مع البطل الهاشمى سيدنا علىّ بن أبى طالب، ومعهما سيدنا الزبير بن العوام حتى إذا سولت لهؤلاء المرتدين نفوسهم باقتحام المدينة ألفوا فى مقدمة المقاتلين المكلفين بالدفاع عنهم أبطالاً صناديد، ورجالاً يعرفون من هم فى القتال والجهاد.

وقد كان ﷺ فصيحاً بليغاً إذا خطب.. ومما يثبته ابن مسعود ﷺ لسيدنا طلحة ابن عبيد الله وهو يرد على الفاروق عمر بن الخطاب عندما سأله عن قتال ملوك فارس قال طلحة: (مرنا نطع، وادعونا نجب، واحملنا نركب، وقدنا ننفذ، فإنك ولّى هذه الأمور وقد بلوت واختبرت، فلم ينكشف لك عن شىء من عواقب قضاء الله عز وجل إلا عن خيار) ما أجملها من بلاغة، كلام مؤثر مؤسر، قليل لفظه، كثيرة معانيه.

ولقد كان لسيدنا طلحة مكانة ومنزلة عالية فى قلب الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ، وعندما طعنه أبو لؤلؤة المجوسى رشح ستة من كبار الصحابة وكان من هؤلاء الرجال سيدنا طلحة بن عبيد الله.

وتنشب الفتنة المعروفة فى خلافة سيدنا عثمان بن عفان ﷺ.. ويؤيد طلحة حجة المعارضين لعثمان، ويزكى معظمهم فيما كانوا ينشدونه من تغيير وإصلاح. أكان بموقفه هذا، يدعو إلى قتل عثمان، أو يرضى به؟ كلا، ولو كان يعلم أن الفتنة ستتداعى حتى تتفجر آخر الأمر حقداً مخبولاً، ينفس عن نفسه فى تلك الجناية البشعة التى ذهب ضحيتها (ذو النورين) عثمان بن عفان ﷺ ما وقف هذا الموقف.

على أن موقف طلحة هذا تحول إلى عقدة حياته بعد الطريقة البشعة التى حوصر بها عثمان وقتل، فلم يكد الإمام علىّ يتقبل بيعة المسلمين بالمدينة ومنهم طلحة والزبير، حتى استأذنه الاثنان فى الخروج إلى مكة للعمرة.

ومن مكة توجها إلى البصرة، حيث كانت قوات كثيرة تتجمع للأخذ بثأر عثمان. وكانت وقعة الجمل حيث التقى المطالب بدم عثمان، والفريق الذى يناصر علياً.

أى مأزق هذا؟ وأى ابتلاء عسير؟.

وفى سبيل التماس مخرج من هذا المأزق، وصون دماء المسلمين لم يترك الإمام علىّ وسيلة إلا توسل بها، ولا رجاء إلا تعلق به.

ولكن العناصر التى كانت تعمل ضد الإسلام - وما أكثرها - كانت قد

أحكمت نسج الفتنة، وراحت تغذيها وتتابع سيرها وتفاقمها.

وعندما أبصر الإمام علي وسط الجيش طلحة والزبير، حواريي رسول الله ﷺ ومعهما السيدة عائشة رضي الله عنها: نادى طلحة والزبير ليخرجا إليه، فخرجا حتى اختلفت أعناق أفراسهم. فقال لطلحة: يا طلحة أجئت بعرس رسول الله ﷺ تقاتل بها، وخبأت عرسك في البيت؟

ثم قال للزبير: نشدتك الله، أتذكر يوم مر بك رسول الله ﷺ ونحن بمكان كذا، فقال لك: يا زبير، ألا تحب عليا؟ فقلت: ألا أحب ابن خالي، وابن عمي، ومن هو على ديني؟ فقال لك: يا زبير، أما والله لتقاتلنه وأنت له ظالم.

قال الزبير رضي الله عنه: نعم أذكر الآن، وكنت قد نسيته، والله لا أقاتلك.

وأقلع الزبير وطلحة عن الاشتراك في هذه الحرب، وانسحبا من القتال، ودفعا ثمن ذلك الانسحاب حياتهما، ولكنهما لقيا الله قريرة أعينهما بما من عليهما من بصيرة وهدى.

وفاته:

كان مقتل سيدنا عثمان شهيدا قد تشكل في نفسية سيدنا طلحة حتى صار - كما قلنا - عقدة حياته، وحين أخذ مكانه يوم الجمل أمام سيدنا علي بن أبي طالب، كان يرجو أن يكون في موقفه هذه كفارة تريحه من وطأة ضميره. وكان قبل بدء المعركة يدعو ويضرع بصوت خافت تختنقه الدموع ويقول: (اللهم خذ مني لعثمان اليوم حتى ترضى). فلما واجهه سيدنا علي هو والزبير على النحو السابق، أضاءت كلمات الإمام علي رضي الله عنه جوانب نفسيهما، فرأيا

الصواب وتركا أرض المعركة. بيد أن الشهادة كانت مذخورة لهما.. أما الزبير فقد تعقبه رجل اسمه عمرو بن جرموز وقتله غيلة وغدرا وهو يصلى. وأما طلحة فقد رماه مروان بن الحكم بسهم أودى بحياته، فقال طلحة: بسم الله وكان أمر الله قدرا مقدورا.

وكان ذلك يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين من الهجرة، وكان عمره ستين سنة، وقيل: اثنتين وستين سنة، وقيل: أربع وستين سنة. وحين كان سيدنا على بن أبى طالب يستعرض شهداء المعركة راح يصلى عليهم جميعا، الذين كانوا معه، والذين كانوا عليه.

ولما فرغ من دفن طلحة والزبير بالبصرة.. وقف يودعهما بكلمات جليلة، اختتمها قائلا: (إنى لأرجو أن أكون أنا، وطلحة، والزبير، وعثمان من الذين قال الله فيهم: ﴿ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين﴾ (الحجر: ٤٧). ثم ضم روضتهما بنظراته الحانية الصافية الآسية وقال: سمعت أذناى هاتان رسول الله ﷺ يقول: "طلحة والزبير، جاراى فى الجنة".

سادس العشرة

حوارى الرسول ﷺ الزبير بن العوام رضي الله عنه

هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب، يجتمع مع النبى ﷺ فى قصى بن كلاب، وينسب إلى أسد بن عبد العزى بن قصى، فيقال: القرشى الأسدى.

ليس بالطويل ولا بالقصير. وقيل: كان طويلا يخط رجلاه فى الأرض إذا ركب، خفيف اللحية أسمر اللون، أشعر.. وكان لا يغير شيبه.

أمه: السيدة الشريفة صفية بنت عبد المطلب عمة النبى ﷺ، أسلمت وهاجرت.

اسمه وكنيته: لم يزل اسمه فى الجاهلية والإسلام الزبير، ويكنى أبا عبد الله.

أخرج البغوى فى معجمه: أن سيدنا الزبير رضي الله عنه قال لابنه عبد الله: يا بنى.. كانت عندى أمك أسماء بنت أبى بكر رضي الله عنه، وعند رسول الله ﷺ خالتك عائشة رضى الله عنها.. وبينى وبينه من القرابة ما قد علمت، وعمة أبى أم حبيبة بنت أسد جدته ﷺ، وأمى صفية عمته ﷺ، وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف، وأختها هالة بنت وهب بن عبد مناف جدتى، وخديجة بنت خويلد زوجته وعمتى.

أولاده وزوجاته: كان لسيدنا الزبير رضي الله عنه عشرون ولدا، أحد عشر ذكرا وتسع إناث، وأما زوجاته فستة وهم:

١-عبد الله، وعروة، والمنذر، وعاصم، والمهاجر، وخديجة الكبرى، وأم الحسن،

وعائشة .. أمهم أسماء بنت أبى بكر الصديق ﷺ "ذات النطاقين".

٢-خالد، وعمرو، وحبيبة، وسودة، وهند.. أمهم أم خالد وهى أمة الله بنت خالد بن سعيد بن العاص بن أمية.

٣-مصعب، وحمزة، ورملة.. أمهم الرباب بنت أنيف بن عبيد بن مصاد بن كعب بن عليم بن حباب من كلب.

٤-عبيدة، وجعفر.. وأمهما زينب، وهى أم جعفر بنت مرثد بن عمر بن عبد عمرو بن بشر بن عمرو بن مرثد بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة.

٥-زينب.. أمها أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط.

٦-خديجة الصغرى.. أمها الحلال بنت قيس بن نوفل بن جابر بن شجنة بن أسامة بن مالك بن نصر بن قعين من بنى أسد.

ذكر ابن سعد فى طبقاته قال: أخبرت عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قال الزبير بن العوام: إن طلحة بن عبيد الله التيمى يسمى بنيه بأسماء الأنبياء، وقد علم أن لا نبى بعد محمد، وإنى أسمى بنى بأسماء الشهداء لعلهم أن يستشهدوا، فسمى عبد الله بعبد الله بن جحش، والمنذر بالمنذر بن عمرو، وعروة بعروة ابن مسعود، وحمزة بحمزة بن عبد المطلب، وجعفرا بجعفر بن أبى طالب، ومصعبا بمصعب بن عمير، وعبيدة بعبيدة بن الحارث، وخالدا بخالد بن سعيد، وعمرا بعمرو بن سعيد بن العاص قتل شهيدا يوم اليرموك.

عبد الله بن الزبير: روى البخارى عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: (أول مولود فى الإسلام بعد الهجرة عبد الله بن الزبير، أتوا به النبى ﷺ، فأخذ النبى ﷺ تمرة فلاكها ثم أدخلها فى فيه فأول ما دخل بطنه ريق رسول الله ﷺ).

وقال أبو عمر: كناه رسول الله ﷺ بكنية جده أبى بكر أبى أمه، وسماه باسمه، ودعا له وبارك عليه، وشهد الجمل مع أبيه وخالته، وكان فصيحا ذا أنفة، أطلس لا لحية له، ولا شعر فى وجهه، كان كثير الصوم والصلاة شديد البأس، كريم الجدات والأمهات والخالات، وبويع له بالخلافة سنة أربع وستين، وقتل سنة ثلاث وسبعين فى أيام عبد الملك بن مروان على يد الحجاج وعمره ثلاث وسبعون سنة، واجتمع على طاعته أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان، وحج بالناس ثمان حجج.

المنذر بن الزبير: كان يكنى أبا عثمان، وكان سيدا حليما قتل مع أخيه عبد الله بمكة بعد أن حاصرها الحجاج وهدم الكعبة بالمنجنيق.. وتوفى المنذر وله عقب.

عروة بن الزبير: كان فقيها فاضلا يكنى أبا عبد الله، وأصابته الأكلة فى رجله بالشام، فقطعت رجله وعاش بعد ذلك ثمان سنين، توفى فى ضيعة له بقرب المدينة وله عقب، وهو أحد الفقهاء السبعة المدنيين.

مصعب بن الزبير: كان يكنى أبا عبد الله، وقيل: أبا عيسى، وكان أجود العرب وكان أسمح الناس كفا، وأحسنهم وجها كريما شجاعا جوادا ممدحا، وجمع بين أربع عقائل لم يكن فى زمانه أجمل منهن وهن: السيدة

سكينة بنت الإمام الحسين، وعائشة بنت طلحة، وأمة الحميد بنت عبد الله بن عامر بن كريز، وابنة زيان بن أنيف الكلبى سيد ضاحية العرب.. (ذكره الدارقطنى).

قتل سنة اثنتين وسبعين، وعمره خمس وأربعون سنة على يد عبيد الله بن زياد ظبيان التميمى، وجاء برأسه إلى عبد الملك بن مروان فخر عبد الملك ساجدا.

حمزة بن الزبير: قتل مع أخيه عبد الله بمكة.

إسلامه:

أسلم سيدنا الزبير إسلاما مبكرا.. إذ كان واحدا من العشرة الأوائل الذين سارعوا إلى الإسلام، وأسهموا مع طليعته المباركة فى دار الأرقم.. وكان عمره يومئذ ست عشرة سنة.. وهكذا رزق الهدى والنور والخير صبيا. ولقد كان فارسا ومقداما منذ صباه.. حتى إن المؤرخين ليذكرون أن أول سيف شهر فى الإسلام كان سيف "الزبير".. ففى الأيام الأولى للإسلام، والمسلمون يومئذ قلة يستخفون فى دار الأرقم.. سرت إشاعة ذات يوم أن الرسول ﷺ قتل.. فما كان من الزبير إلا أن استل سيفه وامتشقه وسار فى شوارع مكة - على حداثة سنه - كالإعصار..! ذهب أولا، يتبين الخبر، معتزما إن هو ألفاه صحيحا أن يعمل سيفه فى رقاب قريش كلها حتى يظفر بهم أو يظفروا به.. وفى أعلى مكة لقيه رسول الله ﷺ، فسأله ماذا به؟ فأنهى إليه الزبير النبأ فدعا له الرسول بالخير، ولسيفه بالغلب.

ويروى صاحب الرياض النضرة: أن جبريل أنزل على النبى ﷺ وقال له: إن

الله يقرئك السلام، ويقول لك: (اقرأ منى على الزبير السلام، وبشره بأن الله أعطاه ثواب كل من سل سيفاً فى سبيل الله عز وجل).

وفى ذلك يقول الأسدى:

هذاك أول سيف سل فى غضب   لله سيف الزبير المرتضى الأنفا

حمية سبقت من فضل نجدته   قد يحبس النجدات المحبس الأرفا

وعلى الرغم من شرف الزبير فى قومه فقد حمل حظه من اضطهاد قريش وعذابها، وكان الذى تولى تعذيبه عمه.. كان يلفه فى حصير، ويدخن عليه بالنار كى تزهق أنفاسه، ويناديه وهو تحت وطأة العذاب: أكفر برب محمد، أدرأ عنك هذا العذاب.

فيجيبه الزبير - الذى لم يكن يوم ذاك أكثر من فتى ناشىء، غض العظام - فى تحد رهيب: (لا.. والله، لا أعود للكفر أبداً).

وأسلم أخوه الشقيق السائب وجاهد مع النبى ﷺ، واستعمله أبو بكر الصديق، وقتل يوم اليمامة شهيداً.

وأسلم أخوه لأبيه عبد الرحمن، واستشهد يوم اليرموك.

وكان سيدنا الزبير يتاجر فى اللحوم وكان سيدنا أبو بكر تاجراً أيضاً، وقد حدث الصديق رضي الله عنه الزبير عن الدعوة الجديدة، واستشعر الزبير على إثر حديث الصديق بأن شيئاً ما يسرى فى كيانه، وبأن روحه ونفسه تضبح فى جسده، فاتفق مع محدثه أبى بكر أن يلتقيا فى جوف الليل إلى رسول الله ﷺ، ولم يطل

اللقاء، فأعلن الزبير إسلامه وسعد به المسلمون، كما حزن كفار قريش لأنهم يعرفون من هو الزبير بن العوام.. إنه ذلك الفتى الذي لم يسجد لصنم قط، و لم يأت فعلا مشينا من أفعال الجاهلية الأولى.

هجـــرتـــه:

لما اشتد أذى كفار مكة على المسلمين أذن لهم النبى ﷺ، بالهجرة إلى الحبشة عند النجاشى العادل، الرحيم الذى لا يظلم عنده أحد.

وكان الزبير بن العوام واحدا من هؤلاء الذين نالوا شرف هذه الهجرة متحملا ما شاء الله أن يتحمل من هجر الوطن، والأهل، والمال والحياة، حيث نشأ وتربى وعاش.

وبرغم أن الهجرة إلى أرض الحبشة عند النجاشى مرهقة مخيفة مرعبة، فهى تتم بالبحر الذى لم يعتاده المسلمون بعد، ولكن ليس أمام هؤلاء المظلومين غير ركوبه مهما كان صعبا، فهم مضطرون.

وبينما المسلمون فى الحبشة علموا بأن الله هدى عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب رضى الله عنهما إلى الإسلام، وهم يعرفون من عمر، ومن حمزة؟ فعاد بعض المسلمين إلى مكة، وكان من هؤلاء الزبير بن العوام الذى اشتاق إلى الرسول ﷺ.. وبقى الزبير فى مكة يبيع اللحوم، ويرى قريشا ما زالت باقية على ضلالها وجبروتها، تبطش بالمسلمين وتضطهدهم.

و لم تخف حدة هذا الأذى أو تهدأ، فأمر النبى ﷺ أصحابه بالهجرة إلى يثرب، ونال الزبير بن العوام هذا الشرف أيضا وتحمل فى سبيل الدين ما تحمل، ونزل

على مقربة من قباء فى بقعة يقال لها العصبة.

ولما وصل إلى المدينة نزل على المنذر بن محمد بن عقبة، وآخى النبي ﷺ بينه وبين كعب بن مالك رضي الله عنه.

جـهـــاده:

غزوة بدر الكبرى: لم يمض على هجرة النبى ﷺ إلى المدينة كثــيرا، وكانــت موقعة بدر الكبرى فى العام الثانى من الهجرة، حيث التقى جيش الإيمان تحــت قيادة رسول الله ﷺ وجيش الكفر الذى كان عدده وعتاده ثلاثة أضعاف جيـش المسلمين، يتقدمهم عبيدة بن سعيد بن العاص، وهو مشهور بشدته وبطولتــه النادرة، وفروسيته الفذة، لهذا وضعته قريش فى الصفـــوف الأولى، وراحــت تتحدى به المسلمين! وينظر إليه الزبير بن العوام فيراه قد غطى جميــع جســمه بالسلاح حتى لا تناله السيوف والرماح، فلا يرى منه إلا عيناه!

أخرج البخارى عن الزبير رضي الله عنه قال: لقيت يوم بدر عبيدة بن سعيد بن العـــاص وهو مدجج لا يرى منه إلا عيناه، وكان يكنى أبا ذات الكرش، فحملت عليــه بالعنزة - مثل نصف الرمح وفيها سنان مثل سنان الرمح - فطعنتــه فى عينــه فمات، قال هشام بن عروة: فأخبرت أن الزبير قال: لقد وضعت رجلى عليه ثم تمطيت وكان الجهد أن نزعها وقد انثنى طرفها. قال عروة: فسأله إياها رســول الله ﷺ، فأعطاه إياها فلما قبض رسول الله ﷺ أخذها، ثم طلبها أبو بكر فلمـــا قبض أخذها، ثم سألها عمر فلما قبض عمر أخذها، ثم سألها عثمان فلما قتــل وقعت إلى آل على، فطلبها عبد الله بن الزبير فكانت عنده حتى قتل.

ويروى ابن سعد فى طبقاته: بأن الزبير قتل عمه نوفل بن خويلد يوم بدر، وقد أبدى فى ذلك اليوم من الشجاعة والبطولة والجرأة والإيمان ما أبدى.

وكان يلبس عمامة صفراء، وقد نزلت الملائكة يومئذ بعمائم صفر. فقال رسول الله ﷺ: (لقد نزلت الملائكة على سيما الزبير).

غزوة أحد: وهى الغزوة التى أشيع فيها أن رسول الله ﷺ قد قتل!

كانت مجموعة من كبار الصحابة قد أحاطوا بالرسول ﷺ فى قوة وعزم يفتدونه بأرواحهم ومن هؤلاء الصحابة السادة: أبو بكر، وعمر، وعلى، وسعد بن أبى وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح، والزبير بن العوام.

ذكر يونس عن ابن إسحاق أن طلحة بن أبى طلحة العبدرى حامل لواء المشركين يوم أحد دعا إلى المبارزة، فأحجم عنه الناس - أن نكصوا هيبة لأنه كان من الأبطال المشهورين فبرز إليه الزبير بن العوام - فوثب حتى صار معه على جمله ثم اقتحم به الأرض، فألقاه عنه وذبحه بسيفه فأثنى عليه رسول الله ﷺ وقال: "لو لم يبرز إليه لبرزت أنا إليه لما رأيت من إحجام الناس عنه".

ولقد كانت للزبير جولة فى نهاية المعركة.. بعد أن انقلب جيش قريش راجعا إلى مكة، ندبه الرسول ﷺ هو وأبو بكر لتعقب جيش قريش ومطاردته حتى يروا أن المسلمين قوة فلا يفكروا فى الرجوع إلى المدينة واستئناف القتال.

وقاد أبو بكر والزبير سبعين من المسلمين، وعلى الرغم من أنهم كانوا يتعقبون جيشا يعتبر نفسه منتصرا فإن اللباقة الحربية التى استخدمها الصديق والزبير، جعلت قريشا تظن أنها أساءت تقدير خسائر المسلمين، وجعلتها تحسب أن هذه

الطليعة القوية التى أجاد الزبير مع الصديق إبراز قوتها، ما هى إلا مقدمة لجيش الرسول ﷺ الذى يبدو أنه قادم ليشن مطاردة رهيبة فأسرعت قريش خطاها إلى مكة.

غزوة الأحزاب: عن جابر بن عبد الله قال: لما كان يوم الخندق ندب رسول الله ﷺ الناس فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، فقال رسول الله ﷺ: "لكل نبى حوارى وحوارى الزبير". أخرجه البخارى ومسلم وابن ماجة وأحمد والبزار.

ولا عجب لقد كان الزبير بن العوام أمة وحده وركنا من أركان الإسلام كما وصفه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. (أخرجه ابن السرى وذكره صاحب الرياض النضرة).

وحين طال حصار بنى قريظة دون أن يستسلموا أرسله الرسول ﷺ مع الإمام على بن أبى طالب، فوقف أمام الحصن المنيع يردد مع الإمام على قوله: (والله لنذوقن ما ذاق حمزة بن عبد المطلب، أو لنفتحن عليهم حصنهم). ثم ألقيا بنفسيهما وحيدين داخل الحصن.. وبقوة يقين أذهلت يهود بنى قريظة أحكما إنزال الرعب فى أفئدة المتحصنين داخله وفتحا للمسلمين أبوابه.

وأخرج البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجة عن عبد الله بن الزبير قال: لما كان يوم الخندق كنت أنا وعمر بن أبى مسلمة فى الأطم "بناء مرتفع كا لحصن" الذى فيه نساء رسول الله ﷺ أطم حسان، وكان يرفعنى وأرفعه، فإذا رفعنى عرفت أبى الزبير حين يمر إلى بنى قريظة، وكان يقاتل مع رسول الله ﷺ يوم الخندق، فقال:

من يأتى بنى قريظة فيقاتلهم؟ قلت له حين رجع: يا أبت إن كنت لأعرفك حين تمر ذاهبا إلى بنى قريظة. فقال: يا بنى أما والله إن كان رسول الله ﷺ ليجمع لى أبويه جميعا يتفدانى بهما ويقول: (فداك أبى وأمى يا زبير).

ذكر يونس عن بن إسحاق قال: خرج نوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومى يوم الخندق، فسأل المبارزة فخرج إليه الزبير بن العوام ﷺ فضربه فشقه باثنتين حتى فل فى سيفه فلا، وانصرف وهو يقول:

أنا امرؤ أحمى وأحتمى عن النبى المصطفى الأمى

فتح مكة: أخرج ابن سعد فى طبقاته: لما فتح رسول الله ﷺ مكة كان الزبير بن العوام على المجنبة (الناحية) اليسرى، وكان المقداد بن الأسود على المجنبة اليمنى، فلما دخل رسول الله ﷺ، مكة وهدأ الناس، جاء بفرسيهما فقام رسول الله ﷺ، يمسح الغبار عن وجوههما بثوبه وقال "إنى قد جعلت للفرس سهمين وللفارس سهما فمن نقصهما نقصه الله".

يوم حنين: أبصر الزبير بن العوام مالك بن عوف زعيم هوازن وقائد جيوش الشرك فى تلك الغزوة، أبصره بعد هزيمتهم فى حنين واقفا وسط فيلق من أصحابه وبقايا جيشه المنهزم، فاقتحم حشدهم وحده، وشتت شملهم وحده، وأزاحهم عن المكمن الذى كانوا يتربصون فيه ببعض المسلمين العائدين من الغزوة.

فتح مصر: حينما طلب عمرو بن العاص من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مددا من الجيش لمعاونته على فتح مصر وهزيمة جيش الروم المعسكر بها أمده

بأربعة آلاف جندى عليهم أربعة من القواد وكتب إليه: "لقد أمددتك بأربعة آلاف عليهم أربعة الواحد منهم بألف رجل".

أتدرى من هؤلاء الأربعة؟

إنهم: الزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت، والمقداد ابن الأسود، ومسلمة بن مخلد. وأمام حصن بابليون الذى بناه الروم، يضرب الزبير أروع الأمثلة فى التضحية والفداء لإعلاء كلمة الدين وراية الحق. ويهب نفسه لله ويضع سلما أمام الحصن بعدما استعصى عليهم فتحه زهاء مائتى يوم أو يزيد، ويصعد إلى أعلى الحصن ويقول: الله أكبر بأعلى صوته فيردد الجيش الإسلامى كلمة التوحيد مرات ومرات من خارج الحصن، فيظن أهل الحصن أن المسلمين قد اقتحموه ويولون الأدبار. وعندئذ يتجه الزبير إلى باب الحصن فيفتحه ويكون النصر.

يوم اليرموك: كان الزبير جيشا وحده.. فحين رأى أكثر المقاتلين الذين كان على رأسهم يتقهقرون أمام جبال الروم الزاحفة، صاح هو الله أكبر.. واخترق تلك الجبال الزاحفة وحده، ضاربا بسيفه.. ثم قفل راجعا وسط الصفوف الرهيبة ذاتها، وسيفه يتوهج فى يمينه لا يكبو، ولا يخبو..!

لقد قتل الزبير عددا كبيرا من الروم حتى تحقق النصر للمسلمين فى هذه المعركة.

ولقد قيل فى تاريخه: "إن الزبير ما ولى إمارة قط ولا جباية، ولا خراجا ولا شيئا إلا الغزو فى سبيل الله".

فلو كان يشاركه فى القتال مائة ألف، لرأيته يقاتل وكأنه وحده، وكأن مسئولية

القتال والنصر تقع على كاهله وحده.. ولذلك لا عجب أن يقول عروة بن الزبير: أوصى الزبير إلى ابنه صبيحة الجمل، فقال: يا بنى ما من عضو إلا وقد جرح مع رسول الله ﷺ. (أخرجه الترمذى).

فضائله:

١-أخرج الحافظ الدمشقى فى الأربعين الطوال، وذكر صاحب الرياض النضرة عن سيدنا عمر بن الخطاب قال: رأيت رسول الله ﷺ وقد نام، فجلس الزبير يذب عن وجهه، حتى استيقظ فقال له: يا أبا عبد الله لم تزل؟ قال: لم أزل أنت بأبى وأمى، قال رسول الله ﷺ: "هذا جبريل يقرئك السلام، ويقول أنا معك يوم القيامة حتى أذب عن وجهك شرر جهنم".

٢-قال فيه حسان بن ثابت رضي الله عنه.

أقام على عهد النبى وهديه ... حواريه والقول بالفعل يعدل

أقام على منهاجه وطريقه ... يوالى ولى الحق والحق أعدل

هو الفارس المشهور والبطل الذى ... يصول إذا ما كان يوم محجل

له من رسول الله قربى قريبة ... ومن نصرة الإسلام مجد مؤثل

فكم كربة ذب الزبير بسيفه ... عن المصطفى والله يعطى ويجزل

إذا كشفت عن ساقها الحرب حشها ... بأبيض سباق إلى الموت يرقل

فما مثله فيهم ولا كان قبله ... وليس يكون الدهر ما دام يذبل

ثناؤك خير من فعال معاشر ... وفعلك يا ابن الهاشمية أفضل

٣-روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان على جبل حراء فتحرك..فقال رسول الله ﷺ: "اسكن حراء فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد".

وعليه النبى ﷺ.. والسادة أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص ﷺ.

٤-كان للزبير بن العوام ﷺ ألف مملوك يؤدون إليه الخراج ما يدخل بيته من خراجهم درهما.. بل كان ينفقه فى سبيل الله كل ليلة ثم يقوم إلى مترله ليس معه شيء.. وكان الله يعطيه بغير حساب، فقد استشهد ﷺ تاركا ثروة عظيمة.. أتدرى كم كانت ثروته؟

يقول ابن كثير فى البداية والنهاية: (جميع ما تركه الزبير من الدين والوصية والميراث تسعة وخمسين ألف ألف وثمانمائة ألف). وقال البخارى: (إن جميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف).

٥-أخرج مسلم عن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: قالت لى عائشة: يا عروة كان أبواك من الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح (تعنى أبو بكر والزبير).

٦-اختصاصه بمرافقة النبى ﷺ إلى وفد الحج: جاء فى الرياض النضرة للمحب الطبرى عن الزبير بن العوام قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح فى مسجد المدينة، فلما انصرف قال: أيكم يتبعنى إلى وفد الجن الليلة؟ فأسكت القوم فلم يتكلم منهم أحد، فقال ذلك ثلاثا فلم يتكلم منهم أحد، فمر بى يمشى وأخذ

بيدى فجعلت أمشى معه، وما أجد من مس حتى خنس عنا نخل المدينة كلها، . وأفضينا إلى أرض بوار فإذا رجال طوال كأنهم رماح، مستثغرى ثيابهم من بين أرجلهم، فلما رأيتهم غشيتنى رعدة شديدة حتى ما تمسكنى رجلاى من الفرق، فلما دنونا منهم خط لى رسول الله ﷺ برجله فى الأرض خطا، وقال لى: اقعد فى وسطها. فلما جلست فيها ذهب عنى كل شيء كنت أجده، ومضى رسول الله ﷺ وتلا عليهم القرآن حتى طلع الفجر، ثم أقبل حتى مر بى، فقال: الحق، فجعلت أمشى معه فمضينا غير بعيد، فقال لى: التفت فانظر هل ترى حيث كان من هؤلاء من أحد؟ فقلت: يا رسول الله أرى سوادا كثيرا، فقال: فخفض رسول الله ﷺ بيده الأرض وأخذ بروثة ثم رمى بها إليهم، وقال: رشد أولئك من وفد قوم.

وقد تقدم أن ذلك حدث أيضا مع ابن مسعود فى مكة.

وفاته:

لما كانت وقعة الجمل دنا الإمام على وأصحابه من طلحة والزبير ودنت الصفوف بعضها من بعض، خرج الإمام على وهو على بغلة رسول الله ﷺ فنادى: ادعوا لى الزبير بن العوام فأقبل الزبير حتى اختلفت أعناق دوابهما، فقال الإمام على: يا زبير أنشدك الله، أتذكر يوم مر بك رسول الله ﷺ، ونحن فى مكان كذا وكذا، فقال: (يا زبير ألا تحب عليا)؟ فقلت: ألا أحب ابن خالى وابن عمتى ومن هو على دينى؟ فقال: (يا زبير.. أما والله لتقاتلنه وأنت ظالم له). فقال الزبير: بلى! والله لقد نسيته منذ سمعته من رسول الله ﷺ،

ثم ذكرته الآن والله لا أقاتلك.. فرجع الزبير على دابته يشق الصفوف، فعرض له ابنه عبد الله بن الزبير، فقال: مالك؟ قال: ذكرنى علىّ حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: (لتقاتلنه وأنت له ظالم) فقال: أو للقتال جئت؟ إنما جئت لتصلح بين الناس ويصلح الله بك هذا الأمر، قال: قد حلفته ألا أقاتله.

وقد قيل: إنه إنما رجع عن القتال لما رأى عماراً مع الإمام علىّ، وقد سمع رسول الله ﷺ يقول لعمار: تقتلك الفئة الباغية. فخشى أن يقتل عماراً فى هذا اليوم.

ورجع الزبير حتى نزل وادياً يقال له: وادى السباع بالبصرة، فاتبعه رجل يقال له عمرو بن جرموز فجاءه وهو يصلى فقتله غيلة، وأخذ رأسه وذهب به إلى الإمام علىّ - رأى أن ذلك يحصل له به حظوة عنده - فاستأذنه، فقال الإمام علىّ: لا تأذنوا له وبشروه بالنار، وفى رواية: إن الإمام عليّاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (بشر قاتل ابن صفية بالنار).

ودخل ابن جرموز ومعه سيف الزبير، فقال الإمام علىّ: إن هذا السيف طالما فرّج الكرب عن وجه رسول الله ﷺ، فلما سمع عمرو بن جرموز ذلك قتل نفسه.

وكان انتقال سيدنا الزبير رضي الله عنه يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين من الهجرة - وعمره خمس وستون سنة - وصلى عليه الإمام علىّ كرّم الله وجهه ودفنه بوادى السباع فى البصرة، وقال: سمعت أذناى هاتان رسول الله ﷺ يقول: "طلحة والزبير جاراى فى الجنة".

سابع العشرة

أول رامٍ بسهم سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه

هو سعد بن مالك – وهو أبو وقاص – بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة.. يجتمع مع النبى ﷺ فى كلاب بن مرة.. وجده وهيب بن عبد مناف، عم السيدة آمنة أم رسول الله ﷺ.

وينسب إلى زهرة بن كلاب فيقال: القرشى الزهرى.. ويجتمع هو وعبد الرحمن بن عوف فى زهرة.

وعن الضحاك وابن سعد والمحب الطبرى: عن سعد بن أبى وقاص أنه قال للنبى ﷺ: من أنا يا رسول الله ﷺ؟ قال: (أنت سعد بن مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة، من قال غير ذلك فعليه لعنة الله).

أمه: حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى، ماتت ولم تسلم.

اسمه وكنيته: لم يزل اسمه فى الجاهلية والإسلام سعداً، ويكنى أبا إسحق.

صفته: ذكر ابن قتيبة، وابن الجوزى فى صفة الصفوة، والمحب الطبرى فى الرياض النضرة: أنه كان رجلاً قصيراً غليظاً، ذا هامة، غليظ الأصابع، آدم جعد الشعر، أشعر الجسد، يخضب بالسواد، ذهب بصره فى آخر عمره، وقيل: إنه كان طويلاً.

أولاده وزوجاته: كان لسيدنا سعد بن أبي وقاص ﷺ من الولد أربعة وثلاثون ولداً، سبعة عشر ذكراً، وسبع عشرة أنثى، أما زوجاته فإحدى عشر وهم:

ذكر الذكور:

١-إسحاق الأكبر: وبه يكنى أبوه.. أمه ابنة شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة.

٢-عمر: قتله المختار، ومحمد: قتله الحجاج يوم دير الجماجم.. أمهما ماوية بنت قيس بن معدى يكرب بن أبي الكسيم بن السمط بن امرىء القيس بن عمرو من كندة.

٣-عامر: وكان يروى عنه الحديث، وإسحق الأصغر، وإسماعيل.. وأمهم أم عامر بنت عمرو بن كعب بن عمرو بن زرعة بن عبد الله من بهراء.

٤-إبراهيم، وموسى.. أمهما زبد بنت الحارث بن يعمر بن شراحبيل، أصيبت سباء.

٥-عبد الله.. أمه خولة بنت عمرو من بنى تغلب بن وائل.

٦-عبد الله الأصغر، وبجير واسمه عبد الرحمن.. أمهما أم هلال بنت ربيع بن مرى.

٧-عمير الأكبر: وتوفى قبل أبيه.. أمه أم حكيم بنت قارظ من بنى كنانة حلفاء بنى زهرة.

٨-عمير الأصغر، وعمرو، وعمران.. أمهم سلمى بنت حفص.

٩-صالح: كان نزل الحيرة لشر وقع بينه وبين أخيه عمر بن سعد.. أمه طيبة بنت عامر بن عتبة بن شراحبيل.

١٠-عثمان.. أمه أم حجير.

ذكر الإناث:

١-أم الحكم الكبرى شقيقة إسحق الأكبر.

٢-حفصة وأم القسم، وكلثوم شقائق عمر، ومحمد.

٣-أم عمران شقيقة إسحق الأصغر.

٤-أم الحكم الصغرى، وأم عمر، وهند، وأم الزبير، وأم موسى شقائق إبراهيم وموسى.

٥-حمنة أخت بجير وعبد الله الأصغر.

٦-حمنة أخت عمير الأكبر.

٧-أم عمر، وأم أيوب، وأم إسحق شقائق عمير الأصغر، وعمرو، وعمران.

٨-رملة أخت عثمان.

٩-عمرة وهى العمياء، تزوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف وأمها امرأة من سبى العرب.

١٠-عائشة بنت سعد.

(ذكر ذلك كله ابن قتيبة، وابن سعد، وابن الجوزى، والمحب الطبرى).

إسلامه:

بينما يستغرق سيدنا سعد فى نوم عميق، يرى فى منامه ما تحكيه ابنته عائشة عنه قالت: إن أبى قال: رأيت فى المنام قبل أن أسلم بثلاث كأنى فى ظلمة لا أبصر شيئاً، فإذا قمر يضىء جوانب الدنيا فاتبعته، فكأنى أنظر إلى من سبقنى إلى ذلك القمر فأنظر إلى زيد بن حارثة، وإلى علىّ بن أبى طالب، وإلى أبى بكر الصديق، وكأنى أسألهم: متى انتهيتم إلى هنا؟ قالوا: الآن. أخرجه الفضائلى، والمحب الطبرى.

ما هذا القمر المنير الذى يضىء جوانب الدنيا؟ وليس هناك شك بأنه لم يجر بذهنه بأنه نور الإسلام.

ولم يستمر سيدنا سعد فى حيرته طويلاً، فها هو ذا أبو بكر الصديق يلتقى به وكلاهما يعرف الآخر من زمن طويل، ويتحدثان ثم يتطرق الصديق إلى الحديث عن الدين الجديد.. وينهى حديثه بدعوة سعد إلى هذا الدين ولقاء النبى ﷺ، حتى يسمع منه الخبر اليقين.

ويقبل سعد الدعوة، ويذهب مع أبى بكر للقاء النبى ﷺ ويستمع إليه، ويعرف منه أن أبا بكر وعليّاً وزيد بن حارثة قد أسلموا كما أسلمت خديجة بنت خويلد، ويذهب فكر سعد فيما رأى من قبل فى منامه، ويصغى إلى الرسول ﷺ فيعرف مبادىء الإسلام، ويعلن إسلامه، وكأنه قد انتشل من ظلام، ويرى أنه أصبح مع جمع قمر المنام.. وكان عمره سبع عشرة سنة. وعلمت أمه حمنة بنت سفيان بن أمية بإسلام سعد فقالت له: هل تركت دينك، ودين أبائك

وأجدادك؟ ثم قالت: لتتركن هذا الدين أو لأمتنعن عن الطعام والشراب حتى أموت، فيعيرك الناس بموتى، وتلحق بك معرة الأبد!!

واستمرت الأم على ترك الطعام والشراب حتى هددها الجوع وأهزلها، وكاد العطش يهلكها وأصبحت فى خطر شديد.

وطلب القوم من سعد أن يذهب إليها ليته يرق لها ويستجيب لطلبها - وسعد يحب أمه ويبرها ويرجو لها الخير - فذهب سعد ورأى أمه على أسوأ حالة، ورق لها قلبه، ولكنه قال لها: اعلمى يا أمى أنه لو كان لك ألف نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى.. فارجعى إلى طعامك وشرابك.. وفى هذا علاجك مما ألم بك.

فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير * وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا﴾. (لقمان: ١٤ - ١٥).

ما أعمق إيمان سيدنا سعد!! وما أروع مبادىء الإسلام!! فما أعدله بالوالدين وما أبره من دين.. وما أسعد سعدا وهو يترل فيه من عند الله قرآن كريم.

وأسلم أخواه لأبويه عامر وعمير ابنا أبى وقاص، وأخواه لأبيه عتبة وخالدة.

فأما عامر: فكان من مهاجرة الحبشة ثم هاجر إلى المدينة، وكان فاضلا، روى سعد بن أبى وقاص أن النبى ﷺ قال يوما: (يطلع عليكم رجل من أهل الجنة فطلع أخى عامر).

وأما عمير: فشهد بدرا وهو ابن ست عشرة سنة فيما يقال، وأراد النبى ﷺ أن يرده فبكى فخرج به معه فاستشهد يومئذ وقتله عمرو بن ود.

وأما عتبة: فاختلف فى إسلامه فقيل: إنه أصاب دما فى قريش فانتقل إلى المدينة قبل الهجرة، فاتخذ بها مترلا ومالا، وتوفى فى الإسلام، وقيل: لم يسلم، وكان فى صفوف المشركين يوم أحد، وهو الذى ألقى حجرا على النبى ﷺ، فكسر رباعيته، فدعا عليه النبى قائلا: "اللهم لا يحول عليه الحول حتى يموت كافرا". فحدث ذلك.

وأما خالدة: فتزوجها سمرة بن جنادة السوائى الصحابى الجليل وولدت له.

وقد روى سيدنا سعد مائتى حديث وسبعين حديثا.

فضائله وخصائصه:

١-أول رام بسهم فى سبيل الله: عن سعد بن مالك قال: إنى أول العرب رمى فى سبيل الله.

ويذكر ابن سعد فى الطبقات عن سعد بن مالك قال:

ألا هل أتى رسول الله أنى حميت صحابتى بصدور تبلى
أزود بها عدوهم زيادا بكل حزونة وبكل سهل
فما يعتد رام من معد بسهم مع رسول الله قبلى

قال ابن سعد فى الطبقات الكبرى: كان ذلك فى سرية فى شهر شوال على رأس ثمانية أشهر من هجرة رسول الله ﷺ. وكانت إلى بطن رابغ وكانت من ستين

راكبا من المهاجرين.

٢-مستجاب الدعوة: عن سعد أن النبى ﷺ قال: "اللهم استجب لسعد إذا دعاك". أخرجه الترمذى.

وعن جبير بن مطعم بن المقداد أن سعدا قال: يا رسول الله ادع الله أن يستجيب دعائى، قال: " يا سعد إن الله لا يستجيب دعاء عبد حتى يطيب مطعمه". قال: يا رسول الله: ادع الله أن يطيب مطعمى، فإنى لا أقوى إلا بدعائك. قال: "اللهم أطب طعمة سعد". فإن كان سعد ليرى السنبلة من القمح فى حشيش دوابه، فيقول: ردوها من حيث حصدتموها.

٣-سداد سهمه: عن سعد أن النبى ﷺ قال: "اللهم سدد سهمه وأجب دعوته" (أخرجه أبو نعيم).

٤-جمع النبى أبويه له يوم أحد: عن الإمام على كرم الله وجهه قال: ما جمع رسول الله ﷺ أبويه لأحد غير سعد بن مالك فإنه جعل يقول له يوم أحد: (ارم فداك أبى وأمى) (أخرجه مسلم والترمذى).

وقد تقدم مثل ذلك لسيدنا الزبير بن العوام رضي الله عنه فى غزوة الخندق، ولعل سيدنا على يقصد أن النبى ﷺ لم يجمع أبويه قبل غزوة أحد إلا لسيدنا سعد رضي الله عنه.

٥-تمنى رسول الله ﷺ أن يحرسه: عن عائشة قالت: أرق رسول الله ﷺ ذات ليلة فقال: "ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى اللية". فقالت: فسمعنا صوت السلاح، فقال رسول الله ﷺ: (من هذا؟) قال: سعد بن أبى وقاص يا رسول الله، جئت أحرسك. قالت عائشة: فنام رسول الله ﷺ ودعا له. (أخرجه مسلم

والترمذى).

٦-رؤيته لجبريل وميكائيل يوم أحد: عن سعد قال: رأيت عن يمين النبى ﷺ وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد قتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد، يعنى جبريل وميكائيل. أخرجه أبو حاتم.

٧-خال رسول الله ﷺ: عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: أقبل سعد، فقال النبى ﷺ: "هذا خالى فليرنى امرؤ خاله". أخرجه الترمذى وابن عبد البر.

وكان سيدنا سعد من بنى زهرة وأم النبى ﷺ من بنى زهرة. فلذلك قال: خالى.

٨-شهادة النبى ﷺ له بالجنة: عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى ﷺ قال: "أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة"، فدخل سعد بن أبى وقاص. (أخرجه أحمد).

٩-أول من كوف الكوفة: جاء فى النهاية لابن الأثير: لما أراد سعد بن أبى وقاص أن يبنى الكوفة قال: تكوفوا فى هذا الموضع، أى: اجتمعوا فيه، وبه سميت الكوفة، وقيل: كان اسمها قديما كوفان.

١٠- ناصر الدين: عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "يا سعد أنت ناصر الدين حيث كنت". أخرجه الملاء فى سيرته.

١١-سعد بألف فارس: عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "سعد بن أبى وقاص بألف فارس". أخرجه الملاء.

١٢-صدقه: عن ابن عمر أن سعدا حدثه عن رسول الله ﷺ أنه مسح على

الخفين، وأن ابن عمر سأل عن ذلك عمر، فقال: نعم إذا حدث سعد عن النبى ﷺ فلا تسأل عنه غيره. (أخرجه البخارى).

١٣-صبره مع رسول الله ﷺ: عن سعد قال: إنى لأول العرب من رمى سهما فى سبيل الله، وقد كنا نغزو مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الحبلة (تشبه اللوبيا) وهذا السمر حتى إن كان أحدنا ليضع كما تضع الشاة ماله خلط. (أخرجه البخارى وأبو نعيم).

والمعنى: أنهم كانوا يأكلون خبز الشعير وورق الشجر.

جهاده:

كان سيدنا سعد بن أبى وقاص بطلا غير هياب، يملأه الإيمان قوة، والشباب حماسة وفتوة، وقد خاض مع رسول الله ﷺ كل الغزوات.

فقد شهد بدرا: أول معركة بين المسلمين والكفار وأبدى فيها من الشجاعة ما أبدى، ومن دقة التنظيم، وحسن التفكير والتخطيط، ما كان رسول الله ﷺ عنه راض، وبه سعيد.

ولم يستمر الزمن طويلا، وأرادت قريش الثأر من المسلمين لما ألحقوه بها من هزيمة وعار فى موقعة بدر فكانت موقعة أحد: والتى خدع المسلمون فى الساعات الأولى منها، وترك الرماة موقعهم الذى أوصاهم الرسول ﷺ بالبقاء فيه، فانتهز خالد بن الوليد – لم يكن أسلم بعد – وجيش الكفر ذلك فعاودوا الهجوم على المسلمين، واحتدم القتال، وأحاط الكفار برسول الله ﷺ، وفر بعض المجاهدين من المسلمين، وارتجفت قلوب آخرين، ولكن نفرا من المؤمنين –

ومنهم سيدنا سعد – أحدقوا حول رسول الله ﷺ، وأبدوا من البطولة والتضحية والفداء والجراءة ما أثار حفيظة الأعداء، وأسعد قلوب المؤمنين. وانبرى سيدنا سعد يرمى الكافرين بالسهام والنبال، ورأى رسول الله ﷺ ما يصنع سعد فقال له: "ارم يا سعد فداك أبى وأمى".

وفيما رواه الزهرى: (أن سعدا بن أبى وقاص رمى يوم أحد ألف سهم).

أى شرف هذا؟! وما أروع هذا النوط النبوى من الطبقة الأولى: (فداك أبى وأمى).

مع سيدنا أبى بكر: يتولى الصديق الخلافة بعد رسول الله ﷺ، ويستمر عطاء سيدنا سعد بن أبى وقاص للإسلام، فيشارك فى حروب المرتدين، ويبلى فيها بلاء حسنا، وبعد أن هدأت حروب الردة، فكر الصديق فى تأمين حدود الدولة الإسلامية مع الفرس والروم، وكان سيدنا سعد فى هذا الوقت موفدا من قبل الخليفة أبى بكر إلى هوازن يجمع العشور والزكاة. وينتقل الصديق إلى الرفيق الأعلى.

ويتولى سيدنا عمر خليفة للمسلمين ولا يجد بدا من الحرب مع الفرس فاستدعى الفاروق عمر سعدا من هوازن، لأنه يعلم مزلته فى الحرب ودقته فى قيادتها، وقد ابتكر الفرس محاربة المسلمين بالفيلة، وكان ما لحق بالمسلمين فى موقعة الجسر التى ذهب ضحية لها فى يوم واحد أربعة آلاف شهيد. .فتألم الفاروق وفكر فى أن يقود المعركة بنفسه، ولكنه والمسلمين وجدوا سعدا رجل الكفاءة والكفاية.

وتقلد سيدنا سعد قيادة الجيش فى حرب القادسية.. واستمر صابرا محتملا، وتمادى الفرس فى تجاهله أكثر من مائة يوم لعله يترك القادسية ذلك الموقع الحصين يائسا.. واستمر ذلك وقتا حتى حانت لحظة اللقاء والمعركة، وقد عبأ سيدنا سعد الجنود تعبئة معنوية هائلة، ودوى الكون، وأوب مع المكبرين، ومد ذراعه كالسهم النافذ مشيرا إلى العدو وصاح: هيا على بركة الله. والتقى مع الفرس، ولقنهم درسا لا ينسى، وفر قائدهم (رستم) هاربا وألقى بنفسه فى النهر فتبعه أحد جنود العرب وقتله شر قتلة.. وكان اليوم الاثنين من المحرم سنة أربع عشرة، وتهاوت جنود الفرس.. وتهاوت معهم الوثنية وعبادة النار.. وطارت فلولهم المهزومة.. وطاردهم الجيش المسلم حتى نهاوند ثم المدائن فدخلوا ليحملوا إيوان كسرى وتاجه، غنيمة وفيئا.

وفى موقعة المدائن أبلى سيدنا سعد بلاء عظيما، وكانت بعد القادسية بعامين تقريبا.. وتصف لنا إحدى الروايات التاريخية روعة المشهد وهم يعبرون دجلة فتقول: أمر سعد أن يقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، ثم اقتحم بفرسه دجلة، واقتحم الناس وراءه، لم يتخلف عنه أحد، فساروا فيه كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى ملئوا ما بين الجانبين، ولم يعد وجه الماء يرى من أفواج الفرسان والمشاة وجعل الناس يتحدثون وهم يسيرون على وجه الماء، وكأنهم يتحدثون على وجه الأرض، وذلك بسبب ما شعروا من الطمأنينة والأمن والوثوق بأمر الله ونصره ووعده، وتأييده!!.

ويمتد العمر بسيدنا سعد.. وتجيء الفتنة الكبرى بين الإمام على ومعاوية فيعتزلها.. بل يأمر أهله وأولاده ألا ينقلوا إليه شيئا من أخبارها. وذات

يوم تشرئب الأعناق نحوه، ويذهب إليه ابن أخيه: هاشم بن عتبة بن أبى وقاص ويقول: يا عم، ها هنا مائة ألف سيف يرونك أحق الناس بهذا الأمر.

فيجيبه سيدنا سعد: (أريد من مائة ألف سيف، سيفا واحدا إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئا، وإذا ضربت به الكافر قطع). وحين انتهى الأمر لمعاوية، واستقرت بيده مقاليد الحكم سأل سعدا.. مالك لم تقاتل معنا؟، فأجابه سعد قائلا: (ما كنت لأقاتل رجلا - يعنى الإمام على - قال له رسول الله ﷺ: أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى).

وفاته:

روى ابن حجر عن عامر بن سعد قال: كان سعد آخر المهاجرين موتا - يقصد من الرجال فقط - وكان آخر العشرة موتا.

وذكر ابن الجوزى فى صفة الصفوة وأبو عمر: أن سيدنا سعد بن أبى وقاص مات فى قصره بالعقيق على بعد عشرة أميال من المدينة وحمل على أعناق الرجال إلى المدينة، ودفن بالبقيع، وصلى عليه مروان بن الحكم وهو يومئذ والى المدينة، ثم صلى عليه أزواج النبى ﷺ فى حجرهن.

وأخرج مسلم: عن موسى بن عقبة عن عبد الواحد بن حمزة قال: لما توفى سعد أرسل أزواج النبى ﷺ أن مروا بجنازته فى المسجد ففعلوا، فوقف بهم على حجرهن فصلين عليه فبلغهن أن الناس عابوا ذلك، وقالوا: ما كانت الجنائز يدخل بها المسجد فقالت عائشة: ما أسرع الناس إلى أن يعيبوا مالا علم لهم به، عابوا علينا أن يمر بجنازة فى المسجد، ما صلى رسول الله ﷺ على سهل بن

بيضاء إلا فى جوف المسجد.

وذكر ابن الجوزى والفضائلى: وكان سعد أوصى أن يكفن فى جبة صوف له كان لقى المشركين فيها يوم بدر، فقال: اخبئوها لهذا، فتكفن فيها.

ويذكر ابن سعد فى طبقاته: أرسل سعد بن أبى وقاص إلى مروان بن الحكم بزكاة عين ماله خمسة آلاف درهم، وترك سعد يوم وفاته مائتى ألف وخمسين ألف دهم.. بالرغم من أن عمر بن الخطاب قاسمه ماله يوم عزله عن ولاية العراق.

كان عمر سعد يوم وفاته خمس وثمانين سنة.. وفوق أعناق الرجال حمل جثمان آخر المهاجرين وفاة.. ليأخذ مكانه فى سلام إلى جوار ثلة طاهرة عظيمة من رفاقه الذين سبقوه إلى الله تعالى.

ثــامن العشــرة

الجندى المجهول سعيد بن زيد رضي الله عنه

هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط ابن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى.. يجتمع مع النبى ﷺ فى كعب بن لؤى.. ومع سيدنا عمر بن الخطاب فى نفيل بن عبد العزى المتصل بكعب، وسيدنا عمر رضي الله عنه ابن عم أبيه.. وينسب إلى عدى فيقال: القرشى العدوى.

اسمه وكنيته: لم يزل اسمه فى الجاهلية والإسلام سعيدا، ويكنى بأبى الأعور.

أمه: فاطمة بنت بعجة بن مليح الخزاعية.. كانت من السابقين إلى الإسلام.

صفته: كان أسمر اللون طويلا أشعر.. (قاله الواقدى).

والده الحنيف: كان والده زيد يطلب دين الحنيفية، دين سيدنا إبراهيم قبل أن يبعث النبى ﷺ وكان لا يذبح للأنصاب، ولا يأكل الميتة ولا الدم، وخرج يطلب الدين هو وورقة بن نوفل، فتنصر ورقة وأبى هو التنصر، فقال له الراهب: إنك تطلب دينا ما هو على الأرض اليوم، قال: وما هو؟ قال: دين إبراهيم، كان يعبد الله لا يشرك به شيئا، ويصلى إلى الكعبة، وكان زيد على ذلك حتى توفى.

أخرج البخارى عن أسماء قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسندا ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش والله ما منكم على دين إبراهيم غيرى، وكان يحيى الموؤدة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها وأنا كفيتك مؤنتها.

فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤنتها.

وعن ابن زيد عن أبيه قال: فى قوله تعالى: ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها﴾ (الزمر: ١٧). نزلت فى ثلاث نفر كانوا فى الجاهلية يوحدون الله عز وجل وهم: زيد بن عمرو بن نفيل، وأبو ذر الغفارى، وسلمان الفارسى، وأولئك الذين هداهم الله بغير كتاب ولا نبى (أخرجه الواحدى فى أسباب النزول).

وأخرج ابن سعد فى الطبقات عن عامر بن ربيعة قال: كان زيد بن عمرو بن نفيل يطلب الدين وكره النصراينة واليهودية وعبادة الأوثان والحجارة. وأظهر خلاف قومه واعتزل آلهتهم وما كان يعبد أباؤهم ولا يأكل ذبائحهم، فقال لى: يا عامر إنى خالفت قومى واتبعت ملة إبراهيم وما كان يعبد إسماعيل من بعده، وكانوا يصلون إلى هذه القبلة، فأنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل يبعث ولا أرانى أدركه، وأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبى، فإن طالت بك مدة فرأيته فأقرئه منى السلام، قال عامر: فلما تنبأ رسول الله ﷺ، أسلمت وأخبرته بقول زيد بن عمرو وأقرأته السلام فرد عليه رسول الله ﷺ، ورحم عليه وقال: قد رأيته فى الجنة يسحب ذيولاً.

وأخرج ابن سعد أيضاً: أخبرنا أبو أسامة عن مجالد بن عامر قال: سئل النبى ﷺ عن زيد بن عمرو بن نفيل فقال: (يبعث يوم القيامة أمة وحده).

ويثبت لزيد بن عمرو بن نفيل بعض الشعر، وينسب إليه على أنه من قريضه،

ومنه قوله:

أربّاً واحداً أم ألف رب ... أدين إذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعاً ... كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا عُزّى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمى بنى عمرو أزور
ولكن أعبد الرحمن ربى ... ليغفر ذنبى الرب الغفور

توفى رضي الله عنه وقريش تبنى الكعبة قبل أن يترل الوحى على رسول الله ﷺ بخمس سنين، ودفن بأصل حراء.

أولاده وزوجاته: قال أهل السير: كان لسيدنا سعيد بن زيد رضي الله عنه من الأولاد واحداً وثلاثين ولداً: أربعة عشر ذكراً، وسبع عشرة أنثى، أما زوجاته فإحدى عشر وهم:

١-عبد الله الأكبر لا عقب له.. وأمه رملة – ولقبها أم جميل واسمها فاطمة – بنت الخطاب بن نفيل شقيقة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٢-زيد لا عقب له، وعبد الله الأكبر لا عقب له، وعاتكة.. وأمهم جليسة بنت سويد بن صامت.

٣-عبد الرحمن الأصغر لا عقب له، وعمر الأصغر لا عقب له، وأم موسى وأم الحسن.. وأمهم أمامة بنت الدجيج من غسان.

٤-محمد، وإبراهيم الأصغر، وعبد الله الأصغر، وأم حبيب الكبرى، وأم الحسن الصغرى، وأم زيد الكبرى، وأم سلمة، وأم حسيب الصغرى، وأم

سعيد الكبرى توفيت قبل أبيها، وأم زيد. . وأمهم حزمة بنت قيس بن خالد ابن وهب.

٥- عمرو الأصغر، والأسود. . وأمهما أم الأسود امرأة من بنى تغلب.

٦-عمرو الأكبر، وطلحة توفى قبل أبيه، وزجلة وقيل رملة تزوجها الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب. . وأمهم ضمخ بنت الأصبغ بن شعيب من كلب.

٧-إبراهيم الأكبر، وحفصة. . وأمهما ابنة قربة من بنى تغلب.

٨-خالد، وأم خالد توفيت قبل أبيها، وأم النعمان. . وأمهم أم خالد أم ولد.

٩-أم زيد الوسطى. . وأمها أم بشير بنت أبى مسعود الأنصارى.

١٠-أم زيد الصغرى كانت تحت المختار بن أبى عبيد. . أمها من طىء.

١١-عائشة، وزينب، وأم عبد الحولاء وأم صالح. . وأمهم أم ولد.

[ذكر ذلك ابن سعد فى الطبقات، وابن الجوزى فى صفة الصفوة].

إسلامه وهجرته:

كان والد سيدنا سعيد بن زيد. . تارك لقريش أصنامها، وخمرها، ولهوها، وراح يعبدالله على دين إبراهيم. . عرف ربه وملأ الإيمان قلبه، فإذا شابه سيدنا سعيد أباه وهداه الله. . وامتدت إلى النبى يداه، وبشره النبى ﷺ بالجنة، فهل يكون ذلك عجيباً؟.

لقد كان سيدنا سعيد من أوائل من أسلموا يوم أن كان المسلمون يختفون فى

دار الأرقم بن أبى الأرقم.. إن الكثيرين من الناس لا يعرفون أنه زوج أخت سيدنا عمر بن الخطاب.. وأن سيدنا عمر ابن عم أبيه.. عندما علم سيدنا سعيد بنبأ هذا الدين الجديد، الذى يدعو إليه سيدنا ومولانا محمد ﷺ، ويدعو فيه إلى عبادة الله الواحد الأحد، الخالق البارىء المصور، الفرد الصمد.. يومئذ أسرع سيدنا سعيد بن زيد إلى رسول الله ﷺ.. واستمع إليه، ثم أعلن إسلامه، واستجاب لكوامن عقله ووجدانه ولم يمض وقت طويل، إلا وقد شرح الله صدر زوجته فاطمة بنت الخطاب إلى الإسلام.. وقد أسلم الزوجان الكريمان، ونعما بنعمة الإسلام، وذاقا حلاوة الإيمان فيما كانا يتعلمانه من الصحابى الجليل خباب بن الأرت.

وقد لقى الفتى القرشى سعيد بن زيد من أذى قومه ما كان خليقا أن يفتنه عن دينه، ولكن قريشا بدلا من أن تصرفه عن الإسلام استطاع هو وزوجته أن ينتزعا منها رجلا من أثقل رجالها وزنا وأجلهم خطرا، حيث كانا السبيل فى إسلام سيدنا عمر بن الخطاب.. حيث شاءت إرادة الله أن يكون خيط النور الذى سار سيدنا عمر على ضوئه أن ينبعث من بيتهما وسار سيدنا عمر مع هدى هذا النور حتى دخل فى دين الله وأعلن إسلامه على يد رسول الله ﷺ.

كان أول من وثب من قريش وضرب سيدنا سعيداً ضربا عنيفا بعد إسلامه هو ابن عم أبيه وأخو زوجته سيدنا عمر بن الخطاب، فجاءت أخته فاطمة، لتدفعه عن زوجها، فلطمها لطمة شج وجهها، أسال الدم عليه.. فثارت فاطمة ثورة خطابية عارمة وقالت: إنك مشرك، والشرك نجس، والقرآن كتاب الله لا يمسه إلا المطهرون. فإذا أردت الصحيفة، فاذهب واغتسل..

فلما رأى عمر الدم فى وجه أخته رقّ لها ولان.. ثم ذهب فتطهر وقرأ قوله تعالى: ﴿طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى * تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى * الرحمن على العرش استوى * له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾ (طه: ١-٦).

وكأن ترياق الهداية بلغ قلبه، ومسّ وجدانه، فأنار عقله فقال: (دلونى على المكان الذى فيه محمد) أين؟ فكان إسلام عمر.. فهانت اللطمة القاسية بجوار العطاء العظيم الذى انطلق من بيت سيدنا سعيد بن زيد ﷺ.

وأسلم عمر، وأعلن إسلامه، وبرغم ذلك لم يمنع من أذى قريش للمسلمين بمكة، وما زال بطشهم يتتابع فشرع سيدنا سعيد وزوجته فاطمة فى الهجرة إلى يثرب حيث ذلك المجتمع الإسلامى الجديد، وهاجرا متحملين ما شاء الله لهما أن يتحملا من مشاق الطريق، وألم ترك الأهل.. ولكن كل ذلك يسير مهما بلغ، وهين مهما قسا، فإنه من أجل الدين والعقيدة.

وذكر ابن سعد فى الطبقات: لما هاجر سعيد بن زيد إلى المدينة نزل على رفاعة ابن عبد المنذر، وآخى رسول الله ﷺ بين سعيد بن زيد ورافع بن مالك الأزرقى.

وقيل: إن النبى ﷺ آخى بينه وبين سيدنا طلحة بن عبيد الله ﷺ.

وروى عن رسول الله ﷺ ثمانية وأربعين حديثاً.

الجـــندى المجهـــول:

قمع نفسه، وأخفى عن المنافسة فى الدنيا شخصه، وبلغة العصر نقـــول: هـــو جندى مجهول.. لم يفكر يوماً ما فى ولاية أو رئاسة.. كل همه أن يكـــون فى ميادين القتال.. ولعلك تعجب أنه عندما وقع عليه الاختيار ليتولى منصباً مـــن مناصب الدولة طلب أن يحمل المسئولية غيره ليتفرغ للقتال فذلك ميدانه.

ومما يدل على ذلك قوله: (بسم الله الرحمن الرحيم.. من سعيد بن زيد إلى أبى عبيدة بن الجراح .. سلام الله عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هـــو أما بعد.. فإنى كنت لأوثرك وأصحابك بالجهاد على نفسى وعلى ما يدنيـــنى من مرضاة ربى.. فإذا أتاك كتابىهذا.. فابعث إلى عملك من هو أرغب إليـــه منى.. فإنى قادم عليك وشيكاً إن شاء الله تعالى.. والسلام عليكم).

وكان ذلك رداً على طلب أبى عبيدة بن الجراح من سعيد بن زيد أن يكـــون والياً لدمشق.. فولى أبو عبيدة يزيد بن أبى سفيان ولاية دمشق.

وضع سيدنا سعيد بن زيد طاقاته الفتية الشابة كلها فى خدمة الإسلام، إذ أنـــه أسلم وسنه لم يتجاوز العشرين بعد، فشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلـــها إلا بدراً، فقد غاب عن ذلك اليوم لأنه كان فى مهمة كلفه إياها النـــبى ﷺ هـــو وسيدنا طلحة بن عبيد الله، لاستطلاع أمر عير قريش ورصد تحركاها، فأقـــام سعيد وطلحة فى الحوراء لتأدية المهمة، حتى كان اللقـــاء الأول بـــين جيـــش الإيمـــان وجيش الكفر فى موقعة بدر الكبرى، وهزمت قريـــش فيـــها هزيمـــة ساحقة على يد رسول الله ﷺ وأصحابه بفضل الله تعالى.

ولكن النبى ﷺ رمى بسهم لسعيد وطلحة فكان لهما أجر مجاهد وسهم مقـــاتل، وما أجمل الجزاء!! وأكرم به من عطاء!!

وفى غزوة أحد كان للبطل سعيد بن زيد جهاد مشكور، فقد ثبـــت، وكـــاد المسلمون يهزمون، والتف مع قليل من الأبطال حول رســـول الله ﷺ، فكـــان راضيا ﷺ عنه وبه سعيد.

ولم يكن جهاده فى غزوة الخندق، وخيبر، وفتح مكة، ويوم حنين إلا صفحـــات وضاءة مشرقة فى تاريخ الإسلام كله لا سيرة البطل سعيد بن زيـــد وحـــده.. وكيف لا يكون كذلك والجهاد حرفته.. والاستشهاد فى سبيل الله مطلبه؟.

ولما تولى سيدنا أبو بكر الخلافة.. لم يكن دور سيدنا سعيد فى جهاد المرتديـــن بأقل مما أداه فى الغزوات مع رسول الله ﷺ.

وقد ولى الخلافة بعد أبى بكر الصديق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو ابـــن عم أبى سعيد وأخو زوجته.. ومع هذا لم يتطلع إلى منصــــب، ولم يســـتغل صلتـــه بالخليفة، فحسبه أن الرسول ﷺ رضى عنه وبشره بالجنة.

لقد سأل عنه الخليفة ذات يوم قائده أبا عبيدة حين غاب فى ميادين القتال فـــترة طويلة، فقال القائد: إنه كعهدك يا أمير المؤمنين إلا أن غربته زادتـــه فى الدنيـــا زهدا، وفى الآخرة رغبة. لقد كانت فى عهد سيدنا عمـــر حـــروب الـــروم والفرس، وبهما ارتبط البطل سعيد بن زيد بقيادة سعد بن أبى وقاص، فكـــانت القادسية والمدائن واليرموك وكلها من المعارك الإسلامية الكبرى التى أبلى فيـــها سيدنا سعيد بن زيد بلاء حسنا.

فضائله وخصائصه:

لم ينقل له من الخصائص والفضائل ما نقل لغيره من العشرة، ولهذا لقبناه بالجندى المجهول.. ويكفيه شرفاً وفخراً وعزاً أنه من العشرة المبشرين بالجنة الذين انتقل رسول الله ﷺ وهو عنهم راض.. ولكن هناك بعض الفضائل التى تميز بها سيدنا سعيد بن زيد ﷺ نذكر منها:

١-ذو دعوة مستجابة: فى زمن بنى أمية وقعت لسيدنا سعيد بن زيد حادثة ظل أهل المدينة المنورة يتحدثون بها زمناً طويلاً.

ذلك أن أروى بنت أويس زعمت أن سيدنا سعيد بن زيد قد غصب شيئاً من أرضها وضمها إلى أرضه، وجعلت تلوك ذلك بين المسلمين وتتحدث به، ثم رفعت أمرها إلى مروان بن الحكم والى المدينة آنذاك، فأرسل إليه مروان أناساً يكلمونه فى ذلك فصعب الأمر على صاحب رسول الله ﷺ وقال: يرونى أظلمها، كيف أظلمها؟ وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من ظلم شبراً من الأرض طوقه يوم القيامة من سبع أرضين).

اللهم إنها قد زعمت أنى ظلمتها، فإن كانت كاذبة فاعم بصرها وألقها فى بئرها الذى تنازعنى فيه، وأظهر من حقى نوراً يبين للمسلمين أنى لم أظلمها، فلم يمض على ذلك غير قليل حتى سال العقيق بسيل لم يسل مثله قط فكشف عن الحد الذى كانا يختلفان فيه، وظهر للمسلمين أن سعيداً كان صادقاً، و لم تلبث المرأة بعد ذلك إلا شهراً حتى عميت، وبينما هى تطوف فى أرضها تلك سقطت فى بئرها. (أخرجه مسلم).

قال عبد الله بن عمر: فكنا ونحن غلمان نسمع الإنسان يقول للإنسان: أعماك الله كما أعمى أروى.

٢-غيرته على الحق: أخرج أبو نعيم فى حلية الأولياء عن عبد الله بن ظالم المازنى قال: لما خرج معاوية من الكوفة استعمل المغيرة بن شعبة.. فأقام خطباء يقعون فى علىّ بن أبى طالب، وأنا إلى جنب سعيد بن زيد، فغضب فقام فأخذ بيدى فتبعته، فقال: ألا ترى إلى هذا الرجل الظالم لنفسه الذى يأمر بلعن رجل من أهل الجنة.

٣-احترام الولاة له، ووصية أم المؤمنين حين وفاتها أن يصلى عليها: ذكر المحب الطبرى فى الرياض النضرة عن ابن سعيد بن زيد قال: كتب معاوية بن أبى سفيان إلى مروان بن الحكم يبايع الناس لابنه يزيد، فقال رجل من الشام: ما يحبسك؟ قال: حتى يجىء سعيد بن زيد فيبايع فإنه سيد أهل البلد، إذ بايع بايع الناس. قال: أفلا أذهب آتيك به؟ فجاء الشامى وأنا مع أبى فى الدار فقال: انطلق فبايع. فقال: انطلق فسأجىء فأبايع. فقال: تنطلق أو لأضربن عنقك. قال: أتضرب عنقى، والله إنك لتدعونى إلى أقوام أنا قاتلتهم على الإسلام، قال: فرجع إلى مروان فأخبره، فقال له مروان: اسكت.

قال فتوفيت أم المؤمنين – حفصة بنت عمر سنة ٤٥هـ – فأوصت أن يصلى عليها سعيد بن زيد، فقال الشامى لمروان: ما يحبسك أن تصلى على أم المؤمنين؟ قال: انتظر الرجل الذى أردت أن تضرب عنقه فإنها أوصت أن يصلى عليها.. فقال الشامى: استغفر الله. (أخرجه البغوى فى معجمه

والفضائلى، وخرج ابن الضحاك منه قصة البيعة وقال: سأل أهـــل المدينـــة و لم يذكر قصة الصلاة على الجنازة)٠

٤-وصفه أبو نعيم الأصفهانى فى حلية الأولياء فقال: وأما سعيد بن زيـــد بـــن عمرو بن نفيل٠٠ فكان بالحق قوالا، ولماله بذالا، ولهواه قامعا وقتـــالا٠٠ و لم يكن ممن يخاف فى الله لومة لائم٠٠ وكان مجاب الدعوة سبق الإســـلام قبـــل عمـــر بن الخطاب رضى الله عنهما٠٠ شهد بدرا بسهمه وأجره، رغب عـــن الولاية، وتشمر فى الرعاية٠٠ قمع نفسه، وأخفى عـــن المنافســـة فى الدنيـــا شخصه٠٠ اعتزل الفتنة والشرور، المؤدية إلى الضيعة والغرور، عازمـــا علـــى السبقة والعبور، المفضى إلى الرفعة والحبور٠٠ كان للولايات قاليا، وفى مراتـــب الدنيا وانيـــا، وفى العبودية غانيا، وعن مساعدة نفسه فانيا٠

وفـــاتـــه:

ظل سعيد الجندى المحارب حتى بلغ بضعة وسبعين عاما، وعنـــد ذلـــك آثـــر القـــرب من مسجد رسول الله ﷺ يصلى فيه جميع أوقاته، ويعيش ذكريـــات مضت فى صحبة النبى الكريم ﷺ٠

كان أهل المدينة يرون فيه نبلا وسموا٠٠ وقد كان نبيلا حقا يظفر من الجميـــع بمنزل حب واحترام٠

حتى لقى ربه تعالى بالعقيق يوم جمعة سنة خمسين أو إحدى وخمسين٠٠ فغســـله سيدنا سعد بن أبى وقاص، ثم حمل على رقاب الرجال فدفن بالمدينة ، ونـــزل فى حفرته سيدنا سعد بن أبى وقاص وسيدنا عبد الله بن عمر ﷺ٠

تاسع العشرة

الصادق البار عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه

هو عبد الرحمن بن عوف بن عبد الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤى.. يجتمع مع النبى ﷺ فى كلاب بن مرة.. ويجتمع مع سيدنا سعد ابن أبى وقاص فى زهرة.. وينسب إليه فيقال: القريشى الزهرى.

اسمه وكنيته: كان اسمه فى الجاهلية عبد عمرو، وقيل: عبد الحرب، وقيل: عبد الكعبة، وقيل: عبد الحارث.. فسماه النبى ﷺ عبد الرحمن.. وكان يصفه بالصادق البار. وكنيته أبو محمد (ذكره الدارقطنى).

أمه: الشفاء بنت عوف بن عبد الحارث الزهرية.. ابنة عم أبيه.. أسلمت وهاجرت، وأسلمت أختها الضيزنة بنت أبى قيس بن عبد مناف بن زهرة.

مولده: ولد فى العام العاشر بعد عام الفيل.

صفته: قال الواقدى: كان رجلا طويلا حسن الوجه رقيق البشرة، أبيض اللون، مشربا بحمرة، لا يغير لحيته ولا رأسه، ضخم الكفين، غليظ الأصابع، أقنى – القنا احديداب فى الأنف – جعدا، له جمة من أسفل أذنيه، أعنق – طويل العنق – ساقط الثنيتين، أعرج، أصيب يوم أحد فهتم وجرح عشرين جراحة أو أكثر أصاب بعضها رجله فعرج – وعاش كذلك حتى انتقل –.

أولاده وزوجاته: كان لسيدنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه من الأولاد ثمانية وعشرون ولدا: عشرون ذكرا، وثمان إناث، وملك ثلاث إماء، أما زوجاته

فخمسة عشر وهم:

١-سالم الأكبر توفى قبل الإسلام.. وأمه أم كلثوم بنت عتبة بن ربيعة.

٢-أم القاسم ولدت أيضا فى الجاهلية.. وأمها بنت شيبة بن ربيعة.

٣-محمد وبه كان يكنى، وإبراهيم، وحميد، وإسماعيل، وحميدة، وأمة الرحمن.. وأمهم أم كلثون بنت عقبة بن أبى معيط بن أبى عمرو بن أمية بن عبد شمس.

٤-معن، وعمر، وزيد، وأمة الرحمن الصغرى.. وأمهم سهلة بنت عاصم بن عدى بن الجد بن العجلان من بلى من قضاعة وهم من الأنصار.

٥-عروة الأكبر قتل يوم أفريقية.. وأمه بحرية بنت هانىء من بنى شيبان.

٦-سالم الأصغر قتل يوم أفريقية.. وأمه سهلة بنت سهيل بن عمرو.

٧-أبو بكر.. وأمه أم حكيم بنت قارظ بن خالد بن عبيد بن سويد.

٨-عبد الله قتل بأفريقية يوم فتحت..وأمه ابنة أبى الحيس بن رافع من الأوس.

٩-أبو سلمة وهو عبد الله الأصغر.. وأمه تماضر بن الأصبغ بن عمرو بن ثعلبة ابن حصن بن ضمضم بن عدى بن خباب من كلب.. وهى أول كلبية نكحها قرشى.

١٠-عبد الرحمن.. وأمه أسماء بنت سلامة بنت مخربة بن جندل.

١١-مصعب، وآمنة، ومريم.. وأمهم أم حريث من سبى بهراء.

١٢-سهيل وهو أبو الأبيض٠٠ وأمه مجد بنت يزيد بـــن ســلامة ذى فــائش الحميرية٠

١٣-عثمان٠٠ وأمه غزال بنت كسرى، أم ولد (أمة) من سبى سعد بـــن أبى وقاص يـــوم المدائن٠

١٤- عروة درج، ويحيى، وبلال٠٠ لأمهات أولاد٠ (إماء)٠

١٥-أم يحي٠٠ وأمها زينب بنت الصباح بن ثعلبة بن عوف بن شبيب٠

١٦-جويرية٠٠ أمها بادية بنت غيلان بن سلمة بن معتب الثقفى٠

[ذكر ذلك ابن سعد فى الطبقات، وابن الجوزى فى صفة الصفـــوة، والمحب الطبرى فى الرياض النضرة]٠

إســلامــه وهجــرتــه:

لقد أسلم سيدنا عبد الرحمن بن عوف ﷺ فى وقت مبكر من ظهور الإسلام٠٠ بل أسلم فى الساعات الأولى للدعوة٠٠ وقبل أن يدخـــل رســول الله ﷺ دار الأرقم بن أبى الأرقم ويتخذها مقرا لالتقائه بأصحابه المؤمنـــين، فـــهو أحـــد الثمانيـــة الذين سبقوا إلى الإسلام٠٠ عرض عليه أبو بكر ﷺ الإســـلام هـــو وعثمان بن عفان ﷺ، والزبير بن العوام ﷺ، وطلحة بن عبيد الله ﷺ، وسعد بن أبى وقـــاص ﷺ٠ فما غم عليهم الأمر، ولا أبطأ بهم الشك، بل سارعوا مـــع الصديق إلى رسول الله ﷺ يبايعونه ويحملون لواءه٠

وانخرط عبد الرحمن بن عوف فى هذا الدين الحنيف، يغترف من تعاليم القـــرآن

الكريم، والرسول العظيم يعبها عباً، ويعطى هذا الدين الذى مــــلأ وجدانـــه، وأصبح كل كيانه، كل ما يستطيع من عطاء فى رضاء كامل، وسخاء جميـــل، ويتحمل فى سبيل الإسلام ما يتحمل بنفس راضية مطمئنة سعيدة هانئة. وأسلم معه أخوه لأبويه الأسود بن عوف وهاجر قبل الفتح، وأخوه لأبيه عبد الله بـــن عوف، وحمنن بن عوف و لم يهاجرا وأقاما فى مكة، وعاش حمنن فى الجاهليــــة ستين سنة وفى الإسلام ستين سنة، وعقب إسلام عبد الرحمـــن حمـــل حظـــه المناسب، من اضطهاد قريش وتحدياتها.

وحين أمر النبى ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة هاجر ابن عوف ثم عاد إلى مكـــة، ثم هاجر إلى الحبشة فى الهجرة الثانية ثم هاجر إلى المدينة. وعندما بلغ عبد الرحمن بن عوف المدينة.. وآخى النبى بينه وبين سعد بن الربيع، عرض عليــــه ســـعد نصف ماله وثروته، فأثنى عليه عبد الرحمن بن عوف وشكره وقال له: لا أريـــــد إلا أن تدلونى على سوقكم، أين سوقكم؟ قال ذلك فى إباء، وعـــزة، وفكـــــر، وروية.. وهو تاجر يعرف كيف يشترى؟ ومتى يبيع؟ إن فن التجـــارة ومـــهارة التجار، وخبرة عبد الرحمن بن عوف فى هذا المجال خصبة غنية.

ثم بلغ السوق – سوق بنى قينقاع – فاشترى وباع، كان تاجرا مطبوعـــا فيـــه الفطنة والأمانة والصدق.. يتحلى بالسماحة إذا باع، والتسامح إذا اشـــــترى، أدى ذلك فى أدب وذكاء ولباقة فكسب كثيرا، وحقق مــــالا وفـــيرا ونـــال إعجـــاب التجار، وثقة الناس جميعا، فكان نعم التاجر المؤمن كمـــا يرجـــوه الناس، والإسلام. قال الذهبى: قال صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن، عن أبيه

قال: كنا نسير مع عثمان بن عفان، فرأى أبى فقال عثمان: ما يستطيع أحـد أن يعتد على هذا الشيخ، فضلا فى الهجرتين جميعا.

ويذكر ابن سعد فى الطبقات: أن عبد الرحمن بن عوف تزوج امرأة من الأنصار على ثلاثين ألفا فقال له النبى ﷺ: "أولم ولو بشاة". وكـان مبـارك لـه فى التجـارة إلى حد أثار عجبه ودهشته فقال: "لقد رأيتنى لو رفعـت حجـرا، لوجدت تحته فضة وذهبا"..!!

ولم يمض وقت طويل، وقد أصبح عبد الرحمن بن عوف من أثرى أثرياء شـبه الجزيرة العربية، وله قوافل تجارته الخاصة.. وهو يمارس نشاطه التجـارى ولم ينس دنياه فيأخذ منها كل مباح مشروع حلال. كما يتذكر دائما الآخـرة، فكان كريما جوادا.. ومما يذكر فى أسباب نزول قول الله تعـالى: ﴿الذيـن ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عنـد ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (البقرة: ٢٦٢).

أخرج الواحدى وأبو الفرج بأن ذلك قد نزل فى عبد الرحمـن بـن عـوف وعثمـان ابن عفان، وهو شرف عظيم لهذا الصحابى الجليل.

ومما جعل تجارته ناجحة مباركة، تحريه الحلال، ونأيه الشديد عن الحرام، بـل عـن الشبهات.. كذلك مما زادها نجاحا وبركة أنها لم تكن لعبـد الرحمـن وحده.. بل كان لله فيها نصيب أوفى، يصل به أهله وإخوانـه ويجـهز بـه جيـوش المسلمين.. وإذا كانت التجارة والثروات، إنما تحصى بأعداد رصيدها وأرباحها فإن ثروة عبد الرحمن بن عوف إنما تعرف مقاديرها وأعدادها بما كان

ينفق منها فى سبيل الله رب العالمين.

وقد روى عن النبى ﷺ خمسة وستين حديثا.

سخاؤه وكرمه:

كان سيدنا عبد الرحمن بن عوف رائد من رواد مدرسة السخاء والكرم فى تاريخ الإسلام حيث قدم النموذج الإنسانى السامى فى هذه المدرسة.. حيث كان ابن عوف سيد ماله و لم يكن عبده.. وآية ذلك أنه لم يكن يشقى بجمعه ولا باكتنازه.. بل هو يجمعه هونا، ومن حلال، ثم لا ينعم به وحده.. بل ينعم به معه أهله ورحمه وإخوانه ومجتمعه كله، وإليك الدليل على ذلك:

١-بلغ من سعة عطائه وعونه أنه كان يقال: (أهل المدينة جميعا شركاء لابن عوف فى ماله: ثلث يقرضهم.. وثلث يقضى عنهم ديونهم.. وثلث يصلهم ويعطيهم) "الرياض النضرة للمحب الطبرى".

٢-أخرج الترمذى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يقول: "إن أمركن لمما يهمنى بعدى ولن يصبر عليكن إلا الصابرون" قال ثم تقول عائشة: سقى الله أباك من سلسبيل الجنة، تريد عبد الرحمن بن عوف، وقد كان وصل أزواج النبى ﷺ بمال بيع بأربعين ألفا.

٣-عن الزهرى قال: تصدق عبد الرحمن بن عوف على عهد رسول الله ﷺ بشطر ماله أربعة آلاف، ثم تصدق بأربعين ألف دينار، ثم حمل على بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس فى سبيل الله عز وجل، ثم حمل على ألف وخمسمائة راحلة فى سبيل الله، وكان عامة ماله من التجارة [صفوة الصفوة].

٤-عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: مرض عبد الرحمن بن عوف فأوصى بثلث ماله، فصح فتصدق بذلك بيد نفسه، ثم قال: يا أصحاب رسول الله ﷺ كل من كان من أهل بدر له علىّ أربعمائة دينار، فقام عثمان بن عفان وذهب مع الناس، فقيل له: يا أبا عمر ألست غنياً؟ قال: هذه وصلة من عبد الرحمن، لا صدقة وهو من مال حلال، فوصلهم فى ذلك اليوم بمائة وخمسين ألف دينار. فلما جن عليه الليل جلس فى بيته، وكتب جريدة بتفريق جميع المال على المهاجرين والأنصار، حتى كتب أن قميصه الذى على بدنه لفلان، ولم يترك شيئاً من ماله إلا كتبه للفقراء.

فلما صلى الصبح خلف رسول الله ﷺ هبط جبريل وقال: يا محمد إن الله يقول لك: أقرىء منى على عبد الرحمن السلام واقبل منه الجريدة، ثم ردها عليه وقل له: قد قبل الله صدقتك وهو وكيل الله ووكيل رسوله فليصنع فى ماله ما شاء، وليتصرف فيه كما كان يتصرف قبل ولا حساب عليه وبشره.

[أخرجه الملاء فى سيرته، والمحب الطبرى فى الرياض النضرة].

٥-عن جعفر بن برقان قال: بلغنى أن عبد الرحمن بن عوف أعتق ثلاثين ألفاً. [صفة الصفوة].

وقال أبو عمر: وقد روى أنه أعتق فى يوم واحد ثلاثين عبداً.

٦-عن أنس قال: بينما عائشة فى بيتها سمعت صوتاً فى المدينة فقالت: ما هذا؟ قالوا: عِير لعبد الرحمن بن عوف قدمت من الشام تحمل من كل شىء. قال: وكانت سبعمائة بعير، قال: فارتجت المدينة من الصوت، فقالت عائشة: سمعت

رسول الله ﷺ يقول: "قد رأيت عبد الرحمن بن عوف يدخل الجنة حبواً" فبلغ ذلك عبد الرحمن بن عوف فقال: إن استطعت لأدخلنها قائماً. فجعلها بأقتابها وأحمالها فى سبيل الله عز وجل. [أخرجه الإمام أحمد].

٧-عن سعيد بن حسين قال: كان عبد الرحمن بن عوف لا يُعرف من بين عبيده. [صفة الصفوة].

جهاده:

قد شرع عبد الرحمن بن عوف يشارك فى الجهاد الإسلامى، فشهد بدراً أول معركة يخوضها المسلمون بعد الهجرة، وأبدى فيها صورة للمجاهد الصابر والمقاتل الشجاع.

وكان فى يوم أحد من الذين التفوا حول النبى ﷺ وثبت فى المعركة ثباتاً انتزع للمسلمين النصر من بين أنياب هزيمة كادت تقع لولا هؤلاء المؤمنين الأشداء، الذين أظهروا من البطولة والتضحية والفداء ما أذهل عدوهم، وألقى الرعب فى قلوبهم، ومن هؤلاء المجاهدين الأشداء ذلك البطل عبد الرحمن بن عوف، وقد أصيب فى هذه الغزوة بأكثر من عشرين جرحاً، كان أكثرها مؤلماً قاتلاً.. كما أصيب أيضاً فى إحدى رجليه إصابة جعلته يعرج بعد ذلك اليوم وإلى آخر حياته،فكان ذلك بمثابة طوق قد قلده الجهاد لذلك البطل مدى الحياة، أو هو مانسميه اليوم بذلك النوط العسكرى، نوط الشجاعة والشرف، أو وسام المجد.. وكأن هذا النوط كان دافعاً له ليعطى المزيد من البطولات، ويقدم الكثير من التضحيات كما شهدت له بذلك المشاهد والغزوات.

وكان النبي ﷺ يثق فى البطل عبد الرحمن بن عوف ثقة كبيرة، والدليل على ذلك حينما أرسله النبي ﷺ فى شهر شعبان من العام السادس للهجرة إلى دومة الجندل وكان على زهاء سبعمائة. ثم قال له رسول الله ﷺ: "سر باسم الله". ونفض النبي ﷺ عمامته بيده ثم عممه بعمامة سوداء فأرخى بين كتفيه منها.. فقدم دومة الجندل فدعاهم إلى الإسلام.

وهدى الله على يديه خلق كثيرين منهم ذلك النصرانى (الأصبغ بن عمرو) وكان سيدا فى قومه، وتزوج عبد الرحمن بن عوف ابنته (تماضر) كما أمره رسول الله ﷺ، وأنجب منها سيدنا عبد الرحمن بن عوف ابنه (أبا سلمة).

وفيما يروى – بالرياض النضرة – عن المغيرة بن شعبة بأن عبد الرحمن بن عوف كان له فى غزوة تبوك سمات مميزة، ودرجات عالية، فكانت شبه الجزيرة العربية فى العام التاسع للهجرة تمر بأزمة اقتصادية مما سمى هذا العام بـ (عام العسرة) للضيق وشدة الأزمة، وبرغم ذلك لا بد أن يرد المسلمون على الروم بما يكبح جماح تمردهم، ويكسر حدة تحديهم، ويؤمن الحدود الإسلامية المقابلة لهم – أى المجاورة – وقد نمى إلى علم النبي ﷺ بأن الروم يجهزون أنفسهم فى جيش كبير لغزو المسلمين. فأعلن النبي ﷺ عن هذه الغزوة على غير عادته فى كتمان سر الحرب، ودعا إلى تجهيز هذا الجيش وحث أغنياء المسلمين على التبرع لهذه المعركة، فتبرع عثمان بن عفان بمال كثير، وكذلك العباس، وطلحة بن عبيد الله، وقدم أبو بكر كل ما يملك وقدم عمر نصف ماله، حتى نساء الصحابة تبرعن بحليهن، وأمن ﷺ المدينة، وأعد الجيش.

وفى هذه الغزوة نال عبد الرحمن بن عوف شرف كبير، فقد جاء بمال كثير وشارك فى المعركة،وقد صلى بالجنود إماما، وكان الرسول ﷺ يتوضىء فصلى الركعة الأخيرة وراء عبد الرحمن بن عوف ثم أتم صلاته، وقال – كما روى عن المغيرة بن شعبة –: (ما قبض نبى حتى يصلى خلف رجل صالح من أمته).

فأى عطاء هذا من عبد الرحمن بن عوف؟! وأى شرف يناله ذلك الصحابى الجليل فى هذه المناسبة، إنه لذو حظ عظيم.

خصائصه وفضائله:

١–اختصاصه بالأمانة على نساء النبى ﷺ: عن الزبير بن بكار قال: كان عبد الرحمن بن عوف أمين النبى ﷺ على نسائه (أخرجه أبو عمر).

٢–أمانته فى السماء والأرض: عن عبد الله بن عمر أن عبد الرحمن بن عوف قال لأصحاب الشورى – بعد انتقال عمر بن الخطاب – هل لكم أن أختار لكم وأنتفى منها؟ قال علىّ: أنا أول من يرضى. فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: أنت أمين فى أهل السماء وأنت أمين فى أهل الأرض (أخرجه أبو عمر وابن سعد فى الطبقات).

٣–وكيل الله فى الأرض: عن علىّ عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: "عبد الرحمن بن عوف وكيل الله فى الأرض" (أخرجه الملاء فى سيرته).

٤–دعاء النبى ﷺ له: عن أنس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لعبد الرحمن بن عوف: "بارك الله لك فى مالك وخفف عليك حسابك يوم القيامة" (أخرجه الملاء).

وروى أنه ﷺ قال: "سقى الله بن عوف من سلسبيل الجنة"(أخرجه الدارقطنى).

٥-**سبقت له السعادة:** عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قال: أغمى على عبد الرحمن ثم أفاق فقال: إنه أتانى ملكان غليظان فقالا لى: انطلق نخاصمك إلى العزيز الأمين. قال: فلقيهما ملك فقال: إلى أين تذهبان؟ فقالا: نخاصمه إلى العزيز الأمين. قال: فخليا عنه فإنه ممن سبقت له السعادة وهو فى بطن أمه. [أخرجه الملاء فى سيرته وأخرجه الواحدى فى وسطه مسندا فى سورة هود عند قوله تعالى: ﴿وأما الذين سعدوا﴾ (هود: ١٠٨)].

٦-**وصية جبريل له:** عن إبراهيم بن عبد الرحمن عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال له: يا بن عوف إنك من الأغنياء وإنك لن تدخل الجنة إلا زحفا، وفى رواية حبوا فأقرض الله عز وجل يطلق لك قدمك، قال ابن عوف: ما الذى أقرض الله؟ قال: مما أمسيت فيه. قال: من كله أجمع يا رسول الله؟ قال: نعم. فخرج ابن عوف، وهو يهم بذلك، فأتى جبريل، فقال: مر ابن عوف فليضف الضيف، وليطعم المسكين، وليعط السائل، فإن فعل ذلك كان كفارة لما هو فيه (أخرجه الفضائلى، والمحب الطبرى فى الرياض النضرة).

٧-**رخصة النبى له فى لبس الحرير:** عن أنس بن مالك أن النبى ﷺ رخص لعبد الرحمن بن عوف فى قميص من حرير فى سفر من حكة كان يجدها بجلده (ابن سعد فى الطبقات).

٨-**رقة قلبه:** قرأ رجل عن النبى ﷺ وكان لين الصوت - أو لين القراءة - فما بقى أحد من القوم إلا فاضت عينه غير عبد الرحمن بن عوف. فقال رسول الله ﷺ:

"إن لم يكن عبد الرحمن بن عوف فاضت عينه فقد فاض قلبه" (حلية الأولياء).

٩-نهى النبى ﷺ عن سبه: تقاول سيدنا عبد الرحمن هو وسيدنا خالد بن الوليد فى بعض الغزوات فأغلظ له خالد فى المقال، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: "لا تسبوا أصحابى، فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا مابلغ مد أحدهم ولا نصيفه" (البداية والنهاية لابن كثير وهو أيضا مذكور فى الصحيح).

ويذكر الذهبى فى تاريخ الإسلام: أن النبى ﷺ قال لخالد: (يا خالد لا تؤذ رجلا من أهل بدر، فلو أنفقت مثل أحد ذهبا لم تدرك عمله).

وفاته:

ظل عبد الرحمن بن عوف يعطى الإسلام فى سخاء منذ أسلم حتى بلغ من العمر زهاء خمسة وسبعين عاما، تحمل فى سبيل الله ما تحمل، وأعطى من ماله ما أعطى، تحمل راضيا صابرا، وأعطى كريما سخيا، وأسلم الروح لله خالقها خائفا من عقاب يوازن بينه وبين مصعب بن عمير وحمزة رضى الله عنهما، فيبكى بكاء طويلا.. برغم ما أعطى وهو يعلم بأن الحسنات يذهبن السيئات.

فقد أخرج البخارى فى غزوة أحد عن سعد بن إبراهيم عن أبيه أن عبد الرحمن بن عوف أتى بطعام وكان صائما فقال: (قتل مصعب بن عمير وهو خير فكفن فى بردة إن غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى رجلاه بدت رأسه). وأراه قال: (وقتل حمزة وهو خير منى، يعنى فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، أو قال: أعطينا من الدنيا ما أعطينا وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا. ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام).

توفى سيدنا عبد الرحمن بن عوف سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة، وهو ابن خمس وسبعين سنة، وقد دفن جثمانه الطاهر بـــ (البقيع) وصلى عليه سيدنا عثمان بن عفان تنفيذا لوصيته التى أوصى بها.

ويذكر ابن سعد فى الطبقات: أن سيدنا عليا بن أبى طالب قال يوم توفى سيدنا عبد الرحمن بن عوف: اذهب ابن عوف فقد أدركت صفوها وسبقت رنقها.

وتريد أم المؤمنين عائشة أن تخصه بشرف لم تختص به سواه فتعرض عليه وهـــو على فراش الموت أن يدفن فى حجرتها إلى جوار الرسول ﷺ وصاحبيـــه ﷺ.. ولكنه مسلم أحسن الإسلام تأديبه، فيستحى أن يرفع نفسه إلى هذا الجوار!!

روى ابن النجار فى كتاب (أخبار المدينة) بسنده عن عبد الرحمن بن حميد عن أبيـــه قال: أرسلت عائشة إلى عبد الرحمن بن عوف حين نزل به الموت أن هلم إلى رسول الله ﷺ وإلى أخويك، فقال: "ما كنت مضيقا عليك بيتك، إنى كنت عاهدت ابـــن مظعون – أسلم أول الإسلام وهاجر الهجرتين وهو أول من دفـــن بـــالبقيع مـــن أصحاب النبى المهاجرين سنة اثنتين من الهجرة – أينا مات دفن جنب صاحبه".

ويقول المحب الطبرى فى الرياض النضرة: (فيكون على هذا قـــبر عثمـــان بـــن مظعون وقبر عبد الرحمن بن عوف فى قبة سيدنا إبراهيـــم ابـــن النـــبى ﷺ.. فينبغـــى أن يزار هناك).

ويذكر الذهبى فى تاريخ الإسلام أن سيدنا عثمان بن عفان اشـــتكى رعافـــا – سيلان الدم من الأنف – فدعا حمران فقال: اكتب لعبد الرحمن العـــهد مـــن بعدى، فكتب له، فانطلق حمران إلى عبد الرحمن بـــن عـــوف فقـــال: لـــك

البشرى، إن عثمان كتب لك العهد من بعده، فقام بين الروضة النبوية والمنبر فقال: اللهم إن كان من تولية عثمان إياى هذا الأمر فأمتنى قبل عثمان، فلم يعش إلا ستة أشهر.

ويذكر محمد أن عبد الرحمن بن عوف خلف ذهبا قطع بالفؤوس حتى مجلت أيدى الرجال منه، وترك أربع نسوة فأصاب كل امرأة ثمانون ألفا. (أخرجه ابن الجوزى فى صفة الصفوة).

ويذكر ابن كثير فى البداية والنهاية: وترك مالا جزيلا، ومن ذلك: ذهب قطع بالفؤوس حتى مجلت (قرحت) أيدى الرجال، وترك ألف بعير ومائة فرس، وثلاثة آلاف شاة ترعى بالبقيع، وكان نساؤه أربعا، فصولحت إحداهن من ربع الثمن بثمانين ألفا.

وبينما كانت روحه الطاهرة تتهيأ لرحلتها الجديدة كانت عيناه تفيضان من الدمع ولسانه يتمتم ويقول:

(إنى أخاف أن أحبس عن أصحابى لكثرة ما كان لى من مال).

ولكن سكينة الله سرعان ما تغشته، فكست وجهه غلالة رقيقة من الغبطة المشرقة المتهللة المطمئنة.. وأرهفت أذناه للسمع.. كما لو كان هناك صوت عذب يقترب منهما.

لعله آنئذ كان يسمع صدق قول الرسول ﷺ له منذ عهد بعيد: (عبد الرحمن بن عوف فى الجنة ورفيقه عيسى بن مريم).

آخر العشرة

أمين الأمة أبو عبيدة بن الجراح ﷺ

هو أبو عبيدة عامر بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة.

وهو قريشى يجتمع نسبه مع رسول الله ﷺ فى فهر بن مالك الذى هو جماع قريش.. وينسب إلى فهر فيقال: القريشى الفهرى.. وهو أبعد العشرة نسبا من رسول الله ﷺ.

اسمه وكنيته: لم يزل اسمه فى الجاهلية والإسلام عامرا، وكنيته أبو عبيدة وبها اشتهر، ولقبه رسول الله ﷺ بأمين هذه الأمة.

أمه: أميمة بنت غنم بن جابر بن عبد العزى بن عامرة بن عميرة أسلمت، وأمها دعد بنت هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر.. فهو قريشى من جهة أمه وأبيه وهذا هو حال العشرة ما عدا أم طلحة بن عبيد الله فهى بنت الحضرمى، وأم سعيد بن زيد فهى خزاعية.

مولده: ولد فى العام الثالث عشر بعد عام الفيل.

صفته: كان ﷺ رجلا طويلا نحيفا، أجنى - ميل فى ظهره - معروق الوجه، أثرم الثنيتين - أسنان أربع فى مقدم الفم - خفيف اللحية، وكان يخضب بالحناء والكتم.

وكان ناقش خاتمه: الخمس لله.

أولاده وزوجاته: يعتبر سيدنا أبو عبيدة بن الجراح ﷺ هو أقل العشرة من حيث عدد الأولاد أو الزوجات أو الذرية، حيث تزوج واحدة هى هند بنت جابر بن وهب بن ضباب بن حجير بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤى وأنجب منها يزيد وعمر فدرج - توفى - ولد أبى عبيدة بن الجراح فليس له عقب.

إسلامه وهجرته:

كان أبو عبيدة من السابقين الأولين إلى الإسلام فقد أسلم على يدى سيدنا أبى بكر الصديق ﷺ قبل دخول النبى ﷺ دار الأرقم بن أبى الأرقم، وأتى به سيدنا أبو بكر الصديق إلى رسول الله ﷺ هو وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن مظعون والأرقم بن أبى الأرقم فأعلنوا بين يديه كلمة الحق.. فكانوا القواعد الأولى التى أقيم عليها صرح الإسلام العظيم.. لقد رأى أبو عبيدة رسول الله ﷺ يشع نورا من وجهه وبريقا يلفه، موقف يعيشه أبو عبيدة بين الحيرة المحيرة والدهشة المذهلة، والإعجاب الأخاذ، فكثيرا ما رأى رسول الله ﷺ ولكن على غير ما يراه الآن، ولم يدر كيف نطق بصوت عال مسموع؟! قائلا: أشهد أنك رسول الله، وأن لا إلا الله.. ثم عانق النبى ﷺ وأجهش فى البكاء، ثم ضحك، ثم بكى. وأخذ يصغى فى انتباه إلى رسول الله ﷺ، وكأنه يريد أن يرتوى من كلامه الجميل الحلو شرابا، وبدأ يشعر بالراحة والهدوء، مع الاطمئنان والأمان حتى توقف الرسول ﷺ عن الكلام بينما يرجو أبو عبيدة المزيد، ثم عاد إلى داره، هادىء الأعصاب، قرير العين، ثابت القلب، راسخ اليقين، بأن هذا الدين الذى

اعتنق هو الدين الحق، وأن الإله الواحد الأحد الذى عاهد رسول الله ﷺ على عبادته هو المعبود الحق ولا إله غيره.

ثم بدأ أبو عبيدة يتحول خُلقاً جديداً وكأنه الآن صفحة بيضاء، نقية طاهرة، مهيأة أن تكتب فيها أمجاد وآيات تُخول صاحبها المآل الكريم، وتنزله منازل الشهداء والصديقين. ولم يسلم أبو عبيدة - كغيره من المسلمين الأوائل - من اضطهاد كفار مكة، وكان أبوه وأهله أشد هؤلاء القوم أذى له ومقاومة لما يعتقد، فقد عذبوه، وضربوه، وقاطعوه، وما زاده ذلك إلا تمسكاً بالإسلام وحباً لله ولرسوله ﷺ، حتى إنه آثر البقاء بمكة مع الرسول ﷺ، ولم يهاجر أول هجرة إلى الحبشة، وناله من الأذى ما ناله فصبر راضياً، ثم استأذن النبى ﷺ فى الهجرة الثانية إلى الحبشة، وبقى وقتا غير طويل ثم قفل عائدا إلى مكة.. وتحمل أبو عبيدة اضطهاد كفار مكة وبطشهم وظلمهم، مع المسلمين صابرا محتسبا حتى هاجر إلى المدينة، واستقر مع أخيه محمد بن مسلمة رضي الله عنه.

وفى المدينة حيث المجتمع الجديد الذى بناه الرسول ﷺ فى ضوء هدى الله وتوفيقه، انطلق أبو عبيدة يعطى الإسلام العمل والجهاد.

جهاده:

لم يمض وقت طويل وقد دار القتال بين المسلمين وكفار قريش فى موقعة بدر الكبرى، وكان للبطل أبو عبيدة فى هذه المعركة موقف متميز عن سواه من المجاهدين الأبطال، هل تميز هذا الموقف فى الشجاعة والجرأة والإقدام؟ فكثير من أبطال المسلمين أبدى شجاعة فائقة، وكثير منهم أظهر جرأة نادرة، حيث قتل

الإمام علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه ستة وثلاثين رجلاً من المشركين وحده، وهو عدد يزيد عن نصف قتلى المشركين جميعاً بواحد.

ولكن هذا الموقف الذى وقفه أبو عبيدة متميزاً به عن غيره بأنه وقف وجهاً لوجه يقاتل أباه، والبطل أبو عبيدة يبتعد عنه ويتحاشاه، والأب يندفع نحوه يريد قتله، وكأنه عار يريد أن يزيله عن ظهر الأرض حتى لا يراه، أبو عبيدة رضي الله عنه يكرر الابتعاد، وأبوه يسرف فى الحرص على قتله، موقف صعب.. ابن يقاتل أباه، الابن مؤمن بالله الواحد، والأب يكفر بهذا الإله ويؤمن باللات والعزى ومناة، فلما لم يجد الابن بداً لنجاة الأب غير أن يفارق هو الحياة. رأينا الأب يسقط على الأرض قتيلاً مضرجاً بدمائه بضربات الابن المؤمن بالله ورسوله ﷺ. هذا هو الإيمان.. وعين الله تعالى مع المؤمنين فى يوم بدر، ورعايته تؤيدهم بالملائكة، وتكتب لهم ذلك النصر الحاسم الخالد.

ويترل الله سبحانه وتعالى قرآناً كريماً فى موقف أبى عبيدة بن الجراح فيقول تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، رضى الله عنهم ورضوا عنه، أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ (المجادلة: ٢٢).

أية مترلة عظيمة هذه! لذلك المجاهد فى سبيل الله تعالى من خالقه الذى قتل حرصاً على مرضاته: أباه، فأنزل فيه هذا القرآن الكريم.. إنه وسام بطولة

وفداء يبقى على أبى عبيدة ما بقيت الحياة.. وما ينقطع بعدها أثر الجـــزاء..
فإذا كان الموقف متميزاً فالجزاء عظيماً.

لم تقبل قريش هزيمة بدر، ولم تنم عيون سادتها عن الثأر طويلاً. فكانت معركة أُحد، وحقق المسلمون فى أولها بوادر النصر السريع، ولكن كرّة الكفار كـادت تلحق بالمسلمين هزيمة ساحقة. وأحس أبو عبيدة من سـير المعركـة حرص المشركين، لا على إحراز النصر فى الحرب، بل قبل ذلك ودون ذلـك، على اغتيال حياة الرسول العظيم ﷺ، فوطـن مع نفسه على أن يظـل مكانـه فى المعركة قريباً من مكان رسول الله.

وكلما تراءى لأبى عبيدة خطر يقترب من النبى ﷺ، انخلع من موقفـه وقطـع الأرض وثباً حيث يدحض أعداء الله ويردهم على أعقابهم قبل أن ينـالوا مـن الرسول منالاً!! وفى إحدى جولاته تلك، وقد بلغ القتال ذروة ضراوته أحـاط بأبى عبيدة طائفة من المقاتلين، وكانت عيناه كعادتهما تحدقان فى موقع رسـول الله ﷺ، وكاد أبو عبيدة يفقد صوابه إذ رأى سهماً ينطلق مـن يـد مشـركة فيصيب النبى ﷺ، وعمل سيفه فى الذين يحيطون به وكأنه مائة سـيف، حـتى فرّقهم عنه، وطار صوب الرسول، فرأى دمه الزكى يسيل على وجهـه، ورأى الرسول الأمين يمسح بيمينه وهويقول: (كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيـهم، وهو يدعوهم إلى ربهم)؟.

ورأى حلقتين من حلق المغفر الذى يضعه الرسول فوق رأسه قـد دخلتـا فى وجنتى - عظم الخد - النبى، فلم يطق صبراً.. واقترب يقبض بثناياه على حلقة

منهما حتى نزعها من وجنة الرسول، فسقطت ثنية، ثم نزع الحلقة الأخرى، فسقطت ثنيته الثانية.. وأصبح من يومها أثرهم – أهتم – فكان هذا الوسام فى موقعة أحد أيضا وساما جديدا من أوسمة الشجاعة والشرف.

واستمرت معارك الكفار مع رسول الله ﷺ، وتتابعت المشاهد، وقد كتب الله تعالى لسيدنا أبى عبيدة أن يشهدها كلها مع رسول الله ﷺ، وفى كل منها يبدى أبو عبيدة بطولات عظيمة، ويسطر فى التاريخ صفحات وضاءة مشرقة يراها الرسول ﷺ، وهو عنها وعن بطلها راض، وبه سعيد.

وعندما عقد أبو بكر الصديق العزم على فتح الشام وتأمين حدود الأمة الإسلامية مع الروم كان أبو عبيدة بن الجراح قائدا لواحد من هذه الجيوش، وبمثابة القائد العام للجيوش كلها إذا حاربت مجتمعة.

وفى معركة اليرموك يتكشف لنا أكثر من جانب فى شخصية ذلك البطل المجاهد فلم يعلن للجند وفاة الخليفة الأول الصديق، وكتم هذا الأمر عنهم حتى يتلافى ما قد يكون له من آثار سلبية عليهم.

ولم يعلم خالد بن الوليد بنبأ عزل الفاروق عمر له من قيادة الجيش الإسلامى، وتولية أبى عبيدة.. فترك له الأمر يحارب حتى أتم فتح دمشق، وعند توقيع وثيقة الصلح وقعها أبو عبيدة لأنه هو القائد العام من قبل أمير المؤمنين عمر.. وهكذا أصبح أبو عبيدة أمير الأمراء على أكبر جيوش الإسلام. وفى عدم إعلان عزل خالد حتى اللحظة المناسبة تظهر خبرة أبى عبيدة فى القيادة العسكرية، وقد أعلمه بلطف وكياسة وأدب إسلامى رفيع.

واستمر أبو عبيدة يقاتل فى بلاد الشام – سوريا وفلسطين والأردن ولبنان – حتى دانت للمسلمين بالطاعة والولاء.

خصائصه وفضائله:

١-**أمين الأمة**: عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "إن لكل أمة أمينا وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيدة بن الجراح" (أخرجه البخارى ومسلم).

وأخرجه الترمذى وأبو حاتم ولفظهما: (لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح) وأخرجه ابن نجيد وزاد: (وطعن فى خاصرته، وقال: هذه خاصرة مؤمنة).

٢-**فقيه أمين**: كان أبو عبيدة بطلا مغوارا، ومجاهدا عظيما مقداما. وكان أيضا فقيها فى علوم الدين، يتناولها بذكاء خلاق، ومنطق قويم، وفكر ممتد عميق. قد جاء إلى النبى ﷺ وفد من أبناء العرب. قدموا من نجران يعلنون إسلامهم ويطلبون منه مسلما يعلمهم مبادىء الدين، ويشرح لهم بعض أموره التى تعن لهم فى حياتهم. وفيما يحكيه ابن سعد فى الطبقات بأن رسول الله ﷺ قد وضع يده الشريفة على كتف أبى عبيدة وهو يقول: (إنى سأبعث معكم بأمين صادق، إنه أبو عبيدة أمين الأمة) (أخرجه البخارى وأحمد).

وهذا وسام شرف آخر من الأوسمة التى نالها أبو عبيدة بن الجراح يقلده له رسول الله ﷺ: "إنه أمين الأمة". ما أرفع هذا الوسام! وما أجمله فى عنق أبى عبيدة بن الجراح. وإنه كما ترى وساما فريدا لم يقلده رسول الله ﷺ لأحد سواه.

وأخرج ابن إسحق عن محمد بن جعفر قال: طلب أهل نجران من رسول الله ﷺ رجلا أمينا فقال رسول الله ﷺ: "ائتونى العشية أبعث معكم القوى الأمين، قال: فكان عمر بن الخطاب يقول: ما أحببت الإمارة قط حبى إياها يومئذ، رجاء أن أكون صاحبها، فرحت إلى الظهر مهجرا، فلما صلى النبى ﷺ نظر عن يمينه ويساره، فجعلت أتطاول له ليرانى، فلم يزل يلتمس ببصره حى رأى أبا عبيدة ابن الجراح فدعاه فقال: (أخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه) قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة.

٣-بيعة الصديق له خليفة لرسول الله: اجتمع الأنصار والمهاجرون لاختيار خليفة رسول الله ﷺ.. وقام الصديق ﷺ مبايعا لأبى عبيدة بن الجراح وقال: هو أمين الأمة.. وفى هذا الموقف تجلى جانب آخر من جوانب عظمة أبى عبيدة.. إنه الجانب السياسى الذكى بعيد النظر.. فهو يدرك مترلة الصديق فى الإسلام، ومكانته عند المسلمين، وحكمته وما فيه من لين.. إنه أسبق الرجال إسلاما، ورفيق رسول الله ﷺ فى الغار والهجرة، وقد كلفه الرسول ﷺ بأن يؤم المسلمين فى الصلاة.. فمد يده وبايع الصديق بالخلافة.

٤-إمارته على أبى بكر وعمر: فى موقعة ذات السلاسل أرسل رسول الله ﷺ جيشا لنصرة عمرو بن العاص وفى الجيش أبو بكر وعمر، وأمير الجيش أبو عبيدة بن الجراح، ولعل هذه الثقة من رسول الله ﷺ هى التى جعلت عمر بن الخطاب ﷺ يقول وهو على فراش الموت: لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا لاستخلفته.. فإن سألنى ربى عنه، قلت: استخلفت أمين الأمة، وأمين رسوله!!

(تاريخ الإسلام للذهبى).

٥-اختصاص أبى بكر إياه بالكون معه: روى أبو حذيفة إسحق بن بشر فى كتابه (فتوح الشام) أن طوائف من أحياء العرب كانت تأتى من عامة الآفاق إلى أبى بكر إمدادا للمسلمين فيستعمل عليهم الرجل منهم، ويخبرهم أن يمضوا إلى أى امرائه أحبوا، فإذا قالوا: اختر لنا يا خليفة رسول الله ﷺ قال: عليكم بالهين اللين الذى إذا ظلم لم يظلم، وإذا أسىء إليه غفر، وإذا قطع وصل، رحيم بالمؤمنين شديد على الكافرين، عليكم بأبى عبيدة بن الجراح.

٦-أحبية النبى ﷺ له: عن عائشة رضى الله عنها وقد سئلت أى أصحاب رسول الله ﷺكان أحب إليه؟ قالت: أبو بكر. قيل: ثم من؟ قالت: عمر. قيل: ثم من؟ قالت أبو عبيدة بن الجراح (الرياض النضرة، وتاريخ الإسلام).

وأخرج الترمذى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "نعم الرجل أبو بكر، نعم الرجل عمر، نعم الرجل أبو عبيدة بن الجراح". وقال حديث حسن.

٧-اختصاصه بالإمرة فى بعض الأحيان: عن جابر بن عبد الله قال: بعث رسول الله ﷺ سرية وأمر عليها أبا عبيدة بن الجراح، نتلقى عيرا لقريش، وزودنا جرابا من تمر لم يجد لنا غيره، وكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة، فقيل له: فكيف كنتم تصنعون بها؟ قال:نمصها كما يمص الصبى، ثم نشرب عليها الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، فكنا نضرب بعصينا الخبط - ورق الشجر - ثم نبله بالماء فنأكله.. ومن أجل هذا سميت هذه الغزوة بغزوة الخبط (وقد تقدم ذكرها مفصلا).

قال: وانطلقنا على ساحل البحر، فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب – الرمل المجتمع – الضخم فأتيناه فإذا هى دابة تدعى العنبر.

قال أبو عبيدة: ميتة. ثم قال: لا بل نحن رسل رسول الله ﷺ وفى سبيل الله وقد اضطررتم فكلوا. قال: فأقمنا عليه شهرا ونحن ثلاثمائة حتى سمنا، ولو رأيتنا نغترف من وقب – غارتا – عينه بالقلال الدهن، ونقتطع منه الفدر – القطعة – كالثور أو كفدر الثور، وقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلا فأقعدهم فى وقب عينه، وأخذ ضلعا من أضلاعه فأقامها ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحتها، وتزودنا من لحمه وشائق – اللحم يغلى إغلاء ثم يقدد ويحمل فى الإسفار – فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له فقال: "هو رزق الله أخرجه لكم فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا؟" قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله. [أخرجه مسلم، وابن سعد فى الطبقات].

وفى رواية فأخذ أبو عبيدة ضلعا من أضلاعه فنصبه ونظر إلى أطول بعير فى الجيش وأطول رجل فحمله عليه فجاز تحته، وأخرجه بهذه الزيادة الخلعى.

٨–اهتمامه بأمر المسلمين: روى أن الناس قحطوا فى خلافة عمر فكتب إلى أبى عبيدة بن الجراح وهو يومئذ بالشام: الغوث الغوث أدرك المسلمين، فكتب أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين كتبت إلى الغوث وقد أتتك العير أولها عندك وآخرها بالشام.

أقوال الصحابة والسلف الصالح فيه:

١–ذكر ابن الجوزى فى صفة الصفوة عن سيدنا عمر بن الخطاب أنه قال

لأصحابه: تمنوا. فقال رجل: أتمنى لو أن لى هذه الدار مملوءة ذهبا أنفقه فى سبيل الله عز وجل. ثم قال: تمنوا. فقال رجل: أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤا وزبرجدا أو جوهرا أنفقه فى سبيل الله عز وجل وأتصدق به. ثم قال: تمنوا. فقالوا: ما ندرى يا أمير المؤمنين، فقال عمر: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة رجالا مثل أبى عبيدة بن الجراح. أخرجه الفضائلى وزاد: فقال رجل: ما آلوت الإسلام – أى ما قصرت فيه – قال: ذلك الذى أردت.

٢-أخرج الفضائلى والمحب الطبرى فى الرياض النضرة عن عمرو بن العاص قال: ثلاثة من قريش أصبح الناس وجوها، وأحسنها أخلاقا، وأشدها حياء، إن حدثوك لم يكذبوك، وإن حدثتهم لم يكذبوك: أبو بكر، وعثمان بن عفان، وأبو عبيدة بن الجراح.

٣-أخرج المحب الطبرى فى الرياض النضرة قال معاذ بن جبل: ما رأيت عبدا أبر صدرا ولا أبعد من الغائلة، ولا أشد حبا للعامة، ولا أنصح من أبى عبيدة بن الجراح.

٤-يقول أبو نعيم الأصفهانى فى حلية الأولياء: ومنهم الأمين الرشيد، والعامل الزهيد، أمين الأمة أبو عبيدة. كان للأجانب من المؤمنين وديدا، وعلى الأقارب من المشركين شديدا، فيه نزلت: ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾، صبر على الاقتصار على القليل، إلى أن حان منه النقلة والرحيل.

زهـــده ومواعظـــه:

أصبح أبو عبيدة أمير الأمراء بالشام.. وصار تحت إمرته أكثر جيوش الإســلام طولا وعرضا.. عتادا وعددا.. فما كنت تحسبه حين تراه إلا واحــــدا مــن المقاتلين، وفردا عاديا من المسلمين.

وحين ترامى إلى سمعه أحاديث أهل الشام عنه وانبهارهم بأمير الأمراء هـــذا.. جمعهم وقام فيهم خطيبا.

فقال للذين رآهم يفتنون بقوته، وعظمته، وأمانته:

[يا أيها الناس.. إنى مسلم من قريش.. وما منكم من أحد أحمر ولا أســـود يفضلنى بتقوى إلا وددت أنى إهابه] وفى رواية صفة الصفوة لابن الجــوزى: إلا أحببت أن أكون فى مسلاخه - يعنى جلده.

حياك الله أبا عبيدة.. وحيا الله دينا أنجبك ورسولا علمك.. مسلم من قريش لا أقل ولا أكثر.. الدين: الإسلام، والقبيلة: قريش.. هذه لا غير هويتـــه.. أما هو كأمير للأمراء، وقائد لأكبر الجيوش الإسلامية، وحاكم لبلاد الشـــام.. كل ذلك ومثله معه، لا ينال من انتباهه لفتة، وليس له فى تقديـــره حســـاب. ويروى الإمام أحمد أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يــزور الشـــام ويســـأل مستقبليه: أين أخى؟ فيقولون: من؟ فيجيبهم: أبو عبيدة بن الجراح. ويأتى أبــو عبيدة، فيعانقه أمير المؤمنين عمـــر.. ثم يصحبه إلى داره، فلا يجد فيـــها مـــن الأثاث شيئا، لا يجد إلا سيفه، وترسه، ورحله.. ويسأله عمـــر: ألا اتخـــذت لنفسك مثلما يصنع الناس؟ فيجيبه أبو عبيدة: يا أمير المؤمنـــين، هـــذا يبلغـــى

المقيل.

كان أبو عبيدة يعتقد أن الدنيا ليست دار إقامة، وأنه لا بد راحل غداً عنها، ومن هنا لم يتخذ لنفسه الدور والقصور والأثاث والرياش فالقليل منها يبلغه المقيل.

يروى أبو حذيفة إسحق بن بشر فى كتابه (فتوح الشام) أن سيدنا عمر بن الخطاب قال له: اذهب بنا إلى منزلك. قال: وما تصنع؟ ما تريد؟ إلا أن تقصر عينيك علىّ. قال: فدخل منزله فلم ير شيئاً. قال: أين متاعك يا أبا عبيدة ما أرى إلا لبداً وصحفة وشناً وأنت أمير أعندك طعام؟ فقام أبو عبيدة إلى جونة فأخذ منها كسيرات.. فبكى عمر.. فقال له أبو عبيدة: قد قلت لك ستقصر عينيك علىّ يا أمير المؤمنين، يكفيك ما يبلغك المقيل، فقال عمر: غرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة.

ولا تعليق على قول سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ فالكل يعرف من هو فى زهده وتواضعه.

ويذكر أبو نعيم فى الحلية وابن الجوزى فى صفة الصفوة: أن أبا عبيدة بن الجراح كان يسير فى المعسكر ويقول: [ألا رب مبيض لثيابه مدنس لدينه، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ادرءوا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات، فلو أن أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء ثم عمل حسنة لعلت فوق سيئاته حتى تقهرهن].

وفاته:

دهم بلاد الشام طاعون سمى بطاعون عمواس ما عرف الناس مثله قط، فجعل يحصد الناس حصداً، فما كان من سيدنا عمر بن الخطاب إلا أن وجه رسولاً إلى أبى عبيدة برسالة يقول فيها: إنه قد عرضت حاجة عندنا ولا غنى فيها عنك، فإذا أتاك كتابى هذا فإنى أعزم عليك إن أتاك كتابى ليلاً أن لا تصبح حتى تركب، وإن أتاك نهاراً لا تمسى حتى تركب إلىّ، فلما قرأ الكتاب قال: قد عرفت حاجة أمير المؤمنين إنه يريد أن يستبقى من ليس بباق. ثم كتب: إنى قد عرفت حاجتك التى قد عرضت لك فخلنى من عزمتك يا أمير المؤمنين، فإنى فى جند من أجناد المسلمين لا أرغب بنفسى عنهم، فلما قرأ عمر الكتاب بكى، فقيل له: توفى أبو عبيدة؟ قال: لا.

وكان قد كتب إليه سيدنا عمر أن الأردن أرض غمقة - فاسد ريحها من كثرة الندا - وإن الجابية - قرية بدمشق - أرض نزهة - بعيدة عن الماء - فأظهر بالمسلمين إلى الجابية، فلما قرأ أبو عبيدة الكتاب، قال: هذا نسمع فيه أمير المؤمنين ونطيعه.

وعن عروة بن الزبير أن طاعون عمواس كان معافى منه أبو عبيدة بن الجراح وأهله فقال: اللهم نصيبه من آل عبيدة فخرجت بثرة - خراج صغير - فى خنصر أبى عبيدة فجعل ينظر إليها. فقيل له: إنها ليست بشىء. فقال: إنى لأرجو أن يبارك الله فيها. إنه إذا بارك الله فى القليل كان كثيراً.

وتوفى أبو عبيدة بن الجراح ﷺ فى طاعون عمواس بالأردن من الشام ودفن

ببيسان عند قرية تسمى عماد، سنة ثمانى عشرة فى خلافة سيدنا عمر، وهو ابن ثمان وخمسين سنة، وصلى عليه سيدنا معاذ بن جبل، ونزل فى لحده معاذ وعمرو بن العاص والضحاك بن قيس.

وذكر المدائنى عن العجلان عن سعيد بن عبد الله بن حسان قال: توفى فى طاعون عمواس خمسة وعشرون ألفا، وقيل: لما وقع الطاعون قال عمرو بن العاص: إنه رجز فتفرقوا عنه، فبلغ شرحبيل بن حسنة فقال: صحبت رسول الله ﷺ وعمرو أضل من بعير أهله، إنه - الطاعون - دعوة نبيكم، ورحمة من ربكم، وموت الصالحين قبلكم، فاجتمعوا له ولا تتفرقوا عنه. فبلغ ذلك عمر فقال: صدق.

وروى أن عمرو بن العاص قال: تفرقوا عن الرجز - العذاب - فى الشعاب والأودية ورؤس الجبال، قال معاذ بن جبل: بل هو شهادة ورحمة ودعوة نبيكم، اللهم اعط معاذا وأهله نصيبه من رحمتك فطعن فمات.

فلما توفى معاذ بن جبل رضي الله عنه استخلف على الناس عمرو بن العاص فقام فيهم خطيبا فقال: أيها الناس، إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار.. فتحصنوا منه فى الجبال. ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا ورفعه الله عنهم.

وصيته رضي الله عنه:

عن سعيد بن المسيب قال: لما طعن أبو عبيدة بالأردن دعا من حضره من المسلمين وقال: إنى موصيكم بوصية إن قبلتموها لن تزالوا بخير، أقيموا الصلاة، وصوموا شهر رمضان، وتصدقوا وحجوا واعتمروا، وتواصوا، وانصحوا

لأمرائكم ولا تغشوهم، ولا تلهكم الدنيا، فإن امرأ لو عمر ألف حول ما كـــان له بد من أن يصير إلى مصرعى هذا الذى ترون، إن الله تعالى كتـــب المـــوت علـــى بنى آدم فهم ميتون، فأكيسهم أطوعهم لربه، وأعلمهم ليوم معـــاده.. والسلام عليكم ورحمة الله. يا معاذ بن جبل صل بالناس.

وتوفى ﷺ فقام معاذ فى الناس فقال: أيها الناس توبوا إلى الله من ذنوبكم فأيمـــا عبد يلقى الله تعالى تائبا من ذنبه إلا كان على الله حقا أن يغفر له، من كـــان عليه دين فليقضه فإن العبد مرهن بدينه، ومن أصبح منكم مهاجرا أخاه فليلقـــه فليصالحه، ولا ينبغى لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاثة أيام، أيها المسلمون قد فجعتم برجل ما أزعم أنى رأيت عبدا أبر صدرا، ولا أبعد من الغائلة، ولا أشـــد حبا للعامة ولا أنصح منه، فترحموا عليه واحضـــروا الصلاة عليه.

ودفن أمين الأمة فى الأرض التى طهرها من وثنية الفرس واضطهاد الرومان ﷺ.

١١- سيدا شباب أهل الجنة

الحسن والحسين عليهما السلام

إن لأهل البيت النبوى دور ومسئولية رسالية وحضارية فريدة فى تاريخ هـــذه الأمة، كان رسول الله ﷺ يجهز له، ويعد الأمة لتقبله بأمر من الله سبحانه.

لقد بدأ هذا الفضل المضىء من الإعداد النبوى بأمر الله ســبحانه لرسوله ﷺ بتزويجه السيدة فاطمة للإمام على، وغرس هذه الشجرة المباركة لتمتد فروعــها فى آفاق هذه الأمة عبر مسيرة تاريخها.. قال النبى ﷺ للإمام على حين زوجــه السيده فاطمة: "إن الله أمرنى أن أزوجك فاطمة على أربعمائة مثقال إن رضيت بذلك، فقال: قد رضيت يا رسول الله". قال أنس بن مالك: فقال النــبى ﷺ: "جمع الله شملكما، وأسعد جدكما، وبارك عليكما، وأخرج منكما كثيرا طيبا". قــال أنس: فوالله لقد أخرج الله منهما الكثير الطيب.

إن هذه العناية الإلهية النبوية بتزويج السيدة فاطمة من الإمام على فلا يتم الزواج إلا بأمر من الله لتدل دلالة واضحة على مكانة أهل البيت الكرام، ومــا كــان يستهدف الرسول الكريم من وراء علاقته بهم من خير لهذه الأمة.

ومعلوم أن الله تعالى لم يجمع خلال الكمال البشرى كلها إلا لحبيبه ومصطفــاه ﷺ، ومهما يكن من عظمة لغيره فإنها كنسبة الجزء إلى الكل. ولا شك أنــه لم يحدث أن استطاع صديق ولا ولى ولا شهيد ولا تقى أن يحظى بخصال رســول الله ﷺ جميعا، وإنما له بقدر كماله وقربه وتقواه وحبه نصيب يقــل أو يكــثر،

والأمة على مواريث الهدى من رسول الله ﷺ يقبسها الأبرار من كل جيل موزعة فيهم، بعد أن كانت مجموعة فيه ﷺ، ليكون مثالا للعبد الكامل، والتقى الأمثل.

وإذا كانت هذه المواريث، مواريث الاتباع والحب والاقتداء، أوضح وأقرب إلى الكمال، وأولى الناس بذلك من رسول الله ﷺ أهل بيته، وأولى أهل بيته بذلك بنوه والأكرمون من ولد السيدة فاطمة البتول وابن عمه الإمام على عليهما السلام.

وعندما نعرض للسبطين الكريمين، الحسن والحسين سنجد مواريث النبوة تتألق بالسنا البهى فى حياتهما، نرى من أمرهما ما كان يدفع من يروهما ويعجبون لعظيم خلقهما، وروائع مواقفهما أن يقولوا: (الله أعلم حيث يجعل رسالته). فقد كانت مواريث النبوة فيهما أروع من أن تنكر، وأوضح من أن تخفى، والسر فى ذلك أن السيدة فاطمة الزهراء دخلت على النبى ﷺ وقالت: يا رسول الله هذان ابناكِ فورثهما شيئا، فقال: (أما الحسن.. فإن له هيبتى وسؤددى، وأما الحسين.. فإن له جرأتى وجودى).

هذه المواريث لا يذهل عنها إلا من كان فى قلبه مرض، وفى بصيرته عمى!!

والإمامان الحسن والحسين من أهل بيت لا يقاس بهم أحد، نسبا، وخلقا، وعلما، وشرفا، دل على ذلك قول سيدنا عبد الله بن عباس:

(بينا نحن ذات يوم مع النبى ﷺ إذ أقبلت فاطمة سلام الله عليها تبكى فقال لها رسول الله ﷺ: فداك أبوك ما يبكيك؟ قالت: إن الحسن والحسين خرجا ولا

أدرى أين باتا، فقال لها رسول الله ﷺ: لا تبكين فإن خالقهما ألطف بهما منى ومنك، ثم رفع يديه فقال: اللهم احفظهما وسلمهما، فهبط جبريل وقال: يا محمد لا تحزن فإنهما فى حظيرة بنى النجار نائمين وقد وكل الله بهما ملكا يحفظهما، فقام النبى ﷺ ومعه أصحابه حتى أتى الحظيرة فإذا الحسن والحسين عليهما السلام معتنقين نائمين، وإذا الملك الموكل بهما قد جعل أحد جناحيه تحتهما والآخر فوقهما يظلهما، فأكب النبى ﷺ عليهما يقبلهما حتى انتبها من نومهما، ثم جعل الحسن على عاتقه الأيمن والحسين على عاتقه الأيسر، فتلقاه أبو بكر وقال: يا رسول الله ناولنى أحد الصبيين أحمله عنك، فقال ﷺ: نعم المطى مطيهما ونعم الراكبان هما وأبوهما خير منهما. حتى أتى المسجد، فقام رسول الله ﷺ على قدميه وهما على عاتقيه ثم قال: معاشر المسلمين ألا أدلكم على خير الناس جدا وجدة؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الحسن والحسين جدهما رسول الله ﷺ خاتم المرسلين وجدتهما خديجة بنت خويلد سيدة نساء أهل الجنة، ألا أدلكم على خير الناس عما وعمة؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الحسن والحسين عمهما جعفر بن أبى طالب وعمتهما أم هانىء بنت أبى طالب، أيها الناس ألا أدلكم على خير الناس خالا وخالة؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الحسن والحسين خالهما القاسم ابن رسول الله ﷺ وخالتهما زينب بنت رسول الله ﷺ، ثم قال: اللهم إنك تعلم أن الحسن والحسين فى الجنة، وعمهما فى الجنة، وعمتهما فى الجنة، ومن أحبهما فى الجنة ومن أبغضهما فى النار.

[أخرجه الملاء فى سيرته وغيره، والهيثمى فى مجمع الزوائد، والمحب الطبرى فى ذخائر العقبى].

الإمام المجتبى

سيدنا الحسن بن على عليه السلام

استقبل البيت النبوى أول حفيد وسبط للنبى ﷺ ليلة النصف من شهر رمضان المعظم سنة ثلاث من الهجرة، فكان أول مولود ذكر فى أشرف بيت عربى عريق الأصل شريف النسب.

ولاحت أمارات البشر والسعادة فى وجه النبى حين أذيع نبأ قدوم الوليد والحفيد، بينما كانت زعامات قريش وصناديد مكة تعض الأنامل من الغيظ والحقد لفشل المؤامرة الإعلامية ضد رسول الله ﷺ التى تهذى بأن النبى محمدا يموت ولا نسل له.

وذهبت أسماء بنت عميس بالوليد المبارك إلى جده المصطفى ﷺ الذى أخذه برفق، وضمه فى حنان بالغ وراح يلثمه بقبلات حانية، ثم بدأ يقطر فى أذنه الإسلام والإيمان، ويعصر فى روحه الإحسان والإيقان المتمثلين فى كلمات الآذان، فكانت بداية التربية عبارات التكبير والتهليل والتوحيد الخالص، فكان أول صوت سمعه الوليد الجديد هو صوت جده ﷺ.. آذان فى اليمنى وإقامة فى اليسرى، وتسمية للغلام لم يسبقها ولد من العرب على اختلاف قبائلها، لقد أسماه النبى ﷺ حسنا.. أعطاه لسانه فمصه حتى روى.. وكانت ريق النبى ﷺ أو طعام يدخل بطنه، وأول لبان يطفىء ظمأه. (كتر العمال).

وقيل: فعل ذلك بأخيه الحسين عليه السلام.

وعق عنه ﷺ بكبشين أملحين، وأعطى القابلة (الداية) فخذا ودينارا. وحين عق عنه بيده الشريفة قال: (بسم الله عقيقة عن الحسن، اللهم عظمها بعظمه، ولحمها بلحمه، ودمها بدمه، وشعرها بشعره، اللهم اجعله وفاء لمحمد وآله). ثم توجه النبى ﷺ لابنته الزهراء وقال: يا فاطمة، احلقى رأسه وتصدقى بزنة شعره فضة، ثم أمر بختانه فتم له ما أراد يوم السابع من ولادته.

وفى أسد الغابة بسنده عن أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب، أنها قالت: يا رسول الله، رأيت كأن عضوا من أعضائك فى بيتى، قال: خيرا: تلد فاطمة غلاما فترضعيه بلبن قثم، فولدت الحسن فأرضعته بلبن قثم (ابنها) وبهذا يصبح قثم بن العباس ابن عم الرسول ﷺ أخا سبطه الحسن من الرضاع.

ولد الإمام الحسن فى هذه البيئة الطاهرة العامرة بالتقوى والإيمان. وفى هذا البيت الذى أسس على الفضيلة وخشية الله تعالى، فكأن عينيه قد تفتحتا على أكرم المشاهد وأعزها عند المسلمين عامة.

وما كاد الإمام الحسن يشب عن الطوق حتى أخذ الرسول ﷺ يعلمه العلم بالله، وينشئه على خير ما تنشأ الأولاد، يبث فى قلب الإمام الحسن الغض حب الحق والعدل والإيثار، وينفخ فى روع الصبى القناعة والرضى.

فقد روى عن الإمام الحسن أنه قال: أذكر من رسول الله ﷺ أنى أخذت تمرة من تمر الصدقة فتركتها فى فمى فنزعها بلعابها، وجعلها فى تمر الصدقة، فقيل: يا رسول الله، ما كان عليك من هذه التمرة؟

قال: إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة.

واختار الرسول ﷺ الرفيق الأعلى والإمام الحسن لم يجاوز الثامنة من عمره، ولكنه رغم هذه السن الغضة، وعى الشيء الكثير وتأدب بآداب الرسول الكريم وتخلق بأخلاقه.

منزلة الإمام الحسن عليه السلام عند جده ﷺ:

كان الرسول ﷺ يخاطب الإمامان الحسن والحسين فيقول: "اللهم أذهب عنهما الرجس وطهرهم تطهيرا". ويقول: "أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم". ويبتهل قائلا: "اللهم أحب من أحبهم، وابغض من أبغضهم، ووال من والاهم، وعاد من عاداهم، وأعن من أعانهم، واجعلهم مطهرين من كل دنس، معصومين من كل ذنب". ويحق للرسول ﷺ أن ينطق بما يعرفه من الطوايا والنوايا نحو آله فيبكيهم أحياء، لأنه قد انكشف له الغطاء عن أمور صدقها الوحى، فأجاز لنفسه أن يبكى وقد أقبل عليه الإمام الحسن يقول: إلى إلى يا بنى.. ثم يدنيه ويجلسه على فخذه ويعدد ما يترل بآله من البلاء فيذكرهم واحدا واحدا ويقول:

(أما الحسن فإنه ابنى وولدى ومنى، وقرة عينى، وضياء قلبى وثمرة فؤادى، وهو سيد شباب أهل الجنة، وحجة الله على الأمة، أمره أمرى، وقوله قولى، فمن تبعه فإنه منى، ومن عصاه فليس منى، وإنى لما نظرت إليه تذكرت ما يجرى عليه من الذل بعدى، وعند ذلك تبكى الملائكة والسبع الشداد لموته، ويبكيه كل شىء، حتى الطير فى كبد السماء والحيتان فى جوف الماء. ثم يرفعه على عاتقه ويقول كلمة تتردد على الزمن: إن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، والحسن

والحسين ريحانتاى من الدنيا وهما سيدا شباب أهل الجنة).

وقد شرف الإمام الحسن جده المصطفى ﷺ كما شرف أخاه الإمام أبا عبد الله الحسين السبط بأن نسبهما إليه بالبنوة، وإن كانا من صلب الإمام علىّ كرّم الله وجهه. روى الترمذى من حديث أسامة بن زيد قال: (طرقت النبى ﷺ فى بعض حاجة، فقال: هذان ابناى وابنا ابنتى، اللهم إنى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما).

لذلك يقال لكل من السبطين الحسن والحسين: (يا ابن المصطفى).

وكانا رضوان الله عليهما يعتزان بأبوته ﷺ ويهتفان به، فيقول كل منهما له ﷺ: (يا أبت) فإذا هتف الحسن بأبيه على قال: (يا أبا الحسين)، وإذا هتف الحسين بأبيه قال: (يا أبا الحسن)، فلما انتقل جدهما ﷺ إلى الرفيق الأعلى كانا يقولان لأبيهما على: (يا أبت).

ووقف رسول الله ﷺ يصلى بالمسلمين فجاء الإمام الحسن وهو ساجد فجلس على ظهره. فرفعه النبى رفعا رقيقا، فلما فرغ من الصلاة وضعه فى حجره فكان يدخل أصابعه فى لحيته والرسول ﷺ يضمه ويقبله فى حنان ويقول: اللهم إنى أحبه، ورأى المسلمون ذلك الحب الدافق فقالوا: يا رسول الله إنا رأيناك تصنع لهذا الصبى شيئا ما رأيناك تصنعه بأحد؟ فقال النبى ﷺ: (هذا ريحانتى، وإن ابنى هذا سيد، وعسى الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين).

والمراد من الفئتين من المسلمين فى هذا الحديث - وقد أصلح الله تبارك وتعالى بينهما بالإمام الحسن عليه السلام - أهل الكوفة أصحاب الإمام الحسن

وأصحاب أبيه، وأهل الشام أصحاب معاوية بن أبى سفيان.

ونهض النبى وحمل الحسن وسار، فقابله رجل فقال: نعم المركب ركبت يا غلام، فقال ﷺ: "ونعم الراكب هو" (أخرجه الحاكم عن ابن عباس).

وقد شعر الصحابة الكرام بأن ذكر الحسن والحسين يدخل على نفس النبى الغبطة فسأله بعض الجلساء يوماً: أى أهلك أحب إليك؟ فأجابه: (الحسن والحسين.. من أحبنى وأحبهما وأباهما وأمهما كان معى فى الجنة) (رواه أحمد والترمذى).

وقال مرة لواحد من أصحابه: ادع ابنى، فأتى بالحسن وهو يشتد حتى وقع فى حجره فاحتضنه شغفاً.

وفى تاريخ بغداد بسنده عن حذيفة قال: رأينا فى وجه رسول الله ﷺ تباشير السرور فقلنا: يا رسول الله لقد رأينا اليوم فى وجهك تباشير السرور، فقال: (وما لى لا أسر وقد أتانى جبريل فبشرنى أن حسناً وحسيناً سيدا شباب أهل الجنة وأباهما أفضل منهما) (رواه الحاكم والطبرانى وابن عساكر وابن ماجة).

وروى عبد الله بن عبد الرحمن بن الزبير قال: أشبه أهل النبى ﷺ وأحبهم إليه الحسن، رأيته يجىء وهو ساجد فيركب رقبته أو قال: ظهره، فما يترله حتى يكون هو الذى يترل، ولقد رأيته وهو راكع فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر.. (الصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمى).

وروى أنس بن مالك قال دخل الحسن على النبى ﷺ فأردت أن أميطه عنه فقال ﷺ: "ويحك يا أنس دع ابنى وثمرة فؤادى فإن من أذى هذا فقد آذانى، ومن

آذانى فقد آذى الله).

وقد تحدث الرواة عن نبوغ الإمام الحسن المبكر، فقد ملك بمقتضى ميراثه من الفطنة وسمو الإدراك ما لا يملكه غيره، فكان لا يمر عليه شىء إلا حفظه، وكان يحضر مجلس جده ﷺ فيحفظ الوحى فينطلق إلى أمه الزهراء فيلقيه عليها فتحدث به الإمام عليّاً فيتعجب ويقول: من أين لك هذا؟ فتقول: من ولدك الحسن.

وقد أخرج أبو داود أن النبى ﷺ قال: (هذا منى – يعنى الحسن – وحسين من على).

وقد أخرج البخارى فى الأدب المفرد قال ﷺ: (حسين منى وأنا منه).

وأخرج مسلم عن النبى ﷺ قال: (علىّ منى وأنا من علىّ).

ولا عجب أن يكون الإمام عليّاً والإمام الحسن والإمام الحسين من النبى ﷺ وهو القائل: (جعل الله ذرية كل نبى من صلبه وجعل ذريتى من علىّ).

ولقد كانت ملامح الإمام الحسن تحاكى ملامح جده المصطفى خُلقاً وخَلقاً وهيئة وهدياً وسؤدداً، فعن أبى مليكة عن عقبة بن الحارث قال: رأيت أبا بكر الصديق ﷺ يحمل الحسن ويقول: (بأبى شبيه بالنبى.. ليس شبيهاً بعلىّ.. وعلىّ يضحك). [فتح البارى لابن حجر الهيثمى].

علمه عليه السلام:

-قال الأصمعى: سأل على بن أبى طالب ابنه الحسن عليهما السلام: (كم بين الإيمان واليقين؟ قال: أربعة أصابع، قال: وكيف ذلك؟ قال: الإيمان كل ما سمعته أذناك وصدقه قلبك، واليقين ما رأته عيناك فأيقن به قلبك، وليس بين العين والأذنين إلا أربعة أصابع).

-وأرسل ملك الروم إلى معاوية بعض الأسئلة فأرسل بها إلى الإمام الحسن ليجيب عنها.

أما الأسئلة فهى: أين وسط السماء؟ وما أول قطرة دم وقعت على الأرض؟ وما هو المكان الذى طلعت عليه الشمس مرة؟ وما المكان الذى لا قبلة له؟ ومن الذى لا قرابة له؟

أجاب الإمام الحسن قائلا: وسط السماء الكعبة، وأول قطرة دم أريقت على الأرض دم حواء، والمكان الذى طلعت عليه الشمس مرة واحدة أرض البحر حين ضربه موسى بعصاه فانفلق، وما ليس له قبلة الكعبة لأنها قبلة، وما لا قرابة له فهو الله عز وجل، فلا قرابة ولا نسب ولا مصاهرة، تعالى الله عن ذلك.

-وسأل ملك الروم عن سبعة أشياء لم تستقر فى الرحم؟

أجاب قائلا: لم يستقر فى الرحم.. آدم، ولا حواء، ولا كبش إبراهيم، ولا ناقة صالح، ولا إبليس اللعين، ولا الحية، ولا الغراب الذي ذكره الله فى القرآن.

-نقل الحافظ أبو نعيم فى حليته، أن أمير المؤمنين عليا بن أبى طالب عليه السلام،

ســأل ابنه الحسن رضى الله عنهما فقال: (يا بنى: ماالسداد؟ فقال: يا أبــت، السداد دفع المنكر بالمعروف. قال: فما الشرف؟ قال: اصطناع العشيرة وحمــل الجريرة. قال: فما السماحة؟ قال: البذل فى العسر واليسر. قال: فما اللــؤم؟ قال: احتقــار المرء نفسه وبذله عرسه. قال: فما الجبن؟ قال: الجــرأة علــى الصديق والنكول عن العدو. قال: فما الغنى؟ قال: رضا النفس بما قسم الله لهــا وإن قل. قال: فما الحلم؟ قال: كظم الغيظ وملك النفس. قال: فما المنفعــة؟ قال: شدة البأس ومنازعة أعز الناس. قال: فما الــذل؟ قــال: الفــزع عنــد الصدمة. قال: فما الكلفة؟ قال: كلامك فيما لا يعنيك. قال: فما المجد؟ قــال: أن تعطى فى العزم وتعفوا فى الجرم. قال: فما السؤدد؟ قال: إتيان الجميل وترك القبيح. قال: فمــا السفه؟ قال: اتباع الدناءة وصحبة الغواة. قال: فما الغفلة؟ قال: ترك المسجد وطاعة المفسد).

-وقيل له: إن أبا ذر يقول: الفقر أحب إلى من الغنى، والسقم أحب إلى مــن الصحة، فقال: (رحم الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من اتكل على حسن اختيــار الله لم يتمن أنه فى غير الحالة التى اختارها الله له).

هيبتــه ووقــاره:

الإمام الحسن فى حداثته عظيم، له هيبة ووقار منذ صغره، يلحق به أبو هريــرة ويقول له: السلام عليك يا سيدى، رغم التفاوت بينهما فى الســن، ويعجــب البعض، فيقسم أبو هريرة دون أن يخاف معرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "إن الحسن سيد".

إن شخصية الإمام الحسن كانت تملأ العيون وتهيمن على النفوس لأنه التقت به عناصر الإمامة وتمثلت فيه هيبة النبى ﷺ، حتى لقد كان معاوية وهو السلطان يهابه ويخشاه، ولقد صار للحسن هيبة واحترام يضطران ابن عباس على جلاله وصحبته أن يأخذ له الركاب إذا ركب، ويرى ذلك فرصة طيبة ليتبرك بها.

وقد بلغ من عظيم هيبته أنه كان يفرش له على باب البيت فإذا خرج وجلس انقطع الطريق، لأنه لا يمر أحد إلا جلس إجلالا وإكبارا له، فإذا علم ذلك قام ودخل البيت.

وصدق رسول الله ﷺ حين قال: "أما الحسن فإن له هيبتى وسؤددى، وأما الحسين فإن له جرأتى وجودى".

وكل هذا يفسر لنا ما قاله ابن عباس رضى الله عنهما حين انتقل الإمام الحسن: أول ذل دخل على العرب وفاة الحسن عليه السلام... وأنت تدرك من كلمة ابن عباس هذه أية مكانة كانت للإمام الحسن فى المجتمع، وأى فراغ كان يملؤه فى الناس.

السياسة ومسئوليات الحاكم:

سئل الإمام الحسن عن رأيه فى السياسة؟ فقال: هى أن ترعى حقوق الله، وحقوق الأحياء، وحقوق الأموات.

-فأما حقوق الله: فأداء ما طلب والاجتناب عما نهى.

-وأما حقوق الأحياء: فهى أن تقوم بواجبك نحو إخوانك، ولا تتأخر فى

خدمة أمتك، وأن تخلص لولى الأمر ما أخلص لأمته، وأن ترفع عقيرتك فى وجهه إذا ما تنحى عن الطريق السوى.

-وأما حقوق الأموات: فهى أن تذكر خيراتهم، وتتغضى عن مساوئهم، فإن لهم ربا يحاسبهم.

زواج الإمام الحسن عليه السلام:

على رغم ما اشتهر به الإمام الحسن من أنه مزواج مطلاق، إلا أن عدد زوجاته لم يتجاوز الخمس عشرة زوجة، وهو عدد لا يمت إلى الكثرة المزعومة بصلة..

ويطنطن المستشرقون بكثرة زوجاته متهمين إياه بالشهوة، كما اتهموا جده المصطفى ﷺ من قبل.

والحقيقة أن تعدد الزواج بين العرب كان أمرا مألوفا ومستحبا، لأن الزواج فى زمانهم كان يربط العصبيات، ويزيد فى قوة القبائل، وقد كان زواج الإمام الحسن لظروف شرعية محضة.. أنظر إليه وهو ينكح إحدى بنات القبائل ذوات الحسب والنسب، وقد فاتهن مركب الزواج فصرن عوانس، لا يقبل عليهن أحد.. فيتزوج الواحدة منهن ثم يطلقها فيسرع إليها سراة القوم بعد أن صارت ذات شهرة بزواجها من ابن الرسول ﷺ.

كما أدرك عليه السلام بثاقب بصيرته ما قد تتعرض له ذريته من اضطهاد وتقتيل لا يحفظ منه سلالة الرسول ﷺ من الاندثار والانقراض، وكلنا يعلم أنه قد استشهد خمسة من أولاده مع عمهم الإمام الحسين فى كربلاء وهم: زيد، والحسن بن

الحسن، والقاسم، وأبو بكر، وعبد الله.

وبقى منهم ستة هم: عمرو، وعبد الرحمن، والحسين، ومحمد، ويعقوب، وإسماعيل، و لم يعقب من أولاده سوى الحسن وزيد.

وكان الناس كثيرا ما يعرضون عليه المصاهرة رغبة منهم فى أن يتصل نسبهم بنسب رسول الله ﷺ، حتى لقد صعد أبوه الإمام على إلى المنبر فى الكوفة يوما وقال: يا أهل الكوفة لا تزوجوا الحسن، فقال رجل من همدان: والله لنزوجنه فمن رضى أمسك ومن كره طلق. (تهذيب ابن عساكر، والبداية والنهاية لابن كثير، وسير أعلام النبلاء).

فلم يكن زواجه عن مزاج شهوانى، أو انغماس فى اللذائذ ومتاع الدنيا، وهو الإمام الذى حج بيت الله الحرام خمسا وعشرين حجة ماشيا والنجائب تقاد بين يديه وهو يقول: (إنى لأستحيى من ربى أن ألقاه و لم أمش إلى بيته)، وكان معروفا بصيام النهار وقيام الليل، وخرج من ماله مرتين، وقاسم الله عز وجل ثلاث مرات. وصفه أخوه محمد بن الحنفية وصفا دقيقا فقال: أنت عقبة الهدى، وخلف أهل التقوى، وخامس أصحاب الكساء، غذتك بالتقوى أكف الحق، وأرضعتك ثدى الإيمان، وربيت فى حجر الإسلام.

كريم أهل البيت:

قال ﷺ: "خلقان يحبهما الله وهما حسن الخلق والسخاء". والسخاء ينم عن طيب قلب، ويكشف عن الفضائل النفسية، ويحكى عن رحمة الإنسان ورأفته، وقد تجلت هذه الصفة الرفيعة بأجلى مظاهرها وأسمى معانيها فى الإمام الحسن

حتى لقب بكريم أهل البيت.

وكان الإمام الحسن لا يعرف للمال قيمة ولا يرى له أهمية سوى ما يرد به جوع جائع، أو يكسو به عاريا، أو يغيث به ملهوفا، أو يفي به دين غارم.

وقد أثر عنه أنه ما قال لسائل (لا) قط، وقيل له: لأي شيء لا نراك ترد سائلا؟ فأجاب: إني لله سائل وفيه راغب، وأنا أستحي أن أكون سائل وأرد سائلا، وإن الله عودني أن يفيض نعمه علي، وعودته أن أفيض نعمه على الناس، فأخشى إن قطعت العادة أن يمنعني العادة، وأنشأ يقول:

إذا ما أتاني سائل قلت مرحبا بمن فضله فرض علي معجل

ومن فضله فضل على كل فاضل وأفضل أيام الغنى حين يسأل

-وقد ذكرت نوادر كثيرة من كرمه وجوده منها:

١-جاءه أعرابي سائلا، فقال: أعطوه ما في الخزانة، وكان فيها عشرة آلاف درهم.

٢-اجتاز يوما في بعض أزقة المدينة فسمع رجلا يسأل الله أن يرزقه عشرة آلاف درهم، فانطلق إلى بيته وأرسلها إليه.

٣-أضافه هو والحسين وعبد الله بن جعفر عجوز فأعطاها ألف دينار وألف شاة، وأعطاها الحسين مثل ذلك، وأعطاها عبد الله بن جعفر مثلهما.

٤-اشترى بستانا من الأنصار بأربعمائة ألف، ثم بلغه بعد ذلك أنهم قد احتاجوا إلى ما في أيدي الناس فرده إليهم، وبذلك أنقذهم من ذل السؤال.. وهذا

أفضل أنواع السخاء.

٥-وقد جاءه فقير يشكو حاله و لم يكن عنده فى ذلك اليوم شيء، فعز عليه الأمر واستحى من رده فقال ﷺ له: إنى أدلك على شيء يحصل لك منه الخير، فقال الفقير: يا بن رسول الله ما هو؟ فقال: اذهب إلى الخليفة فإن ابنته قد توفيت وانقطع عليها فعزه بهذه الكلمات يحصل لك منه الخير، قل: الحمد لله الذى سترها بجلوسك على قبرها، و لم يهتكها بجلوسها على قبرك.

فجاء الفقير إلى الخليفة فعزاه بها، فذهب عنه حزنه وأمر له بجائزة. وقال له: أكلامك هذا؟ قال: لا، وإنما كلام الإمام الحسن، فقال الخليفة: صدقت فإن معدن الكلام، الكلام الفصيح.. وأمر له بجائزة أخرى.

وهذا درس يعلمنا أن من يلوذ بأهل البيت، لا يرد خائبا بل ينال ما يريد، وفوق ما يريد، فإنهم منبع الكرم والجود والإحسان.

قف على بابنا ولذ بحمانا   وتمسك بحبنا وهوانا
تبلغ القصد والمراد فإنا   نمنح الخير والعطا من أتانا
وتشفع بنا لطه التهامى   تعط ما ترتجيه من مولانا
نحن أنواره فبادر إلينا   وتوسل بنا تفز برضانا
قد بسطنا أكفنا يا كراما   فامنحونا العطا ووفوا قرانا
وقصدناكمو أيا آل طه   وكفانا أنا وصلنا كفانا

خلافة الإمام الحسن:

هو خامس الخلفاء الراشدين بنص حديث جده ﷺ الذى رواه البزار والبيهقى: "الخلافة بعدى ثلاثون عاماً ثم يكون بعد ذلك الملك". ولىّ الإمام الحسن الخلافة بعد استشهاد أبيه بمبايعة أهل الكوفة فأقام بها ستة أشهر وأياماً خليفة حق وإمام عدل صدق، تحقيقاً لما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ بقوله: "الخلافة بعدى ثلاثون عاماً" فكانت الستة أشهر المكملة لتلك الثلاثين، فكانت خلافته منصوصاً عليها، وبعد تلك الأشهر الستة سار إلى معاوية فى أربعين ألفاً، وسار إليه معاوية فلما تراءى الجمعان علم الإمام الحسن أنه لن يغلب أحد الفئتين حتى يذهب أكثر الأخرى، فكتب إلى معاوية يخبره أنه يصير الأمر إليه على أن تكون الخلافة له من بعده، وعلى أن لا يطلب أحداً من أهل المدينة والحجاز والعراق بشىء مما كان أيام أبيه، وعلى أن يقضى عنه ديونه، فأجابه معاوية إلى ما طلب إلا عشرة فلم يزل يراجعه حتى بعث إليه برق أبيض، وقال: اكتب ما شئت فأنا ألتزمه.

ولما تصالحا كتب الإمام الحسن كتاباً إلى معاوية صورته: (بسم الله الرحمن الرحيم.. هذا ما صالح عليه الحسن بن علىّ رضى الله عنهما معاوية بن أبى سفيان، صالحه على أن يسلم إليه ولاية المسلمين على أن يعمل فيها بكتاب الله تعالى وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الراشدين المهديين، وليس لمعاوية بن أبى سفيان أن يعهد إلى أحد من بعده عهداً، بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين، وعلى أن الناس آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم حيث كانوا، وعلى معاوية بن أبى سفيان بذلك عهد الله وميثاقه، وأن لا يبتغى

للحسن بن على ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من بيت رسول الله غائلة، سراً أو جهرا، ولايخيف أحداً منهم فى أفق من الآفاق.. أشهد عليه فلان بن فلان وكفى بالله شهيداً). (الصواعق المحرقة).

ولما أبرم الصلح التمس معاوية من الإمام الحسن أن يتكلم بجمع من الناس ويعلمهم أنه قد بايع معاوية وسلم إليه الأمر، فأجابه إلى ذلك فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه وقال: (أيها الناس إن أكيس الكيس التقى، وأحمق الحمق الفجور، إلى أن قال: وقد علمتم أن الله جل ذكره وعز اسمه، هداكم بجدى وأنقذكم من الضلالة وخلصكم من الجهالة، وأعزكم به بعد الذلة، وكثركم به بعد القلة، إن معاوية نازعنى حقاً فنظرت إصلاح الأمة وقطع الفتنة، وقد كنتم بايعتمونى على أن تسالموا من سالمنى وتحاربوا من حاربنى، فرأيت أن أسالم معاوية وأضع الحرب بينى وبينه، وقد بايعته ورأيت أن حقن الدماء خير من سفكها، ولم أرد بذلك إلا إصلاحكم وبقاءكم، وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين).

ومما شرح الله به صدره فى هذا الصلح ظهور معجزة النبى ﷺ فى قوله فى حق الإمام الحسن: "إن ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين" رواه البخارى.

وكان نزوله عن الخلافة سنة إحدى وأربعين فى شهر ربيع الثانى، ثم ارتحل من الكوفة إلى المدينة وأقام بها.

آل خير الرسل يا أهل العبا   أنتمو الزخر لنا فى الشدة

أنتمو نعم الوسـائل عندمـا	أسأل الله أفـوز بـبغيتـى
بالبتول إلى الحبيب المصطفـى	قد توسـلت لطه حجتـى
بالإمام المجتبـى الحسـن الذى	أصلـح الله به بالـرأفـة
بابنها السبط الحسين وسـيلتى	سيد الشفعاء نور الشـرعة
جئت أرجو فضل ربى والندى	والعواطف من رسول الرحمة

وفاة الإمام الحسين:

توفى الإمام الحسن ﷺ سنة ٤٩ هـ (٦٦٩م) بعد ما مضى من إمارة معـاوية عشر سنين، ودفن بالبقيع وصلى عليه سعيد بن العاص وكان أمـيرا للمدينـة، قدمه الإمام الحسين للصلاة عليه وقال: (لولا أنها سنة ما قدمتك)٠

وفى الاستيعاب لابن عبد البر: سم الحسن بن على، سمته امرأته بنت الأشعث بـن قيس الكندى، ويتابعه على ذلك مؤرخو الجماعة من أهل السـنة٠ ويتحـدث رجال التاريخ بأن الإمام الحسن قال لبعض عائديه فى مرضه الأخير: (لقد سـقيت السم مرات، ولكن لم أسق قط سما أشد على من هذا الذى سقيته هذه المرة)٠

وكان الإمام الحسن سمحا جوادا بنفسه فى وفاته، كما كـان جـوادا بهـا فى حياته٠٠ سأله الإمام الحسين: من سقاك يا أخى؟

فأجابه ما سؤلك من هذا٠٠ أتريد أن تقاتلهم؟ كلهم إلى الله٠

ودفن الإمام الحسن مع خيرة الأهل والأصحاب، فى البقيع بجوار جدتـه فاطمـة بنت أسد بقبته المشهورة وعمره سبع وأربعون سنة، كان منها مع رسـول الله

ﷺ سبع سنين، ثم مع أبيه ثلاثين سنة، ثم خليفة ستة أشهر، ثم تسع سنين ونصف بالمدينة. وكانت وفاته ﷺ بالمدينة فى يوم الخميس لليلتين بقيتا من شهر صفر.

وقد قال سيد الشهداء الإمام الحسين ﷺ مرثيا الإمام الحسن:

رحمك الله يا أبا محمد، إن كنت لتناصر الحق مظانة، وتؤثر الله عند التداحض فى مواطن التقية بحسن الروية، وتستشف جليل معاظم الدنيا بعين لها حاقرة، وتفيض عليها يدا طاهرة الأطراف نقية الأسرة، وتردع بادرة عزت أعداءك بأيسر المؤونة عليك، ولا غرو فأنت ابن سلالة النبوة، ورضيع لبان الحكمة، فإلى روح وريحان وجنة نعيم، أعظم الله لكم ولنا الأجر عليه، ووهب لنا ولكم حسن الأسى عنه.. ثم جلس وأنشد:

أأدهن رأسى أم تطيب محاسنى ... وخدك معفور وأنت سليب

أأشرب ماء المزن من غير مائه ... وقد ضمن الأحشاء منك لهيب

أو استمتع الدنيا لشىء أحبه ... إلى كل ما أدنى إليك حبيب

سأبكيك ما ناحت حمامة أيكة ... وما اخضر فى دوح الحجاز قضيب

فلا يفرح الباقى ببعد الذى مضى ... فكل فتى للموت فيه نصيب

وليس حريبا من أصيب بماله ... ولكن من وارى أخاه حريب

بكائى طويل والدموع غزيرة ... وأنت بعيد والمزار قريب

سيد الشهداء

الإمام الحسين بن على عليه السلام

عاصر الإمام الحسين عليه السلام جده ﷺ ستة أعوام وسبعة أشهر وسبعة أيام، تعهده بالتربية والتزكية والأنوار حتى صار إماما هاديا مهديا، ولد فى الخامس من شعبان فى العام الرابع من الهجرة فى المدينة المنورة، وحنكه النبى ﷺ بريقه، وأذن فى أذنه اليمنى، وتفل فى فمه ودعا له.

وسئل ﷺ أى أهل بيتك أحب إليك؟ قال: (الحسن والحسين).

وكان ﷺ يدلع لسانه للحسين عليه السلام فيرى حمرة لسانه فيهش إليه، فقال عيينة ابن بدر: ألا أراه يصنع هذا بهذا؟ فوالله إنه ليكون لى الولد قد خرج وجهه، وما قبلته قط، فقال ﷺ: (من لا يرحم لا يرحم) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده.

وهذا الحسن والحسين يصطرعان أمام النبى ذات يوم والسيدة فاطمة تشهد المصارعة بين ابنيها، فجعل الرسول يشجع الحسين ويقول: "هى حسين" فقالت أمهما: "لم تنصر حسينا وتقول هى؟" فقال النبى ﷺ: "إن جبريل قالها فقلتها".

وخرج النبى ﷺ من حجرة السيدة عائشة ومر على بيت السيدة فاطمة فسمع حسينا يبكى فقال: "ارضه حتى يسكت ألم تعلمى أن بكاءه يؤذينى؟". رواه الطبرانى.

وانظر إلى هذا الحب والتدليل حين يلقى المصطفى ﷺ الإمام الحسين فى الطريق

يلعب مع الغلمان فيمد يده إليه ليأتيه والحسين يهرب من جده هنا وهنا والرسول يضاحكه، حتى أخذه فوضع إحدى يديه تحت قفاه والأخرى تحت ذقنه ثم قبله وقال:

"حسين منى وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا، حسين سبط من الأسباط"، أى: هو كأمة من الأمم (رواه الترمذى وابن ماجة والبخارى فى الأدب المفرد).

سرُّ (مِنّى حسينُ) غيبٌ مصونُ ... سرُّ (مِنْهُ أنا) بِهِ مَضْنُونُ
تفقَهُ الروحُ من غوامضِ هذا ... سرٌّ بدءٍ بدا بِهِ التكوينُ
من حسينٍ إن شئتَ تفهمُ معنىً ... قولِ طهَ وقولُهُ مَضنونُ
ساطعٌ لاحَ مشرقاً فى مقامٍ ... غامضٍ قد تراهُ فيهِ العُيونُ
لامعٌ من ظهورِ غيبِ التجلّى ... حيثُ كانَ الميثاقُ وَهْوَ الدِّينُ
مِنْ حسينٍ تمثيلُهُ فى مُثُولٍ ... بل حسينٌ منهُ بدا التَّمكينُ
مَثَّلَتْهُ الرسْلُ الكرامُ ابتداءً ... شبَّهتْهُ الأنباءُ رِبى مُعينُ
اشْهَدِيهِ ياروحُ مرآةَ طهَ ... فى حسينٍ وَهْوَ الوفِىُّ الأَمين
ياحُسَيْنُ المحبوبُ فيكَ تراءى ... نورُ خيرِ الوجودِ صَحَّ اليقينُ

ويقول البراء بن عازب رأيت رسول الله ﷺ حاملا الحسين بن على على عاتقه ويقول: (اللهم إنى أحبه فأحبه). وله من الولد: على الأكبر، وعلى الأصغر وله العقب، وجعفر، وفاطمة، وسكينة.

منزلة الإمام الحسين عند الصحابة:

١-كان عبد الله بن عمرو- الذى قال فيه النبى ﷺ: (إنه نعم الرجل الصالح)- يجلس ﷺ ذات يوم فى ظل الكعبة فدخل الإمام الحسين المسجد الحرام فقال

ابــن عمرو وهو يشير إلى الإمام: هذا أحب أهل الأرض اليوم إلى السماء.

جاء فى أسد الغابة فى ترجمة عبد الله بن عمرو بن العاص، روى بسنده عن إسمــاعيل بن رجاء، عــن أبيه، قال: كنت فى مسجد الرسول ﷺ فى حلقة فيها أبــو ســعيد الخدرى وعبد الله بن عمرو، فمر بنا الحسين بن على عليه السلام فسلم فرد القوم الســلام، فسكت عبد الله حتى فرغوا رفع صوته وقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، ثم أقبل على القوم فقال: ألا أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء؟ قالوا: بلــى، قال: هذا هو الماشى ما كلمنى كلمة منذ ليالى صفين، ولأن يرضى عنى أحــب إلى من أن يكون لى حمر النعم، فقال أبو سعيد: ألا تعتذر إليه، قــال: بلـــى، قــال: فتواعدا أن يغدوا إليه، قال: فغدوت معهما، فاستأذن أبو سعيد، فأذن له، فدخــل ثم استأذن لعبد الله فلم يزل به حتى أذن له، فلما دخل قال أبو سعيد: يــا ابن رســول الله إنك لما مررت بنا أمس – فأخبره بالذى كان من قول عبد الله بن عمرو – فقال حسين عليه السلام: أعلمت يا عبد الله أنى أحب أهل الأرض إلى أهل السماء؟، قــال: إى ورب الكعبة، قال: فما حملك على أن قاتلتنى وأبى يــوم صفين فوالله لأبى كــــان خيرا منى، قال: أجل، ولكن عمرو شكانى إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رســـول الله إن عبد الله يقوم الليل ويصوم النهار، فقال لى رسول الله ﷺ: يا عبد الله صــــل ونم وصم وأفطر، وأطع عمرا، قال: فلما كان يوم صفين أقسم على فخرجت، أمــا والله ما اخترطت سيفا، ولا طعنت برمح، ولا رميت بسهم، قال: فكأنه قبل منه.

٢-عاد الإمام الحسين يوما من تشييع جنازة وجلس يستريح فى الطريق فقام أبو هريرة رضي الله عنه ينفض التراب عن نعلى الإمام الحسين بثوبه، فقال الإمام: (وأنت يــا أبا هريرة تفعل هذا بى) فقال أبو هريرة: دعنى يا حسين فلو علم النــاس مــن

قدرك ما أعلم لحملوك على الرقاب.

٣-روى الخطيب البغدادى فى تاريخه بسنده عن عبيد بن حنين، قال: حدثنى الحسين بن على عليه السلام قال: أتيت عمر بن الخطاب وهو على المنبر فصعدت إليه، إلى أن قال: وأخذنى وأجلسنى معه، فجعلت أقلب خنصر يدى فلما نزل انطلق بى إلى مترله فقال لى: من علمك، فقلت: والله ما علمنيه أحد، قال: يا بنى لو جعلت تغشانا، قال: فأتيته يوما هو خال بمعاوية وابن عمر بالباب، فرجع ابن عمر ورجعت معه فلقينى بعد، فقال: لم أرك، فقلت: إنى جئت وأنت خال بمعاوية وابن عمر بالباب، فرجع ابن عمر ورجعت معه فقال: أنت أحق بالإذن من ابن عمر، وإنما أنبت ما ترى فى رؤوسنا الله ثم أنتم.

٤-كان الإمام على كرم الله وجهه يحرص على سلامة الإمام الحسن وأخيه الحسين ويقول: إنهما إن هلكا انقطع نسل النبى ﷺ من هذه الأمة، وكان يرسل فى الحرب أخاهما محمد بن الحنفية ويبقيهما، فلما سئل أخوهما محمد عن سبب إخراج أبيه إياه دون أخويه رد قائلا: (إن الحسن والحسين عينان لأبى وأنا يمينه، فهو يدفع بيمينه عن عينيه).

٥-كان ابن عباس الصحابى الجليل يمسك له الركاب حتى يركب فرسه إجلالا له وإعظاما، وتقدم أنه كان يفعل ذلك أيضا بالإمام الحسن عليه السلام.

مكانة الإمام الحسين عند التابعين:

يقول إبراهيم النخعى رضي الله عنه: والله لو كنت ممن حضر مصرع الإمام الحسين و لم أقاتل معه و لم أدفع عنه ثم دخلت الجنة لاستحييت أن ألقى بوجهى رسول الله ﷺ.

أخلاق الإمام الحسين:

١-بذل الإمام: دخل على أسامة بن زيد رضى الله عنهما وكان مريضا فقال أسامة: وا غماه؟ فسأله الإمام: (لم الغم يا أخى؟) قال: على دين ستون ألف درهم، فقال الإمام: (اطمئن فهو على أقوم بأدائه) فقال أسامة: إنى أخشى أن أموت قبل السداد والنبى ﷺ يقول: (روح المؤمن محبوسة عن الجنة حتى يقضى دينها). فقال الإمام: (لن تموت إن شاء الله حتى أقضيها عنك ثم قام مسرعا وأدى الدين).

وذكر الفخر الرازى فى ذيل تفسير قوله تعالى: ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ (البقرة: ٣١). قصد أعرابى الحسين بن على عليه السلام فسلم عليه وسأله حاجته وقال: سمعت جدك يقول: (إذا سألتم حاجة فاسألوها من أربعة: إما عربى شريف، أو مولى كريم، أو حامل القرآن، أو صاحب وجه صبيح). فأما العرب فشرفت بجدك، وأما الكرم فدأبكم وسيرتكم، وأما القرآن ففى بيوتكم نزل، وأما الوجه الصبيح فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إذا أردتم أن تنظروا إلى فانظروا إلى الحسن والحسين). فقال الحسين: ما حاجتك؟، فكتبها على الأرض، فقال الحسين: سمعت أبى عليا عليه السلام يقول: قيمة كل امرىء ما يحسنه، وسمعت جدى يقول: (المعروف بقدر المعرفة) فأسألك عن ثلاث مسائل إن أحسنت فى جواب واحدة فلك ثلث ما عندى، وإن أجبت عن اثنتين فلك ثلثا ما عندى، وإن أجبت عن الثلاث فلك كل ما عندى، وقد حمل إلى صرة مختومة من العراق، فقال: سل ولا حول ولا قوة إلا بالله، فقال: أى الأعمال أفضل؟، قال الأعرابى: الإيمان بالله، قال: فما نجاة العبد من الهلكة؟، قال: الثقة بالله،

قال: فما يزين المرء؟، قال: علم معه حلم، قال: فإن أخطأه ذلك؟، قال: فمال معه كرم، قال: فإن أخطأه ذلك؟، قال: فقر معه صبر، قال: فإن أخطأه ذلك؟، قال: فصاعقة تنزل من السماء فتحرقه، فضحك الحسين عليه السلام ورمى بالصرة إليه.

٢- شجاعة الإمام: لا يخشى بأساً فلقد نشأ من صغره على الجهاد، فحضر فتح أفريقية مع القائد ابن أبى سرح، وشهد موقعة طبرستان مع سعيد بن العاص وذلك فى عهد سيدنا عثمان. وحضر فتح القسطنطينية وجرجان فى عهد معاوية.

وحضر موقعتى الجمل وصفين وحرب الخوارج مع أبيه.. يقول عبد الله بن عمار - وهو ممن حاربوا الإمام فى كربلاء -: قد وجدوا ببدنه بعد استشهاده ثلاثاً وثلاثين طعنة، وأربعاً وثلاثين ضربة كلها فيما أقبل من وجهه وجسمه ليس منها فى ظهره شيء، لأنه كان مقبلاً غير مدبر ﷺ. فو الله ما رأيت مكسوراً قط مات ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشاً، ولا أمضى جناناً، ولا أجرأ مقدماً من الإمام الحسين وهو يقول:

أنا ابن عليّ الحبر من آل هاشم كفانى بهذا مفخراً حين أفخر

وجدى رسول الله أكرم من مشى ونحن سراج الله فى الناس يزهر

وفاطمة أمى سلالة أحمد وعمر يدعى ذا الجناحين جعفر

وفينا كتاب الله أنزل صادقاً وفينا الهدى والوحى والخير يذكر

٣-حلم الإمام: سلط بعض الحاقدين امرأة على الإمام أن تغضبه ولها لديهم

مــن الإبل كذا وكذًا مكافأة، فعمدت المرأة إلى وعاء به ماء قذر وصبته علــى رأسه وهو خارج إلى الصلاة – لعله يغضب – قال راوى الحادثة: فــوالله مــا التفت الإمام وراءه وما علم الذى قذفه بالدنس وكل ما فعله أن وقف برهــة ثم نظر إلى السماء وقال: اللهم لك الحمد، كنت الآن أفكر فى النار وقد صــب علىّ المــاء، والماء وإن كان قذراً يطفىء النار. اللهم إنه فأل حسن استبشــرت به خيراً فالشكر لك..

وسمعت المرأة هذا القول فعراها من الخزى والخجل مثل الموت، وأسرع الإمــام إلى مترله وبدل ثيابه وخرج إلى الصلاة. وجاءت المرأة إلى من حرضها وقالت: خيبكم الله، والله لقد غلبنى حلمه، ووالله ما درى من أمرى شيئاً ولا التفــت وراءه بل عده بشرى طيبة.

ثم أسرعت إلى مترل الإمام معتذرة كاسفة البال وحكت له قصتها، فلما سمــع منها أهم وعدوها بمكافأة إن أغضبته قال: (سبحان الله.. لو علمت بــأمرك لأظهرت غضباً لعل الله يرزقك من هؤلاء، ولكن ما دمت لم تنــالى مــرادك فمكافأتك علىّ أنا.. ثم أمر لها بعطاء جزيل، فخرجت المــرأة وهــى تكــاد تمــوت فرحاً وغبطة).

٤-الرضا بقضاء الله: مات ابن الإمام الحسين فلم يشهد النــاس عليــه أثــراً للحــزن فســألوه فقال: (سبحان الله إنا معشر أهل البيت نسأل الله فيعطينــا، فإذا أراد سبحانه ما نكره فيما يحب هو رضينا).

٥-التواضع: وجد على ظهر الإمام يوم كربلاء أثر فسألوا سيدنا علــىّ زيــن

العابدين بن الحسين عن ذلك فقال: (هذا مما كان ينقل الجراب على ظـهره إلى منازل الأرامل واليتامى والمساكين).

الأمر الذى يشير إلى تواضع منقطع النظير، واهتمام بشـئون الأمـة، ووعـى للمسئولية، وشعور عميق بها لا ند له.

٦-الرحمة حتى بأعدائه: فيروى أن الإمام بكى فى كربلاء بكاءً شديداً فقـالت السيدة زينب: (أتبكى خوفاً من الموت يا حسين؟) قال: (لا، ولكن أبكـى على هؤلاء فسيدخلون النار بسببى).

بيعـة وخيـانـة:

لما توفى معاوية سنة ٦٠ هـ كان على المدينة الوليد بن عتبة بـن أبى سـفيان فكتب يزيد بن معاوية إلى الوليد: "من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة، أما بعد.. فإن معاوية كان عبداً من عباد الله أكرمه الله واستخلفه وخوّله ومكّـن لـه فعاش بقدر ومات بأجل، فرحمه الله فقد عاش محموداً ومات بـراً تقيـاً والسلام.. ثم أضاف: أما بعد.. فخذ حسيناً، وعبد الله بن عمر، وعبـد الله ابن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة حتى يبايعوا.. والسلام".

فلما قرأ الوليد للإمام الحسين الكتاب ونعى إليه معاوية، قال الإمام الحسين: (إنا لله وإنا إليه راجعون، ورحم الله معاوية، أما البيعة فإن مثلى لا يعطـى بيعتـه سراً.. قال: أجل. فقال الإمام الحسين: فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهـم إلى البيعة دعوتنا فكان الأمر واحداً) وكان الإمام الحسين عليه السلام قد عول على تـرك المدينة إلى مكة، كما تركها قبله بليلتين عبد الله بن الزبير، دون مبايعة يزيـد،

فخرج منها ومعه كل أهل بيته وإخوته وبنو أخيه.

فلما بلغ أهل الكوفة موت معاوية وعلموا امتناع الإمام الحسين عن بيعة يزيد ونزوله مكة اجتمعت الشيعة وكتبوا إليه كتبا جاء فيها: "إنه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق". ثم سيروا عدة رسل بالكتب إليه، وتلاقت الرسل كلها عند الإمام الحسين فكان يقرأ الكتب ويسأل الرسل عن الناس.. ولبث فى مكة على هذه الحالة أربعة أشهر. ثم دعا ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب وأمره بالمسيرة إلى الكوفة فإن رأى الناس مجتمعين مستوثقين عجل إليه بذلك.

خرج مسلم بن عقيل حتى أتى الكوفة، ونزل على رجل يقال له "عوسجة" فلما علم أهل الكوفة بقدومه دنوا إليه، فبايعه منهم ثمانية عشر ألفا، ولما علم يزيد بن معاوية بذلك عزل النعمان بن بشير والى الكوفة وولى عبيد الله بن زياد مكانه.

وبعث مسلم بن عقيل برسالة إلى الإمام الحسين يدعوه للحلول بين أظهر أنصاره فى الكوفة قال فيها: (أما بعد فإن الرائد لا يكذب أهله، وإن جميع أهل الكوفة معك، وقد بايعنى منهم ثمانية عشر ألفا، فعجل الإقبال حين تقرأ كتابى هذا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته) (الطبرى).

ويبلغ القلق بالحكم الأموى كل مبلغ، حين أدرك زعماؤه أن الإمام الحسين عليه السلام قد استقطب مكة أو كاد، وخوفا من ذلك أرسل يزيد جيشا من الشام باتجاه بيت الله الحرام، وكبر على الإمام الحسين أن تستباح حرمة بيت الله

الحرام، ومن هنا قرر مغادرة مكة والاتجاه إلى العراق فى يوم التروية الثامن من شهر ذى الحجة ٦٠ هـ، على أنه كان مدركا النتيجة الحتمية التى سيؤول إليها، كما يتجلى ذلك من خطبته عند خروجه من مكة: (الحمد لله وما شاء الله ولا قوة إلا بالله وصلى الله على رسوله، خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهنى إلى أسلافى اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لى مصرع أنا لاقيه كأنى بأوصالى تقطعها غسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء فيملأن منى أكراشا جوفا، وأجربة شغبا، لا محيص من يوم خط بالقلم).

ولقد عز على الكثيرين أن يخرج الإمام الحسين إلى العراق خشية عليه من القتل مثل عبد الله بن عباس، وأبو ذر، وعبد الله بن الزبير، وأخوه محمد بن الحنفية، وعبد الرحمن بن الحارث وغيرهم.. فقال لهم الإمام الحسين عليه السلام: (إنى رأيت رؤيا فيها رسول الله ﷺ وقد أمرت بأمر أنا ماض له، فلما سئل عن الرؤيا؟ قال: ما أنا بمحدث عنها حتى ألقى ربى).

وقال لابن عباس: (والله لا يدعونى حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفى، فإذا فعلوا ذلك سلط الله عليهم من يذلهم حتى يكونوا أذل من فرام المرأة). الفرام: خرقة تستعملها المرأة فى الحيض.

وقال لعبد الله بن الزبير: (وأيم الله لو كنت فى ثقب هامة من هذه الهوام لاستخرجونى حتى يقضوا فى حاجتهم وليعتدن على كما اعتدت اليهود فى السبت).

سار ركب الإمام وهو واثق من قتله شهيدا ولكن النصر الحقيقى لرسالة الله

سيكون باستشهاده حيث لم يكن هناك ناصر للرسالة سواه، وكان واثقا أن الأمة لا تستيقظ إلا بهزة كبرى ولتكن الهزة استشهاده ومن معه من ذرية رسول الله ﷺ، وكان يعلم أحقية أهل البيت فى تسيير دفة الحياة الإسلامية، ولكن الخنوع وإرهاب بنو أمية جعل الكل يقول للإمام: (إن السيوف مع بنى أمية والقلوب معك) أدق وصف لغياب الشعور بالمسئولية أمام الله والرسالة لدى السواد الأعظم، والتى كانت مظهرا جليا من مظاهر النفاق الاجتماعى الذى اجتاح الناس كنتيجة طبيعية لسياسة تخريب الضمائر مما كان عاملا أساسيا فى نقض الناس لبيعة الإمام الحسين عليه السلام.

فى الطريق إلى العراق:

سار الإمام الحسين إلى الكوفة فى فئة قليلة، فلما اقترب منها، بلغة نبأ مصرع مسلم بن عقيل بعد أن خذله أهل الكوفة، فقال له بعض الصحابة: (ننشدك الله ألا رجعت من مكانك، فإنه ليس لك بالكوفة ناصر، بل نتخوف أن يكونوا عليك) فوثب بنو عقيل وقالوا: (والله حتى ندرك ثأرنا أو نتذوق ما ذاق مسلم. فقال الإمام الحسين: لا خير فى العيش بعد هؤلاء، فقال له أصحابه: إنك والله ما أنت مثل مسلم بن عقيل، ولو قدمت الكوفة لكان الناس إليك أسرع) سارع الإمام الحسين حتى وصل إلى كربلاء مهد الثورة الحسينية، ومصرع الأبطال، ومنار المجد الخالد، ورمز العز والإباء، وتتابع إرسال الجيوش لقتاله، والتقى الإمام بجيش عبيد الله بقيادة الحر بن يزيد فى ألف فارس، وكانوا يلازمونه ويصدونه عن كل جهة إلا نحو الكوفة مقر أميرهم عبيد الله بن زياد فقال الإمام الحسين يعظهم: (أيها الناس: إن رسول الله ﷺ قال: "من رأى

سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله مخالفا لسنة رسول الله ﷺ يعمل فى عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير ما عليه بفعل ولا بقول كان حقا على الله أن يدخله مدخله"، ألا وإن هؤلاء لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالغى وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله، وأنا الحسين بن على وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، نفسى مع أنفسكم، وأهلى من أهلكم فلكم فى أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدى وخلفتم بيعتى، فلعمرى ما هى لكم بنكيرة والمغرور من اغتر بكم، فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم ﴿ومن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ وسيغنى الله عنكم.. والسلام).

بهذه الكلمات وسواها يلقى الإمام الحسن أضواء كاشفة على حقيقة الحكم فى الإسلام، ويستحث العواطف ويشحذ الهمم لنفض غبار الجهل بالواقع عن كاهل الأمة، ورفض كل صيغ الاستسلام اللا مشروع.

عمرو بن سعد بن أبي وقاص:

فى اليوم التالى لنزول الإمام الحسين كربلاء جاء عمرو بن سعد بن أبي وقاص من الكوفة فى أربعة آلاف مقاتل ومن عجب الأقدار أن ابن الصحابى الجليل سعد بن أبي وقاص هو قائد الجيش الذى قتل الإمام الحسين وأهل بيته، وأخذ النساء سبايا إلى ابن زياد.

ذلك الصحابى الذى قاد جيوش المسلمين فى معركة القادسية، يخرج الله من صلبه ولدا يكون أول رام بسهم لقتل الإمام الحسين.. لقد انضم هذا الابن إلى جيش يزيد طمعا فى عرض زائل.. لقد مناه ابن زياد بملك الرى إن قتل

الحسين.. والرى إحدى ولايات العراق.. واستجاب عمرو لنداء الشيطان وسجل وثيقة اعترافه بذلك فقال:

دعاني عبيد الله من دون قومه | إلى خصلة فيها خرجت لحيني
فو الله ما أدرى وإني لواقف | على خطر لا أرتضيه لديني
أأخذ ملك الرى بغيتي | وأرجع مطلوبا بدم حسين
وفي قتله النار التي ليس دونها | حجاب وملك الرى قرة عيني

وسأل عمرو بن سعد الإمام الحسين عما جاء به، قال ﷺ: (كتب إلى أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم فأما إذا كرهتموني فإني أنصرف عنكم إلى مكة).

فكتب عمرو إلى ابن زياد بذلك، ثم التقى الإمام الحسين وعمرو مرارا، فكتب عمرو إلى عبيد الله بن زياد: (أما بعد.. فإن الله أطفأ الثائرة وجمع الكلمة، وقد أعطاني الحسين أن يرجع إلى المكان الذى أقبل منه، أو أن نسيره إلى أى ثغر من الثغور شئنا يقاتل فيه أعداء الله، أو أن يأتي يزيد أمير المؤمنين فيضع يده في يده، وفي هذا لكم رضا وللأمة صلاح).

فلما قرأ ابن زياد الكتاب قال: هذا كتاب رجل ناصح لأميره مشفق على قومه. نعم قبلت، ولكن شمر بن ذى الجوشن.. ذلك الأبرص الكريه المنظر، القبيح الصورة، الشقى الجد.. رفض هذا الرأى، وقال له: أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك وإلى جنبك، والله لئن رحل من بلادك و لم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة، ولتكونن أولى بالضعف والعجز، فلا تعطه هذه

المترلة، ولكن يترل على حكمك هو وأصحابه، فإن عاقبت كنت ولى العقوبة، وإن عفوت كان ذلك لك.

أخذ ابن زياد برأى شمر فأرسله بكتاب إلى عمرو بن سعد جاء فيه: (انظر فإن نزل الحسين وأصحابه عن الحكم واستسلموا فابعث بهم إلى، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مستحقون، فإن قتل الحسين فأوطىء الخيل صدره وظهره فإنه عاق شاق قاطع ظلوم، فإن أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن أنت أبيت فاعتزل جندنا وخل بين شمر بن ذى الجوشن وبين العسكر.. والسلام).

كلام من رصاص فى أجساد من نحاس:

جمع الإمام الحسين أصحابه وقال: (أثنى على الله أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء، اللهم أنى أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة، وجعلت لنا أسماعا وأبصارا وأفئدة، وعلمتنا القرآن وفقهتنا فى الدين، فاجعلنا لك من الشاكرين.

أما بعد.. فإنى لا أعلم أصحابا أوفى ولا خيرا من أصحابى، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتى، فجزاكم الله جميعا خيرا، لقد بررتم وعاونتم، والقوم لا يريدون غيرى أحدا، وإنى لأظن هذا الليل قد غشيكم فتفرقوا فى سواده وانجوا بأنفسكم. فقال له إخوته وأبناؤه وبنو أخيه وأبناء عبد الله بن جعفر (زوج السيدة زينب): معاذ الله وما نقول للناس إذا رجعنا إليهم؟ نقول: تركنا سيدنا وبنى عمومتنا خير الأعمام، ولم نرم معهم بسهم، ولم نطعن معهم برمح، ولم نضرب بالسيف، ولا ندرى ما صنعوا، لا والله لا نفعل، نفديك بأنفسنا

وأموالنا وأهلينا ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبح الله العيش بعدك..)
وتكلم أصحابه بنحو هذا. وبات الإمام الحسين وأصحابه ليلتهم يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون وخيول عدوهم تدور من ورائهم والإمام يقرأ: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين * ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ (آل عمران: ١٧٨،١٧٩).

وصلى الإمام الصبح بأصحابه، ثم عدل إلى خيمة قد نصبت فاغتسل فيها ولبس عباءة جده ﷺ وتطيب بمسك كثير، ثم ركب على فرسه وأخذ مصحفا فوضعه بين يديه، ثم استقبل القوم رافعا يديه، يدعو: (اللهم أنت ثقتى فى كل كرب، ورجائى فى كل شدة، وأنت لى فى كل أمر نزل ثقة وعدة، كم من هم يضعف فيه الفؤاد، وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، أنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة منى إليك عمن سواك، ففرجته وكشفته وكفيتنيه، فأنت ولى كل نعمة، وصاحب كل حسنة، ومنتهى كل رغبة).

ونادى الإمام الحسين: أيها الناس، اسمعوا منى نصيحة أقولها لكم، فأنصت الناس كلهم، فقال بعد حمد الله والثناء عليه: (أيها الناس: إن قبلتم منى وأنصفتمونى كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم على سبيل، وإن لم تقبلوا منى ﴿فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون﴾ (يونس: ٧١) ﴿إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾ (الأعراف: ١٩٦) راجعوا أنفسكم وحاسبوها، هل يصلح لكم قتال مثلى، وأنا ابن ابنة نبيكم، وليس على وجه الأرض ابن ابنة نبى غيرى؟ وعلى أبى، وجعفر

ذو الجناحين عمى، وحمزة سيد الشهداء عم أبى؟ وقال لى رسول الله ﷺ ولأخى: (هذان سيدا شباب أهل الجنة) فإن صدقتمونى بما أقول فهو الحق، فو الله ما تعمدت كذبة منذ علمت أن الله يمقت الكذب وإلا فاسألوا أصحاب رسول الله ﷺ عن ذلك.. ويحكم! أما تتقون الله؟ أما فى هذا حاجز لكم عن سفك دمى؟)

فقال شمر بن ذى الجوشن: هو يعبد الله على حرف إن كان يدرى ما يقول.. ثم قال الإمام الحسين: (أيها الناس، ذرونى أرجع إلى مأمنى من الأرض، أخبرونى، أتقتلونى بقتيل لكم قتلته؟ أو مال لكم أكلته؟ أو بقصاص من جارحة؟ فأخذوا لا يكلمونه.. فنادى: يا شيث بن ربعى، يا حجار بن أبجر، يا قيس بن الأشعث، يا زيد بن الحارث، ألم تكتبوا إلى أنه قد أينعت الثمار واخضر الجناب، فأقدم علينا فإنك إنما تقدم على جند مجندة؟ فقالوا له: لم نفعل. فقال: سبحان الله، والله لقد فعلتم. ثم قال: أيها الناس، إذ قد كرهتمونى فدعونى أنصرف عنكم، فقال له قيس بن الأشعث: ألا تنزل على حكم بنى عمك فإنهم لن يؤذوك، ولا ترى منهم إلا ما تحب؟ فقال له الإمام الحسين: أنت أخو أخيك، أتريد أن تطلب بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل؟ لا والله لا أعطيهم بيدى إعطاء الذليل، ولا أقر له إقرار العبيد).

بهذه الكلمات وسواها كشف الإمام الحسين النقاب على النهج الذى يجب أن يلتزم به الحاكم الإسلامى، مما هو متوفر فى شخصيته (عليه السلام)، باعتباره غرس النبوة، ووليد الرسالة، وتلميذ الوحى المقدس، وهكذا كان إبراز المفهوم الإسلامى للإمامة فى الأغراض الأساسية لنهضة الإمام الحسين يصحبه فضح

الخلافة المفروضة على الناس.

فأقبلوا يزحفون نحوه، وقد تحيز إلى جيش الإمام الحسين من أولئك طائفة قريب من ثلاثين فارساً منهم الحر بن يزيد، أمير مقدمة جيش ابن زياد فاعتذر إلى الإمام الحسين فقبل منه. ثم خاطب عمرو بن سعد: ويحكم ألا تقبلون من ابن ابنة رسول الله ﷺ ما يعرض عليكم من الخصال الثلاث واحدة منها؟ لو كان ذلك إليّ لقبلت.. يا عمرو أصلحك الله، أمقاتل أنت هذا الرجل؟ قال: أى والله، قتالاً أيسره أن تسقط الرءوس وتطيح الأيدى.

فقال الحر: يا أهل الكوفة، لأمكم الهبل (الثكل وفقدان الولد) أدعوتم الحسين حتى إذا أتاكم أسلمتموه وزعمتم أنكم قاتلوا أنفسكم دونه، ثم عدوتم عليه لتقتلوه، ومنعتموه التوجه فى بلاد الله العريضة الوسيعة التى لا يمنع فيها الكلب والخنزير، ويحكم!! أمنعتم الحسين ونساءه وبناته الماء الفرات الذى يشرب منه اليهود والنصارى، ويتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه، وقد صرعهم العطش؟ بئس ما خلفتم محمداً فى ذريته. لاسقاكم الله يوم الظمأ الأكبر إن لم تتوبوا وترجعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا فى ساعتكم هذه.. فرموه بالنبال فقاتل أمام الإمام الحسين فقتل رجلين ونال الشهادة وآخر كلماته: (سلام الله عليك يا أبا عبد الله).

مآثم مخزية:

تعذر على الإمام الحسين وأصحابه أن يصلوا إلى الماء ولبثوا أياماً وليس فى معسكرهم ذو حياة من رجل أو امرأة أو طفل أو حيوان إلا وهو يتلظى على

قطرة ماء فلا ينالها، وفى ذلك المأزق الفاجع نضحت طباع اللؤم فى معسكر ابن زياد بشر ما تنضح به طبيعة لئيمة فى البنية الآدمية.

فمن هذه المآثم المخزية أن الإمام الحسين برح به العطش فلم يباله، ولكنه رأى ولده عبد الله يتلوى من ألمه وعطشه، وقد بح صوته من البكاء فحمله على يديه يهم أن يسقيه ويقول للقوم: (اتقوا الله فى الطفل إن لم تتقوا الله فينا) فأوتر رجل من نبالة الكوفة قوسه، ورمى الطفل بسهم وهو يصيح ليسمعه العسكران: (خذ اسقه هذا) فنفذ السهم إلى أحشائه!

وكانوا يصيحون بالإمام الحسين متهاتفين:

(ألا ترى إلى الفرات كأنه بطون الحيات؟! والله لا تذوقه حتى تموت ومن معك عطشاً).

ولما اشتد عطش الإمام الحسين دنا من الفرات ليشرب، فرماه حصين بن نمير بسهم وقع فى فمه.. فانتزعه الإمام الحسين وجعل يتلقى الدم بيديه فامتلأت راحتاه بالدم، فرمى به إلى السماء وقد شخص ببصره إليها وهو يقول: (إن تكن حبست عنا النصر من السماء، فاجعل ذلك لما هو خير منه، وانتقم لنا من القوم الظالمين). فلم يمكث الرامى إلا قليلاً حتى صب الله عليه الظمأ، فجعل لا يروى ويسقى الماء مبرداً تارة، وتارة يبرد له اللبن والماء معاً ويسقى فلا يروى حتى انقد بطنه انقداد البعير ومات.. وصاح الإمام الحسين بأعلى صوته:

-هل من ذاب عن حرم رسول الله ﷺ؟.

-هل من موحد يخاف الله فينا؟

-هل من مغيث يرجو الله فى إغاثتنا؟ . . ثم قال:

إذا استنصر المرء امرأ لائذا بـــه ... فناصره والخاذلـــون ســـواء

أنا ابن الذى قد تعلمون مكانه ... وليس على الحق المبين جفـــاء

أليس رسول الله جدى ووالدى ... أنا البدر إن غطى النجوم خفاء

ألم يترل القرآن حـــول بيوتنـــا ... صباحا ومن بعد الصباح مساء

وهكذا أوقف الإمام الحسين الأمة على عتبة تاريخ جديد من حياتها، وأصبحت أمام خيارين: إما تبنى سياسة الرفض القاطع الذى فرض عليـــها مـــهما كـــان الثمن. . أو القبول بسياسة الأمر الواقع، حيث عليها أن تتنازل عن رســـالتها وسر عظمتها وعنوان عزتها فى الحياة. . فكيف كان الأمر. . ؟!!

المعـــركـــة الـــرهيبـــة:

دارت المعركة الرهيبة بين الآلاف والعشرات، وجعل أصحاب الإمام الحســـين يتقدمون رجلا بعد رجل فقاتلوهم قتالا مرا، ولما استشهد أصحاب الإمام بـــرز شباب بنى هاشم بدورهم، يدافعون عن والدهم، وعمهم وابن عمهم ونسيبهم، بقلوبهم وصدورهم، وكان على بن الحسين ﷺ، من أصبـــح النـــاس وجـــها، وأكملهم أدبا، فتقدم للقتال قبل غيره، وهو ما يزال فى التاسعة عشـــرة مـــن عمـــره وهو يقول:

أنا على بن الحسين بن على

نحن ورب البيت أولى بالنبى

فعل ذلك مرارا، يحمل فيرتد من أمامه من شدة حملته حتى صدمه مرة بن منقـذ العبدى فطعنه فصرعه، فلما رآه الإمام الحسين قال: (قتل الله قوما قتلوك يا بنى ما أجرأهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة الرسول، على الدنيا بعدك العفاء) وتتابعت قتلى بنى هاشم فسقط عبد الله بن مسلم بن عقيل، وعون بن عبد الله ابن جعفر، ومحمد بن عبد الله بن جعفر، وعبد الرحمن بن عقيل، وجعفر بن عقيل.

ثم خرج القاسم بن الإمام الحسن وبيده السيف، وهو غلام كأن وجهه شقة القمر، فحمل عليه عمرو بن سعد بن نفيل الأزدى فضرب رأسه بالسيف، فسقط القاسم على الأرض لوجهه وهو يقول: (يا عماه)! فانقض الإمام الحسين عليه ثم شد شدة ليث أغضب، وضرب عمرو بالسيف فاتقاه بالساعد فقطعها من المرفق، ثم قال الإمام الحسين للقاسم بن أخيه: (بعدا لقوم قتلوك، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك، عز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك، أو يجيبك ثم لا ينفعك) ثم فاضت روحه الطاهرة.

رجع الإمام الحسين إلى فسطاطه، فتقدم إليه شمر بن ذى الجوشن برجاله وهو يحرضهم عليه – وذو الجوشن صحابى جليل، قيل: اسمه شرحبيل. وقيل: عثمان ابن نوفل – (ترجمة ابن عساكر).

فنظر الإمام الحسين إلى شمر بن ذى الجوشن فقال: صدق الله ورسوله، قال رسول الله ﷺ: "كأنى أنظر إلى كلب أبقع يلغ فى دماء أهل بيتى". وكان شمر –

قبحه الله – أبرص. وأقبل إلى الإمام الحسين عبد الله بن الحسن بن على وهو غلام لم يراهق فقام إلى جنبه فقال الغلام: (يا ابن الخبيثة أتقتل عمى؟!) فضربه بالسيف فاتقاه الغلام بيده، فقطعها إلى الجلد، فصرخ الغلام فاعتنقه الإمام الحسين وقال له: (يا ابن أخى أصبر على ما نزل بك واحتسب فى ذلك الخير، فإن الله يلحقك بآبائك الصالحين).

ورفع الإمام الحسين بصره إلى السماء يناجى ربه قائلا: (اللهم أمسك عليهم قطر السماء، وأمنعهم بركات الأرض، اللهم إن متعتهم إلى حين ففرقهم فرقا، واجعلهم قددا، ولا ترضى عنهم الولاة أبدا، فإنهم دعونا لينصرونا، فعدوا علينا كما اعتدت اليهود فى السبت فقتلونا).

وبقى الإمام الحسين وحده، وقد أثخن بالجراح فى رأسه وبدنه، وحمل الناس عليه عن يمينه وشماله، فحمل على الذين عن يمينه فتفرقوا، ثم حمل على الذين عن يساره فتفرقوا، فما رئى رجل قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشا، ولا أمضى جنانا، ولا أجرأ مقدما منه، وهو يقاتل قتال الفارس الشجاع، يتقى الرمية، ويشد على الخيل وهو يقول: (أعلى قتلى تجتمعون! أما والله لا تقتلون بعدى عبدا من عباد الله أسخط عليكم لقتله منى، وأيم الله لا أرجو أن يكرمنى الله بهوانكم، ثم ينتقم لى منكم من حيث لا تشعرون، أما والله لإن قتلتمونى سيلقى الله بأسكم بينكم، ويسفك دماءكم، ثم لا يرض لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم).

ومكث طويلا من النهار والكل يتقى بعضهم ببعض هربا، وخوفا من مغبة

وزره، فصاح فيهم شمر بن ذى الجوشن، فحملوا عليه من كل جانب، وضربه زرعة بن شريك التميمى على كفه اليسرى فقطعها، وضربه آخر على عاتقه فكب منها لوجهه، فانصرفوا عنه وهو يقوم ويكبو، وجاءت اللحظة الرهيبة، فكأنما زلزلت الأرض زلزالها فاستشهد الإمام الأعظم بعد أن طعنه سنان بن أنس النخعى بالرمح، بعد استعصاء رهيب لأعدائه، وذلك فى العاشر من محرم – وهو من الأشهر الحرم – سنة ٦١ هـ، عن ست وخمسين سنة وخمسة أشهر وخمسة أيام.

خسة ووحشية:

أقبل شمر بن ذى الجوشن واحتز رأس الإمام الحسين، وكان حقا لا مجازا أنها حرب بين أشرف ما فى الإنسان وأوضع ما فى الإنسان، فبينما كان الرجل فى معسكر الإمام الحسين ينهض من بين الموتى ولا يضن بالرمق الأخير فى سبيل إيمانه، إذ بالآخرين يقترفون أسوأ المآثم من أجل غنيمة هينة لا تسمن ولا تغنى من جوع، فهرعوا إلى النساء من بيت رسول الله ﷺ ينازعوهن الحلى والثياب التى على أجسادهن، وانقلبوا إلى جثمان الإمام الحسين يتخطفون ما عليها من كساء تخللته الطعون التى بلغت ثلاثا وثلاثين طعنة وأربعا وثلاثين ضربة حتى أوشكوا أن يتركوها على الأرض عارية، ثم ندبوا عشرة من الفرسان يوطئون جسده الشريف الخيل كما أمرهم ابن زياد، فوطئوها مقبلين ومدبرين حتى رضوا صدره وظهره، وساقوا النساء سبايا إلى ابن زياد ومنه إلى يزيد بن معاوية.

لقد شهدت ثلاث سنوات من حكم يزيد جرائم لم يعرف لها المسلمون شبيها.. ففى الأولى قتل الإمام الحسين وأصحابه، وفى الثانية قام بمذبحة فى المدينة فى وقعة الحرة قتل فيها المئات من أبناء وأحفاد المهاجرين والأنصار، وفى الثالثة هدم الكعبة بالمنجنيق فى محاولته لإخراج عبد الله بن الزبير الذى تحصن فى البيت الحرام ودكه قائد يزيد الحصين بن نمير، ومات يزيد فى السنة الرابعة.

الانتقام الإلهى

وبعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام اندلعت ثورة فى الكوفة سميت بثورة التوابين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعى هزت العالم الإسلامى آنذاك حيث استشهد الصحابى الجليل ومئات من أصحابه.

وتلى ذلك ثورة المختار بن عبيدة الثقفى وستة آلاف من المعتقلين فى سجن بنى أمية، حيث استولى المختار الذى حمل شعار (يا لثارات الحسين) على الكوفة وانتقم لدم الحسين ممن شاركوا فى جريمة ذبحه أمثال عمرو بن سعد بن أبى وقاص، وشمر بن ذى الجوشن، وحرملة بن كاهل، وعبيد الله بن زياد وغيرهم.

وتتابعت الثورات حتى مجيء الدولة العباسية التى طالبت بدم أهل البيت كغطاء لمحاربة الأمويين، وهكذا ظل دمه الطاهر يفور ويؤجج حركات ثورية هنا وهناك حتى قضت على الدولة الأموية بعد بضع وستون سنة من استشهاد الإمام الحسين. لقد كانت مأساة كربلاء هزة كبيرة بحجم السبات العميق الذى خيم على ضمير الأمة الإسلامية.

وأخذ الكل يتذكرون هذا المشهد عندما حمل النبى ﷺ الإمام الحسين وهو طفل صغير على فخذه وهو يبكى، فيسأله الحاضرون: ما يبكيك يا رسول الله؟ فيقول: إن ابنى هذا تقتله الفئة الباغية لا أنالهم الله شفاعتى.

ويروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: رأيت رسول الله ﷺ فى المنام نصف النهار أشعث أغبر، معه قارورة فيها دم، قلت: بأبى أنت وأمى يا رسول الله! ما هذا؟ قال: هذا دم الحسين وأصحابه لم أزل ألتقطه منذ اليوم.

ويروى الترمذى عن سلمى قالت: دخلت على أم سلمة وهى تبكى فقلت: ما يبكيك؟ قالت: رأيت رسول الله ﷺ وعلى رأسه ولحيته التراب، فقلت: ما لك يا رسول الله؟ قال: "شهدت قتل الحسين أنفا".

ويروى الإمام أحمد عن أم سلمة قالت: سمعت الجن ينحن على الحسين وهن يقلن:

أيها القاتلون جهلا حسينا	أبشروا بالعذاب والتنكيل
كل أهل السماء يدعوا عليكم	ونبى ومرسل وقبيل
قد لعنتم على لسان ابن داود	وموسى وصاحب الإنجيل

رأسه الشريفة:

وتنقلت رأسه الشريفة عليه السلام من دمشق إلى عسقلان إلى القاهرة، فبعد أن استولى الفرنجة على عسقلان تقدم الصالح طلائع ابن رزيك، وزير الفاطميين بمصر، فدفع ٣٠ ألف درهم، ونقل الرأس الشريف إلى مصر.

وعلى أية حال، ففى أى مكان رأس الإمام الحسين - القاهرة - أو جسـده - العـراق - فهو ساكن فى القلوب والضمائر، قاطن فى الأسرار والخواطر، معنى يحضره المسلم فى صدره - وهو قريب أو بعيد - نورا يستضىء به المسلمون فى كل مكان وزمان، ورمزا للمستضعفين يستلهمون منه روح الجهاد.

وصلت رأسه الشريفة إلى القاهرة يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة سـنة ٥٤٨ هـ، وظل مدفونا فى قصر الزمرد، حتى جهز له المدفن الحـالى عند البـاب الأخضر ونقل إليه فى الثلاثاء الأخير من ربيع الثانى سنة ٥٤٩ هـ، وهو يـوم احتفال أهل مصر بالإمام الحسين عليه السلام.

نسـبة الروح نسـبة التعييـن	يا حبيبى ونسبتى فى الطيـن
يا شهيد الجهاد فى الله نصـرا	فى سبيل المعبود فى التمكين
يا إمام الأبدال مصر أضـاءت	من ضياء المختار طه الأميـن
قائد العارفين أفضـل سـبط	قدم الروح فى سبيل اليقيـن
يا إمام الأسباط جاهدت حتى	قلدتك الأفراد فى كل حيـن
أنت يا سيدى سـراج منيـر	فى ربا مصر بين أهل الديـن
أنت نور للمسلميـن جميعـا	فى افتتاح الوجود فى التعييـن

انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى

عرف النبي ﷺ من ربه اقتراب أجله بنزول سورة إذا جاء نصر الله والفتح، فإن المراد من هذه السورة إنك يا محمد إذا فتح الله عليك البلاد، ودخل الناس فى دين الله الذى دعوتهم إليه أفواجا، فقد اقترب أجلك، فتهيأ للقائنا بالتحميد والاستغفار، فإنه تم مقصود ما أمرت به، من أداء الرسالة، والتبليغ، وما عندنا لك خير من الدنيا، فاستعد للانتقال إلينا.

وروى الطبرى عن جابر ﷺ قال: لما نزلت هذه السورة قال النبى ﷺ لجبريل: نعيت إلىّ نفسى، فقال جبريل: وللآخرة خير لك من الأولى.

وروى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى ﷺ أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: إن عبدا خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عنده، فبكى أبو بكر ﷺ وقال: يا رسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا، قال: فعجبنا وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عند الله، وهو يقول فديناك بآبائنا وأمهاتنا، قال: فكان رسول الله هو المخير وكان أبو بكر أعلمنا به.

عن أبى مويهبة مولى رسول الله ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال فى جوف الليل: إنى أمرت أن أستغفر لأهل البقيع فانطلق معى. قال: فانطلقت معه فلما وقف بين أظهرهم قال: السلام عليكم يأهل المقابر ليهنكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، لو تعلمون ما نجاكم الله منه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الأخيرة شر من الأولى، قال: ثم أقبل على وقال: يا أبا مويهبة هل

علمت أنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة وخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى فاخترت لقاء ربى والجنة؟. وفى رواية أنه ذهب بعد ذلك إلى شهداء أحد فصلى عليهم ورجع معصوب الرأس، أى: ابتداء مرضه.

ابتداء مرضه ﷺ

وكان مرضه فى أواخر شهر صفر، وكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يوما، وقيل: غير ذلك،وكان ابتداء مرضه يوم السبت، وقيل الاثنين فى بيت ميمونة أم المؤمنين رضى الله عنها، وقيل: فى بيت زينب بنت جحش رضى الله عنها وكان ينتقل فى بيوت زوجاته رضى الله عنهن على حسب ما كان فى صحته ثم استأذن أزواجه أن يمرض فى بيت عائشة رضى الله عنها. فأذن له، فخرج يتهادى بين العباس بن عبد المطلب، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما.

وجاء أن العباس ﷺ قال لعلى كرم الله وجهه: لا أرى رسول الله ﷺ يصح من مرضه هذا، فإنى أعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الوفاة.

وفى رواية خرج على بن أبى طالب كرم الله وجهه من عند رسول الله ﷺ وهو فى مرضه الذى توفى فيه فقال الناس: يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله ﷺ فقال: أصبح بحمد الله بارئا، فأخذ بيده عمه العباس رضى الله عنهما وقال له: والله أنت بعد ثلاث عبد العصى، وإنى لا أرى رسول الله ﷺ من وجعه هذا بعد ثلاث إلا ميتا فإنى رأيت فى وجهه ما كنت أعرفه فى وجوه بنى عبد المطلب عند الوفاة، فاذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فنسأله فيمن هذا الأمر، فإن كان فينا علمنا ذلك وإن كان فى غيرنا كلمناه فأوصى بنا، فقال على كرم الله وجهه: والله

لا أسألها رسول الله ﷺ.

وأمر ﷺ فى مرضه أبا بكر أن يصلى بالناس.

وفى رواية أن الأنصار ﵃ طافوا بالمسجد وأشفقوا من وفاته ﷺ، فدخل عليه الفضل ﵁ فأخبره بذلك، فخرج النبى ﷺ متوكئاً على علىّ والفضل والعباس أمامه، والنبى ﷺ معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر وثار الناس إليه، وخطب آخر خطبة له ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم، هل خلد نبى قبلى فيمن بعث إليه فأخلد فيكم؟ ألا وإنى لاحق بربى وإنكم لاحقون به، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصى المهاجرين فيما بينهم بخير، فإن الله يقول: ﴿والعصر إن الإنسان لفى خسر﴾ (السورة).

وإن الأمور تجرى بإذن الله ولا يحملكم استبطاء أمر على استعجاله، فإن الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد، ومن غالب الله غلبه، ومن خادع الله خدعه، فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم.

وأوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم الذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلكم، أن تحسنوا إليهم، ألم يشاطروكم فى الثمار؟ ألم يوسعوا لكم فى الديار؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم خصاصة؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقل من محسنهم، وليتجاوز عن مسيئهم، ألا ولا تستأثروا عليهم، ألا فإنى فرطكم وأنتم لاحقون بى، ألا وإن موعدكم الحوض، ألا فمن أحب أن يرده على غدا فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغى، يا أيها الناس إن الذنوب تغير النعم، فإذا بر الناس

برهم أئمتهم، وإذا فجر الناس عقوا أئمتهم.

ثم لا زال أبو بكر ﷺ يصلى بالناس سبع عشرة صلاة، وصلى النبى ﷺ مؤتماً به ركعة ثانية من صلاة الصبح، ثم قضى الركعة، أى: أتى بها منفرداً.

ولما كان يوم الاثنين خرج رسول الله ﷺ إلى الناس وهم يصلون الصبح فرفع الستر، وقام على باب عائشة رضى الله عنها فكاد المسلمون يقتتلون فى صلاقم برسول الله ﷺ حين رأوه فرحاً به، فأشار إليهم أن يثبتوا على صلاقم ثم رجع، وانصرف الناس وهم يرون أن رسول الله ﷺ قد أفاق فى وجعه، فرجع أبو بكر ﷺ إلى أهله بالسنح – بضواحى المدينة – عند زوجته حبيبة بنت خارجة ابن زيد الخزرجى رضى الله عنهما.

وتوفى رسول الله ﷺ حين اشتد الضحى من هذا اليوم.

وفى يوم الاثنين تمت مبايعة أبو بكر الصديق بالخلافة فى سقيفة بنى ساعده فى غيبة بنى هاشم الذين لاموا على الناس أنهم لم يشركوهم فى هذا الأمر، وليس اعتراضاً على أحقية أبى بكر الصديق ﷺ فى الخلافة.

الموت مفارقة وانتقال:

يجب أن نكون على بينة أن الموت معناه الانتقال من صورة إلى صورة وليس معناه العدم، فالانتقال هو خروج الحقيقة الروحانية من الهيكل المادى، ولا أقصد بالحقيقة الروحانية عالم الروح ولكنها الحقيقة الروحانية لكل إنسان منا والتى يكون الإنسان بها إنساناً بمعناه. والحقيقة الروحانية مكونة من هيكل نورانى فيه: العقل، والفكر، والوهم، والخيال، والحافظة، والذاكرة، والقلب

الروحانى المعنوى، والروح، والسر، والخفا، والأخفى، والنفخة القدسية.. كل هذا فى هيكل لطيف نورانى يعبر عن الحقيقة الروحانية، والحقيقة الروحانية لا يحس بها أحد عند الموت لأن شأنها السرية والخفاء، والهيكل هو الهيكل لم ينتقص منه شىء.

وعلى هذا.. فالموت حقيقة تعنى المفارقة من مكان للحضور فى مكان آخر. فعندما فارقت عالم الروح لتتحد حقيقتك الروحانية بالأمشاج فى عالم بطن الأم أعلن عن وفاتك هناك بانتقالك، ولما اكتمل وجودك فى عالم بطن أمك وهيأ الحق لحظة إخراجك وأتيت إلى دنياك أعلن فى عالم بطن أمك عن وفاتك، أى: انتقالك. وأنت هنا لا وجود لحقيقتك الروحانية ولا وجود لها أيضا فى عالم بطن الأم لكن وجودها الآن ثابت فى عالم الدنيا، وإذا أذن مولاك انتقلت حقيقتك من عالم الدنيا إلى العالم البرزخى الذى هو أول مترل من منازل الآخرة، وفيه تقوم قيامة العبد لقول النبى ﷺ: "من مات فقد قامت قيامته".

الاحتضار وألم الموت:

يظن كثير من الناس أن عزرائيل فقط هو الذى يترل لقبض الروح، ولكن عدد الملائكة لا يعد ولا يحصى، منهم ملائكة رحمة، ومنهم ملائكة نقمة وعذاب، وعلى رأسهم عزرائيل. بين لنا ربنا حالة الظالمين عند الاحتضار – أى عند معالجة الروح – فقال: ﴿ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾ (الأنعام: ٩٣). أما المؤمنون

الصادقون فقال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون﴾ (السجدة: ١١)٠ وقال: ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون * ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾ (الأنعام: ٦١،٦٢)٠

ومن أجل هذا يستعد المؤمن الموقن للحظة المفارقة – ولا أقول يستعد للحظة اللقاء لأنه وهو هنا على مسرح الحياة الدنيا كان يحظى بأنوار اللقاء ويحظى بأنوار رسول الله – بل ينتظر لحظة المفارقة التى ينطلق فيها من قيد الهيكل الحاجب إلى إطلاق الروح فى عالمها البرزخى ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ (الكهف: ١١٠)٠

ولا ألم فى موت أهل الصدق لأنه كله بشائر بالنسبة للمؤمن، والمحتضر تتنزل عليه ملائكة الرحمة والنعمة فيرى ما لا يراه الناظرون: ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ (ق: ٢٢)٠ يرى ملائكة الرحمة تجىء بالبشائر تحقيقا لقوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلا من غفور رحيم﴾ (فصلت: ٣٠-٣٢)٠ فلا خوف ولا فزع لأن اللقاء كله رحمة وبشائر تتلوها بشائر، فمن أين يأتيه الألم؟٠ والمؤمن عند دخوله الجنة يقول: ﴿الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾ (فاطر: ٣٤،٣٥)٠ إنه يفرح الفرح كله لما أعده الله من نعيم لأهل النعيم٠٠

نسأل الله أن يمتعنا بنعيم الطاعة، وأن يباعد بيننا وبين المعاصى كما باعد بين المشرق والمغرب.

للقوم عند حلول الموت أحوال تنوعت وهى أمثال وأشكال
فمنهمو من يرى الأسماء تطلبه ومنهمو من يرى الأملاك والحال
فى ذاك مختلف عند الوجود لما تقضى الحقائق والتفصيل إجمال
ومنهمو من يرى الأرسال مقبلة إليه تتحفه والرسل أعمال
ومنهمو من يرى التتريه يطلبه وهو الذى عنده التشبيه إضلال
وكلهم سعدوا والعين واحدة وعندهم فى جنان الخلد أشغال
هذا هو الحق لا تبغى به بدلا وهو الصحيح.. ما فيه إشكال

قصة كاذبة

وقد سرت فى مجتمعنا قصة لا سند لها من كتاب الله ولا تؤيدها سنة رسول الله ﷺ، تشرح وفاة سيدنا رسول الله ﷺ ومدى المعاناة والعذاب اللذان لقيهما عند الاحتضار، وقد نسبت هذه القصة كذبا وزورا وبهتانا إلى صحابى جليل - هو منها براء - وهو سيدنا معاذ بن جبل. وفى حقيقة الأمر أن واضع هذه القصة هم اليهود، والهدف إضافة إلى ما يريدوه من النيل من رسول الله ﷺ أن يكره المؤمن لقاء ربه، وأن لا يحب الجهاد فى سبيل كراهية للموت. وملخص القصة فى زعمهم أن عزرائيل نزل بأمر ربه وطرق باب بيت النبى واستأذن فأذن له. ولما دخل كانت السيدة فاطمة رضى الله عنها مع النبى فى نفس الحجرة (هكذا

تقول القصة) سلم على النبى ﷺ، فرد النبى ﷺ السلام، فسأل النبى عزرائيل لأنه كان متجسدا وظاهرا: أجئت زائرا أم جئت قابضا؟ فقال عزرائيل: إن شئت زائرا وإن شئت قابضا. وتقول القصة: إن رسول الله ﷺ قال له: أمهلنى إلى الغد!! وبعد خروجه سألت السيدة فاطمة أباها: من هذا يا أبتاه؟ فقال لها: هذا هادم اللذات، ومفرق الجماعات، وميتم البنين والبنات. جاء عزرائيل فى اليوم التالى، وتمدد رسول الله استعدادا للموت!! وبدأ عزرائيل فى قبض روحه، واشتد الألم فحضر جبريل. وواضع القصة يقول: إن النبى ﷺ سأله: يا أخى يا جبريل هل ستذوق أمتى الموت هكذا من بعدى؟ فقال له: بل أشد منك بإحدى وسبعين سكرة وغمرة!! وكل سكرة وغمرة أشد من سبعين ضربة بالسيف!! ويذكر واضع هذا الإفك والزور والبهتان أن النبى ﷺ قال: اللهم ثقله على وخففه على أمتى، ودعا النبى ﷺ ربه ألا يأتى عزرائيل ظاهرا لأحد من الأمة بعد ذلك!!

إن عزرائيل ليس له سلطان على رسول الله ﷺ فى قبض روحه، لأن الذى يقبض روحه هو الله وحده فهذا مقامه، حتى أن عباد الله الصالحين يكرمهم سبحانه أيضا بقبض أرواحهم بيمنى جماله – وفى وجود عزرائيل والملائكة الموكلون بالموت – وهذا شرف للعبد.

(أسألك يا الله أن تعمنى عند وفاتى بهاطل فضلك وعميم جودك وواسع عفوك حتى أفارق الدنيا وأنا مجمل بأجمل الأخلاق وأحب الأعمال إليك، وأن تتول قبض روحى بيمينك، مع التفضل على بمشاهدة جمالك حتى يعلون كمال الهيام والشوق.. فيحجب عنى سكرات الموت فأخرج من الدنيا والها

هائمـــا مشوقا لمشاهدة وجهك الكريم، مجملا بالقبول والاقبال. . يا الله).

تجهيز رسول الله ﷺ

وفى يوم الثلاثاء – بعد انتهاء بيعة الصديــق رضي الله عنه – قــاموا إلى رســول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصه، وفى لفظ وعليه قميص ومجول مفتوح يصبون عليه المـــاء ويدلكونه والقميص دون أيديهم على كرم الله وجهه، والعباس وولدى العبـاس الفضل وقثم رضي الله عنهم، فكان العباس وولداه الفضل وقثم يقلبونه مع على، وفى لفـظ غسله على والفضل محتضنه والعباس يصب الماء، وفى لفظ وصـــالح مـــولاه ﷺ يصبان الماء. ولف على كرم الله وجهه على يده خرقة وأدخلها تحت القميـص يغسل بها جسده الشريف.

وتغسيل على كرم الله وجهه له ﷺ كان بوصية منه ﷺ، فعن علـــى كــرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ أوصى أن لا يغسله أحد غيرى، وقال: لا يرى أحــــد عورتى إلا طمست عيناه غيرك، أى: على.

وغسل ثلاث غسلات: واحدة بالماء القراح، وواحدة بالماء والسدر، وواحــدة بالماء مع الكافور، وغسل من ماء بئر غرس وهى بئر بقباء لسعد بن خيثمـــة، وكفن ﷺ بثلاثة أثواب بيض من القطن، ثم احتملوه حتى وضعوه على ســرير وسجوه، ثم وضع على شفير حفرته، ثم صار الناس يدخلون عليه رفقاء رفقاء لا يؤمهم أحد، وذكر أنه كانوا يصلون عليه فرادى، أى: بــدون إمــام، دخــل الرجال حتى إذا فرغوا، أدخل النساء، حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيــان و لم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد.

ثم دفن رسول الله ﷺ فى حجرة عائشة شرقى مسجده فى الزاوية الغربية القبلية من الحجرة، فى وسط الليل ليلة الأربعاء، أى: بعد أن حفر روضته ﷺ أبو طلحة ابن سهل الأنصارى رضي الله عنه.

وكان الذين نزلوا فى روضة النبى ﷺ على بن أبى طالب والفضل بن عباس، وقثم بن عباس وهو آخر الناس به ﷺ عهدا،، وشقران مولى رسول الله ﷺ.

وقد قال أوس بن خولى لعلى بن أبى طالب: يا على أنشدك الله وحظنا من رسول الله ﷺ فقال له: انزل، فترل مع القوم. كان مولاه شقران حين وضع رسول الله ﷺ فى حفرته وبنى عليه قد أخذ قطيفة – كان رسول الله ﷺ يلبسها ويفترشها – فقذفها فى روضته ﷺ، وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك أبدا، فدفنت مع رسول الله ﷺ.

عن عائشة قالت: كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أنه قال: لا يترك بجزيرة العرب دينان.

قالت: وتوفى رسول الله ﷺ يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة من شهر ربيع الأول، فى اليوم الذى قدم فيه المدينة مهاجرا، فاستكمل فى هجرته عشر سنين كوامل.

ومبلغ سنه يوم انتقاله ﷺ ثلاث وستون سنة.

الخـــــاتمـــة

هذا ما يسره الله من سيرة الرسول الكريم ﷺ، اللهم إنك أوجبت علينا فى محكم كتابك أن نصلى ونسلم على حبيبك المصطفى ﷺ بعد أن علمتنا سبحانك أنك صليت عليه ﷺ وصلت عليه الملائكة المقربون، فلبيك اللهم ربنا وسعديك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

أسألك اللهم أن تصلى وتسلم وتبارك على ذات حبيبك ومصطفاك، قبضة نورك ومجتباك، نورك الدال بقوله وعمله وحاله على حقيقة التوحيد، وكمال التنزيه والتفريد، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وورثته، صلاة تمن بها علينا بواسع إحسانك، وعميم إكرامك، وهاطل برك، وتجعل لنا بها نورا فى قلوبنا، وفى أبصارنا، وأسماعنا، وأعضائنا، صلاة تشرح بها صدورنا، وتوسع بها أرزاقنا، وتعزنا بها يا عزيز، وامنحنا يا إلهى جمال إقبالك علينا، حتى نتحقق بكمال الرضا عنك.

أللهم إنى أشكرك مستزيدا نعماك وإحسانك وفضلك وكرمك وجودك وبرك، ولك الحمد يا إلهى حمدا لذاتك الأحدية على ما أوليت من الفضل، وما مننت به من العناية والمعونة والجود، حمدا أستجدى به أن تمن على بالحب الخالص لذاتك، وحسن التوكل على جنابك، وحقيقة التفويض لحضرتك يارب العالمين، وحسن الثقة بجنابك العلى. وأسأل به يا إلهى أن تجعل لى نورا فى قلبى وفى سمعى وبصرى وشمى وذوقى، وفى ظاهرى وباطنى تستبين لى به سبل الوصول إلى حضرتك المقدسة، وتظهر لى به آياتك المنبئة بمكنون أسرارك الدالة على أحدية

ذاتك وكمالاتها. وأسألك أن تشرح صدرى للإسلام شرحا تمنحنى به النشاط والمسارعة فيما تحب، والشجاعة على القيام بما تحب وتجملنى بالسخاء الذى تحبه حتى أكون مجملا بما تحبه من الصفات، ومن على يا إلهى بالفضل العظيم الذى هو حبك لى، وحققنى بكمال الأدب لحضرتك، وصحة الإنابة إليك يارب العالمين، واجعلنى يا إلهى من التوابين المتطهرين، وأعنى يا إلهى بمعونتك الربانية وعنايتك الإلهية حتى أكون منشرح الصدر، ميسر الأمر، موسعا على فى رزقى، معظما فى عيون عبادك، وأكرم يا إلهى أهلى وأولادى وإخوانى بالتوفيق والهداية والخير والحفظ والسلامة والكرامة فى الدنيا والآخرة.. يارب العالمين.

رب أعذنى من الشياطين، وأعذنى ربى من أن يحضرون، وأدم عنايتك على وعلى أهلى وإخوانى وأصحابى فى كل أحوالنا سفرا وحضرا وحلا وترحالا، واجمعنا يا إلهى فى حصون سترك وتحت كنفك، بفضل وإحسان المنعم المتفضل الولى الكريم الحنان المنان الشافى المعافى، يا ذا الفضل والطول والحول والعزة والجلال والإكرام. رب أتوسل إليك باضطرارى وفاقتى واحتياجى وعيلتى، وبجاه حبيبك المصطفى ﷺ أن تجعلنى وأهلى وأولادى وإخوانى بأعينك الجميلة ممن سبقت لهم الحسنى، وأعزنا بك يا عزيز، وحصنا باتباع سنة حبيبك ﷺ والعمل بكتابك سبحانك، وامنحنا المزيد فى كل نفس من الإيمان واليقين حتى نكون يا إلهى من الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، وممن أكرمتهم بفضلك العظيم ياذا الفضل العظيم ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين﴾ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.. آمين.